

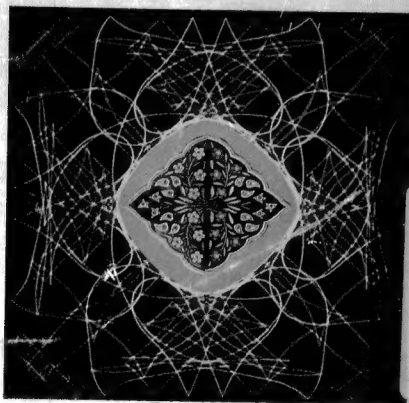


التراث

لكنائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري



الهيئة المصرية العامة للكتاب

قدّم له وحققه وعلّق عليه

د/ إبراهيم بسيوني

لَطَائِفُ الْإِشَارَاتِ

تفسير جوهري هَامِلٌ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لِلْإِمَامِ الْقَشِيرِيِّ

الْمَجْلَدُ الثَّلَاثُ

الطبعة الثالثة

قدّم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التوثيق

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرخان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة علي أحمد

الغلاف

جمال قطب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« طس تلك آيات القرآن وكتابه مبين »

... تلك دلالاتُ كَرَمِنَا ، وأماراتُ فَضْلِنَا ، وشواهدُ بَرِّئِنَا ؛
 نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنَا ، ونُحَقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنَا .
 بطهارة قُدْسِي وسناء عِزِّي لا أخيب أَمَلَ مَنْ أَمَلَ لُطْفِي ،
 بوجود يرعى تطيب قلوب أوليائِي ، وبشهود وجهي تضيئ
 أسرار أصفائِي .

طَلَبُ القاصدين مُقَابِلُ بَلْعِي ، وَسَمْعُ العاملين مَشْكُورٌ بِعَطْفِي .
 هذا الكتابُ بيانٌ وشفاء ، ونور وضياء ، وبشرى ودليل
 لِمَنْ حَقَّقْنَا لَهُ الإِيمَانَ ، وَأَكْدَيْنَا لَهُ الضَّمَانَ ، وَكَفَلْنَا لَهُ الإِحْسَانَ »

عبد الكريم القشيري

عند سورة النمل

السورة التي يذكر فيها الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله اسم عزيز يرتقى من الزاهد ترك دنياه ، ومن العابد غفلة هواه ، ومن التاخذ قطع مناه ، ولا يرضى من العارف أن يساكن شيئاً غير مولاه . إن خرج عن كل مرسوم — بالكلمة ، وانسلخ عن كل معلوم — من غير أن تبقى له منه بقية فلم يجد شظية . وإن خرج على شيء ، ولم يصف من السكودرات — حتى عن سيرها — وإن دق — فإنه كما في الخبر : « المُكَّانِبُ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عليه حرم » .

قوله جل ذكره : « طسم » تلك آيات الكتاب المبين

ذكرنا فيما مضى اختلاف التفسير في الحروف المقطعة ؛ فند قوم : الطاء إشارة إلى طهارة عزه وتقدس علوه ، والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته ، والميم دلالة على مجد جلاله في آزاله .

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى ، والسين إلى سِدْرَةِ الْمُنتهى ، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أى ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بلغ سدرة المنتهى ، فلم يساكن شيئاً من المخلوقات في الدنيا والآخرة^(١) .

(١) أورد البشيرى في كتابه « المراج » طائفة كبيرة من الأخبار تفهم منها أن الرسول صلوات الله عليه وسلّم لم يتطلع إلى شيء ما رأى من عجائب المخلوقات ومظالم النعم في تلك الليلة ، بل كان خالماً انغمس في الحق ، وبعبارة صوفية دقيقة : كان قائماً بمحفوظه ، فما زاغ البصر وما طغى . وفي ذلك يقول روم : « ولا أكرم المصطفى (ص) بأعظم الشرف في المسرى حلت منه من الالتفات إلى الآيات والكرامات ، والجملة والشار ، فما زاغ البصر ؛ أى ما أمار طرفه شيئاً من الأكوان ، ومن شاهد البحر استغل الأنهار والأودية . (المراج ص ١١٢)

ويقول البشيرى في ص ١٠٢ من الكتاب نفسه : يروى في الخبر أنه « لما ركب البراق لم يبرح على شيء » .

وقال العلاء طَرَبُ أَرْهَابِ الوصلة على بساط القرب بوجودان كمال الروح ، والسين سرورُ
العارفين بما كوشفوا به من بناء الأودية باستقلالهم بوجوده^(١) واللمح إشارة إلى مواهبهم لله
بتركِ التخلي عن الله ، وحسن الرضا باختيار الحق لم .

ويقال الطاء إشارة إلى طيب قلوب القراء عند قد الأسباب لكمال العيش بمعرفة وجود
الرزاق بذل طيب قلوب العوام بوجود الأرفاق والأرزاق .

ويقال الطاء إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد ، والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن
مساكنة كل غلوق ، واللمح إشارة إلى مئة الحق عليهم بذلك .

قوله جل ذكره : « لَمَلَكٌ باخِعٌ شَتَكٌ أَلَا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ » .

أى لِحَرَمِكَ على إيمانهم ولإشفاقِكَ من امتناعهم عن الإيمان فانت قريبٌ مِنْ أَنْ
تَقْتَلَ نَفْسَكَ مِنَ الْأَسَفِ عَلَى تَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ .

فلا عليك — يا محمد — فإنه لا تبديل لحكمنا ؛ فَمَنْ حَكَمْنَا لَهُ بِالْقَوْلَةِ لَا يُؤْمِنُ .
ليس عليك إلا البلاغ ؛ فَإِنْ آمَنُوا فِيهَا ، وَإِلَّا فَكُلُّهُمْ^(٢) سَيَرُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَا يَسْتَحِقُّونَ .

قوله جل ذكره : « إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ » .

أخبر عن قدرته على تحصيل مراده من عباده ، فهو قادرٌ عَلَى أَنْ يُؤْمِنُوا كَرَهًا ؛ لِأَنَّ
التَّضَامُرَ عَنْ تَحْصِيلِ الْمُرَادِ يُوْجِبُ النِّقْصَ وَالتَّصَوُّرَ فِي الْأُلُوهِيَةِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ
مُحَدِّثِينَ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » .

== كان يُتَكَلَّمُ مِنْ بَيْنِهِ وَمِنْ بَيْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : الَّذِي نَادَاكَ مِنْ بَيْنِكَ دَاعِيَ الْيَهُودِيَّةِ ، وَالَّذِي
نَادَاكَ مِنْ بَيْنِكَ دَاعِيَ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَلَوْ تَلَقَّيْتَ يَا عِيسَى لَهُودًا أَوْ نَصْرَانِيَّةً أَمْسَكَ .

(١) استغل الشيء ، وآذ قليلا واستغل بالشيء لم يشغل بسواه اكشاه به .

(٢) السياق مقبول على هذا النحو ، ولكننا لا نشهد أن يكون هناك سقوط لكثرة « ما » ، وعندنا يكون

السياق وفكرتهم لنا ؛ :

أى ما تُجَدِّدْ لَمْ تَسْرَعَا ، وما نرسل لَمْ رَسُولًا .. إلا أعرضوا عن تأمل برهانه ،
 وقابلوه بالكذب . فلو أنهم أنصتوا للنظر في آيات الرسل لأتضح لَمْ حِدْثُهُمْ ، ولكن
 المقصود لَمْ من الخذلان في سابق الحكم بينهم من الإيمان والتصديق . قد كذبوا ، وعلى
 تكذيبهم أَصْرُوا ، فسوف تأتيتهم عاقبة أعمالهم بالقوبة الشديدة ، فيذوقون وبالَ شِرْكِهِمْ .
 قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَغْنَا
 فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

فنونٌ ما بنيت في الأرض وقت الربيع لا يأتي عليه الحصرُ ، ثم اختصاص كل شيء
 منها بلون وطعم ورائحة مخصوصة ، ولكل شكلٍ وهيئةٍ وتوزعٍ مخصوص ، وورق
 مخصوص ... إلى ما تَلَطَّفُ عنه العبارة ، وتَدِقُ فيه الإشارة . وفي ذلك آياتٌ لِمَنْ
 استبصر ، ونظَّرَ وَفَكَّرَ .

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » : القاهرُ الذي لا يُقهر ، القادر الذي لا يُقَدَّر ، للنجى الذي لا يُنجى .
 « الرحمن » : المحسنُ لعباده ، المريدُ لسعادة أوليائه .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَنَبَّؤُونَ » .

أخبر أنه لا أمره بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله عَلمَ أنه شديد الخصومة ، قد
 غَرِمَتْهُ نَفْسُهُ فهو لا يزال بما فعل . وَأَخَذَ (موسى) ^(١) يَمْلَأُ — لا على جهة الإيابة
 والحالفة — ولكن على وجه الاستفهام والإفالة إلى أن عَلمَ أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ جَزَمَ ، وَالْحُكْمَ
 بِهِ عَلَيْهِ حَتَمَ .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَكِّدُونِ *
 وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَمْلِكُ لِسانِي فَأَرْسِلْ

(١) ليست موجودة في النص وقد وضعناها بين قوسين متناً قبل .

إلى هارون • ولم على ذنب فأخاف
أن يقتلوني » .

سأل موسى — عليه السلام — أن يشفعه بهارون ويشركه في الرسالة . وأخبر أنه
قَتَلَ نَفْسًا ، وأنه في حُكْمِ فرعون عليه دَمٌ ، فقال : « فأخاف أن يقتلون » إلى أن قال
له الحق : —

« قال كَلَّا فاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ » .

« كَلَّا » حرفُ رَدٍّ ونفيه ؛ أى كَلَّا أن يكون ذلك كما توهمت ، فارتدع عن
تجوير ذلك ، واتق به لغيره . إني ممكنا بالصرّة والثبوت والكفاية والرحمة ، واليدُ ستكون
لكما ، والسلطانُ سيكون لكما دون غيركما ، فأنا أسمع ما تقولون وما يقال لكم ، وأبصرُ
ما يُبصرون وما يُبصرون أتم .

قوله جل ذكره : « فَأْتِيَا فرعونَ فَقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
العالمين » .

ويقال في القصة : إن موسى وهارون كانا يترددان على باب فرعون سنةً كاملةً ولم يجدوا
طريقاً إليه . ثم بعد سنةٍ عَرَضَ الرسالة عليه ، فقابلهما بالكذب ، وكان من القصة ما كان ..
وقال فرعون لنا رأى موسى :

« قال أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَلِكِ
سِنِينَ • وَفُضِّلْتَ فَضْلَتِكَ الَّتِي فَضَّلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ »

فلم يكن لموسى — عليه السلام — جوابٌ إلا الإقرار والاعتراف ، فقال :

« قال فَضْلَتُهَا إِنَّا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ • فَهَرَّتْ مِنْكَ لَنَا
خِشْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ »

قال : كل ذلك قد كان ، وهَرَّتْ مِنْكَ لَنَا خِشْتُكُمْ ، فأكرمني الله بالنبوة ، وببني
رسولاً إليكم ..

ويقال : لم يجد حق تربيته ، والإحسان إليه في الظاهر ، ولكن بين أنه إذا أمر الله بشيء وجب اتباع أمره . ولكن إذا كانت تربية المظروفين توجب حقاً تربية الله أولاً بأن يعظم المبدأ قدرها^(١) .

قوله : « قررت منكم لا خفتكم » : يجوز حملُه على ظاهره ، وأنه خاف منهم على نفسه . والقرار - عند عدم الطاعة - غير مذموم عند كل أحد^(٢) .

ويقال : فرت منكم لما خفت أن نزل بكم عقوبة من الله لثؤم شريككم ، أو من قول فرعون : « ما علمت لكم من الله غيري »^(٣) .

قوله جل ذكره : « تلك نعمة نسأها على أن عبّدت

بنى إسرائيل »

ذكر فرعون — من جملة ما عدّ على موسى من وجوه الإحسان إليه — أنه استعياه بين بنى إسرائيل ، ودفع عنه القتل ، قال موسى : أو تلك نعمة تمنها عليّ ؟ هل استعبادك لبنى إسرائيل بعد نعمة ؟ إن ذلك ليس بنعمة ، ولا لك فيها منة^(٤) .

قوله جل ذكره : « قال فرعون وما ربّ المالين ؟ »

نظر اللعين بجهله ، وسأل على النحو الذي يليق بفيه ، فأل بلفظ « ما » — و « ما » يستخير بها عما لا يقبل ، قال : « وما ربّ المالين ؟ » .

ولكن موسى أعرض عن لفظه ومتعناه ، وأخبر عما يصحّ في وصفه فقال :

« قال ربّ السموات والأرض

وما بينهما إن كنتم موقنين . »

(١) هذه إشارة إلى قيمة تربية الشيوخ بالقياس إلى تربية اللواتين ، فالوالدان يريان الأشباح والشيوخ يربون الأرواح .

(٢) ننظر كيف فر القشيري نفسه من المشرق الإسلامي عندما أحدثت به الأخطار ، ومدد للسلطان الجائر حياته وحقيقته ، فلم تأن قناته ، وهرب ببقية إلى حيث يسلم هو ورقاته (أنظر مدخل الكتاب) .

(٣) آية ٣٨ سورة القصص .

(٤) لأن نعيمهم وذبح أبنائهم حاصلها حصوله عنه وتربيته له ، ولو تركهم لرأه أبواه شأن أي طفل .. فليس هنا نعمة ولا منة ، لأن المقصد كان إذلان أهله لا الإحسان إليهم أو إليه .

فَلَذَكَّرْ صَفَتَهُ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — بِأَنَّهُ إِلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَأَخَذَ
فِي الصَّبَبِ ، وَقَالَ :

« قَالَ لِيِنَّ حَوَالَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ؟ » قَالَ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

قال موسى : « ربكم ورب آبائكم الأولين » غَادَ فِرْعَوْنُ عَنْ سَنَنِ الْإِسْقَامَةِ فِي الْخَطَابِ ،
وَأَخَذَ فِي السَّفَاهَةِ قَائِلًا :

« قَالَ إِنْ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ
إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ » .

لأنه^(١) يزعم أنَّ هناك إلهًا غيره . ولم يكن في شيء مما يجري من موسى - عليه السلام -
أو مما يصلُّق به وصفُ جنونٍ . ولم يُشْغَلْ بِمُجَابَاةِ فِي السَّفَاهَةِ قَالَ :

« قَالَ رَبُّ لِّلشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَيَّ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ جِلَّةِ مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَتَمْيِيزٌ . قَالَ فِرْعَوْنُ :

« قَالَ لِيِنَّ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَجْنُونِينَ » .

مضى فِرْعَوْنُ يَقُولُ : لِأَفْضَلُنَّ ، وَلِأَحْسَنُنَّ ... إِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي . وَجَرَى مَا جَرَى
فِي كُتُبِهِ وَشَرَحَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

ثم إنه أظهر مميزته بإلقاء العصا ، وَقَلَّبَهَا - سُبْحَانَهُ - ثَمَانًا كَادَ يَلْتَمِ دَارُ فِرْعَوْنَ مِنْ فِيهَا ،
وَوَسَّيَ فِرْعَوْنُ هَارِبًا ، وَاخْتَفَى تَحْتَ سُرُورِهِ ، وَهُوَ يَنْقُضُ مِنَ الْخُوفِ ، وَتَلَطَّحَتْ بِرِزْقِهِ^(٢) ،
وَاتَضَعُ فِي دَعْوَاهُ ، وَاتَضَعَتْ حَالَتَهُ ، فَاسْتَنَافَتْ بِمُوسَى وَاسْتَجَارَهُ ، وَأَخَذَ مُوسَى الثَّمَانُ فَرَدَّهُ
إِلَهُ هَمًّا .

(١) أَيَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) اللَّيْزَةُ - الْهَيْئَةُ أَوْ الْفَارَةُ .

ولمَّا فَارَقَهُ مُوسَى - عليه السلام - تَذَارَكَهُ الشَّقَاوَةُ ، وَأَدْرَكَهُ شَوْمُ الْكَفْرِ . وَاسْتَبَدَّ
عليه الحرمانُ ، فَجَمَعَ قَوْمَهُ وَكَلَّمَهُمْ فِي أَمْرِهِ ، وَأَجْمَعُوا كُلَّهُمْ عَلَى أَنَّهُ سَخَرَهُمْ . وَهَذَا ظَهَرَ تِلْكَ
الآيَةَ عَادَ إِلَى غِيَّهِ .. كَمَا قِيلَ :

إِذَا ارْعَوْى عَادَ إِلَى جَبَلِهِ كَذَى الضُّىَّ عَادَ إِلَى نُكْبِهِ

ثُمَّ إِنَّهُ جَمَعَ السَّحَرَةَ ، وَاسْتَعَانَ بِهِمْ ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالُوا : « إِنَّا لَنَا لِأَجْرٍ » . فَطَقُوا
بِخَاسَةِ هِمَّتِهِمْ ، فَضَمَّنَ لَهُمْ أَجْرَهُمْ . وَإِنْ مَنْ يَعْمَلُ لِنَفْسِهِ بِأَجْرَةٍ لَيْسَ كَمَنْ يَكُونُ عَلَيْهِ اللَّهُ .
وَمَنْ لَا يَكُونُ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا بَنَانُ الْجَمَلَةِ وَبَذَلُ الرِّشَاءِ فَعَنْ قَرِيبٍ سَيُخَذَّلُ .

قوله جل ذكره : « قَالِ نِمْ وَإِنكُمْ إِذَا لِمَنِ الْقَرِيبِينَ » .

قَالَ فِرْعَوْنُ : « وَإِنكُمْ إِذَا لِمَنِ الْقَرِيبِينَ » ، وَهَذَا طَلَبُ الْقَرِيبَةِ عِنْدَ مَخْلُوقٍ فَإِنْ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ
مِنَ الْفُتْلِ يَزِيدُ عَلَى مَا أَمَّلَهُ مِنَ الْبِرِّ فِي ذَلِكَ التَّقَرُّبِ . وَالْمُقَرَّبُونَ مِنَ اللَّهِ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ لَمْ يَصُولْ . وَالثَّقَرَبُونَ مِنَ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ دَخَلَةٌ ، وَالنَّاسُ يُوصَفُ
الْفُتْلَةُ وَالْخُلُقُ فِي أَسْرِ الْحَبِيبَةِ .

ثُمَّ لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ ، وَجَاءَ السَّحَرَةُ بِمَا مَوَّهُوا ، التَّقَمَّتْ عَصَا مُوسَى جَمِيعَ مَا أَتَوْا بِهِ ،
وَعَادَتْ عَصَا ، وَتَلَاشَتْ أَعْيَانُ حِبَالِهِمْ^(١) الَّتِي جَاءُوا بِهَا ، وَكَانَتْ أَوْقَارًا ، وَالْثَّقَى الْحَرَّةُ
سُجْدًا ، وَلَمْ يَخْتَلُوا^(٢) بِتَهْدِيدِ فِرْعَوْنَ إِيْلَهُمْ بِالْقَتْلِ وَالصَّبِّ وَالْقَطْعِ ، فَاصْبَحُوا وَهُمْ يَقْسِمُونَ
بِرِزَّةِ فِرْعَوْنَ ، وَلَمْ يَحْسَبُوا حَتَّى كَانُوا يَقُولُونَ : « لَنْ تَوْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ^(٣) » .

ثُمَّ لَمَّا سَاعَدَهُمُ التَّوْفِيقُ ، وَأَمَنُوا بِاللَّهِ كَانَتْ أُمَمٌ أَمُورُهُمُ الْاسْتِفْهَارُ لِمَا سَلَفَ مِنْ ذَوْبِهِمْ ،
وَهَذِهِ هِيَ غَايَةُ هِمَّةِ الْأَوْلِيَاءِ ، أَنْ يَسْتَجِيرُوا بِاللَّهِ ، وَأَنْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ ، فَأَعَزَّهُمُ اللَّهُ
أَخَوْتَهُمْ مِنَ اللَّهِ .

(١) يَصِلُ ذَلِكَ بِرَأْيِ الْقَشِيرِيِّ فِي الْمَعْجَزَةِ وَأَنَّهَا تَكُونُ قَلْبُ الْأَعْيَانِ ، أَمَا كِرَامَةُ الدُّلَى فَهِيَ لَا تَكُونُ كَذَلِكَ ،
وَمِنْ مَعْنَى ذَلِكَ مَصْلَةُ بَنَى الْأُمَّةِ الَّتِي يَتَّبِعُهَا هَذَا الدُّلَى .

(٢) وَرَدَتْ (يَخْتَلُوا) وَالسِّيَاقُ يُرْفِقُهَا وَيُؤَيِّدُ (يَخْتَلُوا) كَمَا هُوَ وَاسِعٌ .

(٣) آيَةُ ٧٢ سُورَةِ طه .

وَيُقْصَدُ الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنْ يَوْضَحَ أَنَّ الْعَبْدَ بِالْخَوَاتِمِ ، وَهُوَ يَهْلِكُ - بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشَرٍ - عَلَى التَّوْبَةِ ،
وَعَدَمِ الْقِتْوَطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

وَلَمَّا أَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِإِخْرَاجِ بْنِ إِسْرَائِيلَ ، وَتَبِعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجَمْعِهِ ، وَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى -

« فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى

إِنَّا لَنَكْذُرُكَ نُونٌ • قَالَ : كَلَّا

إِنْ مَعِيَ رَبٌّ سَيُهْلِكُ » •

فَكَانَ كَمَا قَالَ ، إِذْ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأَتَاهُمُ ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمَهُ أَهْصَامَ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ^(١) : يُتَّبِعُهُمْ مِنْ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَيُخَصِّمُهُمْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ •

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ » إِذْ قَالَ

لَأُيَهِ وَقَوْمَهُ مَا تَعْبُدُونَ • قَالُوا نَعْبُدُ

أَصْنَامًا فَتَنْظِلْ لَهَا عِائِدِينَ • قَالَ هَلْ

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ؟ • أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ

أَوْ يُضَرُّونَ ؟ • قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا

كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ •

عَاتِبَ ^(٢) إِبْرَاهِيمُ آبَاءَهُ وَقَوْمَهُ ، وَطَالَبَهُمْ بِالْحُجَّةِ عَلَى مَا عَلَيْهِمْ بِهِ وَقَالَ لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ؟ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَا يُخَسِّسُ وَلَا يُشْفِئُ ؟ فَلَمْ يَرْجِعُوا فِي الْجَوَابِ إِلَّا إِلَى تَقْلِيدِ أَسْلَافِهِمْ ، وَقَالُوا :

عَلَى هَذِهِ الْجِلَّةِ وَجَدْنَا أَسْلَافَنَا • فَنُطِيقُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بِعِدِّ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَالْإِخْبَارِ عَنْ قَبِيحِ صَنِيعِهِمْ بِمَذْحِ مَوْلَاهُ وَالْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ ، وَقَالَ :

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ •

أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ • فَتَهُمُ عِدُوِّي

إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ » •

(١) آيَةُ ٣٦ سُورَةِ النُّحُوتِ .

(٢) رُبَّمَا كَانَتْ (عَاتِبَ) بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَ تَقْلِيلِ (عَلَى مَا عَلَيْهِمْ) ، لَكِنْ لِسَبَاقِ يَلْتَمِسُ ؛ (عَاتِبَ) أَكْثَرُ ، إِذِ الْعَاتِبُ أَلْيَقُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَبِ ، كَذَلِكَ فَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ أَنَّ آبَاءَهُ لَمْ يَكُونُوا .

ذَكَرَهُمْ بِأَقْلٍ عِبَارَةً فَلَمْ يَقُلْ : فَلَيْتَهُمْ أَعْدَاءُ لِي ، بَلْ وَصَّيْتَهُمْ بِالْمَصْدَرِ الَّذِي يَصْلَحُ أَنْ يَوْصَفَ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمَاعَةُ قَالَ : « فَلَيْتَهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

ثم قال : « يَا رَبِّهِ الدِّينِ » ، وهذا استثناء منقطع ، وكأنه يضرب بلطفٍ عن ذِكْرِهِمْ صَفْحًا حَتَّى يَتَوَصَّلَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَخَذَ فِي شَرْحِ وَصْفِهِ كَأَنَّهُ لَا يَكْدُ يَسْكُتُ ، إِذْ مَضَى يَقُولُ : وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. وَالَّذِي .. ، وَمِنْ أَمَارَاتِ الْحُبِّ كَثْرَةُ ذِكْرِ مَحْبُوبِكَ ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ ، فَتَسْرُةُ الْحَبِيبِ بِتَقْلِيمِهِ فِي رِیَاضِ ذِكْرِ مَحْبُوبِهِمْ ، وَالزَّهَادُ بِمَدْحِ أَوْلَادِهِمْ ، وَأَرْهَابُ الْخَوَافِ بِمَدْحِ مَآرِبِهِمْ ، فَيُعْلِنُونَ فِي دَعَائِهِمْ ، وَالْحُبُّونَ يُسَبِّحُونَ فِي الثَّنَاءِ عَلَى مَحْبُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ » .

كَانَ مُهْتَدِيًا ، وَلَكِنَّهُ يَقْصِدُ بِالْمُهْدَايَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فَيَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ الْوَقْتِ ، أَيْ : يَهْدِينِي إِلَيْهِ بِهِ ، فَلَيْتَنِي مَحَقٌّ فِي وَجُودِهِ وَلَيْسَ لِي خَيْرٌ عَنِّي ١ .

وَالْتَوَمُّ حِينَ يَكُونُونَ مُسْتَعْرِقِينَ فِي شَوْسِهِمْ لَا يَهْتَدُونَ مِنْ شَوْسِهِمْ إِلَى مَعْبُودِهِمْ ، فَيَهْدِيهِمْ عَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَيَصِيرُونَ فِي نَهَائِهِمْ مُسْتَهْلِكِينَ فِي وَجُودِهِ ، فَآتِينَ عَنْ أَوْصَانِهِمْ ، وَتَصِيرُ مَعَارِفُهُمْ - الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ - وَاهِيَةً ضَعِيفَةً ، فَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » .

لَمْ يُشِيرْ إِلَى طَعَامٍ مَعْبُودٍ أَوْ شَرَابٍ مَأْلُوفٍ وَلَكِنْ أَشَارَ إِلَى اسْتِقْلَالِهِ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْرِفَةُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِطَعَامِهِمْ ، وَإِلَى شَرَابِ مَحَبَّتِهِ الَّتِي يَقُومُ بِدَلِّ اسْتِقْلَالِ غَيْرِهِ بِشَرَابِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّا مَرَّضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » .

لَمْ يَقُلْ : وَإِنَّا أَمْرَضْنِي لِأَنَّهُ حَفِظَ أَدَبَ الْإِطْلَافِ .

(١) يشرح القشيري قول الراسل : لا تصح المعرفة ونى إليه استثناء باقة وانقطاع . فيقول : أَرَادَ الرَّاسِلُ بِهَذَا أَنَّ الْإِغْتِنَاءَ وَالْإِسْتِغْنَاءَ مِنْ أَمَارَاتِ مَحَبَّتِهِ وَبِقَاءِ رُسُومِهِمَا مِنْ صِفَاتِهِ . (الرسالة ص ١٥٥) ١٠ لَوْ قَدْ كُنْتُ : عَرَفْتُ رَبِّي وَلَوْلَا رَبِّي مَا عَرَفْتُ رَبِّي (الرسالة ص ١٥٦) .

ويقال لم يكن ذلك مرضاً معلوماً ، ولكنه أراد تمارضاً ، كما يتأرض الأحابُ طمعاً
في العيادة ، قال بعضهم :

إِنْ كَانَ يَمْنُكَ الْوَشَاءُ زِيَارَتِي فَادْخُلْ عَلَيَّ بِسَلَّةِ السُّوَادِ
ويقول آخر :

يَوَدُّ بَأَنِّ يَمْشِي سَقِيّاً لَمَلْهَا إِذَا مَيَّتَ مِنْهُ بِشَكْوَى تُرَايُهُ
ويقال ذلك الشغلة التي أشار إليه الخليلُ هو أن يَبْمَتَ إليه جبريلُ ويقول له : يقول
لَكَ مولاك ... كيف كنت البارحة ؟

ترجمه جل ذكره : « والذى يُبَيِّنُنِي نِمَّ يُحْيِينِي »
أضاف الموت إلى الله ؛ فالوَتُ فوق المرض ؛ لأن الموت لهم غنمةٌ ونعمةٌ ؛ إذ يَصِلُونَ
إِلَيْهِ^(١) بأرواحهم .

ويقال « يَمَيَّنِي » يعرضه عني وقتَ تَمَرُّزِهِ ، « ويمَيِّنِي » يُقَابِلُهُ عَلَيَّ حِينَ تَقْضِيهِ . ويقال
يَتَيَّنِي عَنِّي ويمَيِّنِي بِهِ .

قوله جل ذكره : « والذى أطلعُ أنْ يَغْفَرَ لِي خَطِيئَتِي
يَوْمَ الدِّينِ »

خطيئةُ الأحابِ نهودُهم مَحْتَمَةٌ ، وَتَمَنِّيهم عند شدةِ البلاءِ عليهم ، وشكواهم مما يُمَسِّهم
من برحاءِ الأشقياء ، قال بعضهم :

وَإِذَا مَحَسَنَى - اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا - كَانَتْ ذُنُوبِي ... قُلْ لِي : كَيْفَ أَعْتَذِرُ ؟

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْجِئْنِي
بِالصَّالِحِينَ » .

« هَبْ لِي حِكْماً » : عَلَى نَفْسِي ، فَإِنَّ مَنْ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ لَا حُكْمَ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ .
« وَأَلْجِئْنِي بِالصَّالِحِينَ » : فَأَقُومَ بِحَقِّكَ دُونَ الرَّجُوعِ إِلَى طَلَبِ الْاِسْتِثْلَالِ بِشَيْءٍ
دُونَ حَقِّكَ .

(١) (إليه) الضمير هنا يعود إلى جبريل - سبحانه .

قوله جل ذكره : « واجبل لسان صدق في الآخرين » .
 في التفسير : « لسان صدق » : أى ثناء حسناً على لسان أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
 ويقال لا أذكرك إلا بك ، ولا أعرفك إلا بك .
 ويقال أن أذكرك ببيان آياتك^(١) ، وأذكرك بعد قبض روحى إلى الأبد بذكر مُسْتَمَدٍّ .
 ويقال أذكركنى على لسان الخبيرين عنك .

قوله جل ذكره : « واغفر لائى إنه كان من الصالحين » .
 على لسان العلماء : قاله بعد يأسه من إيمان آية ، وأثاب على لسان الإشارة عند ذكره
 في وقت غَلَبَتِ البُطْءُ ، وَيَتَجَاوَزُ ذَلِكَ عَنْهُمْ^(٢) .
 وليست إجابة البعد واجبا على الله في كل شيء ، فلذا لم يُجِبْ فإِنَّ للعبد صلوة في ذكر
 أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ .

قوله جل ذكره : « ولا تخزي في يوم يُبْعَثُونَ » .
 أى لا تُخْجِلْنِي بِتذكيري جَلَّتِي ، فَإِنَّ شَهْرَ مَا مِنْ البَدِّ - عند أرباب القلوب وأصحاب
 الخصوص - أَشَدُّ عَقُوبَةً^(٣) .

قوله جل ذكره بِمَوْجِئِ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ •
 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ •

قيل : « القلب السليم » الدافع .

وقيل هو الذى سَلِمَ من الضلالة ثُمَّ من البِدْعَةِ ثُمَّ من النِفلة ثُمَّ من النية ثُمَّ من الحجة
 ثُمَّ من الْمُصَاحَةِ ثُمَّ من المساكنة ثُمَّ من الملاحظة . هذه كلها آفات^(٤) ، والأَكْبَرُ سَلَوُوا
 منها ، والأَصْغَرُ امْتَحَنُوا بها .

(١) وردت الآية وتراجع أن التاسع قد أصح في النقل ، فأثبتنا (الآلة) أى تمسك لأنها أقرب إلى السياق .

(٢) معنى هذا أن التقدير يرى لظنار ما ينتق به الصوفى من أقوال وهو في حال الانحاء .

(٣) لأن شهود ما من البعد معناه أن التوحيد مازال يشوبه فكر القبرية .

(٤) يفيد ذكر هذه الآفات حل هذا التنوع من الترتيب والذقة أجل فائدة عند دراسة المصطلح الصوفى - خصوصا
 وأن هذه المصطلحات لم ترد على هذا النحو في الفصل الذى خصمه التقدير لهذا الموضوع في الرسالة .

ويقال : « التلب السليم » التى سَلِمَ من إرادة غشيه .

قوله جل ذكره : « وَأَزَلَّتْ أَلْفَنَةُ الْمُتَّقِينَ • وَبُرُزَّتْ

الْجَحِيمُ لِلْعَاوِينَ »

« أزلت » : أى قُرِبَتْ وَأُذِنَتْ فى الوقت ، فإنَّ ملهو آتٍ قريبٌ ، واليمين أخضِرَتْ . وكما تُجَرُّ النارُ إلى الحشر والسلاسل فلا يبعدُ إذهاب الجنة من التمتين .

« وبرزت الجحيم للعاوين » أظهرت ؛ فتوَكَّدُ الحجة على أرباب الجحود ، ويُمَرَّضُونَ على النار ، وتُعرضُ عليهم منازل الأشرار ، فَيَسْكَبُكَوْنُ فيها أجمعين ، ويأخذون بِقُرُونٍ بذنوبهم ، ومن جعلتها ما أخير أنهم يقولون : —

« تالله إن كُنَّا لى ضلالٍ مبين • إذ نُسَوِّعُ
ربَّ العالمين »

ولا فضيحة أقيح ولا عيب فيهم أشنع مما يسترغون به على أنفسهم يقولون : « إذ نسوي ربَّ العالمين » فإنَّ أقيح أبواب الشرِّك وأشنع أنواع الكفر وأقيح أحوالهم - التشبيه فى صفة للمبود .

قوله جل ذكره : « فإ لنا من شافين • ولا صديق

حميم »

فى بعض الأخبار^(١) : يحى - يوم القيامة - مَبْدُ يُحَاسَبُ فستوى حسنة وسيئة . ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومه ، فيقول الله - سبحانه : عدى .. بقيت لك حسنة واحدة ، إن كانت أَدْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ .. أَنْظِرْ .. وَتَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ لَلْوَاحِدِ يَهَبُ لَكَ حَسَنَةً واحدة . فَيَأْتِى الْمَبْدُ فى الصَّفِين ، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أمهائه ، ويقول لكل واحد فى بابه فلا يجيبه أحدٌ ، فالكلُّ يقول له : أنا اليومَ قَدِيرٌ إلى حسنة واحدة ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقُّ - سبحانه : ماذا جئتَ به ؟

(١) فى م (فى بعض الأحيان) والأصوب أن تكون (فى بعض الأخبار) كما فى ص .

فيقول : يا رب .. لم يُطْلَق أحدٌ حسنَةً من حسناته .

فيقول الله - سبحانه : عبدي .. ألم يكن لك صديق (في) (١) ؟

فيتذكر المبدأ ويقول : فلان كان صديقاً لي .

فبذله الحق عليه ، فيأتيه ويكلمه في بابه ، فيقول : بلي ، لي عبادات كثيرة قبلها اليوم قد وهبتك منها ، فسير هذا المبدأ ويحىء إلى موضعه ، ويجزئ به بذلك ، فيقول الله - سبحانه : قد قبلتها منه ، ولن أخص من حقّه شيئاً ، وقد غفرت لك وله ، وهذا معنى قوله :

« فلاننا من شافين ولا صديق حبيب »

قوله جلّ ذكره : « كَذَبَتْ قَوْمُ نوحٍ الرسلين »

ذكر قصة نوح وما لقي من قومه ، وأنهم قالوا :-

« قالوا اتّوأمينُ لك وإنيحك الأردلون ؟ »

إنّ أنباي كلّ رسولٍ إنما هم الأنصفون ، لكنهم - في حكم الله - هم للمتقدمون الأكرمون . قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بضعفائكم » .

وإنّ الله أغرق قومه لما أصرّوا واستكبروا .

وكذلك قتل بمن ذكّرهم الآيات في هذه السورة من عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين .. كلٌّ منهم قابِلوا رسلهم بالكذب ، فدّمر الله عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رسوله على مقتضى سنّته الحميدة فيهم . وقد ذكّر الله قصة كل واحدٍ منهم ثم أعقبا بقوله :-

« وإني ربك لمو العزيز الرحيم »

« العزيز » : القادر على استئصالهم ، « الرحيم » الذي أخرّ العقوبة عنهم بإسمائهم ، ولم

يقطع الرزق مع مُنْجِجِ فعالهم .

(١) هكذا في م و ص وهي صحيحة مشهورة في النص والسياق ؛ غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت في الأصل (صديق ولي) حيث تقابل ما جاء في الآية (صديق حبيب) فالبحث يوضح يكون عن الصديق الولي المقيم .

وهو «عز» لم يُستمرّ ببيع أهلهم ، ولو كانوا أجموا على طاعته كما نجمل بأنفسهم^(١).

قوله جل ذكره : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين » .

أخبر عن كل واحد من الأنبياء أنه قال : « لا أسألكم عليه من أجر » ليتم الكفاية أن من عمل لله فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غير الله . وفي هذا تنبيه للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدّبوا بأخلاقهم ، وألا يطلبوا من الناس شيئاً في بثّ علومهم ، ولا يرتفعون منهم بعليلهم ، والتذكير لم أنه من ارتقى في بثّ ما يذكّر به من الدين وما يعظ به المسلمين فلا يبارك الله للناس فيما منه يسمون ، ولا للعلماء أيضاً بركة فيما من الناس يأخذون ، إنهم يبيعون دينهم بمرضى يسير ، ثم لا بركة لهم فيه ، إذ لا يفتنون به الله ، وسيحصلون على سُخط الله .

قوله جل ذكره : « وإنا لننزل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين » .

كلام الله^(٢) العزيز مُنَزَّل على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحقيقة بشفاعة جبريل عليه السلام . والكلام من الله غير منفصل ، وبغير الله غير متصل .. وهو - على الحقيقة لاعلى الجلال - مُنَزَّل . ومعناه أن جبريل - عليه السلام - كان على السماء - فسمع من الرب ، وحفظ ، ونزل ، وبلغ الرسول . فمرة كان يُدْخِلُ عليه حالة تأخذه عنه^(٣) عند

(١) لأن الله - سبحانه - لا يلحقه زين بظلمة ولا شين بمصيبة .

(٢) ينبغي الاتّهام برأى التشيخي هنا عند بحث قضية «عَلَّقَ الْقُرْآنَ» ، ومدى النظرة إل ما بين دفتي المصحف ، ومقارنة ذلك (بكلام) الله إل موسى عند الشجرة ... موضوع هام ناقشه التشيخي في كتابه (شكايه أمل السنت) .

(٣) تأمل كيف ينظر الصوفي إلى حالة المصطفى (ص) عند تلقى الوحي عل أنها حالة عرفانية ، فالمرئان لايم إلا عند الإسماء .

نزول الوحي عليه : ثم يُوردُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يشغلُ له التلُّكُ فيُسمِّيه .
والرسولُ - صلوات الله عليه - يحفظه ويؤدِّيه . والله - سبحانه - ضَيَّنَ له أنه سيُقرؤه حتى
لا ينساه^(١) . فكان يجمع الله الحفظُ في قلبه . ويُسرُّ له القراءة عند قطعه . ولما عجزَ
الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدِّيهِ إِيَّاهم بالإتيان بمثله .. عَلِمَ صِدْقُهُ في أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لَنَا لَلْأَوَّلِينَ » .

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصاص ، وما في صفةِ الله من استحقاقِ جلاله -
موافقٌ لِمَا في الكتبِ النَزَّلَةِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ قَبْلَهُ ، فهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه :
« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ »^(٢) .

ثم أخبر أنه لو نَزَلَ هذا الكتابُ بنيرٍ لسانهم وبلغه غيرُ لسانهم لم يهتدوا إلى ذلك ،
وقالوا : لو كان لساننا لسرفناه ولَكُنَّا به ، فأزاح عنهم المِلةَ ، وأكَّدَ عليهم الحُجَّةَ .

ثم أخبر عن صادقٍ عليه بهم ، وسابقٍ حُكْمِهِ بالتقاوةِ عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به
حتى يَرَوْا المذابَّ في القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَنَّمْنا سنِينَ »

ثم جاعهم ما كانوا يوعَدُونَ

ما أغنى عنهم ما كانوا يَمْتَحِنُونَ .

إِنْ أَرَحِينَا لَمْ الشَّدَّةُ ، وأهلُ حياتهم أزمَنَةٌ كثيرة - وهم يوصفُ الغفلة - فما الذي كان
ينفعهم إذا أَخَذَهُمُ المذابُّ بَغْتَةً ؟ ١ -

ثم أخبر أنه لم يُهَيِّئْ أَهْلَ قَرْيَةٍ إِلَّا بعد أن جاءهم التذيرُ وأُظْهِرَ لهم البيناتُ ، فإذا
أَصْرَوْا على كُفْرِهِمْ عَذَّبَهُمْ .

قوله جل ذكره : « لِمَنَّهُمْ عَنِ السَّعْرِ لَمَزُولُونَ » .

(١) يُشير بذلك إلى قوله تعالى : « سَتَرْنَاكَ عَنْ نَفْسِكَ آيَةَ ٦ سورة الأعراف .

(٢) آية ٤٢ سورة فصلت .

وَجَدُّوا السَّحَابَ — الذى هو الإدراك — ولكن عَدِمُوا التَّهَمَ ، فلم يستجيبوا إِسَادُهُوا
إليه . فحَدَّثَ ذلك استوجبوا من الله سوءَ العقوبة .

قوله جل ذكره : « وَأَعِزَّنَا بِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ دُونِهِمْ » .
وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنضمهم قَرَابَتُهُمْ منه ، ولا تَحِيلُ شفاعته — إِنْ لم يؤمنوا —
فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النَّسَبِ ، فهذا نوحٌ إِسَا كَفَرَ ابْنُهُ لم تنضمه بِنُوحِهِ ، وهذا
الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أَبُوهُ لم تنضمه أَبُوهُ ، وهذا محمدٌ — عليه الصلاة والسلام —
كثيرٌ من أَقاربه كانوا أَشدَّ الناسِ عليه في المداوَّةِ فلم تنضمهم قَرَابَتُهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَاصْفُؤْ جُنَاحَكَ لِئَن يَتَذَكَّرَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

أَلَيْسَ بِجَانِبِكَ وَفَارِئِهِمْ فِي الصَّحْبَةِ ، واسحب ذيلَ الكتفيلوز على ما يمد منهُم من التَّصَوُّرِ ،
واحْتِيلَ مِنْهُمُ سوءُ الأحوالِ ، وعائِزُهُمْ بِحِيلِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَحِيلَ عَنْهُمْ كُلُّهُمْ ، وارْتَحَمَهُمْ
كُلُّهُمْ ، فَإِنْ رَضُوا فَرَّضَهُمْ ، وَإِنْ حَرَمُوا فَاعْطَاهُمْ ، وَإِنْ ظَلَمُوا فَجَاوَزَ عَنْهُمْ ، وَإِنْ قَضَرُوا
فِي حَقِّ نَافِعٍ عَنْهُمْ ، واشْفَعْ لَهُمْ ، واشْفَعْ لَهُمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ عَصَاكَ قُلٌّ فَإِنِّي مُرَوِّدٌ
عَمَّا تَصِلُونَ » .

لا تفعلْ مِثْلَ فِعْلِهِمْ ، وكلَّ حسابهم إلينا إَلَّا فَيَا أَمْرًا أَنْ تَقِمَ فِيهِ عَلَيْهِمْ حَدًّا ، فَنَدِّ
ذلك لا نَأْخُذُكَ رَأْفَةً تَمْنَعُكَ مِنْ إِقَامَةِ حَدِّنا عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَرْزِ الرَّحِيمِ » .
اتَّصِلْ بِإِلَهِنا ، واعتَصِمْ بِنا ، وتوسَّلْ إلينا بِنا ، وكن على الدوامِ بنا ، فَإِذَا قُلْتَ قُلٌّ
بنا ، وَإِذَا صُلْتَ فَعَلْ بنا ، واشهد بقلبك — وهو في قبضتنا — تصحُّقَ بِأَعْيُنِنا وَلنا .
تَوَكَّلْ عَلَى « الْعَرْزِ » تَجِدِ الْعِزَّةَ بِتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ فِي الْبَارِئِ ، فَإِنَّ الْعَرْزَ مَنْ وَثِقَ بِالْعَرْزِ .

(١) اتَّصِلْ هذه الإشارة لتكون دستوراً في (الصَّحْبَةِ) بصفحة عامة . ولقد جرى فصل في الرسالة في
هذا الخصوص .

« الرقيم » الذى يترقب من تتركب إليه ، ويحزّل البرّ لئلا تُوَسَّل به إليه ^(١) .

قوله جل ذكره : « الذى يراك حين قوم » .

انقطعه بهذه الآية عن شهود الخلق ، فإن من علم أنه بمشهد من الحق رأى دقائق أحواله ، وخفايا أموره مع الحق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وتقلبك فى الساجدين » .

هو أن عليه مماناة مثاقى العبادة بإخباره برويته . ولا مشقة لئلا يعلم أنه برأى من مولاة ، وإن حُمل الجبال الرواسى على شفير ^(٣) جفن العين ليهون عند من يشاهد ربه ^(٤) .

ويقال « قلبك فى الساجدين » بين أصحابك ، فهم نجوم وأنت بينهم بدر ، أو هم بدور وأنت بينهم كشمس ، أو هم شموس وأنت بينهم شمس الشموس .

ويقال : قلبك فى أصلاب آلائك من المسلمين الذين عرفوا الله ، فسجدوا له دون من لم يعرفوه .

قوله جل ذكره : « إنه هو السميع العليم » .

« السميع » لأئین الحبين ، « العليم » بخين العارفين .

« السميع » لأئین المذنبين ، « العليم » بأحوال المطيعين .

(١) هذه الإشارة بموضع طبيب لمقرية القشيري عند صياغة (وساياه) للمريدين من التناحيتين الصوفية والأدعية .
(٢) يقال إنه لما دخل ذو النون المصرى بغداد اجتمع إليه الصوفية ، ومهم قوال ، فاستأذنا ذا النون أن يقول بين يديه شيئاً ، فأذن له ، فابتدأ يقول ، فقام ذو النون وسقط على وجهه ولحم يقطر من جبهته ولا يحيط على الأرض . ثم قام وجعل من القوم يتراجم ، فقال له ذو النون : «الذى يراك حين تقوم» فجلس الرجل .
ويعلق الشيخ الغفالق حل هذه القصة بأن ذا النون كان صاحب إشراف على هذا الرجل ، وكان الرجل صاحب إنصاف حين قبل منه ذلك فرجع وقده (المراساة ص ١٧٠) .
(٣) شفير الجفن = حركته التى يلبث عليه الهذنب . (الوسيط) .
(٤) يربط النفس بين هذه الآلة وبين الأئین السابقة واللاحقة ، فالنفس منه : أنه سبحانه (يراك حين تقوم) متصديداً ، ويرى (تقلبك) فى المسلمين ؛ يرى ما كنت تفعل فى جوف الليل من قيامك للهجد ، وتقلبك فى تصلح أحوال المتجهدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ولتعلم كيف كانوا يعملون لأخوتهم .
وهو (سميع) لما تقوله ، (عليم) بما تنويه وبما تمله ، ويلفك هوذا عليه مماناة كل مشقة حيث أخبر برويته له فى كل ما يقوم به .

قوله جل ذكره: «هل أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ

الشَّيَاطِينَ • نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ

أَثِيمٍ • يُنْقُوتُ السَّنَعَ وَكَثُومٍ

كَاذِبُونَ » .

بَيْنَ أَنْ الشَّيَاطِينَ تَنْزَلُ عَلَى الْكَافِرِ وَالْكُفَّةِ^(١) فَوَحَى إِلَيْهِمْ بِوَسَائِهِمُ الْبَاطِلَةَ .

قوله جل ذكره: « وَالشُّرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْتَاوُونَ » .

لَمَّا ذَكَرَ الْوَحَىٰ وَمَا يَأْتِي بِهِ لِلْأُنثَىٰ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ذَكَرَ مَا يَرْسُوسُ بِهِ الشَّيَاطِينَ إِلَىٰ

أَوْلِيَائِهِ ، وَالْحَقُّ بِهِمُ الشُّرَاءُ الْقَدِيرِينَ فِي الْبَاطِلِ يَتَّبِعُونَ ، وَفِي أَعْرَاضِ النَّاسِ يَقْعُونَ ،

وَفِي التَّشْبِيهَاتِ — عَنْ حَدِّ الْأَسْقَامَةِ — يَخْرُجُونَ ، وَيَمْدُدُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا لَا يُؤْفُونَ ،

وَسَبِيلَ الْكَذِبِ يَسْلُكُونَ .

قوله جل ذكره: « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

يُدْخِلْهُمْ فِي الْوَسْطَىٰ » .

فَيَكُونُ شِعْرُهُ خَالِيًا مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ لِلطَّلُوعِ الذَّمُّومَةِ^(٢) ، وَهَذَا كَأَقْبَلِ : الشَّرْعُ كَلَامُ

إِنْسَانٍ ؛ فَحَسْبُ كَحْسَبِهِ وَتَقْيِيحُهُ كَتَقْيِيحِهِ .

قوله جل ذكره: « وَسَيُجَنَّبُكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُتَقَلِّبِ

يَتَقَلَّبُونَ » .

سَيُجَنَّبُكَ الَّذِينَ ظَلَمُوا سَوَاءً مَا حَمَلُوا ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَأْسَاقِ ، وَيُصَدِّقُونَ بِمَا كَذَّبُوا .

(١) مِنْ أَمْثَالِ سَلْحٍ وَطَلْحَةٍ وَمَسِيلَةٍ .

وَإِذَا كَانَ عَهْدُ (ح) يَشْتُمُ الْأَثَاكِينَ وَيَلْهَمُهُمْ .. فَكَيْفَ تَنْزِلُ الشَّيَاطِينَ عَلَيْهِ ؟ !

(٢) مِنْ أَمْثَالِ مِدِّ اللَّهِ بْنِ رُوْلِهِ وَحَسْبَانِ بْنِ ثَابِتٍ وَكَبِ بْنِ زَيْدٍ وَكَبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَفُتِرَ مِنْ طَلَبِ طَلَبِ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْطِقَةِ وَالزَّهْدِ ، وَالْمَعْرِفَةِ إِلَى الْقَضِيَّةِ ، وَطَوَارِقِ الدِّينِ الْجَدِيدِ ، وَرَفْعِ لَوَاهِ التَّوْحِيدِ .

السورة التي يذكر فيها النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله اسم عزز قَصَدَهُ العَلَمِيُّ لِطَلَبِ التَّخْفِيفِ فَصَارَ وَزْرُهُ مَغْفُورًا ، اسم كَرَمٍ قَصَدَهُ
الْعَابِدُ لِطَلَبِ التَّضْعِيفِ فَصَارَ أَجْرُهُ مَوْفُورًا ، اسم جَلِيلٍ أُمُّهُ الْوَلِيُّ لِطَلَبِ التَّشْرِيفِ فَصَارَ سَعْيُهُ
مَشْكُورًا ، اسم عَزِيزٍ لِمَنْ نَزَعَ عَنْهُ التَّغْيِيرَ لَوْجُودِهِ كَحَفَّتْهُ الْعِزَّةُ ، وَطَوَّحَتْهُ السُّلْطَانَةُ ، فَصَارَ كَأَنَّ
لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا .

جَلَّتْ الْأَحْبَةُ .. فَأَتَى بِالْوَصُولِ ! وَتَقَدَّسَتْ الصَّدِيقَةُ .. فَسَنَ ذَا الْفَتَى عَلَيْهَا يَحْفَ (١) .
« كَلَّا » .. إِنَّمَا تَذَكُّرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٢) :

وَكَمْ بِمُسْطَظِنٍ إِلَى وَصْلَانَا أَكْثَمُهُمْ .. لَمْ يَنْقُلُوا نَصِيحَانَا
قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : « طَسَّ تَلَاكَ الْكَلِمَةُ الْقُرْآنُ وَكُتِبَ عَلَيْهَا » .
بِطَهَارَةِ قُدْسِي وَسَنَاءِ عِزِّي لَا أَنْحَبُ أَتَلَّ مِنْ أَمَلٍ لَطْفِي .
بِوُجُودِ يَرَى تَطْلُبُ قُلُوبُ أَوْلِيَانِي ، وَيَشْهَدُ وَجْهِي تَنْبِيبُ أَسْرَارِ أَحْفَانِي .
طَلَبُ الْقَاتِلِينَ مُقَابَلٌ بِالطُّغْيَانِ ، وَسَمَى الْعَامِلِينَ مَشْكُورًا بِطُغْيَانِي (٣) .

(١) التَّوْحِيدُ - فِي نَظَرِ التَّشْبِيرِيِّ - هُوَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعَرَفَانِ ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ الْعَرَفَانِيُّ - مُتَأَثِّرًا بِالتَّوْحِيدِ
الْإِسْلَامِيِّ الْأَسْبَلِ - لَا يَتَّخِذُ كَمَثَرًا وَلَا تَلَقُّيَةً وَلَا تَهْلِيلًا وَلَا حُلُولًا وَلَا امْتِزَاجًا . عَرَفَانُ الصَّوْنِ مِمَّا صَحَّحَ لَا يَصْدُقُ
كَوْنُهُ (عَرَفَانًا) بِمَنْتِ التَّصَالِ فِي شَهَادَةِ أَعْمَالِ الْحَقِّ ، فَأَمَّا الْقَوْفُوفُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ فَقَدْ جَسَّكَتِ الصَّدِيقَةُ مِنْ إِشْرَافِ
عَرَفَانٍ عَلَيْهَا) تَقْسِيمُ بِسْمَةِ سُورَةِ الْجَمَةِ « مِنْ هَذَا الْجِلْدِ » .

(٢) آيَةُ ٥٤ سُورَةِ الْفُتْرِ .

(٣) غَيْرُ خَافٍ عَلَى التَّخَارُفِ أَنْ يُلْحِظَ تَرَدُّدَ حَرْفِ الْهَاءِ وَالسِّينِ فِي كَلِمَاتِ الْأَسْطَرِ الثَّلَاثَةِ ، كَأَنَّ التَّشْبِيرِيَّ
يُرِيدُنَا أَنْ نَتَّبِعَهُمْ دَقَائِقَ (طَسَّ) مِنْ مِثْلِهِ .

« تلك آيات القرآن وكتاب مبين » : هذه دلالات كَرَمِنَا ، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بَرِّنا ، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعَدِنَا ، وَنَحْنُ لِلْأَصْفِيَاءِ حِفْظٌ عَهْدِنَا .

قوله جل ذكره : « هُدًى ، بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشفاءٌ ، ونورٌ وضياءٌ ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حَقَّقَ لَهُمُ الْإِيمَانَ ، وَأَكْثَرْنَا لَهُمُ الضَّيَّانَ ، وَكَفَلْنَا لَهُمُ الْإِحْسَانَ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » .

يَدْعُونَ الْمُرَاصِلَاتِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ فِي آثَابِ الْمُنَاجَاةِ وَيُؤَدُّونَ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَسَكَنَاتِهِمْ الزَّكَاةَ ، بِمَا يَقُومُونَ فِي حَقِّ السُّلْطَانِ أَحْسَنَ مَقَامٍ ، وَيَتَوَبَّعُونَ عَنْ ضَعْفَاتِهِمْ أَحْسَنَ مَنَاقِبٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتُنَا لَمْ

أَعْمَلْهُمْ فَمَنْ يَمَسُّوْنَ » .

أَعْمَلْنَاهُمْ فَمَنْ لَا يُبْصِرُونَ ، وَحَمَيْنَاهُمْ عَلَيْهِمُ الْمَسَالِكَ فَهُمْ عَنِ الطَّرِيقَةِ الْمُسْلَى يَمْدُلُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ فِي ضَلَالَتِهِمْ يَمْسُحُونَ ، وَفِي حَبْرَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

قوله جل ذكره : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيَانٌ مُخْتَصِفٌ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيَانٌ مُخْتَصِفٌ سَأَلْنَا عَنْهُمْ خِزْيَانَهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُسْوًى » .

فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ » .

« سوء العذاب » أن يمد الآلام ولا يجد القسلى بمرقة المسلى ، ويصل البلاء ولا يحصل عنه قتله وعذابه شهود المسلى .. وذلك لكتمان .. فأما المؤمنون فيُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ حَسَنُ رَجَائِهِمْ فِي اللَّهِ ، ثُمَّ تَضَرُّعُهُمْ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ فَضْلُ اللَّهِ مَعَهُمْ بِالْتَّخَفِيفِ فِي حَالِ الْبَلَاءِ ثُمَّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّشْئِ وَالْإِفَاقَةِ — كَمَا فِي الْخَبَرِ — إِلَى وَقْتِ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ النَّارِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّكَ لَتَلَقِّيَ التَّوْرَتَ مِنْ لَدُنْ

حَكِيمٍ عَلِيمٍ » .

أَيُّ أَنْ الذِي أَكْرَمَكَ بِإِزَالِ التَّرَآنِ عَلَيْكَ هُوَ الذِي عَمَفَضَكَ عَنِ الْأَسْوَءِ وَالْأَعْدَاءِ
وَصَنُوفِ الْبِلَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ
فَبَيَّسَ لَكُمْ تَسْلُونَ ﴾ .

سار موسى بأهله من مدين شبيب متوجهاً إلى مصر ، ودَبَّجَا عليه اللَّيْلُ ، وأخذ امرأته
الطَّلَقُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ الْبَارِدَةَ ، ولم يورِ الرَّبُّدُ ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ،
وتشتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكنوا
إِنِّي أَبْصَرْتُ نَارًا . وفي القصة : إنه تشتت أغنامُه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعه
فشردت ، وقالت امرأته :

كيف تتركنا ونمضي والوادي مسيع ١٩ .

قال : امكنوا .. فَإِنِّي لأَجْلِكُمْ أَمْضَى وَأَتَرَفُ أَمْرَ هَذِهِ النَّارِ ، لَسَلَّى آتِيكُمْ مِنْهَا إِنَّمَا يَقْبَسُ
أَوْ شَعْلَةٌ ، أَوْ بِخَبَرٍ عَنْ قَوْمٍ نَزُولٍ عَلَيْهَا تَكُونُ لَنَا بِهِمْ اسْتِمَانَةٌ ، وَمِنْ جَهَنَّمَ انْتِفَاعٌ . وَبَدَتْ
لَيْسَهُ تِلْكَ النَّارُ قَرِيبَةً ، فَكَانَ يَمْشِي نَحْوَهَا ، وَهِيَ تَتْبَاعُهُ حَتَّى قَرَّبَ مِنْهَا ، فَرَأَى شَجَرَةً رَطْبِيَّةً
خَضِرَاءَ تَشْتَمِلُ كُلُّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ، وَهِيَ نَارُ مُضِيئَةٍ ، فَصَبَّحَ خَشْيَاتٍ وَأَرَادَ أَنْ يَتَبَسَّ
مِنْهَا ، فَصَدَّ ذَلِكَ سَمْعُ النِّدَاءِ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ الشَّجَرَةِ كَمَا تَوَهَّمُ الْمُخَالِفُونَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ . وَحَصَلَ
الْإِجْمَاعُ أَنَّ مُوسَى سَمِعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ النِّدَاءُ فِي الشَّجَرَةِ لَكَانَ لِلتَّكَلُّمِ بِهِ
الشَّجَرَةُ ، وَلَأَجَلَ الْإِجْمَاعُ قُلْنَا : لَمْ يَكُنِ النِّدَاءُ فِي الشَّجَرَةِ ^(١) . وَإِلَّا فَتَحْنُ نَحْوُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ نِدَاءً
فِي الشَّجَرَةِ وَيَكُونُ تَرْفَعًا ، وَلَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ التَّكَلُّمُ بِذَلِكَ الشَّجَرَةِ .

(١) أي أنه حل هذا الرأي كلام غير مخلوق ، لأن كلام الله صفة ، وصفته سبحانه - غير مخلوقة ..
وهذا هو نفس الرأي بالنسبة للقرآن ، وهذا هو الجواب الذي حصر به السلف زعم الجمعية حيناً أرادوا أن يثبتوا
أن القرآن مخلوق ، لأن القرآن غير مخلوق ، والله خالق كل شيء (انظر مدارج السالكين لابن القيم ج ١ ص ٢٢٢)
فيكون النداء الذي سمع من الشجرة كالكلام الذي بين يدي المصحف .. كلاماً كلام الله - حل الحقيقة ، ولكن
من حيث التجوز في التعبير يقال (في الشجرة) و (في المصحف) .

ولا يُنكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخلق كلاماً في الشجرة أيضاً ، فوسى سمع كلامه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة ... وهذا من طريق القتل جائز .

قوله جل ذكره بمظناً جاءها نودي أن بورك لمن في النار
ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .

أى بورك من هو في طلب النار ومن هو حول النار^(١) .

ومعنى بورك أى لحقته البركة أو أصابه البركة .. والبركة الزيادة والثمنا في الخير .
والعمل من القديم — سبحانه — بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

قوله جل ذكره « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » .

الذى يُخاطبك أنا الله « العزيز » في استحقاق جلالى ، « الحكيم » في جميع أفعالى .

قوله جل ذكره : « وألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جنّ ولّى مُدْبِرًا ولم يُقِبْ » .

في آية أخرى يبيّن أنه سأل ، وقال له على وجه التضرر : « وما تلك يمينك يا موسى ؟ »
وأجابته بقوله : « هى عصاى » وذكر بعض ما له فيها من المآرب والمنافع ، قال الله : « وألقى عصاك » ، وذلك لأنه أراد أن يرى فيه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمال اليقين .

وألقاها موسى فقلبتا الله عُمياناً ، أولاً حية صغيرة ثم صارت حية كبيرة ، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولّى مُدْبِرًا هارباً ، وكان خوفه من أن يُسلطها عليه لما كان عارفاً بأن الله يذئب من يشاء بما يشاء ، قال له الحق :

« يا موسى لا تخف إني لا يخاف لى
المرسلون » .

أى لا يبنى لم أن يخافوا .

(١) يرى النسخ أن (سَمِعَ) في مكان النار من الملائكة ، و(سَمِعَ) حولها جد موسى . (النسخ ٣٠٢ من ٢٠٢) .

« إِنَّا نَنْظُرُكُمْ بِبَاطِنِ هَؤُلَاءِ »

فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وهذا يدل على جواز الذنب على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق ببلوغ رسالة بشرط ترك الإصرار . فَأَمَّا مَنْ لَا يُحِبُّ عَلَيْهِمُ الذَّنْبَ فيحمل هذا على ما قبل للتوبة^(١) .

فلما رأى موسى اختلاب الصاع على أن الحق هو الذي يكشفه بذلك .

وقال : كيف علم موسى — عليه السلام — أن الذي سمعه كلام الله ؟ .

والجواب أنه بغير منه إياه ، ويجوز أن يكون ذلك الم ضرورة فيه ، ويجوز أن يكون كسبياً ، ويكون الدليل له الذي به علم صدقه في قوله : « إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ » هو ما ظهر على يده — في الوقت — من المعجزة ، من قلب الصاع ، وإخراج يده بيضاء^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا »

من غير سوء في نفسك يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ

وَقَوْمِهِ إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا ظَالِمِينَ .

من غير سوء أي برص . وفي النص أن موسى عليه السلام ذكر اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك اليلة من الأحوال التي أوجبت ارتجاعه ، وقصدته طلب النار ، قال الله تعالى : إِنَّا قَدْ كَفَيْتُكَ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، وَوَكَّلْنَا بِأَمْرِكَ وَأَسْبَابِكَ ، فَبِعَمَلِكَ أَغْنَيْنَاكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْمَرْءِ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَكْبَانُ مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مَبِينٌ » .

(١) لا يستعمل فريق من الفقهاء تمرير (الذنب) بالنسبة للأنبياء صلواتهم والسلام وإنما يطلق على ما يدر منهم (يحمل علون الأول) تأدياً .

والنبي — على الوجوب — مصوم ، والقرآن محفوظ أي قد تقع به خات أو زلات ولكنه لا يغير على ما قبل (الرسالة ص ١٧٥) .

(٢) أنه أن الأصل في المعجزة أنها دليل صدق النبي ، فله يستطيع السحرة والكهنة عمل أشياء صعبة ولكنهم لا يخرج من كونها دليل معجزة أو ذكاء أو قوة على الإيمان والانبهار .
والنبي مأمور بإظهار المعجزة أما القول بمأمور بإغفاء الكرامة (الرسالة ص ١٧٤) .

لم يُظهِرِ اللهُ — سبحانه — آيةً على رسولٍ من أنبيائه — عليهم السلام — إلا كانت في الوضوح بحيث لو وُصِّمُوا النظرَ فيها موضعهُ لتَوَسَّلُوا إلى حصول العلم وطلع الصدور ، ولكم قَمَرُوا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجحدِ . قال تعالى وقوله صِدْقٌ :

« وجعلوا بها واستيقنتها أنفسهم
ظُلُمًا وَعُلوًّا فانظر كيف كان عاقبة
الْمُفْسِدِينَ » .

وكا يَحْتَمِلُ من الكافر الجحدُ ^(١) تحصيل المصالح عند الإلزام ببعض الذنوب حالة يعلم فيها — بالطبع — أن ما يفضله غير جائز ، ويتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ المناعيةُ له عن قبيلها من غير أن يكون متناقلًا عنها أو ناسيًا لها ، ثم يُقَدِّمُ على ذلك غيرَ مُحْتَزِلٍ بها موافقةً لشهوته . وهذا الجنسُ من المصالح أكثرها شؤمًا ، وأشدُّها في العقوبة ، وأبْهَدُها عن التفران .

قوله جل ذكره : « وقد آتينا داوودَ وسليمانَ عِلْمًا وَقَالَا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ
عِبَادِهِ لِلْؤَمْتَيْنِ » .

يقتضى حكمُ هذا الخطاب أنه أفردَهما بمجنسٍ من العلم لم يشارِ كهُمَا فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَهُ على وجهٍ تخصُّبهما به ، ولا شكَّ أنه كان من العلوم الدنيوية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيانٍ لها أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُرْتَكِزٌ للشك فيه ^(٢) .

(١) ليس حتمًا أن يكون جسد الجالس بعد المرة لأن (جسد) بمعنى أنكر ، وقد يكون الإنكار نتيجة جلود بالنيء ، ولكن الواضح أن القشيري يتجه إلى توضيح أسوأ أنواع الجسود ، وهو الذي يحدث بعد المرة ، وقد أحسن القشيري حين قابل بين ذلك وبين أسوأ أحوال المصالح ، وهي تلك التي يقدم فيها على المصبة وهو علم بمآلاتها ، ومع ذلك يفتد لنية عليها ، ويغلطها .

(٢) تعلم من ملحق القشيري أن البيان أرق في المراجعات من البرهان ، ويجد هنا ما ينفرد به البيان على البرهان .

ويحتمل أن يكون عليهما بأحوال أمتها على وجه الإشراف على ما كانوا يستقرون به ،
فيكون إخبارهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : « عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » .

ويحتمل أن يكون عليهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان .

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر
بأنهما شَكَرَا الله على عظيم ما أتم به عليهما ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ » وقال أيها

الناسُ عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثَقْنَا مِنْ

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمَوْ التَّفَضُّلِ لِلْبَيْنِ » .

ورث إياه في النبوة ، وورثه في أن أقامه مقامه .

قوله : « عَلَّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ » : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها تقومه ليعلموا بها صدقَ
إخباره عن نبوته - ومن كان صاحب بصيرة وحضور قلبٍ بالله يشهد الأشياء كلها بالله ومن
الله . ويكون مكاشفاً لها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شيء تصرفات الحقِّ
— سبحانه — لعباد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم تحكي عنهم . وكان ضرباً
الطَّيْلِ مثلاً دليلٌ يُعرَفُ — بالمواظمة — عند سماعه وقت الرحيل والنزول فالحقُّ
— سبحانه — ينعشُ أهلَ الحضورِ بفنون التصرفاتِ ، من سماع الأصواتِ وشهودِ أحوالِ
المرئيات في اختلافها ، كاقيل :

إِذَا لِلَّهِ كَانَتْ لَهُ فِكْرَةٌ غَنَى كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرَةٌ

قوله جل ذكره : « وَوَحِّشَ سُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ »

والإنس والطير فهم يُوزَعُونَ » .

(١) قال صل الله عليه وسلم : « واللهُ وِرْدَةُ الأنبياءِ والعالمِ نعمةٌ تحتاج إلى الشكر ، ويلزم أن يحفظ العالم أنه
إن فضلٌ على كثير فقد فضل عليه كثيرٌ أيضاً ، وما أحسن قول حمر رضى الله عنه : كل الناس أمة من صر .

سَخَّرَ اللَّهُ لِسِيَان — عليه السلام — الجنَّ والطيرَ ، فكان الجنُّ مكلَّفينَ ، والطيرُ كانت سُخْرِيَةً إِلَّا أَنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا شَرْعٌ ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته ، حتى النمل كان سليان يعرف : طابهم ويغفر عليهم حُكْمُهُ .

قوله جل ذكره : « حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِلُ عَلَيْكُمْ سَلِيَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْمُرُونَ » .

قيل إن سليان استحضر أمير النمل الذي قال لقومه : « ادخلوا مساكنكم » وقال له : أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي مَعْصُومٌ ، وَأَنِّي لَنْ أَمْكُنْ عَسْكَرِي مِنْ أَنْ يَحْطُوَكُمْ ؟ فَأَنْبَرَهُ أَمِيرُ النَّمْلِ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنْ يَكُونَ النَّمْلُ عَلَاً بِصَمَةِ سَلِيَان . ولو قال : لِمَلِكِمْ أَيْحَ لَكُمْ ذَلِكَ .. لَكُنْ هَذَا أَيْضًا جَائِزًا .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليان : إِنِّي أَجِلُ قَوْمِي عَلَى الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَخَشِيتُ إِنْ يَرَوْكُمْ فِي مُلْكِكُمْ أَنْ يَرْغَبُوا فِيهَا ^(١) ، فَأَتَرْتُهُمْ بِدُخُولِ مَسَاكِنِهِمْ ثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَيْهِمْ زُهْدُهُمْ . وَلَئِنْ صَحَّ هَذَا فَتَبَيَّنَ دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ سِيَاةِ الْكِبَارِ لِمَنْ هُوَ فِي رِعْيَتِهِمْ . وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى حَسَنِ الْإِحْتِرَازِ عَمَّا يُخْشَى وَقَوَعُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا تَقْتَضِيهِ عَادَةُ النَّفْسِ وَمَا تُطِيرُوا عَلَيْهِ مِنَ التَّيَيزِ .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليان : مَا الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ ؟ .

قال : سَخَّرَ لِي الرِّيحَ .

قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِشَارَةَ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَكَ مِمَّا أُعْطِيَ إِلَّا الرِّيحُ ؟ ^(٢) .

وهكذا وَثَّهَ الْكَبِيرُ عَلَى لِسَانِ الصَّغِيرِ ! .

قوله جل ذكره : « فَتَقَبَّلْنَاهُمْ ضَاكِحًا مِنْ قَوْلِهِمَا » .

(١) التَّيَيزُ فِي (فِيهَا) يَعُودُ عَلَى الدُّنْيَا .

(٢) أَيْ أَنَّهُ عَطَاهُ زَائِلًا لَا مَكْتَبَ لَهُ وَلَا قَرَارًا .

التبسمُ من الملوك ينلو لمرآتهم حكم السيلة ، وذلك يدل على رضاهم واستعصامهم لما منه يحصل التبسم ، فقد استحسن سليمان من كبير النمل حسن سياسته لرعيته .

وفي القصة أنه استعرض جنده ليراهم كم هم ، فمرّضهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شهر وسليمان واقف ينظر إليهم مُمتيراً فلم يفتوها ، ومرت سليمان عليه السلام .

وفي القصة : أن عظيم النمل كان مثل البقل في عظم الجثة ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جل ذكره : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ » .

في ذلك دليل على أن نظرَه إليهم كان نظراً اعتبارياً ، وأنه رأى تعريف الله إياه ذلك ، وتنبه عليه من جلة نعمه التي يجب عليها الشكر .

وفي قوله : « وعلى والدَيَّ » دليل على أن شُكْرَ الشاكر لله لا يخص بما أنعم به عليه على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ماخصّ وعمّ من نعمه .

قوله جل ذكره : « وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ

الصالحين » .

سأل حسن العاقبة ؛ لأنّ الصالح من عباده مَنْ هو مخترم له بالسعادة .

قوله جل ذكره : « وَقَفَّذْ الطَّيْرَ قَالَ مَا لِي لَا أَرَى

الهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ النَّاسِينَ » .

تطلبه فلما لم يره تعرّف ما سبب تأخره وغيبته .

وذلك دليل على تيقن سليمان في مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث لم تخف عليه غيبة طير هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعة واحدة . وهذا أحسن ما قيل .

ثم تهذّده إن لم يكن له عذرٌ بذهاب شديد ، وذلك يدل على كمال سياسته وعذله في مملكته .

وقال قومٌ: إنما عَرَفَ أن المدهد يعرف أعماقَ الماء بِإِلْهامِ خُصٍّ به ، وأن سَليانَ كان قد نزل منزلاً ليس به ماء ، فطلبَ المدهد لِيَهْدِيَهُمْ إلى مواضعِ الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن في المدهد كثرةٌ . وغيةُ واحدٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ — اللهم إلا أن كان ذلك الواحدُ خصوصاً بِمعرفةِ مواضعِ وأعماقِ الماء .. والله أعلم .

وروى أن ابن عباس سئلَ عن ذلك ، وأنه قيل له : إن كان المدهدُ يرى الماء تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى النَّخَّ مخفياً تحت التراب ؟ .
فقال : إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر .

ويقال : إن الطير كانت تحف فوق رأس سَليان مُصْطَفَةً ، وكانت تفر انبساط الشمس وشاعها بأجنحتها ، فوقع شُعاعُ الشمس على الأرض ، فنظر سَليانُ فرأى موضعَ المدهد خالياً منه ، فَعَرَفَ بِذلك غَيْبَتَهُ .. وهذا أيضاً ممكن ، وبدل على كمالِ تَفَقُّدِهِ ، وكالِ تَبَقُّظِهِ — كما ذكرنا .

قوله جل ذكره : « لَأَعَذَّبَنَّ عَذَاباً شديداً أُولَ الَّذِينَ هُمْ
أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » .

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرمِ ، وأنه لا عِبرةَ بِصِغَرِ الجَنَةِ وَعِظَمِهَا . وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جلة التكليف ، ولا يمد الآن أن يكون عليها شُرْعٌ ، وأن لم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعَرَفُ ذلك على وجه القطع .

وتمين^(١) ذلك المذاب الشديد غير ممكن قطعاً ، إلا تجوزاً واحتمالاً .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِلُ كُلُّ ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيء قَلٌّ فهو مُتَّبِعٌ .

وقد قيل هو تَفَتُّ ريشه وإقاؤه في الشمس .

(١) واضح هنا طريقة مناقشة المعتزلي لشيء لم يرد به النقل ، وكيف يعطى النقل أهمية وتقديراً ، فإذا لم يكن نقل فينبغي التجوز لا القطع .
وواضح كذلك مدى استغلاله لهذا الموقف في توجيه كلامه للمريدین والتالين بطريق غير مباشر .

وقيل يبرئ بينه وبين أليفه .

وقيل يشتت عليه وقته .

وقيل يلزمه خدمة أقرانه .

والأولى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، ألا يقطع بشيء دون غيره على وجه القطع .

فَمِنْ العذاب الشديد أن يُمنَح حلاوة الخلعة فيجد ألم اللسنة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسن التولي لشأنه ويروك كل إلى حوله ونفسه ، ومن ذلك أن يُمنَح بالخزير في العلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم المنزوم لا يرتفع ^(١) . ومن ذلك سلب القناعة ، ومنه عَدَم الرضا بما يجري . ومن ذلك نوم الحدائق وحسبان ثوبه من الخلق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِيَّة من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع النفقة عن شهود التقدير . ومن ذلك حبة الأضداد والابتناء بمناشرتهم . ومن ذلك خف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التماس طريق الرشيد . ومنه حسيان الباطل بصفة الحق ، والتباس الحق في صورة الباطل . ومنه أن يطلب بما لا تقع له ذات يده . ومنه القفر في التوبة .

قوله جل ذكره : « فَسَكَتَ غَيْرَ بَعِيرٍ قَالَ أَحَطْتُ

بِمَا كُنْتُ نَحِيطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ

بَنِيَّ يَقِينٍ »

فلم يلبث المدهد أن جاء ، وعلم أن سليمان قد تهدهده ، قال : أَحَطْتُ علما بما هو عليك خاف ، « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينٍ » .

ثم ذكر حديث بليس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المال والملك والسرير العظيم

(١) حاد القسري إلى الآية نفسها في رساله حيث يقول : وقيل في قوله تعالى : لأعلمه طلبا فهدأ - يعني لأعلمه القناعة ولا يجلبه بالطمع يعني أسأل الله تعالى أن يهدل به ذلك (الرسالة - ص ٨٢) .

ما عَدَّه ، فلم يضر سليمان — عليه السلام — قلقك ، ولم يستغزه الطمع فيما سَمَحَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلْكِ غيرهم ، فلما قال :

« وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَزَيَّنَّ لِمِ الشَّيْطَانِ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّمَهُمُ الْعَنَابُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَا يَهْتَدُونَ »

فند ذلك غَاظَ هذا سليمان ، وَغَضِبَ في الله ، و :

« قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ »

وفي هذا دلالة على أن خير الواحد لا يوجب العلم فيجب التوقف فيه على حد التجويز ، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَحُ بل يجب أن يُتَمَرَّكَفَ : هل هو صدق أم كذب ؟^(١)

ولما عَرَفَ سليمان هذا الْمُدْرَكَ عَفْوِيَّتَهُ وَمَا تَوَعَّدَهُ بِهِ .. وَكَذَلِكَ سَبِيلُ الْوَالِي ؛
فَإِنَّ عَذْلَهُ يَمْنَعُهُ مِنَ الْحَيْفِ عَلَى رَعِيَّتِهِ ، وَيَقْبَلُ عَذْرَ مَنْ وَجَدَهُ فِي صُورَةِ الْمُجْرِمِينَ إِذَا
صَدَّقَ فِي اعْتِقَادِهِ .

قوله جل ذكره : « اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ

ثُمَّ نَوِّلْ عَنْهُمْ فَاقْضَ مَا نَايَزَاجُهُمْ » .

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كل كلمة ، فإنه يجرؤ
المساء بذلك إلى غضبه ، وقد كان لسليمان من العُدْمِ وَالْحُسْمِ وَمَنْ يَأْتِمِرُ بِأَمْرِهِ الْكَثِيرُ ،
ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الممدد لأنه هو الذي قال ما قال ، فآزره
الخروج من عهده ما قال .

وقال لما صَدَّقَ فيما أخبر لِيَلْصِقَكَ مُوَضِّعٌ عَلَيْهِ فَأَهْلُ السَّفَارَةِ وَالرَّسَالَةِ — على
ضنف صورته^(٢) .

(١) يضاف هذا الرأي في أخبار الأحاد إلى ملحق التشيبي في المسائل الحنبلية والفقهاء .

(٢) هنا إشارة بعبارة إلى الرسل والأولياء ، ومضن لما يقال عنهم من أنهم .

ففى المهدى ، وأتى الكتاب إليها كأمر ، واتشى إلى جانبٍ ينظر ماذا يفعلون
ويعلمنا بحجاب .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها اللأى أتيتى إلى كتاب
كريم • إنه من سليمان وإنه
بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تنسوا
على وأتوني سليمان » .

« كتاب كريم » الكرم نقي الدماء ، وقيل لأنه كان غنوماً^(١) ، وقيل لأن الرسول
كان خيراً ؛ فكلت أن من نكون الطير مسخرة له لا بد أنه عظيم الشأن . وقيل :
لأنه كان معتدراً بسم الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كعب فيه اسم نبيه أو لا ولم يقل :
إنه من سليمان إلى فلانة . ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في الثقب بل كان دعاء
إلى الله : « ألا تنسوا على وأتوني سليمان » .

ويقال أخذ الكتاب بجميع قلبها ، وقهرها ؛ فلم يكن لها جواب ، قالت : « إني أتيت
إلى كتاب كريم » فلما عرفت قدر الكتاب وصلت باحترامها إلى مقام ملكها ، ورزقت
الإسلام وصحبة سليمان .

ويقال إذا كان الكتاب كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريم من الصلاة ما لا يصعد
عن التسمية ، وإذا تجردت كان الأمر فيها بالكس .

قوله جل ذكره : « قالت يا أيها اللأى أخوفى في أمرى
ما كنت طاعمة أماً حتى تشهدوني^(٢) » .

(١) يقال إنه طبعه بالسك وخشيته بقاءه . قال صل الله عليه وسلم : « كرم الكتاب غنمه » وقيل من كتب
إلى أميه كتاباً ولم يخش الله استخف به .
(٢) (سقى تشهدوني) بكسر النون ، أما القنع فلحن ؛ لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع ومكان موضع
النصب لأن ما سبق « حتى » أسلوب طلبى ، فالقول ينصب بعدها بأن مضمرة . وأصله « تشهدوني » فحذفت النون الأولى
لنصب ، والياء دلالة الكسرة .

أَخَذَتْ فِي الشَّوَارَةِ كَمَا تَنْضِيهِ الْحَالِ فِي الْأُمُورِ الظَّالِمِ ؛ فَلِذَا التَّالِي (١) لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
مُسْتَعْبِداً بِرَأْيِهِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْبَصِيرَةِ .

قوله جل ذكره : « قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو الْقُوَّةِ وَأَوْلُوا بِأَسْرِ شَدِيدٍ
وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَأْمُرِينَ ؟ » .

أَجَابُوا عَلَى شَرْطِ الْأَدَبِ ، وَقَالُوا : « لَسْنَا مِنْكُمْ إِلَّا بَدَلُ الرَّسْعِ ، وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِيَّاكُمْ
النَّصْحُ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا مَتَابِعَةُ الْأَمْرِ . — وَتَمْشِيَةُ الْأَمْرِ وَإِمَاعَاؤُهُ .. إِلَيْكَ .

قوله جل ذكره : « قَالَتْ إِنَّ لِلْمَلِكِ إِذَا دَخَلَ قَرْيَةً
أَنْدَسُوهَا وَجَمَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » .

وَيَقَالُ إِنَّ : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » مِنْ قَوْلِهَا .

وَيَقَالُ : تَنْبِيهُ الْمَلِكِ (٢) إِذَا دَخَلَ قَرْيَةً — مِنْ صِفَتِهِ — مَعْلُومٌ ، ثُمَّ يُنْفَرُ .. فَإِنْ كَانَ
الْمَاخِلُ حَادِلًا أَزَالَ سُنَّةَ الْجَوْرِ ، وَأَثَبَتْ سُنَّةَ الْقَدْلِ ، وَإِنْ كَانَ الْمَاخِلُ جَائِئًا أَزَالَ
الْحَسَنَ وَأَثَبَتْ الْبَاطِلَ . هَذَا مَعْلُومٌ ؛ فَإِنَّ خَرَابَ الْبِلَادِ بِوَلَاةِ السُّوءِ ، حَيْثُ يَسْتَوْلِي أَسَافِلُ
النَّاسِ وَأَسْتَطْلِقُهُمْ عَلَى الْأَعْرَءَةِ مِنْهُمْ ، وَكَأَقِيل :

بِأَدْوَالَةٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْ لِسَالِي شَيْئَةٍ

زُولِي فَانْتَ إِلَّا عَلَى الْكِرَامِ بَلِيَّةٌ

وَعِمَارَةُ الدُّنْيَا بِوَلَاةِ الرُّشْدِ ، يَكْسِرُونَ رِقَابَ الْفُلَاحَةِ ، وَيُخَلِّصُونَ الْكِرَامَ مِنْ أَسْرِ
السُّفَلَةِ ، (وَيَأْخُذُ الْقَوْسَ بِأَرْبَاعِهَا) (٣) ، وَتَطْلُعُ شَمْسُ الْعِلْمِ مِنْ بَرَجِ شَرْفِهِ .. كَذَلِكَ لِلْمَرْفَعَةِ

(١) تَمَلَّ مِنْ سِرَةِ مَشِيرَى أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحَابِ السُّلْطَةِ فِي مَوَاقِفِ عِلَاقَاتِ الرِّأْيِ ، فَهُوَ هُنَا يَنْفَرُ
بِمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ صَاحِبُ السُّلْطَانِ مِنْ أَجَابِ ، سَوَادٍ فِي اخْتِيَارِ أَمْرَانِهِ ، أَوْ فِي قَبُولِ النَّصِيحِ وَالشُّورَى .

(٢) كَأَنَّمَا التَّشِيرَى يَنْصَحُ مِنْ نَفْسِهِ مَا قَامَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ طُغْرُلُ وَوَزِيرِهِ الْكَثْمَرَى وَكَأَنَّمَا يَجِدُهُ مَا نَالَ
مِنْ التَّيْمَرِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَلْبِ أَرْسَلَانَ . وَوَزِيرُهُ السُّطَيْمُ نِظَامُ الْمَلِكِ (انْظُرْ مَدْخَلَ هَذَا الْكِتَابِ : الْجِلْدُ الْأَوَّلُ)

(٣) مَكْنَى فِي مَوْحِي فِي صَدْرِ (فَتَأْخُذُ الْقَوْسَ بِأَرْبَاعِهَا) .

والخصال الحمودة إذا بشرت قلب عبده أخرجت عنه الشهوات والشوى ، وسفاسف الأخلاق من الخلد والحد والشح وصغر الهمة .. وغير ذلك من الأوصاف النعمة وتذبت بدنها من الأحوال الصليبة والأوصاف الموضيعة ما به نظام العبد وتتمام سعادته . ومضى استولت على قلب غافة النفس والخصال للذمومة أزالته عنه عمارته ، وأبطلت نضارته ، فتخرب أوطان الحقائق ، وتتلذذ مساكن الأوصاف الجميلة للأفول ، وعند ذلك ، ينظم البلاد وتراكم المحن .

قوله جل ذكره : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ

بِمَ يَرْجِعُ الْمُؤْمِنُونَ » .

جاء في القصة أنها بشت إلى سليمان بهديا ، ومن جعلها لينة مصنوعة من الفضة وأخرى من الذهب . وأن الله أخبر سليمان بذلك ، وأوصى إليه في مناه . وأمر سليمان الشياطين حتى بقوا بساحة منزله ميديا ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللبن المصنوع من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأمر بأن توفى الثواب على ذلك والآن تَنْظِفُ آثارها من روث وغيره ، وأن يُترك موضعان للينتين خاليتين من تمر النخول . وأقبل رُسُلها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلما رأوا الأمر ، ووقت إصراهم على طريقهم ، صغروا في أعينهم ما كان معهم ، وخجلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقروا في الفكرة .. كيف يتخلصون عما معهم ؟ فلما رأوا موضع القيلتين فارغا ظنوا أن ذلك سُرق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا هذا نُسبنا إلى أننا سرقتها من هذا الموضع ، فلو حاسما في الموضع الآخر ، ودخلا على سليمان :

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمَدُّونَ بِمَالِي

فَأَتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ

بِهِدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ » .

أتهدونني مالا ؟ وهل مني يستأكل مثل هذه الأضال ؟ إنكم وأمثالكم تاملون مثل

ما عوظم ^(١) المرجع إليهم : -

(١) أي أنتم قوم لاتملكون إلا ظمرا من الحياة الدنيا ، ذلك تفرحون بما تزادون وما يمنى إليكم ؛ لأن ذلك مبلغكم - وسأل غلاف حالكم ، فلما - بما آتاني الله - فني من حظوظ الدنيا .

« ارجع إليهم فَلَمَّا تَبَيَّنَ بِمَعْنَى لا قِيْلَ
لم بها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذَقَهُ وَم
صَاغِرُونَ » .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى بَلْعِيسَ ، وَأَخْبَرُوهَا بِمَا شَهِدُوا وَسَمِعُوا عِلَّتْ أَنَّهُ لَا وَجْهَ لِمَا سَوَى
الاسْتِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ ، فَزَمَتْ عَلَى الْمِيرِ إِلَى خِدْمَتِهِ ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ
خَرَجَتْ مَسْتَلَمَةً ، قَالَ : أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِرِشْيَا ؟ .

قوله جل ذكره : « قَالَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِرِشْيَا قَبْلَ
أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ » * قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ
الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ
مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ قَوِيٌّ أَمِينٌ » .

بِسْطَ اللَّهِ — سَبَّحَانَهُ — مُلْكُ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ فِي مُلْكِهِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ وَالشَّيَاطِينُ ؛ الْجِنُّ
عَلَى جِهَةِ التَّخْيِيرِ ، وَالْإِنْسُ عَلَى حَكْمِ الطُّلُوعِ ، وَالشَّيَاطِينُ وَكَانُوا عَلَى أَقْسَامٍ .

وَلَمَّا قَالَ : « أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِرِشْيَا ؟ » قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ — وَكَانَ أَقْوَامٌ — « أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ قَوِيٌّ أَمِينٌ » ، فَلَمْ يَرْغَبِ سُلَيْمَانُ فِي قَوْلِهِ لِأَنَّهُ بَنَى الْقَوْلَ
فِيهِ عَلَى دَعْوَى قُوَّتِهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « قَالَ النَّبِيُّ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقْرِئًا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ
فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ
كَفَرَ فَلَنَ يَكْفُرُ لِي وَبِىْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

(٢) هذه نظرة ملاحية تعتمد على الضمور من كنى دعاوى النفس والظواهر .

« الذي عنده علم من الكتاب » (قيل هو آصف)^(١) وكان صاحب كرامة . وكرامات الأولياء مُلْتَحِقَةٌ بمميزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبي صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر على من يُصَدِّقُهُ ويكون من جملة أمته .

ومعلوم أنه لا يكون في وَسْعِ الْبَشَرِ الْإِتِّيانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقَطْعُ المسافة البعيدة في لحظة لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين : إما بأن يُقَدِّمُ^(٢) الله المسافة بين (العرش وبين منزل سليمان)^(٣) ، وإما بأن يعدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان . وأى واحد من التسمين كان — لم يكن إلا من قِبَلِ الله ، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله — سبحانه — واستجاب له في ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبتته على تركيب آخر غير ما كان عليه .

ولما رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله — سبحانه — والاعتراف بِمِظْمَرِ نِعْمِهِ ، والاستحياء ، والتواضع له ، وقال : « هنا من فضل ربى » : لا باستحقاق منى ، ولا باستطاعة من غيرى ، بل أحد النعمة لربى حيث جعل في قوى ومن أمتى مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءه .

وحقيقة الشكر — على لسان العلماء — الاعترافُ بنعمة النعم على جهة الخضوع والأحسن أن يقال الشكر هو الثناء على المحسن بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل في هذا شكرُ الله للعبد لأنه مثله معه على العبد بِذِكْرِ إحسان العبد ، وشكرُ العبد لله على الله بِذِكْرِ إحسانه .. إلّا أن إحسان الحق هو إنعامه ، وإحسانُ العبد طاعته وخدمته لله ، وما هو الحميد من أنفاله . فأما على طريق أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرَفُ النعمة في وجه الخليفة .

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص

(٢) في م (يُقدم) بالعين ، وإعدام المسافة أى جعلها في حكم التدم مقبول في اللغى . ويسلم مع جعل العرش في حكم التدم وإعادة خلقه من جديد .. وكذلك تقدم المسافة (بالذات) مقبول حتى يصح نقله من مكان إلى مكان قريب ميسوراً ، فالإعدام أو التقديم كلاماً مقبول لأن القدرة الإلهية تشملهما .

(٣) هكذا في م ولكنها في ص (بين القريتين) أى قرية سليمان وقرية يلقى .

ويقال الشكر أَلَّا نَسْتَمِينَ نِعْمَتَهُ عَلَى مَعَاصِيهِ .

ويقال الشكر شُهودٌ لِلنِّعَمِ مِنْ غَيْرِ مَا كُنْتَ إِلَى النِّعْمَةِ .

ويقال الشكر رُؤيةُ المعجزِ عَنِ الشَّكْرِ .

ويقال أعظمُ الشَّكْرِ الشُّكْرُ عَلَى تَوْفِيقِ الشَّكْرِ .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود الزيد ، قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم^(١) » ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب الزيد ، غير متعرض لنال الميؤس .

ويقال حقيقة الشكر قيد النعم وارتباطها ؛ لأن بالشكر بقائها ودوامها .

قوله جل ذكره : « قَالَ نَسْكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ نَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » .

أراد سليمان أن يمتحنها وأن يختبر عقلها ، فمر بفتير عرشها ، فلما رآته : —
« قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ »

فاستدل بذلك على كمال عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقصاً للمادة ، فصار لها آية وعلمة على صحة نبوة سليمان — عليه السلام — وأسلت : —

« وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَقْبِدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » قبل لما ادخل المصريح فلما رآته حبيته ثجة وكشفت عن سابقها قال إنه صريح ممرّد من قوارير قالت ربّ إني ظننتُ نفسي وأسلت مع سليمان لله ربّ العالمين »

كان ذلك امتحاناً آخر لما . قد أمر سليمانُ الشياطين أن يصنعوا من الزجاج شبة

(١) آية ٧ سورة Ibrahim .

طبق كبير صافٍ مضى ، ووضعه فوق بركة بها ماء كثير عقيق ، يرى الله من أسفل الزجاج ولا يميز بين الزجاج ولما ، وأمرت أن غوض تلك البركة ، فكشفت عن ساقها ؛ لأنها ومفت سليان بأنها جنبه النسب ، وأن رجلها كوافر الدواب ، فتقووا عليها . ولما توهمت أنها غوض الماء كشفت عن ساقها ، فرأى سليان رجلها صحيح . وقيل لها : « إنه صرح بمرد من قوارر » : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليعينها . وأمنت وتزوج بها سليان عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وقد أرسلنا إلى نوح أخاه صالحاً

أَنِ اعْبُدْوَ اللَّهَ فَإِنَّا هُمْ فَرِيقَانِ

يَخْتَصِمُونَ »

ذكر قصة نوح ، وقصة نبيه صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزة ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من النسل الذي كانت لهم فيه أعظم آية . . إلى قوله :

« وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَا لَا يَشْعُرُونَ »

وَمَكْرُهُمْ مَا أَظْهَرُوا فِي الظَّاهِرِ مِنْ مَوَاقِفَ صَالِحٍ ، وعقرم الناقة خفية ، وتوريت الذنب على غير جازمه ^(١) ، والتبري من اختيارهم ذلك .

وَأَمَّا مَكْرُ اللَّهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُمْ عَلَى مَكْرِهِمْ بِاخْتِافٍ مَا أَرَادَ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَنْهُمْ ، ثم إجلالها بهم بنتاً . فَاَلْمَكْرُ مِنْ اللَّهِ تَخْلِيَتُهُ إِلَيْهِمْ مَعَ مَكْرِهِمْ بِحَيْثُ لَا يَصْصِمُ ، وتزيين ذلك في أعينهم ، وتحبيب ذلك إليهم . . ولو شاء لَمْصَصْهُمْ . ومن ألم مكره أشار الصيت بالصلاح ، والعمل في السر بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفي الآخرة لا يجوز في سوقها هذا النقد ^(٢) .

(١) أي إلقاء الجرم على غير من اقترب الجرم .

(٢) جميل من التشيرى تعيره عن أسلوب (التصلل) بين الخلق والخلق مكرراً بكرر بلقطة (التبدد) .. وفى الآخرة لا يرى هذا النقد ، فلا يجدى مكرم فجيلاً لأن التصلل فى (سوق) الآخرة يكون على نحو آخر .

قوله جل ذكره: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمٍ
أَنَا دَمَرْنَاكُمْ وَكُومَكُمْ أَجْمِينَ» .

أهلكهم ولم ينادر منهم أحداً : —

« فَتِلْكَ يَوْمَهمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

وفي الخبر : « لو كان الظلمُ بيتاً في الجنة لَكَلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ الخرابَ » ؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمَتْ
بِزَلَّاتِهَا خربت بلعوقها شَوْمُ الذَّلَّةِ حتى يتمود صاحبها الكسلُ ، ويستوطن مركبُ النشلِ ،
فيمُحِّمُ التوفيقَ ، ويؤالي عليه الخذلانُ وقسوةُ القلبِ وجحودُ البين^(١) وانتفاءُ تعظيمِ الشريعةِ
من القلبِ . وأصحابُ القلوبِ إذا ظَلَمُوا بالفضلة ولم يحاولوا طَرْدَها عن قلوبهم .. خربت
قلوبهم حتى تسو بد الرأفة ، وتجب بد الصفوة .

فخرابُ النفوسِ باستيلاء الشهوةِ والمفوعة ، وخرابُ القلوبِ باستيلاء النفقةِ والقسوة ،
وخرابُ الأرواحِ باستيلاء الحبيبةِ والوقفة ، وخرابُ الأسرارِ باستيلاء النيةِ والوحشة^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَلَوْعَلَّ إِذْ قَالَ قَوْمُهُ أَنَا تُونِ الْفَاحِشَةِ

وَأَنْتُمْ تُبْعِرُونَ * أَنتُمْ كُنْتُمْ
الرِّجَالُ شُهْرَةٌ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ مُبْهَلُونَ » .

ذَكَرْتُ قِصَّةَ لوطٍ وَأُمِّهِ ، وَمَا أَصْرُوا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ ، وَمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْقُبْحَةِ ،
وَإِحْلَالِ الْقُبْحَةِ بِأَمْرَاتِهِ الَّتِي كَانَتْ تَطَاقِقُ الْقَوْمَ ، وَتَخْلِصُ الْحَقَّ لَوْمَةً مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَمَا كَانَ
مِنْ أَمْرِ لِلنَّاسِكَةِ الَّذِينَ يُبْشِرُوا الْإِهْلَاكَ .

قوله جل ذكره : « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ

الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ مُبْشِرُونَ » .

(١) أي لا تكون خيراً للأخبار .

(٢) هذه إشارة عامة توضح آفات الطريق في مراحلها المختلفة .

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كَتَمِ المَدَمِ ، وفي تناول علمه ومتعلق قدرته ، ولم يكونوا أعياناً في المَدَمِ ولا أظداً^(١) ، فلما أظهرهم في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام ، وَيُسَمُّهُمْ في الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَكَمُوا اليومَ من الشكوك والشبهة ، ومن فنون البِدْع ، ومن وجوه الأَلَم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من النية والحجة وما ينافي دوام القرية .

وقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّم عليهم قبل أن خلقهم وأبداهم ، وبعد أن سَلَّم عليهم بوذَّه لقَّاهم .

وقال : اصطفاهم بنور اليقين وحُكْمِ الوصلِ وكَلالِ المَيْشِ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ خلق السمواتِ والأرضَ

وأَنزل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَتَ بِهِ

حُدُودَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ

تُفَيِّقُوا خَيْرَ مَا .. » .

ضمراتُ الظاهرِ غِذْلُهُ النفوسُ ، وثمراتُ الباطنِ والأسرارُ ضياءُ القلوبِ ، وكالا تبقى في

وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بَيَّةٌ فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من النية والحجة والنفرة

والتهمة شَقِيَّةٌ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ جَلَّ الأرضَ قَرَاراً وجَلَّ

خَلالها أَنْهَاراً وجَبَّلَ لها رَوَابِي » .

نفوسُ المابدين قَرَارُ طاعتهم ، وقلوبُ المارفين قَرَارُ معرفتهم ، وأرواحُ الواجدين قَرَارُ

(١) ربما يقصد التشبُّه بآتهم - وقد كانوا في كَتَمِ المَدَمِ - لم تصدر عنهم طاعة تهيئهم في استحقاق إثابة لهم واستيجاب تسليم عليهم .. والمقصود - إن صحَّ هذا الرأي - أن صل الإنسان لا قيمة له بجانب الفضل الإلهي والفتنة السابقة .

محبتهم ، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم^(١) ، في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون التوبة ، وبها يسكن غلًا اشتياقهم وهيجان قُلُوبهم واحترافهم .

« وجعل لما رواسى » من الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

ويقال « جعل لما رواسى » اليقين والتوكل .

ويقال الرواسى في الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد^(٢) ؛ بهم يديم إمساك الأرض ، وببركاتهم يدفع عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسى هم الأئمة الذين يَهْدُون للمسترشدين إلى الله .

قوله جل ذكره : « وجعل بين البحرين حاجزاً إلهٌ مع الله بل أكرمهم لا يملون » .

« جعل بين البحرين حاجزاً » بين القلب والنفس لئلا يظلب أحدهما صاحبه .

ويقال بين المبدئية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غلبت المبدئية كانت جَعْدًا للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقة المبدئية كانت طَبًّا للشرية .

ويقال: أَيْسَةُ للرّيدين معرّة ذكره ، وأسماعهم عِلٌّ الإدراك للوصول إلى الفهم ، والعيون مقر الاعتبار .

قوله جل ذكره : « آمَنَ يَمِيبُ الْمَضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ... » .

فصل بين الإجابة وبين كَشَفِ السُّوءِ ؛ فالإجابة بالقَوْلِ والكشفُ بالطَّوْلِ ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإِثْمِ . ودعاه المضطر لا حجاب له ، وكذلك دعاء المظلوم « ولكن لكل أجل كتاب » .

(١) هكذا في م وهي في م (صاحبهم) ويبدو أن الهاء التي تحت حل التاسع ، فالعرف أن الأسرار محل المشاهدة .
(٢) جاء في حلية الأولياء (٨٥ ص ٣٦٧) حديث عن النبي (ص) : « عيار آمن في كل قرن خماسة والأبدال أربعون فلا الخمسةة يمشون ولا الأبدال ، كلما مات رجل أبدل الله عز وجل من الخمسةة مكانه وأدخل من الأربعين مكانهم » .

ويرى الجرجاني : أن الأبدال سبعة (التصريفات ص ٣٧ ط مصر سنة ١٩٣٨)

ويرى ابن عساكر : أنهم ٢٢ بالشام + ١٨ بال عراق (تاريخ دمشق لابن عساكر ١٠ ص ٢٧٨) .

ويرى المحجوري : أن الأوتاد أربعة يطوفون العالم بحملته كل ليلة (كشف المحجوب ص ٢٦٩) .

ويقال للجناية : سرية ؛ فمن كان في الجناية مختاراً فليس تسل له دعوى الاضطرار عند سرية جرمه الذي صكف منه وهو مختار فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطرار سرية ما يدر منه في حال اختيارهم .

وما دام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحول والحيلة ، ويرى نفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه — فليس مضطراً ، فالمضطرب يرى نفسه كالترقي في البحر ، أو الضال في اللامعة ، وهو يرى عيانه بيد سيده ، وزماته في قبضته ، فهو كالميت بين يدي ظليده ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاحتضاده في نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة^(١) .

ولا ينبغي للمضطرب أن يستعين بأحد في أن يدعو له ؛ لأن الله وعد الإجابة له ..
لا من يدعو له .

ثم كما وعد للمضطرب الإجابة وكشف السوء وعده بقوله : —

« ... وبعثكم خلفاء الأرض إلى الله »
مع الله قليلاً ما تذكرون .

فلأن مع السر يسراً ، ولم يقل : للسر لإزالة ، ولكن قال : مع السر يسراً ؛ فبهاض البسر حاصل بعد غلام البسر .

ثم قال : « الله مع الله قليلاً ما تذكرون » لأن العبد إذا زال عُسره ، وكشف عنه عُسره نسي ما كان فيه ، وكما قال القائل :

« كان القلم يتر يوماً إذا اكتسى . ولم يك صلوكا إذا ما تمحو لا »

(١) إذا أطمأن العبد لنفسه ، ولاحظ حلة فتنه عسراً عاماً من عناصر البور في هذا الطريق ، وهو الإخلاص .. وفي ذلك يقول أبو يعقوب السوسي : من شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص . ويرى أبو حنيفة المغربي : أن إخلاص الخواص : هو ما يجري عليهم لا بهم فهدو منهم للطاعات وهم عنها بمنزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ، ولا بها اعتداد .

قوله جل ذكره : « أَتَمَن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ وَالْبَحْرِ »
 إذا أغلقتُ الرقَّةَ على صاحبه في متنازع الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ
 بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتعير عند طلب ترجيح بعض الخواطر على
 بعضٍ بشواهد العقل .. فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بِتَرْكِ التدبير ، وللإستسلام لحكم
 التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوِّزات القول إلى ضلالتهم شهود التقدير ، وتقويض الأمر إلى
 اختيار الحق ، والاستسلام لما جرت به الأقسام ، وصَبَّحت به الأقدار ؟ .

« .. وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْ
 يَدَى رَحْمَتِهِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ » .

مَنْ الذي يُرْسِلُ رِيحَ فَضْلِهِ يَنْ يَدَى أنوار اختياره فيمحو آثارَ اختيارِ نَفْسِكَ ،
 ويمسحُ بِحُشْنِ الكفاية لك ؟ .

ويقال : يرسل رِيحَ التوكل فيطهرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأضرار التدبير ، ثم يُنْصَحُ
 شמושُ الرضا فيحصلُ بِرَدِّ الكفاية فوق المأمول في حال سكونة القلب .. إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ؟
 « تَعَالَى اللَّهُ مَا يَشْرِكُونَ » : من إحالة التقادير على الأسباب .

قوله جل ذكره : « أَتَمَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ
 يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ
 اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ » .

يُظْهِرُ مَا يُظْهِرُ بقدرة على مقتضى سابق حُكْمِهِ ، ويخصم ما تعلقت به مشيئته وحق فيه
 قوله ، وسبق به فضائله وقدره . فلنا زال واتقوا وانضم بعض ما يظهر ويخصم .. فَمَنْ الذي
 يبيده مثلاً بداهة ؟ ومن الذي يضيق الرزق ويوسعُه ؟ ومن الذي يفيض في بعض الأوقات على

بعض الأشخاص ؟ وفي وقت آخر من الذي يسط على قوم آخرين ؟

هل في قدرة أحد غير الله ذلك ؟

إن توهمتم شيئاً من ذلك فَأَوْضِحُوا عَنْ حُجَّتِكُمْ . وإذا قد عجزتم .. فهلَا مَدَّكُمْ ؟
وبالتوحيد أقررتم ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ » .

« الغيب » : ما لا يَلْلُحُ عليه أحدٌ ، وليس عليه للخلق دليل ، وهو الذي يتأثر به
الحق^(١) ، وعلومُ الخلق عنه متعصرة ، ثم ما يريد الله أَنْ يَنْصَحَ قوماً ببله أفردهم به .
« وما يشعرون أيَّانَ يبعثون » : فإنه أخفى علم الساعة عن كل أحد .

قوله جل ذكره : « بَلْ أَذَارُكُمْ^(٢) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ
هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ مِنْهَا مَعْتَمِدُونَ » .

فهم في الجملة يَسْكُونُ فيه ؛ فلا يفتوونه ولا يقطع يحذونه .. وهكذا حُكْمُ كل مريضٍ
القلب ، فلا حياة له في الحقيقة ، ولا واحة له من يأسه ؛ إذ هو من البعث في شكٍّ ، ومن الحياة
الثانية في استبعاد : —

« وَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا كُنْهٌ نَرَابًا
وَأَبَؤُنَا أَنْ نَبْعَثَ رَجُلًا * قَدْ وُعِدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ لَنْ هَذَا
إِلَّا أَسْلَافُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) حكماً في م وهي في ص (الخلق) وهي خطأ في النسخ إذ الحق هو الذي يتأثر به الغيب .
(٢) يرى القرطبي أن القراءة حكماً والقراءة على (بل أذكرك) معتلها واحدة لأن أصل (أذكرك) تدارك وأدعت
لذلك في التاء وجيء بألف الوصل (الجلس لأحكام القرآن ج ١٣ ص ٢٢٦) .

وَعِدَ آبَاؤُنَا بِذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ لَمْ تَحْقِيقُ ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ ، وَكَانُوا يَسْأَلُونَ
مَتَى السَّاعَةُ ؟ :

« وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » .

قَالَ الْحَقُّ : إِنَّهُ مِنْ قَرِيبٍ سَيُعْطِيهِمْ مِيقَاتَهُ : —
« قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ ^(١) لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ » .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ :

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ
وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » .

لأنهم لَا يُبَيِّنُونَ بَيْنَ عَمَلِهِمْ وَمِنْعِهِمْ . وَعَزَّزَ مَنْ يَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا هُوَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ
لَهُ وَبَيْنَ مَا هُوَ نِعْمَةٌ ؛ فَلَمَّا تَنَاسَرَ عِلْمُ الْبَدِيءِ عَمَّا فِيهِ صِلَاةُ ، فَسَى أَنْ يَحِبَّ شَيْئًا وَيُظَنَّهُ خَيْرًا
وَبِلَاؤُهُ فِيهِ ، وَرُبَّ شَيْءٍ يَظُنُّهُ الْبَدِيءُ نِعْمَةً فَيُشْكِرُ عَلَيْهَا وَيُسْتَدِيمُهَا ، وَهِيَ نِعْمَةٌ لَهُ يَحِبُّ الصَّبْرَ
عَلَيْهَا وَالتَّصَرُّعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِهَا ! وَيَعْكِسُ هَذَا كَمَنْ شَيْءٍ يَظُنُّهُ الْإِنْسَانُ بِخِلَافِ مَا هُوَ بِهِ ! .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَلَئِنْ رَبَّكَ لَيَكْمُلُنَّ مَا تَكْمُلُنَّ
صَلُورُهُمْ وَمَا يُعْمَلُونَ » .

لَا تَكْتَفِي عَلَى اللَّهِ أحوَالُهُمْ ؛ فَصَادِقٌ يَسْتَوِي ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ بِنِجْمِهِ ، وَمُنَافِقٌ يَخَالَفُ بَاطِنُهُ
ظَاهِرُهُ يُكَلِّبُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ .. وَهُوَ — سَبْحَانَهُ — بِنِجْمِهِ ، وَكَافِرٌ يَسْتَوِي فِي الْبَصَدِ بِنِجْمِهِ
وَعَلَنَهُ بِنِجْمِهِ ، وَهُوَ يَجْزَى كَلَامًا عَلَى مَا عَلَيْهِ .. كَيْفَ لَا .. وَهُوَ قَدَّرَهُ ، وَعَلَى مَا عَلَيْهِ
قَضَاهُ وَقَسَمَهُ ؟ :

(١) مِنْ أَرْدَفَ أَيْ تَبَعَ ، وَقَالَ الْفَرَاهِيدِيُّ : رَدَفَ لَكُمْ أَيْ دَفَا .

قوله جل ذكره : « وما مِن غائية في السماء والأرضِ

إلا في كتابٍ مبين » .

ما من شيء إلا مُتَّبَعٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُهُ ، ماضية فيه مشيئة ، متعلِّق به عِلْمُهُ

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُ عَلَى بَنِي

إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ •

وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ » .

وهم يُخْتَلِفُونَ بعضًا ، وبعضًا يُظْهِرُونَ ، ومع ما يَهْوُونَ يدورون .

وفي هذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابهم ، وعَصَمَ مِنْ التَّغْيِيرِ والتبديل

ما به يدينون . وهذه نعمة عظيمة قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدى ورحمة

للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرَّفُونَ مُبَدَّلُونَ .

« إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ

وهو العزيز العليم » .

هو « العزيز » المُعَزِّ للْمُؤْمِنِينَ ، « العليم » بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم

والعذاب الأليم .

قوله جل ذكره : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ

للبين » .

أى اجتهد في أداء فَرْضِهِ ، وثِقْ بِصِدْقِ وَعْدِهِ في نصره وورقه ، وكفائته وَعَوْنِهِ .

ولا يهولُكَ ما يجرى على ظواهرهم من أذى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كله بتليطنا

إن كان محذورا ، وبقيضتنا وتسيئتنا إن كان محبوبا . وإِنَّكَ لَمَكِّي حَقٌّ وضياء صِدْقٍ ،

وهم على سُوءِ رَأْيٍ شَدِيدٍ .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تُنْصِبُ لِلْوَقْتِ وَلَا تُنْصِبُ

الْعُمُّ الدُّعَاءَ إِذَا زَلُّوا مُذِيرِينَ » .

الذين آلمت الله قلوبهم بالشرك ، وأصمهم عن سماع الحق — فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهُمْ لِلرَّشَدِ أَوْ تَنْقِصَ مِنْ أَسْرِ تِلْكَ .

« وما أنت يَهْدِي الْمُعَيَّنَ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ » .

أنت تهديهم من حيث الدعاء والهداية ، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالة إلى الرفق ، إذ ليست بقدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .
أنت لا تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ، فلا يَسْمَعُ منك إِلَّا مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ
دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ
كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » .

إذا حقَّ الوعدُ بإقامة القيامة أوضحنّا أسرارها في كلامِ الدَّابَّةِ الْمُخْرِجَةِ مِنَ الْأَرْضِ ^(١) .
وغير ذلك من الآيات .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّنْ
يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » .

وعند ذلك لا يَنْفَعُ الْإِيمَانُ وَلَا يُجَبِّلُ الْعُدْرُ : —

(١) في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال صل الله عليه وسلم : « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها غيراً » - زيادة من صحيح مسلم (طلوع الشمس من مغربها والنجال ودابة الأرض . ومن الأقوال في هذه الدابة : أنها فضيل نافقة صالحة ، ومنها أن هذه الدابة تكون إنساناً متكلاً يخالط أهل البعد والكفر ويحادثهم ليغفلوا ، ومنها أنها تخرج من جبل الصفا بمكة بعد أن يتصدع ... إلى غير ذلك من الأقوال النسوبة للصحابه والتابعين والمفسرين .

«وَوَقَعَ التَّوَلَّى عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يُنْقِطُونَ» .

ثم كرّر ذكر الليل والنهار واختلافهما : —

« أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

أى ليكون الليل وقت سكوتهم ، والنهار وقت طلب مملئهم .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَزْعٌ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ لِمَا مَنَ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ ذَاخِرِينَ » .

أخبر أن اليوم الذى يُنْفَخُ فيه فى الصور هو يومُ لُزْهَقِ الأرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛ فَمِنْ رُوحٍ تَرَقَّى إِلَى عِلِّيِّينَ ، وَمِنْ رُوحٍ تَذْهَبُ إِلَى سَجِّينَ . أولئك فى حواصل طيرٍ تروح فى الجنة تَأْوِي بِاللَّيْلِ إِلَى قُنَادِيلٍ مَمْلُوءَةٍ مِنْ تَحْتَ الْعَرْشِ صَفْحًا تَتَسَبَّحُ وَالرُّوحُ وَالرَّاحَةُ ، ولبعضها الشهود والرؤية ... على مقادير استحقاقهم لما كانوا عليه فى دنياهم .

وَأَمَّا أَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ تَمْدُّبٌ عَلَى مَقَادِيرِ أَجْرَاهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْمِلُهَا جَالِيَةٌ وَهِيَ تَمُوتُ مَرَّةً السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتَمَّنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمسكين ، هم ما يكون نفوسهم ^(١) سامعون فى اللسكوت بأسرارهم .. قيل : إن الإشارة اليومَ إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ هَآنُ ؛ كائنٌ مع الناس بظالمه ، هَآنُ عَنْ جَمِيعِ الصَّلَاقِ بِسَرَّائِهِ .

(١) عُرِفَ الجَنَدُ بِسُكُونِهِ وَقَلَّةِ اسْطِرَاقِهِ عَنْ السَّاحِ ، ظِلًا مِثْلَ فِى ذَلِكَ تِلَا : وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْمِلُهَا جَالِيَةٌ

وَهِيَ (الفتح لسراج ص ١٢٨) .

قوله جل ذكره: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ

يُخْرَجُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَصَلُّونَ» .

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ «خَيْرٌ» هَاهُنَا اللَّيَالِي؛ لِأَنَّ الْقِيَامَةَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الثَّوَابِ خَيْرٌ لِمَا مِنْهُ مِنَ الْقُرْبِ؛ وَيَحْتَمِلُ فَلَهُ نَصِيبٌ خَيْرٌ أَوْ عَاقِبَةُ خَيْرٍ أَوْ ثَوَابٌ خَيْرٌ مِنْهَا . وَمَنْ آمَنُونَ مِنْ فَرْجِ الْقِيَامَةِ . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ : فَكَمَا أَنَّ سَائِمَ الْيَوْمِ مِنَ الطَّيِّبِينَ بِالْعَكْسِ فَحُكْمُهُمْ غَدًا فِي الْآخِرَةِ بِالضَّدِّ .

قوله جل ذكره: «إِنَّمَا أَمِِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَذِهِ

الْبَلَدَةَ ...»

أَخْبَرَ أَنَّهُ أَمَرَهُ بِالْعِبَادَةِ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَالتَّبَرُّيِّ مِنَ الشُّرْكِ ؛ الْجَلِّيُّ مِنْهُ وَالْخَفِيُّ ، وَبِمُلَازِمَةِ الطَّرِيقِ السَّوِيِّ . وَأَخْبَرَ أَنَّ مَنْ أَتَيْتَهُ وَصَدَّقَهُ أَجَبَ الْحَقُّ ذِمَّتَهُ وَحَقَّهُ .

قوله جل ذكره: «وَقُلِ الْحَدُّ فَوْقَ سِيرَتِكُمْ آيَاتُهُ»

سِيرَتِكُمْ — عَنْ قَرِيبٍ — آيَاتُهُ ، فَطُوبَى لِمَنْ رَجَعَ قَبْلَ وَقَاتِهِ ، وَالْوَيْلُ لِمَنْ رَجَعَ بَعْدَ ذَهَابِ الْوَقْتِ وَفَوَاتِهِ ! .

سورة القصص

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجلوداء يسر له في دنياه وعقباه ، اسم عزيز من اشتاق إلى ثباته استمذّب فيه ما يلقاه من بلاءه . ومن طلب غيره مؤزناً في دنياه أو عقباه « ضلّ من تدعون إلا إياه » .

قوله جل ذكره : « طسم » تلك آيات الكتاب المبين .

« الطاء » تشير إلى طهارة نفوس العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب السافرين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواصلين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار المؤمنين عن شهود غير الله . « والسين » تشير إلى سر الله مع الصالحين بالنجاة ، ومع الطالحين بالدرجات ، ومع المؤمنين بدوام النجاة . « والميم » تشير إلى ميته على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والنبات في سبيل الخيرات .

قوله جل ذكره : « تتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقّ لقوم يؤمنون » .

سماح قصة الحبيب من الحبيب بوجوب صلاة القلب ، وذهاب الكرب ، وبهجة السر ، وتلجّ النواذير . وقد كرّر الحق ذكر قصة موسى تضيقاً لثأته وتطلياً لقدره ، ثم زيادة في البيان بلغة القرآن ، ثم إعادة لروايد في المذكور قوله في كل موضع يتكرر فيه .

قوله جل ذكره : « إن فرعون علا في الأرض وجعل

أهلها شيعة يستنصِف طاغية منهم يُدبّح

أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من

الفاشين » .

نَكْبَرُ فِرْعَوْنُ نَبِيرُ حَقٍّ فَأَقْلَهُ بِحَقٍّ ، وَجَبَّرَ نَبِيرُ اسْتَحَقَّ فَأَذَلَهُ اللَّهُ بِاسْتَحَقَّ
وَاسْتَجَبَلْ ، وَجَلَّ أَهْلُهَا شَيْئًا يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ^(١) بِدَمَائِهِمْ ، وَيَسْجَى نَسَاءَهُمْ ، وَأَفْنَى
مِنْهُمْ مَنْ كَانَ (...)^(٢) ، وَبِالْقِسَادِ حَكَمَ فِيهِمْ ، وَاللَّهُ لَمْ يَرْضَ بِتَرْكِ إِتْلَائِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
الْوَارِثِينَ • وَنُكِنَّ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

نريد أن نمُنَّ على المُسْتَضَفِينَ بِالْخَلَاصِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ، بِهِمْ يَهْتَدِي
الْخَلْقُ ، وَمِنْهُمْ يَتْلَمُ النَّاسُ سُلُوكَ طَرِيقِ الصِّدْقِ ، وَنُبَارِكُ فِي أَعْمَارِهِمْ ، فَيَمِيرُونَ وَارِثِينَ لِأَعْمَارِ
مَنْ يَتْلُوهُمْ ، وَتَصِيرُ إِلَيْهِمْ مَا كُنْهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ ؛ فَهَمْ هُذَاءُ وَأَعْلَامٌ ، وَسَادَةٌ وَقَادَةٌ ؛
بِهِمْ يُهْتَدَى وَبُنُورِهِمْ يُهْتَدَى .

« وَنُكِنَّ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ » : نُزِيلُ عَنْهُمْ الْخُوفَ ، وَنُرْزِقُهُمُ الْبَسْطَةَ وَالْاِقْتِدَارَ ، وَنَعِدُ لَهُمْ
فِي الْأَجَلِ . وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَوْمَهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مِنْ زَوَالِ مُلْكِهِمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ ؛
وَأَنْ الْحَقَّ يُعْطَى — وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْخَلْقِ أَنَّهُ يُعْطَى .

قوله جل ذكره : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ
فَلَمَّا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأُوتِيَ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ الرُّسُلِينَ » .

(١) كَانَ سَبَبُ سُلُوكِهِ هَذَا السَّبِيلَ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَكِهَتْ قَالُوا لَهُ أَنْ مَوْلُودًا يُولَدُ لِي إِسْرَائِيلَ يَذْبَحُ
مُلْكَهُ عَلَى يَدَيْهِ ، أَوْ قَالَ لَهُ الْمُتَجَسِّمُونَ ذَلِكَ ، أَوْ رَأَى رُؤْيَا ضَبَرَتْ كَذَلِكَ . قَالَ الرَّجُلُ : الْعَجَبُ مِنْ حَسَنِهِ لَمْ يَدْرُ
أَنْ لَكَاهُنَّ إِنْ صَدَقَ قَاتِلُهُ لَا يَنْتَفِعُ ، وَإِنْ كَلَبَ فَلَا سُنَى لِقَتْلِهِ .
(٢) مُشْتَبِهَةٌ .

أى أُنثى فى قلبها ، وأوحينا إليها وحىَ الحليم ، فأخففت خاطرهما فى ذلك ، وجرى منها ذلك وهى مختارة بالخيرِ أَدْخِلْ عَلَيْهَا .

فما وضعت أم موسى موسى كانت تخاف قتله ، فإن فرعون قَتَلَ فى ذلك اليوم كثيراً من الوُثان للولادة لبنى إسرائيل ، وجاء أن يقتل مَنْ رَأَى فى النوم ما عُبرَ له أن ذعابَ مُلْكِهِ على يدي إسرائيل .. فألقى الله فى قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنا ربَّاه فى جِبرِه ذلك اليوم — لِيُؤْتِمَرَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ لَا تُفَالِبُ .

جبلت أم موسى موسى فى تابوت ، وأقنته فى نيل مصر ، فجاء اللاد به إلى يَرْكَزٍ كان فرعونُ جالساً على حاقها ، فأخذوه وحلوه إليه ، وضعوا رأس التابوت . فلما رآه فرعون أَخَذَتْ رُؤْيَاهُ بمجملِ قلبه ، وكذلك تمكَّن حُبُّه من قلب امرأة فرعون ؛ قال تعالى : « وَأَلْقَيْتْ عَلَيْكَ حَبَّةً مِنْى » : ^(١) حيث خلقَ الله مَلاحةً فى عيني موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُهُ لا يَنَالُكَ مِنْ حَبَّةٍ .

قوله جل ذكره : « فَاتَّقِ آلَ فِرْعَوْنَ لَيْسَ لَهُمْ عُدُوٌّ وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ » .

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأة فرعون :

« قَرِئْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَخْلَوْهُ عَيْنِ
أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

فلم يكن لما ولد ، وهم لا يشعرون إلى ما لنا بشول أمره .

« وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى ظَافِعًا إِنْ
كَانَتْ تَلْتَبِذِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى
قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

(١) آية ٢٩ سورة طه .

لَمَّا أَفْتَتْهُ فِي لَاءِ سَكَنَ اللَّهِ قَلْبَهَا ، وَرَبَطَ عَلَيْهِ ، وَأَلْهَمَهَا الصَّبْرَ ، وَأَصْبَحَ نَوَادِمَا فَارِعًا إِنْ كَادَتْ تُبْدِي بِهِ مِنْ حَيْثُ ضَفَّ (١) الْبَشْرَةَ ، وَلَكِنْ اللَّهُ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا .

قوله جل ذكره : « وَقَالَتْ لِأَخْتِهِ قُصِّيه فَبَصَّرَتْهُ عَنْ

جُنُبٍ وَهِيَ لَا يَشْعُرُونَ » ..

أَمَرَتْ أُمُّ مُوسَى أَخْتَهُ أَنْ تَتَّبِعَ آثَرَهُ ، وَتَنْظُرَ إِلَى مَاذَا يَشُولُ أَمْرُهُ ، فَلَمَّا وَجَدُوهُ وَاسْتَكْنَحَبَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ طَلَبُوا مَنْ يُرْضِيهِ :

« وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ لِلرَّاضِعِ مِنْ قَبْلُ

قَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ • فَرَدَدْنَاهُ

إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

وَلَنَحْنُ أُنْزِلُ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنْ

أَكْثَرْتُمْ لَا بِلَهْوٍ » .

أَبَى مُوسَى قَبُولَ تَدْيٍ وَاحِدَةٍ مِنْ عُرْضَ عَلَيْهِنَ .. فَتَنَ بِالْمُنَادَا كَانُوا فِي اهْتِمَامٍ كَيْفَ يَكْفُلُونَهُ أَمْوَا - وَمِنْ فِي جِهَدِهِمْ - كَيْفَ يَكْفُلُونَهُ (٢) !

فَلَمَّا أَعْيَا أَمْرُهُ ، قَالَتْ لِمَ أَخْتُهُ : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ؟ »

فَقَبِلُوا نَصِيحَتَهَا شَقَّةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ ، وَقَالُوا : نَم ، فَرَدُّوهُ إِلَى أُمِّهِ (٣) ، فَلَمَّا وَصَّصَتْ تَدْيَهَا فِي فَه

ارْتَضَاهَا مُوسَى فَسَرُّوا بِذَلِكَ ، وَكَانُوا يَدْعُونَ أُمَّهَ حَاضَةً وَمَرْضَةً .. وَلَمْ يَخْبِرْهَا ، وَكَانُوا

يَقُولُونَ عَنْ فُوعُونَ : إِنَّهُ أَبَوْهُ .. وَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ (٤) !

(١) حِكَاةً فِي م ، وَهِيَ أَخْبَأُ الْخَاسِعِ فِي مَحْنٍ أَصَابَتْ لِقَظَةً (لَقَظَ) بَدَ (مَضَى) .

(٢) حِكَاةً فِي م ، وَفِي م (يُضَيِّقُونَ) وَهِيَ عَطَاةٌ فِي الْخَسْفِ كَأَنَّهَا رَاضِعٌ .

(٣) حِكَاةً فِي م ، وَفِي م (آثَرَهُ) وَهِيَ عَطَاةٌ فِي الْخَسْفِ كَأَنَّهَا رَاضِعٌ .

(٤) يَنْفَعُ الْفَتَى إِلَى شَيْءٍ بِهِ هُوَ أَنْ أَحْكَامَ الْفَتَى لَيْسَتْ بِالْفُرُودَةِ صَائِبَةٍ ، وَأَنْ لِلْأُمُورِ حَقَائِقُ وَجَوَاهِرُ وَبَوَاطِنُ خَافِيَةٌ ، وَأَنْ أَسْبَابَ الْأَشْيَاءِ وَظَوَائِرُهَا لَا حَرَةَ جَاءَ .

ولما أخذته أمه علت بتصدق الله عليها ، وسكن عن الازعاج قلبها ، وجرى من قصة
فرعون ماجرى .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ
حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »
لَمَّا كَمَلَتْ سِنُهُ وَتَمَّ حَقُّهُ ، وَاسْتَوَى كَمَالَ خَصْلِهِ « آتَيْنَاهُ حُكْمًا » : أَيْ أُنْعَمْنَا لَهُ
التَّحْمِيلَ ، وَوَفَّرْنَا لَهُ الْعِلْمَ ، وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُلُوكُنَا مَعَ الْأَكْبَارِ وَالْأَنْبِيَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ
أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ
شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. الآية . »

قيل : دخل المدينة في وقت المجاعة ، وتفرق الناس ، فوجد فيهما رجلين يتخاصمان أحدهما
إسرائيلي من شيعه موسى وعلى دينه ، والآخر قبطي غالف لها ، فاستأثرت الإسرائيلي بموسى
على القبطي ، فوكره موسى ليدفعه عن الإسرائيلي ، فأتى الرجل بذلك الوكر ، ولم يكن موسى
يقصد قتله ، قال موسى : —

« هَذَا مِنْ حِمْلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ
مُضِلٌّ بَيْنَ » .

قد تمق موسى أن لودعه عنه بأيسر مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان (١) ،
ولكن دفعه عنه بالنزلة نسب إلى الشيطان بأن سمحه على تلك الحدة .

وهكذا .. إذا أراد الله أمراً أنجرى أسباباً ليحصل بها مراده ، ولولاه أنه أراد فتنة موسى
لما قبض روح الرجل بمثل تلك الوكرة ، قد يضرب الرجل الكثير من الضرب والسيوط
ثم لا يموت ؛ فبوت القبطي بوكرة اجراءه لا قضاء وأراد .

(١) يصل ذلك برأى التشييع : أن الشيطان ليس يبدى شيء ؛ لأنه لو كان يبدى شيء لاسلك حل الهداية نفسه ،
وكل عمل الشيطان أنه يوسوس في صدور الناس .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

تاب موسى عما جرى على يده ، واستغفروا له ، وأخبر الله أنه غفر له ، ولا عتاب^(١)

بعد للنفرة .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ بِمَا أَذْنَبْتُ عَلَيَّ فَلَئِنْ

أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْجَرَمِينَ » .

قال موسى ربِّ بما أذنبت عليَّ من توفيتك لي بالثوبة^(٢) فلن أعود بعد ذلك إلى مثل

ما سكَّفت مني .

قوله جل ذكره : « فَأَمِيحُ فِي الدِّينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْرِ يَتَسَخَّرُ مِنْهُ

قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَأَكْثَرُ مِثِينَ •

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِقَ بِالَّذِي هُوَ عِدُوٌّ

لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي

كَأَقْتُلْتَ نَسًا بِالْأَمْرِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ

تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ

أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » .

أميح في الدينة خائفا على نفسه من فرعون لأنه كان يدعى أنه يحكم بالعدل ، وخاف

موسى أن ينسبه أن قتل القبطي إلى الصدِّ والقصد . فهو « يترقب » علم فرعون وأن يُخسِر

بذلك في وقته .

(١) مكانا في التسخين ولا نستبعد أن تكون (مقاب) بالالف فالسياق يجعلها أيضا وإن كانت (مقاب)

أكثر مقام للثوبة .

(٢) حقيقة الثوبة أن يوجب الله عليك أولا ، ويجهل لك أسباب التوثيق لذلك ، فإذا شكرت فاشكر له ، فمساك

لا يكن ولا يفتن من فضل الله .

وقيل « خائفًا » من الله بما جرى من . وقال « خائفًا » على قومه حلول المذابح بهم .
وقيل « يترقب » نصرة الله إليه . وقال « يترقب » مؤنسًا يأنس به .

فلما الذي استنصره بالأمس يخاف من إنسان آخر ، ويستعين به ليُعينه ، فهم موسى بأن
يعين صاحبه ، قال الذي يخافه : « يا موسى ، أريد أن تقاتل كما قتلت نسا بالأمس ؟ » :
قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، ولكن لما قصد منه عن
صاحبه استدلل على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه
الناس أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل .

قوله جل ذكره : « وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى
قال يا موسى إنَّ للآباءِ عَمَرُونَ بِكَ
ليفتوك فاخرجْ إني لك من الناصحين »
جاء إسرائيل من معلوف موسى يسعى ، وقال إن القوم يريدون قتلك ، وأنا واقف على
تديبرهم ؛ وقد أرادوا لإعلام فرعون .. فاخرج من هذا البلد ، إني لك من الناصحين .
« فخرج منها خائفًا يترقب » قال رب
نجني من القوم الظالمين » .

خرج^(١) من مصر « خائفًا » أن يقتضوا أمره ، « يترقب » أن يدركه الطلب ، وقيل
« يترقب » الكفاية والنصرة من الله ، ودعا الله فقال : « نجني من القوم الظالمين » .
قوله جل ذكره « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَلَى رَاسِ
أَنْ يَهْدِيَ سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

(١) ربما يذكرونا موقف موسى بقضية هامة في الطريق الصوي هي والمسلمة : وغرورته أو طمعا ،
وقد اختلف المشايخ في أمره (الرسالة ص ١٤٣) ، ويرى للتشديد ضرورة السفر . إن نأ المكان واشتد البلاد .
(الرسالة ص ٢٠٢) وهو نفسه قادر بلاده على إبطاء الحق عليه .

توجّه بنفسه نفاذ مدين من غير قصد إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح^(١) ،
وتوجّه قلبه إلى ربّه ينتظر أن يهديه ربّه إلى النور الذي هو خير له ، قال : عسى وبى
أن يهدينى إلى أرشد سبيلى .

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْتُونَ وَوَجَدَ مِنْ
دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا ؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْلِيَ
الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

لما وافى مدين شعيب كان وقت المذاكرة ، وكانت لم يثر يستقون منها ، فيصبون الماء
في الحياض ، ويستقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيب النبي عليه السلام قد كُفَّ بصره لكثرة بكائه ؛ ففي القصة أنه بكى فذهب
بصره ، ثم ردّ الله عليه بصره فبكى ، فردّ الله بصره فبكى حتى ذهب بصره ، فأوحى الله إليه :
لَمْ يَكُنْ لِي شُعَيْبٌ .. ! لِمَنْ كَانَ يَكْأُولُ بِلُحُوفِ النَّارِ قَدْ أُمْتُتَكَ ، وإن كان لأجل الجنة قد
أُتْمِتُهُ لَكَ .

قال : ربّ .. إنما أبكى شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أخدمتك نبيّ وكلي
عَشْرَ حَجَجٍ .

وكانت لشعيب أغنام ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت يلبثه تسوقان النعم مكان الرعاة ،
ولم يكن لها قدرة^(٢) على استقاء الماء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقضا^(٣) فإن
يَقِيَّتْ في الحوض بقيّة من الماء استقت بنات شعيب .

(١) ومكانا سفر الأكابر .

(٢) مكانا في مروجي في م (قوة) .

(٣) من الجائر أن تكون في الأصل (انقضوا) بالفاء فالسابق يستعمله دليل قوله فيأيد (فلما انصرف الرعاة)

فلما وافى موسى ذلك اليوم وشاهد ذلك ورأى أن يمان غنهما عن الماء رنّ قلبه لهما وقال :
ما خطبكما ؟ قالتا : « لا نسق حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » وليس لدينا أجير .
فلما انصرف الرعاء سقى لهما ، ثم تولى إلى غلّ جدار يد ذلك . كان الجوع قد أصابه
خلال سفره ، ولم يكن قد تعود قط الرحلة والثرثرة ، ولم يكن معه مال ، فدعا الله :

« قال ربّ إني لـأ أنزكت إلى من

خير قير » .

قيل طلب قوة تزيل جوعه ، وقيل طلب حلاً يستقل بها . والأحسن أن يقال جاع
فطلب كثرة يسد بها رمقه — والفرقة توجب سؤال ما يحتاج إليه من الله قليلاً
أو كثيراً^(١) . فلما انصرف ابتاع شعيب خرّج شعيب إلى ظاهر الصحراء على طريق للنشبة
ليستها يديه فوجد أثر الزيادة في تلك الكثرة ، فألها فذكرنا له القصة ، وما سمعنا منه حين
قال : « ربّ إني لـأ أنزلت إلى من خير قير » ، قال شعيب : إذا هو جائع . وبنت
إحداهما فتدعوّه —

« فجاءته إحداها تمشي على استحياء

قالت إنّ أبى يدعوك ليخبريك أجر

ما سقيت لنا . فلما جاءه وقصّ عليه

القصّ قال لا تخفّ تجوت من

القوم الظالمين »

قيل إنما استحييت لأنها كانت مخاطبة من لم يكن لها محرماً^(٢) .

وقيل لما دعته للضيافة نكلت مستحبة — فالكرم يستحي من الضيافة .

ويقال لم تطلب نفس شعيب لما أحسن موسى إليه وأنه^(٣) لم يكافئه — وإن كان موسى

(١) لاحظ كيف طبق القشيري (أدب الغزال) متى يجب لا وكيف يجب ؟ على موقف موسى للتريب المسافر

المجالع المنصب ، وهذه الإشارة موجبة من بين إلى أبواب الطريق .

(٢) الحرم من الرجال والنساء الذي يحرم للتزوجه لرحمه وقرباه .

(٣) القشيري في (وأنه) يعود على شعيب كما هو واضح من الآية .

لم يُردْ مكافأةً منهم « فلما جاءه وقصَّ عليه القصص » : لم يَقلْ : فلما جاءه قَدَمُ الشَّجرة (١) بل قال : وقصَّ عليه القصص .. وهذا طَرَفٌ من قصته .

وقال : وَرَدَ بظاهره ماء مدين ، وَوَرَدَ بقلبه مواردُ الأُنسِ والروح . وللوارد مختلفة ؛ فواردُ القلبِ رِيشُ البَسطِ بكشوفاتِ الحاضرة فيطربون بأنواعِ الملاطفة ، ومواردُ الأرواحِ مشاهدُ الأرواحِ فيكَاشِفُونُ بأنوارِ الشاهدة ، فيخيِّبون عن كلِّ إحساسٍ بالنفسِ ، ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ .. وعند ذلك الولاية لله ؛ فلا نفسَ ولا حسَّ ، ولا قلبَ ولا أنسَ .. استهلاكٌ في الصدية وفناء بالكلية ١ .

وقال كانت الأجنبيَّة والبيد عن الحرميَّة يوجيان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراض والسكون عن سؤالها .. ولكن الذي بينهما من الشاكلة وللواقعة بالشرِّ استمطقة حتى سألها عن قمتها ، كاقيل :

أَجَارَكُنَا إِنَّا غُرِيانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ غَرِيبٍ نَسِيبُ
ويقال : لَمَّا سَأَلَهَا وَأَخْبَرَتَا عَنْ ضَمَنِمَا لَزِمَ التَّيَامُ بِأَرْحَامِ؛ لِيُصَلِّمْ أَنَّ مَنْ تَقَعَّدَ أَمْرَ الضَّمَانِ
ووقف على موضع فاقهم لزمه إشكاؤهم .

ويقال مِنْ كَالِ الْبَلَاءِ عَلَى مُوسَى أَنَّهُ وَافَى النَّاسَ وَكَانَ جَائِسًا ، وَكَانَ مَقْتَضَى الرَّقِي أَنْ يُطْلِمِيهِ ، وَلَكِنَّهُ قَبَضَ التَّلَوِّبَ عَنْهُ ، وَاسْتَبْلَه مِنْ مَوْجِبَاتِ حُكْمِ الْوَقْتِ أَنْ يَمْلَأَ عَمَلُ أَرْبَعِينَ رَجُلًا ؛ لِأَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي نَحَّاهَا عَنْ رَأْسِ الْبَثْرِ — وَحَدَّه — كَانَ يَنْقُلُ أَرْبَعُونَ رَجُلًا ، فَلَمَّا عَمِلَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا ، تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، وَقَالَ : لِمَنْ رَأَيْتَ أَنْ تُطْلِمَسِي بَعْدَ مُقَامَةِ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ .. فَذَلِكَ فَضْلُكَ ١ .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسان أحلى من ذلك . وَسُئِلَ الشُّكْرَى أَنْ تُكُونَ إِلَيْهِ لَا مِنْكَ .. بل منه إليه (٢) .

(١) السَّجْدَةُ طَعَامٌ يَصْنَعُ السَّافِرُ ، أَوْ مَانِعَةٌ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ طَعَامٍ .

(٢) لِأَنَّكَ بِلَا أُنْتِ ، فِالْفَرُودَةِ لَيْسَ مِنْكَ شُكْرَى ، فَكُلُّ الْحَقِيقَةِ لَا وَجُودَ إِلَّا لَهُ ، فَاتْرَكَهُ مَعَكُمْ بِمَنْتَانِكُمْ ، وَاسْتَلِمَ مَا يَنْجُو ، وَلَنْ يَكُونَ إِلَّا الْخَيْرُ .

ونوارث الأنبياء، واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلما أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب :
 رُدَّهَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَاطْرَحْهَا فِيهِ ، وَأَخْرِجْ عَصَا أُخْرَى ، فَقَعَلَ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَلَمْ تَحْمَلْ كُلَّ مَرَّةٍ
 فِي يَدِهِ إِلَّا تِلْكَ الْعَصَا ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ ذَلِكَ عَلَى شُعَيْبٍ أَنَّ لَهُ شَأْنًا فَأَعْلَاهُ إِيَّاهَا ،
 وَفِي الْقِصَّةِ : أَنَّهُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ سَاقَ غَنَمَهُ ، وَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ : إِنَّ طَرِيقَكَ يَتَشَعَّبُ شِعْبَيْنِ :
 عَلَى أَحَدِهِمَا كَلًّا كَثِيرٌ .. فَلَا تَسْلُكُهُ فِي الرَّبْعِ فَإِنَّ فِيهِ ثِمَانًا ، وَاسْلُكِ الشَّعْبَ الْآخَرَ .
 فَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى مَرَقِيَّ الطَّرِيقَيْنِ ، تَفَرَّقَتْ أَغْنَامُهُ وَلَمْ تَطَاوِعْهُ ، وَسَامَتْ فِي الشَّعْبِ الْكَبِيرِ
 الْكَلَالُ ، فَتَبِعَهَا ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ النُّومُ ، فَلَمَّا أَثْبَهَ رَأَى الثِّمَانَ مَقْتُولًا ، فَإِنَّ الْمَصَافِقَةَ ، وَلَمَّا
 انْصَرَفَ أَخْبَرَ شُعَيْبًا بِذَلِكَ فَصَرَّ بِهِ . وَهَكَذَا كَانَ يَرَى مُوسَى فِي عَصَاهُ آيَاتٍ كَثِيرَةً ،
 وَلَمَّا قَالَ : « وَلِي فِيهَا مَا رَبَّ أُخْرَى » .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَفَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ
 آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ
 امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ
 مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ
 تَصْطَلُونَ » .

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ ، وَأَرَادَ مُوسَى الْخُرُوجَ إِلَى مِصْرَ ، فَحَمَلَتْ ابْنَتَهُ شُعَيْبٌ ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ
 مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ . نَسَكَانَ أَهْلُهُ فِي تَسْيِيرِهِ وَكَانَ هُوَ فِي تَسْيِيرِ الْحَقِّ ، وَلَمَّا ظَهَرَ مَا ظَهَرَ بِأَمْرِهِ
 مِنْ أَمْرِ الطُّوفَانِ اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ الْوَقْتُ ، وَيَتَنَاهَوُ كَذَلِكَ إِذْ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا
 — أَيْ أَبْصَرَ وَرَأَى — فَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى رُؤْيَةٍ فِيهَا نَوْعٌ أَنْسَى : وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا
 : رَمَى . يَأْتِي ٥ . وَلَوْ لَمْ تَقَعْ تِلْكَ الْحَالَةُ لَمْ يَخْرُجْ مُوسَى عَنْهَا يَلْتَنَسُ النَّارَ ، وَقَدْ تَوَهَّمْ
 — أَوَّلَ الْأَمْرِ — أَنَّ مَا يَسْتَقْبِلُهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ جَمَلَةِ الْبِلَادِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ
 سَبَبٌ تَعْقِيقِ النَّبُوَّةِ . فَلَوْلَا أَسْرَارُ التَّقْدِيرِ — الَّتِي لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا الْخَلْقُ — لَمَّا قَالَ لِأَهْلِهِ :
 « امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ » .

ويقال : ألأح له ناراً ثم نُوح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان القصدُ النَّارَ ولا النورَ وإنما سماع نداء : « إني أنا الله ربُّ المالكين » .

قوله جل ذكره : « فلما أتاهما نُودى من شاطئ الوادِ

الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة

أن ... الآية

أخفى تعيين قَدَم موسى على الفنون بهذا الخطاب حيث قال : « من شاطئ الوادِ الأيمن » ، ثم قال : « في البقعة المباركة » ثم قال « من الشجرة » .

وأخبر بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فمئذها سمع خطاب مولاه بلا واسطة ؛ وأعزُّ الأما كن في العالم مشهَدُ الأحباب :

وإني لأهوى النارَ ما يستزني لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال : كم قَدَمٍ وُطئتْ لك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابها بها شيئاً ! . وكلُّ ليلَةٍ جَنَّتْ تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شئٌ ! .

ويقال : شتان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور عنته وقتته ، وشجرة موسى وعندها اقتلاحُ نبوته ورسالته ! .

ويقال : لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة^(١) ، ولا يُدرى ما التقى كانت شجرة ، بل هي شجرة الوصلة ؛ وغرمتها القرية ، وأصلها في أرض الحبة وفرعها يابسٌ في سماء الصفاة ، وأوراقها الزفة ، وأزهارها تنفّخُ عن نسيم الرُّوح والبهجة :

فلما سمع^(٢) موسى تنبؤ عليه الحال ؛ ففى القصة : أنه غشى عليه ، وأرسل الله إليه لللائكة يُروِّحونه بمراوح الأنس ، وهنا كان في ابتداء الأمر ، واللبثُ مرفوق به . وفى المرة الأخرى خرَّ موسى صمغاً ، وكان يقيق لللائكة قولاً له : يا ابن الحيف . امتلك من يسأل الرؤية ؟ !

(١) قيل هي شجرة البليق وقيل المومج والمومج إذا عظم يقال له الفرقة (القرطبي) .

(٢) معروف أن الماع عند الصوفية يصعبه - خصوصاً لدى المبتدئين - تأثيرات عضوية ونفسية حادة

وكذا الحديث والتصة^(١) ؛ في البداية كُفِّت وفي النهاية عُنْفٌ ، في الأول خُتِلَ وفي الآخر قُتِلَ ، كما قيل :

فَمَا دَارَتْ الصَّهْبَاءُ^(٢) دَمَا بِالتَّلَطُّعِ وَالسِّيفِ
كَذَا مَنْ يَشْرِبُ إِرَاحَ مَعَ التَّنِينِ فِي الصَّيْفِ^(٣)
قوله جل ذكره : « وَأَنْ أَلْقِيَا عَصَاكَ » .

يا موسى .. اخْلَعْ فَمَلِكًا وَالْقُلُوبَ فَتَحْ ، وَأَرْعَمْ عِنْدَنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ ، فَلَقَدْ تَعَبْتَ فِي الطَّرِيقِ — وَفَإِنَّكَ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَنْفَارِ فَهُوَ عَا يَلِيقُ بِكَ الْحَالُ .

يا موسى .. كَيْفَ كُنْتَ فِي الطَّرِيقِ ؟ كَيْفَ صَعَدْتَ وَكَيْفَ صَوَّبْتَ^(٤) وَكَيْفَ شَرَعْتَ وَكَيْفَ غَرَبْتَ ؟ مَا كُنْتَ فِي الطَّرِيقِ وَحْدَكَ يَا مُوسَى ! أَحْصَيْنَا خَطَاكَ — هَدَّ أَحْصَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا . يَا مُوسَى .. تَعَبْتَ فَاسْتَرْحَ ، وَبَدَّ مَا جِئْتَ فَلَا تَبْرَحْ — كَذَلِكَ الْعَبْدُ غَدًا إِذَا قَطَعَ لِلسَّاقَةِ فِي الْقِيَامَةِ ، وَتَبَوَّأَ مَنَازِلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ؛ فَأَقْوَامٌ إِذَا دَخَلُوهَا رَجَعُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ ثُمَّ يَوْمَ الْقَاءِ يَسْتَحْضِرُونَ ، وَآخَرُونَ يَمْضُونَ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَى بَسَاطِ الزَّلَاقَةِ ، وَكَذَا الْعَبْدُ أَوْ الْخَادِمُ إِذَا دَخَلَ بَيْتَ سُلْطَانِهِ . يَتَدَبَّرُ أَوَّلًا بِخَلْمَةِ الْمُنَادِيَةِ الْقَلْبِيَّةِ ثُمَّ يَبْدَأُ بِالنَّصْرِفِ إِلَى مَنَازِلِهِ . وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ أَمْرًا^(٥) ؛ إِذَا أَحْصَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ : أَلَا نَسْتَفِيزُ بِشَيْءٍ حَتَّى نَفْتَتِحَ النَّهَارَ بِالْمَطْلَبِ مَعَ الْحَقِّ قَبْلَ أَنْ نَخَاطِبَ الْخَلْقَ ، نَحْضُرُ بِسَاطِ الْخَلْمَةِ — أَيْ الصَّلَاةِ — بَلْ نَحْضُرُ بِسَاطِ الدُّنُوِّ وَالْقُرْبَةِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ »^(٦) : فَالْمَصَلَّى مُتَأَجِّجٌ رَبِّهِ . وَلَوْ عَلِمَ الْمَصَلَّى مَنْ

(١) يقصد حديث الحب وقصة

(٢) الرواية الصحيحة قالوا دارت لكأسه .

(٣) البيت من المقطعة التي أنشدها الخلاج وهو يوابه مصرعه ، ولولها :

تَدَبَّرِي فِيمَ مَقْصُوفٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَلْفِ

(طَبَقَاتُ الشُّعْرَاءِ ١٠ ص ١٢٠)

(٤) حَكَاهُ فِيهِ يَمْنَى ، وَغَرَبْتَ فِي الْأَرْضِ أَيْ جَالَ وَسَارَ ، وَكَهْ أَهْبَتْنَا (صَوَّبْتَ) لِنَتْلَامِ مَعَ الْأَصَالِ الْإِسْمِيَّةِ حِينَئِذٍ نَعْرِفُ مِنْ حَرَمِ الشُّعْرَى عَلَى الْمَوْسِقِ الْفَلْطَةِ .

(٥) مِنْ هَذَا تَقَرُّمُ أَنَّ الشُّعْرَى يَكْتُبُ كِتَابَهُ أَوْ يَلِجُ مِنْ أَجْلِ الصَّوْقَةِ ، فَتَبْسِيرُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَدُلُّ عَلَى نَوْعٍ مِنَ التَّصْنِيفِ .

(٦) آيَةُ ١٩ سُورَةِ الطُّفِّ .

بناهي ما التفت ؛ أي لم يخرج من صلته ولم يلفظ عينا وشمالاً في التسليم الذي هو التحليل^(١).
 قوله جل ذكره : « فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » .

عند ما اهتلت العصا حيةً ولَّى موسى مُدْبِرًا ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول :
 حديث أوله تسليطُ شيطانٍ آمنٌ ذا طليقٍ أوله ؟ ١ .

قيل له : لا تخفْ ياموسى ؛ إن الذى يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ المصاحبةَ يَقْدِرُ أَنْ يَخْلُقَ لك منها
 السلامة : « ياموسى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » : ليس المقصودُ مِنْ هَذَا أَنْتَ ،
 إِنَّمَا أُثْبِتَ هَذَا لِأَسْطَلَهَ عَلَى عَدُوِّكَ ، فهذه مجزئتك إلى قومك ، وأَيْتُكَ عَلَى عَدُوِّكَ .

وقال: شتان بين نبينا — صلى الله عليه وسلم — وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من معارج
 الخطاب وأتى بشبانٍ سَلَطَهُ عَلَى عَدُوِّهِ ، وبيننا — صلى الله عليه وسلم — رجع بعد ما أَسْرَى
 به إلى السماء ، وأوحى إليه ما أوحى — لِيُؤَاقِفَ أُمَّتَهُ بِالصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ لِلنَّجَاةِ ، وقيل له :
 السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقال : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قوله جل ذكره : « اسْكُتْ بِذِكِّكَ فِي جَيْبِكَ فَيُخْرِجُ بِضَاءَهُ

مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَاضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ
 مِنَ الرَّهْبِ فَذَايِكَ يُرْهَاتَانِ مِنْ رَبِّكَ
 إِلَى فُرْعُونَ وَمَلَكِهِ لَهُمْ كَانُوا قَوْمًا
 فَاسِقِينَ » .

قيل له : اسْكُتْ بِذِكِّكَ فِي جَيْبِكَ ؛ لِأَنَّ اللُّدْرَةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ لَهَا سَلَمٌ .
 وفي هذا إشارة إلى أنه يبنى على اللزء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يَشْتَرَى ، وأن يَحْدِّثَ ،

(١) التحليل: الإبادة ، وللمقصود هنا أنه عقب التسليم يقول له أن تضابط الخلق وأن يشتغل بشئ بهما تمت
 شأجته مع الخلق ، تلك المناجاة التي يؤثر التشهير دولها واستمرارها . وسطوح أن الصوفية إذا أنهرأ صلاتهم
 يسترون في الذكر والتمل دون حدود .

وَأَنْ يُخْرِجَ بَدَنَهُ مِنْ كَهْنِهِ . وَإِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى : أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا ، وَأَلْقِ
عَصَاكَ فَيَهْبِطُ مَيْمَنًا ، بِلَا ضَرْبِكَ بِهَا ، وَلَا اسْتِمَالِكَ لَهَا بِأَمْرٍ بِنَا لَا بِكَ ،
وَأَنَا لَا أَتُ .

« دَاخِمَ إِلَيْكَ جَنَابَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بَرَهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ » : يَا مُوسَى ، فِي وَصْفِ
خُضُوعِكَ تَجِدُنِي ، وَتَجَرِّبُكَ عَنْ حَوَالِكَ وَقُوَّتِكَ تَصِلُ إِلَيَّ .

قوله جل ذكره « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِي » :

تَمَلَّ بِكُلِّ وَجْهِ رَبَّيَا أَنْ بُعِثَ مِنْ مَشَقَّةِ التَّبْلِيغِ وَمَقْلَسَةِ الْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ النُّبُوَّةَ
فِيهَا مَشَقَّةٌ ، فَلَمْ يَحْذَرِ الرُّخْصَةَ وَالْإِعْآاءَ مِمَّا كُتِفَ ، وَأَجْلَبَ سُؤْلُهُ فِي أَخِيهِ حَيْثُ سَأَلَهُ أَنْ
يَجْعَلَ لَهُ رِدْءًا ، وَضَمَّنَ لَهَا النُّصْرَةَ .

ثُمَّ إِنَّمَا كَانَتْ أُنْيَا فِرْعَوْنَ قَابِلَهُمَا بِالتَّكْذِيبِ وَالْجَحْدِ^(١) ، وَرَمَاهُمَا بِالْخَطَا وَالْكَذِبِ
وَالسَّحَرِ^(٢) ، وَجَاوَبَاهُ^(٣) بِالْحُجَّةِ ، وَدَعَوَاهُ إِلَى سَوَاءِ الْحُجَّةِ ، فَأَبَى إِلَّا الْجَحْدَ .

قوله جل ذكره « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ
مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى
الطَّرِيقِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَأَسْأَلَ أَطْلُغُ
إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ
الْكَاذِبِينَ » .

ادَّعَى الْإِثْرَ الْإِلَهِيَّ فَزَادَ فِي ضَلَالِهِ عَلَى عِبْدَةِ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ جَلُّوا أَصْنَائَهُمْ شُرَكَاءَ ،
ثُمَّ قَالَ لِهَامَانَ : « ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى » وَكَانَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ ضَلَالِهِ ،

(١) (وَالْجَحْدُ) مَوْجُودَةٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودَةٌ فِي ص .

(٢) (وَالسَّحَرُ) مَوْجُودَةٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودَةٌ فِي م .

(٣) هَكَذَا فِي م وَهِيَ فِي ص (وَسَارِبًا) .

حيث نَوْهَمُ أَنْ للعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولمسرى لو كان في جهة
لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه .

« واستكبر هو وجنوده في الأرضِ

بغير الحقِّ وعلّوا أَنهم إلينا لا يُرجعون »

فأخذناه وجنوده فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ

كيف كان عاقبة الظالمين . »

أَبَى إِلَّا أَنْ يَدْرِمَ جَعْدُهُ ، وعُنوده ، فأغرقه الله في البحر ، كما أغرق قلبه في

بحر الكُفْرِ .

قوله جل ذكره : « وجعلناهم أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْبُطْرِ

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ » .

لَا لِشَرِّفِهِمْ جَعْلُهُمْ أُمَّةً وَلَكِنْ لِسَبِّ تَلَفِهِمْ قَدَمَهُمْ فِي الْخُرَى وَالْهَوَانِ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ ،

وَلَكِنْ لَمْ يُرْتَدِّدُوا إِلَّا إِلَى الضَّلَالِ . وَلَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ إِلَّا عَلَى الْبُحْتَالِ ، وَمَا حَصَلُوا إِلَّا عَلَى

سُوءِ الْحَالِ ، وَمَا ذَاقُوا إِلَّا خِزْيَ الْوَهَالِ . أَفَاضُوا عَلَى مُتَّبِعِيهِمْ مِنْ ظِلْمَاتِ قُلُوبِهِمْ فَاقْتَضَعُوا

فِي خِصَّةٍ^(١) مَطْلَبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَأَتَيْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمُنكَرِينَ » .

كَانُوا فِي الدُّنْيَا مُبْعِدِينَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مُبْعِدِينَ عَنْ مَغْفِرَتِهِ ، فَأَغْلَبُوا مِنْ

طَرَفٍ إِلَى طَرَفٍ ، وَمِنْ هَجَرٍ إِلَى بُعْدٍ ، وَمِنْ فَوَاقٍ إِلَى احْتِرَاقٍ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ

بَعْدِ مَا أَمْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصِيرَةً

(١) هكذا في م وهي في ص (حبة)

لنفسٍ وهْدَى وَحْمَةً لَمَلِمَ
يَقْدَرُونَ .

إنما طُلب للنازل إذا خَلَّتْ من الأجانب ، وأطِيب الساكن ما كانت زينتها يَنْقَدُ
الرُّقْبَةُ وَغَيْبَتِمْ ، فلما أَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وقَوْمَهُ ، وأورث بنى إسرائيل أموالهم وديارهم ،
وعامن جميعها آثارهم — طَلَبَ لهم العِيشُ وطلَّتْ عليهم شُموسُ السعادة .
قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِّى » إذ قَفَيْنَا
إلى موسى الأمرَ وما كُنْتَ من
الشاعدين .

لم تكن حاضراً فصرف ذلك مشلعةً ، ولكنهم رأوا أن إخبارك عنهم بحيث لا يكذبك
كتابهم . وبالضرورة عرفوا حالك ، وكيف أنك لم تعلم هذا من أحد ، ولا قرأته من
كتاب ، لأنك أُمِّي لا تُحَسِّنُ القراءة ، وإذا فليس إخبارك إلا بمرئنا إليك ، وإطلاعا
لك على ذلك .

وقال : « وما كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرِّى » : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ،
وكلمناه ، وخطبناه في بابك وبابِ أُمَّتِكَ ، ولم تَدْعِ غَيْبَتَكُمْ في الحال ، وَكُوْنِي لَكُمْ
خبرٌ من كُوْنِكُمْ لَكُمْ .

وقال : لَمَّا خَاطَبَ موسى وَكَلَّمَهُ سألَهُ موسى : إني أرى في التوراة أُمَّةً صَفَّتْهُمْ كذا
وكذا .. مَنْ هُمْ ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجَابُ بأنها أمة أحمد^(١) ،
فلشاق موسى إلى قاتنا ، قال له : إنه ليس اليوم وقت ظهورهم ، فإن شِئْتَ أَمْسَتَكَ
كلامهم ، فأراد أن يسمع كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمة أحمد .. فاجاب السكُن من أصلا ب
آبائهم ، سمع موسى كلامهم ولم يَدْرِ كُفَّهُمْ^(٢) . والفنى إذا سألَهُ قَهِيرٌ وأجابه لا يرضى بأن

(١) هكذا في م وهي في م (أمة محمد) ، ونسب أن الأرجح أن تكون أحمد طبقاً لقاية ومبشراً برسول
يأت من بعض اسمه أحمد .

(٢) تنسب هذه الرواية إلى وهب (القرطبي ١٣٥ ص ٢٦٢) .

يردّه من غير إحسان إليه . (وفي رواية عن ابن عباس) ^(١) أن الله قال : « يا أمة محمد قد أجبتمكم قبل أن تعرفوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، ورحمتكم قبل أن تسرحوني » .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ ثالوثاً ^(٢) في أهل مدين

تطو عليهم آياتنا ولكنا كنّا مرسلين »

وما كان موسى عليه السلام يطوه عليهم من الآيات ذِكرُ نبينا صلى الله عليه وسلم بالجميل .
وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن في الوجود نُحدثُ مخلوق وفي ذكره متعلق لا باستفاح .
ولم نكن في القدم أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم وللشيئة .
وذكرنا في الخطاب الأزلي والكلام الصمدى والقول الأبدى .

قوله جل ذكره : « وما كُنتَ بجانب الطور إذ نادينا

ولكن رحمة من ربك لتُنذِرَ قوماً

ما أنتم من نذيرين قَوْلِكَ لعلهم

يتذكرون » .

ما طلبه موسى لأمة جللناه لأمتك ، وكما نادينا موسى — وهو في الوجود والظهور —

ناديناكم وأتم في كتم القدم ، أنشدوا :

كُنْ لِي كَمَا كُنْتَ فِي حَالٍ لَمْ أَكُنْ

قوله جل ذكره : « ولولا أن نُصِيبَهُمْ مُصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ

أبليسهم فيقولوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

رسولاً فَنُخَيِّبَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنْ

الظالمين » • قلّا جاءهم الحق من عندنا

(١) أضفنا ما بين قوسين من معنا لنكتب الرواية بكاملها فهي قائمة في المتن .

(٢) ثالوثاً ومعنيهاً .. قال السجّاج : ثبات حيث يدخل الثرى : أى الصيف المقم »

قالوا لولا أوتى ينزل ما أوتى موسى
أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل
قالوا سيحران تظاهرا وقالوا إنا بكل
كافرون .

تمنوا في زمان الفترة أن يمت الله إليهم رسولا ليهتدوا به ، ووعدوا من أخصيهم الإيمان
والإجابة ، فلما أتم الرسول كذبوه ، وقالوا : ملا جمن بمنزل معجزات موسى في الظهور ،
وكان ذلك منهم خطأ ، واقتراحاً في غير موضع الحاجة ، وتحسباً بعد إزاحة اليقوت :
وكذا للول إنا أراد قطعة ممل الرمال وقال كان وكانا
ثم قال : ألا تذكرون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموها بالسحر ؟
وقال : إن أردتم أن هذا الكتاب من عند الله فأتوا بكتاب مثله ، واستعينوا
بشركائكم . ومن وقته إلى يومنا هذا لم يأت أحد بسورة مثله ، وإلى القيامة لا يأتون
بكتاب مثله .

قوله جل ذكره : « ولقد وصّلنا لم القول لمكهم
جذرون » .

أتمنا رسولا بدرسول ، وأردنا كتاباً بكتاب ، فما ازدادوا إلا كفراً وثبورا ،
وجعنا وعثوا .. فلا إلى الحق رجعوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .
قوله جل ذكره : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم
به يؤمنون » .

من أكلنا بصيرتهم بنور الهداية صدّقوا بمتفضي مساعدة الناية ، ومن أعييناهم عن شهود
التحقيق ولم ناعده لطائف التوفيق انعكس في غوايته ، وانهمك في ضلاله .
قوله جل ذكره : « وإنا ينزل عليهم قالوا آمنا به إنه
الحق من ربنا إنا كنّا من قبله
مسلمين » .

إذا سمعوا دعوتنا فابوها بالتصديق ، واقتلوا بحسن الاسلام ، فلا جرم يؤتون
أجرهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجلهم ، مرة في الآخرة
وهي للثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف الثمرة .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّا نَسْمُوهُمُ أَقْنُوْا أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا

لَنَا أَعْمَالٌ وَلَكُمُ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ

لَا نَبْنِيُّ الْجَاهِلِيْنَ » .

« اَقْنُوْا » : ما يُلقَى عن الله . وقال « اَقْنُوْا » ما لا يوجب وسيلة عند الله ، وقال

ما لا يكون بالحق للحق ، وقال هو ما صدر عن قلب غافل ، ويقال هو ما يوجب
سماعه السهو .

قوله جل ذكره : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِيْنَ » ^(١) .

الهداية في الحقيقة إمالة القلب من الباطل إلى الحق ، وذلك من خصائص قدرة الحق

— سبحانه — وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق — توسعاً ، وذلك جائز بل واجب

في صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وَإِنَّكَ تَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وقال : لَكَ شَرَفُ النُّبُوَّةِ ، ومنزلة الرسالة ، وجمال السفارة ، وللقام الحمود ،

والخوض للورود ، (وأنت سيد ولد آدم .. ولكنك لا تهدي من أحببت ؛ فخصائص

الربوبية لاتصلح) ^(٢) لِيَنْ وَصَفَهُ الْبَشَرِيَّةُ .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَمَّاكَ

نَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَمْ

(١) قال ابراهيم بن الزنج : أجمع للمفسرود أن هذه الآية قرئت في أبي طالب حين أبي أن يغلق كتابه

وقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال الرسول (ص) : لا تستفرون لك ما أم أنه عليك (أسباب النزول للواحدي ص ٢٢٨)

(٢) ما بين القوسين موجود في م وسائط في ص .

حرّما آميناً يُجَنَّبِي إِلَهَ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقَاتَيْنِ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قالوا تخلف الأعراب على أخصنا إن صدقناك ، وأمتنايك ، (لإجماعهم على خلافتنا ولا علاقة لنا بهم) (١) قال الله تعالى : وكيف تخافونهم وترون الله أنظركم على عدوكم ، وعكفنا بعظيم يحكم ، وجلنا مكة تُجَنَّبِي إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَفْطَارِ الدُّنْيَا ؟
ويقال من قام بحق الله - سبحانه - سخر له الكون بجملة ، ومن اشتغل برواية سيئه لله ، وقام بحق الله ، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكَنَّ من التصرف بجملة في ملكة الله ؛ فالعقل مستغفر له ، والوقت طوع أمره ، والحق - سبحانه - متولوا (٢) أياه وأعماله يُحَقِّقُ غَلَّةً ، وَلَا يَسْبَحُ حَتَّى .

أما الذي لا يلبس فيك في أودية ضلّاه ، ويقي (٣) في منازل خزّيه ، ويؤو برز هواه .
قوله جل ذكره : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ بَطُورَتٍ مَسِيَّتَهَا فَتَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَدِيمٍ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » .

لم يعرفوا قدر نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظّم أمورهم ، فاهلوا في أودية الكثران على وجوههم ، ففَرَّوْا فِي أودية الضلال على أذقانهم ، وأذاقهم الله من كساتِ الحوان ما كسر خاز بطونهم ؛ فلما كنهم منهم خالية ، وسقوفها عليهم خاوية ، وغيران الدمار فيها ناعية .

(١) ما بين القوسين غير موجود في النص ، ولكنها تنسب لزول الآية كما أورده القواسم ، حيث ذكر أن الآية نزلت في الحارث بن عمار بن عبد مناف الذي قال النبي (ص) : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكن يمتنع من ابتاطك أنا تخاف الخ (أسباب النزول للقاسم ص ٢٢٨) .
(٢) ومن هذا المطلق يصدر التشديد رأيه في (الولاية) وما يتصل بها من (الكرامة) .
(٣) مكاناً في الأصل وهي تحمل معنيين : التكبير ، والفضل في الأرض .

قوله جل ذكره: «وما كان ربك مهابتاً ترى حتى

يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا .

وما كننا مُهلِكِي الْقَرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَالِمُونَ » .

« وما كان ربك مُهْلِكُ الْقَرَى حتى يبعث في أمها رسولا » : بالتكليف يأمرهم . ويأمر

التكوير - على ما يريد - يقتهم . وهو - سبحانه - يبعث الرسل إنذاراً ويصلي السبل

عليهم اقتداراً ؛ بوضوح الحجة بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّادَةُ :
بِحُكْمِ الْقِسْمَةِ .

قوله جل ذكره: «وما أوتيتم حينئذٍ مَنَعًا مِنَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَزَيَّتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ » .

الدُّنْيَا حُلَّةٌ خَفِيفَةٌ ، ولكنها في التحقيق مَرَّةٌ مَدِيرَةٌ ^(١) ، فَيُبَشِّرُهَا يَوْمَ أَنَّهَا صَفْوَةٌ

ولكن من وراء صَفْوَتِهَا حَسْرَةٌ ^(٢) ، وما عند الله خيرٌ وأبقى .

قوله جل ذكره: « أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ

كَأَنَّمْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

فَمَنْ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ

الْمُخْضَرِّينَ » ^(٣) .

الدُّنْيَا مَسْمُومٌ حَفِظْلَهَا تَلَوْ طَمُومٌ صَلَّيْهَا ، وَتَلَفَ مَا يَحْصُلُ مِنْ شَرِبِهَا يَنْقَبُ لُطْفٌ مَا يَنْقَبُ :

(١) ملوت البيضاء ملوآ - فسدت ، فهي ملوآ ، وملوت معناه أي خبثت وفسدت (الوسيط) .

(٢) يقال يوم كعس الطائر أي قصير جداً ، ويوم كعس الطائر أي قليل متقطع .

(٣) من مجامد أن هذه الآية نزلت في حل وسيرة وأبي جهل .

وقال السدي : نزلت في جابر ولوليد بن المغيرة

وقيل نزلت في النبي (ص) وأبي جهل .

من أربها ، وليس من أكريم يوجدان نعم عقابه كمن مئى بالوقوع فى جحيم دنياه
قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول أين شرُّكم ؟ »
الذين كنتم ترععون ؟ » .

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التصليل .. ولأفمن أين لم الجواب
فضلاً من الصواب ! والذى يألم هو الذى على ما شاء جعلهم ؛ فما وردَ قيلَ إلا على فيه ،
وما صدرَ ما صدرَ إلا من أصله . وإذ تَبَرَّأَ بعضهم من بعض بينَ أنه لم يكن للأصنام
استحقاقُ العبودية ، ولا لأحدٍ من النقي والإمتهات والإيعاد والإحسانِ ذَرَّةٌ أو منه شظيئة ..
كلّا بل هو الواحد القهار .

قوله جل ذكره : « ويوم يناديهم فيقول ما ذا أجبتُم
المرسلين » .

يألم سؤالُ هيبَةٍ ؛ فلا يَسْتَقِى لم تمييزٍ ، ولا قوَّةَ عقلٍ ، ولا مُكْنَةَ جوابٍ ،
قال جلّ ذكره :

« فَسَمِعَتْ عَلَيْهِمُ الْآبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ
لا يَسْمَعُونَ » .

إذ استوت عليهم الخيرةُ ، واستمكن منهم الفهمُ ؛ فلا طُفُقَ ولا عقلَ ولا تمييزَ
ولا فهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ تَبَى وَأَمَّنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَنَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُتَذَكِّرِينَ »
ووليك يَخْلُقُ ما يشاء ويختارُ ما كان
لم الخيرةُ سبحانه الله وتعالى عما
يُشْرِكُونَ » .

يُختار ما يشاء وَمَنْ يشاء من جملة ما يخلق . وَمَنْ ليس إليه شيء من الخلق .
فأله والاختيار ؟

الاختيارُ الحقُّ استحقاقُ عِزٍّ يوجبُ أن يكون ذلك له ، لأنه لو لم يُنفذْ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العِزِّ ، فمن يَتَّي عن مراده لا يكون إلا ذليلاً ؛ فالاختيارُ الحقُّ نصتُ عِزٍّ .
والاختيارُ المخلوقُ صفةٌ تخصُّ وقتَ بلاءٍ وقصور ؛ فاختيارُ العبدِ غيرُ مُبارَكٍ عليه لأنه صفةٌ هو غيرُ مُستحقٍّ لها ، وَمَنْ أصف بما لا يليق به اخضع في نفسه ، قال قائلهم :

ومعالي إذا ادعاهما سواء كَرِمته جَنابُهُ السُّراقِ

والطينة إذا ادعت ما هو صفة الحق أظهرت رعونتها ، فالإنسان والاختيار ؟
وما للمملوك والملك ؟ وما للعبد والتصدُّر في دَسْتِ^(١) الملوك ؟

قال تعالى : « ما كان لم الخيرة سبحانه الله تعالى عما يشركون »^(٢)

قوله جل ذكره : « وربك يعلم ما تُكنُّ صدورهم
وما يُعلنون »

ولم لا وقد قال : « أليعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ فاليعلم — الذي لا يَمْرُبُ عنه معلوم — نصتُ من لم يَرَكْ ، والإبداع من المدم إلى الوجود بضرده بالقدرة عليه لم يَرَكْ .

قوله جل ذكره : « وهو الله لا إله إلا هو له الخدم
في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه
تُرجعون »

« لا إله إلا هو » : تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيئته ، وتَفَرَّدَ بِجَلالِ رُبوبيته ، لا شبيهَ يساويه ،

(١) خُلقاً في م وهي الحساب ، أما في ص فقد وردت (درس) وهي خطأ في النسخ .

(٢) واتسع من ملعب القشيري شيء هام جداً أنه يقف عنه (ويختار) وتكون (ما) في هذه الحالة نافية ، وهو بهذا ينسجم مع ملعب أهل السنة في أن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد .

أما القزغفري فيرى (ما كان لم الخيرة) بياناً لقوله (ويختار) ولهذا لم يدخل العاصف . ويرفض القزغري أن تكون (ما) نافية لتلا يكون المعنى أنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لم تبقا يستقبل ، ويرد عليه بأن (ما) تصلح لنفي الحال والاعتقال .

ولا غير يُضاهيه . «له الحمد» استحقاقاً على عِظَمِهِ ، وله الشكر استجابةً على نعمته ؛ ففي الدنيا محمودُ الله ، وفي العقبى الشكورُ الله ؛ فالإحسان من الله لأن السلطانَ الله ، والنعمة من الله لأن الرحمةَ الله ، والنصرة من الله لأن التندرةَ الله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِنُجْمَةٍ أَفْلَا تَسْمَعُونَ »

إن دامت ليالى الفترة فمن الذى يأتى بنهار التوبة غيرُ الله ؟
وإن دامت ليالى الملْك فمن الذى يأتى بصُبحِ الوجود غيرُ الله ؟
وإن دامت ليالى القبض فمن الذى يأتى بصُبحِ البسط غيرُ الله ؟
وإن دام ليل التراقى فمن الذى يأتى بصُبحِ الوصال غيرُ الله ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ »

إن دام فى الوصلة نهاركم فأتى سبيل اللواشين إلى تنفيس سروركم ؟
وإن دام نهارُ معاشكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فمنَ إله غيرُ الله يأتِيكم بليلى تَسْكُنُونَ فيه إلى الله إلا الله ، وتَسْرِعُونَ من أشغالكم بالخلوة مع الله إلا الله ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْصُرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِتُشْكِرُوا »

(١) منذ أضرمت على التشبى آية : «يرجع الله لا إله إلا هو...»
ولفظ الجلالة لا يتكاد ينبئ عنا فى إشاراته ، بما يدل - والله أعلم - على أن الرجل ذاكر أعلمته حالة انهماك فى التذكور .. وقد سرعنا أن نلقت نظر القارئ إلى هذا اللفظ ليشرح بالفرق بين المقصر المتطاول والمفسر الإشارى .. إن الكلمات هنا أضيف بالتصريح للواقعة من عالم بهمة !

الأوقات ظروف لما يحصل فيها من الأحوال ؛ فانظروا من الزمان متجانسة ،
وإنما الاختلاف راجع إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالي أهل الوصال ساعاتُ الليالي ، وليالي أهل
الفراق أسوأُ الليالي ؛ فأهلُ القربِ لياليهم قصارٌ وكذلك أليانهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال
وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم ، يقول قائمهم :

والليالي إذا تأتت جلوالاً وأراما إذا دتوتِ قصاراً

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أضدعا والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا أقالك فيه وتحولُ تلقى فيه - - قصيرُ

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَزَعَمْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ شَيْئاً فَعَلْنَا هَآؤُلَآءِ بُرْهَانَكُمْ
فَقُلُوبُهُمْ أَكْفَىٰ لَهُمُ الْحَقِّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ مَا كَانُوا
يَتَفَكَّرُونَ »

كلا... لا حجة لهم ، ولا جوابَ بمنزوم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصرَ يعينهم .

اشتهرت ضلالتهم ، وانقضت لكافة جهالتهم ؛ فندامَ بهم عذابُ الأبد ، وحقَّ بهم
وبالُ السَّرد .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى
فَتَبَعْنَاهُمْ »

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى ، وكان من أعبدي إسرائيل ، وكان قد اعتزل
الناس ، وانفرد في صومته بتعبد ، فصور له إبليسُ في صورة بشرٍ ، وأخذ في الظاهر تصيدُ
معه في صومته حتى تسجَّبَ فارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لست في شيء ؛ عيوتنا

على أيدي الناس حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا ، ولا بد لنا من أخذه ، قال له فارون :
وكيف يجب أن فعله ؟

قال له : أن تدخل في الأسبوع يوماً السوق ، ونكتب ، وننفق ذلك القدر في
الأسبوع ، فاجابه إليه . فكنا نحضران السوق في الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لست أنا وأنت
في شيء ، قال : وما الذي يجب أن فعله ؟

قال له : نكتب في الأسبوع يوماً لأفئنا ، و يوماً نكتب ونصدق به ، فاجابه إليه .
ثم قال له يوماً آخر : لست في شيء ، قال : وما ذلك ؟

قال : إن مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوت يوم ، قال : وما فعل ؟

قال : نكتب في الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة و يوماً للصدقة و يوماً للإدخار ،
فاجابه إليه . . فلما علم أن حب الدنيا استمكن من قلبه ودغته ، وقال :

إني مُنْزَلُكَ . . قَدِمُ على ما أنت عليه ، فصار من أمره وماله ما صار ، وسمّاه حُب الدنيا
على جميعها ، وسمّاه بجمعها على حبها ، وسمّاه حبها على البني عليهم ، وصارت كثرة ماله سبب
علاجه ، وكم وُهِطَ بِتَرْكِ التَّوَجُّعِ بوجود الدنيا ، و بِتَرْكِ الاستمتاع بها ! وكان لا يأبى
إلا ضللاً .

ويقال خَسَفَ اللهُ به الأرضَ بدعاه موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول :

يا أرضُ خُذِي . . وبينما كانت الأرضُ تُخَسَفُ به كان يستعين بموسى بحق القِرابَةِ ، ولكن
موسى كان يقول : يا أرضُ خُذِي .

وفيا أوصى الله إلى موسى : لقد ناداك بحق القِرابَةِ وأنت تقول : يا أرضُ خُذِي !
وأنا أقول : يا عبدُ ، نادني فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقبلُ .

وفي النصّة أنه كان يُخَسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلما حبس الله يونس في بطن
الحوتِ أَمَرَ الحوت أن يطفو به في البحار لئلا يضيّق قلبُ يونس ، حتى انتهى إلى فارون ،
فأشاله فارون عن موسى وحاله ، فأوصى الله إلى لَلَّكَ :

لَا تَزِدْ فِي خَسْفِهِ لِحِمَاةٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ ابْنِ عَمِّهِ ، وَوَصَلَ بِهِ رَحِمَهُ ^(١)

قوله جل ذكره : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الْبَارَةَ الْآخِرَةَ

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ

كَأَحْسَنِ اللَّهِ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْقِسَادَ

فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »

وَعُظْمَ مَنْ حُرِّمَ الْقَبُولُ كَثَلُ التَّبَذْرِ فِي الْأَرْضِ السَّيِّئَةِ ؛ وَلَقَدْ لَمْ يَنْفَعَهُمْ نُصْحُهُمْ إِلَيْهِ ،

وَلَمْ يَكُنِ الْقَبُولُ فِيهِ مَسَاعً .

« وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » : لَيْسَ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا جَمْعُهَا وَلَا مَتْنُهَا ،

إِنَّمَا النَّصِيبُ مِنْهَا مَا تَكُونُ فِيهِ فَائِدَةٌ بِحَيْثُ لَا يُقْبَلُ نَدْمًا ، وَلَا يُوجِبُ فِي الْآخِرَةِ عِقَابٌ

وَيَقَالُ النَّصِيبُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَحْتَمِلُ عَلَى طَاعَتِهِ النَّفْسُ ، وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ الْقَلْبُ ، وَعَلَى ذِكْرِهِ

بِالْإِنْسَانِ ، وَعَلَى مُشَاهَدَتِهِ بِالْأَمْرِ .

« وَأَحْسِنْ » كَأَحْسَنِ اللَّهِ إِلَيْكَ : إِنَّمَا كَانَ يَكُونُ مِنْهُ حَسَنَةٌ لَوْ آمَنَ بِاللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ

لَا حَسَنَةَ لَهُ . وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْكَافِرِ نِعْمًا دُنْيَوِيَّةً .

وَالْإِحْسَانُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ إِفْثَاكُ النِّعَةِ فِي وُجُودِ الطَّاعَةِ وَالْخُلْعَةِ ، وَمُقَابَلَتُهُ بِالشُّكْرِ

لَا بِالْكَفَرَانِ .

وَيَقَالُ الْإِحْسَانُ رُؤْيَا الْفَضْلِ دُونَ تَوْفِيقِ الْأَصْحَقِ .

قوله جل ذكره : « قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ... »

مَا لَمْ يَحْظَ أَحَدٌ فَتَحَهُ إِلَّا هَلَكَ بِإِعْصَابِهِ .

وَيَقَالُ السُّمُّ الْقَاتِلُ ، وَالَّذِي يَطْلُقُ السَّرَاجَ لِلْفِيءِ النَّظَرُ إِلَى النَّفْسِ بَيْنَ الْإِجْتِمَاعِ ،

(١) الرِّوَاغُ أَنَّ الْقِصَصَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالرِّوَايَاتِ الَّتِي تَتَوَدَّدُ حَوْلَ مَوْضُوعَاتٍ سَوْدَةٍ الْقِصَصِ كَثِيرَةٌ جَدًّا ، خَاصَّةً مِنْهُ ابْنُ حِبَّاسٍ وَمَعْرُوسَةٌ ، وَلَكِنْ لَمْ يَحْظَ أَنَّ الْقِشْرِيَّ يَخْتَارُ مِنْهَا - فِي غِلَالِ الْقُرْآنِ - مِثَالَاتٍ خَاصَّةً يَحْتَقِقُ مَقَاصِدَ الْبَيِّنَةِ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازِ الْمَوْضُوعَاتِ الصُّوفِيَّةِ سِوَاهُ مِنْ نَاحِيَةِ الرِّيَاضَاتِ أَوْ الْمَجَاهِدَاتِ أَوْ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَنْوَاقِ وَالْأَحْوَالِ .

وَتَوَكَّمْ أَنْ مِنْكَ شَيْئًا مِنَ النَّفَى أَوْ الْإِجْمَلِ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ

يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا كُنَّا مِثْلَ

مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »

تَمَحَّى مَنْ رَأَاهُ يَمُنُّ كَانَ فِي حُبِّ الدُّنْيَا سَاوَاهُ أَنْ يُعْطِيَهُ اللَّهُ مِثْلَ مَا أُعْطَاهُ .

أَمَّا مَنْ كَانَ صَاحِبًا عَنْ خَارِ غَفْلَتِهِ ، مُتَيَقِّنًا بِنُورِ بَصِيرَتِهِ فَكَانَ مَوْقِفُهُمْ : —

« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ

تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَهَجَلَ صَالِحًا

وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ »

وبعد أن كان ما كان ، وخسنا به وبداره الأرض قال هؤلاء :

« لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا

وَيْسَكَاةً لَا يُخْلِعُ الْكَافِرُونَ »

مَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلَمْ تَنْجِرْ فِي نَهْجِهِ ، وَلَمْ تَخْرُطْ فِي سِلْسِكَ ، وَإِنَّا لَوَقَّعْنَا بِالْهَلَكَ .

أَمَّا الْمُتَّقُونَ مَكَانَهُ قَدْ تَدِمُّوا ، وَأَمَّا الرَّاغِبُونَ جِسْمَهُ — سَبْحَانَهُ — قَدْ سَلِمُوا ؛

سَلِمُوا فِي الْعَاجِلِ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ سَعَادَتُهُمْ فِي الْآخِلِ .

قوله جل ذكره : « تِلْكَ الْفَارُ الْآخِرَةُ يُجْمَلُهَا الَّذِينَ

لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »

قيل « الملو في الدنيا » أَنْ تَتَوَكَّمْ أَنْ عَلَى الْبَيْطَةِ أَحَدًا هُوَ شَرُّكَ مِنْكَ .

و « التَّاسِدُ » أَنْ تَتَحَرَّكَ لِحَظِّ قَلْبِكَ وَنَصِيكَ وَلَوْ يَنْقَسِرُ أَوْ خَطْوَةٌ . . وهذا للأكابر ،

(١) هذه نظرة عامة تهيئنا عند جميع الصوفية ولكنها أصل عام في تعاليم أهل الملاحة تترتب عليه نتائج في السلوك .

فَاتَّامًا لِلْأَسَافِرِ وَالْمَوَامِ فَتَكَ النَّارُ الْآخِرَةَ « نَجَّاهُمَا الَّذِي لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ »
كُلُّهُمُ فَرَعُونَ « وَلَا فُلَاكًا » كَفَسَادِ قَارُونَ^(١) .

وَيَقَالُ الزَّهَادُ لَا يَرِيدُونَ فِي الْأَرْضِ عُلُوًّا ، وَالْعَارِفُونَ لَا يَرِيدُونَ فِي الْآخِرَةِ وَالْجَنَّةُ عُلُوًّا .
وَيَقَالُ « تِلْكَ النَّارُ الْآخِرَةُ » لِلْبَّادِ وَالزَّهَادِ ، وَهَذِهِ الرَّحْمَةُ الْخَاسِرَةُ لِأَرْبَابِ الْاِغْتَارِ
وَالْاِنْكَسَارِ .

قوله جل ذكره : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ
جَاءَ بِالْبَيْتَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ تَحْمِلُونَهَا »
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَسْمَلُونَ » .

ثَوَابُ الْحَسَنَةِ فِي التَّضْمِينِ ، وَأَمْرُ الْبَيْتَةِ بِنَاؤُهُ عَلَى التَّخْفِيفِ .
وَاللَّزْمُ — وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ كِبَارٍ — فَيُثَابَتُهُ تَقْصُرُ فِي جَنِّبِ حَسَنَاتِهِ الَّتِي هِيَ
إِعْمَالُهُ وَمَعْرِفَتُهُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ
إِلَى مَعَاكِ قُلُوبِي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

« لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : فِي الظَّاهِرِ إِلَى مَكَّةَ . . وَكَانَ يَقُولُ كَثِيرًا : « الْوَطَنُ الْوَطَنُ »^(٢) ،
فَتَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَهُ . وَأَمَّا فِي السِّرِّ وَالْإِشَارَةِ فَهُوَ « فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ » أَيْ يَسَّرَ لَكَ قِرَاءَةَ
الْقُرْآنِ ، وَالْمَعَادُ هُوَ الرَّصْفُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ رَوْحُكَ قَبْلَ حُلُولِ شَجَاكَ^(٣) مِنْ مُلَادَعَاتِ
التَّوْبِ وَمَطْلَبَاتِ الْحَقِّ .

(١) أَحْسَنُ التَّفْسِيرِ إِذْ جُمِلَ وَطِيقَةُ هَذِهِ الْآيَةِ التَّعْقِيبُ عَلَى الْقَصَصِ السَّابِقِينَ نَابِغًا تَمَسُكُ الْأَسْلُوبَ الْقُرْآنِي .

(٢) وَهَذَا يَرَى ابْنَ مَسَلَسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَا مَكْنَى وَلَا مَدْنِيَّةَ وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْمَجَسَّةِ .

(٣) فَكَلَّمَا فِي التَّحْسِينِ ، فَإِنْ صَحَّتْ فِي الْعَمَلِ مِنَ الْأَمَلِ قَرِيبًا كَانَ الْمَقْصُودُ (مَا أَسَابِكُ مِنْ جِرَاسَاتِ
الْحَبِّ) ، وَيَتَبَيَّنُ نَهْمَتَا بِنَايِ ذَلِكَ وَدَرِجَاتِهَا كَانَتْ (شَجَاكَ) أَيْ لَوْعَةُ حَبِّكَ — وَاللهُ أَعْلَمُ .

وقيل الذى ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادك إلى عين الجمع بالتحقق
بالخلق والفناء عن الخلق .

ويقال إن الذى أقامك بشواهد المبودية فيما أثبتك به لرادك إلى الفناء عنك بمحققك فى
وجود الحقيقة .

قوله جل ذكره : « وما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ
الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ » .

ما كنت تؤمل تحل النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليك
من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَصْدَقُكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِد
إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْوَادِعُ إِلَىٰ رَبِّكَ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّرَكِيِّينَ » .

لا يصدك بد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذنوب والشهود ، والإدراك
والوجود . لا تتداخلنك همة التجوز وسؤالات العلماء بما يدعون من أحكام القول ؛
فما يدرك في شعاع الشمس لا يحكم بطلانه خفاؤه في نور السراج .

قوله جل ذكره : « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ
وإليه تُرْجَعُونَ » .

كل عمل باطل إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كل شيء ميت إلا هو ، قال تعالى : « إِنْ أَمْرُهُ هَلِكٌ » : أى مات ؛ فكل شيء ممدد
لجوارى الهلاك والمدمر ، ولا يبقى إلا « وجهه » : ووجهه صفة من صفاته لا تستقل إلا به ،

فإذا بقى وجهه كَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاء ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بوجوده ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه القاتية الواجبة له ؛ فبقى بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وقائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعرفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون^(١) التحل ؛ فخصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته .

(١) هكذا في م أما في ص فهي (نور) ، وتأويل الوجه على أنه صفة فيه رد على المشبهة .

السورة التي يذكر فيها العنكبوت

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بِسْمِ اللَّهِ اسم يوجب حُظوة العابدين وَعُدَّةً ، وسماعُهُ يوجب سلوة الواجدین قَدْماً ^(١) .
اسمٌ مَنْ ذَكَرَهُ وَصَلَ إِلَى مَثْوِيهِ فِي آجَلِهِ ، وَمَنْ سَمِعَهُ ^(٢) حَظِيَ بِقُرْبَتِهِ فِي عَاجِلِهِ .

قوله جل ذكره : « اَللّٰمَّ • اَحْسِبِ النَّاسَ اَنْ يُتْرَكُوا
اَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقِنُونَ »

« اَللّٰمَّ » إشارة إلى تَقَرُّدِهِ عن كل غير بوجه النسي ، وباحتياج كل شيء إليه ؛ كالألف
تصل بها كل الحروف ولكنها لا تصل بحرفٍ .

« واللام » تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تمويجٍ ما ، واللام أقرب
الحروف شبهاً بالألف - فهي منتصبة القائمة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا تصل بها شيء
ولكن اللام تصل بغيرها - فلا جَرَمَ لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين
إلا اللام والألف ويسى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .

أما « الميم » فالإشارة فيه إلى الحرف « مِمْ » ؛ فَمِمْ الرَّبُّ اَتَلَقُّ ، وَمِمْ الْعَبْدُ خِدْمَةُ
الحق ، وَمِنْ الرَّبِّ الطَّوَلُ وَالْفَضْلُ . . .

« اَحْسِبِ النَّاسَ اَنْ يُتْرَكُوا . . » بمجرد النعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا
لا يكون ، تَمِمة كل أحلو ببلواه ، فَمِمْ زَادَ قَدْرُ مَعْنَاهُ زَادَ قَدْرَ بُلُوَاهُ ؛ فَعَلَى النَّفْسِ بِلَا وَهُوَ

(١) التقى مكانة في الدنيا وهي المواصلات والمكاشفات ، ولقوله مكانة في الآخرة وهي الجنة .

(٢) المقصود بالسماع هنا ما يوجب اليقين .

المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل ونصرفها في أحسن العمل . وعلى القلوب بلاه وهو مطالبتها بالطلب والفكر الصادق بتطهير البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاه وهو التجرد عن عجة كل أحد والتفرّد عن كل سبب ، والتباعد عن كل المناكفة لشيء من الخلوقات . وعلى الأسرار بلاه وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلّي إلى أن تصير مُستَهْلَكًا فيه .

ويقال فتنه السوام في أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخلواس في حفظ آداب الوصول في أوان المشاهدات . وأشدّ الفتن حفظ وجود التوحيد لئلا يمرى عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَتِ شاهد الحق فيظن أنه الحق ، ولا يدري أنه من الحق ، وأنه لا يقال إنه الحق - وعزير من يهتدى إلى ذلك ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »

لم يُخْلِسْ من البلاء والمِحن ليُظْهِرَ صِيْرَمَ في البلاء أو ضِدّه من الضَجَر ، وشكّرم في الرخاء أو ضده من الكفر والبطل . وهم في البلاء ضروب : فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء ، ويشكر في حال النماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يضيّع ولا يصبر في البلاء ، ولا يشكر في النماء . . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يؤثر في حال الرخاء ألاّ يستمتع بالمعطاء ، ويستروح إلى البلاء ؛ فَيَسْتَعْدِبَ مَقاساةَ الضّر والنّاء . . . وهذا أجْلُهُم .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَسْلُونَ الْبَيْتَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ »

يرتكبون الخلفات ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . . ساء حُكْمُهُم ا فتي ينبو من العذاب مَنْ اتّقى جَلْبَابَ التّي ؟ ا

ويقال توهموا أنه لا حشر ولا نشر ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإيماننا اليوم ، وتوهموا أنهم منّا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد أمّنوا .

(١) يفيد هذا الكلام منه البحث في قضية الخلق لله قال وهو غالب في غلبات الشبهود : وأنا الحق

ويقال ظنوا أنهم باجتماعهم السيئات أن جرى التقدير لهم بالسعادة ، وأن ذلك يؤخر حُكْمَنَا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قَسَدُ . . بالسعادة ، وهيئات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بِالشَّقَاوَةِ !

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

مَنْ خَافَ عَذَابَ يَوْمِ الْحِسَابِ فَسَيَلْقَى يَوْمَ الْحَشْرِ الْأَمَانَ الْمَوْعُودَ مِنَّا لِأَهْلِ الْخَوْفِ الْيَوْمَ . وَمَنْ أَمَلَ الثَّوَابَ يَوْمَ الْبَيْعِ فَسَوْفَ يَرَى ثَوَابَ مَا أَسْلَفَهُ مِنَ الْعَمَلِ . وَمَنْ رَجَى عُثْرَهُ فِي رَجَاءِ لِقَائِنَا فَسَوْفَ نُبَيِّحُ لَهُ النَّظَرَ إِلَيْنَا ، وَسَوْفَ يَتَخَلَّصُ مِنَ النَّيْبَةِ وَالْفِرْقَةِ .
« وَهُوَ السَّمِيعُ » لِأَنَّ الْمُشْتَاقِينَ ، « الْعَلِيمُ » بِمَعْنَى الْحَبِيبِ الرَّاهِمِينَ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ عَنَّا »

مَنْ أَحْسَنَ فِتْجَاهَ نَفْسِهِ طَلِبَهَا ، وَسَادَةَ حَالَةِ حَصْلَهَا . وَمَنْ أَسَاءَ فَعُوبَةُ نَفْسِهِ جَلَبَهَا ، وَشَقَاوَةُ جَدَّهَ اكْتَسَبَهَا .

ويقال ثوابُ الْمُطِيعِينَ إِلَيْهِمْ مَصْرُوفٌ ، وَعَذَابُ الْعَاصِينَ عَلَيْهِمْ مَوْقُوفٌ . . وَالْحَقُّ عَزَّزْنَا لَا يُلْحِظُهُ بِالْوَفَاقِ زَرْئٌ ، وَلَا يَسَّهُ مِنَ الشَّقَاكِ شَيْءٌ . .

قوله جل ذكره . « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

مَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا خَطْوَةَ نَالٍ مِنَّا خَطْوَةً ، وَمَنْ تَرَكَ فِينَا شِهْرَةً وَجَدَّ مِنَّا صَفْوَةً ، فَنُصِيبُهُم مِنَ الْخَيْرَاتِ مَوْفُورٌ ، وَعَلِمُهُم فِي الزَّلَّاتِ مَفْزُورٌ . . بِذَلِكَ أَجْرُنَا سَفْتَنَا ، وَهُوَ مَتَنَاوَلُ حُكْمِنَا وَقَضِينَا .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا » .

أمر الله العباد برعاية حقّ الوالدين تفيهاً على عظم حق التربية . وإذا كانت تربية الوالدين — وهى إن حَسَنَتْ — فإل حدٌ يوجبُ رعايتها فإل الظنُّ برعاية حق الله تعالى ، والإحسان الميم . بالمبد والامتنان التديم الذى خصّه به من قَبْلُ ومن بَدَأُ !!

قوله جل ذكره : « وإن جاهدك لِتُشْرِكَ بى ما ليس

لك به عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَى مرجعكم

فَأَنْبِشْكُمْ بما كنتم تعملون . »

إن جاهدك على أن تُشْرِكَ بالله فإل أنْ تُطِيعَهُمَا ، ولكن رُدَّ بِطُغْيٍ . وخَالِفْ بِرُفْقٍ .

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

لنُدْخِلَنَّهُمْ فى الصالحين . »

أى لنُدْخِلَنَّهُمْ بالذين أصلحوا من قبلهم ، فإن المهود من سُنَّتِنَا إلحاق الشكل بشكله ، وإجراء المثل على حُكْمٍ مِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « ومن الناس من يقول آمنا بالله

فَلَمَّا أُوذِيَ فى الله جَعَلَ فِتْنَةً للناسِ

كعذابِ الله . . . »

الحنُّ تَظْهَرُ جواهرُ الرجال ، وهى تَدُلُّ على قِيَمِهِمْ وأقدارهم ؛ فَقدَرُ كلِّ أحدٍ وقِيَمته يَظْهَرُ عند محنته ؛ فَمَنْ كانت محنته من فوات الدنيا وقصبان نصيبه منها ، أو كانت محنته بموت قريبٍ من الناس ، أو فَقدَ حبيبٍ من الخلقِ بخيرِ قَدَرِهِ ، وكثيرٍ فى الناسِ مِثْلِهِ . ومن كانت محنته فى الله وفِى فَمَرَزَ قَدَرُهُ ، وقليلٌ من كان مثله ، فهم فى السد قليل ولكن فى القَدَرِ والخطَرِ جليلٌ ؛ وبندر الوقوف فى البلاء تَظْهَرُ جواهرُ الرجال ، وتصفو عن الخَبَثِ نُورُهُمْ .

ولزمن من يكفُ الأذى ، ويتعبد من الخلقِ الأذى ، ويتشرب ولا يترشح بنير

شكوى ولا إظهار ؛ كالأرض يلقى عليها كلُّ شيءٍ قَتْنَيْتٍ كلُّ خضرة وكل نزهة^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَيَمْلَنَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

وليلنَّ المنافقين » .

إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمْعٌ فِي خُدُودِ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِنْ نَبَا كِي

قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَّذِينَ آمَنُوا

اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا م

بِعَاطِلٍ مِنْ سَبِيلِنَا مِنْ شَيْءٍ لَهُمْ

لِكَاذِبِينَ »

ضنوا بما لم يفوا به ، وأخفقوا فيما وعدوا فاحلوا من خطاياهم عنهم شيئاً ، بل زادوا على

حُلِّ قُوسِهِمْ ؛ فَاحْتَبِوا وَزَرَ مَا كَحَلُّوا ، وطولبوا بوزر ما به أُمِّروا^(٢) ، فضاغفَ عليهم

العقوبة ، ولم يصل أحدٌ من جهنم إلى راحة ، وما مواعيدهم للسُّلْبِ إِلَّا مواعيد عُرُوبِ

أَخَاهِ يَيْثُوبِ .

قوله جل ذكره : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثَامَهُمْ وَأَثَامًا مَعَ أَثَامِهِمْ

وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا

يَفْعَلُونَ »

وسيلحق بهؤلاء أصحاب الدُّعَاوَى وَالْمُشَبِّهُونَ بِأَهْلِ الْحَقَائِقِ :

مَنْ تَحَلَّى بَنِيْرَ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَ الْأَمْتَعَانُ مَا يُدْعِيهِ

وَقَالَ تَالِي : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »^(٣) . . وهيئات هيئات !

(١) القشيري هنا مستفيد من قول الجنيده : (السنون كالأرض يطرح عليها كل فيج ولا يخرج منها إلا كل ملح) لرسالة ص ١٣٩ .

(٢) رأيتنا بناء (أمرنا) المعلوم حتى يضح أن وزرهم أنه نتيجة قولهم للذين آمنوا : (اتبعوا سبيلنا) ، فالإشارة إلى سوء حمل وزر نفسه ووزر من يقتضى به . ومن الجائز أن تنسج السجود فتكون (أمرنا) ولكن المعنى يكون أقل تأثيراً وأداء .

(٣) آية ١١١ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فليّثَ
فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً فأخذهم
الطوفانُ وهم ظالونٌ » فأعيناه ... الآية

ما زادم طولُ مقامه فيهم إلا شُكاً في أمره ، وجهلاً بحاله ، ومُرّةً في صدقه ، ولم يزد
نوح - عليه السلام - لم إلا نصحاً ، وفي الله إلا صبراً . ولقد عرفه الله أنه لن يؤمنَ منهم
إلا الشُرْذمةُ اليسيرةُ الذين كانوا قد آمنوا ، وأمره بأخذ السفينة ، وأغرق الكفار ولم يناد
منهم أحداً ، وَصَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ . . فلا تبدلَ لِسُنَّتِهِ في نصرته دينه .

قوله جل ذكره : « وإبراهيمَ إذ قال لقومه اعبدوا اللهَ
واحقوا ذلّكم خيراً لكم إن كنتم
تعلمون »

كَرَّرَ ذِكْرَ إِبْرَاهِيمَ في هذا الموضع ، وكيف أفام على قومه العجبةَ ، وأرشدهم إلى سَوَاءِ
الحجة ، ولكنهم أصروا على ما جحدوا ، وتصيبوا لِسَا من الأعتام عبادوا ، وكادوا لإبراهيم
كيداً . . ولكن اقلب ذلك عليهم من الله مكرّاً بهم واستدراجاً . - ولم يَنْجِ فيهم نصْحَهُ ،
ولا وَجَدَ منهم مساعداً وَعِظُهُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا تَبَيَّنُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا
وَتَخَفُّونَ إِنكاً إِنَّ الَّذِينَ تَبَدُّونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
فَاخْشَوْا اللَّهََ الرَّزْقَ واعبدوه واشكروا
لهِ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

لا يَدْرِي أيها أقيح : . هل أعمالكم في عبادة هذه الجانات أم أفعالكم - فيا تزعمون
كذباً - عن هذه الجانات ؟ وهي لا تملك لكم ضراً ولا تنفع عنكم ضراً ، ولا تملك لكم
خيراً ولا شراً ، ولا تندر أن تصيبكم بهنأ أو ذاك .

وَيَنْ أُنْهَم فِي هَذَا لَمْ يَكُونُوا خَالِينَ عَنْ مِلَاحِظَةِ الْخَطُوطِ وَطَلَبِ الْأَرْزَاقِ^(١) قَالَ :
« قَابِتُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ » لَتَصِلُوا إِلَى خَيْرِ الْمَارِثِينَ .

وَابْتِغَاءَ الرِّزْقِ مِنْ اللَّهِ إِدَامَةُ الصَّلَاةِ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ اسْتِغْنَاءٌ بِبَابِ الرِّزْقِ ، قَالَ نَعَالِي :
« وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَأْكُ رِزْقًا »^(٢)

وَيَقَالُ ابْتِغَاءَ الرِّزْقِ بِشُهُودِ مَوْضِعِ الْفَاقَةِ فَتُسَدُّ ذَلِكَ تَتَوَجَّهِ الرِّغْبَةُ إِلَى اللَّهِ تَصَالِي
فِي اسْتِجْلَابِ الرِّزْقِ .

وَفِي الْآيَةِ قَدِيمٌ لَا يَبْتِغَاءُ الرِّزْقَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُسَكِّنُهُ الْقِيَامُ بِالْعِبَادَةِ إِلَّا بَعْدَ
كِفَايَةِ الْأَمْرِ ؛ بِفَاقَةِ يُمْكِنُهُ آدَاءُ الْعِبَادَةِ ، وَالرِّزْقُ يَحْدُ الْقُوَّةَ ، قَالُوا :
إِنَّمَا الرِّدَّ لَمْ يَطْلُبْ مِمَّا لِنَفْسِهِ

فَكُرُوهُ مَا يَلْقَى يَكُونُ جَزَائُهُ

« وَاشْكُرُوا لَهُ » : حَيْثُ كَفَاكُمْ أَمْرَ الرِّزْقِ حَتَّى تَقْرَعْتُمْ لِعِبَادَتِهِ^(٣) .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَإِنْ تَكْذَّبُوا فَسَوْفَ نَكْذِبُ » كَذَبَ

أَنْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ »

وَبِالْكَذِبِ عَائِدٌ عَلَى الْمُكْذِبِ ، وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ - بَعْدَ تَبْلِيغِهِ الرِّسَالَةَ بِحَيْثُ
لَا يَكُونُ فِيهِ تَقْصِيرٌ كَيْ يَكُونَ مُبَيَّنًا - شَيْءٌ آخَرُ . وَإِلَّا يَكُونُ قَدْ خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ الْإِثْمِ .
وَفِيهَا حَلٌّ بِالْمُكْذِبِينَ مِنَ التَّوْبَةِ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حِزْمَةً لِنَفْسِهِمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِي اللَّهُ الْغُلُوقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

(١) قَالَ الْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ عَلَانِيًا أَنْ تَكُونَ خَالِصَةً لِلْعِبَادِ لَا تَطْلُعُ لِمَوْضِعٍ أَوْ تُخْفَى ؛ وَالْقَبِيحَةُ عَنْ أَيْ (وَأَوَدَ
مِنْ تَذَكُّرِ ثَوَابٍ أَوْ تَفَكُّرِ عِقَابٍ) الرِّسَالَةُ ص ٤٠ .

(٢) آيَةُ ١٣٢ سُورَةِ طه .

(٣) عَلَى الْقَشِيرِيِّ يَتَوَضَّعُ لِلتَّنَقُّصِ فِي الْأَسْلُوبِ لِقَرَأَتِهِ سَبِينَ نَقَشَ تَرْتِيبَ الْكَلَامِ عَلَى نَحْوِ مَقْشَعِ أَعَاذ .

التي دَخلَهم فيه الشكُّ كان بحثُ الخلق ، فاحتجَّ عليهم بما أَرَامَ من إعادةِ فصولِ السَّنَةِ بعدَ تفضيها على الوجه الذي كان في العامِ السَّامِي . وَبَيَّنَّ أَنَّ جَمَعَ أَجْزَاءِ الْمُكَلَّفِينَ بعدَ انقضاءِ البَليَّةِ كإعادةِ فصولِ السَّنة ؛ فَكَمَا أَنَّ ذَلِكَ سَائِغٌ فِي قُدْرَتِهِ غَيْرُ مُسْتَكْرَرٍ فَكَذَلِكَ بَعَثُ الخَلْقَ .

وَكَا فِي فصولِ السَّنةِ تَكَرَّرَ أَحْوالُ العِبَادَةِ فِي الْأَحْوالِ الْعَامَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ السَّكَاةِ ، وَفِي خِوَاصِّ أَحْوالِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ اسْتِيْلَاءِ شَهَوَاتِ النُّفُوسِ ، ثُمَّ زَوَالِهَا ، إِلَى مَوَالِدِ الطَّاعَاتِ ، ثُمَّ حُصُولِ النَّفَرَةِ ، وَالسُّودِ إِلَى مِثْلِ الْحَالَةِ الْأُولَى ، ثُمَّ بعدَ ذَلِكَ الْإِقْبَاءُ بِالنُّفُوبَةِ . . . كَذَلِكَ تَكَرَّرَ عَلَيْهِمُ الْأَحْوالُ .

وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ تَتَمَاقَبُ أَحْوالُهم فِي التَّبَيُّضِ وَالبَيْضِ ثُمَّ فِي الهَيْبَةِ وَالْأُنْسِ ، ثُمَّ فِي التَّجَلُّلِ وَالشَّرِّ ، ثُمَّ فِي الْبَقَاءِ وَالْفَنَاءِ ، ثُمَّ فِي الشُّكْرِ^(١) وَالصَّغْرِ . . وَأُمَثَالُ هَذَا كَثِيرٌ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ :

« قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ
ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ »

وَفِي مَعْنَى تَكَرُّرِ الْأَحْوالِ مَا أَتَشَدُّوا :

كُلُّ نَهْشٍ فِيهِ مَا قَدْ جَرَى

فَإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « يُدَبِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْجِمُ مَنْ يَشَاءُ
وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ »

أَجْنَاسُ مَا يُدَبِّبُ بِهِ عِبَادَهُ وَأَنْوَاعُ مَا يَرْجِمُ بِهِ عِبَادَهُ . . لَا نِهَايَةَ لَهَا وَلَا حَصْرَ ؛ فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُدَبِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْخُلْفَانِ ، وَيَرْجِمُ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ . يُدَبِّبُ مَنْ يَشَاءُ بِالْجُحُودِ وَالْمُنُودِ ،

(١) وَرَدَتْ قِيَمُ (الشُّكْرِ) وَفِي (الشُّكْرِ) وَالصَّوَابِ هَذِهِ لَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْإِيمَانِ . فَالْكِبَرُ وَالْمَسَرُ حَالَانِ مِنْ أَحْوالِ الْفَنَاءِ .

ويرحم من يشاء بالتوحيد والوجود . يذب من يشاء بالحرص ويرحم من يشاء بالتقاة . يذب من يشاء بفرقة المم ويرحم من يشاء بمحبة الممة . يذب من يشاء بإلقائه في ظلة التدبير ، ويرسم من يشاء يشهاده جريان التدبير . يذب من يشاء بالأختيار من نفسه ، ويرحم من يشاء . ناه بمحكم ربه . يذب من يشاء بإعراضه عنه ، ويرحم من يشاء بإقباله عليه . يذب من يشاء بأن يكلفه نفسه ، ويرحم من يشاء بأن يقوم بحسن توليه . يذب من يشاء بحب الدنيا ويمنعها عنه ، ويرحم من يشاء بتزهيده فيها وبسطها عليه . يذب من يشاء بأن يثبت في أوطان العادة ، ويرحم من يشاء بأن يقيم بأداء العبادة . . . وأمثال هذا كثير .

قوله جل ذكره : « وما أنتم بمُعْزِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

قَدْ جَاءَ الْجَلَءُ فِي الْقُبْضَةِ ، وَتَجَرَّى عَلَيْهِمُ أَحْكَامُ التَّدْبِيرِ : جَعَلُوا أَمْ وَحَلُّوا ، أَتَبَلَّوْا أَمْ أَعْرَضُوا .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَاتِلَهُ أُولَئِكَ يَبْغُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

تَجَلَّتْ عَقُوبَتُهُمْ بِأَنْ يَبْغُوا مِنْ رَحْمَتِي . وَلَا عَقُوبَةَ أَشَدَّ مِنْ هَذَا .

قوله جل ذكره : « فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »

لَمَّْا عَجَزُوا عَنْ جَوَابِهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ التَّوْفِيقَ بِالْإِجَابَةِ أَخَذُوا فِي مَعَارَضَتِهِ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالسَّفَاةِ وَالتَّوْبِيخِ ، وَأَلْفَ تَعَالَى صَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُمْ ، وَكَفَاهُ مَكْرَهُمْ ، وَأَقْبَحَ عَلَيْهِمْ حُجَّتَهُ (١) ،

(١) أنج الله عليهم حجة أي أظهرها وأثبتها .

وأظهر لكافة مجرم ، وأخبر عما يلصقهم في ماكم من استحقاق الأمن والطرد ، وفنون
الموان والغزى .

قوله جل ذكره : « فَأَمِّنْ لَهُ لَوْمًا وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى
رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

لَا تَصِحُّ الْمَجْرَةُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا بِالْبَرِّ - بالكَمَالِ - بالقلب عن غير الله . والمجرة بالنفس
يسيرة بالإضافة إلى المجرة بالقلب . وهي هجرة الخواص ؛ وهي الخروج عن أوطان التفرقة
إلى ساحات الجمع . والجمع بين التبرج في أوطان التفرقة والكون في مشاهد
الجمع متناقض^(١) .

قوله جل ذكره : « وَوَعَدْنَا لَهُ إِسْعَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَقْنَيْنَاهُ
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَيْنٌ
الصَّالِحِينَ » .

لَمْ يَلْمِ حُجُبُ قَوْمِهِ ، وبذل لم النصح^(٢) ، ولم يدخر عنهم شيئاً من الشفقة - حَقَّقَ اللَّهُ
مراده في نَسْلِهِ ، فوهب له أولاده ، وبارك فيهم ، وجعل في ذريته الكتاب والنبوّة ،
واستخلصهم للخيرات حتى صلحت أحوالهم للقبول ، وأحوالهم للإقبال عليها ، وفورسهم للقيام
بعبادته ، وأسراهم لمشاهدته ، وقلوبهم لمعرفته .

« وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِنَ الصَّالِحِينَ » للدنو والرفقة والتخصيص بالقرية .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ لَأَذَّ قَالَ قَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَانُونَ
الْفَالِحَةُ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ
مِنَ الْعَالِينَ » .

(١) ما يكون كسبا قلبه وما يلقى بأحوال البشرية فهو فرق وما يكون من قبل الحق من إلهاء معان وإسداء
لطف وإحسان فهو جمع لإيجابات الفعق من باب التفرقة وإيجابات الحق من تحت الجمع (المرسالة ص ٣٨) .
(٢) في مرزاد التاسع (في أوطان) وهي غير موجودة في م والبيان يستثنى منها .

لأنهم على خطيئتهم الشنعاء ، وما كانوا يتسلطونه على الله من الاجترار ، وما يُضَيِّقُونَهُ من المروف ويأتون من المنكر الذي جعلته تغطيته الفساق مع فسئتهم ، وترك القبط على أيديهم ، وقلة الاحتشام من اطلاع الناس على قبايح أعمالهم . ومن ذلك قلة احترام الشيوخ والأكابر ، ومنها القسوف في التوبة ، ومنها التأخر بالزلة .

فما كان جوابهم إلا استجبال العقوبة ، غلّ بهم من ذلك ما أهلكهم وأهلك من شاركهم .

قوله جل ذكره : « ولما جاءت رُسُلنا إبراهيمَ بالبشرى

قالوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ » .

التيس على إبراهيمَ أمرهم فظنّهم أضيافاً ؛ فكلفَ لم تقديم الجبل الحنيد جرياً على سُنَّتِهِ في إكرام الضيف . فلما أخبروه مقصودهم من إهلاك قوم لوط نكلمَ في باب لوط ... إلى أن قالوا : إِنَّا مُنَجِّوهُ . وكان ذلك دليلاً على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط — وإن كان بريئاً — لم يكن ظالماً ؛ إذ لو كان قبيحاً لما كان إبراهيمَ عليه السلام — مع وفرة عليه — يشكل عليه حتى كان يحلُّ عنه . بل الله أن يذُوبَ مَنْ يذُوبُ ، ويُعَافِي مَنْ يُعَافِي ^(١) .

قوله جل ذكره : « ولما أن جاءت رُسُلنا لوطاً سيء بهم

وضاق بهم ذُرْعًا وقالوا لَا تَمْنُنْ

وَلَا تَعَزَّزْ إِنَّا مُتَجَبِّحُونَ وَأَهْلَكَ

إِلَّا أَمْرًا نَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

لما أن رآهم لوط ضاق بهم قلبه لأنه لم يعلم أنهم ملائكة ، ثقاف عليهم من فساد قومه ؛ فكان ضيق قلبه لأجل الله — سبحانه ، فأخبروه بأنهم ملائكة ، وأن قومه لن يصلوا إليهم ، ففند ذلك سكّن قلبه ، وزال ضيق صدره .

(١) أي أبراه من الظلم والظلمة وأمسّه .

ويقال أقرب ما يكون البعد في البلاد من الترح إذا اشتد عليه البلاء ؛ فبعد ذلك يكون زوال البلاء ، لأنه يصير مُضْطَرًّا ، والله سبحانه وَعَدَ للضَّالِّينَ وشيك الاجابة^(١) . كذلك كان لوط في تلك القيلة ، فقد ضاق بهم ذَرْعًا ثم لم يلبث أن وَجَدَ الخلاص من ضيقه .
قوله جل ذكره : « وقد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً قَوْمٍ يَقُولُونَ » .

فَمَنْ أَرَادَ الاعتَبَارَ فَهْ فِي قِصَّتِهَا عِبْرَةٌ .

قوله جل ذكره : « وإلى مدين أخاهم شعيبًا ... »
الآيات .

ذَكَرَ قصة شعيب وقصة عاد وثمود وقصة فرعون ، وقصة هارون .. وكلهم نَجَّحَ بِمُضْمَرٍ عَلَى مِثَالِ بَعْضِ ، وَسَلَّكَ مَسْلَكَهُمْ ، وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّصِيحَ ، وَلَمْ يَبْكَأُوا بِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَهْلَكَهُمْ بِأَجْمَعٍ ، إِمضَاءً لِسُنَّتِهِ فِي نَصْرَةِ الضَّالِّينَ وَفَهْرِ الظَّالِمِينَ .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الشَّكَوْتِ اتَّخَذَتْ رَيْحًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبُيْتُ الشَّكَوْتِ لَوْ كَانُوا يَلْمِزُونَ » .

الشَّكَوْتِ يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ رَيْحًا ، وَلَكِنْ كَلَّا زَادَ نَجْمًا فِي رَيْحِهِ إِزْدَادٌ مُبْدًى فِي الْخُرُوجِ مِنْهُ ؛ فَهُوَ يَبْنِي وَلَكِنْ عَلَى نَفْسِهِ يَبْنِي .. كَذَلِكَ الْكَافِرُ يَسِي وَلَكِنْ عَلَى نَفْسِهِ يَبْنِي .

وَبَيَّنَتِ الشَّكَوْتُ أَكْثَرَهُ فِي الْأَوَّلِ مِنَ الْمَجْدِرَانِ ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ أَمْرُهُ عَلَى التَّقْيُّنِ^(٢) وَالْكَفَّانِ ، وَأَمَّا لِلْمُؤْمِنِ فَظَاهِرُ الْعَامِلَةِ ، لَا يَسْتَرْ وَلَا يَتَخَسَّرُ^(٣) .

(١) يشير إلى قوله تعالى : وَأَمَّا يَجِيبُ الْمَغْطَرُ إِذَا دُمِدَّ وَيَكْشِفُ السُّوءَ آيَةَ ٦٢ سورة النمل .

(٢) التقيية عند بعض الفرق الإسلامية معناه إخفاء الحق ومعاملة الناس في غير دولتهم .

(٣) دخل عليه = لم يبين له ما يريد ، ودخل عليه = ستره .

وَبَيْتُ الْمَسْكُوتِ أَوْ مِنْ الْبُيُوتِ لِأَنَّهُ بِلَا أَسَاسٍ وَلَا جِدْرَانِ وَلَا سَقْفٍ وَلَا يَمْكُ عَلَى
أَذْوَنٍ^(١) دَفْعٍ .. كَذَلِكَ الْكَافِرُ ؛ لَا أَصْلَ لِنَافِهِ ، وَلَا أَسَاسَ لِبُنْيَانِهِ ، يَرَى شَيْئًا
وَلَكِنْ بِالتَّخِيلِ ، فَأَتَانَا فِي التَّحْقِيقِ .. فَلَا .

قوله جل ذكره : « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

الكلُّ يشتركون في سماع الأمثال ، ولكن لا يصنى إليها مَنْ كَانَ نَفْوَرَ الْقَلْبِ ،
كَنُودِ الْحَالِ ، مَتَمُودًا الْكَسَلِ ، مُعَرَّجًا فِي أَوْطَانِ الْقَسَلِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » .

« بالحق » : أى بالقول الحق والأمر الحق .

قوله جل ذكره : « أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » .

أى من شأن للمؤمن وسيله أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، أى على معنى ينبى للمؤمن
أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، كقوله : « وَعَلَى اللَّهِ فُتُوكُلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى ينبى
للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإِنْ قُدِّرَ أَنْ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَا يَتَوَكَّلْ فَلَا يَخْرُجُ بِهِ ذَلِكَ عَنْ
الْإِيمَانِ — كَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ فَلَيْسَتْ تَخْرُجُ صَلَاتُهُ عَنْ كَوْنِهَا صَلَاةً .

وقال بل الصلوة الحقيقية ما تكون ناهية لصاحبها عن الفحشاء والمنكر ؛ فإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ
الْعِدَانِهَا فَالصلوة ناهية على معنى ورود الزواجر على قلبه بالأفعال ، ولكنه يُصِرُّ وَلَا يَطِيعُ
تِلْكَ أَنْظَارًا .

(١) أى على أمتد ضغ

ويقال بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن التعمد والمنكر . فإن كان — وإلا فصوره الصلاة لا حقيقتها

ويقال التعمد هي الدنيا ، والمنكر هو النفس .

ويقال التعمد هي للمامى ، والمنكر هو المخطوط .

ويقال التعمد الأعمال ، والمنكر حسانُ النتيجة بها ، وقيل ملاحظته الأعراض عليها ، والسرور والفرح يمدح الناس لها .

ويقال التعمد رؤيتها ، والمنكر طلب العوض عليها .

« وقد ذكر الله أكبر »^(١) : ذكر الله أكبر من ذكر المخلوقين ؛ لأن ذكره قديم وذكر الخلق مُحدث .

ويقال ذكر المبدء لله أكبر من ذكره للأشياء الأخرى ؛ لأن ذكره لله طاعة ، وذكره لغيره لا يكون طاعة .

ويقال ولذكر الله لك أكبر من ذكره لك .

ويقال ذكره لك بالعبادة أكبر من ذكره لك بالعبادة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن ينهى عنه وحشة .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى لظلمته ذكر مخلوق .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يُبقى للزلة معلوماً أو مرسوماً .

ويقال ذكر الله أكبر من أن يعيش أحد من المخلوقين بغيره .

ويقال ولذكر الله أكبر من أن يُبقى معه للتعمد والمنكر سلطاناً ؛ فليحرمه ذكره زلاتُ الظالم مغفورة ، وعيوبه مستورة .

قوله جل ذكره : « ولا تعجلوا أهل الكتاب إلا بالتي

(١) رأى التشبي في قوله ذكر الله أكبر ، ليس فيه كما يلحقه القاريء تقليل من قيمة الصلاة العادية التي وردت في الآية نفسها ، كما قد يدعى بعض من يهون الصوفية بأنهم يرونون « ذكرهم » ويحفظون قيمة « الصلاة » وبالتالي لا يأمرون بها . — وهذا — كما هو واضح — اتهام بالغل .

هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ
لَهُ مُسْلِمُونَ »

يفنى أن يكون منك للخصم تبين ، وفي خطابك تلين ، وفي قبول الحق إنصاف ، واعتقاد
النصرة — لما وآه صحيحاً — بالحجة ، وترك الميل إلى الشيء بالهوى .

قوله جل ذكره : « وكذلك أنزلنا إليك الكتابَ
فالتقين آتيناكم الكتابَ يؤمنون به
ومن هؤلاء من يؤمن به وما يحسد
بآياتنا إلا الكافرون » .

بعض أنهم على أنواع : فرحوم نظراً إليه بالعبادة ، ومحروم وسمناه بالشقاوة .

قوله جل ذكره : « وما كنتَ تتلو من قبله من
كتابٍ ولا تحسبهُ يمينك إذا
لا تلبّ البطون » .

أى تجرد قلبك عن المعلومات . وقدس سرّك عن المرسومات ، فصاقلك من غير ممازجة
طبعٍ ومشاركة كسبٍ وتكلف بشرية^(١) ، فلا خلا قلبك وسرّك عن كل معلوم ومرسوم
ورد عليك خطاباً وتهيئتنا غير مقرون بهما مائس منّا .

قوله جل ذكره : « بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور
الذين أُوتوا العلمَ وما يحسدُ بآياتنا
إلا الظالمون » .

قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ النيب ، فيها أودع براهين حقه ، وبيّنات سرّه ،
ودلائل توحده ، وشواهد ربهيته ؛ هاتون^(٢) الحقائق قلوبهم ، وكلّ شيء يطلب من موطنه

(١) أى أن هذه الآيات تلحق علوم الإنسان حيناً لا تكون غالبة .

(٢) من معاني كلمة (هاتون) طريق الشيء وأصله .

وعله ؛ فالدرُّ بطلك من الصدف لأنَّ ذلك مكه . والشس تطلب من البروج لأنها معلما ،
والشهد يُطلب من اللحل لأنه عته . كذلك المرة^(١) تُطلب من قلوب خواصه لأن ذلك قانون
معرفة . ومنها (. . .)^(٢)

قوله جل ذكره : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُبِينٌ »

خَفِيتَ عليهم حالُكَ - يا محمد - فطالبوك بإقامة الشراهد ، وقالوا : « لولا أنزل عليه
آيات . . . » أو لم يَكُنْهم ما أَوْضَحْنَا عَلَيْكَ مِنَ السَّبِيلِ ، وَأُثْنَلْنَا لَكَ مِنَ الدَّلِيلِ ؛ بُتِلَى عليهم
ذلك ، ولا يَمَكُنْهم معارضة ولا الإتيان بشيء من مثله ؟! هذا هو الجحود وغاية الكُتُود !

قوله جل ذكره : « قُلْ كَفَى بِالْفِئَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ
آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ »

أنا على حقٍّ واللَّه - سبحانه - يعلمه ، وأنتم لستم على حقٍّ واللَّه يعلمه .

قوله جل ذكره : « ويستعجلونك بالنَّازِبِ وَلَوْلَا أَجَلٌ
مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْمَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ
وَمَ لا يَشْعُرُونَ »

لولا أني ضربت لكلَّ شيءٍ أَجَلًا لَمَجَلْتُ لَمْ ذلك ، وَلَيَأْتِيَنَّهُمُ الْمَذَابُ - حين
يَأْتِيَهُمْ - بَغْةٌ وَغَفَاةٌ .

(١) ورد في ص بعد كلمة المرة (وصف الحق) وربما كانت (برصف الحق) وهي غير موجودة في م ،
ونرجح أنها موجودة في الأصل بدليل القرآن القصير ؛ (خواصه) .
(٢) في ص (توقع نسخة توحيد) وفي م (يرفع نسخة توحيد) وكلاهما خاطف في الكتابة وإن كنا نستطيع
أن نفهم أن للتوحيد - وهو أقصى درجات المعرفة - محله قلوب الخواص .

قوله جل ذكره . « يَوْمَ نَشْأَمُ الْمُتَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ وَقِيلَ ذُوقُوا
مَا كُنْتُمْ تَسْلَوْنَ »

وإذا أحاطت بهم في جهنم سرادقات المتاب فلا صريح لهم ، كذلك - اليوم - مَنْ
أحاط به المتاب ؛ مِنْ فَوْقِ السَّمَاءِ وَمَنْ تَحْتَهُ السُّفْلُ ، وَمَنْ حَوْلَهُ الْخَزْزُ ، وَيُلْبِسُ لِباسَ
الْخِزْلَانِ ، وَيُوسِمُ بِكَيِّ الْحَرَمَانِ ، وَيُسْقَى شَرَابَ الْقَنُوطِ ، وَيَتَوَجَّعُ بِتَاجِ الْخَلِيقَةِ ، وَيُقَيَّدُ بِقَيْدِ
السُّخْطِ ، وَيَقْلُ بِئِلَ الْعِلَاوَةِ ، فَهُمْ يُسَحَّبُونَ فِي جَهَنَّمَ الْفِرَاقِ حُكْمًا ، إِلَى أَنْ يُلْقَوْا فِي جَهَنَّمَ
الْإِحْتِرَاقَ عَيْنًا .

قوله جل ذكره : « يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي
وَاسِعَةً فَإِلَيْهَا فَاغْبِذُوا »

الدنيا أوسع رقعة من أن يضيق بمرئيه مكان ، فإذا نبأ به منزل - لوجه من الوجوه -
إثنا لم يلزم حصل ، أو لقبول من الناس ، أو جاءه ، أو لعلاقة أو قرين أو وليد ضد ، أو لوجه
من الوجوه الصادرة . . . فبذلك أن يرغم عن ذلك الموضع وينقل إلى غيره ، كما قالوا ^(١) :

وإذا ما جُئْتُ كُنْتُ حَسْرَةً
أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمِسِي

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكان انتقل إلى غيره من الأماكن ^(٢) .

قوله جل ذكره : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا
رُجُوعُونَ »

إذا كان الأمر كذلك فالراحة مطبوعة على تهوين الأمور ؛ فببئيل المؤمن أن يوطن نفسه

(١) البحري في السنية .

(٢) نمر هذه الفقرة من رأى القشيري نيا يعرف عنه الصولية (بالسفر) فهو يجيزه لعارف ، أما بالنسبة للمريد
فإنه يرى عدم السفر ؛ لأن ثبات المريد في مكان به ابتلاء هروب من مواجهة الابتلاء وذلك آفة ضعف في الإرادة ؛
(ومن آداب المريد بل من غرائض حاله أن يلزم موضع إرادته وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول
بالقلب إلى الرب ، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل) (الرسالة ص ٢٠٠) .

على الخروج مستعداً له ، ثم إذا لم يحصل الأجلُ فلا يستعجل ، وإذا حضر فلا يستثقل ، ويكون بحكمِ الوقت ، كما قالوا :

لو قال لي مُتٌ مِنِّي سمعاً وطاعةً

وقلتُ لداعي الموت : أهلاً ومرحباً

قوله جل ذكره : « والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

لنبؤنَّهم من الجنةِ غُرُفاً تجري من

تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعَمٌ أجراً

العاملين »

م - اليوم - في عُرفِ معارفهم على أسيرةٍ وصليهم ، متوجِّون بيقينِ سيادتهم ، يُقَوِّنون كاساتِ الوجْدِ ، ويَجْبِرُون في جنانِ التُّرْبِ ، وعداً كما قال : -

« الذين صَبَرُوا وعلى ربِّهم يتوكلون »

والصبرُ الوقوفُ مع الله بشرط سقوط الفسكرة .

الصبرُ المكوفُ في أوطان الوفاء ، الصبرُ حبسُ النفسِ على فطامها .

الصبرُ تجرُّعُ كاساتِ التَّقديرِ من غير تيميس .

الصبرُ صفةٌ توجب ممِّيةَ الحقِّ . . وأعزُّزُ بها !

وأولُ الصبرِ نصبرُ بتكليفٍ ، ثم صبرٌ بسهولة ، ثم إعطيارٌ وهو مزوج بالراحة ، ثم تحققٌ بوصف الرضا ؛ فيصير البدُّ فيه محولاً بعد أن كان متحتجلاً .

والتوكلُ انتظارٌ مع استبشار ، والتوكلُ سُكونُ السرِّ إلى الله ، التوكلُ استئلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تنبرم في الخلوة باصطلاح الأغيار عنك . التوكلُ إعراضُ القلب عن غير الربِّ .

قوله جل ذكره : « وكأين من نازيةٍ لا تحمل رزقها اللهُ

يرزقها وإلا كم وهو السميع العليم » .

« لا تحمل رزقها » أى لا تدخره ، فمن لم يدخر رزقه فى كبسه أو خزانته فإِنَّهُ يَرْزُقُهُ مِنْ
غَيْرِ مَقْلَافَةٍ تَصْبِرُ مِنْهُ .

وقال « لا تحمل رزقها » للتصود بها الطيور والسباع إذ ليس لها معلوم ، وليس لها
بيت تجمع فيه الثروت ، وليس لها خازن ولا وكيل .. الله يرزقها وإياكم .
وقال لإرادة الله فى أن يستجيبك ولا يقبض رُوحَكَ أقوى وأتمُّ وأكبرُ من تمنُّيك
لأجلِ بقاءك .. فلا ينبغي أن يكون اهتمامك بسبب عَيْشِكَ أتمَّ وأكبرَ من تدبير صانعك
لأجلِ بقاءك .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

إِنَّا سَأَلُوا عَنْ اخْتِلَافِ أَقْوَامٍ بِاللَّهِ ، وَإِنَّا سَأَلُوا عَنْ الرَّاغِبِ لَمْ يَسْتَقِرُّوا مَعَ اللَّهِ .. هَذِهِ
مَنْقَصَةٌ ظَاهِرَةٌ !

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

الرزق على قسمين : رزق الظواهر ومنه الطعام والشراب ، ورزق السرائر ومنه الاستقلال
بالمال بحيث لا يعصره تكلف الكلام ، والناس فيهم مرزوق ومُرْقَعٌ عليه ، وفيهم مرزوق
ولكن مُسْتَقِيقٌ عليه .

قوله جل ذكره : « وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنبَا بِهَ الْأَرْضَ مِنْ بَدْمُوتِهَا لِيَقُولُنَّ
اللَّهُ قُلِّي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ » .

كما علموا أن حياة الأرض بعد موتها بالطر من قِبَل الله قليلوا أن حياة النفوس بعد موتها — عند التشريح والبيث — بقدره الله . وكما علموا ذلك قليلوا أن حياة الأوقات بعد نفرتها ، وحياة القلوب بعد نفرتها ... بماه الرحمة بالله .

قوله جل ذكره : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الفار الآخرة لمحى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

الدنيا كالأحلام ، وعند الخروج منها أهلية من النوم . والآخرة هناك البعث بكها ، والتخلص — من الوحشة — بتبليبه ودوامه .

قوله جل ذكره : « فلما ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاكم إلى البر إذا هم يشركون » .
الاخلاص تفرغ القلب عن الكل ، والتمتع بأن الاخلص ليس إلا به — سبحانه ، والتحقق بأنه لا يستكبر حالاً فى الحمودات ولا فى اللذومات ، فقد ذلك ببديونه مخلصين له الدين . ولذا تواتت عليهم الضرورات ، واقطع عنه الرجاء أذعنوا لله متضرعين (فلما كشف الضر عنهم عادوا إلى التفتة ، ونسوا ما كانوا فيه من الحال كاقيل)^(١) :

إذا ارعوى عاد إلى جهله كذى الضى عاد إلى نسكبه

قوله جل ذكره : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنسى الله يكفرون » .

من عليهم بدفع المحن عنهم وكون الحرم آمناً . وذكروهم عظيم إحسانه عليهم ، ثم إعراضهم عن شكر ذلك .

(١) ما بين القوسين موجود فى م وغير موجود فى ص ، والبيان يتطلبه ؛ لأن الشاهد الشعرى الموجود فى النسختين يؤول معناه .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ

كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ » .

أى لا أحد أشد ظلماً ممن افترى على الله الكذب ، وعدّل عن الصدق ، وأثّر البهتان

ولم يتصرف بالصدق ، أولئك هم الشقاق في الدنيا والآخرة .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا

وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْحَسَنِينَ » .

الذين دَينُوا ظواهرهم بالجهادات حسنت سرائرهم بالشهادات . الذين شغلوا ظواهرهم

بالوظائف أوصلنا إلى سرائرهم الطوائف . الذين فاسوا فينا التسب من حيث الصلوات جازيناهم

بالطوب من حيث للواصلات .

ويقال الجهاد فيه : أولاً بترك المحرمات ، ثم بترك الشبهات ، ثم بترك الفضلات ، ثم بقطع

العلاقات ، والتشق من الشواغل في جميع الأوقات .

ويقال بحفظ الحواس لله ، وبعد الأخلص مع الله .

السورة التي يذكر فيها الروم

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

بسم الله اسم عزز شفع المذنبين جوده ، بلاه التهمين تصوده ، ضياء المؤمنين عهوده .
وسلوة الحزوين ذكره ، وحرقة^(١) المستعنين شكره .

اسم عزز رداؤه كبريائه ، وجبار سناؤه بهائه ، وبهاؤه علاؤه .
المابدون حسبهم علاؤه ، والواجدون حسبهم بقاؤه^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نُغَلِّبِ الرُّومَ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ

وَمِنْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّطُلُونَ *
فِي بَضْعِ سَنِينَ » .

الإشارة في « الألف » إلى أنه أَلِفَ صُحْبَتًا مِّنْ عَرَفَ عَظَمَتَنَا ، وأنه أَلِفَ بِلَاءَنَا مِّنْ عَرَفَتْ كِبَرِيَاءَنَا .

والإشارة في « اللام » إلى أنه لَزِمَ بَابَنَا مِّنْ خَافَ مَحَابِنَا ، وَلَزِمَ بَاطِنَنَا مِّنْ شَهِدَ جَافِلَنَا .

والإشارة في « الميم » إلى أنه مُسَكِّنٌ مِّنْ قُرْبَانًا مِّنْ قَامَ عَلَى خِدْمَتِنَا ، وَمَلَّتْ عَلَى وَقَاتِنَا مِّنْ تَحَقَّقَ يَوْلَانَنَا .

قوله : « غَلَّبِ الرُّومَ » : سُرَّ المسلمون بظفر الروم على المعجم — وإن كان الكفر بمجمهم — إلا أن الروم اختصوا بالإيمان ببعض الأنبياء ، فشكر الله لهم ، وأنزل فيهم الآية ..
فكيف بمن يكون سروره لدين الله ، وحزنه واهتمامه لدين الله ؟

(١) الحرقه هنا ستاما دأبه ودينه (الرسيد) .

(٢) لأن يقاسم به علف لم من كل فيه ، فكل فيه زال .

قوله جل ذكره : « فَهُوَ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَبْدُ

ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله

ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » .

« قَبْلُ » إذا أطلق انتظم الأزل ، « وَبَدُ » إذا أطلق دلّ على الأبد ؛ فاللهي الأمر الأزل لله ، والأمر الأبدى لله ؛ لأنَّ الرّبَّ الأزل والسَّيِّدَ الأبدى الله .

الله الأمر يومَ العرَافِ^(١) ، والله الأمرُ يومَ النِّفَرانِ .

الله الأمرُ حينَ النِّسمة ولا حين ، والله الأمرُ عندَ النِّسمة وليس أي معين^(٢) .

ويقال : لي الأمرُ « من قبل » وقد علّمتُ ما تعلّمون ، فلا يمتنى أحدٌ من تحقيق عرَافَتِكُمْ ، ولي الأمرُ « من بعد » وقد رأيتُ ما فُتِم ، فلا يمتنى أحدٌ من غفرانِكُمْ .

وقيل « لله الأمر من قبل » بتحقيق ودِّكُمْ ، والله الأمر من بعد بحفظ عهدِكُمْ :

إني - على جفواتها - وبربها

وبكلٍّ مُتَّصِلٍ بها مُتَوَسِّلٍ^(٣)

« ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » :

اليومَ لِإِجْافِ السُّرُورِ وَإِنْعِافِ

يَوْمِ الْفِتَاءِ حَقِيقَةِ الْإِجْافِ

اليومَ تَرَجُّ وَغَدًا فَرَحٌ ، اليومَ عِبْرَةٌ وَغَدًا حَبْرَةٌ ، اليومَ أَسْفٌ وَغَدًا لُفٌّ ، اليومَ بَكَاءٌ وَغَدًا قَهْرٌ .

قوله جل ذكره : « وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

ولكنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »

(١) مكلا في م وهي في من يوم (القربان) ، والمرقة والقرب يجران في هذه الحياة الدنيا ، أما النِّفَران فهو في الآخرة يوم الحساب .

(٢) حِكْلا في وهي في من : (وَهْ الأمر عنه النِّسمة وليس في معسر) وهي غاشية في الكتابة والمعنى ، وقد أكثرنا ما جاء في م لوضوحه .

(٣) في موضع آخر من هذا المجلد نجد هذا البيت متبوعاً بالبيت التالي (الذي فيه عبر إن) :
لأحب وأحب منزلاً الله نزلت به وأحب أهل المنزل

الكريمُ لا يُخَفُّ وعده لا سيبا والصدقُ نته .

يقول المؤمنون : مينا يومَ اللشاق وعِدُّ بالطاعة ، ومنه ذلك اليومُ وعدُّ بالجنة ،
فلن وقع في وعدنا قصيرٌ لا يقع في وعده قصورٌ .

قوله جل ذكره : « يملون ظاهراً من الحياة الدنيا »
وهم عن الآخرة هم غافلون .

استفراقهم في الاشتغال بالدنيا ، وأنها كهم في تعلق القلب بها . . منهم عن
العلم بالآخرة . وقية كل امرئٍ عليه الله ؛ ففي الأثر عن عليٍّ — رضى الله عنه —
أنه قال : أهل الدنيا على غفلةٍ من الآخرة ، وللتفتلون بلم الآخرة كذلك بوجودها
في غفلة عن الله .

قوله جل ذكره : « أولم يفكروا في أنصهم ما خلق الله
السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق
وأجل مسي وإن كثيراً من الناس بقاء
رهم لكافرون » .

لأن من نظر حق النظر ، ووضع النظر موضعه أتم له العلم واجباً ، فلذا استبصر بنور اليقين
أحكام الثابتات ، وعلم موعوده الصادق في اللستأف — نجا عن كد التردد والتجور^(١) .
فبيل من محافله ألا يمتنع إلى التصير فيما به كمال سكونه .

قوله جل ذكره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض
وعمروها أكثر مما عروها ، وجاءتهم

(١) التردد والتجور آفتان تصيبان — في نظر الكثيري — العقل ، بينا القلب والروح والسر وجين السر
لا تصاب بهما .

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
ولكن كانوا أَغْصَمَ يَظْلِمُونَ .

سَيَّرَ النفوسَ في أقطار الأرض ومنا كلها لأداء المبادات، وسَيَّرَ القلوبَ بِمَوَلاَنِ الْفِكْرِ
في جميع المخلوقات ، وغاية الظَّفَرُ بِمَعَانِي المَومِنِ التي توجبُ تلج الصدر — ثم تلك المَومِنِ على
درجات . وسير الأرواح في ميادين الغيب تمت خرق سرادقات للملكوت ، وقصاراه الوصولُ
إلى محلِّ الشهود واستيلاء سلطان الحقيقة . وسير الأسرار بالترقي عن الحِذْقَانِ^(١) بِأَسْرِهَا ،
والتحقق أولاً بالصفات ، ثم بالمخود بالكلية عما سوى الحق^(٢) .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاوَا
الشَّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا
بِهَا يَسْتَمِرُّونَ » .

مَنْ ذَرَعَ الشَّوْكَ لَمْ يَحْصُدِ الْوَرْدَ ، وَمَنْ اسْتَنْتَبَ الْحَشِيشَ لَمْ يَقْطِفِ الثَّمَارَ ، وَمَنْ سَلَكَ
طَرِيقَ النَّفْسِ لَمْ يَحْلُلْ بِسَاحَةِ الرُّشْدِ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَبِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
نُورُجَمُونَ » .

يبدأ الخلق على ما يشاء ، ثم يبیده إذا ما شاء على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يَقُومُ يُبْلِسُ الْجَاهِلُونَ » .

شهودهم ما جعلوه في الدنيا عياناً ، ثم ما ينضاف إلى ذلك من اليأس بعد ما يعرفون
تعلماً^(٣) هو الذي يفت أكلهم ، وبه تمَّ محنتهم .

قوله جل ذكره : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ
وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ » .

(١) المقصود بالحدَثان المخلوقات إذ لها أول وابتهاد ولها آخر وانتهاء .

(٢) انظر بتخصيص هذا الترقى صفحة ٤٨٦ (المجلد الأول من هذا الكتاب) .

(٣) لأن سرهم للنبية تقطع كل شك كان يراودهم في الحياة الدنيا ، فلا مجال يومئذ لأهل زائف .

تطلب المداوة من بعض على بعض .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ » .

فريق منهم أهل الوصلة ، وفريق هم أهل التفرقة . فريق الجنة والمِنَّة ، وفريق المذابح والحنّة . فريق في السَّير ، وفريق في السُّرور . فريق في الثَّواب ، وفريق في المذابح . فريق في الفراقِ ، وفريق في التَّلاقِ .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ » .

فهم في رياضٍ وغيابِ

« وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَفَسَّاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْمَذَابِ الْمُحْضَرُونَ » .

فهم في بوارٍ وهلاكٍ .

قوله جل ذكره : « فَبُحْثِنَا اللَّهُ حِينَ نُسَمِّنُ وَحِينَ نَصْبِحُونَ • وَفِي الْجَدِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » .

مَنْ كَانَ صَبَاحُهُ اللَّهُ يُورِكَ لَهُ فِي يَوْمِهِ ، وَمَنْ كَانَ مَسَاوُهُ بِاللَّهِ يورِكَ لَهُ فِي لَيْلِهِ :

وإِنَّ صَبَاحًا تَلْقَى فِي مَسَائِهِ صَبَاحٌ عَلَى قَلْبِ الْغَرِيبِ حَيْبٌ

شَتَّى بَيْنَ عِلْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتَحٌ بِبَادِيَةِ مَسَاوِهِ مُحْتَمٌّ بِطَاعَتِهِ ، وَبَيْنَ عِلْدٍ صَبَاحُهُ مُفْتَتَحٌ بِشَاهِدَتِهِ وَرَوَاحِهِ مُفْتَتَحٌ بِرِزْقِهِ

وَيَعَالِ الْآيَةِ تَضْمَنُ الْأَمْرَ بِتَسْبِيحِهِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ ، وَالْآيَةُ تَضْمَنُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ^(١) .

(١) قيل لاين عباس : هل تجد الصلوات الخمس في القرآن ؟ فقال : نعم وتلا هذه الآية . « (حين تحمرون) صلاة المغرب والعشاء ، (وحين) تصبحون صلاة الفجر ، (وعشيا) صلاة العصر ، (وحين تظهرون) صلاة الظهر .

ولادة الحق من أوليائه بأن يمدحوا الهدى في اليوم واليلة خمس مرات ؛ فصف على بساط
للنجاحة ، وتستدرك ما فاتك فيما بين الصلاتين من طوارق الزلات .

قوله جل ذكره : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُمِيطُ الْأَرْضَ بَدَ
مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ » .

« يخرج الحي من الميت » : الطير من البيض ، والحيوان من التلطف .

و « يخرج الميت من الحي » : البيض من الطير ، والنطفة من الحيوان .

والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن .

ويظهر أوقاتاً من بين أوقات ؛ كالتبضع من بين أوقات البسط ، والبسط من بين
أوقات التبضع .

« ويميط الأرض بعد موتها » : يمجها بالطر ، ويأتي بالربيع بعد وحشة الشتاء ؛ كذلك
يوم التشور يمي الخلق بعد الموت .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ مُتَسَمِّينَ » .

خلق آدم من التراب ، ثم من آدم القرية . فذكرهم يستبهم لئلا يستجبوا بأحوالهم .

وقال الأصل ترربة ولكن البيرة بالترية لا بالترية ، القية لما منه لا لأعيان الخلوقات .
اصطفى واختار السكة فهي أفضل من الجنة ؛ الجنة جواهر ويواقيت ، والبيت حجر ؛ ولكن
البيت مختاره وهذا المختار حجر ؛ واختار الإنسان ، وهذا المختار مدبر ؛ والفى غنى لذاته ،
غنى عن كل غير من ربه وأمر .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ

مودةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ
لقومٍ يَتَفَكَّرُونَ .

رَدَّ اللَّيْلُ إِلَى اللَّيْلِ ، وَرَبَّطَ الشَّكْلَ بِالشَّكْلِ ، وَجَلَ سَكُونُ الْبَعْضِ إِلَى الْبَعْضِ ،
وَلَكِنْ ذَلِكَ لِلْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ ، أَمَّا الْأَرْوَاحُ فَصُحْبَتُهَا لِلْأَشْبَاحِ كَرَهٍ لَا طَرِيعَ^(١) .
وَأَمَّا الْأَسْرَارُ فَصُعُقَةُ لَا تَسَاكِنُ الْأَخْطَالَ وَلَا تَدْنُسُ بِالْأَعْلَالِ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِخْلَافُ السَّيِّئَاتِ » وَأَوَّلُكُمْ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِينَ .

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي عُلُوِّهَا وَالْأَرْضَ فِي دُنُوِّهَا ؛ هَذِهِ بِجَوْنِهَا وَكَوْنِهَا ، وَهَذِهِ بِأَفْضَالِهَا
وَمَنَاجِبِهَا . وَهَذِهِ بِشِسْهَاقِهَا وَفَرْعِهَا ، وَهَذِهِ بِمَاتِيهَا وَمَدْرِيهَا .

وَمِنْ آيَاتِهِ اخْتِلَافُ لَفَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَإِخْلَافُ تَسْيِيعَاتِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَكَانُ
السَّمَاءِ . وَإِنَّ اخْتِصَامَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِحُكْمٍ — شَاهِدُهُ عَذْلٌ ، وَدَلِيلُ صِدْقٍ عَلَى أَنَّهَا تَنَاجَى
أَفْكَالِ الْمُتَقِظِينَ ، وَتَنَادَى عَلَى أَصْغَارِهَا . أَنَّهَا جَمِيعُهَا مِنْ تَقْدِيرِ الْمَرْبِزِ الْعَلِيِّ .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَاسِكُ الْبَلَدِ وَالْأَنْهَارِ
وَإِجْتَاؤُكُمْ مِنْ قَضَاهُ » فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
لقومٍ يَسْمَعُونَ .

غَلَبَةُ النَّوْمِ فِيهِ اخْتِلَافٌ صَاحِبُهُ ثُمَّ إِتْقَانُهُ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ لَهُ يَوْمَئِذٍ يَدُلُّ عَلَى مَوْتِهِ
وَيُشِيرُ بِدَلَالَتِهِ وَقَدْ تَشَوَّرَهُ . ثُمَّ فِي حَالِ مَنَامِهِ يَرَى مَا يَسْرُهُ وَمَا يَضُرُّهُ ، وَعَلَى أَوْصَالِهِ
كَثِيرَةٌ أَمْرُهُ .. كَذَلِكَ الْيَتِ فِي قَبْرِهِ .. اللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ حَالِهِ فِي أَمْرِهِ ، وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ خَيْرِهِ
وَشَرِّهِ ، وَهُوَ وَضَرُهُ ؟

(١) فكرة اقتراب الروح عن صعدتها الأصل ، ولها في حائل البعث ، ذلك القفص المأوى أو السجن
الترابي — تمثل امتاماً كبيراً عند علماء السوفية (أنظر كتابنا « فناء النصوص الإسلامية » فصل النظرية) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ يَرْسِلُ السَّمَاءَ مَاءً فَأَنْبِتُ بِالْأَرْضِ
شَيْئًا مِنْهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ » .

يُقْبَلُ في القلوب من الرجا والتوقع في الأمور ، ثم يختلف بهم الحال ؛ فَمِنْ عَيْدٍ يَحْمِلُ
مَقْصُودُهُ ، وَمِنْ آخَرٍ لَا يَضِقُّ مِرَادُهُ .
والأحوال الطيفة كالبرق ، وقالوا : إنها لوائح ثم لوامع ثم طواع ثم شوارق ثم متوع
التهل (١) ، فاللوائح في أوائل العلوم ، واللوامع من حيث التفهيم ، والطواع من حيث
للمارف (٢) ، والشوارق من حيث التوحيد .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَا مِنْ الْأَرْضِ
إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

يُقْبَلُ هذه الأحوار ، وَيُنْبَغِ هذه الأطوار ، ويبدل أحوالا غير هذه الأحوال ؛ إِمَانَةٌ ثُمَّ
إِحْيَاءٌ ، وَإِعَادَةٌ وَقَبْلَهَا إِبْدَاءٌ ، وَقَبْرٌ ثُمَّ نُشْرٌ ، وَمَعَابَةِ فِي الْقَبْرِ ثُمَّ مَحَاسِبَةٌ بَعْدَ النُّشْرِ .
قوله جل ذكره : « وَهِيَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهَا
فَاتِتُونَ » .

لَهُ ذَلِكَ مِلْكًا ، وَمِنْهُ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ بَدْءًا ، وَبِهِ الْإِحْلَاقُ ، وَإِلَيْهِ رَجُوعًا .
قوله جل ذكره : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(١) يَنْتَقِ مَوْقِفَ التَّشْبِيهِ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا مَعَ مَا ذَكَرَهُ فِي طَرَاثُفِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ زَادَ عَلَيْهَا مَا
(مَنْعُ الْبَدَأِ) .
(٢) تَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّ التَّشْبِيهِ يَرَى هَذَا التَّرْتِيبَ : أَلَمْ تَمْ تَفْهَمُ ثُمَّ لِلْمَرَّةِ الْوَارِدَاتُ ، وَتَفْهَمُ أَنَّ التَّرْتِيبَ
أَعْلَمُ دَرَجَاتِ الْوَرْدَانِ .

« وهو أهون عليه » أى فى ظنكم وتقديركم^(١) .

وفى الحقيقة السهولة والوعود على الحق لا تجوز .

« وله المثل الأعلى » : له الصفة العليا فى الوجود بحق التقدم ، وفى الجود بنمت الكرم ، وفى القدرة بوصف الشمول ، وفى النصرة بوصف الكمال ، وفى العلم بسوم التلق ، وفى الحكم بوجوب التحقق ، وفى المشيئة بوصف البلوغ ، وفى القضية^(٢) بحكم النفوذ ، وفى الجبروت بعين العز والجلال ، وفى الملكوت بنمت الحمد والجلال .

قوله جل ذكره : « ضرب لكم مثلاً من أهيكم هل

لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء

فبا رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم

كخيفتكم أنفسكم كذلك ففعل

الآيات قوم يقولون . »

أى إذا كان لكم مالكم لا ترصون بالسواة بينكم وبينهم ، وأنتم متساوون^(٣) بكل وجه - إلا أنكم بحكم الشرع مالكم - فما قولون فى الذى لم يزل ، ولا يزال كالم يزل ؟ .

هل يجوز أن يُقدّر فى وصفه أن يساوية عبده ؟ وهل يجوز أن يكون مملوكه شريكه ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قوله جل ذكره : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بنير علم

فمن يهذى من أضل الله وما لم

من ناصرين » .

(١) معنى هذه العبارة : حسب ظنكم وتقديركم الإمامة أسهل من الإنشاء .. فكيف أكثرتم الإمامة ؟ فضلا عن أنه ليس منه الله أسهل ولا أصير .

(٢) القضية : هى قضاء الله .

(٣) متساوون منهاها : متساوون ومساوون ولا فرق فى الجوهرية بينكم وبينهم .

شئ خفي متتابعة الهوى ؛ لأنه قريب من الشرك ، قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » (١) . فَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ خَالَفَ رِضَا مَوْلَاهُ ؛ فهو يروضه الشيءَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ صارَ ظَالِمًا ، كما أَنَّ الْعَاصِيَ يَرْضِيهِ الْمَعْصِيَةَ مَوْضِعَ الطَّاعَةِ ظَالِمٌ .. كذلك هذا بتتابة هواه بدلًا عن مواهبة ومتابعة رضا مولاه صار في الظلم متآديًا .

قوله جل ذكره : « فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِطَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

أَخْلَصَ قَصْدُكَ إِلَى اللَّهِ ، وَاحْفَظْ عَهْدَكَ مَعَ اللَّهِ ، وَأَعِزِّدْ عَمَلَكَ فِي سَكَاتِكَ وَحَرَكَاتِكَ وَجَمِيعِ تَصَرُّفَاتِكَ اللَّهُ .

« حَنِيفًا » : أى مستقيماً في دينه ، مائلاً إليه ، مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِهِ (٢) . وَالزَّمَّ « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أَيْ أَثَبَّتَهُمْ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يُوجِدَ مِنْهُمْ فِعْلًا وَلَا كَسْبًا ، وَلَا شِرْكًَا وَلَا كُفْرًا ، وَكَأَيْسَ مِنْهُمْ لِيْمَانٍ وَإِحْسَانٍ فَلَيْسَ مِنْهُمْ كُفْرَانٌ وَلَا عَصِيَانٌ . فَاعْرِفْ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ ، ثُمَّ أَفْضَلُ مَا أُبَيِّنَتْ بِهِ ، وَاحْفَظْ مَا تُهَيِّئَتْ عَنْهُ .

فَعَلِيَ هَذَا التَّأْوِيلَ قَدْ مَعْنَى قَوْلِهِ : « فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » أَيْ إِمْرُفَ وَأَعْلَمَ أَنْ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا : تَجَرُّدُهُمْ عَنْ أَضَالَمٍ ، ثُمَّ اتِّصَافُهُمْ بِمَا يَكْسِبُونَ — وَإِنْ كَانَ هَذَا أَيْضًا بِتَقْدِيرِ اللَّهِ (٣) .

وَعَلَى هَذَا تَكُونُ « فِطْرَةُ » اللَّهِ مَنْصُوبَةً بِإِنْهَارِ أَعْلَمَ* — كَأَقْلَمَا .

(١) آية ٢٢ سورة الجاثية .

(٢) تَكْلِمَةُ وَحَيْفَ « مِنْ الْأَمْسَادِ » .

(٣) يَذْكُرُنَا هَذَا بِتَضْيِيرِ أَيْ طَالِبِ الْمَكِيِّ لِقَوْلِ رَبَابَةِ وَأَسْهَلُ حِينَ .. « فَالْحَبُّ الْأَوَّلُ فَطَرَى تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ ، وَالْحَبُّ الثَّانِي حَالَتُهُ بِكَسْبِهِ وَلَكِنْ هُوَ فِي هَذَا الْحَبِّ الْكَسْبُ لَا تَفَضَّلَ هُوَ ، وَلِلَّهِ اسْتَرْكَتْ : لِلَّهِ الْحُدُ فِي ذَا وَلَا ذَاكَ لِي وَلَكِنْ هُوَ الْحُدُ فِي ذَا وَذَاكَ أَنْظَرِ (قِيَمَةُ الْقَلْبِ الْمَكِيِّ ٢- ص ٦٠) وَمُتَلَذِّمًا) وَأَنْظَرِ أَيْضًا كِتَابَنَا (تِلْكَ الْقَصُوفُ الْإِسْلَامِيَّةُ) ط دَارُ الْمَعَارِفِ .

سبحانه فَطَرَ كُلَّ أَحَدٍ عَلَى مِثَالِهِ أَنَّهُ يَكُونُ فِي السَّعَادَةِ أَوْ الشَّقَاوَةِ ، وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا تَحْوِيلَ لِمَا عَلَيْهِ فَطَرَهُ . فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَكُونُ سَعِيداً أَرَادَ سَعَادَتَهُ وَأَخْبَرَ عَنْ سَعَادَتِهِ ، وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ سَعِيداً . وَمَنْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ شَقِيقاً وَأَخْبَرَ عَنْ شَقَاوَتِهِ وَخَلَقَهُ فِي حُكْمِهِ شَقِيقاً .. وَلَا تَبْدِيلَ لِحُكْمِهِ ، هَذَا هُوَ الدِّينُ لِلْعَظِيمِ وَالْحَقُّ الصَّحِيحُ^(١)

قوله جل ذكره : « مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَآخِرُهُ وَأَوَّلُهُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّرَكِيِّينَ » .

أَي رَاجِعِينَ إِلَى اللَّهِ بِالْكَلِيَّةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ ، مُتَصِفِينَ بِوَقَائِهِ ، مُتَعَرِّفِينَ بِكُلِّ وَجِدٍ عَنْ خِلَافِهِ ، مُتَّحِينَ صَنِيعَ الْإِيمِ وَكَيْدِهِ ، قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، مُؤَثِّرِينَ بِسِرِّهِ وَوَقَائِهِ وَعَسِيرِهِ ، مُقِيمِينَ الصَّلَاةَ بَارَكْنَاهَا وَسَمَّيْنَاهَا جَهْرًا ، مُتَعَرِّفِينَ بِعِبَادَتِهِ فَضَائِلَهَا سِرًّا .

قوله جل ذكره : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ
وَكَانُوا شَيْعًا كُلٌّ لِرِزْقٍ بِمَا لَيْسَ بِهِمْ
فَرْحُونَ » .

أَقَامُوا فِي دُنْيَاهُمْ فِي خَارِ الْفِتْنَةِ ، وَعَسَادِ الْجَهْلِ وَالْفِتْرِ ، فَرَّقُوا إِلَى ظَنُونِهِمْ ، وَاسْتَوَطَنُوا مَرْكَبَ أَوْهَامِهِمْ ، وَتَمَوَّنُوا مِنْ كَيْسِ غَيْرِهِمْ ، وَظَنُوا أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ .
فَإِذَا انْكَشَفَ ضَلِيلُ وَقْتِهِمْ ، وَاضْطَعَّ سَعَابُ جَدِيدِهِمْ . . انْقَلَبَ فَرْحُهُمْ تَرْحًا ، وَاسْتَقْبَلُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ ، وَلَمْ يَمْرُجُوا إِلَّا فِي أَوْطَانِ الْجَهْلَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَا
رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أُنْزِلَتْ مِنْهُمْ
رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ
يَشْكُرُونَ » .

(١) بحسب أن التقدير قد حاول ليضاح مشكلة عامة من مشاكل علم الكلام ، فليست الجبرية منه بتناقض
لحرية الإنسان واعتباره ، ما فاعلت الأمور كلها مرتبطة بعلم الله الذي سبق كل شيء ، وبفضل الله الذي نزل
على ما علم .

إذا أغلظهم الحقنة ونالهم الفتنة ؛ وَمَنْهُمْ الْبَلِيَّةُ رجعوا إلى الله بأجمعهم مستعينين ،
وعلقه مستعيرين ، وعن محنتهم مستكشفين ^(١) ..

فلذا جاد عليهم بكشف ما نالهم ، ونظر إليهم بالطف فيما أصابهم : إذا فريق منهم — لا كلهم — بل فريق منهم برهم يشركون ؛ يهودون إلى عاداتهم للنعمة في الكفران ، ويقابلون إحسانه بالسيان ، هؤلاء ليس لهم عهد ولا وفاء ، ولا في مودتهم صفاء .

قوله جل ذكره : « يَلِكْفَرُوا بما آتيناكم فضتوا
فصوف تعلمون » .

أي عن قريب سيحدث بهم مثلاً أصابهم ، ثم إنهم يهودون إلى التضرع ، ويأخذون فيما كانوا عليه بدءاً من التمتع ، فلذا أشكلهم وعللهم رجعوا إلى رأس خطيئهم .

قوله جل ذكره : « أم أنزلنا عليهم سلطاناً نؤمر
بكم بما كانوا به يشركون » .

بين أنهم بنوا على غير أصل طرقهم ، واتبعوا فيما اجتمعوه أهواءهم ، وعلى غير شرع من الله أو حجة أو بيان أسوأ ملامتهم .

قوله جل ذكره : « وإذا أدقنا الناس رحمة فرحوا

بها وإن نصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم
إذا هم يقتلون » .

تسليم طوارق أهوالهم ؛ فلئن كانت نعمة فلا فرح ، وإن كانت شدة فلا قنوط وتروح .. وليس وصف الأكاير كذلك ؛ قال تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ^(٢) .

(١) أي راجعين كشف الفتنة منهم .

(٢) آية ٢٣ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَعْرِوا أَنَّ اللَّهَ يَنْصُطُ

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ » .

الإشارة فيها إلى أن العبد لا يُعَلِّقُ قلبه إلا بالله ؛ لأن ما يسوِّجهم ليس زواله إلا بالله ، وما يسرُّهم ليس وجوده إلا من الله ، فاليسرُ الذي يسرُّهم ويونسهم منه وجوده ، والقبض الذي يسوِّجهم ويوحشهم منه حصوله ، فالواجب لزوم عَفْوِهِ^(١) الأسرار ، وقطع الأفكار عن الأغيار .

قوله جل ذكره : « فَأَتِ ذَا قَرْبَاهُ فَهَلَّلَهُ وَلَلسَّكِينِ وَابْنِ

السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

القراءة على قسمين : قراءة للقلب وقراءة للدين ، وقراءة للدين أَمْسٌ ، وباللواصة أَحَقُّ وإذا كان الرجل مشتغلاً بالعبادة ، غير متفرِّغٍ لطلب اللبشة فالتين لهما إيمانٌ بجملة ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة ؛ فاشتغال الرجل بمراجعة القلب يحيل حقه أكَّد ، وتفقده أَوْجَبَ .

« ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ » : المریدُ هو الذي يُؤَوِّزُ حَقَّ الله على حظِّ

نَفْسِهِ ؛ فليُشارُ المرید وجه الله أتم من مراعاته حال نفسه ، فهيمته في الإحسان إلى ذوى القربى والمساكين تضخم على نظيره لِنَفْسِهِ وعياله وما يهيمه من خاصته .

قوله جل ذكره : « .. وَمَا آتَيْتُم مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ

وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْمِنُونَ » .

إتمام الزكاة بأن تريد بها وجه الله ، وألا تستخدم الفقير لما تنبّه به من راقعة^(٢) ،

(١) المقرة للوضع المتع أمام القادر .

(٢) الراقعة = الرقعة والحلف ، تقول : أوداه راقعة (الوسيد) .

بل أفضل الصدقة على ذي رحم كرشح^(١) ، كونه إعطائه لله مجرداً عن كل نصيب لك فيه . فهو لادم تين يذيق أجركم : قهرهم لأنفسهم حيث يحالونها ، وفوزهم بالموث من قبل الله .

ثم الزكاة هي التطهير ، وتطهير المال معلوم ببيان الشريعة في كيفية إخراج الزكاة ، وأصناف المال وأوصافه .

وزكاة البدن وزكاة القلب وزكاة السر . كل ذلك يجب القيام به .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم

يحييكم ثم يميتكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون » .

« ثم » حرف يقتضي التراخي ؛ وفي ذلك إشارة إلى أنه ليس من ضرورة خلقه إياك أن يرزقك ؛ كنت في ضف أحوالك ابتداء ما خلقك ، فأنتك وأحيك من غير حاجة لك إلى وزفر ؛ فإلى أن خرجت من بطن أمك : إما أن كان ينفك عن الرزق وأنت جنين في بطن الأم ولم يكن لك أكل ولا شرب ، وإما أن كان يطيك ما يكفيك من الرزق — إن حق ما قالوا : إن الجنين يتغذى بدم الطمث . وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المهود في الوقت المعلوم ، فيسر لك أسباب الأكل والشرب من لبن الأم ، ثم من ضون الطعام ، ثم أرزاق القلوب والسرائر من الإيمان والعرفان وأرزاق التوفيق من الطاعات والعبادات ، وأرزاق اللسان من الأذكار وغير ذلك مما جرى ذكره .

« ثم يميتكم » بسقوط شهودكم ، ويميتكم عن شواهدكم .

« ثم يحييكم » بحياة قلوبكم ثم بأن يحييكم بربكم .

(١) كرشح أي يهيف . وربما كان غير مثل التصديق على نفس رسم يهيف ، ما حدث من أبي بكر حينما استنح من تقديم الزكاة لمسطح على أثر قيامه بدوره المعروف في قصة الإك ، فموت أبو بكر في ذلك ونزلت فيه « ولا تأكلوا أموالكم بالبينات » الآية ٢٢ سورة النور .

وقال : من الأرزاق ما هو وجود الأرواق ومنها ما هو شهود الرزاق .

وقال : لا مَكْنَةَ لك في تبديل خَلْقِكَ ، وكذلك لا قُدْرَةَ لك على تَسْمِيرِ رِزْقِكَ ،
فَالْمَوْسِعُ عليه رِزْقُهُ — بِفَضْلِهِ سَبْحَانَهُ . . لا يَمُنَّاقِبُ نَفْسَهُ ، وَالْمَقْرُ عليه رِزْقُهُ بِعَكْسِهِ
سَبْحَانَهُ . . لا يَمُنَّاقِبُ نَفْسَهُ .

« هل من شركائكم مَنْ يفعل مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؛ هل من شركائكم الذين أَعْبَتُمُوم
أَي من الأصنام أو تَوَهَّمْتُمُوم من جملة الأنام . . مَنْ يفعل شيئاً من ذلك ؟ » سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى
نَزِيهًا لَهُ وَتَهْدِيًا .

قوله جل ذكره : « ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما
كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُؤْذِيَهُمْ بَعْضُ
الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

الإشارة من البرِّ إلى النَّفْسِ ، ومن البحر إلى القلب .

وفسادُ البرِّ بِأَكْلِ الحرامِ وارْتِكَابِ المخطورات ، وفسادُ البحرِ من النِّفَّةِ والأوصاف
التيمة مثل سوء العزم والحسد والحقد وإرادة الشرِّ والنِّسْيِ . . وغير ذلك . وَصَدُّ
الإصرارِ على المخالفاتِ من أعظمِ فسادِ القلب ، كما أَنَّ العَزْمَ على الخيورات قبل فِعْلِهَا من
أعظمِ الخيورات .

ومن جملة الفسادِ التَّأْوِيلَاتُ بغيرِ حقٍّ ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ في غيرِ قيامٍ بِعَدَلٍ ،
والإغراق في المعامِوى من غيرِ استحياء من الله تعالى .

« لِيُذِيَهُمْ بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » : بَعْضُ الَّذِي عَمِلُوا من سقوطِ تعظيمِ الشرعِ
من القلب ، وعدمِ التَّأَسُّفِ على ما فاتَهُ من الحقِّ .

قوله جل ذكره : « قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كيف
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ » .

« سبروا » بالاعتبار ، واطلبوا الحق بشت الأفكار .

« فانظروا » كيف كانت حال مَنْ قَدَّمَكُمْ من الأشكال والأمثال ، وقبِسوا عليها حُكْمَكُمْ في جميع الأحوال . « كان أكثرهم مشركين » كانوا أكثرهم عدداً ، ولكن كانوا في التحقيق أقلهم وزناً وقَدْرًا .

قوله جل ذكره : « فَأَلِّمُوْهُمْ لَدُنِّكَ الَّذِيْنَ التَّمَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ » .

أَخْلِصْ قَمَدَكَ وَمِدَى عَزَمِكَ لِلَّذِينَ التَّمَّ بِالْمُؤَاظَةِ وَالِاتِّبَاعِ دُونَ الْاِسْتِدَادِ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِ الْاِبْتِدَاعِ . فَنَ لَمْ يَتَأَدَّبْ بِمَنْ هُوَ إِمَامٌ وَقْتَهُ وَلَمْ يَتَلَقَّ الْأَذْكَارَ مِنْهُ هُوَ لِسَانُ وَقْتِهِ كَانَ خُسْرَانُهُ أَتَمَّ مِنْ رِبْحِهِ ، وَخُسْرَانُهُ أَتَمُّ مِنْ نَفْعِهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَرِيْذِقَ لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتُجَبَّرَ لَكُمْ الْقُلُوبُ بِأَمْرِهِ وَلِتُتَبَشَّرُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ » .

يرسل رياحَ الرِّجَاءِ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ فَتُكْسَى عَنْ قُلُوبِهِمْ غِبَارُ الْخُوفِ وَغُثَاءُ الْيَأْسِ ، ثُمَّ يَرْسِلُ عَلَيْهَا أَمْطَارَ التَّوْفِيقِ فَتَحْلَهُمْ إِلَى سِيَاطِ الْجَهَنَّمَ ، وَتُكْرِمُهُمْ بِقُوَى النَّشَاطِ . وَيَرْسِلُ رِيَّاحَ الْبَسْطِ عَلَى أَرْوَاحِ الْأَوْلِيَاءِ فَيُطَهِّرُهَا مِنْ وَحْشَةِ الْقَبْضِ ، وَيُنْشِرُ فِيهَا إِرَادَةَ الْوَصَالِ . وَيَرْسِلُ رِيَّاحَ التَّوْحِيدِ فَتَهْبِ عَلَى أَسْرَارِ الْأَصْفِيَاءِ فَيُطَهِّرُهَا مِنْ آثَارِ الْعَنَاءِ ، وَيُشْرِهَا بِدَوَامِ الْوَصَالِ .. فَلَنَلِكْ ارْتِيَاخًا بِهِ وَلَكِنْ بَدَأَ اجْتِيَاخَ عَنْكَ .

(١) يرى كبار الصوفية - والقشيري منهم - أن التأديب يشيخ أمر ضروري في الطريق الصوفي كي يكبح جماح المرید ، ويهديه إلى ربه منه رجوة نفسه ، ويبيد به من الزهو عندما تلوح له بوادر الكشوفات ، ويشير عليه بالسفر إن دعت الحاجة إلى ذلك ... ونحو هذا .

قوله جل ذكره : « وقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا إلى

قومهم فجاءهم بالبينات فامتنعنا

من الذين أجمعوا وكان حقًا علينا

نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

أرسلنا من قبلك رسلًا إلى عبادنا ، فَمَنْ قَالَهُمْ بِالصِّدْقِ وَصَلَ إِلَى خِلَاصَةِ التَّصْفِيقِ ،
وَمَنْ عَارَضَهُمْ بِالْجُودِ أَذَقَهُمْ عَذَابَ الْخُلُودِ ، فامتنعنا من الذين أجمعوا ، وأخذناهم من حيث
لم يحتسبوا ، وشَوَّشْنَا عَلَيْهِمْ مَا آمَلُوا ، وقضينا عليهم ما استطابوا وتَنَمَّوْا ، وأخذنا بخَنَافِهِمْ
غُلَاقَ بِهِم مَا كُفِّرُوا .

« وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » بِطَوْلَتِهِمْ بِأَعْيَابِ أَعْدَائِهِمْ ، وَلَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا بِسِرًّا حَتَّى
رَقِبْنَاهُمْ فَوْقَ رَقَابِهِمْ ، وَخَرَّبْنَا أَوْطَانَ أَعْدَائِهِمْ ، وَهَدَمْنَا بَنِيَانَهُمْ ، وَأَخَذْنَا بِرَأْسِهِمْ ، وَعَطَلْنَا
عَنْهُمْ دَوَارَهُمْ ، وَخَوَّشْنَا بِهَرَمِ التَّخْمِيرِ آثَارَهُمْ ، فَظَلَّتْ شُمُوسُهُمْ كَاسِفَةً ، وَمَكِيدَةُ قَهْرِنَا لَمْ
بُأَجْمِعْهُمْ خَاسِفَةً .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا الْبَاقِيَ يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنُفِرُ سَحَابًا

فَيَسْطُلُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كَيْسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

فَلَمَّا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

إِنَّا نُمْسِكُهُمْ

بِرِيسْلِ رِيحِ عَطْفِهِ وَجُودِهِ بِوَصْلِهِ وَجُودِهِ ، ثُمَّ يُنْظِرُ جُودَ غِيْبِهِ عَلَى
عَلَى أَسْرَارِهِمْ بِطَلْفِهِ ، وَيَطْوِي بِسَاطَ الْحَشَةِ عَنْ سَاحَاتِ قُرْبِهِ ، وَيَضْرِبُ قَبَابَ الْهَيْبَةِ بِمَشَاهِدِ
كَشْفِهِ ، وَيُنْشِرُ عَلَيْهِمْ أَزْهَارَ أَنِيهِ ، ثُمَّ يَجْعَلُ لَمْ بِخَتَاتِ قُدْسِهِ ، وَيَقِيمُ يَدَهُ شَرَابَ حُبِّهِ ،
وَيَبْدُو مَا عَامَمَ عَنْ أَوْصَافِهِمْ أَحْصَاهُمْ — لَا يَبِيْهِمْ — وَلَكِنْ يَنْفُسُهُ ، فَالْبَارَاتُ عَنْ ذَلِكَ خُرُوسٌ ،
وَالْإِشَارَاتُ دُونَهَا طُمَسٌ

قوله جل ذكره: «فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُعْجِي
الْأَرْضَ بِمَدِّ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْجِي
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

يُعْجِي الْإَرْضَ بِزَهْرِهَا وَأَنْوَارِهَا عِنْدَ عِجْيِ الْأَمْطَارِ لِيُخْرِجَ زَرْعَهَا وَمَنْعَهَا ، وَيُعْجِي
النَّفُوسَ بِمَدِّ نَفْسَتِهَا ، وَيَوْعِهَا لِلشَّيْرَاتِ بِمَدِّ فِتْنَتِهَا ، فَيَصْمُرُ أَوْطَانُ الرِّفَاقِ بِصَادِقِ إِقْلَامِهِمْ ،
وَتُدْفَعُ الْبِلَادُ عَنِ الْأَنْفَامِ بِرِكَاتِ أَيْدِيهِمْ ، وَيُعْجِي الْقُلُوبَ بِمَدِّ غَفْلَتِهَا بِأَنْوَارِ الْحَاضِرَاتِ ، فَتُؤَدُّ
إِلَى اسْتِنَامَةِ الذِّكْرِ بِحُسْنِ الرَّعَاةِ ، وَيَهْتَدِي بِأَنْوَارِ أَهْلِهَا أَهْلُ الْمَسَرِّ مِنْ أَحْبَابِ الْإِرَادَاتِ ،
وَيُعْجِي الْأَوْجَاعَ بِمَدِّ حُجَّتَيْهَا — بِأَنْوَارِ الْمَشَاهِدَاتِ ، فَتُطْلَعُ شَمُوسُهَا عَنْ بُرْجِ السَّعَادَةِ ، وَتُصَلِّ
بِمَشَامِ أَسْرَارِ الْكَفَّةِ نَسِيمُ مَا يَنْفِضُ عَلَيْهِمْ مِنَ الزَّيْلَاتِ ، فَلَا يَبْقَى صَاحِبُ نَفْسٍ إِلَّا حَاطَى مِنْهُ
بِنَصِيبٍ ، وَيُعْجِي الْأَسْرَارَ — وَقَدْ تَكُونُ لَهَا وَقْفَةٌ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ — فَتَقْتَنِي بِالْكَلِيَّةِ آثَارُ
النَّعِيمَةِ ، وَلَا يَبْقَى فِي الْمَادِيَّاتِ وَلَا مِنْ سَكَنَتِهَا آثَارٌ ؛ فَتَطْلُوتُ الْحَقَائِقُ لِأَثْبَتِ لَهَا ذُرَّةً
مِنْ صِفَاتِ الْخَلَائِقِ ، هُنَاكَ الْوِلَايَةُ لِلَّهِ . . . سَقَطَ لِلَّهِ وَالْقَطْرَةُ ، وَطَلَحَتِ الرُّسُومُ وَالْجِلَّةُ^(١) .

قوله جل ذكره: «وَلَنْ أَرْسَلْنَا رَحْمَةً مِّنَّا قُرْآنًا مِّنْهُ
لَتَقْلُقُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» .

إِنَّا انْشَدْتُ الْبَصِيرَةَ عَنِ الْإِدْرَاكِ دَامَ الْمَسَى عَلَى عُرُومِ الْأَوْقَاتِ .. كَذَلِكَ مِنْ حَقِّ عَلَيْهِمُ
الشَّقَاوَةُ جَرَّكَ إِلَى نَفْسِهَا — وَإِنْ تَبَوَّأَ الْجَنَّةَ مَنَازِلًا .

قوله جل ذكره: «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ لِلرَّوْثِ وَلَا تُنْشِئُ
الْعُثْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» .

مَنْ قَدَّ الْحَيَاةَ الْأَصْلِيَّةَ لَمْ يَمِشْ بِالرُّثَى وَالْمَتَامِ ، وَإِذَا كَانَ فِي السَّرِيرَةِ طَرْشٌ عَنْ سَمَاعِ
الْحَقِيقَةِ فَسَنَعَ الْفَاضِلَ لَا يَنْبِذُ آكَدَ الْحُجَّةِ . وَكَأَلَا يُنْشِئُ^(٢) الْعُثْمَ الدُّعَاءَ فَكَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ
أَنْ يَهْدِيَ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ .

(١) أَيْ انْشَدْتُ آثَارَ الْبَشِيرَةِ ، وَصَارَ الْبَيْدُ مَسْتَهْلِكًا بِالْكَلِيَّةِ .

(٢) الْقَائِلُ نَسِيبَ مَسْتَرٍ تَقْدِيرُهُ يَهْوُو يَهْوِدُ عَلَى الرُّسُولِ مَصْرُوتَاتُ اشْتِعَالِهِ ، فَإِنَّ الشُّطْبَانَ فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ مُوجَّهٌ إِلَيْهِ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَدَنِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ

مِنْ يَدَيْهِ قُوَّةً ضَعْفًا وَشِبْهَ يَخْلُقُ

مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ » .

أظهرهم على ضعف الصنر والطنولية^(١) ثم بده قوة الشباب ثم ضعف الشيب ثم :

آخر الأمر ما ترى القبر والحد والثرى

كذلك في ابتداء أمرهم يظهرهم على وصف ضعف البداية في نصت التردد والحيرة في الطلب ،

ثم بده قوة الوصل في ضعف التوحيد .

ويقال أولا ضعف العقل لأنه بشرط البرهان وتأمله ، ثم قوة البيان في حال العرقان ؛ لأنه

بسطوة الوجود ثم بده ضعف الخلود ؛ لأن الخلود يخلو الوجود ولا يبقى منه أثر .

ويقال « خلقكم من ضَعْفٍ » : أى حال ضعف من حيث الحاجة ثم بده قوة الوجود

ثم بده ضعف للسكنة ، قال صلى الله عليه وسلم : « أحيى مسكيناً وأميت مسكيناً واحشرنى

في زمرة للساكنين »^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ تَنفَخُ السَّاعَةُ يُمْسِقُ الْغَرْمُونَ

مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا

يُوقَسُونَ » .

إنما كان ذلك لأحد أمرين : إما لأنهم كانوا أمواتاً .. ولبيت لا إحساس له ، أو لأنهم

عدّوا ما اتوا من عذاب القبر بالإضافة إلى ما يرون ذلك اليوم يسيراً . وإن أهل التحقيق

يخبرونهم عن طول نُبُثِهِمْ تحت الأرض . وإن ذلك الذى يقولونه من جلة ما كانوا يظهرون

من جحظهم على موجب جهلهم ، ثم لا يسمعُ عذرهم ، ولا يدفعُ ضررهم .

(١) الطنولية = الطفولة .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى والحاكم ، وقال صحيح الإسناد . ورواه الطبرانى

بسمه رجال ثقات من عبادة بن الصامت . وادعى ابن الجوزى وابن تيمية أنه موضوع ، وأبطل ذلك الحافظ بن سير .

وأخبر يد هذا في آخر السورة من إصرارهم وانها كهم في عيهم ، وأن ذلك نصيبهم من
القصة إلى آخر أمالهم .

ثم ختم السورة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بإصطباره على مقاساة مسارهم
ومضاهم .

« فَلْيَصِيرُوا لِيَنَّ » وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ
وَلَا يَسْتَعْفِفُكَ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ » .

المسورة التي يذكر فيها لقمان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سمعها أقرَّ أنه لا يسمع مثلها ، وَمَنْ عَرَفَهَا أُنْفَأَنْ يسمع غيرها . كلمةٌ مَنْ سمعها طابت قِصَّتُهُ ، وزالت بكل وجهٍ غُصَّتُهُ ، وَنَمَتْ مِنَ النَّعْمِ في الدنيا والتمتعى حِصَّتُهُ ، وَزَهَدَتْ في دُنيَاهِ من غير رَغْبَةٍ في عِقَابِهَا ؛ لِأَنَّهَا - وَلَئِنْ جَلَّتْ - غَيْرُ مَوْلَاهُ ^(١)

كلمةٌ مَنْ سمعها لم يرغب في حمارة فَنَاهِ ، ولم يتعصم ^(٢) سرعة وفاته .

قوله جل ذكره : « أَلِّمُوا آلَهُمْ » تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ ،

الألف تشير إلى آلائِهِ ، واللام تشير إلى لِقَائِهِ وعِطَائِهِ ، والميم تشير إلى مَجْدِهِ وسَنَائِهِ ؛ فَبِآيَاتِهِ يرفعُ الجَبَدَ عن قلوبِ أوليائِهِ ، ويلقهُ وعِطَائِهِ يثبتُ الحُبَّ في أسرارِ أضيائِهِ ، وبمجده وسَنَائِهِ مستغنى عن جميع حَقَائِقِهِ بوصفِ كبريائِهِ .

« تلك آياتُ الكتابِ الحكيمِ » : المحروس عن التفسير والتبديل .

« هُدًى ورحمةٌ للمحسنين » الذين يقيمون

الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

هُمْ يُوقِنُونَ »

هو هُدًى وبيان ، ورحمة وبرهان للمحسنين السارفين بالله ، والقيدين بعبادة الله كَأَنَّهُمْ

(١) فالحب العالم متلف من العبارة .

(٢) لم يتعصم أي : لم يتعصم

ينظرون إلى الله . وشرطُ الْمُحْسِنِ أَنْ يكونَ محسناً إلى عبادِ الله : طابهم وقاصيهم ،
ومطعمهم وعاصيهم .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » : يأتون بشرائطها في الظاهر من ستر المورة ،
وقد سجدوا لله ، واستقبال القبلة ، والمسلم بدخول الوقت ، والوقوف في مكان طاهر .
وفي الباطن يأتون بشرائطها من طهارة السر عن الملاق ، وستر عورة الباطن بتقيته عن
الميوب ، لأنها مهما تكن فاقه براها ؛ فلما أردت ألا يرى الله عيوبك فاحذر ما حق
لا تكون . والوقوف في مكان طاهر ، وهو وقوف القلب على الحديث الذي أذنت في الوقوف فيه
عما لا يكون دعوى بلا تحقيق ، ورحم الله من وقف عند حده . والمعرفة بدخول الوقت
فصل وقت التذلل والاستكانة ، وتميز بينه وبين وقت السرور والبسط ، وتستقبل القبلة بنفسك ،
وتلق قلبك بالله من غير تخصيص بقطر أو مكان .

قوله جل ذكره : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك

م الفلحون »

الذين يقومون بشرط صلاحهم وحق آداب عبادتهم هم الذين اهتموا في الدنيا والآخرة
فصلحوا ونجوا .

قوله جل ذكره : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث

ليُفعل عن سبيل الله بضير عمل
ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين »

« لهو الحديث » : ما يشغل عن ذكر الله ^(١) ، وتجنب عن الله سمعه . ويقال : هو لنو
الظاهر الموجب سهو الضائر ، وهو ما يكون خوصاً في الباطل ، وأخذاً بما لا ينفع .

(١) اتحاد كثير من المفسرين أن يفسروا الله هنا (بالفناء) ، لأجل هذا نلفت النظر إلى عدم صرف القشيري
المعنى في هذا الاتحاد ، لأننا نعلم من ملحه أنه لا يرى بأساً في سباح الفناء ولكن بشرط أن يترك الوجدان نحو غاية
سامية في السباح ، ولا يمت لها الهوى والمجون ، وألا يكون مصحوباً بشيء محرّم . (أنظر كتابنا : الإمام القشيري
وترجمته في التلخيص) ط مؤسسة الحلبي .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا نَسَلْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا

كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعْهُمَا كَانَ فِي أَذُنَيْهِ وَقَرَأَ

فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

الْفَرْقُ بِهِمَا ، وَالْمُتَشَبُّهُ بَقَلْبِهِ لَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْوَعْدِ إِلَّا غَوْرًا وَنُبُوًّا ؛ فَمَا لَهُ كَلَامًا

سَمَاعٍ ، وَوَعْلَهُ هَبَاءٌ وَضِيَاعٌ ، كَمَا قِيلَ :

إِذَا أَنَا عَاتَيْتُ الْمَوَلَّيَ فَلَيْمًا

أَخْطُ بِأَقْلَامِي عَلَى الْمَاءِ أَحْرَمًا

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ

يَجْنُوا النَّعِيمَ • خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ

حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

« آمَنُوا » : صَدَّقُوا « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : تَحَقَّقُوا ؛ فَانْصَافٌ تَحْقِيقِيهِمْ رَاجِعٌ إِلَى

نَصْدِيقِهِمْ ، فَتَجَوَّأُوا وَسَلَّمُوا ؛ فَهُمْ فِي رَاحَتِهِمْ مَقِيمُونَ ، دَائِمُونَ لَا يَبْرَحُونَ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَدَدٍ تَرَوْنَهَا

وَأَتَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

وَوَسَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنْ

السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّبَعْنَاهَا مِنْ كُلِّ نَوَاحٍ كَرِيمٍ »

أَمْسَكَ السَّمَوَاتِ بِقُدْرَتِهِ بِغَيْرِ عِمَادٍ ، وَحَفَظَهَا لَا إِلَى سِنَادٍ أَوْ مُشْدُودَةٍ إِلَى أَوْتَادٍ ، بَلْ

بِحُكْمِ اللَّهِ وَبِقُدْرَتِهِ ، وَمَشِيتُهُ وَتَدْوِيرُهُ .

« وَأَتَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا . . » فِي الظَّاهِرِ الْجِبَالِ ، وَفِي الْحَقِيقَةِ الْأَبْدَالُ وَالْأَوْتَادُ

الَّذِينَ هُمْ غِيَاثُ الْخَلْقِ ، بِهِمْ يَقِيمُ ، وَبِهِمْ يَصْرِفُ الْبَلَاءَ عَنْ قَرِيبِهِمْ وَقَارِبِهِمْ .

« وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . » الْمَطَرُ مِنَ سَمَاءِ الظَّاهِرِ فِي رِيَاضِ الْخُصْرَةِ ؛ وَمِنْ سَمَاءِ الْبَاطِنِ

فِي رِيَاضِ أَهْلِ الدِّنْوِ وَالْخُصْرَةِ .

قوله جل ذكره : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين

من دونه بل الظالمون في ضلال مبين » .

هذا خلق الله العزيز في كبريائه ، فأروني ماذا خلق الذين عبدتم من دونه في

أرضه وسمائه ؟

قوله جل ذكره : « ولقد آتيناك الثمن الحكمة أن أشكر

فقد ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه

ومن كفر فلن الله غنى حميد » .

« الحكمة » الإصابت في العقل والمقد والنطق . ويقال « الحكمة » متابعة الطريق من حيث

توفيق الحق لا من حيث همة النفس . ويقال « الحكمة » ألا تكون تحت سلطان الهوى .

ويقال « الحكمة » الكون بحكم من له الحكم . ويقال « الحكمة » معرفة قدر نفسك

حتى لا تمتد رجبك خارجا عن كائلك . ويقال « الحكمة » ألا تستمعي على من نلم أنك لا تقاومه .

« أن أشكره » : حقيقة الشكر انزعاج عين القلب بشهود ملاحظات الرب . فهو مغلوب

قولهم : كثرنت عن أنيابها القايه ؛ فيقال شكر وكشر مثل جذب وجذب .

ويقال الشكر تحمقك بسجرك عن شكره . ويقال الشكر ما به يحصل كمال استغاث النعمة .

ويقال الشكر فضلة تظهر على اللسان من امتلاء القلب بالسرور ؛ فيطلق بحد المشكور .

ويقال الشكر نم كل غنى كما أن الكفران وصف كل لثم . ويقال الشكر قرع باب

الزيادة^(١) . ويقال الشكر قيد الإنعام . ويقال الشكر قصة يملأها صميم الفؤاد بنشر صحيفة الأفضال .

« ومن شكر فإنما يشكر لنفسه »^(٢) : لأنه في صلاحها ونصيحتها يسى .

قوله جل ذكره : « وإذا قال قاتل لآبته وهو يظنه يا بئى

لا تشرك بالله إن الشئ لك عظيم » .

(١) إشارة إلى قوله تعالى « لن شكرتم لأزيدنكم » آية ٧ سورة إبراهيم .

(٢) آية ٤٠ سورة النمل .

الشُّرْكُ عَلَى ضَرِيْن : جَلِيٌّ وَخَفِيٌّ ؛ فَالْجَلِيُّ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، وَالْخَفِيُّ حِسَابَانِ شَيْءٍ مِنْ الْحَدَثَانِ مِنَ الْأَنْامِ . وَيَقَالُ الشُّرْكُ إِنْثَابٌ غَيْرٌ مَعَ شُهُودِ الْغَيْبِ . وَيَقَالُ الشُّرْكُ ظَلَمٌ عَلَى الْقَلْبِ ، وَالْمَعَاصِي ظَلَمٌ عَلَى النَّفْسِ ، وَظَلَمُ النَّفْسِ مَقَرُّشٌ لِلْفُفْرَانِ ، وَلَكِنْ ظَلَمَ التَّوْبُ لَأَسْبِيلٍ إِلَيْهِ لِلْفُفْرَانِ .

قوله جل ذكره : « وَوَعَيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدِهِ حَلَّتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَالَمِينَ أَيْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » .

أَوْجَبَ اللَّهُ شُكْرَ نَفْسِهِ وَشُكْرَ الْوَالِدَيْنِ . وَلَمَّا حَصَلَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ شُكْرَ الْوَالِدَيْنِ بِدَوَامِ طَاعَتِهِمَا ، وَأَلَّا يُكْتَفَى فِيهِ بِمَجْرَدِ النُّطْقِ بِالتَّنَاءِ عَلَيْهِمَا عَلِمَ أَنَّ شُكْرَ الْحَقِّ لَا يَكْفِي فِيهِ بِمَجْرَدُ الْقَوْلِ مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مُوَاضَعَةَ الْعَقْلِ ؛ وَذَلِكَ بِالتَّزَامِ الطَّاعَةِ ، وَاسْتِمَالِ النِّعْمَةِ فِي وَجْهِ الطَّاعَةِ دُونَ صَرَفِهَا فِي الزُّلَّةِ ؛ فَشُكْرُ الْحَقِّ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّكْيِيرِ ، وَشُكْرُ الْوَالِدَيْنِ بِالْإِثْقاقِ وَالتَّوْفِيرِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْتَ ابْنٌ إِلَى ثُمَّ إِلَى مَنْ جَمَعَكَ فَأَنْتَ بِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ ، أَوْ تَسْبِيحًا هُوَ زِلْفَتِي أَمْرُ اللَّهِ — فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَلَكِنْ عَاشِرُهُمَا بِالْجَلِيلِ ؛ تَحْشِينَ فِي تَلْوِينِ ، فَاجْعَلْ لَهَا ظَاهِرَكَ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ حَرَجٌ ، وَاضْرُدْ بِسُوءِكَ اللَّهُ ، « وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْتَ ابْنٌ إِلَى » : وَهُوَ الْمُنْتَبِئُ إِلَيْهِ حَقًّا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَبْقَى بَقِيَّةً فِي النَّفْسِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْلَ حَبِيبٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

إذا كانت ذرة أو أقل من ذلك وسبقت بها التسمية فلا محالة تصل إلى التسوم له بنير
رية . . « إن الله لطيف خبير » : عالم بدقائق الأمور وخالها .

قوله جل ذكره : « يا أيُّها الذين آمنوا صلوا عليه وأمر بالمعروف وأنه

عن المنكر واصبر على ما أصابك إن

ذلك من عزم الأمور » .

الأمر بالمعروف يكون بالقول ، وأبلغه أن يكون بامتناعك بنفسك عما نهى عنه ، واشتغالك
وإصافك بنفسك بما تأمر به غيره ، ومن لا حُكْمَ له على نفسه لا يفتد حكمه على غيره .

والمعروف الذي يجب الأمرُ به هو ما يوصلُ العبدَ إلى الله ، والمنكرُ الذي يجب النهي
عنه هو ما يشغل العبدَ عن الله .

« واصبر على ما أصابك » تنبيهٌ على أن من قام لله بحسن امتحان في الله ؛ فبيله
أن يصبرَ لله — فإن من صبرَ لله لا يخسر على الله .

قوله جل ذكره : « ولا تصغرُ خدك للناس ولا تمشِ

في الأرض مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

غَطَالٍ غُورٍ » .

يعني لا تكبرِ على الناس ، وعلالهم من حيث النسبة والتحقق بأنك بمشهدٍ من مولاك .
ومن علم أن مولاَه ينظر إليه لا يتكبر ولا يتناول بل يتواضع ويتضائل .

قوله جل ذكره : « واقعد في مشيك واغضض رِمَمَ

صوتك إن أنكرَ الأصواتِ لصوتُ

الحجر » .

كن قانئاً عن شواهدك ، مُضْطَلَكًا عن صَوْتِكَ ، مأخوفاً عن حَوَلِكَ وقوتِكَ ،
مُنْقَشِقًا^(١) لا استولى عليك من كثرة صوت سيرك .

(١) (التنقي) اللاد وغيره : جذب به بالنقص في الله ، ورجل نشق إذا دخل في أمر لا يكاد يخلص منه
(الرسيد) .

واظروا من الذي يسمع صوتك حتى تستيق من خمار غفلتك ؛ « إن أنكر الأصوات
 لصوت الجير » : في الإشارة هو الذي يتكلم في لسان المرة من غير إذن من الحق . وقالوا :
 إنه الصوفى يتكلم قبل أوانه .

ويقال إنما يهتج الحمار عند رؤية الشيطان فذلك كان صوته أنكر الأصوات .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِ

السَّوَاتِ وَمَافِ الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعمَ ظَهِيرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ

يَجْلِدُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى

وَلَا كِتَابٍ مِنْهُ » .

أثبت في كل شيء منها نعمًا لكم ، فالسما فكون لكم سقًا ، والأرض لتكون لكم
 فراشًا ، والشمس لتكون لكم سراجًا ، والتمر لتطعموا به عدد السنين والحلب ، والنجوم
 تهتدوا بها .

« وأسبغ عليكم نعمة ظهيرة وباطنة » : الإسباغ ما يفضّل عن قدرة الحاجة ولا يحتاج
 منه إلى الزيادة .

قوله : « نعمة ظاهرة وباطنة » : تكلّموا فيه فأكثرُوا . فالظاهرة وجود النعمة ،
 والباطنة شهود للنعم . والظاهرة الدنيوية ، والباطنة الدينية . والظاهرة حُسنُ الخلق ، والباطنة
 حُسنُ الخلق . الظاهرة نفس بلا زلة ، والباطنة قلب بلا غفلة . الظاهرة السطاء ، والباطنة
 الرضا . الظاهرة في الأموال وغناها ، والباطنة في الأحوال وصفاتها . الظاهرة النعمة ، والباطنة
 المصمة . الظاهرة توفيق الطامعات ، والباطنة قبولها . الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة صفية
 الخلق . الظاهرة محبة الصالحين ، والباطنة حفظ حرمهم . الظاهرة الهدى في الدنيا ، والباطنة
 الاكتفاء بالمولى من الدنيا والآخرة ^(١) . الظاهرة الزهد ، والباطنة الوجد . الظاهرة توفيق

(١) هذه أعل درجات الزهد ، وهي تهما ونحن ندرج التطور التاريخي الذي حدث متما تطور الزهد إلى
 تصوف (أنظر كتابنا نشأة التصوف الإسلامي) ط دار المائدة .

المجاهدة والباطنة تحقيقُ المشاهدة . الظاهرة وظائف النفس ، والباطنة لطائف القلب . الظاهرة اشتغالك بنفسك عن الخلق ، والباطنة اشتغالك بربك عن نفسك . الظاهرة طلبُ الباطنة وجوده^(١) . الظاهرة أن تعملَ لإيِّه ، الباطنة أن تبقى معه .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا

أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابٍ

السَّعِيرِ » .

لم يخطئوا منهم ولا من أمثالهم ، ولم يهتدوا إلى تحولِ أحوالهم . فَمَا مِنْ سَتِّ نَفْسِهِ ، وخلص في الله قَصْدُهُ قد استمسك بالروة الوثقى ، وسَلَكَ الْحِجَّةَ السُّنِّيَّةَ : —

« وَمَنْ يُلْمِ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

قَدْ اسْتَمْسَكَ بِالرُّوَّةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ

عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » .

وعلى العكس : —

« وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ

إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَتَلَبَّسُوهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنْ

اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

إِلَيْنَا إِلَهُهُمْ ، وَمِنَّا عَذَابُهُمْ ، وعلينا حسابهم . ولئن سألتهُم من خالفهم لأقرُّوا ، ولكن إذا عادوا إلى غيِّهم ضغوا وأصروا .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ

اللَّهُ هُوَ الْتَقَى الْحَيُّ » .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِلْكًا ، وَيُخْرِى فِيهِمْ حُكْمَهُ حَقًّا ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُهُمْ حَتَّى .

(١) الوجود مرحلة تلقى بعد التواجد والوجد .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ يَمِينِهِ سَبْعُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ والبحارُ كانت مداداً ، ومقدار ما يقابله تنفق القراطيسُ ، ويكتفُ الكتّابُ حتى تكسر الأقلامُ ، وتنفى البحارُ ، وتستوفى القراطيسُ ، وتنفى أعمارُ الكتّابِ .. ما نفدت ممانى مالنا مملك من الكلام ، وانتهى نسيمك فيما غططك به لأنك معنا أبداً الأبد ، والأبدى من الوصف لا يقتل .

ويقال إن كان لك معكم كلامٌ كثير فاعندكم ينفذ وما عند الله باقر :
صحائفُ عندي للعتابِ طويتهما ستشترُ يوماً والعتابُ بطول
قوله جل ذكره : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْسَبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

لإيجاد التليل أو الكثير عليه وعنده سيان ؛ فلا من الكثير شقة وعسر ، ولا من القليل راحةٌ وعسر ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن فيكون » ^(١) . يقوله بكلمة ولكنه يكونه بقدرة ، لا بمزاولة جهد ، ولا باستفراغ وسع ، ولا بدعاو خاطر ، ولا بطرود غرض .
قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ اللَّهَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الْبَاطِلِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّلِيُّ الْكَبِيرُ » .

« الله هو الحق » : الكائنُ الموجودُ ، مُحْيِيُ الْحَيَاتِ ^(٢) ، وما يدعون من دونه الباطل :
من العدمِ ظهَرٌ ومعه جوازُ العدمِ ^(٣) .

(١) آية ٨٢ سورة يس .

(٢) قى من جاء بعدما (وما يدعوه هو التلوي) ويقول مجاهد ، إنه الشيطان . ويقال : ما أمركوا به الله تعالى من الأصنام والأوثان .

(٣) شملت قضية (الحق والباطل) أصحاب وحدة الوجود . ورأى التشيخي هنا يصلح عند المفارقة بين أرباب وحدة اليهود وأرباب وحدة الوجود في شأن طيفين الاصطلاحين .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ
الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

يُفَرِّدُ يَعْلَمُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ذِكْرَهَا وَإِنَّا ، شَقِيهَا وَسَمِيعُهَا ، حَسْبُهَا وَفِيَّيْهَا
وَيَعْلَمُ مَتَى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَمَتَى تَهْطَرُ يُنَزِّلُهَا ، وَبِأَيِّ بَقْعَةٍ يُمْطَرُهَا .

« وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » ^(١) .

مَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَوَقَاتٍ وَشَقَاتٍ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ
أَرْضٍ تَمُوتُ ؟ أَتَدْرِكُ مَرَادَهَا أَمْ يَفُوتُ ؟ .

(١) قَالَ آيِن مِبِلَس : هَذِهِ الْمَسْئَلَةُ لَا يُمْكِنُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَا يُمْكِنُهَا مَلَكَ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

في الظاهر سلامتهم في السفينة ، وفي الباطن سلامتهم من حدثان السكون ، وبخاتمتهم في سائر

المصمة في بحار القدرة .

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَابِرٍ » وقوف لا ينهزم من البلاء ، شكور على

ما يصيبه من تصاريق التقدير من جنس البلاء والطايب .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَافُتَاتٍ دَعَوْا

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

الْبَرِّ فَمَنْ مَنَّعَهُمْ أَنْ يَدْعُوا بِآيَاتِنَا

إِلَّا كَلَّ كُفُورٍ » .

إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير تمنوا أن تغفلهم تلك البطارُ إلى سواحل السلامة ،

فلذا جاد الحقُ بصديق مُنَّاهم عادوا إلى رأس خطاياهم :

وكم قد جهلتم ثم عُدْنَا بِحِلْمِنَا لِحَيَاتِهِ : كم تجهلون ونعلم !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاسْتَوْا

يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَدٌ

هُوَ جَائِزٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

فَلَا تَتْرَكُنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَتْرَكَنَّكُمْ

بِاللَّهِ النَّوْرُ » .

يخوفهم مرةً بأضله فيقول : « اتقوا يوما » ، ومرةً بصفاته فيقول : « أَلَمْ يَلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى »

ومرةً بذاته فيقول : « ويخبركم الله به » .

سُورَةُ التَّجْوِيدِ

قوله جل ذكره . « بسم الله الرحمن الرحيم »

كَلِمَةُ سَمَاعُهَا رِيعُ الْجَمِيعِ ، مِنَ الْعِلْمِ وَالطَّيِّعِ ، وَالشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ . مَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا
بَسَمَ الْخَضِرِجِ تَرَكَ طَيِّبَ الْمَجْجُوعِ ، وَمَنْ أَصْنَى إِلَيْهَا بِسَمِ الْحَبَابِ تَرَكَ لَدِيدَ
الْعُلَامِ وَالشَّرَابِ .

قوله جل ذكره . « السَّم • تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لِارِبِّ فِيهِ
مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ »

الإشارة من الألف إلى أنه أَلِفَ المحبون قريبى فلا يصبرون على ، وَأَلِفَ المارغون
تجعيدى فلا يتأنسون بنهرى .

والإشارة فى اللام إلى لقائى المُدْخِرِ لأَحِبَّائِي ، فلا أبالي أظلموا على ولأنى أم قَصَرُوا
فى وقائى .

والإشارة فى الميم : أى تَرَكَ أَوْلِيائِي مرادهم لمرادى .. فَظَنَنْكَ آتَرْتُهُمْ عَلَى جَمِيعِ عِبَادِي .
« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لِارِبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : إِذَا تَعَدَّرَ قَلْبُهُ الْأَحِبَّابِ فَأَعَزَّ شَيْءٌ
عَلَى الْأَحِبَّابِ كِتَابَ الْأَحِبَّابِ ؛ أُنَزِّلْتُ عَلَى أَحِبَّائِي كِتَابِي ، وَحَكَمْتُ إِلَيْهِمُ الرِّسَالَةَ خُطَابِي ،
وَلَا عَلَيْهِمْ إِنْ قَرَعَ أَسْمَاعَهُمْ عِتَابِي ، فَهَمُّ فِى أَمَانٍ مِنْ عَنَابِي .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَأْ بِهِنَّ هُوَ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّنْ أَنْتُمْ مِنْ نَذِيرٍ
فَبُذِّلَتْ لَهُمْ مِثْلُهُمْ يَنْشُدُونَ »

الذى لكم منا حقيقة ، وإن التبس على الأعداء فليس يضركم ، ولا عليكم ، فإنَّ

حُجَّةُ الْحَبِيبِ مَعَ الْحَبِيبِ أَقْدَمًا مَا كَانَ مَقْرُونًا بِقَدِّ الرَّقِيبِ .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا تَتَى خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا فِيهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ

وَلَا شَفِيعٍ إِلَّا تَذَكَّرُونَ » .

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ حَقَّقَهَا مِنْ خَلْقِ غَيْرِ الْأَيَّامِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمَخْلُوقِ وَلَا مِنْ ضَرُورَتِهِ أَنْ

يُخَلِّقَهُ فِي وَقْتٍ ؛ إِذَا الْوَقْتُ خُلِقَ فِي غَيْرِ الْوَقْتِ ^(١) . وَكَأَيُّ اسْتِنْفَافٍ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا عَنْ الْوَقْتِ اسْتِنْفَافٍ

الْوَقْتُ عَنِ الْوَقْتِ .

« ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » : لَيْسَ لِلْعَرْشِ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ إِلَّا هَذَا الظَّاهِرُ ؛ اسْتَوَى عَلَى

الْعَرْشِ وَلَكِنْ الْقَدِيمُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ ، اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ لَكِنْ لَا يَمُوزُ عَلَيْهِ الْقَرَبُ بِالْإِنَاتِ

وَلَا الْبُيُودُ ، اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَلَكِنَّهُ أَشَدُّ الْأَشْيَاءِ تَعَلُّقًا إِلَى شَيْئَةٍ مِنَ الْوَصَالِ لَوْ كَانَ

لِلْعَرْشِ حَيَاةٌ ؟ ، وَلَكِنَّ الْعَرْشَ جَدًّا .. وَأَنَّى يَكُونُ لِلْجَادِّ مَرَادٌ ؟ ! اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

لَكِنَّهُ صَدَدٌ بِلَا نِدٍّ ، أَحَدٌ بِلَا حَدٍّ .

« مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » : إِذَا لَمْ يُرَدِّ بِكُمْ خَيْرًا فَلَا سَمَاءَ عَنْهُ تُظَلِّكُمْ

وَلَا أَرْضَ بغيرِ رِضَاهِ تُقَلِّكُمْ ، وَلَا بِالْجَوَاهِرِ أَحَدٌ يَنْصَرِّكُمْ ، وَلَا أَحَدٌ — إِذَا لَمْ يُزِنْ

بِشَأْنِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ — يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ .

قوله جل ذكره : « يُدِيرُ الْأُمُورَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ

مِمَّنْ يَخْتَرُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ

أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ »

خَاتَمَ الْخَلْقِ — عَلَى مَقْدَارِ أَنْفُسِهِمْ وَيَمُوزُ لَهُم — عَنِ الْحَقَائِقِ الَّتِي اعْتَادُوا فِي تَخَاطُبِهِ

« خَلَقَ عَالَمَ النَّبِيِّ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ »

« الْعَزِيزُ » مَعَ الْمُطِيعِينَ « الرَّحِيمُ » عَلَى الْمَاصِينَ .

« الْعَزِيزُ » لِلْمُطِيعِينَ لِيَكْثُرَ سَوَلَتُهُمْ « الرَّحِيمُ » لِلْمَاصِينَ لِيَرْضَعَ زَلَّتُهُمْ .

(١) لِأَنَّ الزَّمَانَ سَرْمَدٌ لَا يَرْتَبِطُ بِالْوَقْتِ وَلَا يَخْتَصُّ بِهِ .

قوله جل ذكره : « اَللّٰهُ اَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَ

وَبَدَأَ خَلْقَ الْاِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » ثم جعل

نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »

أَحْسَنَ صُورَةً كُلِّ أَحَدٍ ؛ فالرُّشُّ بِأَقْوَى حِمَاهِ ، ولِللَّائِكَةِ أَوَّلُو أُجْنَحَةِ مَتْنَى وَمُثَلَّثَاتٍ وَزُبَاجٍ ، وَجَبْرِيلُ طَاوُوسُ اللَّائِكَةِ ، وَالْحُورُ الْعَيْنُ - كَافِي الْخَبَرِ - فِي جِوَاهِرِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَالْجِنَانُ - كَمَا فِي الْأَخْبَارِ وَنَصِ الْقُرْآنِ . فَلِذَا انْتَهَى إِلَى الْإِنْسَانِ قَالَ : « وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ »^(١) . . . كُلُّ هَذَا وَلَكِنْ :

وَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ حُسْنٍ وَلَكِنْ

عَلَيْكَ مِنَ الْوَرَى وَقَعَ اخْتِيَارِي

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَكِنْ « بِحَبِّهِمْ وَيَعْلَمُونَ »^(٢) ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَكِنْ : « فَذَكِّرْهُمْ أَذْكَرْكُمْ »^(٣) ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ وَلَكِنْ « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

وَرَضُوا عَنْهُ » ١

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا

لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ »

لَوْ كَانَتْ لَمْ ذَرَّةٌ مِنَ الرِّفَاقِ ، وَنَجْمَةٌ مِنَ الْأَشْتِيَاقِ ، وَنَسْمَةٌ مِنَ الْحُبِّ لَنَا تَمَصُّبُوا كُلُّ هَذَا التَّمَصُّبِ فِي إِنْكَارِ جَوَائِزِ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَلَكِنْ قَالَ : « بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ » .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَتُوبَآ كُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي

وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

لَوْ لَا خَلْقُ قُلُوبِهِمْ وَإِلَّا لَنَا أَحَالُ قَبِيضٍ أَرْوَاحِهِمْ عَلَى مَلَكِ الْمَوْتِ ؛ فَلِذَا مَلَكُ الْمَوْتِ لَا أَثَرَ مِنْهُ فِي أَحَدٍ ، وَلَا لَهُ تَعْرِفَاتٌ فِي نَفْسِهِ ، وَمَا يَحْصِلُ مِنَ التَّوَقُّفِ فَنَ خُصَائِمِ قُدْرَةِ

(١) آية ٥٤ سورة النازعات .

(٢) آية ١٥٢ سورة البقرة .

(٣) آية ٨ سورة البقرة .

الحق . ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الرب فغلبهم على مقدار فهمهم ، وعلق بالأخبار
قلوبهم ، وكلُّ مخاطَب بما يَحْتَمِلُ على قَدْرِ قُوَّتِهِ وضفه .

قوله جل ذكره : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا

رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمِعنا

فارجعنا فنملأنا مؤمنون »

ملكتهم الهمة وغلبهم الخجلة ، فاعتذروا حين لا عُدْرَ ، واعتفروا ولا حين اعتراف .

قوله جل ذكره : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها

ولكن حق القول يبي لأملأن جهنم

من الجنة والناس أجمعين »

لو^(١) شئنا لسهلنا سبيل الاستدلال ، وأدعنا التوفيق لكل أحد ، ولكن تعلقت
للشيئة بغواها قوم ، كما تعلق يادناو قوم ، وأردنا أن يكون للنار قتلان ، كأردنا أن يكون
للجنة سكلان ، ولأننا علمنا يوم خلقنا الجنة أنه يسكنها قوم ، ويوم خلقنا النار أنه ينزلها
قوم ، فمن المحال أن نريد ألا يقع معلومتنا ، ولو لم يحصل لم يكن علينا ، ولو لم يكن ذلك
علما لم تكن إلها . . . ومن المحال أن نريد ألا نكون إلها .

وقال نمن لم يسلط عليه من يجه لم يجر في ملكه ما يكرهه .

وقال : يا مسكين أفنيت محمرك في الكد والمناء ، وأمضيت أهلك في الجهد والرجاء ،
غيرت صفتك ، وأكثرت مجاهدتك . . . فما فعل في قضائي كيف نبذك ؟ وما صنع في شيعتي
بأي وسع تردّها ؟ وفي مناه أنشدوا :

شكا إليك ما وجد من خائفك البعد

حيران لو شئت اهتدى ظلمان لو شئت وزد

(١) هذه الإشارة الموحدة من الآية تمثل أقصى درجات الجبرية في منفع هذا الباحث الصوفى ، ولكن
القرئى لا يمزج به أن جدما جبرية مزجبة بالمحب . . . ويكن أنها مرتبطة بمشقة الخالق .

قوله جل ذكره : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا
إنا نسيناكم وذكروا هذاب الخلد
بما كنتم تعملون »

فأس من الموان ما استوجبته بصيائك ، وأخذ في دار الخزي لما أسلفته من كفرانك .
قوله جل ذكره : « إنا نسيناكم وذكروا هذاب الخلد
بما كنتم تعملون »

التصديق والتكذيب ضدان - والضدان لا يجمعان ؛ التكذيب هو جحد واستكبار ،
والتصديق هو سجود وتحقيق ، فمن أنصف بأحد القسمين أحق عنه الثاني .
« خروا سجدًا » : سجدوا بظواهرهم في الخراب ، وفي سرائرهم على تراب الخشوع
وبساط الخشوع بمت الديول وحكم الخلود .

وقال : كيف يستكبر من لا يجد كمال راحته ولا حقيقة أنه إلا في تدلله بين يدي
معبوده ، ولا يؤثر أجل جسيمه على نفيه ، ولا شقاءه على شفاة ١٩

قوله جل ذكره : « تتعافى جنوبيهم عن الضالاج يدعون
ربهم خوفًا وطمعًا وعمًا رزقناهم
ينفقون »

في الظاهر : عن الترافش قيامًا بحق العبادة والمجد والتهجد ، وفي الباطن : تنباعد قلوبهم عن
مضاجعات الأحوال ، ورؤية قدر النفس ، وتوهم للقام — فلذلك بجملة حجاب عن الحقيقة ،
وهو للعبد سم قاتل — فلا يساكنون أحاسنهم ولا يلاحظون أحوالهم . ويارقون ما لهم ،
ويهجرون في الله ما رفقهم .

والليل زمان الأحياء ، ، قال تعالى : « لتسكنوا فيه » : يعني عن كل شغل وحديث
سوى حديث محبوبكم . والنهار زمان أهل الدنيا ، قال تعالى : « وجعلنا النهار معاشًا » ،
ولذلك قال لم : « فلما قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » :

إنما ناجيهمونا في ركعتين في الجمعة فودوا إلى مصركم ، واشتغلوا بحرفتك .
وأما الأحبابُ فالليلُ لم يأت في طرب التلاق وإما في حَرَبِ الفراقِ ، فإن كانوا في
أُنْسِ التربة فليعلمهم أقصرُ من لحظة ، كما قالوا :

زارني هَنِّ هَوَيْتُ بِسَدِّ صَدِ
بوصالٍ بُجْدٍ وودادٍ
ليلةً كاد يلتقي طرفها
قَمَرًا وهي ليلة اليمادِ

وكا قالوا :

وليلَةُ زَيْنُ ليالى الدهرِ قابِلَتْ فيها بدرها يدر
لم تَسْتَيْنِ عن شَقِيٍّ وبغِيٍّ حتى تَوَلَّتْ وهي بِكْرُ الدهرِ
وأما إن كان الوقتُ وقتَ مفاساةِ فرقةِ واغترابِ بكربة فليعلمهم طویل ، كما قالوا :

كم ليلةٍ فيك لا صباحَ لها أَفْنَيْتُهَا قابِلًا على كبدى
قد غُصَّتِ العينُ بالدموعِ وقد وضعتُ خدى على بنان يدى

قوله : يدعون ربهم خوفًا وطمعًا : قومٌ خوفًا من العذابِ وطمعًا في الثوابِ ، وآخرون
خوفًا من الفراقِ وطمعًا في التلاقِ ، وآخرون خوفًا من السكرِ وطمعًا في الإِصْلِ .

« وما رزقهم ينفقون » : يأتون بالشاهد الذى خصصناهم به ؛ فإن طهرنا أحوالهم عن
السدوراتِ حضروا بأحوالٍ مُقدَّسة ، وإن دَنَسْنَا أوقاتهم بالآفاتِ شهدوا بمحلاتٍ مُدَنَّسة ،
« وما رزقهم ينفقون » ؛ فالبدُّ إنما يجير في البضاعة التى يودهها لديه سيِّدهُ :

يفديكَ بلروحِ صَبِّ لو يكون له

أعزَّ من روحه شيءٌ فذلك به

قوله جل ذكره : « فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قُوَّةٍ
أَعينَ جزاءَ بما كانوا يعملون » .

إنما تَقَرُّ بِكَ بِرُفِيَّةٍ مِّنْ نَّحْيٍ ، أَوْ مَا نَحْيُهُ ؛ فَطَلِّبْ قَلْبَكَ وَرَاعَ حَالِكَ ؛ فَيَحْصِلُ
الْيَوْمَ سِرُّوْكَ ، وَكَذَلِكَ عَدَا . . . وَطَى ذَلِكَ تَحْشُرُ ؛ فَنِي الْخَيْرِ ؛

« مَنْ كَانَ بِعَلَّةٍ مِّنْ اللَّهِ بِهَا . »

نَمِ إِنَّ وَصْفَ مَا قَالَ اللَّهُ سَجَانَهُ إِذْ لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ — مُحَالٌ ، اللَّهُمَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا حَالٌ
عَزِيزَةٌ ، وَصِفَةٌ جَلِيلَةٌ .

قوله جَلْ ذَكَرَهُ : « أَفَن كَانَ مُؤْمِنًا كَن كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ » (١) .

أَفَن كَانَ فِي حَالِ الرِّصَالِ يَحْمَرُ أَذْيَالَهُ كَن؟ هُوَ فِي مَقَلَّةِ الْفِرَاقِ يَتَأَسَّى وَبِأَلَهُ ؟
أَفَن كَانَ فِي رَوْحِ التَّوْبَةِ وَنَسِيمِ الزُّلْفَةِ كَن هُوَ فِي هَوْلِ التَّقْوَةِ يَتَأَنَّى مُشْتَةً
السَّكْفَةِ ؟

أَفَن هُوَ فِي رَوْحِ إِقْرَابِنَا عَلَيْهِ كَن هُوَ فِي مَحَنَةِ إِعْرَاضِنَا عَنْهُ ؟
أَفَن يَحِي مَنَا كَن بَقَى صَنًا ؟
أَفَن هُوَ فِي نَهَارِ الرِّفَاقِ وَنَسِيَاءِ الْإِحْسَانِ كَن هُوَ فِي لَيْالِي الْكَفَرَانِ وَوَحْشَةِ
الصَّيَانِ ؟

أَفَن أَيْدَ بَنُورِ الْبِرْهَانِ وَطَلَّتْ عَلَيْهِ شَمُوسُ الرِّفَاقِ كَن رِبَطًا بِالْخُذْلَانِ وَوَسْمَ
بِالْحَرَمَانِ ؟ لَا يَسْتَوِيَانِ وَلَا يُلْتَقِيَانِ !

قوله جَلْ ذَكَرَهُ : « أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْأَوَّيِّ نُزُلًا بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ » .

« الَّذِينَ آمَنُوا » : صَدَّقُوا ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : بِمَا حَقَّقُوا — فَلَهُمْ حُسْنُ
الْحَالِ ، وَحِيدٌ لِلَّالِ وَجَزِيلُ الْمَالِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَعَدُوا ، وَفِي مَعَامِلَاتِهِمْ أَسَاءُوا

(١) مَنْ ابْنِ مَيْمُونٍ : أَنَّ الْوَلِيدَ بَيْنَ عَنِيَّةٍ قَالَ لِمَنْ بَيْنَ أَبِي طَالِبٍ : أَنَا أَحَدٌ مِّنْكَ سَنَانًا ، وَأَبْطَلُ مِّنْكَ لِسَانًا ،
وَأَمَّا لَكِيَّةٌ مِّنْكَ ، فَقَالَ حَلٌّ : اسْكُتْ فَإِنَّمَا أَفْتُ فَاسِقٌ ... فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ (الْوَاحِدِيُّ ص ٢٣٦) .

وأفسدوا ، قصاصهم الخزيُّ والموان ، وفنون من اللعن وألوان .. كثاروا من محنتهم
خلاصاً ازدادوا فيها اتسكساً ، وكلاً أَمَلُوا نَجاةً جُرُّوا وزيدوا يُأسَا .

قوله جل ذكره : « وَلَنَذِيقَنَّ مِنَ الْمَنَاقِبِ الْأُدْنَىٰ ذَوْنَ
الْمَنَاقِبِ الْأَكْبَرِ لَهُمْ يَرْجِعُونَ » .

قومٌ عذابهم الأدنى حَمْنُ الدنيا ، والمناقبُ الأكبر لهم عقوبة النبي .
وقومٌ المناقب الأدنى لهم فترةٌ تتدخلهم في عبادتهم ، والمناقب الأكبر لهم قسوةٌ في
قلوبهم تصيبهم .

وقومٌ المناقب الأدنى لهم وقعةٌ في سلوكهم تُلَبِّبهم ، والمناقب الأكبر لهم حجةٌ عن
مشاهدتهم تتألم ، قال قائلهم :

أَذِيقَنِي بِانْصِرَافِ قَلْبِكَ عَنِّي
فَانْظُرْ إِلَىٰ قَدِّ أَحْسَنِ تَأْدِيبِي^(١)

ويقال المناقب الأدنى الخذلان في الرقة ، والأَكْبَر المجران في الوهلة .

ويقال المناقب الأدنى تَكَدَّرُ مشاربهم بمد صفوها ، كما قالوا :

قَدْ كَانَ مَا بَيْنِي زَمَانًا وَيَنْسِيهِ كَمَا بَيْنَ رِيحِ الْمَسِّ وَالْعَبْرِ الْوَرْدِ

ويقال المناقب الأكبر لهم تطاولُ أيامِ التَّيَاب من غير تَبِينٍ آخِرِهَا ، كما قيل :

تَطَاوَلُ نَائِبَا يَأْنُورِ حَتَّى كَأَنَّ نَجْتَ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ

فَإِنَّا نَبْدُ الْبَدُّ بِأَنْوَاعِ الزَّجَرِ ، وَحُرُوكَ — لَتَرْكَبُنَّ حَدُودَ الْوَقَاقِ — بِصُوفٍ مِنَ التَّأْدِيبِ

(١) للشطر الأول غير موزون ، ولشطر الثاني من البسيط .

ثم لم يرتدع عن فعله ، واغتر بطول سلامته ، وأمن من هواجس مَكْرِهِ ، وخطا سره ..
أَخَذَهُ بَغْتَةً بَحِثْ لَا يَحْدُ خَرْجَةً مِنْ أَخْذِهِ ، قَالَ تَمَالَى : « لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ لِمَنْكُم مَنَا
لَا تَنْصَرُونَ » (١)

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ
فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجِئْنَاهُ هُدًى
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » .

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ غَدًا لَنَا وَوُجِّهَةٌ لَنَا (٢) .

« وَجِئْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ » :

وَهَذَا عَدَدٌ عَلَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيلٌ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ .

قوله جل ذكره : « وَجِئْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونُ بِأَمْرِنَا

لَنَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » .

لَنَا صَبَرُوا عَلَى طَلِبَاتِنَا سَعَدُوا بِوُجُودِنَا ، وَتَدَيَّ مَا نَالُوا مِنْ أَضْرَالِنَا إِلَى مُتَجَمِّمِهِمْ ،

وَانْبَسَطُ شِمَاعُ ثَوْبِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِهِمْ ؛ فَهُمْ لِلْخَلْقِ مُعَاذٌ ، وَفِي الدِّينِ مَيُونٌ ،

وَالْمُسْتَرَشِدِينَ نَجُومٌ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ رَيْكَ هُوَ يَنْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فَيَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ الْمُرُودُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَالْمُجُورُ مِنَ الْوُصُولِ ، وَالرَّضَى مِنَ

(١) آية ٦٥ سورة المؤمنون .

(٢) صرف تشبيري الرزية والثناء إلى موسى عليه السلام ، وأنه سيقى ربه ويراه . بينما يرى فتادة أن المقصود :
فَلَا تَكُنْ فِي شَكٍّ مِنْ لِقَاءِ مُوسَى فِي الْقِيَامَةِ وَمُسْتَقْدَامِ - أَيْ عَمْدٍ - فِيهَا ، كَمَا لَقِيَهُ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ . وَمِنْ الْحَسَنِ : فَلَا تَكُنْ
- يَا عَمْدُ - فِي شَكٍّ مِنْ أَنَّكَ سَتَقْبَلُ مَا لَقِيَهُ مِنَ التَّكْلِيبِ وَالْأَفْسَى ، فَالْمَاءُ حَالَةٌ عَلَى عِلْفٍ .
وَقِيلَ إِنْ الْكَلَامَ يَصِلُ بِقَوْلِهِ تَمَالَى : قُلْ يَوْفَاكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ ... فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ، وَجِلَدَتْ هَوَالَهُ
آيَاتُنَا مُوسَى اعْتِرَاضًا .

التوتى ، والسدوم والبنى ... فك من بهيمة قامت هناك ! وكم من مهيبة ثابت
عند ذلك !

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ »

أو لم يهتدوا بمنزلة أقوام كانوا في جبرة ضلوا عبدة ، كانوا في سرور فلكوا إلى
ثبور ؛ فجميع ديارهم وزارعهم صارت لأغيارهم ، وصنوف أموالهم حلت إلى أشكالهم ، سكنوا
في ظلالهم ولم يهتدوا بمن مضي من أمثالهم ، وكما قيل :

نساء كانت على قومٍ زماناً ثم هانت
هكذا النسوة والإله سانٌ مذ كان وكانت

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ
الْجُرُزِ^(١) فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ
أَناعلهم وأنفسهم أفلا يبصرون »

الإشارة فيه : تُسقى حدائقُ وصلهم بعد جفاف عودها ، وزوال الأتوس من مهورها ،
فيعود عودها مورقاً بعد ذبوله ، حاكياً بحاله حال حصوله .

قوله جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ • قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِعِبَادَتِهِمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » .

(١) يقول القزويني (الجزز) الأرض التي جزر نباتها أي قطع ، إما لعدم الماء وإما لأنه رمى وانزاع ،
ولا يقال التي لا تلبث كالسباغ جزز ، ويدل عليه قوله تعالى ونخرج به زرعاً .
وقال حكمة : هي الأرض القلبي .
ويحتمل بعضهم أن يلقونها على مكان يسمونه (ابن عباس : أرض باين) ويجاهد : (أرض القلبي) .

استقبلوا يومَ التلاقى وجحدوه ، فأخبرهم أنه ليس لهم إلا الحسرة والخسرة إذا
ذُكره .

قوله جيل ذكره : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَاتَّقِمْ لَهُمْ

مَنْظَرُونَ » .

أَعْرِضْ عَنْهُمْ بِاتِّفَاقٍ بَيْنَ . وَتَقَالِكُ عَلَيْنَا ، وَاتَّقَالِكُ إِلَيْنَا .

« وَاتَّقِمْ » زَوَائِدَ وَحَلِيلِنَا ، وَعَوَائِدَ لَهْلَهِنَا .

« لَهُمْ مَنْظَرُونَ » هَوَاجِمٌ مَقْتَنًا وَخَفَائِلًا مَكْرَنًا .. وَعَنْ قَرِيبٍ يَحْدُ كُلُّ مَنْظَرٍ مَحْضَرًا .

سورة الأحزاب

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بسم الله شهود وجوده يوجبُ كَلَّ تَلَفًا في تَلَفٍ ، ووجودُ جوده يوجبُ كَلَّ شَرَفًا في شرف ، ففي تَلَفِكَ يكون (هو) ^(١) عَنْكَ الْخَلْفُ ، وفي شركك تصل إلى كلِّ تَلَفٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ

الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴾ .

يَا أَيُّهَا الْمُشْرَفُ حَالًا ، الْمُغْنَمُ قَدْرًا مَيًّا ، الْمُتَلَّى رُمِيَّةً مِنْ قَيْلِنَا .. يَا أَيُّهَا الْمُرْتَدُّ إِلَى أَعْلَى الرَّئِيسِ بِأَسَى الْقُرْبِ .. يَا أَيُّهَا الْمُخْبَرُ عَنَّا ، لِلْأَمُونِ عَلَى أَسْرَارِنَا ، الْمُبْلَغُ خُطَابِنَا إِلَى أَحِبَابِنَا .. اتَّقِ اللَّهَ أَنْ تُلَاحِظَ غَيْرَ أَمْنِنَا ، أَوْ تَسَاكِنَ شَيْئًا مِنْ دُونِنَا ، أَوْ تُنْقِيتَ أَحَدًا سِوَانَا ، أَوْ تُنَوِّمَ شُغْلِيَّةً مِنَ الْخِدْلَانِ مِنْ سِوَانَا . ﴿ وَلَا تَطْعَمُ الْكَاذِبِينَ ﴾ إشفافًا منك عليهم ، وطعمًا في إيمانهم بنا لو وَاقَعْتَهُمْ فِي شَيْءٍ أَرَادَهُ مِنْكَ ^(٢) .

والتقوى رقيبٌ على قلوب أوليائه يمنهم في أخاسهم ، وسكنتهم ، وحركاتهم أن ينظروا إلى غيره — أَوْ يُغَيِّرُوا مَعَهُ غَيْرَهُ — إِلَّا مَنْصُوبًا قُدْرَتَهُ ، مَصْرُفًا بِمَشِيئَتِهِ ، نَافِلًا فِيهِ حُكْمُ قَضِيَّتِهِ .

(١) وضمنا (هو) من معنا ليطلع المعنى كما نفهم من أسلوب البشيري في مثل هذا المجال .

(٢) يقال نزلت هذه الآية حينًا دخل أبو سفيان وأبو جهل وأبو الأعمود السلمي على النبي (ص) بعد قتال أحد ، وطلبوا الأمان ، وقالوا لرسول : وأرفض. ذكر آلفنا ، وتلذذنا لها شفاعت ومستمّة ونعمك وريك ، فشق على النبي (ص) قولهم ، فقال عمر بن الخطاب - وكان بصحبة النبي : انذرت يا رسول الله في قلوبهم ، فقال النبي : إني قد أسلمتهم الأمان ... وأمر بإخراجهم من المدينة . (الرازي ص ٣٦) .

الفتوى لجام يكبحك عما لا يجوز ، زمام يوطك إلى ما تحب ، سوط يسوقك إلى ما أُمِرْتَ به ، شاحس يملكك على القيام بحق الله ، حرز يوصلك من توصل أعدائك إليك ، عود تشفيك من داء الخطأ .

التقوى وسيلة إلى ساحات كرمه ، ذريعة تنوصل بها إلى عقوة جوده .

قوله جل ذكره : « وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَصْلُونَ خَبِيرًا » .

اتبع ولا تبتدع ، واتخذ بما تأمر بك به ، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك ، ولا تُخرج في أوطان الكسل ، ولا تخرج إلى ناحية التواني ، وكن لنا لا لك ، وقم بنا لا بك . قوله جل ذكره : « وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

وَكِيلًا » .

انلغ عن إمامك ، واصلق في إياك إلينا ، وتشاغل عن حسابك معنا ، واحذر ذهابك عنا ، ولا تُعَصِّرْ في خطابك معنا .

وَيَقَالُ التَّوَكَّلْ تَحَقَّقْ ثُمَّ تَخَلَّقْ ثُمَّ تَوَقَّعْ ثُمَّ تَمَلِّقْ ؛ تَحَقَّقْ فِي الْقَيْدَةِ ، وَتَخَلَّقْ بِإِقَامَةِ الشَّرِيعَةِ ، وَتَوَقَّعْ بِالتَّوَكُّلِ مِنَ الْقَضِيَّةِ ، وَتَمَلِّقْ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَحْسَنِ الْمُبُودِيَّةِ .

وَيَقَالُ التَّوَكَّلْ تَحَقَّقْ وَتَمَلِّقْ وَتَخَلَّقْ ؛ تَحَقَّقْ بِاللَّهِ وَتَمَلِّقْ بِاللَّهِ ثُمَّ تَخَلَّقْ بِأَوَامِرِ اللَّهِ .

وَيَقَالُ التَّوَكَّلْ كُلُّ اسْتِوَاءِ الْقَلْبِ فِي الْعِلْمِ وَالْوُجُودِ .

قوله جل ذكره : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ

فِي جَوْفِهِ » .

القلب إذا اشتغل بشئ شغل عما سواه ، فالاشتغال بما من القدم مفصل عن له القَدَمُ ، وللتصل قلبه بمن نمته القَدَمُ مشتغل عما من القدم . . والليل والنهار لا يجتمعان ، والنيب والغير لا يلتقيان .

« وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون

منهن أمهاتكم وما جعل أمهاتكم
أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم .

اللائق ظالمهم^(١) منهن لسن أمهاتكم ، والذين نبينهم ليسوا بأبنائكم ، وإن الذي
مرنم إليه من افتراءكم ، وما نسبتم إلينا من آرائكم فذلك مردود عليكم ، غير
مقبول منكم ، وإن أمكم عنه بد البیان نجوم ، وإن تماديتم بعد ما أعلمتم
أطلت الحفة عليكم .

قوله جل ذكره : « اذعوم لآبائهم هو أقسط »

عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فليخوانكم
في الدين ومواليكم وليس عليكم
جناح فيما أخطأتم به ولكن ما نتجت
قلوبكم وكان الله غفورا رحيما .

واحدوا أنفسهم ، فإن أردتم غير النسبة فالأخوة في الدين تجمعكم ، وقراءة الدين
والشكيلة أولى من قرابة النسب ، كما قالوا :

وقالوا قريب من أبي وعمومة

قلت : وإخوان الصفا الأخاب

تتبعهم شكلا وعلما وأمة

وإن باعستهم في الأصول للنكسب

قوله جل ذكره : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

وأزواجه أمهاتهم ، وأولوا الأرحام

بعضهم أولى ببعض في كتاب الله

من المؤمنين والمهاجرين »

(١) يعني أن يقول الرجل لاسمائه : أنت علي كظهر أبي ، وسائر تفصيل ذلك في سورة المجادلة (المجلد

الإشارة من هنا : قديم سُتفه على هواك ، والوقوف عند إشارته دون ما يعلق به مُلك ، وإشارة مَنْ تتوصل به سبباً ونسباً على أَعِزَّتِكَ وَمَنْ والا .

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » :

ليكن الأجانب منك على جانب ، ولتكن صلتك بالأقارب . وصلة الرحم ليست بمقاربة الديار ومآقب الزار ، ولكن بمواقة القلوب ، والمساعدة في حالتي المكروه والمحبوب :

أرواحنا في مكانٍ واحدٍ وَغَدَتْ

أشباحنا بِشَأْمٍ^(١) أو خراسان

قوله جل ذكره : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ

ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى

وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا

غليظاً » .

أخذَ ميثاقَ النبيين وقتَ استخراجِ القرية من صُلبِ آدم — فهو الميثاق الأول ، وكذلك ميثاق الكل . ثم عند بِعْثِ كُلِّ رسولٍ وَبُيُوتِ كُلِّ نبيٍّ أخذَ ميثاقه ، وذلك على لسانِ جبريل عليه السلام ، وقد استخلص اللهُ سبحانه نبيّنا عليه السلام ، فأسمه كلامه — بلا واسطة — ليلة المراج . وكذلك موسى عليه السلام — أخذَ الميثاق منه بلا واسطة ولكن كان لنبينا — صلى الله عليه وسلم — زيادة حال ؛ فقد كان له مع سماعِ الخطاب كشفُ الرؤية^(٢) .

ثم أخذَ المواقف من المُبَادِ بقلوبهم وأسرارهم بما يخصهم من خطابه ، فلكل من الأنبياء والأولياء والأكابر على ما يؤهلهم له ، قال صلى الله عليه وسلم « قد كان في الأمم

(١) حكمة في ص وهي في - (بمراقف)

(٢) في كتاب الرؤية الكبير يرى الأشعري جواز ذلك ، أما القشيري : فيبيناً يشير هنا إلى ذلك إذ به كاسيات في يسلة سورة البروج يقول : ويسم الله اسم لم يره بصر إلا واحد ، وهو أيضاً غُتِلَتْ فيه المجلد الثالث

مُتَذَكِّرِينَ فَلَيْنَ يَكُنْ فِي أَمْتِي كَسْرٌ « وغيرُ حُرِّ شَارِكٌ لِمَنْ فِي خَوَاصِّ كَثِيرَةٍ ، وَذَلِكَ شَيْءٌ يَمُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ .

قوله جلَّ ذِكْرُهُ : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا » .

يَسْأَلُ سَوَّالٌ تَشْرِيفًا لَا سَوَّالَ تَضْيِيفَ ، وَسَوَّالٌ إِعْجَابٌ لَا سَوَّالَ عِتَابٍ . وَالصَّدَقُ أَلَّا يَكُونَ فِي أَحْوَالِكَ شَوْبٌ وَلَا فِي اعْتِقَادِكَ رَيْبٌ ، وَلَا فِي أَعْمَالِكَ غَيْبٌ . وَقَالَ مِنْ أَعْرَافِ الصَّدَقِ فِي اللَّامِلَةِ وَجُودُ الْإِخْلَاصِ مِنْ غَيْرِ مِلَاحَظَةٍ مَخْلُوقٍ . وَالصَّدَقُ فِي الْأَحْوَالِ تَصْفِيَّتُهَا مِنْ غَيْرِ مِدَاحَةٍ إِعْجَابٍ .

وَالصَّدَقُ فِي الْأَحْوَالِ سَلَامَتُهَا مِنَ الْمَارِضِ فِيَا يَبْنُكَ وَبَيْنَ حَشَكِ ، وَفِيَا يَبْنُكَ وَبَيْنَ النَّاسِ التَّبَاعُدُ عَنِ التَّلَاسِيسِ ، وَفِيَا يَبْنُكَ وَبَيْنَ اللَّهِ بِطَامَةِ التَّبَرُّيِّ مِنَ الْكُؤُلِ وَالْقُوَّةِ ، وَمَوَاصِلَةِ الْإِسْطِاقَةِ^(١) ، وَحِفْظِ الْمَهْجُودِ مَعَ عَلَى الْهُوَامِ .

وَالصَّدَقُ فِي التَّوَكُّلِ عَدَمُ الْإِزْعَاجِ عِنْدَ الْقَدَرِ ، وَزَوَالُ الْإِسْتِشَارِ بِالْوُجُودِ^(٢) .

وَالصَّدَقُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَرْوُوفِ التَّعَرُّزُ مِنْ قَلِيلِ اللَّذَائِنِ وَكَثِيرِهَا ، وَالْأَلَا تَرَكْ ذَلِكَ لِفَرْجِ أَوْ لِيَطْمَحَ ، وَأَنْ تَشْرَبَ مَا تَسْقِي ، وَتَصِفَ بِمَا تَأْمُرُ ، وَتَنْهَى (فَنَفْسُكَ)^(٣) هَا تَرْجُرُ .

وَيَقَالُ الصَّدَقُ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْكَ كُلُّ أَحَدٍ ، وَيَكُونَ عَلَيْكَ فِيَا قَوْلٌ وَتُظْهِرُ اعْتِمَادَ . وَيَقَالُ الصَّدَقُ أَلَّا تَجْنَحَ إِلَى التَّأْوِيلَاتِ^(٤) .

(١) هكذا في م ومعني في م (الاستقامة) وكلامها مقبول في السياق .

(٢) هكذا في م ومعني كلاهما (الوجود) إذ تعجب أن مقصد القشيري أن تكون واضحا إذا قلنا : أو وجدت ، وفي ذلك يقول عبد الله بن خليفة : لَقَدْ تَرَكْتُ الْكُشُوفَ إِلَى الْمَقْشُودِ وَالْإِسْتِغْنَاءَ (بِالْوُجُودِ) تَرَمُّزًا ص ٨١ وَالشَّاكِرَ الَّذِي يُشْكِرُ عَلَى (الْوُجُودِ) وَالشُّكْرَ الَّذِي يُشْكِرُ عَلَى الْمَقْشُودِ (الرَّسَالَةُ ص ٨٩) . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ وَرَدَتْ (الْوُجُودُ) فِي قَوْلِ التَّوَرَى : الْمَوْقُ نَمَتَ السَّكُونِ عِنْدَ الْعِلْمِ وَالْإِيْثَارُ عِنْدَ الْوُجُودِ ... نَافِلُ الْوُجُودِ بِمَعْنَى عِنْدَ الْعِلْمِ ؛ أَيْ وَجُودُ الْأَشْيَاءِ وَقَدْ دَانَهَا . وَلَكِنَّا نَفْضِلُ أَنْ يَتَصَرَّفَ اصْطِلَاحُ (الْوُجُودِ) عَلَى الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى مِنْهُمُ التَّوَانُجِدِ وَالْوُجُودِ ، وَهُوَ الْحَقُّ . (الرَّسَالَةُ ص ٣٦ و٣٧) وَأَنْظُرْ أَيْضًا تَفْسِيرَ الْقَشِيرِيِّ لِلآيَةِ ٣٩ سُورَةِ سَبَأٍ (فِي هَذَا الْمَجْلَدِ) .

(٣) وَهَذَا (نَفْسُكَ) مِنْ عِنْدِهَا لِيُطْمَحَ الْمَعْنَى .

(٤) مَرْوُوفٌ أَنْ الْقَشِيرِيُّ يَكْرَهُ التَّأْوِيلَاتَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى الْإِسْتِرْعَاسِ بِالنِّسْبَةِ الْمَرْوُوفَةِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِم

رِجَالًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرًا » .

ذَكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ مُقَابَلَتُهَا بِالشُّكْرِ ، وَلَوْ تَذَكَّرْتَ مَا دَفَعَ عَنْكَ فِيمَا سَلَفَ لَهَاتِ عَلَيْكَ

مُقَاسَاةَ الْبَلَاءِ فِي الْحَالِ ، وَلَوْ تَذَكَّرْتَ مَا أَوْلَاكَ فِي اللَّغْوِ لَقَرَّبْتَ مِنْ قَلْبِكَ التَّقَى فِي إِصَالِ

مَا تَوَكَّلْتَ فِي السَّخْبِلِ .

وَمِنْ جَعَلَهُ مَا ذَكَّرَهُ بِهِ : ^(١) « إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ ... » كَمْ بَلَاءٌ سَرَفَهُ عَنِ الْمَبْدِ وَهُوَ لَمْ

يَشْعُرْ أَوْ كَمْ شَقْلٍ كَانَ يَقْصِدُهُ فَصَدَّ عَنْهُ وَلَمْ يَلَمْ أَوْ كَمْ أَمْرٍ عَوَّلَهُ وَالْمَبْدُ يُفْجِعُ — وَهُوَ —

— (سَبْحَانَهُ) — يَلَمْ أَنْ فِي تَبْيِيرِهِ لَهُ هَلَاكُ الْمَبْدِ فَنَمَتْ مِنْهُ رَحْمَةٌ بِهِ ، وَالْمَبْدُ يَتَّبِعُ وَيَضِيقُ

صَدْرَهُ بِذَلِكَ ا

قوله جل ذكره : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ

الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ وَتَعْلُنَ عَلَيْهِ السَّحَابُ »

أَحْلَطَ بِهِمْ سُرَادِقُهُ بِالْبَلَاءِ ، وَأَحْلَقَ بِهِمْ عَسْكَرُ الْعُلُوِّ ، وَاسْتَلَمُوا لِلْاجْتِيَاعِ ، وَبَلَغَتْ

الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ ، وَتَقَسَّمَتِ الظُّنُونُ ، وَدَاخَلَتْهُمْ كَوَامِينُ الْارْتِيَابِ ، وَبَدَأَ فِي سَوْدَابِهِمْ

جَوْلَانُ الشُّكِّ .

« هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا

زُلْزَالًا شَدِيدًا » .

ثُمَّ أزال عنهم جهنمها ، وقَشَعَ عنهم شدتها ، فأعجاب عنهم سبحانه ، وتَهَرَّتْ مِنْ قُلُوبِهِمْ

هَوْنُهَا ، وَتَهَجَّرَتْ يَنَابِيعُ سَكِينَتِهِمْ .

(١) يَرْجِعُ الْقَشِيرَةُ هُنَا مَا يَسِي غَنَمَهُ (نِعَمَ الْمَلِكِ) وَهِيَ طَائِفٌ آخَرٌ يَخْتَلِفُ مِنْ (نِعَمَ الْمَلِكِ) ، وَالْمَبْدُ - لِقَصْرِ نَظَرِهِ - يَشْكُرُ كُلَّ طَائِفَةٍ ، وَتَحْتَ طَائِفَةٍ تَلْكَ .

قوله جل ذكره : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
إِلَّا غُرُورًا » .

صَرَّحُوا بالتكذيب — لِمَا انطوت عليه قلوبهم — حين وجدوا للقتال مجالاً .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ
يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ
إِلَّا الْفِرَارَ » .

تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما سَوَّغَتْ لهم شياطينهم من وشك ظَفَرِ الأعداء . قوله :
« وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ ... » : يَسْأَلُونَ ^(١) بَانْكَشَافِ بَيُوتِهِمْ وَضِيَاعِ مَخْلَقَاتِهِمْ ، وَيَكْذِبُونَ فِيهَا
أَظْهَرُوهُ عُدْرًا ، وَهُمْ لَمْ يَحْصِلْهُمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ غَيْرُ جُبْنِهِمْ وَقَلَّةِ بَيِّنَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : « وَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ
لَا يُولُونَ الدِّيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
وَلَكِنْ لَمَّا عَزَمَ الْأَمْرَ ، وَظَهَرَ الْجَدُّ لَمْ يَسَاعِدْهُمُ الصَّدَقُ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهُمْ سَيَأْتُونَ
عَنْ عَهْدِهِمْ ، وَيُيَاقِبُونَ عَلَى مَا أَسْقَوْهُ مِنْ ذَنْبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ
مِنَ الْوَيْلِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُنصَرُونَ
إِلَّا قَلِيلًا » .

لَأَنَّ الْأَجَالَ لَا تَأْخُورُ لَهَا وَلَا تَهْدِمُ عَلَيْهَا ، وَكَأَنَّ قَالُوا : « إِنَّ الْغُلَابَ عَمَّا هُوَ
كَائِنْ فِي كَفِّ الطَّالِبِ يَضْلُبُ » .

« وَإِذَا لَا تَنْتَصِرُونَ إِلَّا قَلِيلًا » : فَإِنَّ مَا يَدْخُرُهُ الْعَيْدُ عَنْ اللَّهِ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ
أَوْ قَبِيصٍ أَوْ قَرِيبٍ لَا يُبَارِكُ لَهُ فِيهِ ، وَلَا يُجِدُ بِهِ مَنَعَةً ، وَلَا يُرِزْقُ مِنْهُ غَبْطَةً .

(١) يَنْسُزُ الْقَشِيرَى هُنَا — مِنْ بَيْتِهِ — بِالْمُتَّصِلِينَ فِي الطَّرِيقِ بِمَالِ الْإِسْتِرْحَاسِ وَدَعَاوَى الْفَتَنِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ
 اللَّهُ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ
 رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لِمَنْ دُونَ اللَّهِ
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » .

من الذي يَحْفَظُ لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مَرْجُوا ؟ ومن الذي يَصْرِفُ عَنْكُمْ دُونَهُ عَذَابًا ؟
 قوله جل ذكره : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ وَالنَّافِلِينَ
 لِإِخْوَانِهِمْ هُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ
 إِلَّا قَلِيلًا » .

هم الذين كانوا يَتَمَنَّونَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَصْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَتَمَنَّونَ غَيْرَهُمْ لِيَكُونَ
 جَسَمُهُمْ أَكْثَرَ وَكَيْدُهُمْ أَخْفَى . وهم لَا يَهْتَدُونَ أَنَّ اللَّهَ يُطْلِعُ رَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ
 ثُمَّ ذَكَرَ وَصْفَهُمْ فَقَالَ :-

« أَشْجَعٌ عَلَيْكُمْ فَلِذَا جَاءَ الْغُرُفُ
 رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ
 كَالَّذِي يُشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْوُتِّ فَلِذَا
 ذَهَبَ الْغُرُفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَاءِ يَهْدَادُ »

إِذَا جَاءَ الْغُرُفُ طَلَسَتْ مِنَ الرَّعْبِ عَقُولُهُمْ ، وَطَلَسَتْ بَصَائِرُهُمْ ، وَتَغَطَّتْ عَنْ
 النَّصْرَةِ جَمِيعُ أَعْضَانِهِمْ . وَإِذَا ذَهَبَ الْغُرُفُ زَيْنُوا كَلَامَهُمْ ، وَقَدَّمُوا خِدَاعَهُمْ ،
 وَاحْتَلَفُوا فِي أَحْذَاخِهِمْ ... أُولَئِكَ هَذِهِ صِفَاتُهُمْ ؛ لَمْ يَبَاشِرِ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ ، وَلَا صَدَقُوا
 فِيمَا أَظْهَرُوا مِنْ أَدْعَائِهِمْ وَاسْتِسْلَامِهِمْ .

قوله جل ذكره : « يَمْشِيُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا

وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ
 بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
 وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا » .

يَمْشِيُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَيَحْتَافُونَ مِنْ عَوْدِهِمْ ، وَيَفْزَعُونَ مِنْ ظُلِّ أَنْفُسِهِمْ

إِنَّمَا وَتَرَوْا عَلَى أَعْيُنِهِمْ ، وَلَوْ أَتَقَى مَجْرُمُ الْأَعْدَاءِ عَلَيْكُمْ مَا كَانُوا إِلَّا فِي حَرْزِ سَيُوفِهِمْ
وَتَرَوْهُمُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ .

قوله جلّ ذكره : « تَدْرِكُنَّ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » .

« كَانَ » صلة ومعتلها : لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، به قدوّتكم ،
ويجب عليكم متابعتها فيما يرمحه لكم . وأقوال الرسول (ص) وأفعاله على الوجوب
إلى أن يقوم دليل التخصيص ، فأما أحواله فلا سبيل لأحد إلى الإشراف عليها ، فإن
ظَهَرَ شيء من ذلك يُلْخِصُهُ أو يَدُلُّهُ أَقْوَالُهُ وَأَفْعَالُهُ عَلَيْهِ فَلَيْسَ كَانَ ذَلِكَ مُكْتَسَبًا مِنْ
قِيَّتِهِ فَيُلْحَقُ فِي الظَّاهِرِ بِالْوَجوبِ بِأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُكْتَسَبٍ لَهُ فَهُوَ خُصُومِيَّةٌ
لَهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمُتَابَلَتِهِ لِاخْتِصَاصِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِوَلَوُ رِثَتِهِ ^(١) .

قوله جلّ ذكره : « وَلَوْ رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَنْخَبَةَ
قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا »

كَأَنَّ الْمُتَّقِينَ اضْطُرَّتْ عَقَائِدُهُمْ عِنْدَ رُؤْيَا الْأَعْدَاءِ ، فَالْمُؤْمِنُونَ وَأَهْلُ الْيَقِينِ أَزْفَادُوا
يَقِيْنَةً ، وَعَلَى الْأَعْدَاءِ جَرَأَةً ، وَلِحُكْمِ اللَّهِ اسْتِسْلَامًا ، وَمِنْ اللَّهِ قُوَّةٌ .

قوله جلّ ذكره : « مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
اللَّهُ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَفَى فِيهِ مِنْهُمْ
مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا » .

شَكَرَ صَنِيعَهُمْ فِي الرِّاسِ ، وَمَدَحَ يَقِيْنَهُمْ عِنْدَ شُهُودِ الْبَاسِ ، وَحَمَمَ رِجَالًا إِيْمَانًا

(١) القديسة ما يستتر به الصلوة من الصلوة فيرميه إذا أُنكته .

(٢) يفيد هذا الكلام في توضيح نظرة هذا الباحث إلى السنة كصاحب أسس من مصادر التشريع ، فالسنة
أقوال وأفعال وأسرار ، منها ما يصلح للعموم ، ومنها ما يخص به الرسول نَحْسُهُ .

لخصوصية ريتهم^(١) ، وتميزاً لهم من بين أشكائهم بملوك الحلة ولنزلة ، فمنهم من خرج من ديناه على صدقه^(٢) ، ومنهم من ينتظر حكم الله في الحياة وللنات ، ولم يرضوا عن عملهم ، ولم يراوغوا في سراعته حذمهم ؛ حقيقة الصديق حفظ العهد وترك مجاوزة الحد .
ويقال : الصديق استواء الجهر والسر .
ويقال : هو الثبات عندما يكون الأمر جديداً .

قوله جل ذكره : « لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ

وَيُذَبِّبَ لِلنَّافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

في الدنيا يجزي الصادقين بالتمكين والنصرة على العدو وإعلاء الراية ، وفي الآخرة يحصلون الثواب وجزيل السَّاب والخلود في النعيم للقيم والتضديم على الأمثال بالتكريم والتنظيم . .

« وَيُذَبِّبُ لِلنَّافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » على الوجه الذي سبق به العلم ، وتسلقت

به للشيئة .

ويقال : إذا لم يجزم بقوة النفاق وعلقت القول فيه بالرجاء فيلجأ إلى يُخَيِّبُ الْمُؤْمِنَ

في رجائه .

قوله جل ذكره : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِصِدْقِهِمْ

يُنَاقِلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » .

لم يُشْمِتْ بالمسلمين عدوًّا ، ولم يُوصِلْ إليهم من كيدهم سوءاً ، ووضع كيدهم في نحورهم ، واجتنبهم من أصولهم ، وبين بذلك جواهر صدقهم وغير صدقهم ، وشكر من استوجب شكره من جملتهم ، وفضح من استحقق القم من اللدسين منهم .

(١) ومن المؤمنين رجال .. : من أنس أنها نزلت في عهد أنس بن النضير الذي أبل يوم أحد بلاداً عظيماً ، حتى قتل به ثمانون جرساً بين غربة بالسيف وطعته بالرمح ودمية بالسم .. دواء لبيخاري من بشار ، ومسلم من محمد بن حاتم .

(٢) ومنهم من قضى نحبه نزلت في طلحة بن عبيد الله الذي ثبت بجانب الرسول يوم أحد حتى دعا له الرسول (ص) : اللهم أوجب لطلحة الجنة . (الرازي ص ٢٢٨) .

« وَأَزَلَّ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا » .

إِنَّ الْحَقَّ — سبحانه — إِنْ أَجَلَ أَكُلٌ ، وَإِنْ أَشَى كَثُفٌ ، وَإِنْ وَفَى أَوْفَى .
فَأَغْرَقَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ ، وَأَوْرَثَهُمْ مَقَالَهُمْ ، وَأَذَلَّ مُتَمَرِّزَهُمْ ، وَكَفَّلَهُمْ بَكْلًا وَجَرَّ أَمْرَهُمْ ،
وَمَكَّنَهُمْ مِنْ قَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ وَنَهَبِ أَمْوَالِهِمْ ، وَسَيَّ ذُرَارِهِمْ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
كُفْرُهُمْ كَثِفَتْ قُرْدُنُ الْهَيْلَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
فَتَضَالِكُنَّ أَصْحَابُكُمْ وَأَسْرُكُمْ سِرَاحًا
جَمِيلًا » . وَإِنْ كَثِفَتْ قُرْدُنُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ وَالْقَارِ الْآخِرَةُ فَلْيَنْزِلْ اللَّهُ أَعْدَ
لِلْحَسَنَاتِ مَكْنَ أَجْرًا عَظِيمًا » .

لَمْ يُرِدْ أَنْ يَكُونَ قَلْبُ أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مِنْهُ فِي شُغْلٍ ، أَوْ يُوَدَّ
إِلَى أَحَدٍ مِنْهُ أَذَى أَوْ تَسَبُّ ، فَخَيَّرَ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — نِسَاءَهُ ^(١) ، وَوَقَّعَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ
عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — حَقَّ أَخْبَرَتْ عَنْ صِدْقٍ ^(٢) قَلْبُهَا ، وَكَالَ دِينِهَا
وَقَبِيحَتِهَا ، (وَبِمَا هُوَ الْمُنْتَظَرُ مِنْ أَصْلَاحِهَا وَتَرْبِيَّتِهَا) ^(٣) ، وَالْبَاقِي جَرَيْنَ عَلَى مَنَاجِبِهَا ،
وَتَسَجَّنَ عَلَى مَنَاجِلِهَا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
كُفْرُهُمْ كَثِفَتْ قُرْدُنُ الْهَيْلَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
فَتَضَالِكُنَّ أَصْحَابُكُمْ وَأَسْرُكُمْ سِرَاحًا
جَمِيلًا » .

(١) يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ لِمَائِسَةٍ : إِنْ ذَاكَ لَكَ أَمْرٌ وَلَا يَحِلُّكَ أَنْ لَا تَسْجُلِي بِهِ حَتَّى تَسْتَأْذِنِي أَبِيكَ ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهَا
الْقُرْآنَ ، فَقَالَتْ : أَيْ هَذَا اسْتَأْذِنُ أَبِي؟ فَإِنْ أَرِيدَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْقَارِ الْآخِرَةُ . فَرَضَى الْفَرَجَ فِي وَجْهِهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(٢) حَكَاهُ فِي مَوْحِي فِي ص (كُتِبَ) وَهُوَ عَطَا قَطْرًا .

(٣) مَا بَيْنَ الْقَوْمَيْنِ الْمَوْجُودِ فِي مَوْجِبٍ مَوْجُودٍ فِي مَوْجِبٍ .

فأخشة مُبَيَّنَةً يُضَافُ لَهَا الصَّادُ
ضَيْسَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

زيادةُ القُوَّةِ على الجُرْمِ من أماراتِ النُّصِيَّةِ ، ولأنَّ فضلَ حَدِّ الأحرارِ على العبيدِ
وهَلْيَافِ ذَلِكَ من أماراتِ النقصِ ؛ فلما كانت منزلتُهم في الشرفِ تزيد على منزلتِهِ جَمِيعِ
النساءِ ضاعَفَ عُقوبَتَهُنَّ على أَجْرَامِهِنَّ ، وضاعَفَ ثوابَهُنَّ على طاعاتِهِنَّ . وقال :

« وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولَهُ
وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا » .

ثم قال :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ
لِأَنَّ أَتَمَّتْكُمْ فَلَا تَغْضَنَ بِالتَّوَلَّى فَيُطْعَمَ
الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا » .

نهأهن عن التَّبَذُّلِ ، وأَمَرَهُنَّ بِرَأَاةِ حُرْمَةِ الرِّسُولِ (ص) ، والاصْطِلَاقِ عَنْ تَطْلُعِ
الْمُتَأَخَّرِينَ فِي مُلَائِنَتِهِنَّ .

قوله جل ذكره : « وَفَرَنَ فِي يَوْمَتُكُنَّ وَلَا تَبْرَجْنَ
تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ
وَأَتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ
الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا » .

« الرِّجْسُ » : الأَصْلُ الْخَبِيثَةُ وَالْأَخْلَاقُ الدَّنِيَّةُ ؛ فالأَصْلُ الْخَبِيثَةُ التَّوَاحِشُ مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وما قَلَّ وما جَلَّ . وَالْأَخْلَاقُ الدَّنِيَّةُ الْأَهْوَاءُ وَالْبِدْعُ كَالْبُهْلِ وَالشَّعْ

وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، ويريد بهم الأخلاقَ السَّكَرَةَ كالجُودِ والإِنْبَارِ والسَّخَاءِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، ويدبر لهم التوفيقَ والعصمةَ والتسديدَ ، ويُطهرهم من الذنوبِ والسيِّئِ .

قوله جل ذكره : « وَادْكُرُنَّ مَا يُبَيِّنُ فِي يَوْمِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » .

ادْكُرُنَّ عظيمَ النعمةِ وجيلَ الحقائقِ التي تجري في يومِكُنَّ ؛ من نزولِ الوحيِ وبجودِ الملائكةِ ، وحرمةِ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — والنورِ الذي يقبَسُ في الآفاقِ ، ونورِ الشمسِ الذي يَبْسُطُ على العالمِ ، فاعرفن^(١) هذه النعمةَ ، وارعين هذه الحُرمةَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . . . »
الإسلام هو الاستسلام ، والإخلاص ، والبالغة في الجاهدة والمكابدة .

« وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . . . »

الإيمان هو التصديق وهو جمع الطاعات ، ويقال هو التمديق والتضييق ، ويقال هو اشتمامُ الحقيقةِ في القلبِ . ويقال هو حياة القلبِ أولاً بالقل ، وقومِ العلمِ ، ولآخرين ، بالقيمِ عن الله ، ولآخرين بالتوحيد ، ولآخرين بالرفعة ، ولآخرين بإيمانهم حياة قلوبهم بالله .

« وَالْقَاتِنِينَ وَالْقَاتِنَاتِ . . . »

القنوتُ طولُ العبادة .

« وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ . . . »

في عهودهم وعقودهم ورعاية حدودهم .

(١) حرف هنا بمعنى ذكر الفضل .. وبهذه المناسبة أكتشف القارئ من فيه سيفاً دعماً طويلاً حيناً كنت أقرأ فانيته ابن الفارض إلى أرمها :

قلبي يحذقني بأهلك مثقني
روحى فداك حررت أم لم تعرف
فلما أزمعني الشطر الثاني من هذا البيت ؛ لأن كنت أربط بين حرف وبين علم . فكنت أسأل نفسي كيف يخاطب ابن الفارض ربه على هذا النحو ؟ حتى إحصيت إلى أن الحسى : ألقى سافنيك بروحى حتى ولو تلبست في ذلك ، وسألت عليه ، عوداً وكربت له ما لأصح ، وإحسبه .. أم لم تفعل

« والصابرين والصابرات .. »

على انحصال الحيدة ، وعن الصفات النعمة ، وعند جريان مناجات القضية .

« والخالشين والخالصات .. » .

الغشوعُ إطراقُ السريرة عند بواجر الحقيقة .

« والمصدقين والمتصدقات .. »

بأموالهم وأنفسهم حتى لا يكون لهم مع أحدٍ خصومة فيما نالوا منهم ، أو قالوا فيهم ^(١)

« والصائمين والصائمات .. »

المسكين عملاً لا يجوز في الشريعة والطريقة .

« والخالطين فروجهم والخالطات .. »

في الظاهر عن الحرام ، وفي الإشارة عن جميع الآلام .

« والناكرين الله كثيراً والناكرات .. »

بأنفسهم وقلوبهم وفي عموم أحوالهم لا يفتنون ، ولا يتدأخلهم نسيان .

« أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً » .

فهؤلاء لهم جيلُ الحسنَى ، وجزيلُ الثمَنِ .

قوله جل ذكره : « وما كان ليؤمنين ولا مؤمنات إلنا

فَقَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ

النَّيْفَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهُ

وَرَسُولَهُ فَدَنَّا مِنْ ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

الافتياتُ عليه في أمره والاعتراضُ عليه في حُكْمِهِ وَتَرْكُ الْأَعْيَادِ لِإِشارته .. قَرَعَ لِبَابِ

الشَّرْكِ ؛ فَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ عَنْهُ سَرِيحاً وَقَعَ فِي وَهْدَتِهِ .

قوله جل ذكره : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنستَ

(١) وهذا من آيات القسوة (انظر الرسالة ص ١١٢)

عليه أُمِسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ
وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لَكِ
لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ بَأْنٌ ذَكَرَهُ وَأَفْرَدَهُ مِنْ بَيْنِ الصَّحَابَةِ بِاسْمِهِ .

وَيَقَالُ : أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْقَابِلِ عَلَيْهِ وَتَبَيَّنَتْ لَهُ . وَيَقَالُ : بَأْنٌ أَعْتَقْتَهُ ، وَيَقَالُ : بِالْإِيمَانِ
وَالْمَعْرِفَةِ . وَأَتَمَّتْ عَلَيْهِ بِالْمَقِ وَأَبْنُ تَبَيَّنَتْهُ . « أُمِسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » إِفَادَةٌ لِلشَّرِيعَةِ مَعَ
عَلَيْكَ بِأَنْ الْأَمْرَ فِي الْعَاقِبَةِ إِلَى مَاذَا يَتَوَلَّى ؛ فَلَمَّا اللَّهُ أَطْلَعَكَ عَلَيْهِ ، وَقُلْتَ لَهُ : « اتَّقِ .. » .
قَوْلُهُ : « وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ » : أَيْ لَمْ تَطْهَرِ لَمْ أَنَّ اللَّهَ عَرَفَكَ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَمْرِ
فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

« وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ .. » مِنْ مَثَلِكَ وَعَجَبِكَ لَهَا لَا عَلَى وَجْهِ لَا يَحِلُّ . « وَتُخْفَى النَّاسَ .. »
أَيْ وَتُخْفَى عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْبَعُوا فِي الْفِتْنَةِ مِنْ قِصَّةِ زَيْدٍ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْخُشْيَةُ إِشْفَاقًا مِنْكَ عَلَيْهِمْ ،
وَرَحْمَةً بِهِمْ .

وَيَقَالُ : وَتَسْتَعِي مِنَ النَّاسِ — وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَسْتَعِي مِنْهُ .

وَيَقَالُ : تَخْفَى النَّاسَ أَلَا يَطْلُقُوا سَمَاعَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَلَا يَقْوُوا عَلَى تَحَمُّلِهَا ، فَرُبَّمَا يَخْطُرُ
بِإِلْهَامٍ مَا يَتَّقَى عَنْهُمْ وَتُسَمُّهُمْ ..

« فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا .. » لَكِ لَا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرَجٌ ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي الْأَزْوَاجِ بِزَوَّجَاتِ أَدْعِيَائِهِمْ ، فَلَمَّا ذَلِكَ يُحَرِّمُ فِي الْإِبْنِ إِذَا كَانَ
مِنْ الْمُتَلَبِّسِ .

« وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا » .

لَا يَنْتَازِعُ وَلَا يَنْقَاضُ ، وَلَا يُرَدُّ وَلَا يُجْتَد . وما كان على النبي من حرجٍ يرجو
لكونه معصوماً .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْتُونَهُ
وَلَا يَخْتُونُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنِيَ بِاللَّهِ
حَسِبًا » .

« وَيَخْتُونَهُ » : علماً منهم بأنه لا يُعَيِّبُ أَحَدًا ضَرَرٌ وَلَا عَذُورٌ وَلَا مَكْرُوهٌ إِلَّا بِتَدْيِيرِهِ ؛
فبمردونه بالخفية إذ عَيَّنُوا أنه لا شيء لأحدهم مِنْ دُونِهِ .

قوله جل ذكره : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ
وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » .
لم يكن مضافاً إلى ولده لله عليكم شفقة الآباء .. ولكن ليس بآبيكم .

ويقال نسبُهُ ظاهرٌ .. ولكن إنما يُعْرَفُ بِإِي لَاقَسِيهِ ؛ قَدْماً يُقال : مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ،
ولكن إلى أبد الأبد يُقال : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . وشعارُ الإِيْمَانِ وَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ — بعد لا إله إلا
الله — مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا
كَثِيرًا » وَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »

الإشارة فيه أَجْبَرًا ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — قال : « مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا .
أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ » فيجب أن يقول : الله ، ثم لا تنسَ الله بعد ذكرك الله .

ويقال : اذْكُرُوا اللَّهَ بِغُلُوبِكُمْ ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَ الَّذِي تَحْسِنُ اسْتِغْنَامَهُ ذِكْرُ الْقَلْبِ ؛ فَأَمَّا ذِكْرُ
اللسانِ فإِغْنَامُهُ مُسْتَرْمَدٌ كَالْتَصْفَرِ .

« وسبحوه بكرة وأصيلاً » : التسبيحُ من قبيل الذكر ، ولكنه ذكْرُه بلفظين ثلاثاً
تعتريك سامة^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى بُعِثَ عليكم وملائكته
ليُخرجكم من الظلمات إلى النورِ
وكان بالمؤمنين رحيماً » .

الصلاة فى الأصلِ الدعاء^(٢) ؛ فصلاته — سبحانه — دعاءُه لنا بالتقرب ، وصلاةُ الملائكة
دعائهم إله لنا : بالنفزانِ الماصى ، وبالإحسانِ للمطيع .

وقال الصلاةُ من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الشفاعة
« ليخرجكم من الظلمات إلى النور » : من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .
ويقال ليخرجكم من الظلمات إلى النور أى يصحبكم من الضلال بَرُوح الوصال .
ويقال ليخرجكم من ظلمات التديبر إلى فضاء شهود التدبير .
ويقال ليخرجكم من ظلمات شوسكم إلى أنوار البصائر فى قلوبكم .
ويقال ليخرجكم من أسباب التفرقة إلى شهود عين التوفيق ، والتحقق بأوصاف الجمع .
ويقال بصونكم من الشرِّك ، ويُثَبِّتُكُمْ بشواهد الإيمان .

قوله جل ذكره : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ،
وَأَعَدُّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا » .

الصحةُ إِذَا قُرِئَتْ بالروية ، وإلقاؤه إِذَا قُرِئَ بالتحية فلا يكون ذلك إلا بمعنى رؤية البصير .
والسلام خطاب يفتاح به للربِّك لإخباراً عن علو شأنهم ورتبتهم ، وإلقاؤه حاصلٌ وخطابُه

(١) هذه لفظة هامة تهم البلاغيين .

(٢) يوضح التشيىر هنا ما يسمى به (نعم المنع) ، وهو صنف آخر يختلف عن (نعم المنع) ، والعبء -
لنصر نظره - يشكر على هذه ، وتحق عليه تلك .

مسموع ، ولا يكون ذلك إلا برؤية البصر^(١) .

« أجراً كريماً » : للكرم نفى الدناءة ، وكرماً أى حسناً .

وفى الإشارة أجرهم موفور على عمل يسير ، فإنَّ الكرم لا يستغنى عند البيع والشراء فى الأعداد ، وذلك تعريف بالإحسان السابق فى وقت غيبتك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً

وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً » وداعياً إلى الله بإذنه

وسراجاً منيراً » وبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ

لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً » .

يَا أَيُّهَا الشَّرَفُ مِنْ قَبْلِنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً بوحديثنا ، وشاهداً تُبَشِّرُ بِمَتَابَتِنَا ، وتحذُرُ

من مخالفة أمرنا ، وتُثَلِّمُ النَّاسَ مواضع الخوف مِنَّا ، وداعياً إلينا بنا ، وسراجاً يستضيئون

به ، وشكاً يبيسط شعاعها على جميع مَنْ صَدَّقَكَ ، وآمَنَ بِكَ ، فلا يصل إلينا إلا مَنْ اتَّبَعَكَ

وَحَدَّثَكَ ، وَصَدَّقَكَ وَقَدَّمَكَ .

« وَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ » بفضلنا معهم ، ونيلهم طولنا عليهم ، وإحساننا إليهم . وَمَنْ لَمْ يُؤْزِرْ

فِيهِ بَرَكَةً لِمَعَانِهِ بِكَ فَلَا قُدْرَةَ لَهُ عِنْدَنَا .

قوله جل ذكره : « وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالنَّافِقِينَ وَدَعْ

أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ

وَكَيْلاً » .

لا توافق مَنْ أَعْرَضْنَا عَنْهُ ، وَأَضَلَّنَا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَأَهْلِ الْبِدْعِ وَالشُّتُقِ .

وتوكلْ على الله بىوام الاضطاع إليه ، وكُنْ بِاللَّهِ وَكَيْلاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا نَكْتُبُكُمْ

(١) يضاف هذا الكلام إلى المبدأ الذى يتحس له القشبرى وهو الرؤية للبيانة الحق فى الآخرة .

(٢) يقصد القشبرى : أولئك الذين أحسن الله إليهم فى سابق علمه ، وهم ما زالوا فى كتم العلم - على حد تعبيره فى مواضع مناظرة .

الزُّمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِذَةٍ
تَقْتَدُونَهَا فُتَمُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا
جِيلًا .

. إذا أترستم فراقهنَّ فتموهن ليكونَ من عنكم تذكرة في أيام الفُرقة في أوائلها إلى أن
توطينَ نفوسهن على الفُرقة .

« وسرخوهن سراحاً جيلًا » : لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن
شيئاً تخلفنَّ به مهن ، فلا تجمعا عليهن الفراق بالحلل والإضرار من جهة المال .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ بِمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ
وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ
غفوراً رحيمًا » .

وسمنا الأمرَ عليك في باب النكاح بكم شئت ؛ فإنك مأمونٌ من عيب عدم التوبة بينهن
وعدم مراعاة حقوقهن ، ومن الحيفِ عليهن . والتوسمةُ في باب النكاح تدلُّ على التفضيلة
كالحرِّ والصيد .

« نُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَنُؤَيِّ إِلَيْكَ
مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَضْيَعَ يَمِينُ عَزَلَتْ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ
أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ
كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ... » .

« مَنْ تَشَاءُ » : على ما تعلق به إرادتك ، وقع عليه اختيارك ، فلا حرجَ عليك
ولا جناح .

« لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَدُوٍّ وَلَا أَنْ
تَبْدُلَ بَيْنَ مَنْ أَزْوَاجَ وَلَوْ أَصْبَحَ
حُسْنٌ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا » .

لَمَّا اخْتَرْتَهُنَّ أَحَبَّ اللَّهُ لهنَّ حُرْمَةً ، قَالَ : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَدُوٍّ » فَمَا اخْتَرْتَهُنَّ
فَلَا تَحْتَزُّ عَلَيْهِنَّ امْرَأَةٌ أُخْرَى طَلِيقًا قُلُوبُهُنَّ ، وَنَوْعًا لِمُعَاوَدَةِ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُنَّ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى
كَرَمِهِ — وَالْحِفَاطُ كَرَمٌ وَدِينٌ ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ
غَيْرِ مَافَرِّقٍ لِنَافِهِ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا ... » الآية .

أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ الْأَدَبِ فِي الْأَسْتِثْنَاءِ ، وَمِرَاعَاةِ الْوَقْتِ ، وَوَجُوبِ الْإِحْتِرَامِ ؛ فَلِذَا أَدْنَى لَكُمْ
فَادْخُلُوا عَلَى وَجْهِ الْأَدَبِ ، وَحِفْظِ أَحْكَامِ تِلْكَ الْحَضْرَةِ ، وَإِذَا انْتَهَتْ حُرُوفُكُمْ فَخَرُجُوا ،
وَلَا تَتَفَلَّحُوا عَنْكُمْ ، وَلَا يَسْتَمْتِكُمْ حُسْنُ خُلُقِهِ مِنْ حِفْظِ الْأَدَبِ ، وَلَا يَجْعَلُكُمْ فِرْقًا احْتِشَابِيَّةً
عَلَى إِبْرَامِهِ ^(٢) .

« فَلِذَا عَلِمْتُمْ مَا تَشْتَرُونَ وَلَا تَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْأَلُكُمْ مِنْكُمْ :
حُسْنُ خُلُقِهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — جَرَّاهُمْ إِلَى الْمُبَاسَلَةِ مَعَهُ ، حَقٌّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

« وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَلَسَّأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَلْهَرُّ قُلُوبَكُمْ وَقُلُوبُهُنَّ » : فَتَلَمَّ
عَنْ مَأْوَفِ الْعَادَةِ إِلَى مَرْوَفِ الشَّرِيعَةِ وَمَرْوُضِ الْعِبَادَةِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ الْبَشَرَ بَشَرٌ — وَإِنْ كَانُوا
مِنَ الصَّعَابَةِ ، قَالَ :

« ذَلِكَ أَلْهَرُّ قُلُوبَكُمْ وَقُلُوبُهُنَّ »

(١) شِبْطَانًا مَكْنًى (دِين) يَفْتَحُ الدَّالَّ وَتَسْكُنُ الْيَاءُ فِيهَا يَسْتَقِمُ الْمَنْعُ وَيَقْوَى السَّيَاقُ .

(٢) أَيْ إِسْجَادَهُ وَإِبْلَاقَهُ .

فلا ينبغي لأحد أن يأمن فيه — ولهذا يُشَدُّ الأمرُ في الشرية بالأبصارِ رجلٍ براءة
ليس بينهما محرمة .

« وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ
الله ولا أن تنكحوا أزواجه من
بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله
عظيماً ^(١) » .

وهذا من خصائصه — على الله عليه وسلم ، وفي هذا شبه رخصة ابن يلاحظ شيئاً من هذا ،
فيهم بالاتصال من له مثلُ آليهن بنيرهن بعد وفاته — وإن كان التصرُّع عنه — وعن أمثال
هنا من ترك الخطوط — أم وأعلى .

قوله جل ذكره : « إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفَوْهُ فلن
الله كان بكل شيء عليم » .

حَفِظَ القلبُ مع الله ، ومراعاة الأمر — بينه وبين الله — على الصحة في دوام الأوقات
لا يقرى عليه إلا الخواص من أهل الحضور .

قوله جل ذكره : « لا جناحَ عليهن في آبائهن
ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء
إخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن
ولا نسلهن... » الآية .

لما نزلت آية الحبلى شقَّ عليهن وعلى النسوان وعلى الرجال في الاستتار ، فأنزل الله عزَّ
وجلَّ هذه الآية للرخصة في نظر هؤلاء إلى النساء ، ورؤية النساء لم على تعصيل الشرية .

(١) يستند القرطبي إلى رواية نقلها أبو نصر عبد الرحمن القشيري — ابن القشيري صاحب هذا الكتاب —
عن ابن عباس الذي يقول : قال رجل من سادات قريش من البصرة الذين كانوا مع الرسول حل سراء — في نفسه —
لو توفى الرسول لتزوجت عائشة ، وهي بنت عمي . قال مقاتل : هو طلحة بن عبد الله . ولكن هذا الرجل قد دم
على ما حدثت به نفسه ، فبقي إلى مكة على رجله وكسَّرَ بالتصدق وحق القربى . (القرطبي ج ١٤ ص ٢٢٨) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلُّوْا تَسْلِيًّا ».

أراد الله — سبحانه — أن تكون الأمة عنده — صلى الله عليه وسلم — يدُ خدمةٍ كاله بالشفاعة عليهم يدُ نعمة ، فأمرهم بالصلاة عليه ، ثم كانوا — سبحانه عنه ؛ قال صلى الله عليه وسلم : مَنْ صَلَّى عَلَىَّ مَرَّةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ . وفي هذا إشارة إلى أن العبد لا يستغنى عن الزيادة من الله في وقتٍ من الأوقات ؛ إذ لا رتبة فوق رتبة الرسول ، وقد احتاج إلى زيادة صلوات الأئمّة عليه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا • وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا ظَاهِرًا إِنْ كَانُوا عَدُوًّا لَكَ فَحُمِّلُوا تَوْبَهُمْ كَمَا حُمِّلُوا ذُنُوبَهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَوْا عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ يُلَاقُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا يُدْرِكُونَ الْإِنشَاءَ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

يؤذون الله ورسوله بصل المعاصي التي يستحقون بها العقوبة ، ويؤذون أوليائه . ولما قال : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، فكذلك مَنْ أَذَى رَسُولَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ آذَاهُ ، ومعناه تخصيص حالتهم وإثبات رتيبهم .

ثم ذكر قوله : « وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. » وذكر عقوبتهم ، فجعل إبناء الرسول مقرونا بما ذكر من إبناء الله ، ثم ذكر إبناء المؤمنين ، ويدل ذلك على أن رتبة المؤمنين دون رتبة الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا » .

(١) في هذا رد نسى حل من بعض الوصول ، ويظهر بأن لواء الأنبياء يقتله في مدارجه ، وأن الأنبياء أفض من الأولياء .

جلايينك ذلك أدنى أن يُمرّن
فلا يؤذّن وكان الله غفوراً رحيماً .

هذا نصيب لمن على حفظ الحرمات وإثبات الرتبة ، وصيانة لمن ، وأمر لمن بالتصاؤن
والتغفّر . وقَرَنَ بذلك تهديده للمنافقين في تعاملهم ما كان يشغل قلب الرسول صلى الله عليه
وسلم من الإرجاف في المدينة : —

« لئن لم يفتكر المنافقون والذين في قلوبهم
مرضٌ والمرجفون في المدينة لفترنك
بهم ثم لا يجاوروك فيها إلا قليلاً
• ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا
قتيلاً • سنة الله في الذين خلوا من
قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

إنهم لئن يمتنعوا عن الإرجاف وأمثال ذلك لأجرينا معهم سُتُنّا في التدمير على من سَفَّ
من الكفار^(١) .

ثم ذَكَرَ مسألة القوم عن قيام الساعة وتمكينهم ذلك ، ثم استعجالهم قيامها من غير
استعداد لها ، ثم أخبر بصمود العقوبة التي علم أنه يُعَذِّبُهم بها ، وما يقع عليهم من الندامة
على ما قرأوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان
عند الله وجيهاً » .

نسبوه إلى الأذرة^(٢) ، وأن به عيباً في الخلقة ، ولكنه كان رجلاً حَيِّياً ، وكان إذا
اغتسل لا يصعد (من ثوبه)^(٣) ، فهووا به ذلك . وذات يوم خلا ليلته ، ووضع ثيابه

(١) حكاه في « وهي في من (الكبار) » .

(٢) الأذرة (عل وزن للفرقة) = اتفلق الخسية ، والأذرة = المصاب بلك .

(٣) ما بين توسين من حدثنا ليضع السباك .

على حَجَرٍ فَأَمْسَى اللَّهُ الْحَجَرَ بِيَابِهِ ، وموسى يمدو خَلْفَهُ حَتَّى تَوَسَّطَ بَنَى إِسْرَائِيلَ ، وشاهدوا خَلْقَتَهُ سَلِيمَةً ، فوقف الحجرُ ، وأخذ موسى ثِيَابَهُ وَلِبْسَهُ^(١) ، وهذا معنى قوله : « فَبَرَأَهُ اللَّهُ عَمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبًا » في الْقَدَرِ وَالنَّزَلِ . والوجهة النافعة ما كان عند الله لا عند الناس ، فَيَبُولُ النَّاسُ لَا عِبْرَةَ بِهِ وَلَا خَطَرَ لَهُ ، لَا سِيَّاهُ الْعَوَامُ فَلَهُمْ يَتَّبِعُونَ بِلَا شَيْءٍ ، وَيَرُدُّونَ بِلَا شَيْءٍ قَالَ فَأَلْهَمَهُمْ :

إِنْ كُنْتُ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ مَطْرَحًا
فَتَعِدْ غَيْرَكَ عَمَلًا عَلَى الْخَلْقِ

وَقَالُوا : قَدْ أَكْ فِي شِرَارِكُمْ قَلِيلًا
فَأَنَّى فِي خِيَارِكُمْ كَثِيرٌ

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » .

اقول السديد كلمة الإخلاص ، وهي الشهادة بأن عن ضمير صادق .
ويقال سداد أقوالكم سداد أفعالكم ، ولقد هَوَّنَ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَ فَمَنْ رَضِيَ بِالْقَالَةِ — وهي الشهادة بأن ترك الشرك — وَقَالُوا بِصِدْقِ أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ أَعْمَالُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنَ الْخَلَلِ ، وَغَفَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ الزُّلْمَ ؛ أَيْ حَصَلَتْ لَهُ سَعَادَةُ الْهَارِينِ .

ويقال ذَكَرَ « أَعْمَالَكُمْ » بِالْجَمْعِ^(٢) ، وَقَدَّمَهَا عَلَى الْفُرْقَانِ ؛ لِأَنَّهُ مَا لَمْ يُصْلِحْ لَكَ فِي حَالِكَ أَعْمَالَكَ وَإِنْ لَمْ يَكْفِكَ مَا أَهْلَكَ مِنْ أَشْنَالِكَ .. لَمْ تَفْرُغْ إِلَى حَدِيثِ آخِرَتِكَ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ آَمَنَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا

(١) هذه رواية ابن عباس .. وفي رواية أخرى : اتهم يقتل لثيابه حارون .

(٢) أي أن الله يفضله ينظر منك إلى القليل فيعتبره كثيراً .

وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا .

هنا إخبار أى : أهل السموات والأرض والجبال .

وقيل أحياء وأعقَلها ، وهو كقولهم : « لَأُثْبِتَ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَاتِلَنَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ^(١) » .

« فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلَهَا » : أى أَيْنَ أَنْ نَحْنُ فِيهَا ، « وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ » : أى خان فيها .

وهم مراتب : فالكفار خانوا فى الأصل الأمانة — وهى المروة — فكفروا . وَمَنْ دُونَهُمْ
خَانُوا بالمعاصى ، وبعضهم أشدُّ وبعضهم أهون ، وكلُّه احتجب من الوزرِ متقلِّبه .

ويقال « أَيْنَ » إباءً لإشفاقه لا إباءً استكباراً ، واستغنيين . . . فضا عنهم ، وأعاضهم
مِنْ حَمَلَهَا .

« وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ » : قَبِلَهَا ثُمَّ مَارَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا .. كُلُّ قَدْرِهِ .

« إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » بصموية حَمَلِي الأمانة فى الحبال ، والقوة التى عليها فى

المالك . وقومٌ قالوا عَرَضَ الأمانة على السموات والأرض وعرضها على الإنسان ، فهن استغنيين
وهؤلاء ^(٢) لم يستغنوا ولم يراعوا .

ويقال : الأمانة القيام بالواجبات أصولها وفروعها .

ويقال : الأمانة التوحيد عقداً وحفظ الحدود جهداً .

ويقال : لَمَّا حَمَلَ آدَمُ الأمانة وأولاده قال تعالى : « وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ الْبَحْرِ » ^(٣) .. وهل

جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

ويقال حمل الإنسان بالله لا بنفسه . ويقال ظَلَمَ نَفْسَهُ حيث لم يُشْفِقْ مَا أَشْفَقَتْ مِنْهُ

السموات والأرضون . والنظْمُ وَضْعُ الشئ فى غير موضعه .

ويقال كَاشَفَ السموات والأرض بوصف الروبىة والمظنة فأشفقوا ، وكَاشَفَ آدَمَ

(٢) الإنسان هنا اسم جلس .

(١) آية ١١ سورة فصلت .

(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .

وَدُرِّيَّتَهُ بِرُصْفِ الطُّفْلِ قَبَّلُوا وَحَلُّوا ، وَفِي حَالِ بَقَاءِ الْعَبْدِ بِاللَّهِ يَحْمِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِشَعْرَةٍ
مِنْ جَفْنَيْهِ . وَيَقَالُ كَانَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ وَالْبَابِ فَأَشْفَقُوا مِنْ حَمْلِ الْأَمَانَةِ .
وَالْعَمَلُ إِنَّمَا تَحْمِلُهُ الْقُلُوبُ . وَأَدَمُ كَانَ صَاحِبَ مَعْنَى فَتَحَمَّلَ ، وَأَنْشَدُوا :

حَمَلَتْ جِبَالُ الْحَكَمِ فَوْقَ وَاقَتِي لَا تُعْجِزُ عَنْ حَمْلِ الْقِمِيمِ وَأَضْفُ
وَيَقَالُ لَمَّا عَرَضَ الْحَقُّ الْأَمَانَةَ عَلَى الْخَلْقِ عَلَّقَى آدَمُ بِهَا هِمَّتَهُ ، فَصَرَفَ بِهِتَهُ جَمِيعَ
الْمَخْلُوقَاتِ عَنْهَا ، فَلَمَّا أَبَوْنَا وَأَشْفَقُوا حَمَلَهَا الْإِنْسَانُ طَوْعًا لَا كَرْهًا .

قوله جل ذكره : « لِيُذَبِّ اللَّهُ لِلنَّاقِثِينَ وَالْمُنَاقِثِينَ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيُجِيبَ اللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا » .

اللام في « لِيُذَبِّ » للصيرورة والمقابلة ؛ أَيْ صَارَتْ عَاقِبَةُ هَذَا الْأَمْرِ عَذَابَ النَّاقِثِينَ
وَالْمُنَاقِثَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ، وَيُجِيبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالتَّجَاوُزِ
(تَمَّتِ السُّورَةُ) ^(١) قَدْ يَقَالُ : الْمُنَاقِثُونَ وَالْمُنَاقِثَاتُ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ وَالْمَاصُونَ مِنْ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَرَدَّ ذِكْرُهُمْ . . فَأَيْنَ الْمَاطِلُونَ وَذِكْرُهُمْ ؟

وَلَكِنَّهُمْ فِي جِلَّةٍ مِنْ مَعْنَى ذِكْرِهِمْ ، وَلَيْسُوا فِي الْمَشْرِكِينَ وَلَا فِي النَّاقِثِينَ ، فَلَا جِلَّةَ
فِي جِلَّةِ الْعَاصِينَ الَّذِينَ تَابَ عَلَيْهِمْ .

فَيَأْتِيهَا الْمَاضِي ، كُنْتَ تَحْمُرُ أَنْ يُخْرِجَكَ الْمَاطِلُونَ مِنْ جِلَّتِهِمْ ، فَاشْهَدَ الْجَبَّارَ — فِي هَذَا
الْخَطِّابِ — كَيْفَ أَدْرَجَكَ فِي جِلَّتِهِمْ ^(٢) ١٩

(١) مَكْنًى فِي الْأَصْلِ ، وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَسْتَعْرِكُ بِهَا الْمَصْنُوعُ شَيْئًا حَقَبَ خَاتَمَةَ سُورَةٍ .

(٢) هَذَا الِاسْتَعْرَاكُ لَأَنَّ النَّظَرَ مِنْ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى رَحَابَةِ مَعْنَى الصَّوْقِيَّةِ ، وَشِدَّةِ حَرَمِهِمْ عَلَى فَتْحِ أَبْوَابِ
الْأَمَلِ أَمَامَ الْعَصَاةِ الْفَاضِيَةِ فِي الْقُوَّةِ « لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا » .

سُورَةُ سَبَأٍ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ كَلِمَةُ سَلَابَةٍ غَلَابَةٍ ، نَهَابَةٍ وَهَابَةٍ ؛ تَلْبِ الْقُلُوبِ .. وَلَكِنْ لَا كَلْ قَلْبَ ، وَتَقْلَبُ الْأَبَابَ وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ لَبٍ ، وَتَنْهَبُ الْأَرْوَاحَ وَلَكِنْ مِنْ الْأَحْبَابِ ، وَتَهَبُ الْأَرْوَاحَ .. وَلَكِنْ قَوْمٌ مَخْصُوصِينَ مِنَ الطَّلَاقِ .

قوله جل ذكره : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » .

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه ، وَمَدْحُهُ لِنَفْسِهِ إِنْخِبَارٌ مِنْ جَلَالِهِ ، وَاسْتَعْقَلَهُ لِنَمُوتِ عِزِّهِ وَجِوَالِهِ ، فَهُوَ فِي الْأَزَلِّ حَامِدٌ لِنَفْسِهِ عَمُودٌ ، وَوَاحِدٌ مُوجِدٌ ، فِي الْآزَالِ مَبِيدٌ ، وَبِالطَّلَبَاتِ مَقْصُودٌ .

« الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » : لِذَلِكَ لَا يَكُونُ بِالشَّرْكَ ؛ فَلَا مَلِكَ إِلَّا اللَّهُ . وَإِنْ أَجْرَى هَذَا الْأَسْمَ عَلَى مَخْلُوقٍ فَالْزَيْحُ لَا يَنْبِرُ لَوْنُهُ وَإِنْ تُنْحَى كَافُورًا !
« وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ » مِنْ الَّذِينَ أَعْظَمَهُمْ ، وَفِي النِّعَةِ أَغْرَقَهُمْ .
« وَهُوَ الْحَكِيمُ » بِتَخْلِيدِ قَوْمٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَتَأْيِيدِ قَوْمٍ فِي النَّارِ .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يَنْبِرُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْسُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ » .

« يَوْمَ لَا يَنْبِرُ فِي الْأَرْضِ » مِنْ الْكِبَرِ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَلِلَّاهِ يَرْسِبُ فِيهَا ،

والأشياء التي مُتَحَقِّقٌ عليها ، والناس يُسَبِّحُونَ في الأرض .

» وما يخرج منها « من الثبات والأزهار ، واللون يُعْشَوْنَ .

» وما ينزل من السماء « من القطر واللك ، والبركة والرزق ، والنسك .

» وما يخرج فيها « من الصحف ، وحوائج الناس : وهم الأولياء .

» وهو الرحيم « بعباده ، « التنوير » لجميع اللذين من السنين .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة »

قُلْ عَلَىٰ وَجْهِ رَبِّي لَأَتَيْنَكُم بِآيَاتٍ مِّنَ النَّبِيِّ

لَا يَرْزُبُ عَنْهُ مِثْلُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ

وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْنُفٌ مِّنْ ذَلِكَ

وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّبِينٍ .

كرّر في القرآن تكذيبهم بالساعة ، واستعلمهم ذلك ، والرّد عليهم . وأخبر عن سابق

علمه بهم ، وآنه لا يخرج شيء من معلوماته عن علمه ، فأثبت علمه بكل شيء وشموه لكل

شيء . . لأنه لو لم يكن له علم لكان قصاً ، ولأنه لو خرج معلوم واحد عن علمه لكان

بقدرته قصاً ، والنقص — بأى وصف كان — لا يجوز في صفته بحال .

قوله جل ذكره : « ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ

أُولَئِكَ لَمْ يَصْفَرْ رِزْقُ كَرِيمٍ »

الآيات . .

الحسنون منهم يحازيهم بالظواهر للتصا ، والكافرون منهم يكاشهم على كفرهم

بالقوالب غير متصفة .

ويرى الذين أوتوا العلم كتابك الذي أَتَيْتَ بِهِ حَقّاً وَمِثْقَالاً . والذين كفروا قال

بعضهم لبعض : إنهم يرون أن هذا الذي قول به من النشر والحساب والبث كذب ، أو أن

يك حجة ، ثم أقام عليهم حجة التصوير بما أجرى به سُنَّتُهُ في الخلق والإبداع . . فإ

زادهم ذلك إلا جبرداً ، وما قالوه إلا عنواً .

قوله جل ذكره : « وقد آتينا داود منا فضلا إيجاباً »

أَوْبَى مِمَّ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْخَلِيدُ •

أَنْ أَعْلَ سَابِكَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ

وَأَعْلُوا صُلْحًا إِنْ بَعَا تَصْلُونَ بِصِيرِ •

« داود » اسم أعجمي ، وقيل سمي داود لأنه دأى (جَرَحَ) ، وَرَدَى الْقَتْلَ
أَنَّهُ قَالَ فِي إِحْدَى مَنَاجِيهِ : يَا رَبِّ ، إِنِّي أَرَى فِي التَّوْرَةِ مَا أَعْطَيْتَ لِأَوَّلِيكَ وَأَعْيَانِكَ
مِنَ الرَّبِّ فَأَعْطِنِيهَا ^(١) قَالَ : إِنِّي ابْتَلَيْتَهُمْ فَصَبَرُوا ، قَالَ : إِنِّي أَصْبِرُ عَلَى بِلَاثِكَ ،
فَأَعْطِنِي مَا أَعْطَيْتَهُمْ ، فَأَبْلَاهُ ، فَوَقَفَ ، فَأَعْطَاهُ مَا أَعْطَاهُمْ .

« وقد آتينا داود منا فضلا » : تَكَلَّمُوا فِي هَذَا الْفَضْلِ ؛ فَفَهِمَ مَنْ أَرَادَ مَا ذَكَرَهُ
بَدَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لِلطَّيْرِ : « أَوْبَى مِمَّ » ، وَكَذَلِكَ الْجِبَالُ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَنْفِيسٌ فِي وَاقِعِ
حَزْنِهِ وَبُكَائِهِ . وَقِيلَ ذَلِكَ الْفَضْلُ رَجُوعُهُ إِلَى اللَّهِ — فِي حَالِ مَوْضِعٍ لَهُ ^(٢) — بِالتَّصَلُّ
وَالِاعْتِنَاءِ . وَيَقَالُ هُوَ شَهْرُهُ مَوْضِعُ ضَرْبِهِ وَأَنَّهُ لَا يُصْلِحُ أَمْرَهُ غَيْرُهُ . وَيَقَالُ طَلِبَ
صَوْتِهِ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْزُّبُورِ حَتَّى كَانَ لِرَّغْبٍ فِي مَتَابَعَتِهِ مَنْ يَسْمَعُ إِلَيْهِ ^(٣) . وَيَقَالُ حَلَاوَةُ صَوْتِهِ
فِي النَّجَاةِ . وَيَقَالُ حُسْنُ خُلُقِهِ مَعَ أُمَّتِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَيَقَالُ تَوْفِيقُهُ لِلْحَكْمِ بَيْنَ أُمَّتِهِ
بِالسُّدُلِ ...

قوله : « إيجاباً أَوْبَى مِمَّ وَالطَّيْرَ » أَمَرَ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ بِمَجْلُوبَتِهِ حَتَّى خَرَجَ إِلَى
الْجِبَالِ وَالصَّخَرِ يُنَوِّحُ عَلَى نَفْسِهِ .

وَيَقَالُ أَوْحَى اللَّهُ لَهُ : يَا دَاوُدَ ، كَانَتْ تِلْكَ الزَّلَّةُ مُبَارَكَةً عَلَيْكَ ! قَالَ . يَا رَبِّ ،
وَكَيْفَ ؟ قَالَ : كُنْتَ تَحْبِبُ قَبْلَهَا (سَكَ يَحِبُّ لِلطَّيْمُونِ وَالْآنَ) ^(٤) تَحِبُّهُ كَمَا يَحِبُّ
أَهْلَ الذُّنُوبِ !

(١) مَا بَيْنَ التَّوْحِيدِ سَائِقٌ مِنْ مِمَّ مَوْجُودٌ فِي م .

(٢) يُشِيرُ الْقَشِيرِيُّ بِذَلِكَ إِلَى قِصَّةِ دَاوُدَ مَعَ زَوْجَتِهِ أَوْشَا ، وَكَيْفَ تَابَ وَأَتَابَ .

(٣) يَقُولُ الْقُرْطُبِيُّ : كَانَ قَدْ أَسْلَى مِنَ الصَّوْتِ مَا يَتَرَأَى مِنَ الْوَحْشِ مِنَ الْجِبَالِ عَلَى حَسَنِ صَوْتِهِ ، وَكَانَتْ
الْجِبَالُ تَجْلُوبُ صَوَاهُ ، وَالْمَاءُ الْجَارِي يَتَطَلَّحُ جَرِيَةً . وَيُضِيفُ الْقُرْطُبِيُّ : « أَيْدٍ بِمُسَاعَدَةِ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لَتَلَا يَجِدُ
قُرَّةً ، فَلَإِذَا دَخَلَتْ الْقُرَّةُ أَهْلُهَا أَيْ نَارَ وَتَحَرَّكَ ، وَتَوَقَّى بِمُسَاعَدَةِ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ .

(٤) مَوْجُودَةٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودَةٌ فِي م .

يا داود ، إن أنينَ للذين أحبُّ إلى من صُراخ العابدين !
وقال ، كان داود يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، غيرةً منه وصلاةً في قدين ...
فلما وقع له ما وقع كان يقول . اللهم اغفر للمذنبين ، فحسب أن تغفرَ لداود فيما بينهم .
ويقال لما تاب الله عليه ، واجتمع الإنسُ والجنُّ والطيورُ بمجلسه ، ورفعُ صوته ، وأخاره
في حُكِّه على حسب ما كان من عذبه تفرقت الطيورُ وكألوا : الصوتُ صوتُ داود والحال
ليست تلك إلا صوتُ الله ! إليه هذه وحشةُ الزَّمة ، وتلك كانت أنسُ الطاعة . . فكان داودُ
يكنى ويُنوح ويصيح والطيورُ والجبالُ معه .
ويقال ليس كلُّ مَنْ صالح وراءه معنى ^(١) ، فاللهي كان مع داود لا مع الجبال
والطيور ...

« أن أهلَ سَابَنَةِ وَقْدَرٍ في السَّرْدِ وأهلوا صلحا » . ألان له الحديّة ، وجعل
ذلك معجزةً له ، وجعل فيه توسمةَ رزقه ، ليجدَ في ذلك مكسبا ، لِيَقْطَعَ حُكْمَهُ عن أمته في
ارتقاه بهم ليلاركَ لم في أتباعِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وليليانَ الرِّيحُ غُلُوها شهرٌ
ورواحا شهرٌ »

أي آتينا سليمانَ الرِّيحَ أي سَخَّرناها له ، فكانت تعملُ بساطةً بالندو مسيرة شهرٍ ؛
وبالرواح مسيرة شهر .
وفي القصة أنه لاحظ يوما مُلْكَهُ ، فقال الرِّيحُ يساطه ، فقال سليمانُ للرِّيح : استوي ،
فقال الرِّيح : استوي أنت ، فامتَ مستويا بقلبك كنتُ مستويا بك ، فلما
مِلَتْ مِلْتُ .

« وأسلنا له عينَ القِطْرِ ومنَ الجنِّ
من يعملُ بين يديه يَلْذَنُ وبه ومن يَزْغُ
منهم من أمرنا نُدْفِقه من عذاب السَّورِ »

(١) هذه غزوة بين الظاهريين والتراجديين في عباسي السباح الصوفية ، إذ ينفي الصنف الأخير التواجد إلى وجه
ثم إلى وجود .
(٢) هذا تلميح لمن يصدر منزلة الإمامة : ألا يرتقى ، وألا يطلب حوضاً ، وألا يطعم في اللبن يجهونه .

أى وآتيانه ذلك ، فسكّات الشياطينُ مُسْفَرَةٌ له ، يصلون ما يشاء من الأشياء التي ذكرها سبحانه .

قوله جل ذكره : « اعملوا آلَ داودَ شكرًا وقليلًا من عباديَ الشُّكْر »^(١) .

أى اعملوا يا آلَ داودَ للشكر ، قوله : « شكرًا » منصوب لأنه مفعول له .

ويقال شكرًا ؛ منصوب لأنه مفعول به مثل قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون »^(٢) . وقد مضى طَرَفٌ من القول في الشكر . والشكور كثير الشكر ، والأصل في الشكر الزيادة ، والشكيرة اسم لما ينبت تحت الأشجار منها ، ودابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تُعْطَى من التلّيف ؛ فالشكور الذي يشكر على النعمة فوق ما يشكر أمثاله وأضرابه . وإذا كان الناس يشكرونه على الرخاء فالشكور يشكره في البلاء .

والشاكر يشكر على التبدّل ، والشكور على النعم^(٣) ... فكيف بالبدل ؟

والشكور يشكر بقلبه ولسانه وجوارحه وماله ، والشاكر يعض هذه .

ويقال في « وقليل من عبادي الشكور » قليلٌ مَنْ يأخذ النعمة متى ولا يحملها على الأسباب ؛ فلا يشكر الوسائط ويشكرني . والأكثرُونَ يأخذون النعمة من الله ، ويمجدون الخير مِنْ رَبِّهِمْ يظلون للنِّعَةِ من غير الله ، ويشكرون غير الله .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى

مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ

فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْمَذَابِ

لَظِينَ » .

(١) يقول الجبرودى في موارثه : « في أخبار داود عليه السلام : إلى كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نفسك ؟ فأوحى إليه إذا عرفت هذا فقله شكرتنى . (مواهب المصنف ص ٣٤٤)

(٢) آية ٤ سورة المؤمنین .

(٣) وودت العبارة في الرسالة حكفاً : الشاكر يشكر عند البذل والشكور عند المثل (الرسالة ص ٨٩) .

كان سليمان — عليه السلام — يشكى على عصاه وقتما قُبِضَ ، وبقى على ذلك الوصف مدةً ، والشياطين كانوا مُسَخَّرِينَ يعملون ما أمرهم به ، ويصرفون على الوجه الذي رَسَمَ لهم ، ويتهونون عما رَجَبَهم ، قد كانوا يتوهمون أنه حيٌّ . ثم إنَّ الأَرَمَةَ^(١) أكلت عصاه ففزعَ سليمانُ قسِيمَ الشياطين عندئذ أنه مات ، فرجعوا إلى أعمالهم الخبيثة ، واغلكَ عنهم ما كانوا عليه من التسخير ؛ وهكذا اللَّكُ الذي يقوم مُلكُهُ بغيره ، ويكون استنساكه بصا . فإنه إذا سَقَطَ سَقَطَ بسقوطه ، ومن قام بغيره زال بزواله .

قوله جل ذكره : « قد كان لبناً في مَنكَبهم آيةٌ
جَنَّتَانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُّوا مِنْ
رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكروا له بلدةً طيبةً
وربٌّ غفورٌ » .

كانوا في رَغَدٍ من التَّيَشِّ وسلامة الحال ورفلته ، فأبروا بالصبر على العافية والشكر على النعمة ، وهذا أمرٌ سهلٌ يسيرٌ ، ولكنهم أَعْرَضُوا عن الوفاق ، وكفروا بالنعمة ، وَضَمُّوا الشكر ، فَبَدَّلُوا وَيَدَّلَ بهم الحال ، كما قالوا :

تبدلت وتبدلنا بأحسرةٍ لَئِنْ ابْنَى عِمْرَانٌ لِبْنَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ الْعَرَمِ
وَيَدَّلْنَاهُمْ بِمَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ
خَطِيرٍ وَأَنْهَى وِشْيَ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ » .

كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال ، واتصال من التوفيق ، وطَرَبٍ من القلب ، ومساءلةٍ من الوقت ، فيرتكبُ زَلَّةً أو يسىء أدباً أو يتبع شهوةً ، ولا يعرف قَدَرَ ما هو به ، فيتضرع عليه الحال ؛ فلا وقتَ ولا حالَ ، ولا طَرَبَ ولا وصالَ ؛ يُظَلِّمُ عليه النهارُ وقد كانت لياليه مضيئةً ، كما قلنا^(٢) :

(١) الأرمه = دودة تأكل الخشب .

(٢) هكذا في ولكنها في ص : كما قالوا .

ما زلت أختال في زمانٍ وحالٍ حتى أمنتُ الزمانَ مَكْرَهَ
حالٍ على الصلودِ حتى لم تَبَقْ مما شَهِدَتْ ذَرَّةُ

قوله جل ذكره: «ذلك جزئكم بما كنتم تعملون وما كنتم تنجزون»
إلا السكور».

• وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا
فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير
سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين •

ما عوملوا إلا بما استوجبوا ، ولا سقوا إلا بما تَبَيَّنُوا^(١) ، وما وقصوا إلا في الوَهْدَةِ
التي حَفَرُوا ، وما نُقِلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا !
« وجعلنا بينهم وبين القرى .. » : ما كان من شأنهم إلا التادي في عصياتهم ، والإصرار
على غيهم وطمعيتهم •

« فجعلناهم أحاديثَ ومزقناهم كلَّ مُزَقٍّ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ »
فوقناهم ترفيقاً حتى اعتزهم الناسُ مثلاً مضروباً ؛ يقولون . ذهبوا أبدي سباً ، وتفرقوا أبدي
سباً . وفي قصصهم آياتٌ لكل صَبَّارٍ على العاقبة ، شَكُورٍ على النعمة •

قوله جل ذكره: « ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »
وما كان له عليهم من سلطانٍ إلا
لِتَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِنْ
هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ •

صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه — وإن كان لا يملك لنفسه أمراً ، فإبليسُ مُكَلِّفٌ على أتباعه

(١) تَبَيَّنَ = حَقَّقَ فِي صِلَةٍ •

من الجن والإنس ، وليس به من الإضلال شيء ، ولو أمكنه أن يضُرَّ غيره لأمكنه أن يمسك على الهداية نَفْسَه ، قال تعالى : إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ^(١) .

« وريك على كل شيء حفيظ » : يهتدي من يشاء ويضل من يشاء . ثم أخبر — سبحانه ونعالى — أنه يملكه مفرَّدٌ ، وفي الألوهية مترجَّدٌ ، وعن الأضداد والأنداد متمرِّزٌ ، وأنهم لا يملكون مثقالَ ذَرَّةٍ ، ولا مقياسَ حَبَّةٍ ، وليس منهم نصير ، ولا شريك ولا ظهير ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن اللاتسكَّةَ في السبأ بوصف الحبيبة فزَعُون ، وفي الموقف التي أُنِجْتُمُ الحقُّ وأهْوُون ، لا يفترون عن عبادته ولا يصنون .

ثم قال جل ذكره : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلَاكُمْ لَسَلًى
هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

لم يَقُلْ أحدٌ — مع شريكه — إنه يُجِيلُ في الرزق على أحدٍ غيره ، فكما لا شريك له في الرزق ولا شريك له في الخلق فلا شريك له في استحقاق العبادة والتعظيم .

قوله جل ذكره : « قُلْ لَا تَأْلُونَهَا أَجْرُنَا وَلَا نَسْأَلُ
عَمَّا تَصِلُونَ » قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ
بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ » .

ولا تَأْلُونَهَا أَجْرُنَا ولا نحن نسأل عن إجرامكم . . . ويوم الجمع يحاسب الله كلاً على عمله ، وَيُطَالِبُ كلاً بِشأنه ، لا يؤاخذُ أحداً بصل غيره ، وكلٌّ يُعْطَى كتابه ، وَيُطَلَّبُ الله مِنْ كُلِّ واحدٍ حسابُه .

وقد أجرى الله سُنَّتَهُ بأن يجمع بين عباده ، ثم ياملهم في حال اجتماعهم بنور ما ياملهم في حال افتراقهم . فلاجتماع أثرٌ كبيرٌ في الشريعة ، وللصلاة بالجماعة أثرٌ مخصوص . وقد عاتب الله — سبحانه — الذين يفرقون عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وَمَدَحَ مَنْ لَا يَفْرُقُ إِلَّا مِنْ اسْتِئْذَانٍ .

(١) آية ٦٤ سورة الإسراء .

والشيوخ ينتظرون في الاجتماع زوائد ، ويسقوحن إلى هذه الآية :
« قل يجمع »

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُفْتَخُمُ بِهِ شُرَكَاءَ
كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

كانوا يقولون في تلييتهم : لييك لأشريك لك ، هو لك ، تملكه وما ملك^(١) ، لانيهما كهم
في ضلالتهم . وبعد تحقهم بأنها جسادات لا قته ولا قدر ، ولا تسع ولا تُعمر ، وقت لم
شبهه استحقاقها العبادة ، فلذا طولوا بالهجة لم يذكروا غير أنهم يُقدون أسلافهم ...
وهذا هو الضلال البعيد والفسان لليين .

قوله جل ذكره : « وما أُرسلناك إلا كافة للناس
بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » .

أرسلناك مُؤيداً بالمعجزات ، مُشركاً بجميع الصفات ، سيداً في الأرضين والسماوات ،
ظاهراً لأهل الإيمان ، مستوراً عن بصائر أهل الكفران — وإن كنت ظاهراً لهم
من حيث البیان ، قال تعالى : « وتراهم ينتظرون إليك وهم لا يصرون »^(٢)

قوله جل ذكره : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم
صادقين • قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ ،
لا تتأخرون عنه ساعة ولا تستظمنون »

لكنة ما يقولون هذا كرهه الله في كتابه خيراً عنهم ، والجواب إن لكم ميعاد يوم ،
وفي هذا اليلاد لا تتأخرون ساعة ولا تستظمنون .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لن تؤمن بهنا

(١) وردت الطلية مضطربة الكتابة وقد صححتها طبعة لما جاء في الخبر لابن حبيب .

(٢) آية ١٩٨ سورة الأعراف .

القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى
إذ الظالمون موقوفون عند ربهم
يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول
الذين استضعفوا للذين استكبروا
لولا آتكم لكنا مؤمنين .

لو رأيتم يومذاك رأيتَ منظراً عظيماً ؛ يرجعُ بعضهم إلى بعض القول ، ويُحيل
بعضهم على بعض الجرم ؛ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : أنتم أضللتمونا ،
وَيُنكِرُ الذين استكبروا ويقولون : بل أنتم اتبعتمونا . . . ومعكنا أصحابُ الزلاتِ
الأخلاء في القساد ، قال تعالى : « بعضهم لبعض عدو » (١) .

وكذلك الجوارحُ والأعضاءُ غداً يشهد بعضها على بعض ؛ فاليدُ تقول للجملة أخذت ،
والعين تقول أبصرت ، والاختلاف في الجملة عقوبة ، ومن عمل بالعامي أخرج الله عليه كل
من هو أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك ، ولو علموا لاعتبروا ، ولو اعتبروا لتابوا
ووقفوا .. ولكن ليفض اللهُ أمراً كان مفعولاً .

قوله جل ذكره : « وما أرسلنا في قريةٍ من نذير إلا قال
مُترفعوا إنا بما أرسلتم به كافرون »

أى قالوا رُسُلُنا بالكذب ، وصبر رُسُلُنا . . . وماذا على هؤلاء الكفار لو آمنوا بهم ؟
فهم لنجاتهم أرسلوا ، ولصالحهم دَعَوْا ولبَنَوْا ، ولو واقفون لهدوا . . . ولكن أنفاساً
سبقت ، وأحكاماً حَتَّ ، والله غالبٌ على أمره .

« وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً
وما نحن بمُعَذِّبين » .

ليس هذا بكثرة الأموال والأولاد ، وإنما هي بصائرُ مفتوحةٌ قوم ، وأخرى
مسدودةٌ قوم .

(١) آية ٦٧ سورة الفرقان .

قوله جل ذكره : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتي
تُحرِّبكم عندنا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ
صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا
عَمِلُوا وَهُمْ فِي التَّرَفُّاتِ أَمْنُونَ » .

لا نستعقِّ الزُّلْفَى عند الله ؛ بلال والأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة والأحوال الصافية
والأغناس الزاكية ، بل بالنابة الساجدة ، والمداينة اللائقة ، والرعاية الصادقة ، فأولئك لهم جزاء
الضعف : يضاعف على ما كان لِيَنْتَ قَدَمُهُمْ مِنَ الْأَمْرِ « وَهُمْ فِي التَّرَفُّاتِ أَمْنُونَ » مِنْ
تَكْدِيرِ الصَّفْوَةِ وَالْإِخْرَاجِ مِنَ الْجَنَّةِ .

قوله جل ذكره : « والذين يسعون في آياتنا معاجزين
أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُعَذَّرُونَ » .

هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقَّ الله في السرِّ ، فهم في عذاب الاعراض
على أولياء الله ، وعذاب الوقوع بشؤْمِ ذلك في ارتكاب عارمِ الله ، ثم في عذاب
الستوط من عين الله .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ مَا أَقْتَضِ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُحِيطٌ بِهِ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » .

مَنْ الْخَلْفَ فِي الدُّنْيَا الرِّضَا بِالذَّمِّ وَالْقَدَرِ ، وَهُوَ آتَمٌ مِنَ السُّرُورِ بِالْوُجُودِ^(١) ؛ وَمَنْ
ذَلِكَ الْأَنْسُ بِاللَّهِ فِي الْخَلُوءِ ؛ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ التَّجَرُّدِ .

قوله جل ذكره : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة
أهؤلاء إلیكم كانوا یبیدون » .

قَوْمٌ كَانُوا يَبِيدُونَ الْمَلَائِكَةَ فَيُخْتَبَرُهُمْ عَنْهُمْ ؛ فَيَتَبَرَّأُونَ مِنْهُمْ وَيُزَيِّهُونَ اللَّهَ وَيُسَبِّحُونَهُ ،

(١) استعمل القشيري هنا كلمة (الموجود) بالميم وكان المقروض حسب السياق أن يستعمل (الوجود) ، وهما
يتأيد رأينا في هامش سابق أن من التغير قصر اصطلاح (الوجود) على الوجود الحق .

فيفتح هؤلاء - والافضاح عند السؤال من شديد العقوبة ، وفي بعض الأخبار :
 أَنَّ غَدًا مَن يَنَالِمَ الْحَقَّ فَيَقَعْ عَلَيْهِم مِّنَ الْجِبِلِّ مَا يَمْجِلُهُمْ يَقُولُونَ : عَذَّبْنَا رَبَّنَا بِمَا شِئْتُمْ
 مِن أَلْوَانِ الْعُقُوبَةِ وَلَا تَذْبِنَا بِهَذَا السُّؤَالَ ١

قوله جل ذكره : « فاليوم لا يملكُ بضعكم لبعض
 ضمًّا ولا ضَرًّا وحول للذين ظلموا
 فوقوا عذابَ النار التي كنتم بها
 تكذبون » .

الإشارة في هذا أَنَّ مَن علق قلبه بالأغيار ؛ وغلن صلاح حاله بالاحتيال (١) ؛
 والاستماعة بالأمثال والأشكال ينزع الله الرحمة من قلوبهم ؛ ويتركهم ، ويشوش
 أحوالهم ، فلا لهم من الأمثال والأشكال مودة . ولا لهم من عقولهم في أمورهم استبصار ،
 ولا إلى الله رجوع ، وإنَّ رجعوا لا يرحمهم ولا يجيبهم ، ويقول لهم : فوقوا وبالَ
 ما به استرجعتم هذه العقوبة .

قوله جل ذكره : « وإذا قلنَ عليهم آياتنا بينات قلوا
 ما هذا إلا رجلٌ يريد أن يصدكم عما
 كان يبدآ بآبائكم وقالوا ما هذا إلا إلهك
 مُفترى وقال الذين كفروا للحقِّ لنا
 جاسم إنَّ هذا إلا سحر مبين » .

الحكام ، والأولياء - الذين هم الأئمة في هذه الطريقة - إذا دلّوا الناس على الله .
 قال بعض إخوان السوء - مثل بعض للتصحيين من أهل الغفلة وأبناء الدنيا (٢) لمريد :
 ما هذا ؟ من الذي يطيق كل هذا ؟ ربما لا تُتَمُّم الطريق !
 لا بُدَّ من الدنيا ما دُمْتُ تعيش ! . . . وأمثال ذلك ، حتَّى يميل هذا المسكين عند قبول
 النصيح ، وربما كان له هذا من خواطره الدنية . . . فيهلك ويضلّ .

(١) الاحتيال هنا معناه الاعتماد على جهده الإنساني ، وتفريغ الروح فيه دون التصويل على فضل الله ومعه ،
 فالواجب إسقاط التدبير والاعتماد على التدبير .
 (٢) يشبههم القشيري في موضع آخر من كتابه هوذا الجاهلين قبيل القتال .

قوله جل ذكره : « وما آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا
وما أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » .

الإشارة من هنا إلى أهل الفتنه ؛ يارضون أصحاب القلوب فيما يجرى من الأمور ، بما
تشوش إليهم غموسهم ، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقتضى تفرقة قلوبهم — على قياس
ما يقع لهم — من غير استناد إلى إلهام ، أو اعتماد على تقدير من الله وإفهام .

وأهل الحقائق — الذين هم لسن الوقت — إذا ظفروا شيئاً أو أطلقوا حديثاً ، فوطئوا
بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم ؛ لأن الذي يحكم عن القراءة أو عن الإلهام ، أو كان مستنطقاً
فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أنوارهم ^(١) . وأصحاب الفتنه ليس لهم إيمان بذلك ، فإذا
سمعوا شيئاً منه عارضوه فيه لكونه ضليل ، هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا ، ثم الأهم ^(٢)
تجيب أولئك .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكم بواحدة أَنْ تَهْتَمُوا
قُلُوبُكُمْ وَفُرَادَى تُمْ تَصْغُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ
مِنْ جَنْفٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ
عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

يقول : إذا سؤلتكم لكم أنصركم تكذيب الرسول فأنصروا النظر . . هل تزوّج فيه
آثار ما رعبته به ؟ هذا محمد صلى الله عليه وسلم . . فُلْتُمْ إِيَّاهُ سحر — فأين آثار السحر

(١) انظر ص ٢٧٨ من المجلد الثاني من هذا الكتاب .

وقد يظن أن هذا على ملن فيما يصدر عن المعارف من أنوار وأحوال ، والواقع أن مرد حيز المعارف عن إقامة
الحجة إلى أن ما يتثال عليه من كسوفات ليس من تقديره أو احتجائه ، ولا نتيجة مهارته أو ذكائه . . وإلا كان
مطلوباً منه أن يسوق حجة أو يقدم برهاناً . . إنما هي أنوار إلهية تنجس في حاله الباطن . . وليست تجربة الإيمان
الانزالي إلا نموذجاً للمعارف التي تهل من العلوم العقلية قسراً عظيمياً ، ولكن ذلك لم يلهه سورة قلبه ، ولم يقنه إلى
الراحة والسكينة . . حتى يقين الله له في علوم القلوب ما شفه وكفاه (انظر الصفحات الأولى من : «الفتنة من القلوب»
للإمام الغزالي) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (الأنام) ونحن نرجح (الأيام) على سني أن السحر كقولهم بوضع الحقيقة —
وإن غلبت زمناً .

على أحواله وأفعاله وأقواله ؟ قل إن شاعر — فن أى قسم من أقسام الشعر كلامه ؟ قل إن
مجنون — فأى جنون ظهر منه ؟

ولقد قد عجزتم عن ذلك . . . فهلا عرّفتم أنه صادق ؟

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ بِالْحَقِّ عِلَامٌ

التيوب » .

يقذف بالحق على باطل أهل الثقة فتزول حيلهم ، ويظهر عجزهم . ويقذف بالحق على
أحوال أهل الضلال فيضلل اجتراحهم ، ويحق بهم شؤم مصابيحهم .

ويقذف بالحق — إذا حضر أصطب الماني — على ظلمات أصطب العاوى فيضيد
ثأرتهم ، ويضعهم في الحلال ، ويضع عوارهم .

قوله جل ذكره : « قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلُ

وَمَا يُبَدِّلُ » .

الباطل على تمر الأيام لا يزيد إلا زهوفا ، والحق على تمر الأيام لا يزداد إلا قوة
وظهورا .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي

وَإِنِّي أَعْتَدْتُ قَبِيحًا يُوحِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ

سَمِيعٌ قَرِيبٌ » .

إِنْ كُنْتُ مُتَّبِعًا فَيَرَى لا يجهدى . وَإِنْ كُنْتُ عِنْدَكُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ فَيَبَالُ ضَلَالِي
عَائِدًا عَلَى ، وَلَنْ يَضُرَّكُمْ ذَلِكَ . فَانظُرُوا أَنْتُمْ إِلَى أَنْفُسِكُمْ . . أَيْنَ وَهْتُمْ ؟ وَأَيُّ ضَرَرٍ يَمُودُ
عَلَيْكُمْ لَوْ أَطْعَمْتُونِي ؟ لَأَقِ الْحِلَّ نَحْسَرُونَ ، وَلَأَقِ أَنْفُسَكُمْ تَحْسَبُونَ ، وَلَأَقِ جَاهَكُمْ تَقْصُونَ .
وَمَا أَخْبِرْكُمْ بِهِ عَنْ نَفْسِ أَنْفُسِكُمْ بِالْفُرُورَةِ^(١) أَنْتُمْ تَقْلُونَ ! فَالَكُمْ لَا تُبَيِّرُونَ ؟
وَلَا لِأَنْفُسِكُمْ تَنْظُرُونَ ؟

(١) أى لا جدال فى أنكم تجهلون لا تطع ولا تغبر ولا تسطيع أن تطلع منها مكروما ، فهو لا تلتق بآله
ولا تلتبس .

قوله جل ذكره: «ولو ترى إذ أقروا فلا قوتَ ولا أخذوا

من مكانزِ قريب» .

أى لورأيتَ ذلك رأيتَ منظرًا فظيماً، وأمرًا عظيماً؛ إنا أخذهم بيد الإهمال فليس إلا الاستئصال.

« وقالوا آمنا به وأنتى لم التلوشُ من

مكانزِ بيد» .

إذا تابوا — وقد أغلقتِ الأبواب ، وعموا — وقد تطلعتِ الأسباب . . فليس

إلا الحسرات والتدم ، ولات حين ندامة !

كذلك من استهان بفضائل فقرته ، ولم يستيقن من عقلته يتجاوز عنه مرة ، ويُغنى عنه
كرامة ، فلما استمكنت منه القسوة وتجاوزَ سواه الأدبَ حدَّ التفتة ، وزاد على مقدار
الكثرة^(١) . . يحصل له من الحقِّ ردٌّ ، ويستبده حجاب ، وبعد ذلك لا يُسمع له دعاء ،
ولا يُرسم له بكاء ، كما قيل :

فَقَلَّ سَبِيلَ المَبِينِ بِسَدِّكَ لِلْبَكَاِ فليس لألهم الصفاء رجوعُ

قوله جل ذكره: «وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما

فُيِّلَ بأشياعهم مِن قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا فِي

شَكٍّ مُرِيبٍ» .

التوبة يشتهونها في آخر الأمر وقد فلت الوقت ، وانغمسُ يريد إرضاءه فيستحي أن يذكر
في ذلك الوقت ، وينسئُ لانه ويقتل ؛ فلا يمكنه أن يُفصحَ بما في قلبه ، ويبرئُ أن لو كان بينه
وبين ما أسلفه بُعدٌ بعيد ، ويمنى أن يُلجِعَ فلا تساعد القوة ، ويمنى أن يكون له — قبل
خروجه من الدنيا — نفسٌ . . ثم لا يتفق .

(١) في رأى التشبىرى : التلافة — آخره حد التلافة ، وأول حد الكثرة — .

سُورَةُ فَاطِر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة معانيها يرجب رَوْحاً لمن كان يشاهد الإحسان ، ويوجب تَوْحاً لمن كان يوصف البيان ؛ فالرَّوْحُ من وجود الإحسان ، واللَّوْحُ من شهود السلطان ، وكلُّ مُصِيب ، ولكلُّ من الحق نصيب .

قوله جل ذكره : « الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل للملائكة رسلاً أولى أجنحة... »

استعنى اللوح والثناء على افراده ^(١) بالقدرة على خلق السموات والأرض .

« جاعل للملائكة رسلاً أولى أجنحة متنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء » : تَعَرَّفَ إلى العباد بأفعاله ، وتَدَبَّهَم إلى الاعتبار بها ، فمنها ما نعلم منه ذلك معانيه كالسموات والأرض وغيرها ، ومنها ما سبيلُ الإيمان به الخيرُ والنقلُ — لا بدليل العقل — والملائكة من ذلك ؛ فلا تصحق كيفية صورهم وأجنتهم ، وكيف يطهرون بأجنتهم الثلاثة أو الأربعة ، ولكن على الجملة فليعلم كمال قدرته ، وصدق كليمته .

قوله : « يزيد في الخلق ما يشاء » : قيل الخلقُ الحسنُ ، وقيل الصوتُ الحسنُ ، وقيل الصوتُ الحسنُ وقيل مَلَاةُ المئينين ، وقيل السكينة في الخير ^(٢) ، وقيل الفصاحة في اللسان ، وقيل اللهم عن الله ، ويقال السخاء والجود ، ويقال الرضا بالتقدير ، ويقال علو الهمة ، ويقال التواضع ، ويقال ألغة عند الفقر ، ويقال الظرف في الشئال ، ويقال أن تكون محبوباً إلى القلوب ، ويقال خفة الروح ، ويقال سلامة الصدر من الشرور ، ويقال المعرفة بالله بلا تأمل

(١) هكذا في م . وهو في س (إرشاد) .

(٢) اسم من الاعتبار .

برهان^(١) ، وقال الشوق إلى الله ، وقال الصلِّف على انقلبي بجلهم ، وقال تحمرو القلوب من ريق الحدائق بجملة ، وقال ألا يَطْلُبُ نفس منزلة في العارفين^(٢) .

قوله جل ذكره : « ما جنح الله الناس من رحمة فلا تمسك لها وما يمسك فلا تمزيل له من بئره وهو العزيز الحكيم » .

التوسُّع عليه رزقه لا يضيُّ عليه غيره الله ، والمحروم لا توسُّع عليه غيره الله .

وقال : ما يلج في قلوب العارفين من أنوار التحقيق لاسحاب يستره ، ولا ضياء يفهره .

وقال : ما يلزم قلوب أوليائه من اليقين فلا تمزيل له ، وما يفتق على قلوب الأعداء من أبواب الله كذا فلا فاتح له غيره — سبحانه .

وقال الذي يقره بقلوب أوليائه وأحوالهم من التفسير فلا تمسك له ، والذي يمنه عن أعدائه — بما يلقبهم فيه من انغلاق الأمور واستصاهاها — فلا يُبسَّر له من دونه .

قوله جل ذكره : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنقذوا أنفسكم » .

من ذكر النعمة فصاحب عبادة ، ونازل زيادة ، ومن ذكر التوسيم فصاحب إرادة ، ونازل زيادة .. ولكن فرق بين زيادة وزيادة ؛ ذلك زيادته في العارفين عطائه ، وهذا زيادته لقائه : اليوم سيراً بغير من حيث المشاهدة ، وغداً جهراً بجهنم من حيث المأينة .

والنعمه على قسبين^(٣) : ما دفع عنه من اليمين ، وما نفع به من اليمين ؛ فذكره لما دفع عنه يوجب دوام النعمة ، وذكره لما نفع به يوجب تمام النعمة .

(١) من اختاره الله لمصرته لا يتركه يمشي في الأداة والبراهين به اجتاز به مرحلة قلبية المصحة بالمثل . بل يملك أسرته من هذه القيود ليطلق في رحلة السرطان بالقلب ، ثم الروح ، ثم الفكر ، ثم عيب السر .
(٢) يرى التزخيري أن الآية مطلقة فتناول كل زيادة في الخلق وميزة فيه .. ونحن أمور لا يحيط بها وصف .
(٣) مرة أخرى يعود التزخيري إلى ذكر نعم الله ، ونعم الله . وروايت أن الذكر والفكر لازم من كل الدوام .. فلهذا المقصد الذي يطرح إليه التزخيري .

« حل من خالق غير الله... » وعاثه هذا التعريف أنه إذا عرّف أنه لا رازق غيره لم يُلْقَ قلبه بأحد في طلب شيء ، ولم يندلج في ارتفاق لخلق ، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من شيء أيضاً ؛ فيتعلم من ظلمات تدبيره واحتياجه ^(١) ، ومن توهم شيء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تدبيره ، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتقويضه .

قوله جل ذكره : « وَلَئِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِلَّهِ اللَّهُ نُزْجُ الْأُمُورِ » .

هذه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتسهيل للصبر عليه ؛ فلذا علم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثلاً استقبله ، وأنهم صبروا وأن الله كانهم ، فهو بسلوك سبيلهم ويتلقى بهم ، وكما كانهم علم أنه أيضاً يكتبه . وفي هذا إشارة للسكاه وأرباب القلوب في موقعهم من السواء والأجانب عن هذه الطريقة ، فليهم لا يقبلون منهم إلا التليل ، بينما أهل الحقائق أبدأ منهم في مقابلة الأذى إلا بسفر حالم عنهم ^(٢) .

والسواء أقرب إلى هذه الطريقة من القراء ^(٣) المتصفين ، ومن العلماء الذين هم لهذه الأصول يتكرونها .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ »

(١) قالوا رب إسقاط التصوير وشهود التقدير - كما قلنا في الحاشية من قليل .
(٢) لما علمانية نيسابور إلى هذا السر ، تركوا يعلم الله بأسرارهم وصلاح باطنهم ، ولم يأجروا بالخلقين . بل رغبة في تأكيد علاقتهم بالله ، وإيماناً في إخفاء حقائقهم كانوا يقومون بأشياء تستوجب الملامة ... نقول ذلك رغبة في توضيح أن أفكار هذا المذهب كانت معروفة في مدينة نيسابور موطن القشيري ، كما كان السلسي جد أبي عبد الرحمن صديقه الحميم والسلف من رواد هذا المذهب وأئمة .
(٣) القراء جماعة من قراء القرآن ظهوراً منذ عهد مبكر (ولازموا الأصناف في القيل يمينيون ، حتى إذا جاء التباين استقوا الماء واحتلبوا القبي وكانوا في صحبته (ابن سعد ٢٤ ص ٣٦ ، ٣٧) ، ولكن النقطة أطلقت فيما بعد بسفة عامة حل (الذين يزورون عن الدنيا ويضعون أنفسهم للعمل الصالح والزهد والتأمل) ابن سعد ٢٤ ص ٢٥٥ . (ويقال تقرأ بتسهيل الحزنة أي تفكك) (أماله قتال ٢٠ ص ٤٧) .. ولقد نبه عبر بن الخطاب إلى ضرورة تضييق هذا القرن من التباعد من كل الأغراض والأمراسر حيث يقول : «يا أيها الناس إنه أقي حل حين وأنا أحسب أنه من قراء القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وقد خيل إلى أن أغراضاً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الله ، ألا فأريدوا الله بقراءكم وبأعمالكم» البيان للشيخين ٢٠ ص ١٣٨ . ولكن يبدو أن الزمن قد فضلنا في خروج طوائف من القراء عن هذا الخط ... الأمر الذي جعل القشيري - وقد عاش في القرنين الرابع والخامس - يحتفظ في الحكم عليهم .

فَلَا تَقْرَبُكُمُ الْحَيَاءُ الدُّنْيَا وَلَا يَتَرَكُمُ
بِاللهِ التَّوَرُّور .

وَعَدَ اللهُ حَقًّا فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ أَنَّهُ يَكُونُ ، فَوَعْدُهُ فِي التَّيَمُّنَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِنَسَائِلِ أَطَاعَةِ
بِكِتَابَةِ الْأُمُورِ وَالسَّلَامَةِ حَقٌّ ، وَوَعْدُهُ لِلْعَاطِلِينَ فِي الْآخِرَةِ بِوُجُودِ الْكَرَامَةِ حَقٌّ ، وَلِلْمُتَصَنِّعِينَ
بِالنَّدَامَةِ حَقٌّ ، فَلِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ ذَلِكَ اسْتَعَدَّ لِلْمَوْتِ ، وَلَمْ يَهَمَّ بِالرِّزْقِ ، فَيَكْفِيهِ اللهُ شُغْلَهُ ،
فَيَنْشَطُ الْعَبْدُ فِي اسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ تَهَيُّنًا لِلْوَعْدِ ، وَلَا يُدِيمُ بِالْخَالَاتِ خَوْفًا مِنَ الْوَعْدِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ

عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ

أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

عِدَاوَةُ الشَّيْطَانِ بِدَوَامِ مَخَالَفَتِهِ ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَمْلُوكُهُ بِالتَّوَلُّوْا وَلَكِنْ يُوَافِقُهُ بِالتَّامُّلِ ،
وَلَنْ تَقْوَى عَلَى عِدَاوَتِهِ إِلَّا بِدَوَامِ الاسْتِغْنَاءَةِ بِالرَّبِّ ، وَتِلْكَ الاسْتِغْنَاءَةُ تَكُونُ بِصَدَقِ
الاسْتِغْنَاءَةِ . وَالشَّيْطَانُ لَا يَقْرَبُ عِدَاوَتَكَ ، فَلَا تَنْفَلُ أَنْتَ عَنْ مَوْلَاكَ لِحُظَّةٍ فَيَبْزُزُ لَكَ عَدُوُّكَ ؛
فَإِنَّهُ أَبَدًا مُتَمَكِّنٌ لَكَ .

« إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ » وَحِزْبُهُ هُمُ الْمُضَرِّضُونَ عَنْ اللهِ ، لِلشُّكْلِ بِنَيْرِ اللهِ ، الْمَافِقُونَ عَنْ
لِلَّهِ . وَدَلِيلُ هَذَا الْخَطَابِ : إِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوَّكُمْ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، وَأَنَا وَلِيُّكُمْ
وَحَيِّكُمْ فَأَحْبِبُونِي وَارْضَوْا بِي حَيًّا .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَحِلُّوا الصَّلَاتِ لَهُمْ

مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ مُّجَلٌّ وَعَذَابٌ مُّؤَلَّجٌ ، فَمُّجَلُّهُ تَفَرُّقُ قُلُوبِهِمْ وَانْسَادُ بَصَائِرِهِمْ
وَوَقَاحَةُ حَيْثُ هُمْ حَتَّى أَهْمُ يَرْضُونَ بِأَنْ يَكُونَ النَّصْمُ مُبْهَوِّدًا . وَأَمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فَهُوَ مَا لَا تَحْفَى
عَلَى سَلَمٍ — عَلَى الْجَلَّةِ — صَوْبُهُ .

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ مَغْفِرَةٌ أَيْ سَتْرٌ لَدُنُوهُمْ الْيَوْمَ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَا تَضَعُوا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا .

« وأجر كبير » : والأجرُ الكبيرُ اليومُ سهولةُ العبادةِ ودوامُ المعرفة ، وما يناله في القلب من زوائد البين وخصائص الأحوال . وفي الآخرة : تحقيقُ السُّؤلِ ونيلُ ما فوق المأمول . قوله جل ذكره : « أَفَمَنْ زُينَ لَهُ سُوهُ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ

حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ » .

معنى الآية : أفن زين له سوء عمله فرآه حسنًا كمن ليس كذلك ؟ لا يستويان ! ومعنى « زين له سوء عمله » أن الكافرَ يَتَوَكَّمُ أَنَّ عملهَ حَسَنٌ ، قال تعالى : « وَمِنْ مَحْشُونٍ أَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ صَنَعًا »^(١) .

ثم الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها ، ويمحش^(٢) حطامها ، ولا يفكر في زوالها ، ولا في ارتعاعها قبل كمالها ؛ فقد زين له سوء عمله (والذي يتبع شهواته ويبيع مؤيد راحاته في الجنة بساعةٍ فقد زين له سوء عمله^(٣)) . وإن الذي يُؤْتِرُ على ربِّه شيئًا من المخلوقات فهو من جهلهم . والذي يتوَكَّمُ أنه إذا وَجَدَ نجاته ودرجاته في الجنة — وأن هذا يكفيه ... قد زُينَ له سوء عمله حيث يتنازل عن حلاوة النجاة . والذي هو في محبة حظوظه ولا يُؤْتِرُ حقوقَ الله فقد زين له سوء عمله فرآه حسنًا .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ » : يعني إذا عَرَفْتَ حقَّ^(٤) التقدير ، وَعَلِمْتَ أَنَّهُمْ سَقَطُوا مِنْ عَيْنِ اللَّهِ ، وَدَعَوْهُمْ جَهْرًا ، وَبَذَلْتَ لَهُمْ نُصْحًا ، فَاسْتَجَابَهُمْ لَيْسَتْ لَكَ ، فَلَا تَجِبَلْ عَلَى قَلْبِكَ مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةٌ وَلَا عَنَاءٌ .

(١) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٢) سوش المال ونحوه = جمعه وادخره (الوسيط) .

(٣) ما بين أقوسين موجود في م وغير موجود في س .

(٤) حكما في م وحي في س (سر) التقدير .

قوله جل ذكره: «وَأَنَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَخِثْرُ

سَحَابًا فَفَتَنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا

بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْتُثْوِرُ»

أجرى سُنَّتَهُ بأنه يُظهِرُ فَضْلَهُ فِي إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بِالتَّرْجِيحِ ؛ فَأَوَّلًا يَرْسِلُ الرِّيحَ ثُمَّ يَأْتِي
بِالسَّحَابِ ، ثُمَّ يُوَجِّهُ ذَلِكَ السَّحَابَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَرِيدُ لَهُ تَخْصِيصًا كَيْفَ يَشَاءُ ، وَيُعْطِرُ
هَنَّاكَ كَيْفَ يَشَاءُ . كَذَلِكَ إِذَا أَرَادَ إِحْيَاءَ قَلْبٍ عَمِلَ بِمَا يَتَّقِي وَيُنْزِلُ عَلَيْهِ مِنْ أَمْطَارِ عَنَانِهِ ،
فَيُرْسِلُ أَوَّلًا رِيَّاحَ الرِّجَاءِ ، وَرِزْجَ بَهَا كَوَامِنَ الْإِرَادَةِ ، ثُمَّ يَنْشِئُ فِيهَا سَحْبَ الْإِهْتِيَاجِ ، وَلَوْعَةَ
الْإِزْجَاعِ ، ثُمَّ يَجُودُ بِمَطَرٍ يُنْبِتُ فِي الْقَلْبِ أَزْهَارَ الْبَسْطِ ، وَأَنْوَارَ^(١) الرُّوحِ ، فَيُطِيبُ لِصَاحِبِهِ
التَّعْيِشَ إِلَى أَنْ تَمَّ لَطَائِفُ الْأَنْفُسِ .

قوله جل ذكره: «مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْغِزَّةَ فَلَهُ الْغِزَّةُ

جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْدُقُ السَّكِيمُ الطَّيِّبُ وَالْمَلُومُ

الصَّالِحُ يَرْشُهُ وَالَّذِينَ يَسْكُرُونَ

السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ

أُولَئِكَ هُمُ الْيَبُورُ»

مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْغِزَّةَ بِنَفْسِهِ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ الْغِزَّةَ يَحْمِلُهَا اللَّهُ ، فَلَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ شَيْءٌ مِنَ الْغِزَّةِ .
وَيَقَالُ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْغِزَّةَ لِنَفْسِهِ فَلَهُ الْغِزَّةُ جَمِيعًا ، أَيْ فَلْيَطْلُبْهَا مِنْ اللَّهِ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى أُثْبِتَ
الْغِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَقَالَ هَاهُنَا « فَلَهُ الْغِزَّةُ جَمِيعًا » ؛ وَوَجَّهَ الْجَمْعُ بَيْنَهَا أَنْ عَزَّ
الرَّبُّوِيَّةَ لِلَّهِ وَصَفًا ، وَعَزَّ الرُّسُولَ ، وَعَزَّ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَلِهَا . إِذَا الْغِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا .
وَعَزَّ سَبْعَانَهُ — قُدْرَتُهُ . أَوْ يَقَالُ الرِّزْزُ هُوَ التَّاهِرُ الَّذِي لَا يَقْهَرُ ؛ فَيَكُونُ مِنْ صِفَاتِ فَضْلِهِ
عَلَى أَوَّلِ التَّقْوِينَ . . . وَمِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ . وَيَقَالُ الرِّزْزُ هُوَ الَّذِي لَا يُوَسَّلُ إِلَيْهِ
مِنْ قَوْلِهِمْ : أَرْضُ عَزَّازٍ إِذَا لَمْ تَسْقُرْ عَلَيْهَا الْأَنْفُسُ ، فَيَرْجِعُ مَعْنَاهُ إِلَى جَلَالِ سُلْطَانِهِ .

وَيَقَالُ الرِّزْزُ الَّذِي لَا يَمِثَّلُ لَهُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ : عَزَّ الطَّامِرُ فِي الْيَدِ ، فَيَرْجِعُ إِلَى اسْتِحْقَاقِهِ لَصِفَاتِ
الْجَلْدِ وَالْمَلُومِ .

(١) أنوار هنا جميع نورة وهي الزهرة البيضاء .

قوله : « إله يصعد الكلم الطيب » : الكلم الطيب هو الصادر عن عقيدة طيبة —
يعنى الشهادتين — عن إخلاص . وأراد به صعود قبول ، لأن حقيقة الصعود فى اللغة بمعنى
الخروج — ولا يجوز فى صفة الكلام^(١) .

« والعمل الصالح يرفعه » : أى يقبله . ويقال العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . ويقال
الكلم الطيب ما يكون موافقاً لسنة ، ويقال هو ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف . ويقال
هو نطق القلب بالثناء على ما يستوجبه الرب . ويقال هو ما يكون دعاء المسلمين . ويقال
ما يتجرد حقاً للحق ولا يكون فيه حظ للعبد . ويقال ما هو مستخرج من العبد وهو فيه
مفقود^(٢) . ويقال هو بيان التتمل وكلة الاستفاد .

ويقال العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويقال الذى ليس فيه آفة ولا يعلب عليه مؤمن
قوله جل ذكره : « والذين يَسْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ
يَبُورٌ » .

أى يقبل عليهم مكرم ؛ فما يتوهمونه من خير لم يقبله محنة عليهم . ويقال : تخليته
إياهم ومكرم^(٣) — مع قدرته على عصمتهم ، وكونه لا يصممهم هى عذابهم الشديد .

قوله جل ذكره : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
نُفُثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أَنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ
مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِى
كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

ذَكَرْهُمْ نِسْبَتَهُمْ لئَلَّا يُعْجَبُوا بِحَالَتِهِمْ ، ثم إن ما يتخذ من الطين سريع التغير ، قليل

(١) لأن الخروج يقتضى عللاً .. والألوحية تنزه عنه .

(٢) أى ما يصدر من العبد وهو مأخوذ من مطب من نفسه — من المارفات .

(٣) نسبتاً الرأى (ومكرم) لتكون مفعولاً به فهكذا تفهم السياق .

القوة في الشك، لكنه يقبل الانحياز بالماء إذ تنعير به طينه ؛ فلذا جاد الحق عليه بماء الجود أحاده بعد انكساره بالذنوب ^(١) .

ولذا كان لا يمتنع عليه — سبحانه — شيء من أحوالهم في ابتداء خلقهم ، فمن يُبَالِ أن يخلق من طين أنه يعمى فلا يبالي، أن يغير لمن رآه يعمى ^(٢) .

فيه جل ذكره : « وما يستوى البحران هذا عذبٌ

فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ

وَمِنْ كُلِّ تَاكُونٍ لَحْمًا طَرِيًّا

تُخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرُ تَتَبَضُّوا مِنْ قَبْلِهِ

وَلَسَّكُمْ تَشْكُرُونَ »

لا تستوى الحالتان : هذه إقبال على الله ، واشتغال بطلعته ، واستقلال بمرفته . . وهذه إعراض عن الله ، وانقباض عن عبادته ، واعراض — على الله — في قسوته وقبضته . هذه سبب وصالة ، وهذه سبب هجره وانصاله ، وفي كل واحدة من الحالتين يعيش أهلها ، ويرزق أصحابها وقتها . ولا يستوى الوقتان : هذا بسط وصاحبه في رَوْح ، وهذا قبض وصاحبه في نَوْح . هذا خوف وصاحبه في اجتياح ، وهذا رجاء وصاحبه في ارتياح . هذا فرق وصاحبه بوصف العبودية ، وهذا جمع وصاحبه في شهود الربوبية .

« ومن كل تاكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » : كذلك كل يقترب في حالته لربه ؛ ويتزعم على بابه ، وهو حليته التي بها يتحلّى من طرب أو حرب ، من شرف أو نذل .

(١) عرض القشيري فيما سبق هذه النقطة عندما يتحدث عن خلق آدم وإبليس ، وكيف أن ماء التوبة جبر آدم حين أظهر الماء فاجتبه به وتاب عليه ، وكيف أن الماء أخطأ نارا إبليس فأنظره إلى يوم يحرقن ؛ ليدل القشيري بذلك على أن الذين أفضل من النار ، وأن إبليس أخطأ في دعوى انفصلته عن آدم .

(٢) أى أن مصيبة العبد من العبد صلا — وفي هذا إثبات لحرية الإنسان واختياره — وإن كانت من الله علماً ... وهو من قبل ومن بعد خافر اللذات وقابل الثوب .

قوله جل ذكره: «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْعٍ» .

تَلْبُ النَّفْسُ مَرَّةً عَلَى الْقَلْبِ ، وَيَلْبُ الْقَلْبُ مَرَّةً عَلَى النَّفْسِ . وكذلك القَبْضُ والبَسْطُ قد يترويان ، ومَرَّةً يَلْبُ الْقَبْضُ عَلَى الْبَسْطِ ، ومَرَّةً يَلْبُ الْبَسْطُ عَلَى الْقَبْضِ ، وكذلك الصَّحْوُ والشُّكْرُ ، وكذلك الْفَنَاءُ والْبَقَاءُ .

وَسَخَّرَ شَمْسَ التَّوْحِيدِ وَأَقَارَ الْمَعْرِقَةِ عَلَى مَا يَرِيدُ مِنْ إظهارِهِ عَلَى الْقُلُوبِ .

«ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ» : فَأَرْوِي شَطِيقَةَ مِنَ النَّفْيِ أَوْ الْإِثْبَاتِ لِمَا تَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ! وَإِذْ لَمْ يُسَكِّنْكُمْ ذَلِكَ .. فَهَلَّا أَفْرَزْتُمْ ، وَفِي عِبَادَتِهِ أَخْلَصْتُمْ ، وَعَنِ الْأَصْنَامِ تَبَرَّأْتُمْ ؟ .

قوله جل ذكره: «إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يُكَلِّمُكَ مِثْلُ خَيْرٍ» .

إِنْ اسْتَعْنَيْتُمْ بِأَصْنَامِكُمْ لَا يُعِينُوكُمْ ، وَإِنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا — عَلَى جِهَةِ ضَرْبِ الْمَثَلِ — لَا يَسْتَجِيبُونَ لَكُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ نَفْعَ أَغْنِيَهُمْ .. فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ نَفْعَ غَيْرِهِمْ ؟ !

«وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ» : لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَلَكِنْ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ بَعْدَ زَوَالِ التَّكْلِيفِ .

قوله جل ذكره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْتَمُوا الْقُرْآنَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» .

الْقُرْآنُ عَلَى ضَرِيحَيْنِ : قَرِ الْخَلْقَةِ وَقَرِ الصِّفَةِ ؛ فَأَمَّا قَرِ الْخَلْقَةِ فَهُوَ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ ؛ فَكُلُّ مَنْ خَلُقَ مَقْتَرٌ إِلَى خَالِقِهِ ، فَهُوَ قَدْ حَصَلَ مِنَ الْمَدَمِّ ، فَهُوَ مَقْتَرٌ إِلَيْهِ لِيُغْنِيَهُ وَيُنْشِيَهُ ، ثُمَّ بَعْدَ

ذلك مقترن - في حال بقائه إليه - لِدَيْمِهِ وَهِيهِ . فَاَللهُ - سبحانه - غنيٌ ، والبدُّ صير ؛
البدُّ صيرٌ بَيْنَهُ وَاللهُ غنيٌ بَيْنَهُ (١) .

وأما قَر الصفة فهو التجرُّد ؛ فَمَقَرُّ العوامِ التجرُّدُ من المال ، وقَر الخواصِ التجرد من
الأعلالِ لِيَسْلَمَ لهم القَر .

والقَر على أقسام : قَر إلى الله ، وقَر إلى شيء هو من الله ؛ معلوم أو مرسوم وغير ذلك .
وَمَنْ افقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء ؛ فالتقيرُ إلى الله هو التقى بالله ، والاقتار
إلى الله لا يخلو من الاستثناء بالله ، فالتقيرُ إلى الله مُسْتَنَنْ بالله ، والمستغنى بالله مُفْتَقِرٌ
إلى الله (٢) .

ومن شرف القَر اقتراءه بالتواضع والخضوع ، ومن آفات التقى امتزاجه بالتكبر .
وشرَّفَ العبد في قَره ، وكذلك ذُهِبَ في تَوَهُّمِهِ أَنَّهُ غنيٌ -

وَإِذَا تَذَلَّلْتَ الرَّقَابُ قَرَّ بِكَ مِنَّا إِلَيْكَ فَمِرْهَا فِي دُلْمَا (٣)

ومن القَر المذموم ، أَن يَسْتَرْ الحقَّ على صاحبه مواضع قَره إلى ربه ، ومن القَر المحمود
أَن يُشْهِدَ الحقَّ مواضع قَره إليه .

ومن شرط التقير الخلق لا يملك شيئاً ويملك كلَّ شيء .

ويقال : التقير الصادق الذي لا يملكه شيء (٤) .

ومن آداب التقير الصادق إظهارُ التَّشْكُرِ عند كَلِّ التَّكْسُرِ . ومن آداب القَر كمال
المعنى وزوال الدعوى . ويقال الشكر على البلوى والبعد عن الشكوى .

(١) أي : أن العبد - كلمات مستقلة - تقير ؛ لأنه مخلوق يحتاج إلى خالقه ، والحق - كلمات مستقلة -
فهي ؛ لأنه خالق فهو في غير حاجة إلى مخلوقه .

(٢) من أقوال الجنيد في هذا الصدد وقد مثل من الاقتدار إلى الله : لم هو أم أم الاستثناء بالله قال : إذا صح
الاقتدار إلى الله فقد صح الاستثناء بالله ، وإذا صح الاستثناء بالله كل التقى به ؛ فلا يقال أحبا أم ؛ لأنها حالتان
لا تتم إحداهما إلا بالأخرى (الرسالة ص ١٣٥) .

(٣) من أقوالهم في هذا الصدد : لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من عز لآلئنا عليه .

(٤) أي لا يكون أسيراً لغرض أو لغرض ، فكله آلة لله تعالى وليس .

وحقيقة التتر المحمود تجرّد السرّ عن الملوّلات وإفراد القلب بالله .
ويقال : التتر المحمود التّيسُّر مع الله براحة التّراخ على سرّمد الوقت من غير استكراه شيء
منه بكلّ وجّه .

قوله : « والله هو النّبيّ الحيد » : الإشارة منه أن يُعطى حقّ يُحمّد .
ويقال النّبيّ إذا أظهر غناه لأحدٍ فلنّا للفاخرة أو للكثرة — وجِلّ قدرُ الحقّ عن
ذلك — وإمّا ليجود ويفضّل على أحدٍ .

ويقال : لا يقول لنا أتمّ التّقاء للإزراء بنا — فإنّ كرمه بتقدّس عن ذلك — وإمّا
لتصوّر أنه إذا قال : والله النّبيّ ، وأتمّ التّقاء أنه يجود علينا .

ويقال إذا لم تدع ما هو صفته — من استحقاق النّبيّ — أولاك ما يُفنيك ، وأعطاك
فوق ما يكتفيك .

قوله جلّ ذكره : « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ
• وما ذلك على الله بعزيز • »

عرّفك أنه غنى عنك ، وأشهدك موضع قترك إليه ، وأنه لا بدّ لك منه ، فإلّا قصد من
هذا إلّا إرادته لإكرامك وإيوائك في كنف إقامته .

قوله جلّ ذكره : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى • »

كلّ مُطالِبٍ بهله ، وكلّ محاسبٍ عن ديوانه ، ولكلّ مه شأن ، وله مع كلّ أحدٍ
شأن . ومن العبادات ما تجرى فيه النيابة ولكن في المعارف لا تجرى النيابة ؛ فلو أن عبداً
عاصياً منهمكاً في غوايته فاتته صلاة مفروضة ، فلو قضى عنه ألف وليّ وألف صبيّ تلك الصلاة
الواحدة عن كل ركعة ألف ركعة لم يقبل منه إلّا أن يحجّ هو : معاذ الله أن نأخذ إلاّ بمنّ
وجدنا متاعنا عنده ! فتباك لا تجرى مع غيرك ، والخطاب الذي ملك لا يسمعه غيرك :

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ يَدَكَ لِغَيْرِكَ

• إِمَّا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

بِالنَّبِيِّ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى

فَمَا يَزَكِّي لِنَفْسِهِ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرَ .

الإنتظار هو الإعلام بموضع الخاتمة ، والخشية هي الخاتمة ؛ فمضى الآية ، لا يمنع التخوف إلاَّ مَنْ صَاحَبَ الْخَوْفَ — وطيرُ السماء على أشكلها تقع .

قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير »

ولا الظلمات ولا النور • ولا الظلُّ

ولا السرور • وما يستوى الأحياء

ولا الأموات إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ

وما أنت بِسَمِيعٍ مِّنَ الْغُيُوبِ .

كما لا يستوى الأعمى والبصير لا تستوى النملات والنور ، ولا يستوى الظلُّ والحرور ، ولا الأحياء والأموات .. وكذلك لا يستوى الموصول بنا والشمس عتاً ، والمجنوبُ إلينا ، والمحبوبُ عتاً ، ولا يستوى مصطفينا في الأزل ومن أشقينا بمحكم الأزل ، ولا يستوى من أشهداه حقنا ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا :

أحيانا شتان : وافر ونافضٌ ولا يستوى قطُّ محبٍّ وبغضٍ

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .

أى وما من أمةٍ من كانوا من قبلك إلاَّ بشنا فيهم نذيراً ، وفى وقتك أرسلناك إلى جميع الأمم كافة بالحق .

« بَشِيرًا وَنَذِيرًا » : تضمنت الآية بيان أنه لم يخل زماناً ولا قومًا من شرع .

وفى وقته صلى الله عليه وسلم أفرد بأن أرسله إلى كافة الخلائق ، ثم قال على جهة التسلية والتعزية له :

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَبِالْزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » .

أى لو فابك بالكذب فذلك سَنَتُهُمْ مع كل نبي ، وإن أَمَرُوا على سَنَتِهِمْ فى النى
فلن نَعِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا فى الانتقام والخرى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ

الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا

وَعَرَابٍ سَوَّادٌ » .

يَبِّنُ فى هذه الآية وأمنالها أن تخصيص القل بهيثاته وألوانه من أطة قصد القائل وبرهانه ،
وفى إقائ القل وإحكامه شهادة على عِلْمِ الصانع وإعلامه .

وكذلك أيضاً « من الناس والذواب والأنام » : بل جميع المخلوقات متجانس الأعيان
مختلف ، وهو دليل قهوت مُشْهِبًا بنعت الجلال .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْمُسْلِمُونَ » .

« إِنَّمَا » كلمة تحقيق تجرى من وجد مجرى التعديد أى التخصيص والقصر ، فَنَ قَدَّ الْمِلْمُ
بالله فلا خشية له من الله .

والفرق بين الخشية والرهبة أَنَّ الرهبة خوفٌ يوجبُ هَرَبَ صاحبه فيجرى فى هربه ،
والخشية إذا حصلت كَبَحَتْ جاحَ صاحبها فيبقى مع الله ، قلعت الخشية على الرهبة فى
الجهة^(١) .

والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : « وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »^(٢) فالخشية قضية العلم ،
والهبة توجب المعرفة .

(١) يفيد هذا الكلام فى التفرقة بينهما عند بحث المصطلح الصوفى .

(٢) آية ١٧٥ سورة آل عمران .

ويقال خشية العلماء من قصيرهم في أداء حقه . ويقال من استحيائهم من اضلاع الحق .
ويقال حذرًا من أن يحصل لهم سوء أدب وترك احترام ، وانسياط في غير وقته بإطلاق
لفظ ، أو ترك خصم يترك الأولى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا مَا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تَجَارَةً لَّنْ نَّبُورَ » .

الذين يستغفرون جميع أوقاتهم قيامهم بذكر الله وبحقه ، وإتيائهم بأنواع العبادات وصنوف
التقرب فلهم القدر الأجل من التقريب ، والتصيب الأوفر من الترحيب . وأما الذين أجروا لهم
بالضد فمنازلهم على المكس . أولئك هم الأولياء الأعزّة ، وهؤلاء هم الأعداء الأذلة .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ
بِمَا وَهَّيْتُمْ لَبِيبٌ ذَكِيٌّ » .

ما عرفناك — من اختيارنا لك وتخصيصنا إليك ، وتديننا لك على الكفاية — فلي
ما أخبرناك ، وأخبرناك :
لا أبغى بدلاً سواك خليفة فثقي بقول والكرام ثقات

قوله جل ذكره : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا
مِنْ عِبَادِنَا فَنُفِضْنَاهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ مِنْ مُّقْتَصِدِينَ
وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْغِيَاثِ يُبَيِّنُ اللَّهُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

« أَوْرَثْنَا : أى أعطينا الكتاب — أى القرآن — الذين اصطفينا من عبادنا ، ودكر
الإعطاء بقض الإثرت توشحاً .

« اصطفينا : أى اخترنا . ثم ذكر أفضلهم ، وفي الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه
السلام : « أمقى وربّ الكعبة » ثلاث مرات .

وفي الآية وجوه من الإشارة : فمنها أنه لما ذكر هذا بلفظ الميراث فالإراث يقتضى صحة النسب على وجه مخصوص ، فمن لا سبب له فلا نسب له ، ولا ميراث له .

ومحل النسب ما هنا للفرقة ، ومحل السبب الطاعة . وإن قيل محل النسب فضله ، ومحل السبب فضلك^(١) . فهو وجه . ويصح أن يقال محل النسب اختياره لك بدءاً ومحل السبب إحسانه لك تالياً .

ويقال أهل النسب على أقسام : — الأقوى ، والأدنى كذلك في الاستحقاق .

ويقال جميع وجوه الثلث لا بدّ فيها من فعل للمبد كالبيع ، أمّا ما يُنتك بالهبة فلا يحصل إلا بالقبول والتمتعة ، ولا يحصل الاستحقاق إلا بالحضور والمجاهدة وغير ذلك : والوصية لا تُستحق إلا بالقبول ، وفي الزكاة لا بدّ من قبول أهل الشَّهْمَانِ ، والميراث لا يكون فيه شيء من جهة الوارث وفضله ، والنسب ليس من جهة أصله .

ويقال للميراث يُستحقّ بوجهين : بالفرض والتصيب ، والتمصيب أقوى من الفرض ؛ لأنه قد يستحق به جميع المال ، ثم الميراث يبدأ بنوى الفروض ثم ما يبقى فظلمة^(٢) .

« فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله » : نسكوا في الظالم ، فمنهم من قال هو الأفضل ، وأرادوا به من ظلم نفسه لكثرة ما حمله من الطاعة .

والأكثرون : إن السابق هو الأفضل ، وقالوا : التقديم في الذكر لا يتخفى التقديم في الرتبة ، ولهذا ظائر كثيرة^(٣) .

ويقال قرّن باسم الظالم قرينة وهي قوله : « لنفسه » ، وقرن باسم السابق قرينة وهي قوله :

(١) قالناب ومبي والفعل كسي . كما أن الفرقة وحية والطاعة كسبة وإن كان الصوفي يرون أن الكسب والاجتلاب والتصرف والتكلف كلها لا تتم إلا بفعل من الله (أنظر شرح المكي لأبيات رابعة المبدوة : « أحببت حين ... » في توث القلوب » . وهذا المعنى واضح هنا أيضاً في تفسير القشيري .

(٢) العصب واحدة العصب ، وعصبة للرجل (في الفرائض) من ليست له فريضة مبياة في الميراث ، وإما يأخذ ما أين ذود الفروض . أنظر رأي القشيري في تفصيل التصيب على الفرض (المجلد الأول من هذا الكتاب ص ٣٧) .

(٣) على نحو ما يذكره البلاغيون في ذكر الخاص به العام .

« ياذن الله » ؛ فالظالمُ كانت له زَلَّةٌ ، والسابقُ كانت له صولةٌ ، فالظالمُ رَفَعَ زَلَّتَهُ بقوله :
لنفسه ، والسابقُ كَسَّرَ صَوْلَتَهُ بقوله : ياذن الله .

كَأَنَّهُ قَالَ : يا ظالمُ ارفعْ رأسَكَ ، وظَلَمْتَ ولكن على نفسك ، وبالسابقِ اخضعْ ^(١) رأسَكَ ؛
سَبَقَتْ — ولكن ياذن الله .

وَيَقَالُ إِنَّ الْمَرْزُوقَ إِذَا رَأَى ظَالِمًا قَصَصَهُ ، وَالكَرِيمَ إِذَا رَأَى مَظْلُومًا أَخَذَ يَدَهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ :
يا ظالمُ ، إِنْ كَانَ كَوْنُكَ ظَالِمًا يُوجِبُ قَهْرَكَ ، فَكَوْنُكَ مَظْلُومًا يُوجِبُ الْأَخْذَ بِكَ ^(٢) .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ غَلَبَتْ زَلَاتُهُ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ اسْتَوَتْ حَالَاتُهُ ، وَالسَّابِقُ مَنْ زَادَتْ
حَسَنَاتُهُ .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ زَهَدَ فِي دُنْيَاهُ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ رَغِبَ فِي عَقْبَاهُ ، وَالسَّابِقُ مَنْ آثَرَ عَلَى
الْبَارِينَ مَوْلَاهُ .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ نَجَّمَ كَوَكَبُ عَقْلِهِ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ مَلَّحَ بَدْرُ عِلْمِهِ ، وَالسَّابِقُ مَنْ
ذَرَّتْ ^(٣) شَمْسُ مَعْرِفَتِهِ .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ حَلَبَهُ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ وَجَدَهُ ، وَالسَّابِقُ مَنْ بَقِيَ مَعَهُ .
وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ تَرَكَ الْمَصِيئَةَ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ تَرَكَ الْفَعْلَةَ ، وَالسَّابِقُ مَنْ تَرَكَ الْعِلَاقَةَ ^(٤) .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ جَادَ بِمَالِهِ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ لَمْ يَخْلُ بِنَفْسِهِ ، وَالسَّابِقُ مَنْ جَادَ بِرُوحِهِ .
وَيَقَالُ الظَّالِمُ مَنْ لَمْ يَلَمْ الْيَقِينُ ، وَالْمُقْتَصِدُ مَنْ لَمْ يَعِنِ الْيَقِينُ ، وَالسَّابِقُ مَنْ لَمْ يَحِقِ الْيَقِينُ .

وَيَقَالُ الظَّالِمُ صَاحِبُ الْمَوَدَّةِ ، وَالْمُقْتَصِدُ صَاحِبُ الْخَلَّةِ ، وَالسَّابِقُ صَاحِبُ الْحَبَّةِ .
وَيَقَالُ الظَّالِمُ يَتْرَكَ الْحَرَامَ ، وَالْمُقْتَصِدُ يَتْرَكَ الشُّبْهَةَ ، وَالسَّابِقُ يَتْرَكَ الْفَضْلَ ^(٥) فِي الْجُمْلَةِ .

(١) وردت في ص (إسفل) والبيان يتطلب (إخفار) وأك ما سبقت إليه ليس إلا ياذن الله .
(٢) قَالِيَةُ كَرَمِ الْمَوْلَى سَبَحَاتُهُ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الظَّالِمِ عَلَى أَنَّهُ مَظْلُومٌ ؛ مَظْلُومٌ مَنْ قَبِلَ نَفْسَهُ إِلَى دَعَاةِ أَنْ يَنْظُرَ
غَيْرَهُ وَلَمْ يَسْرِ إِلَيْهَا غَايَةَ الْكَرَمِ كَمَا يَتَصَوَّرُهَا هَذَا الصُّوْقُ الْجَلِيلُ .
(٣) ذَرَّتْ الشَّمْسُ ذُرُوءَ أَيَّ ظَهَرَتْ أَوَّلُ شُرُوقِهَا (المرسوم) .
(٤) أَيُّ الْعِلَاقَةِ بِالْفَنَاءِ وَالنَّفْسِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا .
(٥) الْفَضْلُ هُنَا مَعْنَاهُ مَا زَادَ مِنَ الْحَاجَةِ الْقَرُورِيَّةِ انْتِفَاءُ الْحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ ، يَقُولُ سَهْلُ التَّسْتَرِيِّ : « إِذَا
كَانَ الْحُلُولُ فِي التَّحْقِينِ هُوَ مَا لَا يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ فَإِنَّ الْحُلُولَ عِنْدَ الصَّرْحِ مَا لَا يُنْتَهَى اللَّهُ فِيهِ » .

ويقال النظامُ صاحبُ سقاء ، والمتصدُّ صاحبُ جود ، والسابقُ صاحبُ إشار^(١) .
ويقال النظامُ صاحبُ رجاء ، والمتصدُّ صاحبُ بَسط ، والسابقُ صاحبُ أنس .
ويقال النظامُ صاحبُ خوف ، والمتصدُّ صاحبُ خشية ، والسابقُ صاحبُ هية .
ويقال النظامُ له المغفرة ، والمتصدُّ له الرحمة والرضوان ، والسابقُ له القرية والحجة .
ويقال النظامُ صاحبُ الدنيا ، والمتصدُّ طالبُ المعنى ، والسابقُ طالبُ المولى .
ويقال النظامُ طالبُ النجاة ، والمتصدُّ طالبُ الدرجات ، والسابقُ صاحبُ المناجاة .
ويقال النظامُ أَمِنَ من العقوبة ، والمتصدُّ فازَ بالمثوبة ، والسابقُ متحققٌ بالقرية .
ويقال النظامُ مضروبٌ بسوطِ الحرصِ ، مقتولٌ بسيفِ الرغبة ، مضطجعٌ على بابِ الحسرة .
والمتصدُّ مضروبٌ بسوطِ الندامة ، مقتولٌ بسيفِ الأسف ، مضطجعٌ على بابِ الجود .
والسابقُ مضروبٌ بسوطِ التواجد ، مقتولٌ بسيفِ الحجة ، مُضْطَجِعٌ على بابِ الاشتياق .
ويقال النظامُ صاحبُ التوكل ، والمتصدُّ صاحبُ التسليم ، والسابقُ صاحبُ التفويض .
ويقال النظامُ صاحبُ تواجد ، والمتصدُّ صاحبُ وَجْد ، والسابقُ صاحبُ وجود .
ويقال النظامُ صاحبُ المحاضرة ، والمتصدُّ صاحبُ المكاشفة ، والسابقُ صاحبُ المشاهدة .
ويقال النظامُ يراه في الآخرة بمقدارِ أيامِ الدنيا في كلِّ جمعة مرة ، والمتصدُّ يراه في كلِّ يوم مرة ، والسابقُ غيرُ محبوبٍ عنه أَلَبَّة .
ويقال النظامُ مجنوبٌ إلى نَفْسِهِ الذي هو فضله ، والمتصدُّ مكاشفٌ بوصفه الذي هو عِزُّهُ ،
والسابقُ المستهكُّ في حَقِّهِ الذي هو وُجُودُهُ .
قوله : « ذلك هو الفضل الكبير » لأنه ذكر النظام مع السابق^(٢) .
قوله جل ذكره : « جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا

(١) يفيد هذا التقسيم في بحث لغوي من ترتيب : السقاء والجود والإشارة .
(٢) أعجب الفرقلي بمنهج السوفية في تفسير النظام والمتصدُّ والسابق على هذا النحو فأورد طائفة كبيرة من أمثاله استغرقت نحو صفحة ونصف الصفحة (١٤٣ ص ٣٤٨) .

من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم
فيها حرير .

نبّه على أن دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضل ، وليس في الفضل تمييز .

قوله جل ذكره : « وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا
الحزن إِنْ رَبَّنَا لنفوز شكور » .

تمتعوا بمقائق الرضا ، والحزن سعى حزناً ملزماً^(١) الوقت على صاحبه وليس في الجنة
حزونة وإنما هو رضا واستبشار .

ويقال ذلك الحزن حزن خوف العاقبة . ويقال هو دوام المراجعة خشية أن يحصل سوء
الأدب . ويقال هو سياسة النفس .

« إِنْ رَبَّنَا لنفوز » للمصاة ، « شكور » للطيعين . قدّم ما للعاصين رفقا بهم لضعف
أحوالهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « الذي أحلنا دار الثمارة من فضله
لا يسئنا فيها نصّب ولا يسئنا فيها
لنؤب » .

« دار الثمارة » : أى دار الإقامة ، لا يبنون عنها حولا ، ولا يمتنون منها خروجاً .

« لا يسئنا فيها نصّب ولا يسئنا فيها لنؤب » : إذا أرادوا أن يروا^(٣) مولاهم لا يحتاجون
إلى قطع مسافة ، بل في غرفهم يقفون فيها تحية وسلاماً ، فإذا رأوه لم يحتاجوا إلى قلب حديق
أو تحديق مقلّة في جهة^(٤) ؛ يروّته كما هم بلا كيفية .

قوله جل ذكره : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يخفون

(١) حزن المكان حزنة أى حزن أى عشن وغلظ ، وحزن الرجل افتم .

(٢) يتجمل هنا ما يتضح به هذا الصق من نزعة الأمل وفتح الباب أمام المصاة .

(٣) يضاف هذا الرأى إلى موضوع رؤية الله في الآخرة كما يتصوره القشيري .

(٤) هكذا في م وهي في م (وجهة) وكلامها صحيح إذ المقصود تنزيهه من يروّته - سبحانه - عن التثنية
بالمكانية .. جلّت المصلحة عن التثنية بحمل .

عليهم فيبرتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها
كذلك نيزى كل كَفُور .

لا حياة يَشْمُقُونَ بها ، ولا موت يَسْتَرْجِحُونَ به ، وهم مقيمون في المذاب والحجاب ، لا يفتَر
عنهم المذاب ، ولا تَرْفَعُ عنهم العقوبة .

« وهم يَصْطَرِحُونَ فيها رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ
نَعْمَرْكُمْ مَا يَذْكُرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمْ
النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » .

يقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، فيقال لهم أَو لَمْ نَعْمَرْكُمْ ... ؟
أَمَّا جَاءَكُمْ النَّذِيرُ قِيلَ أَنْ تَبْلُغُوا زَمَانَ اللَّشِيبِ ؟
ويقال : أَلَمْ تَسْتَوْفُوا مَدَّةَ الْإِسْهَالِ فِي النَّظَرِ ؟

« وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ » : الرسل ، ويقال ضف الشيخوخة ، ويُقال سقوط السن ، ويقال قَمُوسُ الظُّهُورِ .
قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ »
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى عَالِمٌ بِإِخْلَاصِ الْمُخْلِصِينَ ، وَصِدْقِ الصَّادِقِينَ ، وَضَلَالِ الْمُنَاقِقِينَ ، وَجَحْدِ الْكَافِرِينَ .
عَالِمٌ بِمَنْ يَرِيدُ بِاللَّسِيبِ السُّوءِ وَيَمْنَعُ بِمَنْ يَحْسِنُ بِالْفَقْرِ الظَّنَّ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَافًا فِي الْأَرْضِ »
فَمَنْ كَفَرَ لِعَلِيهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ،
وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا .

أهلُ كُلِّ عَصْرِ خَلِيفٌ عَنْ قَدَمِهِمْ ؛ فَمِنْ قَوْمٍ هُمْ لِيَكْفِيَهُمْ حَسَالُ^(١) ، وَمِنْ قَوْمٍ هُمْ أَرَادُوا
وَأَنْزَالُ ؛ فَالْأَفْضَلُ زَمَانُهُمْ لَمْ يَحْتَعْ ، وَالْأَرَادِلُ هُمْ زَمَانُهُمْ مَحْتَعْ . وَقَدْ قَالُوا :

(١) الحمال = مائة أو القرامة يحسبها قوم عن قوم (الوسيلة) .

يَوْمَ وَحَسَبُ الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِهِ حَيًّا غَدًا وَالتَّقَتِ الْأُمُ

قوله جل ذكره: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ

آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ

بَلْ إِنْ يَسِدُّ الظُّلُمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا

إِلَّا غُرُورًا » .

كَوَزَ إِشْبَاهَهُمْ عَجَزَ أَصْنَامِهِمْ ، وَنَقَضَ مَنْ أَخَذَهُمْ آلِهَةٌ مِنْ أَوْثَانِهِمْ ؛ لَيْسَتْهُ بِنِزَالِ

أَرَءَاهُمْ ، وَلِيُذَكِّرَهُمْ إِلَى ذَمِّمْ أَحْوَالِهِمْ وَأَضَالِهِمْ ، وَخِشْيَةِ هَمِيمٍ ، وَتَهْضَانِ عَقُولِهِمْ .

ثم أخبر أنهم لا يأتون بشيء مما به يُطْلَقُونَ ، وليس لهم صواب عما يُسْأَلُونَ .

قوله جل ذكره: « إِنْ اللَّهُ يُنْزِلُ السَّمَاءَ الْوَرِثَ

أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْكُهُمَا مِنْ

أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنْهَ كَانَ حَالِيَا غُرُورًا » .

أَمْكُهُمَا بِقُدْرَتِهِ ، وَأَضَالَهُمَا بِحِكْمَتِهِ ، وَرَبَّنَّهُمَا بِمُشِيَّتِهِ . وَخَلَقَ أَمْلَهُمَا عَلَى مَوْجِبِ قَضِيَّتِهِ ،

فَلَا شَيْءَ فِي إِقْبَالِهِمَا وَإِفْئَالِهِمَا يُسَاهِمُهُ ، وَلَا شَرِيكَ فِي وَجُودِهِمَا وَظَاهِمِهِمَا يُقَاتِمُهُ .

قوله جل ذكره: « وَأَقْسَمُوا بِالْقَهْرِ جَهْدَ أَيْتَانِهِمْ لَئِنْ

جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيْسَ كُونُ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى

الْأَمْسَرِ فَلَنَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ

إِلَّا تَفُورًا * اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

وَمَكَرُوا السَّيِّئَ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئَ

إِلَّا بِأَهْلِهِ ... » .

لَيْسَ قَوْلُهُمْ تَحْقِيقٌ ، وَلَا لِيَهْتَدِيَهُمْ وَضَاهَهُمْ تَرْثِيٌّ ، وَمَا يَسْتَدِينُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَصَرِيحٌ

زُورٌ ، وَمَا يُؤْمِنُونَ مِنْ وَهْلِهِمْ قَصِيرٌ قَصِيرٌ . . . وَكَذَلِكَ الْمُرِيدُ فِي أَوَانِ نَشَاطِهِ تُمْنَتُهُ قَسَمُهُ

تضاهي أمام مَنْ هَدَّمَهُ حَالاً بَاتَهُ عَامِدُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ أَكَّدَ عَقْدَهُ مَعَ اللَّهِ . . . فَلِذَا عَصَّتُهُ شَهْوَتُهُ ،
وَأَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَكْذِبَهُ صَرَغَتُهُ بِكَيْدِهِ ، وَأَرْكَسَهُ فِي هَوَا غِيَّهِ ، وَمُنَيَّرَ نَفْسَهُ ؛ فَيَسْرُدُ وَجْهَهُ ،
وَتَقْهَبُ عِنْدَ اللَّهِ وَجَاعَتُهُ (١) .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُخْزِيَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا » .

في الجملة ما خاب له ولي ، وما ربح له عدو ، ولا ينال الحقيقة مَنْ انكسر قَصْدُهُ ، بل
يرتدُّ عليه كَيْدُهُ ؛ وهو سبحانه يَدْرُسُ عَلَى أَعْدَائِهِ تَعْمِيراً ، وَيُوسِعُ لِأَوْلِيَائِهِ فَضْلاً كَبِيراً .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا
مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرٍهَا مِنْ دَابَّةٍ
وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَلِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ وَلِنَّ اللَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا » .

لَوْ عَجَّلَ لَهُمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَمْ تَقَفِ أَعْمَارُهُمُ الْقَلِيلَةُ بِهِ ، وَمَا انْتَمَتْ
أَيَّامُهُمُ الْقَصِيرَةُ لَهُ ، فَأَخَّرَ ذَلِكَ لِيَوْمِ الْحَشْرِ . . . فَإِنَّهُ طَوِيلٌ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ،
وَبِأَمْرِهِ حَيَلُهُ خَيْرٌ بِصِيرٍ .

(١) حَكَاهُ فِي مَوْحِي فِي ص (مَدَّ وَجْهَهُ) إِلَى حَيَاةٍ ، وَهِيَ أَكْرَفُ مَا جَاءَ فِي مِثْلِهَا مِنَ السِّيَاقِ .

سورة يس

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »
 « بسم الله » آية افتتح بها خطابه ؛ فمن علمها أجزل ثوابه ، ومن عرفها أكثر إيمانه ،
 ومن أكثر قدرها أكثر مآبه .

قوله جل ذكره « يس » والقرآن الحكيم
 يقال معناه : يا سيد . وقال : الياء تشير إلى يوم اللقي ، والسين تشير إلى سيره مع
 الأحباب ؛ يقال بحق يوم اللقي وسيرى مع الأحباب ، والقرآن الحكيم : —

« إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » على صراطٍ مستقيم
 أى إنا لك — يا محمد لمن المرسلين ، وإنا لك لعل صراطٍ مستقيم .
 « نَزِيلَ الْوَيْزِ الرَّحِيمِ »

أى هذا الكتاب تنزيل (الويز) : التكبير الفنى عن طاعة اللطيفين ، (الرحيم) :
 المتفضل على عباده للؤمنين .

قوله جل ذكره : « لِنُنذِرَ قَوْمًا مَا أَنتَ بِأَبْلَاهُمْ فَنُهَم
 غَافِلُونَ » .

أى خصصناك بهذا القرآن ، وأنزلنا عليك هذا القرآن لنُنذِرَ به قوماً حصلوا فى أيام
 الفترة ، واغرض أسلافهم على هذه الصفة .

قوله جل ذكره : « قَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
 فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »

أى حق القول بالقوبة على أكثرهم لأنهم أصرؤا على جحدهم ، وانهمكوا فى جعلهم ،
فالمعلوم منهم والمحكوم عليهم أنهم لا يؤمنون^(١).

قوله جل ذكره : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فىى إلى
الأذقان فهم مقمحون »

سنجرهم إلى هوانهم وصغرهم ، وسنديقهم وبأل أمرهم .

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً
فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

أغرقناهم اليوم فى بحار الضلالة ، وأحطنا بهم سرادقت الجبال . وفى الآخرة سنقرقهم
فى النار والأنكال ، ونضيق عليهم الخلال ، بالسلاسل والأغلال .

« فأغشيناهم » : أعيناهم اليوم عن شهود الحجة ، ونلبس عليهم فى الآخرة سبل
المحجة ، فيمتصرون فى وهكات جهنم داخرين ، ويعتقون فى حرقاتها مهجورين ، مطرودين
ملوئين ، لا تقطع عنهم ما به يذبون^(٢) ، ولا ترحمهم مما منه يتكفون ؛ تماذى بهم
جرمان الكفر ، وأحاطت بهم سرادقت الشقاء ، ووقعت عليهم السة بالقراق .

قوله جل ذكره : « وسواء عليهم أأنذرتهم
أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

مهجور الحق لا يصحله أحد ، ومردود الحق لا يقبله أحد . والذى قصمته المشية
وأقصت القضية لا تصح فيه النصيحة .

(١) أريد أن أنه دائماً لا أن الجبرية حد الفصح لا تتعارض مع الحرية الإنسانية ، فالإنسان حر لها يفعل
ولكن فى دائره ما يحدهه له التقصية السابقة التى ترتبط بالعالم الإلهى السابق للإيجاد والإتياء .. نحن نعلم ما حدثت
ولكن العلم الإلهى يسجل بدءاً كل ما سيحدث .

(٢) من هذا نفهم أن التقدير لا يؤمن بأيدية الجنة وحسب ، بل يؤمن بأيدية النار أيضاً . . هل خلاف جهنم
الذى يرى أن حركاتهم تتناهى ، فهنا ليستا أيديتين - كما قلنا من قبل . وعلى خلاف ابن القيم الذى يرى أيدية
الجنة فقط حيث يستوقفه الاستثناء فى قوله تعالى ولم فيها زفير وشيق . خالدين فيها ما دامت السموات والأرض
إلا ما شاء ربك يقول : إنا نملأها بقطيع (حصى الأرواح ص ٢٦٦ وشفا. الخليل ص ٢٦٢) ولكن يترك
على ابن القيم أن القصد فى الآية هم عصاة المؤمنين وليس الكفار الذين هم - طبقاً لتصور كبير - يخاللون
فيها أبداً ولا يمحون ولياً ولا نصيراً .

« إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ »

أى إِنَّمَا يَنْتَفِعُ بِإِنذَارِكَ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ؛ فَلَنْ يُنذَرَكَ — وإن كان عالماً فى الكلِّ^١
ولكلِّ — فَلَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى غَيْبِهِمْ يُعْرَوْنَ .. أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وإن كانوا
لا يعلمون فُبَشِّرْهُمَ مَا يَنْتَفِعُونَ . أمَّا الَّذِينَ آمَنُوا الذِّكْرَ ، وَاسْتَبَصَرُوا ، وَاتَّقَوْا بِالَّذِى سَمِعُوا مِنْكَ ،
وَبِهِ عَمِلُوا — قَدْ اسْتَوْجِبُوا أَنْ تُبَشِّرَهُمْ ؛ فَبَشِّرْهُمْ ، وَأَخْبِرْهُمْ عَلَى وَجْهِ يَظْهَرُ السُّرُورُ
بِمَحْضِهِمْ خَيْرُكَ عَلَيْهِمْ .

« وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » : كَبِيرٍ وَافِرٍ عَلَى أَعْمَالِهِمْ — وَلَنْ كَانَ فِيهَا خَلَلٌ .
قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ » .

نُحْيِي قُلُوبًا مَاتَتْ بِالْقَسْوَةِ بِمَا نُمَظِّرُ عَلَيْهَا مِنْ صَوْنِ الْإِقْبَالِ وَالزَّلَّةِ ، وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا .
« وَآخَرَهُمْ » : خُطَّامُهُمْ إِلَى الْمَسَاجِدِ^(١) ، وَوَقُوفَهُمْ عَلَى بَسَاطَةِ الْمُنَاجَاةِ مِنَّا ، وَتَرْفُوقِ
جَمْعِهِمْ عَلَى عَرَصَاتِ خُدُودِهِمْ ، وَتَصَاعُدِ أَهْلِهِمْ .

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »
أَتَبَيَّنَّا تَفْصِيلَهُ فِي الْوَحْيِ الْمَحْفُوظِ .. لَا لِنَتَّسِقَ لَهَا — وَكَيْفَ وَقَدْ أَحْصَيْنَا كُلَّ شَيْءٍ
عَدًّا ؟ — وَلَكِنَّا أَحْبَبْنَا إِثْبَاتَ آثَارِ أَحِبَّائِنَا فِي الْمَكْتُونِ مِنْ كِتَابِنَا .
قوله جل ذكره : « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ
إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ » .

أَهْرَضَ زَمَانُهُمْ ، وَفَسَدَ أَوَانُهُمْ وَشَأْنُهُمْ ! وَلَكِنَّا تَذَكَّرَ أَحْوَالَهُمْ بَدَ فَوَاتِ أَوْقَاتِهِمْ ،
وَلَا تَرْضَى بِالْأَيِّمْرِ بَيْنَ أَحِبَّائِنَا وَعَلَى أَلْسِنَةِ أَوْلِيَانِنَا ذِكْرُ النَّاتِبِينَ وَالْمَاضِينَ ، وَهَذَا غُلُوقٌ
يَقُولُ فِي صِفَةِ غُلُوقٍ :

(١) قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : كَانَ يَتَوَسَّلُ فِي تِلَاحَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَسْتَقْبَلُوا إِلَى قَرَبِ الْمَسْجِدِ ،
فَأَنزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ ، وَقَالَ لَمْ يَلْبَسْ (س) : هَذَا أَتَاكُمْ تَكْتَبُ فِكْرِي تَنْظُرُونَهُ أَسْبَابَ الْقُرْآنِ الرَّاسِى ص ٢٤٥ .

إِذَا نَسِيَ النَّاسُ إِخْوَانَهُمْ وَنَاقَى السُّودَةَ خِلَانُهَا
فَنَدَى لِإِخْوَانِي الثَّغَابِينَ صَحَافُ ذِكْرِكَ عَنْوَانُهَا

قوله جل ذكره: «قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ
الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَا
مُكَذِّبُونَ» قَالُوا رَبَّنَا يَلُمُ إِيَّاكُمْ
كُفْرَسُكُونَ» .

قال الرسل: «ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون» وليس علمنا إلا بما أُمِرنا به من التبليغ
والإنذار .

«قَالُوا إِنَّا تَطَكَّرْنَا بِكُمْ لَكِن لَمْ نَمْنَحْ
لَكَرْبُكُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ» .

لترجئكم ، ولنصنعن ، ولنفعكن ... فأجابهم الرسل : إنكم لجهلكم ولجحدكم سوف
تلقون ما توعدون .

قوله جل ذكره: «وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى
قال يا قوم اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ» اتبعوا
مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ» .

في القصة أنه جاءه من قرية ضُحَاهَا مدينة ، وقال من أقصى المدينة ، ولم يكن اتصالها وأوطانها
يَتَفَارَقَانَا بكثير ، ولكنه — سبحانه — أجرى سُنَّتَهُ في استكثار القليل من فعله عَلَيْهِ
إِذَا كَانَ رِضَاهُ ، ويستزِرُّ الكثير من فضله إِذَا بَدَّلَهُ وأعطاه .

«اتبعوا من لا يسألكم أجراً ..» فَأَبْلَغَ الوَعْظَ وَصَدَّقَ التَّمْنِيحَ .. ولكن كما قالوا :
وَكَمْ سَنَتْ فِي أَنْتَارِكُمْ مِنْ صَحِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبَنَصَةُ الْمُتَنَصِّحُ
فَلَمَّا صَدَّقَ فِي حَالِهِ ، وَصَبَرَ عَلَى مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَرَجَعَ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَأَمَّا حُسْنُ أَفْضَالِهِ ،
وَأَوَادِهِ إِلَى كَفِّهِ إِقْبَالِهِ ، وَوَجَدَ مَا وَعَدَهُ رَبُّهُ مِنْ لُطْفٍ أَفْضَالِهِ .

« قَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ وَمَا عَصَوْا عَنْهُمْ »

رَبِّي وَجِلِّي مِنَ الشُّكْرِيِّينَ .

تَمَحَّى أَنْ يَمْلِكُ قَوْمُهُ حَالَهُ ، فَصَحَّ اللَّهُ مِنْهُ ، وَأَخِيرَ عَنْ حَالِهِ ، وَأَنْزَلَ بِهِ خَطَابَهُ ، وَعَرَفَتْ قَوْمُهُ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا تَمَحَّى وَأَرَادَ ذَلِكَ إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ ، لِيَمْلِكُوا مِثْلًا عَمَلٍ لِيَجِدُوا مِثْلًا وَجَدَ .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ

مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا

مُنْزِلِينَ » • إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صِيغَةً وَاحِدَةً

فَلَمَّا هُمْ خَالِدُونَ .

مَا كَانَتْ إِلَّا قَضِيَّةً مِثْلًا بِقَوْمِهِمْ ، وَتَثْبِيرًا لِمَا كَانُوا بِهِ مِنَ السَّلَامَةِ إِلَىٰ وَصْفِ الْبِلَاءِ .

قوله جل ذكره : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعَالَمِينَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

إِنْ لَمْ يَتَحَسَّرُوا فِي الْيَوْمِ فَلَهُمْ مَوْضِعٌ التَّحَسَّرُ ؛ وَذَلِكَ لِانْخِرَاطِهِمْ فِي سِلَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ

التَّكْذِيبِ وَمُخَالَفَةِ الرِّسْلِ ، وَمُتَالُفَةِ أَوْلِيَائِهِ — سُبْحَانَهُ . .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ

الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ » • وَإِنْ

كُلُّ لَسَانٍ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْفَرُونَ » .

أَلَمْ يَرَوْا مَا ضَلُّوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا عَلَّمْنَا بِهِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ

أَحَدٌ ، فَكُلُّهُمْ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ ، وَلَمْ يَفُتْنَا أَحَدٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَيْنَا عَوْنٌ وَلَا مَدَدٌ ،

وَلَا عَنْ حُكْمِنَا مُلْصَقٌ

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لِمَنْ الْأَرْضُ الْحَيَّةُ الَّتِي تَأْكُلُ أَجْزِيَئَهَا

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا خَبَأً فَهِيَ تَأْكُلُ مِنْهَا » .

لَمَّا كَانَ أَمْرُ الْبَيْتِ الْأَعْظَمِ شُبُهَيْمٍ ، وَكَثُرَ فِيهِ الْإِنْكَارُ كَمَا كَانَ تَكَرُّرًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ لِحَدِيثِ

البث ، وقد صَرَبَ — سبحانه — المَثَلُ له إحياء الأرض بالنبات في الكثير من الآيات .
 والتَّجَبُّ يَمُنُّ يُسَكِّرُ علومَ الأصول ويقول ليس في الكتاب عليها دليل ١ وكيف يشكل
 ذلك وأكثرا في القرآن من الآيات يحث على سبيل الاستدلال ، وتحكيم أذه العقول (٢) ؟
 ولكن يَهْدِي اللهُ لنوره من يشاء . ولو أنهم أنصفوا من أنفسهم ، واشتغلوا بأهم شيء عندهم
 كما ضيعوا أصول الدين ، ولكنهم رضوا فيها بالتقليد ، وادَّعَوْا في الفروع رتبة الإمامة
 والتصدُّر .. وقال في مناه :

يَا مَنْ تَصَدَّرَ فِي دَسْتِ الْإِمَامَةِ فِي مَسَائِلِ الْفَقْهِ إِمْلَاءً وَتَدْرِيسًا
 غَفَلْتَ عَنْ حُجَجِ التَّوْحِيدِ مُحْكِمًا شِدَّةَ فِرْعَانَ وَمَاهِدَتَ تَأْسِيسًا

قوله جل ذكره : « سبحانه الذي خَلَقَ الأزواجَ كُلَّهَا مِمَّا
 تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا
 لَا يَلْمُونَ » .

نُبِّهَ هذه الآية على التذكُّر في بديع منته ؛ قال : نَزَّيَهَا لِيَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ الْمُتَشَاكِلَةَ
 فِي الْأَجْزَاءِ وَالْأَعْضَاءِ ، مِنَ النَّبَاتِ ، وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمِنْ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي لَا يَلْمُونَ
 تَفْصِيلًا ، كَيْفَ جَعَلَ أَوْصَافَهَا فِي الْعُلُومِ وَالرَّوَاغِ ، فِي الشَّكْلِ وَالْهَيْئَةِ ، فِي اخْتِلَافِ الْأَشْجَارِ
 فِي أَوْدَاقِهَا وَفُنُونِ أَنْصَابِهَا وَجَنُودِهَا وَأَصْنَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَزْجَارِهَا ، وَاخْتِلَافِ أَشْكَالِ ثَمَرِهَا
 فِي تَرْقِيقِهَا وَاجْتِمَاعِهَا ، ثُمَّ مَا نَظَّيْتُ بِهَا مِنَ الْإِنْتِزَاعِ عَلَى مَجْرَى الْمَادَّةِ بِمَا يَسْمِيهِ قَوْمٌ : الْعِلَاقِمْ ؛
 فِي الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ ، وَالرَّطُوبَةِ وَالْيَبُوسَةِ ، وَاخْتِلَافِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي يَخْلُقُهَا اللهُ عَقِيبَ شَرَابِ
 هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ وَتَنَاوُلِ هَذِهِ الْأَطْمَةِ عَلَى مَجْرَى الْمَادَّةِ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي الْأَبْدَانِ . ثُمَّ
 اخْتِلَافِ صُورِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ وَالْأَجْزَاءِ الْبَاطِنَةِ ، فَالْأَوَّلَاتِ مُتَجَانِسَةٍ ، وَالْأُزْمَانِ مُتَمَاثِلَةٍ ،
 وَالْجَوَاهِرِ مُتَشَاكِلَةٍ .. وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ مَخْطُوعَةٌ ، وَلَوْلَا تَخْصِيسُ حُكْمٍ لِكُلِّ شَيْءٍ بِمَا يَخْتَصُّ
 بِهِ لَمْ يَكُنْ تَخْصِيسٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَوَّلَى مِنْهُ . وَإِنَّ مَنْ كَحَلَّ اللهُ عِيُونََ بَصِيرَتِهِ يَمُنُّ بِالتَّصْرِيفِ ،
 وَفَرَنَ أَوْقَاتَهُ بِالتَّوْفِيقِ ، وَأَتَمَّ نَظَرَهُ ، وَلَمْ يَصِدْ مَنْعٌ . فَمَا أَقْوَى فِي الْمَسَائِلِ حُجَّتُهُ ! وَمَا أَوْضَحَ
 فِي السُّلُوكِ نَهْجُهُ ١ .

(١) في هذا رد على من يهتم بالصورية بجفائهم للثقل والعلم .

إِنِّهَا لِأَقْسَامٍ سَبَقَتْ عَلَى مَنْ شَاهَدَ الْحَقُّ بِمَا شَاءَ .

قوله جل ذكره : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ
فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ » .

نُبْطِلُ ضَوْءَ النَّهَارِ بِهَجُومِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ ، وَنَزِيلُ ظُلَامِ اللَّيْلِ بِهَجُومِ النَّهَارِ عَلَيْهِ ، كَذَلِكَ
نَهَارُ الْوُجُودِ يَدْخُلُ عَلَى لَيْلِ الْتَوَقُّفِ ، وَيَقُودُ يَدَ كَرَمِهِ عَصَا مَنْ هَمَّيَ عَنْ سُلُوكِهِ وَشُدِّهِ
فِيهِدِيهِ إِلَى سَوَادِ الطَّرِيقِ .

قوله جل ذكره : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » .

عَلَى تَرْتِيبٍ مَعْلُومٍ لَا يَضَلُّونَ فِي فُصُولِ السَّنَةِ ، وَكُلَّ يَوْمٍ لَهَا مَشْرِقٌ جَدِيدٌ وَلَهَا مَغْرِبٌ
جَدِيدٌ . . . وَكُلَّ هَذَا بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

« وَاقْتَرَفَ قَدَرُ نَهْهِ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ » .

الْإِشَارَةُ مِنْهُ أَنَّ الْعَبْدَ فِي أَوَّلِ الْطَلَبِ رَقِيقُ الْحَالِ ، ضَعِيفٌ ، غَنَصَرُ النَّهْمِ . . . ثُمَّ يُتَّكَّرُ
حَتَّىٰ تَزْدَادَ بَصِيرَتُهُ . . . إِنَّهُ كَالْقَمَرِ يَصِيرُ كَامِلًا ، ثُمَّ يَنْقَاصُ ، وَيَذْنُو مِنَ الشَّمْسِ قَلِيلًا قَلِيلًا ،
وَكُلَّمَا أَزْدَادَ مِنَ الشَّمْسِ دُنُوًّا أَزْدَادَ فِي غَمٍّ هَضَائِكَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ وَيُخْضِقَ وَلَا يُرَى . . .
ثُمَّ يَبْعُدُ عَنِ الشَّمْسِ فَلَا يَزَالُ يَقْبَاعِدُ وَيَقْبَاعِدُ حَتَّىٰ يَمُودَ بَدْرًا — مَنْ أَتَىٰ يُصْرَفُهُ فِي ذَلِكَ
إِلَّا أَنَّهُ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ؟ وَشِبْهُ الشَّمْسِ عَارِفٌ أَبَدًا فِي ضِيَاءِ مَرَفَتِهِ ، صَاحِبٌ يُمْكِنُ غَيْرُ
مُتَلَوِّنٍ ^(١) ، يَشْرُقُ مِنْ بَرَجِ سَمَاعَتِهِ دَائِمًا ، لَا يَأْخُذُهُ كَسُوفٌ ، وَلَا يَسْرُهُ سَحَابٌ .

وَشِبْهُ الْقَمَرِ عَيْدٌ تَكُونُ أَحْوَالُهُ فِي تَغَلُّقٍ ؛ فَهُوَ فِي حَالٍ مِنَ الْبَسْطِ يَتَرَقَّى إِلَى حَدِّ الْوَسَالِ ،
ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْفَتْرِ ، وَيَقَعُ فِي الْقَبْضِ عَمَّا كَانَ بِهِ مِنْ مَفَادِ الْحَالِ ، فَيُنْقَاصُ ، وَيَرْجِعُ إِلَى قِصَاصِ
أَمْرِهُ إِلَى أَنْ يَرْضَعَ قَلْبُهُ عَنْ وَقْتِهِ ، ثُمَّ يَمُودُ الْحَقُّ — سَبْعَانَهُ — فَيُوقَفُهُ لِرُجُوعِهِ عَنْ قَرْنِهِ ،

(١) سبق أن أوضحنا الفرق بين حال الخلقين والمتكئين .

وإفاته من سكرته ، فلا يزال يصفو حله إلى أن يقرب من الوصال ، ويرزق صفة السكال ، ثم بعد ذلك يأخذ في التمس والزال .. كذلك حله إلى أن يثق له بالقصوم لرحمته ، كما قالوا :

ما كنت أشكو ما على بدني من كثرة اللون من بدني^(١)
وأنتسوا : كل يوم تكون غير هذا يك أجل

قوله جل ذكره : « وآية لم أنا سألنا ذريتهم في
الفلك للشعون • وخلقنا لم من مثله
ما يدكبون » .

الإشارة فيه إلى تحلل الخلق في سفينة السلامة في بحر التقدير عند تلاطم أمواجها بنون من
التضيق والتأخير . فكأن من عبث غرق في اشتغاله في ليله ونهاره ، لا يستريح لحظة من كد أفضاله
ومتسلية الصب في أماله ، ويجمع له .

فجبرته ذلك إلى نسيان عاقبة ومآله ، واستيلاء شغله بركه وعياله على فكره وباله —
وما سميته إلا في وباله ا

وكم من صبر غرق في لجة هواه ، فجبرته منه إلى تحلل بلواه ، وخيس من أمر
مطلوبه ومبتغاه .. ثم لا يصل قط إلى منتهاه ، خير دنياه وعقباه ، وبقي عن مولاه ا
ومن أمثال هذا وذاك ما لا يحصى ، وعلى حقل من فكر واعتبر لا يحصى .

أما إذا حفظ عبدا في سفينة العتاة أفرده — صبيحة — بالتحري من ريق خناس
الأمور ، وشغله بظلمه بالقيام بعبته ، وأكرمه في سرائره بفرار القلب مع ربه ، ورفاه إلى
ما قال : « أنا جليس من ذكرني » . . وقُلْ في علو شأن من هذه صفته . . ولا حرج ا

قوله جل ذكره : « وإن نشأ نفرقهم فلا مرجح لهم
ولا هم ينقذون • إلا رحمة منا ومتاعا
إلى حين » .

(١) البدة = التصيب والتسمة (السان) .

لولا جودُهُ وَفَضْلُهُ كُلُّ بِهِم من البلاء ما حلَّ بأمتنا ، لكنه بِحَسَنِ الْأَنْفَالِ ، يحفظهم
في جميع الأحوال .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ
وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » الآيات
هذه صفات من سَيِّبِهِمْ ^(١) في أودية الخذلان ، وَوَعْتِهِمْ بِسِعَةِ الْجَنَّةِ ، وَأَعْيَمَهُمْ عن سماع
الرُّشْدِ ، وَصَدَّهُمْ بِالْخِذْلَانِ عن سلوكِ القصد ، . فلا تأتيهم آيَةٌ في الرُّجْرِ إِلَّا قَالُوا مَا يَأْمُرُكُمْ
وَتَجَافَوْا عَنِ الْإِعْتَابِ بِهَا عَلَى دَوَامِ انْبِذَانِهِمْ ، وَإِذَا أُمِرُوا بِالْإِذْقَانِ وَالْإِلْطَامِ عَارِضُوا بِأَنَّ اللَّهَ
رَازِقُهُ الْأَنَامَ ، وَإِنْ يَشَأْ نُنَزِّلْ لَهُمُ الْبُلَّامَ :-

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَلَمْ يَأْتِ الْفُلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ يَأْتِ الْفُلَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَلَمْ يَأْتِ الْفُلَّ الَّذِينَ آمَنُوا »

ثم قال جل ذكره : « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ؟ » • مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّصُونَ
• فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم
يَرْجِعُونَ »

يستجلبون هجوم الساعة ، ويستقبلون قيامَ القيامة — لا عن تصديقٍ بِمَرْحَمِهِمْ مِنْ سَكْنِهِمْ ،
أو عن خوفٍ بِعَذَابِهِمْ مِنْ غَيْبِهِمْ ، ولكن تكذيباً لبعثة الرسل ، وإنكاراً لبعثة النبوة ،
واستبصاراً للفساد والحشر .
ويوم القيامة هم في العذاب مُحْضَرُونَ ، ولا يُكْشَفُ عَنْهُمْ ، ولا يُنْصَرُونَ .

قوله جل ذكره : « وَضُحِّقَ فِي السُّورِ فَلَمَّا هَمَّ
بِالْأَجْنَالِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسَوْنَ » قالوا

(١) سيبه = تركه وحلاً ، يسيب حيث شاء (المرسيد) ..

يَا وَيْلَنَا مَنْ بَشَا مِنْ مَرَقَدِنَا هَذَا
مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾

يموتون قهراً ، ويُنشَرُونَ جَزَاءً ، ويقنون أمراً ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً .
« قالوا يا وَيْلَنَا مَنْ بَشَا ^(١) من مرقدنا ؟ » يموتون على جهل ، لا يعرفون ربهم ،
وَيُبْعَثُونَ على مِثْلِ حَلِيم ، لا يعرفون مَنْ بَعَثَهُمْ ، ويدعون ما كانوا فيه في قبورهم من العقوبة
الشديدة — بالإضافة إلى ما سَيَلَقُونَ من الآلام الجديدة — نوماً ورقاداً ، وسيطنون من القراق
للبرح والاحتراق العظيم الضخم مهاداً ، لا يذوقون برْدًا ولا شراباً إلا حبياً وَغَسَاقًا ، ولقد
عوملوا بذلك استصفاً : فقد قال جل ذكره : —

« تَالْيَوْمٍ لَا تُنَظَّمُ فِئَ شَيْئًا
وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

قوله جل ذكره : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ
فَاكِهُونَ » .

إنما يضاف البدء إلى ما كان للنائب عليه ذِكْرُهُ وَالْأَخَذَ بمجموع قلبه ، فصاحب الدنيا مَنْ
في أسرِها ، وأصحاب الجنة مَنْ هم مُطْلَبُهَا والساعون لها والعاملون لِنَيْلِهَا ؛ قال تعالى خبراً عن
أقوام وأحوالهم : « لَمَلْ هَذَا فَمِثْلُ السَّامِلُونَ » ^(٢) . وهذه الأحوال — وإن جَلَّتْ منهم
ولم — فهي بالإضافة إلى أحوال السادة والأكابر تقاصر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ
أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُهْلُ » ^(٣) وَمَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَنِ الدُّنْيَا حَرًّا فَلَا يَبْذُ أَنْ يَكُونَ فِي الْجَنَّةِ عَنِ الْجَنَّةِ
حَرًّا ، والله يختص برحمته من يشاء .

وقيل إنما يقول هذا الخطاب لأقوام فارغين ، فيقول لهم : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ

(١) سقطت (بشأ) من النسخ في ص .

(٢) آية ٦١ سورة السافات .

(٣) جاء في الإسناد أن الأئمة من تغلب عليه سلامة الصدر ، وجبن الظن بالناس ؛ لأنه يغفل أمر دنياه ، ويقبل
عمل آخرته ويشتغل نفسه بها ، قال صلى الله عليه وسلم : أكثر أهل الجنة قلبه فهم أكياس في أمر الآخرة (الاسناد
١٩٥ ص ٤٧٧) ط بيروت .

فاكهن» وهم أهل الحضرة والدنو ، لا تشلهم الجنة عن أنس القربة ، وراحت الرصلة ،
والقراغ للرؤية^(١)

وقال : لو عَلِمُوا حَمَنَ شُغِلُوا لَمَا تَهَيَّأُوا بِمَا شُغِلُوا .

وقال بل إنما يقول لأهل الجنة : « إن أصحاب الجنة .. » كأنه يخاطبهم مخاطبة للمأينة
إجلالاً لهم كما يقال : الشيخ يفعل كذا ، وركاد به : أنت تفعل كذا .

وقال : إنما يقول هذا لأقوام في العرصة أصحاب ذنوب لم يدخلوا النار ، ولم يدخلوا الجنة بعدُ
لمصائبهم ؛ فيقول الحق : عيى .. أهل النار لا يفرغون إليك لأحوالهم ، وما هم فيه من
صورة أحوالهم ، وأهل الجنة وأصحابها اليوم في شغلٍ عنك لأنهم في لذاتهم ، وما وجدوا من
أفئالهم مع أهلهم وأشكالهم ؛ فليس لك اليوم إلا نحن !
وقيل شغلهم تأميرهم لرؤية مولايم ، وذلك من أتم الأختال ، وهى أشغال مؤنسة مرمجة
لا متعبة موحشة .

وقال : الحق لا يتلق به حق ولا باطل ؛ فلا تنافى بين اشتغالهم بأبنائهم مع أهلهم ،
وشهودهم مولايم ، كما أنهم اليوم مشغولون مستديمون لمرتب بأى حالهم ، ولا يتدحج
اشتغالهم — باستيفاء حطوطهم — فى معارفهم .

وقال شغلَ قوسهم بشهواتها^(٢) حتى يجلس الشهود لأسرارهم على غيبة من إحساس
النفس البقى هو أصعب الرقباء ، ولا شئ أعلى من رؤية الحبيب مع قعد الرقيب .

قوله جل ذكره : « هم وأزواجهم فى ظلال على الأراكب

مكتشون » .

(١) هكذا فى « وهى فى ص (هـ وبه) ، وقد أثيرنا (الرؤية) متأثرين برواية القرطبي من التعليق والشمسرى -
ابن المصنف - حيث تقول هذه الرؤية : فينظر إليهم الحق وينظرون إليه ، فلا يلغون إلى شئ من النسيم ماداموا
ينظرون إليه القرطبي - ١٥٥ ص ٤٥ .

(٢) قال ابن مسعود وابن عباس وقادة ومجاهد : شغلهم انقضاء العذارى .
وفى الخبر من أبى سعيد الخدرى قال (ص) : « إن أهل الجنة كلما جاسوا ناسم عدن أبكاراً . ذكر
ابن عباس : كلما أتى الرجل من أهل الجنة الجوداء وجدها يكرأ ، وكلما رجع إليها عادت إليه شيوته ، ولا يكون
بينهما شئ » منه أو منها . (القرطبي - ١٥٥ ص ٤٥) .

« أزواجهم » : قيل أشكلم في الحال والذرة ، كقوله : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم »^(١) وقيل حظايم^(٢) من زوجاتهم .

« لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يدعون »

« لهم فيها فاكهة » : أى نصيب أنفسهم . ويقال الإشارة فيها إلى راحات الوقت دون حفظ النفس .

« ولهم فيها ما يدعون » : ما يريدون ، ويقال تسلّم لهم دواعيهم ، والدعوى — إذا كانت بنير حق — معلولة .

قوله تعالى : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ »

يسمونَ كلامه وسلامه بلا واسطة ، وأكّد ذلك بقوله : « قَوْلًا » .

وبقوله : « مِنْ رَبِّ » ليُعلم أنه ليس سلاماً على لسان سفير .

« مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » . والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال ما يُسلّم عليهم لتسكّل لهم النعمة . ويقال الرحمة في ذلك الوقت أن يُنقّتهم في حال سماع السلام وحال اللقاء لئلا يصعبهم دهشٌ ، ولا تلحقهم حيرة .

ويقال إنما قال : « مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » ليكون للعصاة من المؤمنين فيه نَقَسٌ ، ولرجائهم مساغٌ ؛ فإن الذي يحتاج إلى الرحمة العاصي .

ويقال : قال ذلك ليُعلم العبدُ أنه لم يصل إليه بفعله واستحقاقه ، وإنما وصل إليه برحمته ربه .

قوله جل ذكره : « وامتازوا اليومَ أيُّها المجرمون » .

غيبة الرقيب أتمّ نعمةً ، وإبعاد العدو^(٣) من أجلِّ العوارف^(٤) ؛ فالأولياد في إيجاب القرية ، والأعداء في المذاب والحجبة .

(١) آية ٢٢ سورة الصافات .

(٢) جمع حظية وهي المرأة التي تفضل على غيرها في المحبة .

(٣) يقول قتادة في « امتازوا » إنها بمعنى حزلوا عن كل غير .

(٤) العوارف جمع عارفة وهي التفضل والإحسان .

قوله جل ذكره: « أَلَمْ أَعِهدْ إليكم يا بني آدم ألاّ

تبدلوا الشيطانَ فإنه لكم عدوٌ مبينٌ •

وَأَنْ أَعِبدُوا هَذَا صِرَاطَ مستقيمٍ • .

لو كان هذا القول من مخلوقٍ إلى مخلوقٍ لَكَانَ شَيْءَ اعتذارٍ ؛ أى لقد نصحتكم ووعظتكم ، ومن هذا حَذَرْتُكُمْ ، وكَم أوصَلْتُ لَكُمْ القولَ ، وذَكَرْتُكُمْ فلم تَقبلوا وَعَظِي ، ولم تعملوا بأمرى ، فَأَنْتُمْ خَالِفْتُمْ ، وعلى أَغْصَمَ غَلَّتُمْ ، وبذلك سَبَبَتِ التَّضْيِيعُ مِنَّا لَكُمْ .

قوله جل ذكره: « اليومَ نَحْكُمُ على أنفسِهِمْ وَنُكَفِّلُكُمْ

أَبْصَارَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ • .

اليومَ سَخَّرَ اللهُ أَعْضَاءَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ بِبَعْضِهَا لِبَعْضٍ ، وَغَلَا يَنْقُضُ هَذِهِ الْعَادَةَ ، فَخَرَجَ بَعْضُ الْأَعْضَاءِ عَلَى بَعْضٍ ، وَتَجَرَّى فِيهَا الْخُصُومَةُ وَالزَّعَاجُ ؛ فَأَمَّا الْكَفَّارُ فَشَهِدَ أَعْضَائِهِمْ عَلَيْهِمْ مُبِيدَةً ، وَأَمَّا الْمُصَادَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ تَشَهِدُ عَلَيْهِمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ بِالصَّبَاحِ ، وَلَكِنْ تَشَهِدُ لَهُمْ بَعْضُ أَعْضَائِهِمْ أَيْضًا بِالْإِحْسَانِ ، وَكَأَقِيلٍ :

يَنِي وَيَنِيكَ يَا ظُلُومُ الْوَقْفُ وَالْحَاكِمُ التَّدَلُّ الْجَوَادُ الْمُتَصِفُ

وفى بَعْضُ الْأَخْبَارِ لِلرُّوِيَةِ الْمُسْنَدَةِ أَنَّ عَبِيدًا تَشَهِدُ عَلَيْهِ أَعْضَاؤُهُ بِالزُّلَّةِ فَيَطَارُ شَعْرُهُ مِنْ جَفْنِ عَيْنِهِ ، فَيَسْتَأْذِنُ بِالشَّهَادَةِ لَهُ فَيَقُولُ الْحَقُّ : نَكَلِمِي يَا شَعْرَةُ جَفْنِ عَبْدِي وَاحْتَجِّبِي عَنْ عَبْدِي ، فَتَشْهَدُ بِالْبُكَاءِ مِنْ خَوْفِهِ ، فَيَغْفِرُ لَهُ ، وَيَتَادَى مَنَادٌ : هَذَا عَتِيقُ اللهِ بِشَعْرَةٍ .

قوله جل ذكره: « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا

يَعْقِلُونَ ؟

يَرُدُّهُ إِذَا اسْتَوَى شَبَابُهُ وَقَوُّهُ إِلَى الْكِبَرِ ، فَكَأَنَّ يَزْدَادُ فِي الْقُوَّةِ بِأَخْذِهِ فِي النِّقْصَانِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَرْدَاةَ الْعَمْرِ فِي السَّنِ فَيَصِيرُ إِلَى مِثْلِ حَالِ الطُّفُولِيَّةِ فِي الضَّعْفِ ، ثُمَّ لَا يَنْبَغِي بَدَ النِّقْصَانِ شَيْءٌ ، كَأَقِيلٍ :

طَوَى الْمَصْرَانَ مَا نَشْرَاهُ مِنِّي وَأَلْبَى جَدِي نَشْرُوطِي

أراني كلَّ يومٍ في انتقاصٍ ولا يَبْقَى مع النقصان شيءٌ
 هذا في الجثث واللباني دون الأحوال والمعاني ؛ فإن الأحوال في الزيادة إلى أن يبلغ حدَّ
 اتَّكْرَفِ^(١) فَيَخْتَلُ رَأْيُهُ وَعَقْلُهُ . وأهل الحقائق تشيب ذوايهم ولكنَّ محابَّهم ومعايهم
 في عنوان شبابها ، وطراوة جدِّها .

قوله جل ذكره : « وما عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وما يَبْقَى له
 إلَّا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

كلامه صلى الله عليه وسلم كان خارجاً عن أوزان الشعر ، والذي أنام به من القرآن لم يكن
 من أنواع الشعر ، ولا من طرق الخطباء .

تَحَيَّرَ القَوْمُ في بابه ؛ ولم تكن كل بصائرهم بكحل التوحيد فعموا عن شهود الحقائق .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا غُلَّتْ
 أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا
 لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَمْ
 يَكُنْ لَهَا فَتْكٌ وَتَفَكُّومٌ * وَخَلَقْنَاهَا سَجَدًا * فَأَنذَرْنَاهُمْ يَوْمَهُمْ أَنَّهَا
 لَهُمْ مُنْجِبَةٌ * فَوَهَّابُنَا لَهُمْ مَوَازِينُ * وَبَدَّلْنَاهُمُ الْغَنَاقِيطَ * وَأَنزَلْنَاهُمْ
 فِيهَا مِنْ مَّائِدَاتٍ آفَافٍ * وَمَا يَنظُرُونَ إِلَّا صُفْرَةً يَلْفُفُونَ » .

ذَكَرَ عَظِيمَ مِفْتَهِ عَلَيْهِم ، وجيلَ نعمته لديهم بما سخر لهم من الأنعام التي ينتفعون بها
 بوجوده الانتفاع .

ولفظ « أَيْدِينَا » تَوَشَّعَ . أى مما علنا وخلقنا ، وذلك أنهم ينتفعون بركوبها وبأكل
 لحومها وشعورها ، وبشُرْبِ ألبانها ، وبالحملِ عليها ، وقطعِ اللسافاتِ بها ، ثم بأصوافها
 وأوبارها وشعرها ثم بِعَقْرِ بعضها . فطالَّيْهِم بالشكر عليها ، ووصَّيْهِم بالتصغير في شكرهم .
 ثم أظْهَرَ - ما إذا كان في صفة المخلوقين لكان شكايه - أنهم مع كل هذه الوجوه
 من الإحسان : -

« وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ »

(١) اتَّكْرَفَ فساد العقل من التكبر .

• لا يستطيعون نصرهم وهم لم جند
مُخَضَّرُونَ .

اكتفوا بأنفسهم^(١) مبعوث لهم ، ثم سَلَّى نَبِيَّه — صلى الله عليه وسلم بأن قال له : —
« فلا تَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ »
وإذا عَلِمَ العبدُ أنه بمراءى من الحقِّ هَانَ عليه ما يقاسيه ، ولا سِيا إذا كان في الله .
قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ
نُطْفَةٍ فَلَمَّا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .

أى شَدَدْنَا أَسْرَمَ ، وَجَعَلْنَا نَشْرَمَ ، وَسَوَّيْنَا أَعْضَاءَهُمْ ، وَرَكَّبْنَا أَعْزَاءَهُمْ ، وَأَوْدَعْنَاهُم
العقل والتمييز . . ثم إنه « خَصِيمٌ مُبِينٌ » : ينازعنا في خطابه ، ويمترض علينا في أحكامنا
يَرْعِيهِ واستصوابه ، وكما قيل :

أَعْلَمُهُ الرِّمَاءُ كُلُّ يَوْمٍ فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

قوله جل ذكره : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ

مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ
الْأَخْضَرَ ثَارًا فَلَمَّا أَتَمَّ مَتَهُ تَوَقَّدُونَ .

مَهَّدَ لَهُمْ سَبِيلَ الاسْتِدْلَالِ ، وَقَالَ إِنَّ الْإِعَادَةَ فِي مَعْنَى الْإِبْدَاءِ ، فَأَيُّ إِشْكَالٍ يَبْقَى فِي جَوَازِ
الْإِعَادَةِ فِي الْإِتْمَاءِ ؟ وَإِنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ النَّارِ فِي الْأَغْصَانِ الرُّطْبَةِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّعَارِ^(٢)
قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ الْحَيَاةِ فِي الرِّمَّةِ الْبَالِيَةِ ، ثُمَّ زَادَ فِي الْبَيَانِ أَنَّ قَالَ : إِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى مِثْلِ الشَّيْءِ .

(١) أى أنفُسَهُمْ مِنَ الْخُلُوفَيْنِ وَالْخُلُوفَاتِ .

(٢) تَزَلَّتْ حِينَ مَعَالِ أَبِي بِنِ خُلْفِ الْجَسْمِ رَسُولُ اللَّهِ (ص) وَقَدْ جَاءَهُ بِعَظْمٍ حَاتِلٍ قَاتِلًا : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ
اللَّهُ يَجْعِي هَذَا بِمَا رَمَى ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَيُحْيِيكَ وَيُحْيِيكَ فِي النَّارِ . (أسباب النزول للرازي ص ٢٤٦) .

(٣) المَرْخُ شَجَرٌ طَوِيلٌ لَيْسَ لَهُ وَرَقٌ وَلَا شَوْكٌ ، سَرِيعُ الْوَرْدِ ، يَقْتَلَعُ بِهِ . وَالْمَغَارُ الْجَوْزُ الْمَأْكُولُ .
وَفِي الْمَثَلِ : « فَيُكَلِّ شَجَرٌ نَارًا وَاسْتَجِدَّ الْمَرْخُ وَالْمَغَارُ » (الوسيلة) .

كالتدرة عليه لاستوائهما بكل وجه ، وإياه يحى النفوس بعد موتها في الرصة كما يحى الإنسان من النطفة ، والطير^(١) من البيضة ، ويحيى القلوب بالرفق لأهل الإيمان كما يميت نفوس أهل الكفر بالهوى والعنفان .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَمَرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

« إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » بِحَقِّهِ وَقُدْرَتِهِ . وَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ تَمَلَّقَ بِالْكُونِ كُلَّهُ عَلَى مَا يَجِبُ فِي صِفَتِهِ ، وَسَيَّانَ عِنْدَهُ خَلْقَ الْكَبِيرِ فِي كَثْرَتِهِ وَالْقَلِيلِ فِي قَلَّتِهِ .

قوله جل ذكره : « فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكُونُ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

أَيَّ قُدْرَتِهِ ظَهَرَ كُلُّ شَيْءٍ : فَلَا يَخْلُقُ شَيْءٌ — قَلٌّ أَوْ كَثَرٌ — إِلَّا بِإِبْدَاعِهِ وَإِنْشَائِهِ ، وَلَا يَبْقَى مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا بِإِقَاتِهِ ، فَهُوَ ظَهَرُ مَا يُخْدِثُ ، وَإِلَيْهِ مُصِيرُ مَا يَنْقُضُ .

(١) وردت (والطير) والسواب أن تكون (والطير) .

سورة الصافات

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة إذا استوت على قلب أزالته عنه أولاً من العارفين أربه ، ثم أزلت على وجه التبعية حرّبه ، ثم شرفّت من حيث اللمعة طلبه .

قوله جل ذكره : « والصافات صفاً »

افتتح الله هذه السورة بالتسم بالصافات ، وهم لللائكة المصطفة في السماء وفي الهواء ، وفي أماكهم على ما أمرهم الحق — سبحانه — من اللكان يلزمونه ، والأمر يهاقون ؛ يُسَبِّحونه ويُقَدِّسونه ، وبما يأمرهم به يطيعونه .

« فلزجروا زجراً »

عطفهم على ما تقدّم بحرف الفاء وهم لللائكة الذين يزجرون السحاب . ويقال يزجرون الناس عن المعاصي . ويقال هي الخواطر الزاجرة عن الناهي .

« فالتاليت ذكراً »

يقال « الصافات » الطيور المصطفة في السماء ، « والتاليت ذكراً » لللائكة يطون كتلّاب الله ، ويتلون الوحي على الأنبياء عليهم السلام .

« إن إلهمكم لواحد »

هذا هو القسوم عليه .

أخبر أنه سبحانه واحد في ملكه ، وذلك لأنهم تعجبوا أن يقوم الواحد بجميع أحوال المأك . ومعنى كونه واحداً تفرّده في حقّه عن التسه ، وتقدّسه في وجوده عن الشبيه ، وتوّجّه في

مُلكِه عن الشريك ؛ واحد في جلالة ، واحد في استحقاق جلالة ، واحد في أفضله ، واحد في كبريائه بنعت علائه ، ووصف سنائه .

قوله جل ذكره : « رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَرَبُّ الْمَشَارِقِ »

مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَخَالِقُهَا ، وَأَكْسَابُ الْعِبَادِ دَاخِلَةً فِي هَذَا (١) .
« ورب للمشارق » مشارق النجوم والشمس والقمر ، ومشارق القلوب بشموسها وأقاربها
وبجومها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَارِدٍ »

زَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بالنجوم ، وقلوب أوليائه بنجوم للمعارف والأحوال ، وحفظ السموات
بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً ، وكذلك زين القلوب بأنوار التوحيد ، فإذا قرَّب منها
الشيطان رجَّها بنجوم معارفهم .

قوله جل ذكره : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطِفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
ثَاقِبٌ »

كذلك إذا اغتَمَّ الشيطانُ من الأولياء أن يُبْلَغَ إليهم شيئاً من وسائره تذكروا ، فإذا هم
مُتَعَبِرُونَ ، ورجعوا .. قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّهَمُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا (٢) » .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمْ أَهَمْ أَسَدٌ خَلَقْنَا أَمْ مِنَ
خَلْقِنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ »

(١) هذا الرأي على جانب كبير من الأهمية من الوجهة الكلامية ، وخلق أكساب العباد من الله حكماً وعلماً ،
لأن الإرادة الإنسانية لا يمكن أن تخرج من نطاق الحكم والعالم الإلهيين - هكذا أوقفنا التشيرى في مواضع مختلفة .
(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

عَرَفَهُمْ عَجَبًا عَنْ الْإِيمَانِ، وَضَفَنَهُمْ فِي كُلِّ حَالٍ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ نَسَبَتَهُمْ أَنَّهُمْ إِلَى الطَّيْنِ
الْأَزْبِ (١).

قوله جل ذكره: «يَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ».

حقيقة التعجب تنوير النفس بما لم تجر المادة بمحدث مثله. وقرا (٢) «عَجِبْتَ» بالفتح
خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم — وبالفهم فكأن الحق يقول ذلك مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ يَلْ
عَجِبْتَ، وَيُقَالُ ذَلِكَ بِمَعْنَى إِكْبَارِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، إِمَّا فِي الْقَدْرِ، أَوْ الْإِكْتِبَارِ فِي النِّمَّةِ
أَوْ فِي الْمَلَحِ.

قوله جل ذكره: «وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ»

إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِهِ يُبْرَضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَالتَّفَكُّرِ فِيهَا، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ مِنَّا الَّذِي
أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ إِلَّا سِحْرًا ظَاهِرًا.

قوله جل ذكره: «أَنَّا مُتَسَاوِكُنَا تَرَابًا وَعِظَامًا أَنَّا

لَمَبْعُوثُونَ • أَوْ آهَؤُنَا الْأَوَّلُونَ

قَالُوا: أَنَّا مُتَسَاوِكُنَا، تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُنَا، وَصَرْنَا رَمِيًا ۚ أَنَّا لَمَبْعُوثُونَ؟ أَوْ آهَؤُنَا الْأَوَّلُونَ
يُيْمَنُونَ كَذَلِكَ؟ قَالُوا: عَلَى جِهَةِ الْأَسْتِجَادِ؛ فَالْمَعْرِفَةِ لَمْ مَفْقُودَةٍ، وَالْبَصَائِرِ لَمْ مَسْدُودَةٍ،
وَقَوْلُهُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ مَصْدُودَةٍ.

«قُلْ نَمِ وَأَنْتُمْ تَاخِرُونَ • فَإِنَّمَا

هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِنَّهُمْ يُنْفَرُونَ»

قُلْ لَمْ يَأْمُرْ نَمِ، وَعَلَى وَصْفِ الصَّفْرِ مَا يَمْتَسِكُ، وَزَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ يَحْشُرُكُمْ، بِمَدِّ أَنْ
يُيَمِّمُ الْقِيَامَةَ عَلَى جَمِيعِكُمْ.

(١) لأزب أى لاصق لصق بفضه يبيض، أو لازق يلتصق بما أسماه، وقال مجاهد وانفساك هو المنقذ (الفرطى)
١٥٠ ص ٦٨، ٦٩.

(٢) بالفتح قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وحاصم. وبالفهم قراءة عبد الله بن مسعود، والكوفيين إلا عاصمًا.
والذين ينكرون الفهم يدعون أن الله لا يجب من شيء، ولكن تخريج القشيري لذلك يكاد يكون سائغًا، وقد
اختاره بعض الأئمة كالبيهقي.

« وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين *

هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون»

دَعُوا الْوَيْلَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ اوقال لهم : هذا يومُ الفصل الذى كنتم تكذبون به ، وقد عابتموه اليومَ .

قوله جل ذكره : « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم

وما كانوا يبیدون * من دون الله

فأهدهم إلى صراطٍ الجحيم *

وقهروهم إنهم مشولون »

أراد بأزواجهم قرنائهم وأشكالهم ومن عمل مثل أعمالهم : ومن أعانهم على ظلمهم بظليل أو كثير .. وكذلك فى هذه الطريقة : من أعان صاحبَ قِترَةٍ فى قِترته ، أو صاحبَ زَلةٍ على زلته — كان مُشاركاً له فى عقوبته ، واستحقاق طرده وإهائته .

قوله : « وقهروهم إنهم مشولون » : مقامُ السؤالِ مقامُ صمبٍ : قوم يأسلم التلکُ وقومٌ يأسلم التلکُ ؛ فالذين تأسلم لللائكةِ أقوامٌ لهم أعمالٌ صالحةٌ تصلح للعرض والكشف ، وأقوامٌ لهم أعمالٌ لا تصلح للكشف ، وهم قسمان : الخواص يسترهم الحق عن اطلاع الخلق عليهم فى الدنيا والآخرة ، وأقوامٌ هم أربابُ الزلات يرحمهم الله فلا يفضحهم ، ثم إنهم يكونون فى بعض أحوالهم بنت الهيبة ، وفى بعض أحوالهم بنت البسط والقرية ، وفى الخير : « أن قومًا يسترهم بيده ويقول تذكروا ربك » ومؤلاء أصحاب الخصوص فى التحقيق : فأما الأغيار والأجانب والكفار فيقال لهم : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »^(١) ، فإذا قرءوا كتبهم يقال لهم . من عمل هذا ؟ وما جزاؤه ؟ فيقولون : جزاؤه النار . فيقال لهم : أدخلوها بحمكم .

ثم يقال لهم فى بعض أحوال استيلاء الفزع عليهم : —

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

« ما لكم لا تخشون • بل هم
اليوم متسلون • وأقيل بضمهم على
بعض يسهلون »

يؤكد بضمهم الذنب على بعض ؛ فهذا جبراً من صاحبه ، وصاحبه جبراً منه ، إلى أن
يحكم الله عليهم بالخزي والهوان ، ويحسمهم في اللعن والإبعاد .

قوله جل ذكره : « فلهم يومئذٍ في العذاب مشتركون
• إنا كذلك فعل بالجرمين »

يشتركون في العذاب ولكن تضافت أصباؤهم ، كما أنهم يشتركون في الزلة
ولكن تختلف مقادير زلاتهم .

قوله جل ذكره : « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله
إلا الله يستكبرون »

احتجاجهم بقلوبهم أو ضميرهم في وحدة عذابهم ؛ ذلك لأنهم استكبروا عن الإقرار بربوبية .
ولو عرفوه لانضروا ببيوديته ؛ قال تعالى : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن
عبادته » ^(١) ، وقال : « إن يستكف للشيخ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة
للقربون » ^(٢) فلن من عرف الله فلا لذة له إلا في طاعته ، قال قائمهم .

ويظهر في الهوى عز اللوال فيلزمى له ذل السيد

قوله جل ذكره : « ويقولون أننا لطاركو آلهتنا لشارع
مجنون • بل جاء بالحق وصديق
للرسل • إنكم لنا شقوا العذاب
الأكيم » .

(١) آية ٢٠٦ سورة الأعراف .

(٢) آية ١٧٢ سورة لقاد .

لما لم يَحْمِسُوا مِنْ وَصْفِهِ — سُبْحَانَهُ — بما لا يليقُ بِجَلَالِهِ لم يُبَالُوا بما أُطْلِقُوا مِنْ
التَّالِبِ فِي وَصْفِ أَنْبِيَائِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ »

الاستثناء راجع إلى قوله : « إِنَّكُمْ لَنَاقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »
ويقال الإخلاصُ إِنْزَادُ الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — بِالْعِبَادَةِ . والذي يَشُوبُ عَمَلَهُ رِيَاءٌ
فَلَيْسَ بِمُخْلَصٍ .

وقال : الإخلاصُ تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين ، وفي الخبر : يا معاذ ، أخلص
العملَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلَ مِنْهُ .

ويقال : الإخلاصُ هَدُ رُؤْيَا الْأَشْخَاصِ ^(١) .

ويقال : هو أن يلاحظ محل الاختصاص .

ويقال : هو أن تنظر إلى نفسك بمِيزَانِ الْإِتْقَانِ .

قوله جل ذكره : « أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ » فَوَاكُهُ
وَهُمْ مُكْرَمُونَ »

لم رزقٌ معلومٌ لأَوْقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ ، وفي وقت الرسول عليه السلام مَنْ كَانَ لَهُ
رِزْقٌ مَعْلُومٌ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ الْمَيَاسِيرِ ، وهذه صفة أهل الجنة ؛ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لأَبْشَارِهِمْ ولَأَسْرَارِهِمْ ، فَالْأَغْنِيَاءُ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ لَأَنْفُسِهِمْ ^(٢) ، وَالْفُقَرَاءُ ^(٣) لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ
لَلْوُجُوهِ وَأَسْرَارِهِمْ .

« فَوَاكُهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ » : مِنْ ذَلِكَ وَرُودِ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ،
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ الْخُطَابُ وَارِدٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى قُلُوبِ الْخُلَاصِ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِكُلِّ أَمْرٍ .

(١) أي لا يكون هناك حساب للمخلوقين .

(٢) رزق النفوس لأغنياء الأموال .

(٣) ورزق القلوب لأرباب الأحوال .

« فِي جَنَاتِ النِّعَمِ * عَلَى سُرُرٍ
مُتَقَابِلِينَ »

يَتَأَنَسُّ بَعْضُهُمْ رِوْءَ بَعْضٍ ، وَيَسْتَرْحُ بِبَعْضِهِمْ إِلَى قَعَاءِ بَعْضٍ .

« يُكَافُّ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *
بِيضَاءُ لَلَّهِ لِلشَّارِبِينَ »

شَرَابٌ يَوْجِبُ لَهُمُ الطَّرَبَ وَلَا وَحْشَةَ مَنْكَ ، شَرَابًا يُخْفِزُهُمْ وَلَا يُسَكِّرُهُمْ ،
لأنه قال :

« لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا
يُزَفُّونَ »

فَلَا تَقْتَالُ عَقُولَهُمْ ، وَلَا تُزِيلُ حِسْمَتَهُمْ ، وَلَا تَوَفِّعُ عَنْهُمْ هَمِيمَتَهُمْ ؛ قَوْمٌ يَشْرَبُونَ
وَهُمْ بِوصفِ السَّرِّ ، وَآخَرُونَ يُسْقَوْنَ فِي الْحَضُورِ — وَهُمْ عَلَى نَتِ الْقُرْبِ .

« وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٍ *
كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ »

لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِ الْوَلِيِّ^(١) ، ثُمَّ الْوَلِيُّ قَدْ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ ، وَفِيهِمْ مَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ :

جُنَّتَا بِلَيْلِي وَهِيَ جُنَّتْ بِنِيرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا زَيْدَهَا

قوله جل ذكره : « فَاقْبَلْ بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَأَلَّوْنَ ... »

يَتَنَاقَشُونَ فِيهِمْ ، وَيَذْكُرُونَ مِنْ مَعَارِفِهِمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَمَا آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ
فَيَخْلُقُ اللَّهُ لَهُمْ إِطْلَاعًا عَلَيْهِ وَهُمْ فِي النَّارِ يَحْتَرِقُونَ .

قوله جل ذكره : « قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لِتُزَكِّيَنَ »

(١) المقصود به هنا الزوج ، أي نساء قد قصرت طرفهن على أزواجهن .

ولولا نِيَمَّةٌ رَأَى لَكُنْتُ مِنْ
الْمُحْضَرِينَ »

نَلَقَ الْوَلَّى بِالْحَقِّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُصَرِّحْ بَيْنَ التَّوْحِيدِ ؛ إِذْ جَعَلَ الْفَضْلَ وَاسِعَةً ، وَالْأَوَّلَى
أَنْ يَقُولَ : وَلَوْلَا رَأَى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ • لِئَلَّا
يَعْلَمَ الْعَامِلُونَ »

يقال : بل اللائكة يقولون لهم هذا ، ويقال : الحق — سبحانه — إذا أَرَامَ مَقَامَهُمْ فِي
الْجَنَّةِ يَقُولُ لَهُمْ : « لِيَلَّا هَذَا قَلِيلُ الْعَامِلُونَ » .

ويقال إنَّ كَانَ الْعَابِدُ يَقُولُ هَذَا ، أَوْ يَقَالُ لَهُ هَذَا إِذَا ظَهَرَتِ الْجَنَّةُ فَإِنَّهُ إِذَا بَدَتْ شَطِئَةً مِنْ
الْحَقَائِقِ وَتَبَاهِيرِ الْوَصَلَةِ ، أَوْ ذَرَّةً مِنْ نَسِيمِ التَّرَبِّهِ فَبِالْحَقِّ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ : لِئَلَّا هَذِهِ
الْحَالَةُ تُبْذَلُ الْأَرْوَاحُ .

عَلَى مِثْلِ سَتَى يَقْتُلُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ
وَإِنْ بَلَتْ مِنْ سَتَى عَلَى الْيَأْسِ طَالَمَا
وَمَا هُنَا خُصِيقُ الْمَبَارَاتِ ، وَتَقْصُرُ الْإِشَارَاتُ .

قوله جل ذكره . « أَذَلِكَ خَيْرٌ مُزْمَلًا أَمْ شَجَرَةً
الْزُّقُومِ »

ذَكَرَ صِفَةَ هَوَانِ الْأَعْدَاءِ ، وَمَا بِهِ مِنْ صِفَةِ الْمَلَذَّةِ وَالصَّانِبِ فِي النَّارِ ؛ مِنْ أَكْثَرِ
الضَّرِيعِ ، وَمِنْ شَرَابِ الزُّقُومِ الَّتِي هِيَ فِي قُبْحِ صُورَةِ الشَّيَاطِينِ ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ إِلَى الْجَعِيمِ ...
إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِمْ الْمُجِيبُونَ •
وَبَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ »

(١) أي نطق بيمين الفرق ولو كان بين الجمع لقال : « ولولا ربي ... » .

لَنَا أَصَابَهُ مِنَ الْأَذَى مِنْ قَوْمِهِ حِينَ كَذَّبُوهُ ، وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ مَا كَانَ يَقُولُ مِنْ حَدِيثِنَا .
رَجَعَ إِلَيْنَا ، نَخَاطِبُنَا وَنَخَاطِبُنَاهُ ، وَكَلَمْنَا وَكَلَمْنَاهُ ، وَنَدَانَا فَتَدِينَاهُ ، وَكَانَ لَنَا فِكْرُنَا لَهُ ،
وَأَجَابَنَا فَأَجَبْنَاهُ . . فَلَقْنِمُ الْجَبِيبُ كَانَ لَنَا وَلَنِمُ الْجَبِيونُ كُنَّا لَهُ !

« مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ » : شَتَانُ بَيْنَ كَرْبِ نُوحٍ وَبَيْنَ كَرْبِ أَهْلِهِ !

وَمَا يَكُونُ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ

أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالشَّأْسِ

قوله جل ذكره : « وَجَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ مِنْ الْبَاقِينَ »

لَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُم مِّنْ أَوْلَادِ نُوحٍ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ لَمْ يَنْقَلِسُوا^(١)

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ »

بَرِيذٌ بِهِ قَوْلُ النَّاسِ عَنْهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ مِنْ شِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ » إذ

جاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

بَعَثَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ مِنْ شِيعَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّوْحِيدِ — وَإِنْ اخْتَلَفُوا فِي فُرُوعِ
شَرْعِيَّتِهِمَا .

« قَلْبٌ سَلِيمٌ » : لَا آفَةَ فِيهِ . وَيُقَالُ لِدِينِهِ مِنَ الْحَبَةِ . وَيُقَالُ : سَلِيمٌ مِنْ مَحَبَةِ
الْأَغْيَارِ . وَيُقَالُ سَلِيمٌ مَنْ حُطِّبَ قَسَمُهُ وَإِرَادَتُهُ . وَيُقَالُ : مَسْتَلِمٌ لَهُ فِي قَضَائِهِ وَاخْتِيَارِهِ .

قوله جل ذكره : « إِذْ قَالَ لِأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَاذَا

تَعْبُدُونَ ؟ »

سَأَلَهُمْ عَلَى جِهَةِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، وَالتَّنْبِيهِ لَهُمْ عَلَى مَوْضِعِ غَلْطِهِمْ .

« فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ »

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا خُرُجَ لِنُوحٍ مِنَ السَّفِينَةِ مَاتَ مِنْ مَعَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَلَدُهُ وَنِسَاءُهُ .

إذا قيتموه — وقد عبدتم غيره . . . فما الذي تقولون له؟ وكيف بكم في مقام النجيلة
ما بين أيديكم وإن كنتم اليوم — غافلين عنه ؟

قوله جلّ ذكره « فنظر نظرة في النجوم » قال إني
سقيم .

قيل أراد « إني » النجوم فأقام « في » مقام « إني »^(١) .

« إني سقيم » : كانت تأتيه الحمى في وقت معلوم ، قال : قُرْبَ الوقت الذي
أسقم فيه من أخذ الحمى إياي ، فكأنه تنال بذلك ليتأخر عنهم عند ذهابهم إلى
عبيدهم لتشية ما كان في نفسه من كسر الأصنام .

ويقال كان ذلك من جملة الماريض . وقيل أرى من نفسه موافقة قولهم في القول
بالنجوم لأنهم كانوا يقولون بالنجوم ، فتأخر بهذا السبب عنهم^(٢) .

وكان لإبراهيم في زمان النبوة فلا يبعد أن الله — عز وجل — قد عرفه بطريق
الوحي أنه يخلق — سبحانه — باختياره أمثالا عند حركات الكواكب .

ثم لما ذهبوا إلى عبيدهم كثر أصنامهم ، فلما رجوا قالوا ما قالوا ، وأجابهم
بما أجابهم به إلى قوله :

« قالوا ابنؤا له بُنيانا فألقوه في البحر
• فأرادوا به كيدا فجعلناهم
الأسفلين » .

ردّ الله كيدهم إلى محورهم . وقد تعرض له جبريل — عليه السلام — وهو في

(١) ربما تعرض عل هذا . . . فع تسليمنا بجواز نهاية حروف الجر بعضها من بعض إلا أننا نرى أن
سعمال « في » أحد . . . فالقصد من أن إبراهيم « نظر في » النجوم أنه تأمل وتفكر . بينما لا تقوى « نظر إلى » أكثر
من التصليح بالعين ولفق بين التأمل بالفكر والبصيرة وبين التصليح بالبصر — والله أعلم .
(٢) أرسل إليه ملكهم إن فدأ عيونا فاعرج معنا ، فنظر إلى نجم طالع وقال : إن هذا يطلع مع سقمي — وكان
علم النجوم مستملا عندهم — فأراهم من متقدمهم عفرا لنفسه . وذلك أنهم كانوا أمل رعاية وفلاحة ، وهاتان
المهستان يحتاج فيها إلى نظر في النجوم (القرطبي ص ٩٢ ج ١٥) .

المواء وَقَدْ رُئِيَ مِنَ التَّجْنِيقِ فَرَضَ عَلَيْهِ غُضَةً قَاتِلًا : هل مِنْ حَاجَةٍ ؟

فَأَجَابَ : أَمَّا إِلَيْكَ .. فلا !

قوله جل ذكره : « وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي »

سيهدين »

يقال إنه طلب هداية مخصوصة ؛ لأنه كان صاحب هداية ، إذ لو لم تكن له هداية لما ذَهَبَ إِلَى رَبِّهِ . ويحتمل أنه كان صاحب هداية في الحال وطلب الهداية في الاستقبال أي زيادة في الهداية ، ويقال طلب الهداية على كيفية مراعاة الأدب في الحضور ، ويقال طلب الهداية إلى نفسه لأنه قدّ فيه قلبه ونفسه ؛ فقال سيهدين إلى لأقوم بحق عبوديته ؛ فإن المستهلك في حقائق الجمع لا يصح منه أداء العبادة إلّا بأن يُردّ إلى حالة التفرقة والتميز .

ومعنى « إِلَى رَبِّي » أي إلى المكان الذي يُبَدُّ فيه ربِّي .

ويقال أخبر عن إبراهيم أنه قال : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي » : فأخبر عن قوله .

وأخبر عن موسى فقال : « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا » ، فأخبر عن صفته لاعت

قوله . .

وقال في صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِجَدِّهِ . . . »

[فأخبر عن ذاته سبحانه^(١)]

وفصل بين هذه المقامات ؛ إبراهيم كان بين التفرق ، وموسى بين الجمع ؛ ونبينا

كان بين جمع الجمع .

قوله جل ذكره : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ »

فبشرناه بنفلايم حلیم »

لَمَّا قَالَ « حَلِيم » ثَبَّهَ عَلَى أَنَّهُ سَلِيقٌ مِنَ الْبَلَاءِ مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحِلْمِ فِي تَحْمَلِهِ . .

(١) ما بين القوسين من عندنا أضفناه للتوضيح .

قوله جل ذكره: « فلما بلغ منه السمع قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين »

« فلما بلغ منه السمع » إشارة إلى وقت توطين القلب على الولد ، رأى إبراهيم — عليه السلام — أنه يُؤمرُ بذبح ابنه إسماعيل^(١) ليلة التروية ، وسميت كذلك لأنه كان يُروى في ذلك طولَ نومه . هل هو حق أم لا^(٢) ؟ ثم إنه رأى في الليلة التالية مثل ذلك فعرف أن رؤياه حق ، فسمى يوم عرفة .

وكان إسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة ، ويقال إنه رأى ذلك في النوم ثلاث مرات^(٣) : أن أذبح ابنك ، قال لإسماعيل : « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ » قال إسماعيل : « يا أبتِ افعل ما تؤمر » : أي لا تخف فيه بحكم الرؤيا ، فإنها قد تصيب وقد يكون لما تأويل ، فإن كان هذا أمراً فافعل بمقتضاه ، وإن كان لما تأويل فتثبت^(٤) ، صد يمكنك ذبح ابنك كل وقت ولكن لا يمكنك تلافيه .

ويقال بل قال : أترك حديث الرؤيا واحمله على الأمر ، واحمل الأمر على الوجوب ، ثم احمله على الفور ولا تُعَصِّر .

ويقال قال له : إن كان يطيب قلبك بأن تذبح ابنك لأجل الله فأنا بطيب قلبه أن يذبحني أبي لأجل الله .

(١) اختلف المفسر في الذبيح فقال قوم إنه إسحاق آخرون إنه إسماعيل . وعريق ثالث يقول : الله أعلم به . ومن الأسمى أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أسمى . ابن مَرْبٍ عك مَعْلِك ! ومن كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بي البيت مع أبيه والمتمتع بمكة . اهلاًماً إسحق فكان بييت المفسر .

(٢) مع أن إبراهيم أخذ يتساقط بين وبين نفسه من ذلك إلا أنه من الثابت أن الرسل يأتيهم الرسى أيقاظاً ووروداً ، فلهوهم لا تنام : قال صلى الله عليه وسلم : « إنا معشر الأنبياء تنام أميئنا ولا تنام قلوبنا » .

(٣) لأجل ذلك سميت الأيام الثلاثة على التوالي يوم لقوية ويوم عرفة ويوم النحر .

(٤) هكذا في م وهي في ص (قبلت) ونحن نرجح (تثبت) بدليل ما يمدح لأنه بعد الذبح يكون قد قضى الأمر . وبأى إبراهيم إن كان ذلك غير المراد .

وقال قال إسماعيل لأبيه : أنتَ خليلُ الله ونعم .. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيلَ إِنَّمَا تَمُّعَ عَنْ خَلِيلِهِ
يَوْمَ يُذْبَحُ ابْنُهُ ؟ مَا كَلَّمْتِ أَبْتَ وَالنَّوْمَ ؟

وقال في القصة : إنه رآه ذات يوم . راكباً على فرَسٍ أشهبٍ فاستحسنه ، ونظَرَ إِلَيْهِ
قلبه ، فَأَمَرَ بِذَبْحِهِ ، فَلَمَّا أُخْرِجَهُ عَنْ قَلْبِهِ ، وَاسْتَقْلَمَ لَذْبَحِهِ ظَهَرَ النَّوْمُ ، وَقِيلَ لَهُ كَانَ الْقَصُودُ
مِنْ هَذَا فَرَاغَ قَلْبِكَ عَنْهُ .

وقال في القصة : أَمَرَ إسماعيلُ أَبَاهُ أَنْ يَشُدَّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ لِتَلَا يَضْرِبَ إِنْ أَمَسَهُ أَلَمُ
الذَّبْحِ فَيَمُوتَ ، ثُمَّ لَمَّا مَ بِذَبْحِهِ قَالَ : اخْضَعْ الْقِيَدَ عَنِّي حَتَّى لَا يَقَالَ لِي : أَشْهُدُ الْيَدِ جَسْتِي ؟
وإِنِّي لَنْ أَمُوتَ :

ولو يَدِرُ الْحَبِيبُ سَقِيَتْ مُتَمَّا لَكَانَ الشُّمُّ مِنْ يَدِهِ بِطِيبٍ
وقال أيهما كَانَ أَشَدَّ بَلَاءً ؟ قِيلَ : إسماعيلُ ؛ لِأَنَّهُ وَجَدَ الذَّبْحَ مِنْ يَدِ أَبِيهِ ، وَلَمْ يَجْعِدْ
مِنْ يَدِهِ إِلَّا التَّرِيَةَ بِالْجِلْدِ ، وَكَانَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعِدْ مِنْهُ ذَلِكَ .

وقال بل كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَشَدَّ بَلَاءً لِأَنَّهُ كَانَ يَحْتَاجُ أَنْ يَذْبَحَ ابْنَهُ وَيَمِيشَ بِدَمِهِ .
« سَجَدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » فَلَمَّا بَاتَ إسماعيلُ بِالْهَوَى ^(١) بَلَّ تَأَذُّبَ بِلِقَاءِ الْإِسْتِغْنَاءِ .
وقال لو قَالَ إسماعيلُ إِنَّمَا لَا تَقُلْ : « يَا أَبَتِي » بِهِذِهِ الْإِطْلَاقَةِ ، وَإِنَّمَا لَا تَقُلْ : « إِنِّي أَذْبَحُكَ »
فَلَنْ الْجَمْعَ يَنْهَاهَا عَجِيبٌ !

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا أَشْتَقْنَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ » وَنَادَيْنَاهُ
أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّمَا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ •

قِيلَ فِي التَّفَاسِيرِ إِنَّهُ كَانَ يَمُرُّ بِالسَّكِينِ عَلَى حَلْقِهِ وَالسَّكِينُ لَا يَقْطَعُ ، فَتَجَسَّبَ إِبْرَاهِيمُ ،
فَوَدَّى : يَا إِبْرَاهِيمَ كَانَ الْقَصُودُ مِنْ هَذَا اسْتِسْلَامًا .

وقال إِنَّ اللَّهَ سَتَرَ عَلَيْهِمَا عِلْمَ مَا أُرِيدُ مِنْهُمَا فِي حَالِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّمَا كَثَّفَتْ عَنْهُمَا بِعَدْمِ مَضِيِّ
وَقْتُ الْحَقَّةِ لِتَلَا يَبْطُلَ مَعْنَى الْإِبْتِلَاءِ ... وَهَكَذَا يَكُونُ الْأَمْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ؛ تَنْدُّ الْوُجُوهَ

(١) أى دعوى النفس بالملكّة دون تقديم المشيئة الإلهية .

في الحال ؛ وكذلك كانت حالة النبي صلى الله عليه وسلم في حال حديث الإنك ، وكذلك حالة أيوب عليه السلام ؛ وإنما يقيئُ الأمرُ بعد ظهور آخر الجنة وزوالها ، وإلا لم تكن حينئذٍ محنة [إلا أنه يكون في حال البلاء إسبالٌ يؤلى مع مخامرة الجنة^(١)] ولكن مع استحجام الحال واستبهمه ، إذ لو كشف الأمر على صاحبه لم يكن حينئذٍ بلاء ؛ قال تعالى : —

« إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ لِلْبَيْنِ •

وَفَدَيْنَاهُ بِذِيحِرٍّ عَظِيمٍ .

قيل كان فداء الذي يحير في الجنة قبله بأربعين خريفًا .

والناس في « البلاء » على أقسام : فبلاء مستعصب وذلك صفة الموام ، وبلاء مستعذب وذلك صفة من يستعذبون بلاياهم ، كأنهم لا يأسون حتى إذا قُتلوا .

قوله جل ذكره : « وَيَشْرَاهُ إِبْرَاهِيمُ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ »

وباركنا عليه وعلى إسحاق . . . :

وكلُّ هذا بعد البلاء ؛ قال تعالى : « إِنْ مَعَ الصَّرِيسِ » .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ »

منَّ عليهما بالنبوة ، وبالنجاة من فرعون وقومه ، وبنصرته عليهم .

« وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ » .

يعنى التوراة .

« وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ »

بالتبري عن الجليل والقوة ، وشهود عين التوحيد .

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ • سَلَامٌ »

على موسى وهارون .

ثم قال جل ذكره : « وَإِنَّ إِلَيسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

« إِلَيس » : قيل هو إدريس ، وقيل غيره ، وكان بالشام ، واسمُ صَنَمِهِمْ « بَل » ،

(١) ما بين القوسين موجود في م وساقط في م .

ومدينتهم بابل : . أنذر قومَه فكذبوه ، ووعظهم فاصدقوه ، فأهلك قومَه .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ لَوْطًا ابْنَ الْمُرْسَلِينَ »

مضت قصته وكيف نجى أهله إلا امرأته التي شاركتهم في عصيانهم ، فحق العذاب عليها مثلما عليهم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يُونسَ ابْنَ الْمُرْسَلِينَ » .

فكان في أول أمره يطلب الاستغفار من النبوة ، ولكن لم يُف ، ثم استقبله ما استقبله ، فلم يلبث حتى رأى نفسه في بطن الحوت في الظلمة : —

« فَانْقَضَ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِمٌ »

أى بما يَلَامُ عليه ، والحق — سبحانه — مُؤَزَّهٌ عن الحيفِ في حكمه ؛ إذ أَلْخَقَ خلقه ، ثم الله راعى حتى تَبَدَّرَ ، وَحَفِظَ ذِمَامَ ما سَلَفَ له في أداء حقه قال : —

« قُلُوا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

في بطنه إلى يوم يُبْعَثُونَ

فلن كَرَّمَ المَهْدَ فيما من الإيمان ، وهو مِنَّا من جملة الإحسان ، « فالؤمن قد أخذ من الله خَلْقًا حسنًا » — بذلك ورد الخبر .

« فَتَبَذَّاهُ بِالرَّاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ »

« سقيم » : في ضعفٍ من الحال لما أُثْرِمَ كَوْنُهُ قَضَى وقتاً في بطن الحوت .

وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ »

لِنُظَلِّلَهُ ، فإنه كان في الصحراء وشجاع الشمس كان يَصُرُّه ، وَقِيَصَ له الله ظبية ذات وليه كانت تجره فيرضهم من لبها ، فكان الحق أعاده إلى حال الطفولية . ثم إنه رَجَحَ ، ورجع إلى قومه ، فأكرموه وآمنوا به ، وكان الله قد كَشَفَ عنهم العذاب ، لأنهم حينما خرج يونس من بينهم ندموا وتضرعوا إلى الله لئلا رأوا أوائل العذاب قد أظلمتهم .

(١) فلاحظ أن القسري يمر سريعاً بإزاء قصص الأنبياء منا لأنه توقف طويلاً عنه كل منها في مواضع سابقة .

فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وآمنوا بالله ، وكانوا يقولون : لو رأينا يونسَ لوقرناه ، وعظمناه ، فرج يونسُ إليهم بعد نجاته من بطن الحوت ، فاستقبله قومه ، وأدخلوه بِلَدِّهم مُكرِّمًا .

وقال : الذَّنْبُ وَالْجُرْمُ كانا من قومه ، فهم قد تَوَعَّدُوا بالعذاب . وأما يونسُ فلم يكن قد أذنب ولا أَلَمَ بمخطور ، وخرج من بينهم ، وكَشَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ ، وَسَلَّمُوا .. واستقبل يونسُ ما استقبله بل أنه قامى الدنيا والتي بعد نجاته ؛ وباعجباً من مِرَّةٍ تقديره ! قد جاء فى القصة أن الله سبحانه — أوحى إلى يونس بعد نجاته أن قُلْ قَتَلَنِى الْقَضَارُ حَتَّى يَكْثِرَ الْجِرَارُ التى عملها فى هذه السنة كلها ! فقال يونس : يا رب ، إنه قَطَعَ مَدَّةً فى إِمْجَازِ ذلك ، فكيف آمُرُهُ بأن يَكْثِرَ ما كُلُّها ؟

قال له : يا يونس ، يَرِقُ قَلْبُكَ لِيَخْزِفَ يُثْلِفُ حَمَلَ سَنَةٍ .. وتريدنى أن أَهْلِكَ مائة ألفٍ من عبادى ؟ يا يونس ، إنك لم تخفهم ، ذُلُّوا خَلَقْتَهُمْ لِرَحْمَتِهِمْ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَفْتِهِمُ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَمْ

البنون ؟ »

لَمَّا قَالُوا فى صفة الملائكة لِنَهِم بناتُ اللَّهِ يَبِّنُ اللَّهُ قُبْحَ قولِهِم ، قال : سَلَّمُ من أين قالوا ؟ وبأى حُجَّةٍ حكوا بما زعموا ؟ وأى شُبُهَةٍ داخلَتَهُمْ . ثم إنهم كانوا يستنكرون من البنات ، ويؤثرون البنين عليهن .. ومع كُفْرِهِم وقبيح قولِهِم وصفوا القديم — سبحانه — بما استنكفوا منه لأنفسهم !

قوله جل ذكره : « فَإِنَّا نَكُونُ مَا تَدْعُونَ » ما أنتم عليه

فأتدعون ؟ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَمِيعِ » .

(١) تتجلى براعة التشبیه فى التشاؤم ناعج من التمسس بتقدم فكرته الباطنة بخصوص تأويل النص ، وإفساح باب الحرية أمامهم ... على عكس بعض الباحثين الذين لا يهتمون إلا بالتخويف والتشيع ، والتحويل والإقناع .

[أى ما أنتم جانتين من الناس إلا من أغويته بحسبي، فيه ضلوا لا يضللكم^(١).

قوله جل ذكره: «وما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ».

للالسكة لم مقام معلوم لا يَتَخَطَّوْنَ مَقَاتِهِمْ، ولا يَتَذَوَّنَ حُدُودَهُمْ، والأولياء لم مقام^(٢) مستور بينهم وبين الله لا يُطْلَعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، والأتبياء لم مقام مشهور موبد بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخلق قُدوة فَأَمَرُهم عَلَى الشَّهْرِ، وَأَمَرُ الأولياء عَلَى السَّتْرِ.

قوله جل ذكره: «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

الْمُرْسَلِينَ».

أى سبقت كلمتنا لهم بالسادة، وَقَدْ كُنَّا لَهُم بِالْوَلَايَةِ وَالرَّعَايَةِ، فَهُم مِّن قِبَلِنَا

منصورون: —

«لَهُمْ لَهُمُ الْمَنُورُونَ» • وَإِنَّ جُنْدَنَا

لَهُمُ الْغَالِبُونَ».

مَنْ نَصَرَهُ لَا يُغْلَبُ، وَمَنْ قَهَرَهُ لَا يَنْصِبُ.

وَجُنْدُهُ الَّذِينَ نَصَبَهُمْ لِنَصْرِ دِينِهِ، وَأَقَانَهُمْ لِنَصْرِ الْحَقِّ وَتَبَيَّنَهُ... مَنْ أَرَادَ إِذْلَاقَهُمْ فَسَلَى أَذْقَانَهُ يَخْرُ، وَفِي حَبْلِ هَلَاكِهِ يَنْصَرُ.

قوله جل ذكره: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ» وَأَبْعَرَهُمْ

فَسَوْفَ يُبْعِرُونَ».

تَوَلَّى عَنْهُمْ — يَا عَمَد — إِلَى أَنْ تَنْفَقَى أَجَالُهُمْ، وَتَنْتَهَى أحوَالُهُمْ. وَانْتَظَرُوا اقْتِضَاءَ

أَجَلِهِمْ، فَإِنَّهُ سَيَنْصَرِمُ حَدِيثُهُمْ وَشَيْكَآ: —

«أَفِيضَانَا يَسْتَحْيِلُونَ».

(١) فى هذا رأى رد على القدرية كما هو واضح .

(٢) ما بين القوسين الكبيرين جاء فى م وسط فى م .

وإنما قال ذلك فيما كانوا يجننون قيام الساعة ، وكانوا يستعجلون ذلك لِقَرَطِ جِهَلِهِمْ ،
ثم قلّة تعديتهم . فلما نزل المذابُ بساحتهم ، وأنّخ البلاء بقوتهم فساء صباحهم . فتولّى
عنهم فَعَن قَريب سيحصل ما منه يَحْتَرُونَ .

قوله جل ذكره : « سبحان ربّكَ ربّ البرّياتِ عما يَصِفُونَ »
وسلامٌ على المرسلين * والحمد لله ربّ
العالين » .

« سبحان ربك » : تديساً له ، وسلامٌ على أنبيائنا ، « والحمد لله » : أي هو الحمود على
ما ساء أم سرّ ، نفع أم ضرّ .

سورة ص

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

اسم عزيز اعترفت المعارف بالقصور عن إدراكه ، اسم جليل تقدمت العلوم حصلاً من العلم في إحاطته ، اسم كريم صغرّت الموانج عند ساحات جوده ، اسم رحيم تلاشت قطرات زلّات عباده في تلام أمواج رحمته .

قوله جل ذكره : « م وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ » .

الصاد مفتاح اسمه الصادق والصبور والصد والمانع .. أقسم بهذه الأشياء وبالقرآن .
وجواب القسم : « إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ » .

وقال : أقسم بصفاء مودة أحبابه والقرآن ذي الذكر أي : ذي الشرف .. وشرفه أنه ليس بمخلوق (١) .

قوله جل ذكره : « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي يِزَّةٍ وَشِقَاقِي »

في صلابة ظاهرة ، وعداوة بيّنة ، وإعراض عن البحث للأدلة ، والسرّ للشواهد .

قوله جل ذكره : « كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ

فَنَادَوْا وَلَا تَرْحَمْنَاهُمْ » .

بادوا حين هبّهم البلاء مستغيثين ، وقد فات وقت الإشكاء والإجابة .

قوله جل ذكره : « وَاعْبُدُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ

الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ »

عَبُدُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، ولم يعجبوا أن تكون للنصونات آفة ، وهذه مناقضة

ظاهرة . فلما تمخروا في شأن أنبيائهم ومؤمنهم بالسر ، وقسموا فيهم القول .

(١) رحمه رأى على الشئنة بخلاف ما وراء المنزلة .

قوله جل ذكره : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ لِمَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » .

لم نبأشر خلاصة التوحيد قلوبهم ، وبدلوا عن ذلك تجويزاً ، فضلا عن أن يكون إنيائنا وحسناً ، فلا عرفوا الإله ولا معنى الإلَهية ؛ فلأن الإلَهية هي القدرة على الاختراع . وتحديرُ قادِرِينَ على الاختراع غير صحيح لما يجب من وجود التماثل بينهما وجوازه ، ثم إن ذلك يمنع من كمالها ، ولو لم يكونا كاملَي الوصف لم يكونا للمُتَيْن ، وكلُّ أمر جرى ثبوتُ سقوطه فهو معطوٍ باطل .

قوله جل ذكره : « وانطلق للآلئ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ » .

إذا توامى الكفارُ فبا ينهم بالصبر على آلهتهم ، فالؤمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم والاستقامة في دينهم .

قوله جل ذكره : « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمَلَأِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ » .

ركنوا إلى سوء والمادة ، وما وجدوا عليه أسلافهم من الضلالة ، واستقاموا إلى التقليد والموادة .

قوله جل ذكره : « أَهْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَنْزِقُوا عَنْهَا » .

أى لو استبصروا في دينهم لكان أقدموا على ما أسرفوا فيه من جعدهم ، ولولا أننا أذمنا لهم العوائى لكان تفرغوا إلى طغيانهم ^(١) .

(١) قال تعالى : الله يستزى بهم ويهدى في طغيانهم يسهون وقال تعالى : « من يضلل الله فلا هادى له ويهدى في طغيانهم يسهون » تلك هي الحكمة الإلهية في إيهالهم .

« أَمْ عِنْدَكُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ

الْوَهَّابِ » .

أى : هؤلاء الكفار الذين عارضوا أو نازعوا ، وكذَّبوا واحتجبوا .. أعتدتم شئاً من هذه الأشياء ؟ أم هل هم يقدرون على شئ من هذه الأشياء فيعلموا ما أرادوا ، ويمطوا من شاموا ، أو يرتقوا إلى السماء فيأتوا بالوحى على مَنْ أرادوا ؟

« جُنْدٌ مَا هُنَا لِكَ مَهْزُومٍ مِّنَ

الْأَحْزَابِ » .

بل هم جُند من الأحزاب المتحزبين . كُلُّهُمْ عَجَزَةٌ لا يقدرون على ذلك ، مهزومون . شَبَّهَهُمْ فِي بَقَائِهِمْ عَنْ مَرَادِهِم بِالْمَهْزُومِينَ ؛ فإِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَ لَيْسَ مَعَهُمْ حُجَّةٌ ، وَلَا لَمْ قُوَّةٌ ، وَلَا لِأَصْنَافِهِمْ أَيْضًا مِنَ النِّفْعِ وَالضَّرِّ مُسَكَّنَةٌ ، وَلَا فِي الرَّدِّ وَالِدْفَعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ قُدْرَةٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَآدَمُ

وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ .. الْآيَاتِ » .

ذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْجَمْعِ ، وَفِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى الْإِفْرَادِ (١) ، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ فِي النَّصَاحَةِ وَالْإِفَادَةِ بِكُلِّ وَجْهِ . ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلَ »

فَحَقَّ عِقَابُ » .

أى ما كان منهم أحدٌ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّتْ الْعُقُوبَةُ عَلَيْهِ ، وَاسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ .

ثُمَّ قَالَ :

« وَمَا يَنْتَفِرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صِیْحَةً وَاحِدَةً »

مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ » .

أى ليسوا ينتفرون إِلَّا الْقِيَامَةَ ، وَمَا هِيَ إِلَّا صِیْحَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَإِذَا قَامَتْ فَلَهَا لَا تَسْكُنَ .

(١) المقصود بالجمع والإفْرَادُ هُنَا الْجُمْلَةُ وَالْفَضْلُ .

قوله جل ذكره: «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْلَنَا قَبْلَ يَوْمِ

الْحِسَابِ» .

اصْبِرْ — يا محمد — على ما يقولون ، فإنه لن تطول مدتهم ، ولن نمدَّ — في مقاماتك أدام — لُبَّكَ ومُكَنِّكَ ، وعن قريب سينزل الله نصرته ، وصدق لك بالتحقيق وعده .

قوله جل ذكره: «وَإِذْ كُرِيَ عِبَادَنا داودَ ذا الأَيمَرِ إِنَّهُ أُوبَى» .

«ذا الأيد» أى ذا القوة ، ولم تكن قوته قوة نفس ، وإنما كانت قوته قوة فعل؛ كان يصوم يوماً ويفطر يوماً — وهو أشد الصوم ، وكان قوياً فى دين الله بنفسه وقلبه وهمة . «أوبى» رُباع^(١) .

قوله جل ذكره: «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مِمَّا يُبَسِّجْنَ

بِالشَّيْءِ الْإِشْرَاقِ^(٢) » • والطير محشورة

كُلُّهُ أَوَابٌ» .

كان داود يُسَبِّح ، والجبال تُسَبِّح ، وكان داود يفهم تسبيح الجبال على وجه تخصيص له بالكرامة والمعزة .

وكذلك الطير كانت تبتلع له فتسبح الله ، وداود كان يرف تسبيح الطير ؛ وكل من تحقق بحاله ساعده كل شئ كان بقرينه ، ويصير غير جنبه بحكمه ، وف معناه أنشدوا :

رُبَّ ورقاء متوفٍ بالفضى ذات شجرٍ صرخت فى فتنٍ
ذكرت إلهاً ودهراً صالحاً وبكت شوقاً فهاجت حزنى
فبكائى ربنا أرقها وبكاهها ربما أرقنى
وقد تشكو فافهمها وقد أشكو فافهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

(١) من (آب) يترب إذا رجع . فكان داود رجاً إلى طاعة الله ورضاه فى كل أمر فهو أمل لأن يقضى به (القرطبي ج ١ ص ١٥٩) .

(٢) يرى من جنبه أن (الإشراق) معناه صلاة النفس إذ هى بعد طلوع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُلُوبِ » .

أى قَوْنًا مُلْكُهُ بِأَصَارِهِ ، وفى الضمير : كان يحفظ مُلْكُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَةً وَعِلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ .

قوله جل ذكره : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الشَّعَابِ » .

أى شَدَدْنَا مُلْكُهُ بِنَصْرِنَا لَهُ ^(١) وَدَفَعْنَا الْبَلَاءَ عَنْهُ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكُهُ بِالْعِلَلِ فى الْقَضِيَّةِ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ فى الرِّعْيَةِ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكُهُ بِقَبْضِ أَيْدَى الظَّالِمِينَ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكُهُ بِدَعَاءِ الْمُتَضَعِّينَ .

ويقال شَدَدْنَا مُلْكُهُ بِأَنْ رَأَى النَّصْرَةَ مِنَّا ، وَتَبَرَّأَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

ويقال بوزراء ناصحين كانوا يَدُلُّونَهُ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ مُلْكِهِ .

ويقال يَنْقِطِلُهُ وَحُسْنِ سِيَاسَتِهِ . ويقال يَقْبُولُهُ الْحَقُّ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ .

ويقال برجوعه إلينا فى عُمُومِ الْأَوْقَاتِ .

« وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُلُوبِ » : أَى أَعْطَيْنَاهُ الرُّشْدَ وَالصَّوَابَ ، وَالتَّهْنِئَةَ وَالْإِصَابَةَ .

ويقال الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ وَكَيْفِيَّةِ سِيَاسَةِ أُمَّتِهِ .

ويقال الثَّبَاتَ فى الْأُمُورِ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِحْكَامَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ .

ويقال صَبَّةَ الْأَبْرَارِ ، وَمُجَانِبَةَ الْأَشْرَارِ .

وَأَمَّا « فَصَلَ الْخُلُوبِ » فهو الْحُكْمُ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ : الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ . وَيَقَالُ : الْقَضَاءُ بَيْنَ الْخُلُوفِ .

(١) يَدْعُو الْقَشِيرَى هُنَا بِأَصْحَابِ السُّلْطَانِ الَّذِينَ لَا يَحْسَبُونَ سِيَاسَةَ الرِّعْيَةِ وَلَا اِعْتِبَارَ الْوُزَرَاءِ وَالْأَعْوَانِ . . .
وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ ابْنُ بَنِي هَاشِمٍ فَهَذَا مَقَرُّهُ بِمَنْزِلَةِ كَبِيرٍ .

قوله جل ذكره : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا

الحراب » .. الآيات

أرسل الله إلى داود عليه السلام مَلَكَين من السماء على صورة رجلين فصا كذا إليه نبياً له على ما كان منه من تزويجه امرأة أوريا ، وكان ترك ذلك أولى — هنا على طريق مَنْ رأى نزية الأنبياء عليهم السلام من جميع القلوب .

وأما مَنْ جَوَزَ عليهم الصغائر قال : هنا من جلته . وكفى الخصمان باسم النجاة من النساء .

وكان داود عليه السلام قال لله سبحانه وتعالى : إني لأجِدُ في التوراة أنك أعطيت الأنبياء الرِّمَبَ فأعطيتها ، قال : إنهم صبروا فيما اجتلبتهم به ، فوجد داودُ من نفسه الصبر إذا ابتلاه طمعاً في تِكْلِ الدرجات ، فأخبر الله تعالى أنه يتليه يوم كذا ، فجعل داودُ ذلك اليوم يوم عبادة ، واختل في بيته ، وأمر حُرَّاسَه ألا يؤذيه أحدٌ بالدخول عليه ، وأغلق على نفسه الباب ، وأخذ يصلُ زماناً ، ويقرأ التوراة زماناً يتبهد . أغلق على نفسه الباب ولكن لم يمكنه غلق باب السماء . وأمر حرسه أن يذفوا عنه الناس وكانوا ثلاثين ألف رجل — ويقال أربعة آلاف — ولكن لم يمسكهم أن يذفوا عنه حكم القضاء ، وقد قال الحكماء : المارِبُ مما هو كائن في كَفِّ الطالبِ يَتَلَب .

وكانت في البيت كوة يدخل منها الضوء ، فدخل طيرٌ صغيرٌ من الذهب ، ووقع قريباً منه ، وكان لداود ابنٌ صغيرٌ فهم أن يأخذه ليدفعه إلى ابنه^(١) ، فتباعده منه . وجاء في التفسير : أنه كان إبليس ، قد تصور له في صورة طير ، فتبعه داود ، ولم يزل الطائرُ يتباعد قليلاً قليلاً ، وداود يبعه حتى خرج من الكوة ، ونظر داود في أثره فوقعَ بصره على امرأة أوريا وهي تنسل متجردة ، فاد إلى قلبه منها شيء ، فكان هذا السبب .

ويقال لم يَرِخَ الإهتمام بسبب وكده حتى فعل به ما فعل ، وفي ذلك لأولى الأبصار عيرة^(٢) .

(١) نقل القرطبي هذه الرواية منسوبة إلى القشيري ج ١٥ ص ١٨٢ .

(٢) يحاول القشيري في تلخيص سبب محبة داود أن يوضح لغيرهين أنه حتى الأكابر قد تحمل بهم القلوب نتيجة المسألة إلى غير . فلهذا الحق عليهم ويترك بهم من الأمر ما يردم إلى الحق وذلك فضل الله سبحانه .

ويقال لم يكن أوريا قد تزوج بها بعد ، وقد كان خطبها ، وأجابته في الزوج به ،
فخطب داود على خطبته . وقيل بل كانت امرأته وسأله أن ينزل عنها ، فنزل على أمره
وتزوجها . وقيل بل أرسل أوريا إلى قتال الأعداء قتل وتزوج بها . فلما تَوَرَّ الخميان
عليه ، وقيل دَخَلَ من سور الحراب أي أعلاه ولتلك : —

« فَزَرَاعَ مِنْهُمْ فَأَلَا لَا تَخَفُ خَمِيَانِ
بَعْنِي بِمَضْنَا عَلَى بَعْضِي فَاحْكُمُ بَيْنَنَا
بِالْحَقِّ وَلَا تُسَلِّطْ وَاهِدَنَا إِلَى سَوَاءِ
الصَّرَاطِ » .

نحن خميان ظلمَ بعضنا بعضاً ، فاحكمُ بيننا بالعدل :

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَمِيَّةً
وَلِي نَمِيَّةٌ وَاحِدَةٌ قَالَ أَكْفَلْنِيهَا
وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ » .

« أكفلنيها » أي انزل عنها حتى أكفلها أنا ، « وعزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ » . أي غلبني ،
قال داود :

« قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَسَبِكَ
إِلَى نَسَابِهِ » .

فضحك أحدهما في وجه صاحبه ، وصعد إلى السماء بين يديه ، فظلم داود عند ذلك أنه تنبيه
له وعقاباً فيما سلف منه ، وظن واستيقن أنه جاءته الفتنة للعودة :

« فَاسْتَفَرَّ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ » .

أخذ في التضرع ، وجاء في التضرع أنه سجد أربعين يوماً لا يرفع رأسه من السجود
إلا (للصلاة)^(١) للكتابة عليه ، وأخذ يكي حتى نبتَ الشَّبُّ من دموعه ، ولم يأكل ، ولم

(١) (الصلاة) غير واردة في النسخين وقد استعملنا بالقرطبي في هذه التكملة (ج ١ ص ١٨٥) برته وجدنا ما

يشرب في تلك اللذة ، حتى أوحى اللهُ إليه بالمغفرة ، قال : يا رب ، فكيف يحدث الخلع ؟
قال : إني استوهيتك^(١) منه ، وقال تعالى :

« فَتَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا زَنْزَلٌ
وَحُسْنٌ مَّآبٍ » .

إن له عندنا قُرْبَةً وَحُسْنَ رَجوع ، وقيل : كان لا يشرب الماء إلا عموماً بجموعه .
ويقال لما التجأ داود عليه السلام في أوائل البلاء إلى التوبة والبكاء والتضرع والاستخاء
وَجِدَّ المغفرة والتجاوز .. وهكذا من رجع في أوائل الشكائد إلى الله فَهُوَ يكفيه مما ينوبه ،
وكذلك مَنْ صَبَرَ إلى حين طالت عليه المحنة . ويقال إِنَّ زَلَّةً أَسْكَكَ عليها يوصلك إلى ربِّك أجْدَى
عليك من طاعةٍ إعجابك بها يَقْصِيكَ عن ربِّك^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَلَلْنَا خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاخْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَفْسِحْ
الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ
الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ غَابَ
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » .

« جَلَلْنَا خَلِيفَةً » أي بعد مَنْ قَدَّمَكَ من الأنبياء عليهم السلام . وقيل حاكماً من قبلي
لتحكّم بين عبادي بالحق ، وأوصاه بالألّا يتبع في الحكم هواه تنبيهاً على أَنَّ أعظمَ جنائلات العبد
وأقبحَ خطاياها متابعةُ الهوى .

ولما ذكر الله هذه القصة أعقبها بقوله :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

« ضرورية لتوضيح كيف أن التبتد للناطق الذي يمارسه الخاصة لا يمنع من رجوعهم في حال الفرق لكأن إلى أن يقوموا
بالصديق الذي تفرغ له الشريعة . وربما كان ذلك مقصده القشيري من اختيار هذه الرواية . . . والواقع أن القشيري
يحدد اختيار الشواهد من القصص والأخبار ، وانسأ في الإخبار نعمة التصوف وأمله .

(١) أي استوهيتك منه بخواصه الجنة (القشيري ج ١ ص ١٨٥) .

(٢) هكذا يفتح القشيري أبواب الأمل لأم البصاة ، ويضع ضمهم للتخوف من رحمة الله .

بِاطِلًا ظَنُّ الْقَيْنَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

« بِاطِلًا » أَيْ وَأَنَا مُبْطِلٌ فِي خُفْيَتِهَا ، بَلْ كَانَ لِي مَا فَضَلْتُ وَأَنَا فِيهِ مُحِقٌّ .

وَيَقَالُ مَا خُفِيَ لَهَا بَطْلَانٌ بَلْ لِأَحْرَمِهَا بِالْحَقِّ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَجِئُ لِلْقَسِدِينَ كَالْحَسَنِينَ قَطُّ ، ثُمَّ قَالَ :

« كَتَبْتُ أَنْزِلَهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا^(١) »

أَيَّاهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ .

« مُبَارَكٌ » وَهُوَ الْفَرَّانُ ، وَمُبَارَكٌ أَيْ كَبِيرُ النَّفْعِ ، وَيَقَالُ مُبَارَكٌ أَيْ حَاطٌّ بِأَمْرِ لَا يَنْسَخُهُ

كَتَبْتُ ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ بَرَكَ الطَّيْرُ عَلَى الْمَاءِ . وَيَقَالُ مُبَارَكٌ لِنَسْ أَمْنٍ بِهِ وَصَدَقَ . ثُمَّ إِنَّهُ يَنْبَغُ أَنْ الْبَرَكَةُ فِي تَذَبُّرِهِ وَالتَّضَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : « وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الثَّوَدُ

إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

« نِعْمَ الْعَبْدُ » لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّابًا إِلَى اللَّهِ ، رَاجِعًا إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ؛ فِي النِّعْمَةِ بِالشُّكْرِ ،

وَفِي الْحَنَةِ بِالصَّبْرِ .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : « إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالصَّغِيرَةِ

الْجِلْدُ » .

« الصَّغِيرَاتُ » جَمْعُ صَافِيَةٍ وَهِيَ التَّائِعَةُ ، وَفِي التَّفْسِيرِ هِيَ الَّتِي تَقُومُ عَلَى ثَلَاثِ قَوَائِمَ :

إِذْ تَرَفَعَ لِأَحَدٍ الْيَدَيْنِ عَلَى سُبُكَيْهَا^(٢) . وَجَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ قَدْ غَزَا أَهْلَ

(١) فِي الْأَوَّلِ أَنَّ عَلِيًّا قَرَأَ « لِيَدَّبَّرُوا » بِتَاءٍ بِهَاءِ الْيَاءِ ، وَكَذَا فِي « الْبَحْرِ » لِأَيِّ حَيَانَ .

(٢) الْحَذِيكُ طَرَفُ الْحَاظِرِ ، وَالصُّغُورُ فِي الْفَنَةِ إِدَامَةُ الْقِيَامِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَرَهُ أَنْ يَقُومَ

لَهُ الرِّجَالُ صَفُونًا فَلْيَقْبِرُوا مَقْبَرَةً مِنَ النَّارِ » ؛ وَقَالَ الْفَخَّارُ :

أَفْءُ الصُّغُورِ غَا يُزَالُ كَأَنَّهُ مَا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا

(الْقِسْمُ : مَادَّةُ صَفَنَ)

دمشق، وأصابها منهم^(١)، وقيل وَرَيْبَهَا عن أبيه داود وكان قد أصابها من الهامة^(٢)، وقيل كانت خيلاً لما أجمعة خرجت من البحر^(٣).

وفى بعض التفسير عُرِضَ عليه عشرون ألف فرس فشاخته من بعض أذكاره لله.

« بالسيء » : فى آخر النهار ، وقيل كان ذلك صلاة العصر^(٤).

قوله جل ذكره : « رُدُّوْهَا عَلَىٰ فَطَقٍ مَسْبُحًا بِالشَّوْقِ

وَالْأَصْقِي » .

قيل أقبل بمسح سوقها وأعتاقها بيده إكراماً منه لما بد أن قرَّخَ من صلاته .

وقيل عَرَقَهَا (لِيُذِبَهَا فَتَبَسَّهَا بِالرَّقِيَّةِ عَنِ النَّارِ)^(٥) ، وقيل وَصَّعَ عليها الكُفَّ قَسَبَهَا^(٦) . وإش ما كان فكل ذلك كان جائزاً فى شرعه .

قوله جل ذكره : « قَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَلِيرِ عَنْ

ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَّتْ بِالحِجَابِ »^(٧) .

أى لَصَقْتُ بِالْأَرْضِ حُبَّ اللَّال . ويقال لما سَلَّ هذه الأفراس عَوَّضَهُ^(٨) الله

— سبحانه — بأن مَنَعَهُ الرِّيحَ ، وهذا أبلغ ، وكلُّ مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لَمْ يَحْضَرْ عَلَى اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَقْنِصَ عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ

جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ » .

(١) هذه رواية الكلبي .

(٢) هذه رواية مقاتل .

(٣) هذه رواية الحسن والفساك .

(٤) ينقل القرطبي عن أبي نصر القشيري بن عبد الكرم القشيري قوله : ما كان فى ذلك الوقت صلاة ظهر ولا صلاة عصر وإنما كانت تلك الصلاة نافلة ، وشغل فيها ثم تذكرها .

(٥) ما بين التوسين زيادة أضعفها ، انتهبناها من القرطبي من الموضع نفسه حتى يضح للمنى الذى يجهه إليه القشيري (ج ١ ص ١٩٦) .

(٦) سبل الله أى أياسه وجعله فى سبيل الله

(٧) اعطف فى القى « توارت بالحجاب » فقبل من الشمس ، وقيل من الخيل وقد استبرعها حتى توارت

الجهاد .

(٨) هكلا فى م وهى فى ص (عرسته) بالراء والصحيح ما ألتقاه من م .

اختطف الناس في هذه الفتنة ؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة قال : لأطوفنَّ على هؤلاء فيود من كل واحدة منهن غلام يقاتل في سبيل الله «^(١) ولم يَقُلْ إن شاء الله ، ولم تحمِلْ إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود ، فألقته على كرسية ، فاستغفر ربه من ترك الاستنشاء ، وكان ذلك ترك ما هو الأوَّل .

وقيل كان له ابن ، وخافت الشياطين أن يبقى بعد موت أبيه فيرثه ، فمَهَّوْا بَقْتْلِهِ ، فاستودعه الرمح في الهواء لئلا تصل إليه الشياطين ، فلت الولد ، وألقته الرمح على كرسية ميتا . فألقته كانت في خوفه من الشياطين وتسليمه إلى الهواء ، وكان الأوَّل به التوكل وترك الاستعانة بالرمح .

وقيل في التفسير : إنه تزوج بامرأة^(٢) كانت زوجة ملك قهره سليمان ، وسبَّاهَا ، فقالت له : إن أذِنْتَ لي أَنْ أَخْذَ أَخْلَا على صورة لأبي لأتسل بنظري إليه ؟ فأذِنَ لها ، فكانت (تظلمه وتجد له مع جواربها أربعين يوما) ، وكانت تبده سيرا ، فوقف عليه^(٣) .

وقيل كان سبب بلائه أن امرأة كانت من أحبَّ نسائه إليه ، وكان إذا أراد دخول الخلاء نَزَعَ خاتمه ودفعه إليها ، وهي على باب الخلاء ، فإذا خَرَجَ استرده . وجاء يوما شيطان يُقَالُ له « صخر » على صورة سليمان وقال لامرأته : ادفعي إلي الخاتم فدفعته ، ولبسه ، وقد على كرسية ، يَمْشِي أمورَه — إلا التصرف في نسائه — قد منحه الله عن ذلك . فلما خرج سليمان طالَبَ المرأة بالخاتم ، فقالت : الساعة دَفَعْتُهُ إِلَيْكَ . فظَنَّ أنه قَتَلَ ، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصَدِّقُونَهُ ، فخرج (هاربا إلى ساحل البحر) ، وأصابته شدائد ، وحل سمك الصيادين بأجرة حتى يَمِدَّ قُوَّتَا .

ولما أتهم (بنو إسرائيل) الشيطان (واستنكروا حُكْمَهُ) نشروا التوراة بين يديه ،

(١) في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « قال سليمان لأطوفنَّ القيلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فطاف حلين نجيبا فلم تحمِلْ منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، وأيم الله نفسي معه يبدلو قال إن شاء الله لجاهدا في سبيل الله فرسانا أجود » .

(٢) هذه المرأة — كما يقول الزمخشري — هي وجرادة ابنة ملك جزيرة في البحر يقال لها صبيون .

(٣) وكانت حقوبته سمراته من ملكه أربعين يوما — هي مدة حياة السم فيبته .

فَرَوَى بِالْعَلَمِ فِي الْبَحْرِ ، وَطَارَ فِي الْهَوَاءِ . وَلَمَّا أَدْنَى اللَّهُ رَدَّ مُلْكِي سُلَيْمَانَ إِلَيْهِ ، اجْتَلَتْ سَمَكَةُ خَاتَمَهُ ، وَوَقَّتْ فِي حِجَالِ الصَّيَادِينَ ، وَدَفَعُوها إِلَى سُلَيْمَانَ فِي أُجْرَتِهِ ، فَفَأَشَقَّ بَطْنُهَا وَرَأَى خَاتَمَهُ لَيْسَ ، وَسَجَدَ لَهُ لِلْأَحْوَنِ ، وَعَادَ إِلَى سِرِّرِ مُلْكِهِ^(١) .

قوله جل ذكره : « قَالَ رَبِّ اغْنِرْنِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

أَيُّ مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا كَمَا سَلِبَ مِنْ فِي هَذِهِ لِرَّةٍ .
وقيل أراد انفراد به ليكون سبجته له على قومه .

وقيل أراد أنه لا ينبغي لأحدٍ من بعدى أن يسأل للثَّاقِ ، بل يجب أن يَكِلَ أمره إلى الله في اختياره له .

ويقال لم يقصد الأتبياء ، ولكن قال لا ينبغي من بعدى لأحدٍ من الملوك .

وإنما سأل للثَّاقِ لسياسة الناس ، وإعصافٍ بعضهم من بعض ، والقيام بحق الله ، ولم يسأله لأجل تميله إلى الدنيا . . وهو كقول يوسف : « اجعلني على خزان الأرض إني خفيظ عليم »^(٢) .

ويقال لم يطلب للثَّاقِ الظاهر ، وإنما أراد به أن يَمْلِكَ نَفْسَهُ ، فَمِنْ اللَّيْلِ — على الحقيقة — مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَمَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ عَوَاهِ .

ويقال أراد به كمال حاله في شهود ربه حتى لا يرى معه غيره .

ويقال سأل التَّضَاعَةَ التي لا يبقى معها اختيار .

ويقال علم أن سِرَّ نَبِيَّنا — صلى الله عليه وسلم — ألا يلاحِظَ الدنيا ولا ملكها

(١) تلاحظ أن القشيري — وإن تجنب الوقوع في كثير من الروايات الخفيفة مثل اجتماع سليمان بالقضاء في سبعين ، ومثل قصته في قنص بئر الحق ونحو ذلك — إلا أنه لم يستطع التخلص من الروايات المتأثرة بالإسرائيليات لأنها لا تستطيع أن تصور وقوع نبى سليمان أو كداود في مثل هذه المواقف التي لا يتصور إليها نبى .
(٢) آية ٥٥ سورة يوسف .

قال : « لا ينبغي لأحد من بني » لأنه يَخْلَ به على نبينا صلى الله عليه وسلم ولكن لِيَلْمِه أنه لا ينظر إلى ذلك .

قوله جل ذكره : « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رَحْمَةِ رَبِّهِ »
حيثُ أصابَ .

شَكَرَ اللهُ سَمِيَةً ، وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ بَدَلًا مِنَ الْأَفْرَاسِ ؛ فَلَا يَحْتَاجُ فِي إِسْكَانِهَا إِلَى التَّلَفِ وَالْمَوْنِ .

« وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ *
وَأَخْرَجْنَا مَقَرًّا مِّنَ الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا
فَأَمْنٌ أَوْ أَمْسِكُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

كما سَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ .

ثم قال : « هَذَا عَطَاؤُنَا . . » أى فَأَعْطِ أَوْ أَمْسِكُ ، واحفظ وليس عليك حساب .

والشئُ في الهواء للأولياء ، وقطعُ المسافاتِ البعيدة في مدة يسيرة مما يعلم وجوده قطعاً في هذه الأمة — وإن لم يعلمه الأفراد والأحاد على التمتين . وإظهاره على خَدَمِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لشرفه يَدُلُّ على أن مقامه — صلى الله عليه وسلم — أشرف ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ
أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ » .

أى بما كان يوسوس إليه بتذكيره إياه ما كان به من البَيْئَةِ ، وقيل لما كان قال (أى الشيطان) لآمرأته : اسجدي لى حقى أرد عليك ما سلبتكم .
ويقال إن سبب ابتلائه أنه استعان به مظلوم فلم ينصّره . . فابْتُلِيَ .
ويقال استضافَ الناسَ يوماً فلما جاءه ابنُ فقيرٍ مَتَمَّه من الدخول .

(١) من مباحثه نظرية القشيري في الكرامة : أن كرامة الولد فرع لمهزمة النبي الذي ينسب الولد إلى أمته ، فكل شرف الولد هو في الأصل شرف النبي وكأية حظوته ورويته .

وقال كان ينزو مَلِكًا كافرًا ، وكان لأَيُوبَ غَمٌّ في ولايته ، فذاهَنَهُ لأَجْلِ غَمِّهِ في القتال .

وقال حَسَدَهُ إِبْلِيسُ ، قال : كَيْفَ سَكُنْتُني عليه لم يشكر لك .

ويقال كان له سبع بنات وثلاثة بنين في مكتب واحد ، كَجَرَّ الشَّيْطَانُ الاسطوانات فأنهزم البيت عليهم .

ويقال لبث أيوب في البلاء ثمانى عشرة سنة ، وقيل أربعين سنة ، وقيل ^(١) سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

قوله جل ذكره : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ^(٢) » هذا مُعْتَسَلٌ باردٌ وشَرَّابٌ .

لَمَّا أَرَادَ اللهُ كَشْفَ البلاء عنه قال له : « ارْكُضْ بِرِجْلِكَ » ، فركض ، فظَهَرَتْ عَيْنُ ماء باردٍ فَاغْتَسَلَ بِهِ ، فزاد إيلبَ جِأَلَهُ وَكَأَلَهُ . وقيل الأولى كانت عينا حارةً والثانية باردة ، واغْتَسَلَ ، وَرَدَّ اللهُ سَلَمَهُ وَشَعْرَهُ وبشره ، وأحيا أولاده وأهله ، وقيل بل يرُدُّهم إليه في الجنة في الآخرة .

قوله جل ذكره : « وَخُذْ يَدَكَ ضَرْبًا فاضرب به ولا تحنثَ إِنَّا وَجَدناه صابِرًا نِمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ » .

الضَّحْتُ الحَزِيمَةُ من القَضْبَانِ ، وقيل كانت مائة ، وأَمَرَ بِأَنْ يَضْرِبَ بِهَا دَفْعَةً عَلَى امْرَأَتِهِ ثَلَاثًا يَحْنُثُ فِي يَمِينِهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ حَلَفَ أَنْ يَضْرِبَهَا مِائَةَ خَشْبَةٍ إِنْ صَحَّ (أَنَّهَا أَخْطَأَتْ) . فَتَكَرَّرَ

(١) الرواية الأخيرة منسوبة إلى ابن عباس .

(٢) رفض أبو الفرج المبرزى احتجاج بعض المصوفة بهذه الآية على إبادة الفرس . والواقع أن ذلك يمنع الفسري تقديرًا خاصًا ؛ لأنه لو كان يؤيد ذلك الاحتجاج لقال به ، بل لم يشر إليه ، كما لم يشر منه الآية التي سبقت في هذه السورة : « ودومًا على فطيق ... » إل ما يبيح به بعض المصوفة من تمزيق الخرقاة وتقطيع الثياب ، نهذه في رايه استدلالات قاسدة يلجأ إليها الظنم .

الله لما لبراءة ساحتها ، وصبرها على خدمته . وسبب يمينه أنه لما قال لها إبليس : اسجدى لى ؛ أخبرت أيوب بذلك ، فضاخه حيث سمعت من إبليس ذلك وظننت أنه صادق . وقيل باعت ذوائبها . برغيفين حملتها إليه فتوهم في ذلك رية ، وكان أيوب يتعلق بذوائبها (إذا أراد القيام) . وقيل رابه شيء منها فتحلف (أن يضربها بعد شفائه) .

« إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا .. » : والصبر ألا تترضى على التدبير .

ويقال الصبر الوقوف تحت الحكم . ويقال التلذذ بالبلاء ، واستغناؤه دون استصعابه .
ويقال الصبر الوقوف مع الله بحسن الأدب .

ولم ينفِ قوله « منى الضر » اسم الصبر عنه ؛ لأن ذلك لم يكن على وجه الشكوى ، ولأنه كان مرة واحدة ، وقد وقف الكثير من الوقت ولم يقل منى الضر ؛ فكان الحكم للفالب .

« نعم العبد » إنه أواب « لم يشغله البلاء عن النبلى . ونعم العبد » لأنه خرج من البلاء على الوجه الذى دخل فيه .

قوله جل ذكره : « واذكروا عبادنا إبراهيم وإسماعيل »

وعقوب أولى الأبدى والأبصار . *

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ » .

« أولى الأبدى » : أى القوة ^(١) . « والأبصار » أى البصائر .

« إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ » : أى بفضيلة خالصة وهى ذكر الجنة والنار ، أو بدعاء الناس إلى الجنة والحرب من النار . ويقال بسلالة التلب من ذكر النارين ؛ فلا يكون السل على ملاحظة جزء . ويقال تجردوا لنا بقلوبهم عن ذكرى النار ، « وإلهم عندنا لىن المصطفين الأخيار » .

قوله جل ذكره : « واذكروا إسماعيل واليسع وذو الكفل »

وكل من الأخيار .

(١) يرى الطبرى أن (الأبدى هنا متناها : قنم والإحسان لأنهم قد أحسنوا وقدموا الخير) .

« وَذَا الْكِتَلِ » : قيل كان تَكَلَّلَ اللهُ بعمل رجلٍ صالحٍ مات في وقته ، وقيل كَمَلْ مائة من بنى إسرائيل هربوا من أمير لهم ظالم ، فكان يُنْفِقُ عليهم .
ويقال كان اليسع وذو الكفل أخوين .

قوله جل ذكره : « هَذَا ذِكْرٌ وَإِنِ الْمُنْفِقِينَ لَحُسْنَ مَكْرٍ » .

أى هذا القرآن فيه ذِكْرُ ما كان ، وَذِكْرُ الأنبياء والنقص .
ويقال لِمَن شَرَفَ اللهُ ؛ لأنه معجزةٌ نزل على صِدِّيقك ، وَإِنِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمَاصِيَ لِحُسْنِ الْقُلُوبِ .

« جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْفُتْحَةٍ لِّمَنِ الْأَبْوَابُ »
أى إذا جاءوها لا يعضهم ذُلُّ الحجاب ، ولا كُفَّةُ الاستئذان ، تستقبلهم لللائكة بالترحاب^(١) والتبجيل . معكثين فيها على أرائكهم ، يدمعون فيها بقاكة كثيرة وشراب على ما يشتهون ، وعندهم حورٌ مِّمَّنْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عن غير أزواجهن ، « أَبْوَابُ » : لِدَارَاتُ مُسْتَوِيَّاتٍ فِي الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ وَالشَّكْلِ .

قوله جل ذكره : « هَذَا وَإِنِ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرٌّ مَّاكِ » .
لَشَرٌّ مَرَجٍ وَمُقَلَّبٍ ؛ وهى جهنم يخلونها فيقون مُعَذِّبِينَ فيها ، وَيُنْفَسُ السَّكَّانُ ذَلِكَ !

« هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَسِيمٌ وَغَسَّاقٌ »
« حَسِيمٌ » : هو اللاء الحار ، و « غَسَّاقٌ » هو عصارة أهل النار^(٢) ، ويقال هو زمهرير جهنم^(٣) .

(١) هكذا فى م وهى فى ص (بالإيجاب) ونحن نؤثر (بالتراحاب) لتقابل ما يقال لأهل النار فيها بعد (لأمرحاً بهم)

(٢) هذا قول عبد بن كعب .

(٣) هذا قول ابن عباس . وقال عبد الله بن عمرو : هو قبح غليظ نبي . وقال قتادة : هو ما يسيل من فروج الزناة ، ومن نبي لحم الكفرة وجلودهم من الصديقه والقيح . وقال آخرون إنه يحرق ببرد كذا يحرق الحميم بحمره (القرطبي ١٥٥ ص ٢٢٢) .

« وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »

أى فنون أخرى من مثل ذلك المذاب .

قوله جل ذكره : « هَذَا فَوْجٌ مُقْتَنِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ
لَهُمْ صَالُوا النَّارَ » .

هؤلاء قومٌ يتصحمون النارَ معكم وهم أتباعكم ، ويقول الأتباع للمتبعين :

لا مرحباً بكم ؛ أنتم قلعتموه لنا بأمركم فواقتناكم ، ويقولون :

« رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا
فِي النَّارِ » .

فيقال لهم كلُّكم فيها ، ولن يفتر المذاب عنكم .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ » ؟ .

يقول الكفار عندما يدخلون النار : ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نعدُّهم في الدنيا من الأشرار
والمستضعفين .. فَلَسْنَا نراهم هاهنا ؟ أم لم يسوا هنا أم زأغت عنهم أبصارنا ؟ يقول أبو جهل
وأصحابه يبنون بلالاً والمستضعفين ، فيعرفون بأنهم في الفردوس ، فزداد حسرتهم .

(إِنَّ ذَلِكَ لَخَلْقٌ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) .

أى إن خصامة أهل النار في النار لخلق .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنِّي إِلَّا
اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » ربُّ السمواتِ
والأرضِ وما بينهما العزيزُ الْغَفَّارُ) .

قل يا محمد : إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ خَوْفٌ ، مُبَلِّغٌ رِسَالَةَ رَبِّي ، وما مني إلا الله الواحد الذي
لا شريك له .

« قُلْ هُوَ تَبَّ عَظِيمٌ » أنتم عنه معرضون

ما كان لي من عِلمٍ بالملأ الأعلى إذ
يُختصمون * إن يوحى إليّ إلا أننا أنا
نذيرٌ مبينٌ .»

أى الذى أتيتكم به من الأخبار عن القيامة والحشر ، والجنة والنار ، وما أخبركم
به عن نبوتى ومِدْقى هو نبأٌ عظيمٌ ، وأتم أعرضتم عنه .

وما كان لي من عِلمٍ بالملأ الأعلى واختصامهم فيه لولا أن الله عَرَفَنِي ، وإلا ما كنتُ
عَلَيْتُهُ . ولِلْمَلَأِ الْأَعْلَى قَوْمٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاءِ الْعُلْيَا ، واختصامهم كان في شأن آدم حيث
قالوا : أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا ؟

وقد ورد في الخبر : « أن جبريل سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الاختصام
فقال : لا أدري . فقال جبريل : في الكفارات والدرجات ؟ فالكفارات إسباغُ الوضوء
في السُّبُرات ^(١) ، ونَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَنَاحَاتِ ، وأما الدرجات فإفشاء السلام ، وإطعامُ الطعام ،
والصلاة بالليل والناس نيام ^(٢) . وإنما اختلفوا في بيان الأجر وكيفية التفضيلة فيها — فيجتهدون
ويقولون إن هذا أفضل من هذا ، ولكنهم في الأصل لا يجحدون .

.. وهذا إنما يوحى إليّ وأنا منذر مبين .

قوله جل ذكره : « إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ
بَشَرًا مِنْ طِينٍ »

إخباره للملائكة بذلك إنما يدلُّ على تفهيم شأن آدم ؛ لأنه خَلَقَ مَا خَلَقَ مِنَ السُّكُونِ ^(٣) ،

(١) السُّبُرات جمع سيرة يسكون الياء وهي التعداد البارحة .

(٢) روى الخبر أبو الأصبغ عن الحسن هكذا : « سألتني ربي فقال : يا محمد ، فمِ اعْتَصِمِ الْمَلَأَ الْأَعْلَى ؟

قلت في الكفارات والدرجات . قال : ما للكفارات ؟ قلت :

الشيء على الأقدام إلى الجحاحات » أخرجه الترمذي بمناه عن ابن عباس ، وقال فيه حديث غريب . وعن
معاذ بن جبل أيضاً وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) هكذا في م روى في ص (المكتفين) وهي غلط في النسخ كما هو واضح .

والجنة والنار ، والعرش والكرسي ، والملائكة ، ولم يقل في صفة شيء منها ما قال في صفة آدم وأولاده . ولم يأمر بالسجود لأحدٍ ولا شيء إلا لآدم ، وسبحان الله خلق أعز خلقه من أدل شيء وأخسه وهو التراب والطين .

« فَلَمَّا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِي
فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » .

روح آدم — وإن كانت مخلوقة — فلها شرف على الأرواح لإفرادها بالذكر ، فلما سوى خلق آدم ، وركب فيه الروح جلَّه بأنوار التخصيص ، فوقعت هيئته على الملائكة ، فسجدوا لأمره ، وظهرت لإبليس شقاوته ، ووقع — بامتناعه — في اللعنة .

« قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ
كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ
خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ » .

من هنا وقع في الغلط ؛ توهم أن التفضيل من حيث البنية والجوهرية ، ولم يعلم أن التفضيل من حيث القسمة دون الخلقة .

وقال ما أودع الله — سبحانه — عند آدم لم يوجد عند غيره ، فبه ظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : « قَالَ فَخَرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ »
وإنَّ عليك لعنتي إلى يوم الدين .

قال فخرج من الجنة ، ومن الصورة التي كنت فيها ، ومن الحالة التي كنت عليها ،
« فَإِنَّكَ رَجِيمٌ » مَرْحُومٌ بِالْعَمْرِ مَنِ ، وبالشَّهْبِ مِنَ السَّمَاءِ ، وبالرجوم من قلوب الأولياء
إِنَّ تَعَرُّضَهُ لَمْ .

قوله جل ذكره: « قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ » قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *

إلى يومِ الوقتِ المعلومِ .

من كمال شقاوته أنه جرى على لسانه^(١) ، وتسلّقت إرادته بسؤال إنظاره ، فازداد إلى التيامة في سبب عقوبته ، فَأَنْظِرْهُ اللهُ ، وأجابه ، لأنه بلسانه سأل تلم شقاوته .

« قَالَ فَيُعْزِّتُكَ لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ » .

ولو عَرَفَ عِزَّتَهُ لَمَا أَهَمَّ بِهَا عَلَى خَلْقَتِهِ .

ويقال تجاوزه في مخاطبة الحق — حيث أصرّ على الخلاف وأقسم عليه — أَقْبَحُ وَأَوْلَى في استحقاق اللعنة من امتناعه للسجود لأدم^(٢) .

قوله جل ذكره : « قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْبَلُ *

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ

مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وختم الله سبحانه السورة بخطابه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّ هُوَ

(١) في هذه الإشارة حقة تحتاج إلى تأمل ، فقول التشبهي وجرى على لسانه تفيه أن مأساة إبليس ترجع إلى مشيئة عليا ، وإن كان ظاهر اللفظ أنه بلسانه اختار طريقه ، ويبرأفته سعى إلى إنظاره .

وحكلا ينمض التشبهي بمن يحاولون نسبة الحرية للإنسان — مع أن الحرية وبالك وتكال .
ويذكر كثرنا هذا الموقف بقوله ابن عربي في (شجرة الكون) عند شرح « كن فيكون » أن في « كن » كل شيء ؛

في الكاف كال هادي والكفر ، وفي التثنية النعمة والنعمة ... فافه خالق كل شيء حين خاطب الكون : « كن »

(٢) في هذه الإشارة لفتة إلى مقصد بعيد : أن الوقوع في اللذات أمر قبيح ولكن الإصرار على اللذات أقبح .
وهذا حث للمصنف على الإقلاع عن المأوى ، وعدم اليأس من رحمة الله . وتعالينا سابعة التشبهي في هذا الخصوص في مواضع مختلفة من هذا الكتاب ، وكذلك أنظر باب التوبة في الرسالة .

إِلَّا ذِكْرَهُ لِلسَّالِّينَ * وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ
بِمَدَّ حِينَ .

ما جئكم من حيث أنا^(١) ، ولا باختيارى ، وإنما أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ .

« إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى القرآن ، عظة لكم .

« وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بِمَدَّ حِينَ » وَعُلِّمَ صِدْقَهُ بِمَدَّ مَا اسْتَمَرَّتْ شَرِيعَتُهُ ، فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ
إِذَا كَانَ بِاطِلَالٍ لَا يَلُومُ^(٢) .

(١) أى من طرفى أو من جهتي .
(٢) أى أن دوام الشريعة وغلوطها بين آيات صحتها وصدقها .

سورة الزمر

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمة سمعها يوجب لقلوب شفاؤها ، وللأرواح ضيائها ، وللأسرار سناءها وعلاؤها .

كلمة مَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ العلم ازداد بصيرةً على بصيرة ، ثم بلطائف من التعريف غير محصورة .
وَمَنْ سَمِعَهَا يَسْمَعُ الرَّجْدَ ظَلَّتْ أَلْبَابُهُ مبهورة ، وأسراره بقر الكشوفات مفتوحة .

قوله جل ذكره : « تنزيل الكتاب من الله العزيز

الحكيم » .

أى هذا كتاب عزيز نزل من رب عزيز على عبد عزيز بلسان ملك عزيز في شأن أمة
عزيزة بأمر عزيز . وفي ورود الرسول به من الحبيب الأول نزهة قلوب الأحباب بد ذبول
غصن سرورها ، وارتياح عند قراءة فصولها .

وكتاب موسى في الألواح التي كان منها يقرأ موسى ، وكتاب نبينا صلى الله عليه وسلم
نزل به الروح الأمين على قلب الصطفى صلوات الله عليه . . وقصل بين من يكون كتاب ربّه
مكتوباً في ألواح ، وبين من يكون خطب ربّه مخفواً في قلبه ، وكذلك أمته ، قال تعالى :
« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ^(١) » .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق

طاعيد الله . مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ » .

أى أنزلنا عليك القرآن بالدين الحق والشرع الحق ، وأنا مُخِيقٌ في إزاله .

(١) آية ٤٩ سورة التوبة .

والعبادة الخالصة معاقبة الأمر على غاية الخشوع . وتكون بالنفس والقلب والروح ؛ فالتى بالنفس فالإخلاص فيها التبعاد عن الانتعاص ، والتى بالقلب فالإخلاص فيها العسى عن رؤية الأشخاص ، والتى بالروح فالإخلاص فيها التفتى عن طلب الاختصاص ^(١) .

قوله جل ذكره : « أَلَا اللَّهُ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

الدين الخالص ما تكون جلته لله ؛ فما للمبد فيه نصيب فهو من الإخلاص بيد ، اللهم أن يكون بأمره ؛ فإنه إذا أمرَ المبد أن يحبب الأجرَ على طاعته فإطاعته لا تخرجه عن الإخلاص باحتسابه ما أمره به ، ولولا هذا لما صحَّ أن يكونَ في العالمِ مُخلصٌ .

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . . » أى الذين عبدوا الأصنام قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، ولم يقولوا هذا من قبل الله ولا بأمره ولا بإذنه ، وإنما حكموا بذلك من ذات أنفسهم ، فَرَدَّ اللَّهُ عليهم . وفى هذا إشارة إلى أن ما يفعل المبد من الترقب بنشاطٍ نفسه من غير أن يقتضيه حُكْمُ الوقت ، وما يقدر بينه وبين الله من عقود ثم لا يبقى بها . . فكل ذلك اتباع هووى ، قال تعالى : « وَرَهَابِيَةَ ابْتَدَعُوا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ^(٢) » .

قوله جل ذكره : « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » .

لأتهديمهم اليومَ لدينه ، ولا فى الآخرة إلى ثوابه . والإشارة فيه إلى تهديد من يعرض لغير مقامه ، ويدعى شيئا ليس بصادق فيه ، فإله لا يهديه قط إلى ما فيه سدادُهُ ورشدُهُ : وعقوبته أن يعجزه ذلك الشيء الذى تصدى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجوده ودَوِّقه .

(١) تصلح هذه الفقرة لتوضيح درجات العبادة ودرجات الإعلاص ، والآيات التى تلتحق كل درجة منها ، وكيفية التفتى عن هذه الآيات - وبمنى آخر فلها تيمنا عتلمنا تبحث أصول ما اطلقنا عليه : علم النفس الصورى .
(٢) آية ٢٧ سورة الحديد .

قوله جل ذكره : « لو أراد الله أن يتخذَ ولداً لا مصطفى

مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سبحانه هو الله
الواحدُ القهار » .

خاطبهم على قدر عقولهم وعقائدهم حيث قالوا : للشيخ ابن الله ، وعزيرُ وَلَدِ اللهِ ؛ فقال :
لو أراد أن يتخذَ ولداً للنبى والكرامة لاختارَ من الملائكة الذين هم مُنزهون عن الأكل
والشرب وأوصف الخلق .

ثم أخبر عن مقدسه من ذلك فقال : « سبحانه هو الله الواحد القهار » تنزيهاً له عن اتخاذ
الأولاد . . . لا فى الحقيقة لاستحالة مناه فى نمته ، ولا بالنبى لتقدسه عن الجنسية والحالات ،
وإنما يذكر ذلك على جهة استبعاد ؛ إذ لو كان ذلك فكيف كان يكون حكمه ؟ كقوله
تعالى : « لو كان فيها آله إلا الله لقد دنت^(١) » .

قوله جل ذكره : « خلقَ السموات والأرضَ بالحق » .

أى خلقهما وهو مُحققٌ فى خلقهما .

« بُكُورُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُورُ

النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » .

يُدْخِلُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ ، ويدخل النهارُ على الليل فى الزيادة والنقصان ، وسَخَّرَ الشَّمْسَ
والقمرَ . وقد مضى فيما تقدم اختلافُ أحوالِ العبد فى القبض والبسط ، والجمع والفرق ،
والأخذ والرد ، والصحو والشكر ، ونجوم العقل وأفكار العلم ، وشموس المعرفة ونهار
التوحيد ، وليالى الشكِّ والبصْدِ ونهار الوصل ، وليالى المعجز والفرق وكيفية اختلافها ، وزيادتها
ونقصاتها .

« أَلَا هُوَ الْمُعِزُّ الْمُفَارِ » .

« المعز » المتمرِّز على المحبين ، « المفار » للمذنبين .

(١) آية ٢٢ سورة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَمِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَدَنٍ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْفُتُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُعْرَفُونَ » .

« من نفس واحدة وخلق منها زوجها » يعني آدم وحواء .

« وأنزل لكم من الأنثام » أى خلق لكم ، « ثمانية أزواج » فن الإبل اثنتين ، ومن البقر اثنتين ، ومن الضأن اثنتين ، ومن المواشى اثنتين .

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بد خلق » : أى يصوركم ، ويؤكِّب أحوالكم .

« في ظلمات ثلاث » : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة^(١) . ذَكَرَهُمْ نَسَبَهُمْ ثَلَاثًا يُعْجِبُوا بِأَحْوَالِهِمْ .

ويقال يَبَيِّنُ آثارَ أفعاله الحكيمية في كيفية خَلْقَتِك — من قطرتين — أمشلياً مشاكلاً الأجزاء ، مختلفة الصُّورِ في الأعضاء ، سَخَّرَ بَعْضَهَا لِمَحَالِّ الصِّفَاتِ الْحَيَوِيَّةِ كَالْعَيْنِ وَالْقُدْرَةِ وَالْحَيَاةِ .. وغير ذلك من أحوال القلوب ، وَسَخَّرَ بَعْضَهَا لِمَحَالِّ الْحَوَاسِ كَالْبَصَرِ وَالشَّمِّ وَغَيْرِهَا .

ويقال هذه كلها نِعَمٌ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْنَا فَذَكَرْنَا بِهَا — وَالنَّفْسُ مُجِبُولَةٌ ، وكذلك القلوبُ عَلَى حُبٍّ مِّنْ أَحْسَنِ إِلَهِهَا — اسْتِعْلَافًا لِّعِزَّتِهَا .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ . . . »^(٢) أى لِنِ الْإِلَهِ أَحْسَنَ إِلَيْكُمْ بِمَجْمَعِ هَذِهِ الْوُجُوهِ هُوَ رَبُّكُمْ .

(١) هكذا في م وهي الصواب أما في م فهي (البشيمة)

والظلمات الثلاث التي أوردتها القشيري على هذا التصرف إنما هي عياف ومكرمة ومجاهدة وقناعة والضمائم .

وقال أبو عبيدة : ظلمة سلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم (القرطبي ج ١٥ ص ٢٣٦) .

(٢) يبدو أن القشيري من هذه الجملة وحتى الآية الكريمة التالية انتابت حالة من حالات الذكر ، فبدأت كلماته أشبه بالتسبيح والتجويد .

أى : أنا خلقتكم وأنا رزقكم وأنا صوّرتكم فأحسنت صوّركم ، وأنا الذى أسبقتُ عليكم
 إنعامي ، وخصتكم بحملي إكرامي ، وأغرقتكم في بحار أنصالي ، وعرفكم استحقاق جمالي
 وجلالي ، وهديتكم إلى توحيدى ، وألزمتكم رعاية حدودى ... فالكم لا تنقطعون بالكلية
 إلى ؟ ولا - جون ما وعدتكم لدى ؟ وما لكم في الوقت بقلوبكم لا تنظرون إلى ؟

قوله جل ذكره : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ
 وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا
 يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
 أُخْرَىٰ » .

إِنْ أَرْضْتُمْ وَأَبَيْتُمْ ، وفي وجودكم تملأين . . . فَمَا تَفْتَقِرُ إِلَيْكُمْ ؛ إذ نحن أغنياء عنكم ،
 ولكنى لا أرضى لكم أَنْ تبقوا على !

باسكين ... أنت إن لم تكن لي فأنا عنك غني* ، وأنا إن لم أكن لك فن تكون
 أنت ! ومن يكون لك ؟ من الذى يُحْسِنُ إِلَيْكَ ؟ من الذى ينظر إليك ؟ من الذى يرحمك ؟
 من الذى ينثر الترابَ على جراحك ؟

من الذى يهتم بشألك ؟ بمن تسلو إذا بَقِيَتْ عَمِّي ؟ من الذى يبيحك رغيفاً بمشاقيل
 ذهب ؟ ! .

عَبْدِي .. أنا لا أرضى ألا تكون لي وأنت ترضى ألا تكون لي ! يا قليلَ الوفاء .
 يا كثيرَ النجى !

إِنْ أَطَعْتَنِي شَكَرْتُكَ ، وَإِنْ ذَكَّرْتَنِي ذَكَرْتُكَ ، وَإِنْ خَطَوْتَ لِأَجْلِي خَطْوَةً مَلَأَتْ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مِنْ شُكْرِكَ :

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّ الزُّلْمَةَ حَقٌّ لَفَرَشْنَا الْخُلُودَ أَرْضًا لَتَرْضَى

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ ذِي رَبِّهِ
مُنِيئًا إِلَيْهِ تُنْزِلُ إِذَا حَوَّلَهُ مُمَةً نَّسِيًّا
وَمَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجِلُّ
لَهُ أَعْدَاءُ » .

إِذَا مَنَّ ذِي رَبِّهِ خَشَعَ وَخَضَعَ ، وَإِلَىٰ قُرْبِهِ فَرَعَ ، وَتَمَلَّقَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَضَرَّع . فَلِذَا أَرَادَ عَنْهُ
ذُرُّهُ ، وَكَفَاهُ أَمْرَهُ ، وَأَصْلَحَ شَفْلَهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجِلُّ لَهُ أَعْدَاءُ ، فَيَعُودُ
إِلَىٰ رَأْسِ كُفْرَانِهِ ، وَيَنْهَمُ فِي كِبَائِرِ عَصِيَانِهِ ، وَيُشْرِكُ بِمَعْبُودِهِ . هَذِهِ صِفَتُهُ . . . فَسُحْقًا لَهُ
وَبُيُذًا ، وَلَسَوْفَ يَلْقَىٰ عَذَابًا وَخَزِيًّا .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا
وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً
رَّبِّهِ ^(١) » .

« قَائِمًا » : الْقَنُوتُ هُوَ الْقِيَامُ ، وَقِيلَ طُولُ الْقِيَامِ . وَالْمُرَادُ هُوَ الَّذِي يَقُومُ بِمَقْشُوقِ الطَّاعَةِ
أَوْقَاتَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ؛ أَيْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ .

وَالْمُزْمِرَةُ لِلْإِسْتِفْهَامِ أَيْ أَمَّنْ هُوَ قَائِلٌ كَنْ لَيْسَ يَقَائِلُ ؟ أَمَّنْ هُوَ قَائِلٌ كَالْكَافِرِ الَّذِي
جَرَىٰ ذِكْرُهُ ؟ أَيْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيَقَالُ الْقَنُوتُ الْقِيَامُ بِأَدَابِ الْخُلُعةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَيْرِ ضُورٍ وَلَا تَقْصِيرٍ . « يَحْذَرُ »
النَّزَابَ لِلْعَوْدِ فِي الْآخِرَةِ ، « وَيَرْجُو » الثَّوَابَ لِلْعَوْدِ . وَأَرَادَ بِالْحَذَرِ الْخُوفَ .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُا
الْأَلْبَابِ » .

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ صَاحِبِ : نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي مُبَارَكِ بْنِ عَفَّانٍ .

وَقَالَ مُشَاقُّ : نَزَلَتْ فِي حَارِثِ بْنِ يَاسِرٍ .

(أسباب النزول للرحمن ص ٢٤٧)

أى هل يستويان ؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل ! « الذين يملون » : العلم في وصف الخلق على ضربين : مجلوبٌ مُكْتَسَبٌ للعبد ، وموهوبٌ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ . ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمٌ برهانٍ وعلمٌ بيان ؛ فالعلوم الدينية كلها برهانية إلا ما يحصل بشرط الإلهام .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

أطيعوه واحذروا مخالفة أمره . « للذين أحسنوا في هذه الدنيا » بأداء الطاعات ، (والإحسان هو الإتيان بجميع وجوه الإمكان) ^(١) .

« وأرض الله واسعة » : أى لا تتعللوا بأذى الأعداء ؛ إِنْ نَبَأَ بِكُمْ مَنْزِلٌ فَتَمَسَّكُوا بِمَادَّةِ قَوْمٍ وَمِنْهُمْ إِنْ لَمْ يَأْتِ بِكُمْ ، فَارْضُ اللَّهُ وَاسِعَةً ، فَخَرُّوا مِنْهَا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ تَمَّ لَكُمْ فِيهِ عِبَادَتُكُمْ ^(٢) .

« إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . والصبر حَسْبُ النَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُهُ . ويقال هو تَجَرُّعُ كَلَامَاتِ التَّقْدِيرِ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْرَاهٍ وَلَا تَمَيُّسٍ .
ويقال هو التَّهَدُّفُ ^(٣) لِسَهَامِ الْبَلَاءِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » .

(١) تأخر ما بين قوسين فبناءً بعد (السهام البلاء) فوضعت في هذا المكان لأنه يوضح المقصود بتوضيح واحسنوا .

(٢) يقول القشيري في (إحدى وسائله السريين حائكا على السفر : «إن ابتلى مرية بجاه أو معلوم أو مصيبة حدث أو ميل إلى امرأة أو استماتة إلى معلوم وليس هناك شيخ يهتد به على ما به يتخلص من ذلك فعد ذلك حل له السفر والتمسك من ذلك الموضع ليخوش على نفسه تلك الحالة» (الرسالة ص ٢٠٢) .
(٣) التهدف = القنود والاستقبال .

مضى القولُ في معنى الإخلاص . وفي الخبر : إن الله يقول : « الإخلاص سرٌّ بين الله وعبيده » (١) .

ويقال الإخلاصُ لا يُفِيدُهُ الشيطان ، ولا يَطْلُبُهُ عليه التَّسَكُّن .

« أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. » أَمِرتُ لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِي وَفِي شَرْعِي . وَالْإِسْلَامُ الْاِقْتِيَادُ لِلَّهِ بِكُلِّ وَجْهٍ .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

أخاف أصنافَ العذابِ التي تحصل في ذلك اليوم .

قوله جل ذكره : « قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي أَخْلَصْتُ لِلدِّينِ خَيْرًا أَنُفْسُهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ النَّيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ لِلْبَيْنِ » .

هذا غاية الجزم والتهديد ، ثم بيّن أن ذلك غاية الخسران ، وهو الخزي والهوان . والخلاصُ — على الحقيقة — مَنْ خَسِرَ دُنْيَاهُ بِمُتَابَعَةِ الْهَوَى ، وَخَسِرَ عَقْبَاهُ بِارْتِكَابِهِ مَا رَزَقَهُ عَنْهُ نَهْيٌ ، وَخَسِرَ مَوْلَاهُ فَلَمْ يَسْجَعْ مِنْهُ فَيَأْخُذْ .

قوله جل ذكره : « لَهُمْ مِنْ قَرَقِيعٍ ظُلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ بِأَعْيَادٍ قَاتُونَ » .

أحاط بهم سُرادِقُهَا ؛ فهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَلَا يَقْتَرُونَ عَنْهَا . كَمَا أَنَّهُمْ الْيَوْمَ فِي جَهَنَّمَ

(١) أصلًا التبسغ في من إذ جعلها (سُر) بالياء والموافق هي (سر) ، والله ورد الخبر في الرسالة هكذا : أخبر النبي (ص) من جبريل عن الله سبحانه أنه قال : « الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحبته من عباده » (الرسالة ص ١٠٤) .

عَتَانِدِهِمْ ؛ يَسْتَدِيمُ حُبَابِهِمْ ، وَلَا يَنْتَطِعُ عَنْهُمْ عَقَابِهِمْ ^(١) .
 « ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ... » إِنْ خِفْتَ الْيَوْمَ كُنَيْتَ خَوْفَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَإِلَّا فَبَيْنَ
 يَدَيْكَ عِقَابُهُ كَسُودٍ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ
 يَبْدُلُوهَا ^(٢) » وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى »
 طَاغُوتُ كُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسُهُ ؛ وَإِنَّمَا يَجْتَنِبُ الطَّاغُوتَ مَنْ خَالَفَ هَوَاهُ ، وَهَاتَنَ رِضَا مَوْلَاهُ .
 وَعِبَادَةُ النَّفْسِ عِمَاقَةُ الْهَوَى — وَقَلِيلٌ مَنْ لَا يَبِيدُ هَوَاهُ « وَيَجْتَنِبُ حَدِيثَ النَّفْسِ .
 » وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ » : أَيْ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : « فَيَسِّرْ لَهُ ^(٣) » الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ
 الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ
 هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .
 « يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ » يَقْنِضُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِغَاةُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ الْإِتْبَاعُ يَكُونُ
 لِلْأَحْسَنِ . « أَحْسَنَهُ » : وَفِيهِ قَوْلَانِ ؛ أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْحَسَنِ وَلَا تَكُونُ الْهَمْزَةُ لِلْمُبَالَغَةِ ،
 كَمَا يَقَالُ مَلِكٌ أَعَزُّ أَيْ عَزِيزٌ . وَالثَّانِي : الْأَحْسَنُ عَلَى اللَّيَالَةِ ، وَالْحَسَنُ مَا كَانَ مَأْذُونًا فِيهِ فِي
 صِفَةِ الْخَلْقِ وَيُسَمَّى ذَلِكَ بِشَهَادَةِ الْعَلَمِ ^(٤) ، وَالْأَحْسَنُ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْأَصَوَّبُ . وَيُقَالُ الْأَحْسَنُ
 مَا كَانَ اللَّهُ دُونَهُ غَيْرُهُ ، وَيُقَالُ الْأَحْسَنُ هُوَ ذَكَرَ اللَّهِ خَالِصًا لَهُ . وَيُقَالُ مَنْ عَرَفَ اللَّهَ لَا يَسْمَعُ
 إِلَّا بِاللَّهِ .

(١) إِنْ اسْتَبِيلَ الْحُبَّ عَلَى قَلْبِ الصَّوْفِيِّ يَجْمَلُ يَنْظُرُ إِلَى الْعُقُوبَةِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى أَنَّهَا أَقْلُ تَمَلِيذًا إِذَا قَبِيتَ بِمَذَابِ
 الْمَجَرِّ وَوَقَّاتِي ، أَوْ عَلَى حِدِّ تَعْيِيرِهِمْ جَهَنَّمَ الْإِسْتِرَاقَ أَخْفَ مِنْ جَهَنَّمَ الْفِرَاقَ .. وَهَلَمْ فِي ذَلِكَ أَقْوَالٌ جَرِيئَةٌ كَثِيرَةٌ
 (انظر كتابنا : نَشَاةُ الصَّوْفِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ طَافَرُ الْمَارِيفِ ص ٢٤٨) .
 (٢) قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَنْفَارٍ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَهُمْ
 زَيْدٌ بِنْ هَمْرٍ وَأَبُو ذَرٍّ الْفَهْرِيُّ وَسُلَيْمَانُ الْفَارِسِيُّ (الوَاحِدِيُّ ص ٢٤٧) .
 (٣) نَزَلَتْ فِي عُبَّانٍ وَجَدَهُ الرَّحْمَنُ بَيْنَ صَيْفٍ وَطَلْعَةٍ وَسَمِعَهُ يَنْبِيءُ زَيْدٍ وَسَدَّ بَيْنَ أَبِي وَقَاصٍ وَكَانَ اسْمُهُمْ
 لِأَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَحْمِيهِمْ بِإِيمَانِهِ (الوَاحِدِيُّ ص ٢٤٧، ٢٤٨) .
 (٤) اسْتَعْمَدَ الْقَشِيرِيُّ هَذَا الْمَقْهُومَ فِي تَأْيِيدِهِ وَتَرْغِيصِهِ وَالسَّيَّاحُ بِالْمَعْنَى الصَّوْفِيُّ (الرَّمَالَةُ ص ١٦٦) .

وَيَقَالُ إِنَّ الْعَبْدَ دَوَاعِي مِنْ بَاطِنِهِ هِيَ هَوَاجِسُ النَّفْسِ وَوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَخَوَاطِرُ التَّلَاقِ وَخَطَابُ الْحَقِّ يَلْتَقِي فِي الرُّوْعِ ؛ فَوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ تَدْعُو إِلَى الْمَعَاصِي ، وَهَوَاجِسُ النَّفْسِ تَدْعُو إِلَى ثُبُوتِ الْأَشْيَاءِ مِنَ النَّفْسِ وَأَنْ لَهَا فِي شَيْءٍ نَصِيبٌ ، وَخَوَاطِرُ التَّلَاقِ تَدْعُو إِلَى الطَّاعَاتِ وَالتَّقَرُّبِ ، وَخَطَابُ الْحَقِّ فِي حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » : —

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ لِتَوْحِيدِهِ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ عَظُمَ عَلَيْهِمْ غَيْرُ مَقُولَةٍ ^(١) .

قوله جل ذكره : « أَتَمَنَّا حَقًّا عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْمَذَابِ أَتَمَنَّا

نُفْقَدُ مَنْ فِي النَّارِ ؟

الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْمَذَابِ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِنَابِهِمْ فِي النَّارِ ، وَفَرِيقٌ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْمَذَابِ بِالْجَبَابِ الْيَوْمَ ، فَهَمَّ الْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حِجَابِ قُلُوبِهِمْ ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِيْمَانٌ — وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا رَبَّهُمْ لَمْ غُرِفْ

مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ نَجْمِي مِنْ

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخَافُ اللَّهُ

لِلْعِبَادِ » .

وَعَدَّ الْمُطِيعِينَ بِالْجَنَّةِ — وَلَا عَمَلًا لَا يَخْلِفُ ، وَوَعَدَ التَّائِبِينَ بِالْغُفْرَةِ —

وَلَا عَمَلًا يَنْفَرُ لَمْ ، وَوَعَدَ لِلرَّيْدِينَ بِالْوُجُودِ وَالْوُصُولِ — وَإِنَّا لَمْ نَقَعْ لَمْ فَرَّةً فَلَا مَحَالَةَ مُصَدِّقٌ وَعَدَهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

(١) (عظم غير مقولة) أي غير حبيسة أو ممنوعة عن الإدراك وتمسح الإيمان ، فهذه هي اللمعة الأساسية للعقل في نظر المصنف — كما نوهنا بذلك . وربما كانت في الأصل (مقولة) فيها أيضاً يستقيم المعنى .

(٢) نعلم أن كثيرين في أوساط أهل السنة يمارضون العديد من مسائل التصوف ، ومن أمثالهم ابن تيمية وابن الجوزي .

فَسَلَكَهُ بِنَاصِحٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ
زَرْعًا مَخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَاهُ مُعْتَرِّجًا
ثُمَّ يَجْعَلُ خُطْلُمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا
لِلأُولَى الْأَلْبَابِ .»

أخبر أنه يُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ لَلطَّرِيقِ يُخْرِجُ بِهِ الزَّرْعَ فَيَخْضَرُ ، ثُمَّ يَأْخُذُ فِي الْجَنَافِ ، ثُمَّ يَصِيرُ
مَشْبَاً وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا إِلَى الْإِنْسَانِ ، يَكُونُ مَقْلًا ثُمَّ شَابًا ثُمَّ كَهْلًا ثُمَّ شَيْخًا ثُمَّ يَصِيرُ
إِلَى أَوْدَلِ السَّرِّ ثُمَّ فِي آخِرِهِ يَحْتَرَمُ .

وَقَالَ إِنَّ الزَّرْعَ مَالٌ يَأْخُذُ فِي الْجَنَافِ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ الْحَبُّ ، فَالْحَبُّ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ . . .
كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَالٌ يَحْصُلُ مِنْ قَضِيهِ وَصَوْلُهُ لَا يَكُونُ لَهُ قَدْرٌ وَلَا قِيَمَةٌ .

وَقَالَ إِنْ كُنَّا نَلْزَمُ قُوَّةَ عَقْلِهِ يَوْجِبُ اسْتِفَادَةً لَهُ بِعِلْمِهِ إِلَى أَنْ يَدْرِي مِنْهُ كَلَامٌ يُمْكِنُ
مِنْ أَنْوَارِ بَصِيرَتِهِ ، ثُمَّ إِنْ بَدَأَتْ لَأَمِحَةٌ مِنْ سُلْطَانِ الْمَارِفِ تَصِيرُ تِلْكَ الْأَنْوَارُ مَمْنُورَةً . فَلِذَا
بَدَتْ أَنْوَارُ التَّوْحِيدِ اسْتَهْلَكَتْ تِلْكَ الْجَمْلَةُ ، قَالُوا :

ظَنَّا اسْتِثْنَاءَ الصَّبْحِ أَدْرَجَ^(١) ضَوْدَهُ

بِأَنْوَارِهِ أَنْوَارَ تِلْكَ الْكَوَاكِبِ

قوله جل ذكره: « أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ

فهو على نورٍ من ربه فويلٌ للقاسيةِ

قلوبهم مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .»

جوابُ هذا الخطِابِ محضٌ... أَيْ أَقْنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟

لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْآيَةُ سَلَّ الرَّسُولُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — عَنِ الشَّرْحِ الْمَذْكُورِ فِيهَا ،

قَالَ : « ذَلِكَ نُورٌ يَتَذَفُّ فِي الْقَلْبِ ، قَبِيلٌ : وَهَلْ لَكَ أَمَارَةٌ ؟

(١) أَدْرَجَ الْفَتْحُ أَيَّ أَفَاءَ (الْوَسْطِ) . وَلِلْمَقْصُودِ أَنَّ أَنْوَارَ صَبَاحِ الْمَرَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ تَتَلَاقَى وَتَقْنَى مِنْهُ
سَطْرُوحُ الْحَقِيقَةِ . وَهِيَ وَرَدَتْ فِي ص ٤٢ مِنْ الرِّسَالَةِ (أَدْرَكَ) وَالصَّبْرُاقُ فِي نَفَرَاتِنَا (أَدْرَجَ) .

قال : ثم ؛ التجاني عن دار النور والإجابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للوث قبل نزوله^(١) .

والنور الذى من قبلك — سبحانه — نورُ ألقاوع بنجوم العلم ، ثم نورُ القوامع بيان النعم ، ثم نورُ المحاضرة بزوائد اليقين ، ثم نورُ للكاشفة بتجلى الصفات ، ثم نورُ للمشاهدة بظهور القات ، ثم أنوار الصمدية بمخائق التوحيد . وعند ذلك فلا وجد ولا قد^(٢) ، ولا قرب^(٣) ولا بُعد ... كلاً بل هو الله الواحد القهار^(٤) .

« فويلٌ لتأسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين »^(٥) : أى الصلبة قلوبهم ، لم تخرجها خواطر التمرغف فبقيت على نكرة الجحد .. أولئك في الضلالة الباقية ، والجهالة الباقية .

قوله جل ذكره : « الله زَكَّى أَحْسَنَ الحديث^(٦) »

كتاباً مفتاحاً مثنائى قشعرٍ منه جلودُ
الذين يحشرون وبهم ثم تلين جلودهم
وتقلوبهم إلى ذكر الله ذلك عدى الله

(١) أورد النزال هذا الخبير في مقوله ، وشرح مهمة هذا النور بأنه الذى يُطلب منه الكشف : وأنه ينهض من النور إلى (المقصد من الصلوات ط القاهرة ص ٢٥٥) .

(٢) حكماً في م وهي في ص (صمد) بالصاد وهي خطأ في النسخ ، فالوجه يقابله اللقد .

(٣) في ص (ولا فرق) والصواب أن تكون (ولا قرب) لتقابل (ولا بُعد) لأنه لو قال (ولا فرق) لكان قد قال (ولا جمع) مع أن الوقت هنا موقف (جمع) .. وللقصود اغطاء تنقبات الطوين ، وقصود إلى مرتبة التسكين ، أى الوصول إلى حال (جمع الجمع) .

(٤) تفيد هذه الفقرة في فهم كثير من المصطلحات ، وعده أول مرة تصادف القشيري عبارة (يظهر الذات) لأنه في مواضع كثيرة يلح على أن للمشاهدة (الصفات كالجبال أو الجلال أو ... الخ) أما (الذات) فقد جلست الصمدية — كما يقول — من أن يستشرف منها مخلوق .

(٥) نزلت في أبي لب وأولاده الذين قست قلوبهم عن ذكر الله . (قراسدى ص ٢٤٨) واختار القشيري القول بأن (سين) في الآية بمعنى (من) أى قست قلوبهم عن ذكر الله .

(٦) قال سعد بن أبي وقاص : قال أصحاب رسول الله (ص) : لو سدت ثنايا .. فأنزل الله عز وجل « الله زَكَّى أَحْسَنَ الحديث » فقالوا : لو قصمت علينا .. فنزل ونحن نقص عليك أحسن القصص

يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

« أحسن الحديث » لأنه غير مخلوق^(١)

« كتاباً مثابها » في الإعجاز والبلاغة .

« مثاني » : يثنى فيها الحكم ولا يُعْلَمُ بتكرار القراءة ، ويشتمل على نوعين :

الثناء عليه بذكر سلطانه وإحسانه ، وصفات الجنة والنار والوعد والوعيد .

« تشمر منه جلود الذين يخشون ربهم » إذا سمعوا آيات الوعيد .

« ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » إذا سمعوا آيات الوعد .

ويقال : تشمر وتلين بالغرف والرجاء ، ويقال بالتبض والبسط ، ويقال بالهيبه والأنس ،

ويقال بالتجلى والاستتار^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَمِنَ يَتَّقِي بوجهِه سوء العذاب

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ

تَكْسِبُونَ » .

أَيُفَنِّ يَتَّقِي بوجهِه سوء العذاب كَتَنَ ليس كذلك ؟ وقيل إنَّ الكافر يَلْقَى

النَّارَ أَوَّلَ مَا يَلْقَاهَا بوجهِه ؛ لأنه يُرْمَى فيها منكوساً . فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُؤَيِّ ذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا

يَلْقَى النَّصْرَةَ وَالسَّرُورَ وَالْكَرَامَةَ ؛ فَوَجْهُهُ ضَاحِكٌ مُسْتَبَشِّرٌ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ » .

(١) سُمِّيَ القرآن حديثاً لأن الرسول (ص) كان يُحَدِّثُ به أصحابه وقومه ، وهو كقوله : « فبلى حديثٌ بعده يؤمنون » وقوله : « أَتَسْمِنُ » هذا الحديث تمجيدون ويُحَدِّثُهُ أَهْلُ السُّنَّةِ مِنْ يَسْتَدْنِي أَنْ لَقَرَأَنَ مخلوق إلى أن « الحديث » من الحديث فالكلام مُحَدَّثٌ فقالوا : الحديث يرجع إلى التلاوة لا إلى الخطب ، كالتذكر مع المذكور إذا ذكرنا أسماء الله وصفاته الحسنى .

(٢) يستفيد الصوفية من هذه الآية في تدعيم نظريتهم في « السماع » والتأثرات النفسية والنفوسية الناجمة من تقلب الأحوال .

أشدّ العذاب ما يكون بئنة ، كما أن أتمّ السرور ما يكون فئنة .
ومن المجران والفرق ما يكون بئنة غير متوقع ، وهو أنكى للفؤاد وأشدّ وأوجعُ
تأثيراً في القلب ، وفي معناه قلنا :

فَبَيْتٌ بِمُخْمِرٍ وَالَّذِي مَطْمَئِنَّةٌ
وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالْزَمَانُ تَقَلَّبًا

وَأتمّ السرور وأعظمه تأثيراً ما يكون فجأة ، قال قائلهم :
بيننا خاطر الثنى بالتلافق سايح في فؤاده وفؤادي
جمع الله بيننا فالتقينا هكذا مُدَّةً بلا ميسار
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
» قرأنا عريفاً غير ذِي عِوَجٍ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » .

أى أوضحنا لهم الآيات ، ووقفناهم على حقائق الأشياء .
« غير ذِي عِوَجٍ » : فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
قوله جل ذكره : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ
هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا الْهَدُّ الْقَبِيلُ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

مَثَلُ الْكَافِرِ وَمِمْبُودِيهِ سَبَدَ اشْتَرَكٍ فِيهِ مَشَارِعُونَ .
« فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ » : فالصم يدعى فيه قومٌ وقوم آخرون ؛ فهذا يقول :
أنا صَمِّئْتُه ، وذلك يقول : أنا استعملته ، وثالث يقول : أنا عَبَّدْتُهُ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَشْبَهُ «عَبْدًا سَلَّمَ لِرَجُلٍ» أَيْ ذَا سَلَامَةٍ
مِنَ التَّلَازُعِ وَالْإِخْتِلَافِ .

وَيَقَالُ «رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ» تَجَاوِزَهُ أَشْغَالُ الدُّنْيَا، شَغْلُ الْوَلَدِ وَشَغْلُ
الْعِيَالِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْغَالِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْخَوَاطِرِ الشَّدِيدَةِ .

أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ خَالِصٌ لِلَّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهِ نَصِيبٌ؛ وَلَا لِلدُّنْيَا مَعَهُ سَبَبٌ إِذْ لَيْسَ مِنْهَا
شَيْءٌ، وَلَا لِلرِّضْوَانِ مَعَهُ شُغْلٌ^(١)، إِذْ لَيْسَ لَهُ طَاعَاتٌ يُدْرِكُ بِهَا، وَعَلَى الْجَمْلَةِ فَهُوَ
خَالِصٌ لِلَّهِ، قَالَ تَعَالَى لِمُوسَى: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»^(٢) أَيْ أَقْبَيْتُكَ لِي حَتَّى
لَا تَصِلَحَ لِنَفْسِي .

«الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْزَمُ لَا يَطُوعُونَ»: التَّنَاهَى لَهُ، وَهُوَ مُسْتَعِيقٌ لَصِفَاتِ الْجَلَالِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»

فَمِنْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
مُخْتَصِمُونَ» .

تَنَاهَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِلَيْهِ . وَنَعَى لِلْمُؤْمِنِ إِلَيْهِمْ فَفَرَّغُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنْ
مَآئِهِمْ^(٣)، وَلَا تَعَزُّوهُ فِي الْعَادَةِ بَعْدَ ثَلَاثٍ . وَمَنْ لَمْ يَتَفَرَّغْ مِنْ مَآئِهِمْ فَهُوَ وَأَنْوَاعُ
هُومِهِ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ^(٤) شَيْءٌ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَلْبُهُ مِنْ حَدِيثِ نَفْسِهِ، وَعَنِ
الْكُفْرِ بِجَمْلَتِهِ لِحَيْثُ يُجَدُّ الْخَيْرُ مِنْ رَبِّهِ، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ إِلَّا بَعْدَ فَنَائِهِمْ عَنْهُمْ،
وَأُنْشِدُ بِبَعْضِهِمْ :

(١) لَقِيتُ الْجَنَّةَ مِنْ كِبَارِ الشُّيُوخِ مَوَافِقَ لَا يَخْلُو الصِّبْيُ مِنْهَا — عَنْهُ مَنْ لَا يَفْقَهُونَهَا — الْكَثِيرُ مِنَ الْإِسْتِفْرَافِ،
مِنْ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ أَبُو يَزِيدَ الْبَيْهَقِيُّ: مَا الْجَنَّةُ ؟ لَمَّةٌ صَبِيحَانِ ! وَيَقُولُ: الْجَنَّةُ هِيَ الْحَوَابِ الْأَكْبَرُ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ
سَكَنُوا إِلَى الْجَنَّةِ، وَكُلُّ مَنْ سَكَنَ إِلَى الْجَنَّةِ سَكَنَ إِلَى سِوَاهَا فَهُوَ مُحِبُّوهُ .

(٢) آيَةُ ١٤١ سُورَةِ هُودَ .

(٣) مَعْنَاهُ كُلُّهَا فِي مَنْ وَهِيَ مَقْبُولَةٌ لِتَنَاسُبِ الْخُصُوصَةِ إِلَى مِيزَاتِهِ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ الْإِخْتِصَامِ .

(٤) يَقْصِدُ حَدِيثَ التَّنَاهَى مِنْ كُلِّ أَرَبٍ وَسَبْعَةٍ، أَيْ التَّنَاهَى بِالْمَعْنَى الصَّوْقِ .

كتابي إليكم بعد موق بليقة

ولم أدر أفي بعد موق أكتب

قوله جل ذكره : « فَنَ أَعْلَمَ مِن كَذَبٍ عَلَى

اللهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ

فِي جَهَنَّمَ مَنُورٌ لِّلْكَافِرِينَ » .

الإشارة فيه إلى من أشار إلى أشياء لم يَبْلُغْها ، وادَّعى وجودَ أشياء لم يَدُقْ شَيْئًا منها ،

قال تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ »^(١) .

ويقال : لا بل هؤلاء هم الكفار ، وأما اللدَّعي الذي لم يَبْلُغْ ما يَدَّعيه فليس يكذب على

ربه إنما يكذب على نفسه ؛ حيث ادَّعى لها أحوالاً لم يَدُقْها ولم يَحْدِثْها ، فأما غيرُ الصَّعِقِ الذي

يكذب على الله فهو الجاحد وللبتدع يقول في صفة الحقِّ — سبحانه — ما يتقدَّسُ

ويصلي عنه^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ

أُولَئِكَ مِ الْتَّوَنُونَ » لم ما يشاؤون عند

ربِّهم ذلك جزاءُ الْحُسْنِينَ » .

الذي جاء بالصدق في أفضله من حيث الإخلاص ، وفي أحواله من حيث الصدق ،

وفي أسرارِهِ من حيث الحقيقة .

« ذلك جزاءُ الْحُسْنِينَ » : الإحسانُ — كما جاء في الخبر — أن تعبد الله كأنك تراه .

فَنَ كَانَتْ — اليومَ — مشاهدته على اللوام كانت رؤيته غداً على اللوام ، وَمَن لَّا غَلا^(٣) .

(١) آية ٦٠ من هذه السورة .

(٢) وإلى أمثال هؤلاء أشار التشبُّير في مسهبِل رسالته قاللاً : « .. ثم لم يرشوا بما تملكون من سوء الإفعال ، حتى أشادوا إلى أهل الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم قدروا من رِقِّ الاطلاع ، وتحققوا بمخاطق المرصاة ، وأنهم قاصدون بالغنى بجرى عليهم أحكامه وهم عمو ، وأنهم كوشلوا بأسرار الأودية وزالت منهم أحكام القسرية ، والقتال عنهم فيهم إذا نقضوا » الرسالة ص ٣ .

(٣) دوى مسلم عن جابر بصيحت كَلَّ حَيْدَ عَلَى مَدَامَاتِ عَلَيْهِمْ ٥٧/٦ ؛ فيض القدير للتلمذى جوسن كان بجافة أن الله عليها .

قوله جل ذكره : « لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

من لا يكون مؤمناً فليس من أهل هذه الجنة . ومن كان معه إيمان : فلنجا كفر عنه
أسوأ ما عمل به فأسوأ أعماله كباتره ؛ فإن غُفِرَتْ يَجْزِيَهُم بِأَحْسَنِ أَعْمَالِهِمْ . وأحسن أعمالهم
الزُّمْنُ الْإِيمَانُ والمعرفة ، فإن كان الإيمان مؤقتاً كان ثوابه مؤقتاً ، وإن كان الإيمان على
الدوام ثوابه على الدوام . ثم أحسن الأعمال عليها أحسن الثواب ، وأحسن الثواب الرؤية
فيجب أن تكون على الدوام ^(١) — وهذا استدلال قوی .

قوله جل ذكره : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ .. » .

استفهام والمراد منه التضرر ؛ فالله كافٍ عبده اليوم في عرفانه بتصحیح إيمانه ومنح
الشُّرْكِ عنه ، وغداً في غفرانه بتأخير المذاب عنه ، وما بينهما فكفايته تامة وسلامته طامة .

قوله جل ذكره : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
مَنْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ
بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

قَرَّرَ عليهم علو صفاته ، وما هو عليه من استحقاق جلالة قافروا بذلك ، ثم طالبهم بذكر
صفات الأصنام التي عبدوها من دونه ، فلم يمكنهم في وصفها إلا بالجدانية ، والبعد عن الحياة
والعلم والقدرة والتسكن من الخلق ، فيقول : كيف أشركتم به هذه الأشياء ؟ وهؤلاء
استحييتهم من إطلاق أمثال ذلك في صفته ؟ .

(١) « فيجب أن تكون الرؤية على الدوام » نلاحظ إلحاح القشيري على هذا الرأي في غائمة تفسيره للآية السابقة
وقوله الآية ، ولهذا الرأي أهمية في مسائلين : خلود الجنة والرؤية .. مسألتان كان جوابهما جديداً كثيراً .

قُلْ - يا محمد - حَسْبِيَ اللَّهُ ، عليه يتوكل المتوكلون ؛ كافيَّ اللَّهُ للتَّوَكُّدُ بالجلالِ ، القادرُ على ما يشاء ، للتَّفَضُّلِ على ما يشاء .

قوله جل ذكره : « قُلْ يا قوم اعملوا على مكاتبتكم إني

عالمٌ بفسوف تعلمون » من يأتيه عذابٌ

يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقيمٌ »

سوف ينكشف رُيحُنَا وخسرانكم ، وسوف تظهر زيادتنا وشماتكم ، وسوف نطالبكم فلا جوابَ لكم ، ونُعَذِّبُكُمْ فلا شفيعَ لكم ، ونُذَمِّرُ عليكم فلا صريحَ لكم .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ

بِالْحَقِّ قَدْ آمَنَّا بِمَا نَحْنُ بِغِلْظِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّا بَعِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ » .

مَنْ أَحْسَنُ فِلَاحَانُهُ إِلَى نَفْسِهِ اكْتَسَبَهُ^(١) ، وَمَنْ أَسَاءَ فِلَاؤُهُ عَلَى نَفْسِهِ جَلَبَهُ - وَالْحَقُّ غَفَى^(٢) مِنَ التَّجَمُّلِ بِطَاعَةِ مَنْ أَقْبَلَ وَالتَّتَقُّصِ بِزَلَّةٍ مَنْ أَعْرَضَ .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَفَّوْا

عَلَيْهَا لِلْوَيْلِ وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ لِمَا أَجَلَ

مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ » .

يقبض الأرواح^(٣) حين موتها ، والتي لم تمُتْ من النفوس في حال نومها ، فلذا نامت

(١) (اكتسبه) موجودة في م وسقطت في ص .

(٢) واضح هنا أن القشيري لا يكاد يميز بين (الغنى) و (الروح) مع أنه في الرسالة ص ٤٨ يميز بينهما فيقول (يحمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في القالب) = البدن وحى عمل الأخلاق المحلولة (موجودة في الرسالة خطأ المطبوعة) كما أن الروح لطيفة في القالب هي عمل الأخلاق المحمودة . والجميع إنسان واحد ، وكرهتهما بصفة =

فيقبض أرواحها^(١). وقبض الأرواح في حال الموت بإخراج الطيفة التي في البدن وهي الروح ، ويخلق بذلك الاستعمار والعلم والنفس في عمال الإحساس والإدراك . ثم إذا قبض الأرواح عند الموت خلق في الأجزاء الموت بذلك الحياة ، والموت يبقى الإحساس والعلم . وإذا رد الأرواح بعد النوم إلى الأجساد خلق الإدراك في عمل الاستعمار فيصير الإنسان متيقظاً ، وقبض الله الأرواح في حال النوم وردت به الأخبار ، وذلك على مراتب ؛ فإن روحاً قبض على الطهارة ترتفع إلى العرش وتسجد لله تعالى ، وتكون لها تعريفات ، ومعها مخاطبات « والله أعلم » .

قوله جل ذكره : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل : لا يعلمون » .

أى أنهم - وإن اتخذوا على زعمهم من دون الله شفعاء يحكمهم لا بتعريف من قبل الله أو إخبار - فإن الله تعالى لا يقبل الشفاعة من أحد إلا إذا أذن بها ، وإن الذي يقولونه إنما هو افتراء على الله .

قوله جل ذكره : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب »

«الطائفة في الصورة تكون الملائكة والقياميين بصفة الطائفة» ثم يهود بمقتل متحدثاً عن الروح فيقول : الأرواح غلظ فيها عنه أهل التحقيق من أهل السنة فيقول إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة في القالب (الطائف ص ٢٠ ص ٢١)

وقى تدبيرنا أن المسألة ذات جانبين : فإذا نظرنا إلى الموضوع خارج دائرة التصوف فالروح والنفس بمعنى واحد متصل بالحياة ، وقبضهما معناه موت البدن بدليل ما ورد عن الرسول (ص) ، فهو مرة يقول (كسا في حديث أم سلمة) : دخل رسول الله (ص) على أبي سلمة وقد شق (من انتفخ) بصره فأخضه ثم قال : «إن الروح إذا قبض تبعه البصر» وفي مرة أخرى يقول (ص) في حديث صحيح أخرجه ابن ماجه : «تخضر الملائكة فإذا كان الرجل مسلماً قالوا اغرسى أيتها النفس الطيبة» وفى صحيح مسلم : قال «ص» : «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصفان بها» .

أما الجانب الآخر للمسألة فهو كونها مصطلحين صوفيين ؛ فالنفس على الملوك والروح على المحمودات
وفى ذلك ركن هام في منقب التشيخي | يتخلل عنه في كتاب من كتبه ، كما هو ملتبس كثيرين من المتصوفة .
(١) قبض الروح عنه النوم منتهى ترتيقها (الرسالة ص ٤٨) .

الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ

الذين من دونه إذا هم يستبشرون .

اشأزت قلوب الذين جعلوا ولم تسكن هوسهم إلى التوحيد ، وإذا ذُكِرَ الذين من

دونه استأنسوا إلى سماعة : —

« قل اللهم فاطر السموات والأرض

عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين

عبادك فيما كانوا فيه يختلفون .

عَلَّمَهُ — صلى الله عليه وسلم — كيف يشي عليه — سبحانه ^(١) .

وتشمل الآية على الإشارة إلى بيان ما ينبغي من التنصل والتذلل ، وإظهار التقوى

والتفضل ، وتحقيق الاتعاض بمحسن التوكل . ثم أخبر عن أحوالهم في الآخرة فقال :

« ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً

ومثله معه لافتدوا به من سوء المذابح

يوم القيامة » .

لافتدوا به .. ولكن لا يقبل منهم ، واليوم لو تصدقوا بمقتال ذرة لقبيل منهم . كما أنهم

لو بسكوا في الآخرة بالعماء لا يرزقهم بكاؤهم ، ولكنهم بعممة واحدة -- اليوم -- يُمْنَى

الكثير من دواوينهم .

قوله جل ذكره : « وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا

يَحْتَسِبُونَ » .

في سماع هذه الآية حركات لأصحاب الاعتناء .

(١) في صحيح مسلم : أن عائشة سئلت بأى شيء كان النبي صلى الله عليه وسلم يسطع صلاته إذا قام من

الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض .

... يختلفون » ، إحدى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وقال سيد بن جبر : إني لأعرف آية ما قرأها أحد قط وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، قوله تعالى : « قل

اللهم فاطر يختلفون » .

وفي بعض الأخبار أن قوماً من السليين من أصحاب الذنوب يُؤثَرُ بهم إلى النار [فلذا وافوها يقول لهم مالك : مَنْ أَنْتُمْ ؟ إن الذين جاءوا قَبْلَكُمْ من أهل النار وجوههم كانت مَسْوَدَّةً ، وهِيْؤُهُمْ ^(١)] كانت مَرْقَّةً . . وأتم لستم بذلك الصفة ، فيقولون : ونحن لم نتوقع أن نقتلك ، وإنما انتظرنا شيئاً آخر ! قال تعالى « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » ^(٢) .

« وبدا لهم سيئات ما كَسَبُوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

حق بهم وبأن استهزأهم وجزاهم بمكرهم .

قوله جل ذكره : « فلذا مَسَّ الإنسانُ ضَرْباً دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نَمَةً مِّثْلًا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بِلِ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » .

في حال الضَرْبِ يَتَبَرَّعُونَ من الاحتقاق والحول والقوة ، فلذا كَثَفَ عنهم البلاء وقوا في منالطهم ، وقالوا : إِنَّمَا أُوتِينَا هَذَا بِاسْتِحْقَاقٍ مِثْلًا ، قال تعالى : « بل هي فِتْنَةٌ وَلَكُمْ فِيهَا لَمَسَاتٍ أُولُتْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ هَذَا قَالُوا وَحَسْبُوا ، ولم يحصلوا إلا على منالطهم ، فأصابهم شَوْمٌ ما قالوا ، وهؤلاء سيصيبهم أيضاً مِثْلُ ما أصاب أولئك .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَلْمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(١) ما بين القومين مستغرق في حاشي الورقة ٩٦ ، من الفلسفة ص (٢) من مجاهد قال : إنهم عملوا أعمالاً توهوا أنها حسنة فلذا هي سيئات . وقيل عملوا أعمالاً توهوا أنهم يتوبون منها قبل الموت فأدركهم الموت قبل أن يتوبوا . أما القنبري فيصرها إلى المؤمنين البسة ، وواضح أنه يميز بين حالة ورودهم إلى النار ، وورود الكفار ، وهؤلاء كل تأكيد وأولئك إلى حين .

أو لم يروا كيف خالف بين أحوال الناس في الرزق : فَمَنْ مُوسِعَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ مُصْنَعِي عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ لِوَاحِدِهِمْ مِنْهُ شَيْءٌ يَمَّا خُصَّ بِهِ مِنَ التَّضَلُّيلِ أَوْ التَّكْثِيرِ .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَنْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ^(١)

القسمية « يا عبادي » مَدْحٌ ^(٢) ، والوصفُ بأنهم « أسرفوا » ذَمٌّ . فَمَا قَالَ :

« يا عبادي » طمَعُ الْمُطِيعِينَ فِي أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَصَوِّدِينَ بِالْآيَةِ ، فَرَضُوا رِمَاسَهُمْ ، وَنَكَّسَ الْمُعَاذَةَ رِمَاسَهُمْ وَقَالُوا : مَنْ نَحْنُ . . . حَتَّى يَقُولَ لَنَا هَذَا ۚ

فَقَالَ تَمَلَّ : « الَّذِينَ أَسْرَفُوا » فَاهْلَبِ الْحَالُ ؛ فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَكَّسُوا رِمَاسَهُمْ ائْتَمَشُوا وَزَالَتْ ذِلَّتُهُمْ ، وَالَّذِينَ رَفَعُوا رِمَاسَهُمْ أَطْرَقُوا وَزَالَتْ صَوْلَتُهُمْ ^(٣) .

فَمِ أَزَالَ الْأَعْجُوبَةَ عَنِ الْقِسْمَةِ بِمَا قَوَّيَ رَجَاءَهُمْ بِقَوْلِهِ : « عَلَى أَنْفُسِهِمْ » يَتَنَبَّهُ أَنْ أَسْرَفَتْ فَعَلَى نَفْسِكَ أَسْرَفَتْ .

« لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ » : بِمَا قَطَعْتَ اخْتِلَافَكَ إِلَى بَابِنَا فَلَا تَرْفَعْ قَلْبَكَ عَنَّا .
« إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » الْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي « الذُّنُوبِ » لِلِاسْتِغْرَاقِ وَالْمَعْمُومِ ،
وَالذُّنُوبُ جَمْعُ ذَنْبٍ ، وَجَاءَتْ « جَمِيعًا » لِلتَّأْكِيدِ ؛ فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَغْفِرُ وَلَا أَتْرُكُ ،
وَأَعْفُو وَلَا أُبَيِّئُ .

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول عدة أقوال بشأن من نزلت فيه هذه الآية الكريمة ، ومن هذه الروايات :
من ابن عباس قال : نزلت في أهل مكة حين قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له ، فكيف نجاهر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلها آخر وقتلنا النفس التي حرم الله .
وقال ابن عمر : نزلت في عباس بن ربيعة والوليد بن الوليد وقرن من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فتنوا وطعنوا فتركوا دينهم .

ويروي أنها نزلت في وحشي قاتل حمزة . (الواحدي ص ٢٤٨ ، ٢٤٩) .

(٢) يقول النفاق : ليس شيء أشرف من البيودية ، وقد سعى بها الحق إليه (ص) فقال : سبحان الذي أسرى بعبده ، وقال : فأرسلني إليه ما أوسى - ولو كان اسم أبيل من البيودية لسماه به . (إبراهيم ص ١٠٠) .

(٣) راجع ما قاله القشيري في قصة داود : (إِنَّ زُلَّةَ أَسْفَلَ عَلَيْهَا يَوْمُكَ إِلَى دَبْكِ أَهْلِكَ طَوِكَ مِنْ طَاعَةِ أَصْحَابِكَ بِمَا يَضْمِكُ مِنْ دَبْكِ) . ويقول جل من ألبى طالب : مَا فِي الْقُرْآنِ أَوْسَعُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ . ويقول عبد الله ابن عمر : هذه أرجى آية في القرآن .

ويقال إن كانت لكم جناية كثيرة عمية فلي بشأنكم عناية قديمة^(١).

قوله جل ذكره: «وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ».

الإنيابة الرجوع بالكلية . وقيل الفرق بين الإنيابة وبين التوبة أن التائب يرجع من خوف العقوبة ، وصاحب الإنيابة يرجع استحياء لكرهه^(٢) .

«وَأَسْلُوا لَهُ» : وأخلصوا في طاعتكم ، والإسلام — الذي هو بعد الإنيابة — أن يعلم أن نجاة نفسه لا بإنابته ؛ فبفضله يصل إلى إنابته . لا بإنابته يصل إلى فضله .

«من قبل أن يأتيكم العذاب» قبل الفراق . ويقال هو أن يفوته وقت الرجوع بشهود الناس ثم لا ينصرف عن ذلك .

قوله جل ذكره : «أَنْ قَوْلَ نَفْسٍ يَاحَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّقْتُ فِي جَنَّةِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ * أَوْ قَوْلَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ قَوْلَ حِينَ تَرَى الصَّلَاةَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ» .

يقال هذا في أحوالهم يروون أمثالهم هدموا عليهم في أحوالهم ، فيتذكرون ما سلف من تقصيرهم ، ويرتدون ما وفقوا إليه أولئك من المراتب فيمضون بنواجز الحسرة على أنامل الخلية .

(١) واضح أن القشيري يحاول بطرقه أن يفتح كل أبواب الأمل أمام الناس ، فهما كانت الذنوب كثيرة فغواها أكبر وأشمل ، وهذا أن نفس القرآن يحصل كل الحارات التي يبلها القشيري بسباحته الصوفية الأصلية .

(٢) ينقل القشيري عن شيخه الاتفاق قوله في هذا الخصوص : وأولها توبة وأوسطها إنيابة وآخرها أوبة . ثم يعلق على ذلك قائلا : فكل من تاب لحيف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعا في القرب فهو صاحب إنيابة ، ومن تاب مراعاة للأمر — لا لرغبة في ثواب أو رغبة من عقاب — فهو صاحب أوبة . ويقال التوبة صفة للمؤمنين (وتوبوا إلى الله جميعا أي المؤمنون) ، والإنيابة صفة الأولياء والمقربين (وجاء بقلب منهج) ، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين (ثم ليد أنه أرباب) الرسالة ص ٥٥ .

أو يقول : لو أن الله هداني لكنتُ كذا ، ويقول آخر : لو أن لي كربةً فأكون كذا ، فيقول الحق — سبحانه :

« على قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » .

فَذُقْ من العذاب ما على جُرْمِكَ استوجبت .

قوله جل ذكره : « ويومَ القيامة ترى الذين كذبوا

على الله وجوههم مُسْوَدَّةٌ أليس في

جهنم مثوىً للتكافرين » .

هؤلاء الذين ادَّعوا أحراراً ولم يصدّقوا فيها ، وأظهروا الحبة لله ولم يصدقوا بها ،

وكفاهم انضاحاً بذلك ! وأشدوا :

وَلَا ادَّعَيْتُ الْحَبَّ قَالَتْ كَذَبَتِي

فَالِ أَرَى الْأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا ١١

فَا الْحَبُّ حَقٌّ تَنْزِفُ النِّينَ بِالْحِكَا

وَنُغْرَسُ حَقٌّ لَا تَجِيبُ لِلنَّادِي ١٢

قوله جل ذكره : « وَيَصْبِيءُ اللَّهُ الَّذِينَ أَتَوْا بِمَنَاذِرِهِمْ

لَا يَسْمَعُهُمُ السَّوْدَ وَلَا مُمْ يَمْرُؤُونَ » .

كَامَ — اليومَ — عن الحاقلة ، حليم — غداً — من العوالم ، فالتنوع فازوا

بسعادة العارفين ؛ اليومَ عصمة ، وغداً نعمة . اليومَ عناية وغداً حماية وكفاية .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » .

(١) ورد الشاهد الثمري في الرسالة ص ١٦٠ هكذا : البيت الأول مطابق ، والثاني هكذا ومتبرعاً بذلك :-

فَا الْحَبُّ حَقٌّ يَلْصِقُ الْقَلْبَ بِالْحَشَا وَتَقْبَلُ حَقٌّ لَا تَجِيبُ لِلنَّادِي

وَتَقْبَلُ حَقٌّ لَا يَلِيقُ إِلَهَ الْحَقِّ سَوَى مُطْلَقَةِ تَبَكِّي بِهَا وَتَنْجِيسِهَا

وقد أوردته صاحب الجمع على هذا النحو (الجمع ص ٣٢١) .

تدخل أ كسابُ البلاد في هذه الجملة ، ولا يَدْخُلُ كلامُهُ فيه ؛ لأنَّ الحَاطِبَ لا يدخل تحت الخطاب ولا صفاته^(١) .

قوله جل ذكره : « له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآياتِ الله أولئك هم الخالسون » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمرادُ منه أنه قادر على جميع اللقنونات ، فسا يريد أن يُوحده أو يحدّه .

قوله جل ذكره : « قل أغفِرْ الله تأمروني أعبدُ أيها الجاهلون » .

أى متى يكون لكم طمَعٌ فى أن أعبدَ غيره .. ويتوحيده ربَّانى ، وبغيره غَدَّائى ، وبشرًا بِحُبِّهِ سَقَائى ؟^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أَوْحَى إِلَيْكَ وإلى الذين من قبْلِكَ لَئِنْ أَفْرَكْتَ لَيُعْبَدَنَّ عَمَلُكَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الْخَالِسِينَ » .

لَئِنْ لَاحِظْتَ غَيْرِى ، وَأَقْبَيْتَ مَنِ فى الإِبْلَاعِ سِوَاىَ أَحْبَبْتَ عَمَلَكَ ، وَأَبْلَغْتَ سَمِيكَ ، بِلِ اللَّهِ — يا محمد — فاعْبُدْ ، وَكُنْ من جملة عبادى الشاكرين .

قوله جل ذكره : « وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

(١) هذه إشارة عظيمة فى شأن الموضوعات الكلامية المصلة باللفظ الإنشائي ، وبسألة خلق القرآن (أنظر كتابنا : الإمام القشيري : تصوفه وأدبه ط مؤسسة الحلبي للنشر) .

(٢) هذه هى التربة التى منها القشيري فى موضع سابق حين قال : « ليس الاعتبار بالتربة بل بالترية » .

ما عرفوه حق معرفته^(١) ، وما وصفوه حق وصفه ، وما عظموه حق عظمه ؛ فمن انصف
بتبثيل ، أو جتّع إلى تبثيل^(٢) ، حادّ عن السنّة الشّليّ وأعرف عن الطّريقة الحسنى . وصفوا
الحقّ بالأعضاء ، وتوهّموا في تمثله الأجزاء ، فاقدروه حقّ قدره ؛ فانطلق في قبضة قدرته ،
والسّموات مطوّيات يمينه ، ويمينه قدرته^(٣) . ولأنّه أقسم أن يُفني السّموات ويطويها فهو
قادر على ذلك .

« سبحانه وتعالى » تنزيهاً له عما أشركوا في وصفه .

قوله جلّ ذكره : « وَخُشِعَ فِي الصُّورِ فَصَبَّحَ مَنْ

فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَمِمَّا مَ
قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » .

في النفخة الأولى تموتون ، ثم في النفخة الثانية تُحْشَرُونَ ، والنفختان متجانستان ؛
ولكنه يخلق عند إحداهما لأزواج الأرواح ، وفي الأخرى حياة النفوس ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ النّفخةَ
لا تعمل شيئاً لهنّ^(٤) ، وإنما الجبارُ بقدرته يخلق ما يشاء .

قوله جلّ ذكره : « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورٍ رَبِّهَا وَوُضِعَ

(١) أتى النبي صلّى الله عليه وسلم رجل من أهل الكتاب فقال : يا أبا القاسم بلغك أنّ الله يعمل الخلاق على
أصبع والارضين على أصبع والشجرة على أصبع والثرى على أصبع ! فضحك رسول الله (ص) حتى بدت نواجذه ،
فأنزل الله تعالى : « وما تقدروا الله حقّ قدره » (الرواسي ص ٢٥٠) .

(٢) التبثيل على ثلاثة أقسام : تبثيل المتنوع عن صانعه وخالقه . وتبثيل الصانع - سبحانه - عن كاله
المقدس بتبثيل ألياته وصفاته وأفعاله ، وتبثيل معاملته بما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .. ومن هذا شرك
طائفة أهل وحله الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ولا مخلوق (الجواب الكافي ص ٩٠ لابن القيم ط التتمة) .

(٣) نصب أن من دواعي التّأويل أنّ الله سبحانه وتعالى قد يغاطبنا عن ذاته وصفاته بما نتغاطب به فيما بيننا
حتى نفهم ، والآية تشير إلى ذلك في وضوح قته عبر من قدرته مرة بالقبضة ومرة باليمين ، ومعنى هذا أنّ الله يقدر
على قبض الأرض وجميع ما فيها بقوة أحسنها على ما يعمل بأصبعه .

(٤) كلام القشيري عن تجانس الشخصين واختلاف تأثيرهما ، ثم كلامه بعد قليل عن تجانس السّوقين واختلاف
وجهتهما .. مقصوده - كما فطن - أن القياس الإنساني ليس دائماً على صواب ، مثال ذلك قوله تعالى : « مطويات
يمينه » ونسبة الرجوع إليه والعين .. ونحو ذلك قد سبحانه ليس بالضرورة أن يكون على نحو ما يفهم الإنسان
من هذه الماهيات ، فالكلمة هي الكلمة .. ولكن شتان بين الدلالة هنا والدلالة هناك .. والله أعلم بمقصود القشيري ..
ولكن هكذا نلن .

الكتلُ وجيء بالنبيين والشهداء

وقُتِبَ بينهم بالحقِّ وهم لا يظلمون .

نور ينفقه في القيامة فتشرق القيامة به ، وذلك عند تكوير الشمس وانكدار النجوم ، ويستضيء بذلك النور والإشراق قومٌ دون قوم . الكفارُ يَبْقَوْنَ في الظلمات ، وللمؤمنون نورهم يسرى بين أيديهم .

ويقال اليومَ إشراق ، وغداً إشراق ، اليومَ إشراقُ القلبِ بحضوره ، وغداً إشراقُ الأرضِ بنورها . ويقال غداً أنوار التوَلَّى للمؤمنين ، واليومَ أنوار التجلُّ للعارفين .

قوله جل ذكره : « وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا حَمَلَتْ وَهْوَ

أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ » .

إن كان خيراً فَخَيْرٌ ، وإن كان غير خَيْرٍ فَغَيْرُ خَيْرٍ .

قوله جل ذكره : « وَسَيَقِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا

حَتَّى إِذَا جَاوَاهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ

عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَسَبُنَا

الْمَنَاقِبُ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

الكفار يُسْقَوْنَ إلى النار عِقَابًا ، وللمؤمنون يُسْقَوْنَ إلى الجنة لُطْفًا ؛ فَالسَّوْقُ يجمع

الجنسين . . ولكن شتان بين سَوَقٍ وَسَوَقٍ ! .

فإذا جاء الكفارُ قَابِلُهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ بالتوبيخ والعتاب والتأنيب ؛ فلا تكريم ولا تعظيم ،

ولا سؤال ولا استقبال . . بل خِزْيٌ وهوانٌ ، ومن كل جنسٍ من المناب ألوان .

قوله جل ذكره : « وَسَيَقِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ

زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاوَاهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » .

سَوِّقْ وَلَكِنْ بَلِّغْ نَصْرَ ، سَوِّقْ وَلَكِنْ بَرِّعْ وَمُطَرِّبْ .

« زمرًا » جماعتٌ ، وهؤلاء هم عوالمُ أهل الجنة ، وفوق هؤلاء : « يَوْمَ نَخْرُسُ الَّذِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ نُسًّا »^(١) وفرقهم مَنْ قَالَ فِيهِمْ : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلنَّارِ بَدِيدًا »^(٢) وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ يُسَاقَى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَبَيْنَ مَنْ تَقَرَّبُ مِنْهُ الْجَنَّةُ . هؤلاء الظالمون ، والآخرون للتصديق ، والآخرون الساجدون^(٣) .

« حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا . . . » وَإِذَا وَافَوْا الْجَنَّةَ تَكُونُ الْأَبْوَابُ مُنْفَتِحَةً تَلَا يَسِيهِمْ نَسَبُ الْإِنْتِظَارِ .

وَيَقَالُ إِذَا كَانَ حَدِيثُ الْجَنَّةِ الْوَاجِبُ أَنْ يَلْحَظَ إِلَيْهَا وَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يُسَاقَ ، وَلَهُمْ هَؤُلَاءِ لَا وَغَةَ لَمْ فِي الْجَنَّةِ بِكَثِيرٍ ؛ فَلَهُمْ فِي الطَّرِيقِ قَوْلُ « مَبِيتُمْ » ؛ أَيْ أَنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِطَفْحِ دُونَ عَفْ .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا الْحُدُودُ الَّتِي كُنَّا نَعْبُدُكُمْ وَمِمَّا جَاءَنَا مِنَ الْمَوْتِ وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُونَ »^(١) تَتَّبِعُونَ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَمِمْ أَجْرُ الْعَالَمِينَ » .

صَدَقْنَا وَعَدَهُ إِذْ خَلَقْنَا الْجَنَّةَ ، وَلِكُلِّ لَبَّةٍ .

« وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ » أَيْ أَرْضَ الْجَنَّةِ ؛ تَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ . وهؤلاء قوم مخصوصون ، وَالْقَوْمِ مِمَّنْ قَوْمُ « التَّوَكُّفِ » أَقْوَامُ آخَرُونَ .

قوله جل ذكره : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ

الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ فِيهِمْ الْحَقُّ وَقِيلَ لِلْحُدُودِ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ فِي عُمُومِ الْأَوْقَاتِ . . هذا هو حُلُّ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ . وَقُضِيَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ بِالْحَقِّ ، لَهُؤُلَاءِ دَرَكَاتٌ وَلِأُولَئِكَ دَرَجَاتٌ . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ الْحَالَاتِ . وَقُضِيَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ أَيْضًا فِي مَقَامَاتِهِمْ عَلَى مَا أَرَادَهُ الْحَقُّ فِي عِبَادَاتِهِمْ .

(١) آية ٣١ سورة ق .

(٢) آية ٨٥ سورة مريم .

(٣) إشارة إلى الآية : وَلَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ (آية ٣٣ سورة طه) .

سورة المؤمن^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من تحقق بها شرف من الحق مناله ، وصفت عنده أحواله ،
وعلم على نفسه رداء الفضائل ، وأيقن قلبه جلال الإقبال ، وأغرد روحه بروح لطف
الجلال ، واستخلص سيرة يكشف وصف الجلال .

قوله جل ذكره : « حم »

أى حم أمر كائن^(٢) .

ويقال « الحاء » إشارة إلى حطيه ، « ولهم » إشارة إلى مجده أى : يحين
ومجدى لا أخلد في النار من آمن بي .

ويقال هذه الحروف (منافع أسمائه)^(٣) .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز
العليم » .

(١) تسمى سورة غافر ، وسورة الطول ، وسورة المؤمن لقوله تعالى فيها : « وقال جل مؤمن » (السجدة :
الإفقان - ١ ص ٥٤) .

(٢) أى نفس وروح ، قال كعب بن مالك :

نفساً ثلاثين ودوات بها كرسى وليس إله حسبه الله شافع
أو تكون بمعنى قربة كما قال الشاعر

له حم إله قس قس قوم قوم بهم فقله وقوم

(٣) ما بين القوسين مقطوع من نص ، وهو موجود في م .

من أنس أن أمريباً سأله النبي (ص) ما سم ؟ قلنا لا نعرفها في لساننا ، فقال النبي (ص) : « هذه أسماء
وخصائص سورة » .

« العز : : السِّرُّ لأوليائه ، « العليم » بما كان ويكون منهم ، فلا يمنه عليه بما سَلَفَ منهم عن قصائمه .

قوله جل ذكره : « غافر الذنب وقابل التوب
شديد العقاب ذى الطول لا إله
إلا هو إليه المصير » .

كتاب مُعْتُونٌ بقبول توبته لِمُيَاذِهِ ؛ عَلِمَ أَنَّ الْعَامِيَ مُنْكَسِرُ الْقَلْبِ فَأَزَالَ عَنْهُ
الْانْكَسَارَ بِأَنْ قَدَّمَ نَصِيحَهُ ، قَدَّمَ اسْمَهُ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ . فَكَفَّرَ غُشَّهِمْ وَقُلُوبَهُمْ
بِاسْمَيْنِ يُوجِبَانِ الرَّجَاءَ ؛ وَهَذَا قَوْلُهُ : « غافر الذنب وقابل التوب » .

ثم عقيباً بقوله : « شديد العقاب » ثم لم يرضَ حتى قال يبدئهُ « ذى الطول » .
فَيَقَابِلُ قَوْلَهُ : « شديد العقاب » قَوْلُهُ : « ذى الطول » .

(ويقال : غافر الذنب لِيَنْ أَصَرَ وَاجْتَرَمَ ، وَقَابِلُ التَّوْبِ مَنْ أَقَرَّ وَتَدَرَّمَ ،
شَدِيدُ الْعِقَابِ لِيَنْ يَجْعَدَ وَعِنْدَهُ ، ذِي الطَّوْلِ مَنْ عَرَفَ وَوَحَّدَ)^(١) .

ويقال غافر الذنب للظالمين ، وقابل التوب للمتصدين ، شديد العقاب للمشركين ،
ذى الطول للسابقين .

ويقال : سُنَّةُ اللَّهِ أَنَّهُ إِذَا خَوَّفَ الْعِبَادَ بِاسْمِهِ أَوْ قَطَعَ تَذَكُّرَهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنْ
يُشْرِكُوا بِاسْمَيْنِ أَوْ بِوَصْفَيْنِ^(٢) .

« إليه المصير » : وَإِذَا كَانَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ قَدْ طَلَبَ إِلَيْهِ السَّيْرَ .

قوله جل ذكره : « مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي
الْبِلَادِ » .

(١) ما بين القوسين بألفه ساكنة من ص. وموجود في م.

(٢) وحده آية كرمه سبحانه .

إِنَّا ظَهَرَ الْبَرَاءُ وَانْتَفَحَ الْبَيَانُ اسْتَلَسَّتْ الْأَلْبَابُ الصَّاحِبَةَ لِلْإِيمَانِ .
 فَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ فَاهْمٌ عَلَى الْجُودِ لِإِسْرَارٍ ، وَشَوْمٌ شَرٌّ كَيْفَ يَمُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 الْإِنصَافِ . . . وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَعْتَرِفُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَيُضِرُّونَ عَلَى أَنْكَارِهِمْ ،
 وَيُضَرِّضُونَ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ ، وَيَحَادِلُونَ فِي جَعْدِ الْكَرَامَاتِ ، وَمَا يَخْصُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
 مِنَ الْآيَاتِ . . . فَهَؤُلَاءِ لَا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ رَجَائِهِمْ وَقَسَائِهِمْ ، وَسَيُفْتَضِحُونَ كَثِيرًا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ

وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ، وَهَمَّتْ كُلُّ

أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ

كَانَ عِقَابُ .

كَذَلِكَ مَنْ اقْتَرَضَ مِنَ الْكُفَرِ كَانَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ دَأْبُهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ
 — سُبْحَانَهُ — انْتَقَمَ مِنْهُمْ ، وَعَلَى كُفْرِهِمْ اخْتَرَمَهُمْ .

وَالْمُنْكَرُ لِهَذَا الطَّرِيقِ ^(١) يَدِينُ بِإِنْكَارِهِ ، وَيَقْرَبُ إِلَى اللَّهِ بِهِ ، وَيَبْدُو وَقِيعَتُهُ فِي
 أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مِنْ جِلَّةِ إِحْسَانِهِ وَخَيْرَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — يَذِيبُهُمْ فِي الْمَاجِلِ
 بِجَنَابَتِهِمْ فَيَأْخُذُ بِهِمْ ، وَصَدَّ قُلُوبَهُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَآفِ ، وَحَرَمَانِهِمْ مِنْهَا .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنََّّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ » .

إِنَّا انْتَقَمْنَا عَلَى عِبَادِ حُكْمِ اللَّهِ بِشِقَاؤِهِ فَلَا تَنْفَعُهُ كَثْرَةُ مَا يُوَرِّدُ عَلَيْهِ مِنَ النَّصَحِ . .
 وَاللَّهُ عَلَى أَمْرِهِ غَالِبٌ . وَمَنْ أَسْرَبَتْهُ يَدُ التَّقَاوَةِ فَلَا يُخَلِّصُهُ مِنْ مَخَالِهَا جُهْدُ
 وَلَا سَعَاةٍ .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ الْقُرْآنَ وَمَنْ

(١) يقصد به طريق الصوفى .

قَوْلُهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ
بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا
وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ الْجَحِيمِ .

حَمَلَةُ الْعَرْشِ مَنْ حَوَّلَ الْعَرْشَ مِنْ خَوَاصِ الْمَلَائِكَةِ^(١) ، مَأْمُورُونَ بِالتَّسْبِيحِ
لِلَّهِ ، ثُمَّ بِالِاسْتِغْفَارِ لِلْمُؤْمِنِينَ — لِأَنَّ الْاسْتِغْفَارَ لِلذَّنْبِ وَالتَّوْبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ مِنَ الذَّنْبِ —
وَيَسْتَعِينُونَ فِي الدُّعَاءِ لَمْ عَلَى نَحْوِ مَا فِي هَذِهِ آيَةِ وَمَا بَعْدَهَا ؛ فَيَدْعُونَ لَمْ بِالنِّجَاحِ ،
ثُمَّ يَرْفَعُونَ الدَّرَجَاتِ ، وَيَعْمَلُونَ الْأَمْرَ فِي كُلِّ ذَلِكَ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ
الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
آلِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْحَكِيمُ • وَقِهِمُ
السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
قَدْ رَجَعَتْهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ •
« وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ قَدْ رَجَعَتْهُ رَحْمَتُهُ » : فَتَنْ سَلَطَ عَلَيْكَ أَوَّازِلَ مِنْ خَلْقِهِ
— وَهُمْ الشَّيَاطِينُ — فَقَدْ قَبِضَ بِالشَّفَاعَةِ أَفْضَلَ مِنْ خَلْقِهِ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ الْقَرِيبِينَ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَبْكَدُونَ لَكُنْتُ
اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْعَتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ
لِإِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ •
أَشَدُّ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي يُوصَلُّهَا الْحَقُّ إِلَيْهِمْ آثَارُ سُخْطِهِ وَغَضَبِهِ ، وَأَجَلُ النَّعْمِ

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : « وَأَنْذَرُ أَنْ أَحْدَثَ مِنْ مَلَكَ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ
مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ مَا بَيْنَ شُحْمَةِ أَذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ عَامًا » ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ ، وَقَالَ : هُوَ أَكْثَرُ الْخُلُوقَاتِ .

التي يترجم بها آثارُ رضاه عنهم . فلذا عَرَفَ الكافرُ في الآخرةَ أَنَّ رَبَّهُ عليه غضبانُ فلا شيءَ أصمَّبَ على قلبه من ذلك ؛ لأنه عَلمَ أنه لا بُكاءَ ينضمه ، ولا عناةَ يزيل عنه ما هو فيه ويدفعه ، ولا يَسْمَعُ له تضرُّعٌ ، ولا تَوْجِيهُ حيلة .

قوله جل ذكره : « قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَبْنَا

اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ

من سبيل » .

الإمامة الأولى إِمَانَتُهُمْ في الدنيا ثُمَّ في القبر يحيرهم ، ثُمَّ يمتهم فهمى الإمامة الثانية . والإحياء الأول في القبر والثاني عند النشر ^(١) .

« فاعترفنا بذنوبنا » : أقروا بذنوبهم — ولكن في وقتٍ لا ينضمهم الإقرار .

« فهل إلى خروجٍ من سبيل » : ما نحن فيه من العقوبة ، وإنما يقولون ذلك حين لا ينضمهم الندمُ والإقرارُ . فَيُقال لهم : —

« ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِنَّا دُعِىَ اللَّهُ وَحْدَهُ
كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا
فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ » .

أى نُصَدِّقُوا للشركين لِيُكَفِّرَ . [ومؤلا إِمَانَتُهُمْ محصورة ، فلَمَّا أَمِلَ الحجةَ ظلمهم في كلِّ وقتٍ حياةً وموتاً ، قال قائلهم :

أَمُوتَ إِنَّا قَدَدُنْكَ نَمُ أَمِيا فَمَكُ أَمِيا عَلَيْكَ وَكَمُ أَمُوتَ ا

فَلْيَنْ الْحَقُّ — سبحانه — يَرُدُّدُ أَبَدًا اُغْلُوصَاصَ من عِيادِهِ بَيْنَ الْقَنَاءِ وَالْبَقَاءِ ،

(١) هذا المراد يلعب إليه السُّدِّيُّ أيضاً ، وإنما إحياءهم في القبرور للساعة ، ومن هذا استدلال العلماء على سُرْعَةِ القبر .

واستدل من الآية كذلك على إحياء الأجساد ، لأن الروح — عند من يقصر أحكام الآخرة على الأرواح — لا تموت ولا تتغير ولا تنفس ، فلو كان للثواب والعقاب الروح — دون الجسد — لما معنى الإحياء والإماتة ؟ ويلعب ابن عباس وابن مسعود وتفاة والضحك إلى أنهم كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم ، ثم أحياءم . ثم أماتهم المروءة لئلا يذهبوا في الدنيا ، ثم أحياءم ليبحث والقبالة ، فهاتان حياتان وموتتان .

والحياة واللوت ، والمحو والإمات ^(١) .

قوله جل ذكره : « هو الذى يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ
من السماء رِزْقًا وما يَبْدُؤُكُمْ إِلَّا مِنْ
يُغِيبُ » .

يُرِيهِمْ آيَاتِ فَضْلِهِ فَمَا يُبْلِغُهُمْ ، وَيُرِيهِمْ آيَاتِ قَهْرِهِ فَمَا يَكْشِفُهُمْ ، وَيُرِيهِمْ آيَاتِ عَفْوِهِ
إِذَا تَوَسَّلُوا ^(٢) ، وآيَاتِ جَوْده إِذَا تَوَسَّلُوا ، وآيَاتِ جَلَالِهِ إِذَا هَابُوا خَابُوا ، وآيَاتِ جَمَالِهِ إِذَا
أَبْجُوا واستَجَابُوا . « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » لأبدانكم وهو توفيق المجاهدات ، وقلوبكم
وهو تحقيق المشاهدات ، (ولأسراركم وهو فزون للواصلات والزوائد) ^(٣) .

« وما يَبْدُؤُكُمْ إِلَّا مِنْ يُغِيبُ » : يرجع من المادة إلى العادة ، ومن الشك إلى اليقين ،
ومن الخلق إلى الحق ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن النكرة إلى العرفان .

قوله جل ذكره : « فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » .

فَرَطُ الدِّعَاءِ قَدِيمٌ لِمَعْرِفَةِ مَنْ الذى تدعوه ، ثم تدعو بما تحتلج إليه بما لا بُدَّ لَكَ
منه ، ثم تنظر هل أعطاك ما تطلب وأنت لا تدري ؟ والواجب ألا تطلب شيئاً تكون فيه
مخافة لأمره ، وأن تتباعد عن سؤالات الأشياء الدنيوية والدنيوية ، وأن ترضى بما يختاره لك
مولاك . ومن الإخلاص في الدعاء ألا ترى الإجابة إلا منه ، وألا ترى لنفسك استحقاقاً
إلا بفضل ، وأن تعلم أنه إن بقيت في سؤالك عن مطلوبك — الذى هو حُطُّكَ — لا تبقى
عن عبادة ربك — التى هى حَقُّهُ ؟ فإنَّ الدعاء مُخُّ العبادة ، ومن الإخلاص في الدعاء أن

(١) فالوت بالقبح والقناء والمحو ، والحياة باليسط والبقاء والإمات . ونحسب أن الكلام الموجود بين القوسين
الكبيرين يتصل بالآية السابقة نظراً لتلازم تقليب الأحوال مع الإمامة والإحياء وكنا نريد أن نلصقه في مكانه حسبما
رأينا لولا أنه موضوع هنا في م و ص . ويبدو أن القشيري اعتبر الآيتين كياناً عضوياً واحداً ، فجاءت الإشارة
نهما جيباً .

(٢) أى تتصلوا من ذنوبهم .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وساقط في ص .

تكون في حال الاضطراب لما لا يكون ابتداءً جزئاً لك ، وتكون ضرورتك لمرآة
جنايتك .

قوله جل ذكره : « رفيع الدرجات ذو العرش يُلقى
الروح من أمره على من يشاء من
عباده يُنذِر يومَ التلاقى » .

رافع الدرجات المصنوع بالنبوة^(١) ، والمطيعين بالتوابع، وللأصفياء والأولياء بالكرامات،
وقوى الحاجات بالكفليات ، وللمعارفين بتفسيهم عن جميع أنواع الإراقات .

وقال درجات المطيعين بطوهرهم في الجنة ، ودرجات المعارفين بقلوبهم في الدنيا ؛ فرفع
درجاتهم عن النظر إلى الكونين دون الساكنة إليها . وأما المحبون فرفع درجاتهم عن أن
يطلبوا في الدنيا والمتى شيئاً غير رضا محبهم^(٢) .

« ذو العرش » : ذو الملك الرفيع . ويقال العرش القى هو قبلة السماء ، خلقه أرفع
المخلوقات وأعظمها جنة^(٣) .

« يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده » روح بها ضياء أبدانهم — وهو سلطان
علومهم ، وروح بها ضياء قلوبهم — وهو شفاعة علومهم ، وروح بها ضياء أرواحهم

(١) وانفتح أن القشيري لا يكاد يترك فرصة دون أن يفتح أبواب الأمل أمام المصاحبة حتى لا يقتطعوا من رحمة
الله .. وهذا نابع من مباحة الصوفية الأصلية :

(٢) هنا نلاحظ أن القشيري جعل الحب أعلى درجة من المعارف — مع أن القرآن القى غاية التوحيد — هو أعلى
مراتب الطريق الصوفي . ولكن نظراً لأن الحب واللقاء والمرقة كلها من الحب وإلى الحب فكثيراً ما نجد كتاب
التصوف كالقشيري والنزالي وغيرهما لا يقيمون قليلاً سرفياً بهذا الترتيب القى يليق في العزلة فقط ، وقد تناولنا
هذه القضية بالتفصيل في كتابنا ونشأة التصوف الإسلامي ط دار المعارف في مقدمة باب والملائكة :

(٣) نلاحظ أن القشيري هنا يصف (العرش) مرة بأنه الملك أو قبلة السماء ثم يعود فيقول (....) وأسطعها
جنة) بمعنى أن مجرد العرش مرة من المادية ثم يعود ليخلع عليه التسمية المادية ، لذا كان ذلك بقصد غماسة الناس
حل قدر فهمهم — كما قلنا من قبل فهذا جائز .. ولكن الواقع أن القشيري يصير من شيء من الاضطراب الذي أصاب
الأشارة إزاء التشابهات ، وهو أمر تحدثنا عنه بالتفصيل في كتابنا (إلهام القشيري — تصوره وأدبه) ... ولعل
خير ما انتهى إليه الرازي قوله «سائل مدح السلف أن هذه التشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله منها شيء
غير ظاهرها ، ثم يجب تلويص معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها» (أساس التفهيم للرازي ط
الكردي ص ٢٢٢) :

— والذى هو الروح رَوْحٌ — يقاوم بالله .

وقال : رَوْحٌ هو روح إلهام ، وروح هو روح إعلام ، وروح هو روح إكرام .

وقال : روح النبوة ، وروح الرسالة ، وروح الولاية ، وروح للمرة .

وقال : روح بها جاء الخلق ، وروح بها ضياء الحق .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ

شَيْءٌ » .

يُلم الحاصل للوجود ، ويُلم للعدم المفقود ، والذى كان والذى يكون ، والذى لا يكون .
مما عَلِمَ أنه لا يميز أن يكون ، والذى جاز أن يكون أن لو كان كيف كان يكون .

« لَيْتَ الْفُكَّ الْيَوْمَ فَهُوَ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ » .

لا يضيد مُلْكُهُ يَوْمَ ، ولا يخضع مُلْكُهُ بوقتٍ ، ولكنَّ دَعَاوَى الْخَلْقِ — اليوم —
لا أصلَ لها ؛ إذ غداً تنقطع تلك الدعاوى وترتفع تلك الأوهام .

قوله جل ذكره : « الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ

لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ »

يُمَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِالْجَنَانِ ، وَعَلَى أَوْحَالِهِمْ بِالرَّضْوَانِ ، وَعَلَى أَغْصَانِهِمْ بِالْقَرِيَةِ ، وَعَلَى
مَحَبَّتِهِمْ بِالرَّوِيَةِ .

وَيُمَازِي الْمَذْنِينَ عَلَى تَوْبِهِمْ بِالْفَرَانِ ، وَعَلَى بَكَائِهِمْ بِالضِيَاءِ وَالشَّمَاءِ .

« لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » : أى أنه يستحيل تقديرُ الظلم منه ، وكل ما يضلُّه أنه أن يظلمه . وهو
سريع الحساب مع عباده ؛ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ ، وسريع الحساب مع أوليائه في الحال ؛
بطلابهم بالصغير والكبير ، والتفكير والتقدير .

قوله جل ذكره : « وَأَعْدِدْ لَهُمْ يَوْمَ الِآزَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَىٰ

الْحَاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لَئَلَّيْنِ مِنْ حَجِيرٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .^(١)

قيامه الكلُّ مُوجَّلةً ، وقيامه الحيين مُعَجَّلةً ؛ فَلَهُمْ فِي كُلِّ نَفْسٍ قِيَامَةٌ مِنَ الْقَلْبِ
وَالذَّابِ وَالنَّوَابِ ، وَالْبَمَادِ وَالْإِقْتِرَابِ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي حِسَابِ^(٢) ، وَتَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْأَعْضَاءُ ؛
فَالنَّعْمُ بِشَهِدٍ ، وَحَقَّقَانِ الْقَلْبِ يَنْطَلِقُ ، وَالنَّحْوُ يُخَيِّرُ ، وَاللَّوْنُ يُفْصَحُ . . . وَالْبَدْدُ يَسْتُرُ
وَلَكِنْ الْبَلَاءُ يَظْهَرُ :

يَا مَنْ تَمَيَّزُ صُورِي لَمَّا يَدَا لَجِيعٍ مَا ظَنُّوا بِنَا تَصَدِيقًا^(٣)

وَأُنْشَدُوا :

لِي فِي مَحَبَّتِهِ شُهُودٌ أَرْبَعٌ وَشُهُودٌ كُلُّ قَضِيَّةٍ اثْنَانِ
ذَوْبَانُ جَسِيٍّ وَارْتِمَادُ مَفَاصِلِيٍّ وَخَفَقُ قَلْبِي وَاعْتِقَالُ لِسَانِي
وَقُلُوبُهُمْ — إِذَا أَرْفَ الرِّحْلُ بَلَنْتِ الْحَنَاجِرُ ، وَعَيُونُهُمْ تَمَرَّقَتْ بَدْمُوعُهَا إِذَا نَوْدَى
بِالرَّحِيلِ وَتَشَدَّتْ الرُّوَاهِلُ .

قوله جل ذكره : « يَسْلُمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي
الْأَصْدُورُ » .

خَائِنَةُ أَعْيُنِ الْحَيِّينِ اسْتَحْصَانُهُمْ شَيْئًا ، وَلِهَذَا قَالُوا :

يَا قَوْمَ الْعَيْنِ : سَلِّ عَيْنِي هَلْ أَكْصَلْتُ

بِمَنْظَرِ حَسَنِ مُذْ شِئْتُ عَنْ بَصَرِي ؟

وَلَفَلَكَ قَالُوا :

فَعِنِّي إِذَا اسْتَحْصَنْتَ غَيْرَكُمْ أَمَرْتُ الشَّهَادَةَ بِجَهَنَّمِهَا

(١) أَيْ وَمَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ يَدَا ،

(٢) مَعْنَى الشَّاهِدِ الشَّعْرِيِّ لَمَّا نَظَرَ : يَا أَيُّهَا الَّذِي تَتَجَبَّرُ صُورِي مَعَهُ تَجَلَّهْ لِي ، فَيَكْتَفِ أَمْرِي دَمْعَ عَيْنِي
سَرَّحَالِي ، وَهَذَا تَصَدَّقَ ظَنُّونَ الْمَآذِينَ وَاللَّائِينَ .

ومن خائفة أعينهم أن تأخذهم السنّة والشبّات في أوقات النجاة ؛ وقد جاء في قصة داود عليه السلام : كَذَبَ مَنْ ادَّعَى حَقِّي ، فَإِذَا جَنَّةُ اللَّيْلِ نَامَ عَنِّي ا
ومن خائفة أعين العارفين أن يكون لم حَبَرٌ بطوبهم مما سمع عليه عيونهم .
ومن خائفة أعين الوحدّين أن يخرج منها قطرة دمٍ تأسفًا على مخلوقٍ فوت في الدنيا والآخرة ، ولا على أنفسهم .

ومن خائفة أعين الحيين النظرُ إلى غير المحبوب بأي وجه كان ، ففي الخبر : « حُبُّ الشئ يسى ونفسه » .

« وما تحقّق الصدور » : « فالحقُّ به خير »^(١) .

قوله جل ذكره : « وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ » والذين يدْعُونَ
مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

يقضى للأجانب بالمداد ، ولأهل الوصال بالوداد ، ويقضى يوم القدوم بزلّ حال الصلود ،
وإذا ذُبِحَ الموتُ غداً بين الجنة والنار على صورة كَبَشٍ أَمْلَحَ فلا غرابة أن يَدْخِجَ الفراقُ
على رأسِ سِكَّةٍ^(٢) الأَحْلِبِ في صورة شخصٍ منكرٍ ويصلب على جفوع البيرة لينظرَ إليه
أهلُ الحضرة .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا

(١) كان عبد الله بن أبي سرح يكتب الوحى لرسول الله (ص) ثم ارتد ولحق بالمشرّكين فأمر رسول الله (ص) بقتله يوم فتح مكة .

ويروى أنه لما جىء به إلى الرسول (ص) بعدما أطلق أهل مكة ، وطلب عتقاً دفع الله عنه له الأمان صست .
الرسول طويلاً ثم قال : « نعم » ، فلما انصرف قال الرسول (ص) لمن حوله : « وما صمت إلا ليقيم إليه ينضمكم
فيضرب عققه فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلى يا رسول الله ؟ فقال : إن فني لا تكون له خائفة أمين » ..
(٢) السكة = الطريق المستوى .

في الأرضِ فَاخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ
وما كانَ لهمْ مِنَ اللهِ من وَاقيٍّ .

أو لم يسيروا في أقطار الأرضِ بنفوسهم ، ويطوفوا مشارقها ومناربها ليعتبروا بها فيزهدوا
فيها ؟ أو لم يسيروا بقلوبهم في الملكوتِ يحولون الفكرَ ليشهدوا أنوارَ التجلّي فيستبصروا بها ؟
أو لم يسيروا بأسرارهم في ساحاتِ الصمدية ليشهدوا في سلطانِ الحقائق ، وليتخلصوا من جميع
الخلوقاتِ قاصيها وبانيها ؟ .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنهم كانت ثنائيتهم رؤسُهُم
بالبيناتِ فكفروا فَاخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ
شديدُ العقابِ » .

إن بني من أهل السلوكِ قاصدٌ لم يصل إلى مقصوده فَلَيَسَلَمَنَّ أَنْ مُوجِبَ حُجَّتِهِ اعتراضُ
خامرٍ قلبه على بعض شيوخه في بعض أوقاته ؛ فإنَّ الشيخَ يجعلُ السفراءَ للريدين . وفي الظاهر :
« الشيخُ في قومه كالنبيِّ في أمته » ^(١) .

قوله جل ذكره : « وقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ
مبين • إلى فرعونَ وهامانَ وقارونَ
فقالوا ساحرٌ كذابٌ » .

أَكْرَمُ خَلْقِهِ في وقته كان موسى عليه السلام ، وأَخْسُ خَلْقِهِ وأَذْلَهُم في حُكْمِهِ وأَشْدُّهُمْ
كُفْرًا كان فرعونُ ؛ فما قال أحدٌ غيرَه : « ما عَلِمْتُ لَكُم من إلهٍ غيري » ^(٢) .
فَبَيَّنَتْ اللهُ — أَخْسُ عِبَادِهِ إلى أَخْسُ عِبَادِهِ ، قاطبةً بالكذبِ ، ونَسَبَهُ إلى السَّحَرِ ،

(١) يقول السهروردي في حوارته : « رَأَى خَلْقَ الْمَخْلُوقِ مَهْلِكَةً بِحَسَنِ الْإِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللهِ (ص) وَهُمْ أَجْمَعُ النَّاسُ
يُاسِمَاءُ سَعَى فِي كُلِّ مَا أَمَرَ وَنَدَبَ وَأَنْكَرَ وَأَوْجِبَ (ص ٢٩٣) حَوَائِجَ الْمَعْرِفِ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُ : وَفَلْيَسَلِمَنَّ
الرَّيْبُ أَنْ الشَّيْخَ حَتَّى تَذَكَّرَ مِنْ اللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْ لَا يَلِيَّ يَحْصِلُهُ مَعَ الشَّيْخِ حَوْضٌ مَا لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ
طَلِبَ الْقِلَادَةِ وَالسَّلَامِ . ص ٢٨٥ .
(٢) آيَةُ ٣٨ مَوْرَةِ الْقَصَصِ .

وَأَنبِئْ بِكُلِّ أَنْوَاعِ النَّائِبِ . ثُمَّ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ عَقوبَتَهُ ، وَأَمَرَهُ إِلَى أَنْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ شِقْوَتَهُ —
لأنه سبحانه حلّمٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . »

عَزَمَ عَلَى إِهْلَاكِهِ وَإِهْلَاكِ قَوْمِهِ ، وَاسْتَمَنَّ عَلَى ذَلِكَ يُخَنِّدُهُ وَخَيْلَهُ وَرَجُلَهُ ، وَلَكِنْ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ : « وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » ، لِأَنَّهُ إِذَا حَفَرَ أَحَدٌ لِرَأِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَمَالَى حُفْرَةً مَا وَقَعَ فِيهَا غَيْرُ حَافِرِهَا ... بِذَلِكَ أُبْرَى الْحَقُّ سُنَّتُهُ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ . »

« وَلْيَدْعُ رَبَّهُ » أَيْ لِيَسْتَعِينْ بِهِ ، وَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَبْدِلَ دِينَكُمْ ، وَأَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْفُسَادُ هُوَ فِرْعَوْنُ ، وَهُوَ كَأَقْبَلِ فِي الْمَثَلِ : « رَمَتْنِي بَدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ » .
وَلَكِنْ كَاذِبٌ لَهُ الْكَيْدُ ، وَالْكَائِدُ لَا يَتَخَلَّصُ مِنْ كَيْدِهِ .

فاستماذ موسى بربه ، وانتدب في الرد عليهم مؤمن بالله وبموسى كان يكتم لإيمانه عن فرعون وقومه : —

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » .. الْآيَاتِ

نَصَحَهُمْ وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْجِعْ فِيهِمْ نَصَحَ وَلَا قَوْلَ . وَكَمْ كَرَّرَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ
آلِ فِرْعَوْنَ الْقَوْلَ وَأَعْلَاهُ النَّصَحَ ! فَلَمْ يَسْتَمُوا لَهُ ، وَكَانَ كَأَقِيلٍ :
وَكَم سَقَتْ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبُخْصَةُ لِلنَّصَحِ

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ

فَازِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا

هَلَكَ قَلْبُكُمْ لَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِ

رَسُولًا كَذَلِكَ بَعَثَ اللَّهُ مَنْ هُوَ

مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

يَبَيِّنُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ كَتَكْذِيبِ آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، وَكَأَمْهَلِكِ أَوْلَئِكَ قَدِيمًا كَذَلِكَ

يَفْعَلُ بِهِؤْلَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَاهُنَا ابْنُ لِي صَرَحًا

لَعَلَّ أُلْبِغُ الْأَسْبَابَ » أسباب السموات

فَأُطْلِعَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ مُوسَى وَإِنِّي لأُظْهِرُ

كَاذِبًا » .

السَّبَبُ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الشَّيْءِ ؛ أَيْ لَعَلِّي أُصِلُ إِلَى السَّمَاءِ فَأُطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى . وَلَوْ لَمْ

يَكُنْ مِنَ الْمَضَاهَاذِ بَيْنَ مَنْ قَالَ إِنَّ الْمُبُودَ فِي السَّمَاءِ وَبَيْنَ الْكَافِرِ لِأَهَذَا لَكُنِيَ بِهِ خِزْيًا لِنُذْمِهِمْ (١) .

وَقَدْ غَلِطَ فِرْعَوْنُ حِينَ تَوَهَّمَ أَنَّ الْمُبُودَ فِي السَّمَاءِ ، وَلَوْ كَانَ فِي السَّمَاءِ لَكَانَ فِرْعَوْنُ مُصِيبًا

فِي طَلَبِهِ مِنَ السَّمَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ

وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ

إِلَّا فِي تَبَابٍ » .

أَخِيرَ أَنْ اعْتَقَدَهُ أَنَّ الْمُبُودَ فِي السَّمَاءِ خَطَأً ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ مُصَدَّودٌ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ النَّبِيُّ آمَنَ يَا قَوْمِ أَتَيْتُمُونِ

(١) مَا يَفْهَمُ الْفَرَسِيُّ بِالْمُضْجَعَةِ هُوَ قَائِمَةٌ (انظر ص ٣٤٥ من هذا المجلد) .

أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
دَارُ الْقَرَارِ .

أَصْرَ عَلَى دَعَائِهِ لَمْ وَأَصْرُوا عَلَى جُودِهِمْ وَعُتُودِهِمْ .

« مَنْ عَمِلَ سِنَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

« فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا » : فِي الْقَدَارِ لَا فِي الصِّفَةِ ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَى سِنَةٌ ، وَالْمَكْفَاةُ مِنَ اللَّهِ
عَلَيْهَا حَسَنَةٌ وَلَيْسَتْ بِسِنَةٍ .

« وَهُوَ مُؤْمِنٌ » يَعْنِي فِي الْحَالِ ^(١) ، لِأَنَّ مَنْ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا فِي الْحَالِ لَا يَكُونُ مِنْهُ الْعَمَلُ
الصَّالِحُ ، « فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » : أَيْ رِزْقًا مُؤَبَّدًا مُتَّخِذًا ،
لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَا يَمُوتُ عَلَيْهِمُ الْمَالُ .

« وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ
وَتَدْعُوْنِي إِلَى النَّارِ » .

وَهَذَا كُتِبَ مِنْ قَوْلِ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ ، يَقُولُهُ عَلَى جَبَّةِ الْاِحْتِجَاجِ لِقَوْمِهِ ، وَيُزِمُّهُمْ
الْحُجَّةَ بِهِ .

« تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعِزِّ
النَّفَارِ » .

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِصِغَةِ قَوْلِكُمْ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى
مَا أَوْضَحَهُ بِالْبَرهَانِ ، وَأَقِمُّ عَلَيْهِ الْبَيَانَ .

(١) فِي الْحَالِ مِمَّا مَتَاعًا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

« لَا جَرَمَ أَنَّكُمْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ
دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدُّنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ لِلَّهِ السَّرِفِينَ مِمَّا أَحْبَبُ النَّارُ »
لَا جَرَمَ أَنَّكُمْ تَدْعُونِي إِلَيْهِ بِأَمَلٍ ؛ فَلَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الْأَصْنَامِ حَيَاةٌ وَلَا عِلْمٌ وَلَا قُدْرَةٌ ، وَهِيَ
لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ . وَلَقَدْ عَلِمْنَا — بِقَوْلِ الَّذِينَ ظَهَرَ صِدْقُهُمْ بِالْمُعْجَزَاتِ — كَذِبَكُمْ فِيهَا
قَوْلُونَ .

« فَتَقَدَّرُ كُنُوزُ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَقْرُضُ
أَسْرَى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

أَقْرُضُ أَسْرَى إِلَى اللَّهِ ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ كَيْدِكُمْ .

قوله جل ذكره : « فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا »

وَحَقَّقَ بِأَكْلِ فِرْعَوْنَ سَوَاءَ الْمَذَابِ *
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ،
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ
أَشَدَّ الْمَذَابِ » .

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ (١) .

وَيَقَالُ إِنَّ أَرْوَاحَ الْكَافِرِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ شَدِيدٍ يُعْرَضُ عَلَى النَّارِ غُدُوًّا وَعَشِيًّا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ . يَبْتَثُ النَّارُ (٢) .

« أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْمَذَابِ » : أَيُّ يَا آلَ فِرْعَوْنَ أَدْخِلُوا أَشَدَّ الْمَذَابِ ، فَتَصَبَّه
عَلَى النَّارِ الْمَاضِي . وَيَقْرَأُ « أَدْخِلُوا » عَلَى الْأَسْرِ (٣) .

(١) بَدِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهَا يَدُّ عَنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ : هُوَ يَوْمُ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْمَذَابِ « وَمِنْ
اِسْتَجَّ هَذِهِ النَّاتِجَةُ بِجَاهِدٍ وَهَكُومَةٍ وَمَقَاتِلٍ وَمَحَدٍ بَنِ كَسْبِ .
(٢) أَيُّ هَذَا دَأْبُهَا فِي الدُّنْيَا تَنْفَبُ فِي النَّارِ أَنْوَاجُ أَفْرَاجٍ يَبْضَا صَنَارًا ثُمَّ يَمُودُ فِي الْمَاءِ سَوْدًا قَدْ احْتَرَقَتْ
رِيَاشُهَا (الْأَرْوَاحُ) — وَالتَّصْبُّ عَنْهُ لِقَرْطَبِيِّ — ١٥٠ ص ٣١٩
(٣) فَيَكُونُ الْأَمْرُ عِنْدَهُ لِلْمَلَكَةِ الْمَذَابِ .

« أشد المذاب : أى أصعبه ، وأصعبُ عذابٍ للكفار في النار يأصمهم من الخروج عنها .
أما العصاة من المؤمنين فأشدُّ عذابهم في النار إذا علموا أن هذا يوم لقاء المؤمنين ، فلذا عرفوا
ذلك فذلك اليوم أشدُّ أيام عذابهم .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ يَتَحَايَرُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا
فَهَلْ أُنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ *
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ
اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » .

يقول الضعفاء للذين استكبروا : أنتم أضلتمونا ، ويقول لهم المستكبرون : أنتم وافقتمونا
بإختياركم^(١) ؛ فجاءةً بعضهم لبعض تزد في غيظ قلوبهم ، فكما يمدحون بنفوسهم يعذبون
بضيقة صدورهم ويُبغض بعضهم لبعض .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِغَلَظَةِ جَهَنَّمَ
ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنَ
الْمَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَابِعِيكُمْ
رُسُلَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى ، قَالُوا :
فادْعُوا ، وما دُعاه الكافرين إلا
في ضلال » .

وهذه أيضاً من أمارات الأجنية ، فهم يُدْخَلُونَ واسطةً بينهم وبين ربهم^(٢) . ثم إن الله
ينزع الراحة عن قلوب الملائكة كي لا يستنشوا لهم .

(١) لاحظ هنا كيف يحرم التشيرى حل إرثه عنصر الاختيار لدى الإنسان ، مع معرفتنا السابقة بأنه
ينادى بأن الله خالق كل شيء حتى أكساب العباد ، وقد حاول أن يوفق بين الاجتماعيين فقال : يجري هذا من العبد
لعلا ومن الله سبحانه .

(٢) من ذلك نفهم أن التشيرى لا يرى بالواسطة عند الله ، بل ينبغي أن تدعو الله مباشرة .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُعُوكَ وَالَّذِينَ آمَنُوا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

ننصرهم بِالْآيَاتِ وَفُتُونِ التَّعْذِيبَاتِ حَتَّى يَعْرِفُوا وَيَشْهَدُوا أَنَّ الظَّفَرَ وَضِدَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَالْخَيْرَ

وَالشَّرَّ مِنَ اللَّهِ .

ويقال ننصرهم على أعدائهم بكيدٍ خفيٍّ ولطفٍ غير مرئيٍّ ، من حيث يحتسبون ومن

حيث لا يحتسبون ؛ ننصرهم في الدنيا بالبرقة^(١) وباليقين بأنَّ الكائنات من الله ، وننصرهم

في الآخرة بأن يشهدوا ذلك ، ويعرفوا — بالاضطرار^(٢) — أَنَّ التَّأْثِيرَ مِنَ اللَّهِ، وَغَايَةُ النِّصْرَةِ

أَنْ يَقْتُلَ النَّاصِرُ عَدُوَّ مَنْ يَنْصُرُهُ ، فَإِذَا أَرَادَ حَقُّهُ^(٣) تَحَقُّقَ بَأْنِ لَا عَدُوَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَأَنَّ

الْمَخْلُوقَ أَشْبَحَ بِمَجْرَى عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ التَّنْذِيرِ ؛ فَالْوَلِيُّ لَا عَدُوَّ لَهُ ، وَلَا صَدِيقَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ

نصالي : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا »^(٤) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُمْ سُوَّةُ الْغَارِ » .

دليلُ الْخَطَالِبِ أَنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِمْ تَمَتُّعًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ سُوَّةُ الْغَارِ ، وَمَا بَقِيَ

مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا الْيَسِيرُ

قوله جل ذكره : « وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْرَثْنَا

بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى

وَذِكْرًا لِلأُولَى الْأُولَى » .

مَضَى طَرَفٌ مِنَ الْبَيَانِ فِي قِصَّةِ مُوسَى .

(١) في ص (بالبرقة) والملائم للسياق (بالبرقة واليقين) كما جاء في ص .

(٢) أي تكون مرة ضرورية ، ونحن نعلم من ملعب التفسير أن البرقة في الابتداء كسبة (من العبد)

وفي الانتهاء ضرورية (من الرب) .

(٣) في ص (حقه) والملائم للسياق أنه يريد (حسب) علوه .

(٤) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

قوله جل ذكره : « فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَفِرْ لِدُنَيْكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْغُيُوبِ وَالْإِبْكَارِ » .

الصبرُ في انتظار اللوعود من الحقِّ على حسب الإيمان والتصديق ؛ فمن كان تصديقُه وقينه أتمَّ وأقوى كان صبرُه أتمَّ وأوفى .

« إِنَّا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » : وهو — سبحانه — يُعْطِي وَإِن تَوَهَّمُ الْعِبْدُ أَنَّهُ يُبْغِي .
ويقال الصبر على قسمين : صبرٌ على العافية ، وصبرٌ على البلاء ، والصبرُ على العافية أشدُّ من الصبر على البلاء ، فصبرُ الرجال على العافية وهو أتمُّ الصبر^(١) .

« واستغفر لدُنَيْكَ » . وفي هذا دليل على أنه كانت له ذنوب ، ولم يكن جعُّ استغفاره لأتمه لأنه قال في موضع آخر « وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ »^(٢) وهنا لم يذكر ذلك . ويمكن حُلُّ الدُّنْبِ على ما كان قبل النبوة ؛ إذ يجوز أن يكون العبد قد تاب من الزُّلَّةِ ثم يجب عليه الاستغفار منها كلها ذكرها ، فإن تجديد التوبة يجب كما يجب أصلُ التوبة^(٣) .

قوله جل ذكره : « إِنَّا الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَتَوَلَّوْنَ أَمْثَلُ سُلْطَانٍ أَتَأْمُرُ بِأَن يَتَّبِعُوا مَا يَأْتِيهِمْ فَلْيَتَّبِعُوا اللَّهَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

« يتولَّوْنَ أَمْثَلُ سُلْطَانٍ » : أي يتولَّوْنَ حجة .

« إِنَّا فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا » أي ليس في صدورهم إلا كِبَرٌ يمنهم عن الاقياد للحق ، ويعتقون به عن الله ، ولا يصالون إلى مرادهم .

(١) لأن قوة الإنسان قد تنليه ذكر المنعم فيصبر به — وهذا جفاء ، ولكن ضعف الإنسان في البلاء يدعو إلى الصبر في الله ، قال قائلهم :

والصبر منك لمعلوم عواقبه والصبر في سائر الأشياء مجرود

(٢) آية ١٩ سورة محمد .

(٣) تنبيه على الآراء عند بحث قضية كلامية هي : عصمة الأنبياء .

قوله جل ذكره : « لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

أى خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ بَعْثِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى بَدَأُ أَنْ
صَارُوا رَمِيًّا ؛ فَاقْتَوْمَ كَانُوا يُقْرُونَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيُنْكِرُونَ أَمْرَ الْبَئِثِ .
قوله جل ذكره : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا السَّوْءِ
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ » .

أراد به : ما يستوى للزَّمَنِ وَالْكَافِرِ ، وَلَا لِلرُّبُوطِ بِشَهْوَةِ كَالْبِمُوطِ بِصَفْوَةِ ،
وَلَا الْجُنُوبُ بِقُرْبِهِ كَالْحُجُوبِ بِقُرْبِهِ ، وَلَا لِلرَّقَى إِلَى مُشَاهَدَتِهِ كَالْبُقْعَى فِي شَاهِدِهِ ،
وَلَا الْجُلُودَ ^(١) بِعَادَتِهِ كَالرُّدُودِ لَشِقَاوَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ
فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ » .
إِنَّ مِثْلَ الْحَسَابِ لَكَائِنْ وَإِنْ وَهَتْ لِلْعَذَى فِي أَوَانِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ
لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .
مَعْنَاهُ : ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : « فَيَكْشِفُ
مَادَّعُونَ إِلَهُ إِنْ شَاءَ » ^(٣) .

(١) جَدٌّ هُوَ عَجْرَدٌ أَيْ كَانَ لَهُ حِطٌّ .

(٢) أَيْ إِذَا وَقْتُ الْحَسَابِ لَكَائِنْ هُمَا طَالِبُ الْغَلَّةِ يَبْتَغِيَانِ وَقْتُ حَضْرِهِ .

(٣) آيَةُ ٤١ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

وقال ادعوني بشرط الدعاء ، وشرط الدعاء الأكل من الحلال ؛ إذ يقال الدعاء مفتاح الحاجة ، وأسبابه القصة الحلال .

وقال كلُّ مَنْ دعاه استجاب له إما بما يشاء له ، أو بشئ آخر هو خيرُ له منه .

وقال الكافر ليس بدعوه ؛ لأنه إنما يدعو مَنْ له شريك ، وهو لا شريك له .
وقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما مِنْ مؤمن يدعو الله ويسأله شيئاً إلا أعطاه في الدنيا ، فأما في الآخرة فيقول له : هذا ما طلبته في الدنيا ، وقد ادخرته لك لهذا اليوم حتى ليَتَمَنَّى العبدُ أنه ليه لم يُعط شيئاً في الدنيا قط .

وقال ادعوني بالطاعات استجب لكم بالتواب والدرجات .

وقال ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة . وقال ادعوني بالتأمل أستجب لكم بالتفصيل . وقال ادعوني بحسب الطاقة أستجب لكم بكشف النقاة
وقال ادعوني بالسؤال أستجب لكم بالتوال والأفضال .

« إن الدين يستكبرون عن عبادتي . . » أي يستكبرون عن دعائي ، سيدخلون جهنم صاغرين .

قوله جل ذكره : « الله الذي جل لكم القليل »
لتسكنوا فيه ، والنهار مبصر »
... الآيات

سكونُ الناس في الليل على أقسام : أهلُ النفاة يكونون إلى غفلتهم ، وأهل الحجة يكونون بحكم وصلتهم ، وشقَّتْ بين سكون غفلة وسكون وصلة !
قومٌ يكونون إلى امتلأهم وأشكالهم ، وقومٌ يكونون إلى حلاوة أعمالهم ؛ لينظفهم واستغلاهم ، وقومٌ يهدمون التراب في ليهم ونهارهم وأولئك أصحابُ الاشتقاق . . .
أبدأ في الاشتقاق .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ » الذى جَمَلَ سكونكم معه ، وانزعاجكم له ، واشتياقكم إليه ،
وَحَبَّتْكُمْ فيه ، واضطاعكم إليه .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الذى جَمَلَ لَكُمْ الأرضَ
قَرَارًا والسَّاءَ بِنَاءٍ وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ » .

« صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » : خَلَقَ العرشَ والكُرْسَى والسُّنُوتَ والأَرْضَ
وجَمِيعَ المَخْلُوقَاتِ ولم يَقُلْ هذا المَطْلَبَ ، وإنما قال لنا : « وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ »
وليس الحسنُ ما يستحسنه الناسُ بل الحسنُ ما يستحسنه الحبيبُ :
ما سَطَكَ الواشونَ عن رتبةٍ عندي ولا صَرَفَكَ مُتَغَابِ
كأنهم أَتَوْا - ولم يسلوا - عليكَ عندي بالذى عابوا
لم يَقُلْ للشُّوسِ فى علانها ، ولا للأقارِ فى ضيائها : « وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُورَكُمْ » .

ولما انتهى إلينا قال ذلك ، وقال : « لقد خلقنا الإنسانَ فى أحسنِ قَويمٍ »^(١)
ويقال إن الواشين قَبَّعُوا صورَكم عندنا^(٢) ، بل الملائكةُ كَتَبُوا فى صحائفكم
قَبِيحَ ما ارتكبتم . . ومولاكم أَحْسَنَ صُورَكُمْ ، بأنَّ عَمَّا من ديوانكم الزَّلَّاتِ ،
وأثبتَ بدلاً منها الحسناتِ ، قال تعالى : « يحسبُ الله ما يشاء ويثبت »^(٣) ، وقال :
« فأولئك يُدَبِّلُ اللهُ سِيئاتهم حسنات »^(٤) .

قوله جل ذكره : « وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ » .
ليس الطيبُ ما تستطيبه النَّفْسُ إنما الطيبُ ما يستطيبه القلبُ ، فالطيبُ

(١) آية ٤ سورة العن .

(٢) ربما يقصد القشيري بذلك إبليس الذى استصل بكنوته مخلوقاً من نار على آدم المخلوق من الطين .

(٣) آية ٢٩ سورة الرعد .

(٤) آية ٧٠ سورة الفرقان .

التفكر أليط للفقير الشاكر من الخلاء للفقير المتسخط .

ورزقُ النفوس الطعامُ والشرابُ ، ورزقُ القلوبِ لذات الطاعات .

قوله جل ذكره : « هو الحيُّ لا إله إلا هو قاعدوه

مخلصين له الدين الحمد لله

رب العالمين »

« هو الحيُّ » : الذي لا يموت ، ولا فضله يفوت ، قاعدوه بلسان القوت ،

وذلك عليه لا يفوت .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي

الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »

قُلْ — يا محمد — إلى نهيت عن عبادة ما تدعون من دون الله ؛ أي أمرتُ

بالتبسُّي عما عبدتم ، والإعراض عما به اشتغلتُم ، والاستسلام للذي خلقني ،

وبالنبوة استخسني .

قوله جل ذكره : « هو الذي خلقكم مِنْ ترابٍ

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ ثُمَّ

لِتَكُونُوا شِيعًا . . . »

فمن نُزْءٍ إلى قَلْءٍ ؛ ومن قَلْءٍ إلى عَلَقَةٍ . . ثم من بلون أمهاتكم إلى

ظهوركم في دنياكم . . ثم من حال كونكم طِفْلًا ثم شِيعًا ثم شِيعًا . .

وهو الذي يمهي ويميت ، ثم يث في أخرى للدارين .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُعَذِّبُونَ .

فِي آيَاتِ اللَّهِ يُقْبَلُونَ ؛ فَلَا حُجَّةَ يوردُونَ ، وَلَا عَذَابَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ يَرُدُّونَ ،
سَيَلُونَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ عِلْمُهُمْ ، وَيَسْتَفْزِرُونَ حِينَ لَا يَسْمَعُ عَذْرُهُمْ ، وَذَلِكَ
عِنْدَمَا :

« لِإِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ
يُسْحَبُونَ • فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
يُسْجَرُونَ » . . . الْآيَاتِ .

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ وَالْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ، ثُمَّ يُذَقُّونَ أُلْوَانَ الْمَذَابِ . . . فَإِذَا
أَقْرَبُوا بِكَفَرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ يُقَالُ لَهُمْ : أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَافِينَ فِيهَا ، فَبُئْسَ مَثْوَاكُمْ
وَمَصِيرَكُمْ ، وَسَاءَ ذَهَابُهُمْ وَمَصِيرُهُمْ .

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ »
فَلْيَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ
تَتَوَفِّيكَ فَلْيَلِينَا يُرْجَوْنَ .

كُنْ قَلْبَكَ مُرَافِقاً عَنْهُمْ ، وَانظُرْ مِنْ بَدْءٍ إِلَى مَا يُفْعَلُ بِهِمْ ، وَاسْتَقِنْ بِأَنَّهُ
لَا بَقَاءَ لِحَوْلَةِ بَالِهِمْ . . . فَإِنَّ قَلْبَ بَعْضِ مَا تَتَوَعَّدُهُمْ بِهِ وَإِلَّا فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْ
مُقَاسَاتِهِمْ ذَلِكَ بَدْءٌ . ثُمَّ أَكْثَرُ تَلَبُّسِهِ لَهُمْ وَتَجْدِيدِ تَصْيِيرِهِ وَتَعْرِيفِهِ بِقَوْلِهِ :

« وَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ
مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
تَقْعُصْنِ عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بَأْيَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ فَفُتِيَ بِالْحَقِّ وَخَيْرَ هَذَا
الْمُبْطِلُونَ » .

فصننا عليك قصصَ بعضهم ، ولم نغيرك عن قصص الآخرين .

ولم يكن في وسع أحدٍ الإتيان بمجزةٍ إلا إذا أظهرنا نحن عليه ما أردنا إذا ما أردنا . فكذلك إنَّ طابُوكَ بآيةٍ قدَّ أظهرنا عليك من الآيات ما أزعجنا به العُذر . وأوضحنا صِحةَ الأمر . . وما اقترحوه ... فإنَّ شئنا أظهرنا ، وإنَّ شئنا نَرَكُنَا .

قوله جل ذكره : « اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ »
ولكم فيها منافعٌ وتبليغوا عليها حاجةٌ
في سدوركم وعليها وعلى الفلَكِ
تُحْسِنُونَ * ويرى آياته فأى
آياتِ اللهِ تُنْكِرُونَ »

ذَكَرَ عَظِيمَ إِسْمِهِ بِتَسْخِيرِ الْأَنْعَامِ ؛ قَالَ جَعَلَهَا لَكُمْ لِتَنْتَفِعُوا بِهَا بِالرُّكُوبِ
وَالْخَلِّ وَالسَّلِّ ، وَلِتَسْتَقُوا أَلْبَانَهَا ، وَلِتَأْكُلُوا لَحُومَهَا وَشَعْوِمَهَا ، وَلِتَنْتَفِعُوا بِأَصْرَانِهَا
وَأُوبَارِهَا وَأَشْمَارِهَا ، وَلِتَضَلُّوا مَسَاقَ بَيْدَةٍ عَلَيْهَا ... فَعَلَى الْأَنْعَامِ وَفَى الْفُلُكِ تَنْتَفِعُونَ
مِنْ مَنَافِعِهِ إِلَى صُغُرٍ . . وَأَنَا الَّذِي يَسِّرْتُ لَكُمْ هَذَا ، وَأَنَا الَّذِي أَلْهَمْتُكُمْ الْإِنْتِاعَ
بِهِ ؛ فَتَقُوا فِي ذَلِكَ وَاعْرِفُوهُ .

قوله جل ذكره : « أَكْثَرُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَرًا
فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ » . . . الْآيَاتِ

أَمَرَهُم بِالْإِعْتِبَارِ بِمَنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ ؛ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَطْوَلَ
أَعْمَارًا ، فَانْظُرُوا فِي حِجَالِ أَمْثَلِهِمْ ، فَوْقُوا فِي وَهْدَةِ غُرُومِهِمْ ، وَمَا بَقِيَ لَخْنُهُ

عن مراده فيهم ، واغترخوا بسلامتهم في مُدَّةٍ ما أُرْحِنَا لِمَ عَنَّا إِسْهَالُهم ، ثم فَاجَأَنَاهم
بِالْمُتَوْبَةِ ، فَلَمْ يُعْجِزُوا اللَّهَ فِي مُرَادِهِ مِنْهم -

فَلَمَّا رَأَوْا شِدَّةَ الْيَأْسِ ، وَوَقَعُوا فِي مِذْلَةِ الْغَلِيَّةِ وَالْيَأْسِ تَمَنَّوْا أَنْ لَوْ أُعِيدُوا
إِلَى الدُّنْيَا مِنَ الرَّأْسِ . . قَابِلَهُمُ اللَّهُ بِالْغَلِيَّةِ^(١) ؛ وَخَرَّطَهُمْ فِي سِتْكَ مَنْ أَبَادَهُمْ
مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالسُّخْطِ .

(١) لأن الثبوت لا يكون به حصول العلم الضروري ودلالة المذاب ، فإن أو أنها يكون قد انتفى .

سورة فصلت

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

أُفْلِحَ مَنْ عَرَفَ « بسم الله » ، وما رَجَعَ مَنْ بَقِيَ عَنْ « بسم الله » .

مَنْ حَسِبَ لِسَانَهُ « بسم الله » ، وَحَسِبَ جَنَانَهُ « بسم الله » كَفَى لَهُ شَفِيعاً « بسم الله » إِلَى مَنْ يُعِيدُنَا بِذِكْرِ « بسم الله » .

قوله جل ذكره : « حم » تنزيل من الرحمن الرحيم .

بِحَقِّ وَحْيَاتِي ، وَمَجْدِي فِي صَفَاتِي وَذَاتِي . . . هَذَا تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

قوله جل ذكره : « كَتَبْنَا قُرْآنَكَ عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

بَيَّنَّتْ آيَاتُهُ وَدَلَّلَاتُهُ .

« قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » : الدليل منصوبٌ للكافة ولكن الاستبصار به للعالمين —

دون المُعْرِضِينَ الجاهِلِينَ .

« بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » .

« بَشِيرًا » : لِيَنْ اخْتَرْنَاهُمْ وَاسْمَعْنَاهُمْ .

« وَنَذِيرًا » : لِيَنْ أَقْبِلْنَاهُمْ ، وَمِنْ شُهُودِ آيَاتِنَا أَعْيُنَاهُمْ .

« فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ . . » عِنْدَ دَعَائِنَا إِلَى الْإِلَهَامِ ، فَهُمْ مُتَبَيِّنُونَ فَيَا أُرْدَنَامَ ، وَعَلَى ذَلِكَ

(الوصف) (١). عَلَيْنَا

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا قلوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ عما نمدحون
إليه وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ
حجابٌ فَأَعْمَلْ لَنَا عَمَلُونَ » .

قالوا ذلك على الاستهانة والاستهزاء ، ولو قالوه عن بصيرة لكان ذلك منهم توحيدا (٢) ،
فمنوا بالمقت ليا قلدوا من محقق القلب .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ
أَنَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَعِظُوا إِلَيَّ
وَاسْتَغْفِرُوا . وَيُولِ الشُّرَكَينَ * الَّذِينَ
لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ » .

إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ في الصورة والبنية ، والذات والحلقة . والفرقان بيني وبينكم أَنَّهُ
يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ؛ فالخصوصية من قبلك لا هي قيسلي ، وقد بقيت فيكم همرا ،
ولقيتموني دهرًا . فاعترتم مني على غير صواب ، ولا وجدتم في قولي شوب كذاب . وأمرى
إليكم أنز استعظوا في طاعته ، واستسلوا لأمره . . وطوبى لِمَنْ أَجَابَ ، والويلُ لِمَنْ
أَصْرَعُ وعلب ! .

(١) سقط (الوصف) من م وهي موجودة في م .
(٢) روى أن قريشا اختارت حبة بين ربيعة كة يمرض على النبي (ص) أن يكف عن سب آلها وتسفيه أحاديثها
مقابل ديانة أو مال .. إلخ ؛ وظل يتحدث في ذلك حوائتي ، وعقله سأله النبي (ص) : أغرت يا أبا البرد ؟
قال : نعم .. فقال : إسمع .. اسم الله الرحمن الرحيم . سم تنزيل من الرحمن الرحيم : كتاب فصلت
إلى قوله تعالى : فَإِنْ أَرْضُوا نَقْلَ أَرْضِكُمْ مِثْلَ مِسْطَرَّةٍ هَادٍ وَشُعُودٍ ؛ فوثب حبة ، ووضع يده على لم النبي
وناداه ليكنن ... ثم مضى إلى قريش فأبى ما سمع ، وأقسم ألا يكلم عبدا أبدا ، لأن ما سمع ما هو بشعر
ولا كهيأة ولا سحر .. ثم أردد : ولقد علمت أن عبدا لهذا قال عيبا لا يكلب ..
(٣) لأنه يكون حثك أدركنا أنهم بوجود غطاء من ظلة البشرية يصعب من حقيقة الأحيية ، ويكون ادترافهم
بفضوهم بداية لاستخدامهم لك من الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَمْ أَجْزِغْهُمْ عَنْهُمْ » .

« آمَنُوا » : شاعروا ، « وعملوا الصالحات » : لازموا سِاطَ العبودية .

« آمَنُوا » : شهدوا الحضرة ، « وعملوا الصالحات » : وقوا بالباب .

« آمَنُوا » : حضروا ، « وعملوا الصالحات » : بد ما حضروا لم ينصرفوا .

« لم أجْزِغْهُمْ عَنْهُمْ » : غير منقوص^(١) ؛ فأَجْرُ النفوس الجنةُ ، وأَجْرُ القلوب الرضا بالله ، وأَجْرُ الأرواح الاستئناسُ بالله ، وأَجْرُ الأسرارِ دوامُ المشاهدة لله .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْمَلُونَ لَهُ

أَنبَاءًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

خَلَقَ الزَّمانَ ولم يكن قبله زمان ، وَخَلَقَ للكان ، ولم يكن قبله مكان ؛ فخلقُ — سبحانه — كان ولا مكان ولا زمان ؛ فهو عزَّزْ لا يُدْرِكُهُ للكانُ ، ولا يَنْلِكُهُ الزمان .

« وَتَجْمَلُونَ لَهُ أُنْبَاءًا » .. وكيف يكون الذي لم يكن ثم حصل^(٢) نَبَأًا للذي لم يَرْكَنْ .. ولا يزال كما لم يزل ؟ ! ذلك ربُّ العالمين .

قوله جل ذكره : « وَجَعَلَ فِيهَا رَوَابِيٍّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ

فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاجَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سَوَاءً لِّلْمَسْأَلِينَ » .

الجبَّالُ أَوْتَدُ الْأَرْضِ فِي الصُّورَةِ ، وَالْأَوَّلِيَّاهُ أَوْتَدُ وَرَواسِي الْأَرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ .

(١) يقال مثلت الحبل إذا قطعه ، ومنه قول ذي الإصبع :

لَيْلَ لِمَبْرُكٍ مَا بَالِي بِأَمْسٍ فَكُفِّرْ عَنِ الصَّبِيقِ وَلَا خَيْرَ بِمَسُونٍ

وقيل نزلت الآية فخر الحرفي والقرني والحرى إذا حجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأجس ما كانوا يصلون .

(٢) الذي لم يكن ثم حصل هو الحادث ، المخلوق من العدم .. كيف يكون تداءً للقديم الأزل السرمدى ؟ !

« ويلارك فيها » : البركة الزيادة . - فيأتيهم المطر بركات الأولياء ، ويندفع عنهم البلاء بركات الأولياء .

« وقدر فيها أقواتها » : جعلها مختلفة في الطعم والصورة والمقدار . وأرزاق القلوب والسرائر كما مضى ذكره فيما تقدم .

قوله جل ذكره : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان »
قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها
قالتا آتينا طائين »

« استوى » أى قَصَدَ ، وقيل فعل فاعله هو الذى يعلم تعيينه^(١) .

وقال رَبُّ أَصْلَاهَا ، وَرَكَّبَ فِيهَا نَجْمَهَا وَأَزْهَرَهَا .

« قَالَ لَهَا وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا آتينا طائين » : هذا على ضرب السَّكَل ؛ أى لا يتيسر عليه شيء مما خلقه ، فله من خَلْقِهِ ما أَرَادَهُ . وقيل بل أحياءها وأعظمها وأنعمها قالتا ذلك . وجعل قوس المابدين أرضاً لطاعته وعبادته ، وجعل قلوبهم فَلَكَاً لتجبرهم عليه وشموس معرفته .

وأوتأد النفوس انخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . وفي القلوب ضياء المرفان ، وشموس التوحيد ، ونجوم العلوم والعقول والنفوس . والقلوب بيده يُصَرَّفُهَا على ما أَرَادَ من أحكامه .

قوله جل ذكره : « قَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمٍ
وأوحى في كل سماه أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ
الدنيا بمصاييح وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » .

(١) تقول الغريب : فعل فلان كذا ثم استوى إذا حصل كذا ؛ يريدون أنه أكل الأول وابتدأ الثاني ، ويفهم منه أن خلق السماء كان بعد خلق الأرض (السنن ٤ ص ٨٩) .
ومن قال إنه صفة ذاتية زائلة تكون على معنى استوى في الأرض بصفاته (القرطبي ١٥٠ ص ٢٤٢) .
وعلى الرأي الأول يكون الاستواء من صفات الفعل وعلى الثاني يكون من صفات الذات .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وزَيَّنَ وجه الأرض بمصابيح هي قلوب الأحياء ؛ فأهل السماء إذا نظروا إلى قلوب الأولياء بالليل فذلك متنزههم كما أن أهل الأرض إذا نظروا إلى السماء استأنسوا برؤية الكواكب .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُودَ »

أى أخير المكذِّبين لك أن لكم سلفاً .. فإن سلكم طريقهم في الغناد ، وأيتهم إلا الإصرار الحفناكم بأمثالكم .

« فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِشَرِّ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ » .

ركنوا إلى قوة نفوسهم فغاثهم قوام ، واستمكنت منهم بلوام .

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا مَرْصُورًا فِي أَيَّامٍ نَحِصَاتٍ ^(١) لِيَذِقَ لَهُمْ عَذَابَ الْغَوِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » .

فلم ينادر منهم أحداً .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » ونَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

(١) في قراءة أبي عمرو « نَحِصَاتٍ » ويُسكن الحاء على أنها جمع المصدر « نحس » مستلهاً بقوله تعالى : « فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُشْتَرِكٍ » ولو كان صفة لم يضاف اليوم إليه .

قيل لآمنهم في الابداء آمنوا وصدقوا ، ثم ارتدوا وكذبوا ، فأجرام مجرى إخوانهم
في الاستصال .

« ونجينا الذين آمنوا . . » : منهم من نجا من غير أن رأوا النار ؛ فصبوا الصلابة
ولم يلموا ، وقوم كالبرق الخاطف وهم أعلام ، وقوم كالراكن .. وهم أيضاً من الأكابر ،
وقوم على الصراط يستقلون ويردّهم الملائكة على الصراط . فيمدّ ويمدّ . . قوماً بعدما دخلوا
لنارهم من تأخذهم إلى كمينه ثم إلى ركبته ثم إلى حنّيه^(١) ، فإذا ما بلغت النار القلب
قال الحق لها : (لا تحرق قلبه)^(٢) ؛ فإنه محترق في . وقوم يخرجون من النار بعدما
امتحنوا^(٣) فصاروا محمداً^(٤) :

قوله جل ذكره : « ويوم يُخسّر أعداء الله إلى النار
فهم يؤذّون • حق إذا ما جاءوها
شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم
بما كانوا يعملون • وقالوا لجلودهم
لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وإليه ترجعون • وما كنتم تستترون
أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم
ولا جلودكم ولكن ظننكم أن الله
لا يعلم كثيراً مما تسلمون • وذلكم ظنكم
الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم
من الخاسرين » .

(١) الخفق = النقص .

(٢) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٣) أحسن الحر أو النار جلده أي أحرقه وفسده من اللحم . ويقال طه سة أصحت كل شيء إذا كانت جديدة .

(٤) الحسم = الحسم أو الرماد .. وكل ما احترق من النار .

شهدت عليهم أجزاؤهم ، ولم يكن في حسابهم أن الله سَيُنْطِقُها وهو الذى أنطق كل شئ ، ولم يَدْرُ بِجَلَدِهِمْ ما استقبلهم من الصير الأليم .

« ذلك ظنكم ... » : وكذا مَنْ قَدِ في وصف الأقوال ، وَوَسَمَ موضِعَهُ ، وَحَكَمَ لنفسه أنه مَعْدَمٌ بِلَدِهِ . فلا يُسَمَحُ منه إلا ببرهانٍ ودليلٍ من حاله ، فَإِنْ خالف الحالُ قوله فلا يُستمد عليه بعد ذلك ^(١) .

والظنُّ بالله إذا كان جليلاً فليسرى يُقَابَلُ بالتحقيق ، أمّا إذا كان نتيجة الغرورِ وغير مأذونٍ به في الشرع فإنه يُرَدَّى صاحبه .

قوله جل ذكره : « فَإِنْ يَصْبِرُوا قَالُوا مَثْوًى لَمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَاْهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » .

فَإِنْ يَصْبِرُوا على موضع الخلف فسيتقلبون إلى النار . وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا — فعل ما قال — فَاْهُمْ بِمَعْنَى ^(٢) .

« وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرِحُوا لَمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » .

إذا أراد الله بِسَيِّئٍ خيراً قَبِضَ له قرآنٌ خَيْرٌ يُسَيِّئُونَهُ على الطاعات ، وَيَحْمِلُونَهُ عليها ، ويدعونه إليها . وإذا كانوا إِخْوَانٌ سَوَّاهُوهُ على الخلفات ، ودَعَوْهُ إليها . . ومن ذلك الشيطانُ ؛ فإنه مُتَّعٍ مُسَلَّطٌ على الإنسان يوسوس إليه بالخلفات .. وشرٌّ من ذلك النَّفْسُ . فَبَيْنَا بَنَسَ القرنين ١١ فهى تدعو البعد — اليوم — إلى ما فيه هلاكه ، وتشهد عليه غداً بفعل الزَّللَةِ . فالنفسُ — وشرُّ قرينِ المرءِ نَفْسُهُ — والشياطينُ وشياطينُ الْإِنْسِ . . كلها تُزَيِّنُ لَمْ

(١) يعود للتشعيرى بعد قليل إلى هذا المعنى نفسه حين يتحدث عن يكلفون بالقالة دون صفاء الحالة .

(٢) أى أن النار مَثْوًى لَمْ في الخافين ، ولا مهرب لَمْ منها ؛ فلا صبر لَمْ بتاتع ، ولا طلب الرضا لَمْ بتاتع ، ولا يد لَمْ من النار .

« ما بين أيديهم » من طول الأمل ، « وما خلفهم » من نيبان الزلزال ، والتسويق في التوبة ، والتقصير في الطاعة .

قوله جل ذكره : « وقال الذين كفروا لا تسمعُوا لهذا

القرآنَ وَالْفَوَاحِشَ لَكُمْ تَنْهِيُونَ »

استولى على قلوبهم الجحْدُ والإنكارُ ، ودام على مداوة فيهم الإصرارُ ؛ فاحتلوا بكل وجهٍ ، وتواصوا فيما بينهم بالألا يسمعوا لهذا القرآنَ لأنه يغلب القلوب ، ويلب القول ، وكل من استمع إليه صَبَا إليه .

وقالوا : إذا أَخَذَ محمدٌ في القرآنِ فَأَكْثَرُوا عند قراءته الفَنَوَ واللفظَ حتى يقع في السهو والغلط .

ولم يعلموا أن الذي نُورَ قلبه بالإيمان ، وأُثِّدَ بالثبم ، وأُمِدَّ بالنصرة ، وكشف بجماع الشرِّ من النيب هو الذي يسمع ويؤمن . والذي هو في ظلمات جهله لا يدخل الإيمانُ قلبه ، ولا يباشر السماعُ سِرَّهُ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَلَنَنْدِيْقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ »

اليومَ بِإِذْمَةِ الْجَرْمَانِ الَّذِي هُوَ التَّرَاقُ ، وعذاباً بالتخليد في النار التي هي الاحتراق .

« ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا

حَارٌّ مُتَغَلِّدٌ جِزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكُونُوا

يَجْتَدُونَ » .

لهم فيها الخزي والموان بلا اضطرار ولا انصرام .

« وقال الذين كفروا ربنا أَرِنا الذين

(١) إذا تذكرنا أن السر أهل من القلب ومن الروح مرفنا أن والسماع منه الشيخ ذو مرتبة عالية على مكن مايقته المفترضون

أضلانا من الجن والإنس بحملنا تحت
أقدامنا ليكُونَا من الأسفلين .

من الجن إبليس . ومن الإنس قابيل بن آدم فهو أول مَنْ سَنَّ العصية (حين قتل
أخاه)^(١) .

« بحملها تحت أقدامنا » ؛ هذه الإرادة وهذا التقي زيادة في عقوبتهم أيضا ؛ لأنهم يتأذون
بتلك الإرادة وهذا التقي ؛ فهم يحملون أنه لا قُصَّ لهم من ذلك إذ لن يُكَايَوا في شيء ، ولن يُمْتَحَ
منهم العذاب .

وفيد هذا الإخبار عنهم عن وقوع التبري فيما بينهم ، فبمضهم بئرا من بعض ، كما يفيد
بأن الندم في غير وقته لا جلوى منه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ السَّلَاطَةُ أَلَّا تَتَّقُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْبِشِرُوا بِالْجُنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ » .

« ثم » استقاموا : ثم حرف يقتضي التراخي ، فهو لا يدل على أنهم في الحال لا يكونون
مستقيمين ، ولكن مناه استقاموا في الحال ، ثم استقاموا في المال بأن استلماوا إيمانهم إلى
وقت خروجهم من الدنيا ، وهو آخر أحوال كونهم مُكَلَّفِينَ .

ويقال : قالوا بشرط الاستجابة أولاً ، ثم استبصروا بموجب الحجة ، ولم يثبتوا على وصف
التقليد ، ولم يكفوا بالثبات دون صفاء الحلة .

« استقاموا » : الاستقامة هي الثبات على شرائط الإيمان بحملها من غير إخلال بشيء من
أقسامها . وقال : هم على قسمين :

(١) زيادة من معناها لتوضيح وليست موجودة بالنص .

مستقيم (في أصول) ^(١) التوحيد والمعرفة . . وهذه صفة جميع المؤمنين ^(٢) .

ومستقيم في الفروع من غير عيبان . . وهؤلاء مختلفون ؛ فبهم . . ومنهم ، ومنهم .

« وأبشروا بالجنة » : الذين لم البشارة هم كل من استقام في التوحيد ، ولم يشرك . . فله الأمان من الخلود ^(٣) . ويقال : مَنْ كَانَ لَهُ أَصْلُ الاستقامة أَمِينٌ ^(٤) من الخلود في النار ، ومن له كمال الاستقامة أَمِينٌ من الوعيد من غير أن يلحقه سوء بحال . . ثم الاستقامة لهم على حسب أحوالهم ؛ فمستقيم في عهده . ومستقيم في عقده ، ومستقيم في جهده ومراعاة حدّه ، ومستقيم في عقده وجهده وحدّه وحبه وودّه . . وهذا أتمهم .

ويقال : استقاموا على دوام الشهود وعلى اغتراد القلب بالله .

ويقال : استقاموا في صفة التقديّم في توفية المهدّم في حمة القصد بدوام الوجد .

ويقال : استقاموا بأقوالهم ثم بأعمالهم ، ثم بصفاء أحوالهم في وقهم وفي مآلهم .

ويقال : أقموا على طاعته ، واستقاموا في معرفته ، وهاموا في محبته ، وقاموا بشرايط خدمته .

ويقال : استقامة الزاهد الأبرجّ إلى الدنيا ، والأيمنة الجاهل بين الناس عن الله . واستقامة العارف ألا يشوب معرفته حظٌّ في الناريّ فيحببه عن مولاه . واستقامة العابد ألا يعود إلى فقرته واتباع شهوته ، ولا يتدخله رياء وتصنع . واستقامة ^(٥) الحبيب ألا يكون له أربّ من محبوبه ، بل يكتفي من عطائه ببقائه ، ومن مقتضى جوده بدوام عزّه ووجوده .

« ألا تخافوا ولا تحزنوا » : إنما يكون الخوف في المستقبل من الوقت ، من حلول مكروه أو فوات محبوب ، فاللائكة يشيرونهم بأن كل مطلوب لهم سيكون ، وكل مخدور لهم لا يكون .

(١) هكذا في م وهي في م (مل أصل) وهي مقبولة حسب قوله تعالى في موضع آخر (استقاموا على الطريق) ولكننا أثّرنا (في أصول) لتسليم مع الفروع .

(٢) من أنس قال : لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) : هم أمّتي وروب الكعبة .

(٣) أي لا يخلط في النار . . ويقتضيه جميع أصحاب الميزلة بين المؤمنين .

(٤) لاحظ الربط بين الأمن والأمان من ناحية والإيمان من ناحية أخرى .

(٥) أي أن مجرد ذكر الحبيب قد (يلاقي) يكتفيه عن تذكر أي عطاء أو منح . . نفسه الله .

والحزن من حُزونة الوقت ، ومن كان راضياً بما يجري فلا حزن له في عيشه . والملائكة يشرونهم بأنهم لا حُزونة في أحوالهم ، وإنعام في الرّوح والراحة .

« وأبشروا بالجنة » : أى بحسن المآب ، وبما وَعَدَ اللهُ من جميل الثواب .

والذى هو موعودٌ للأولياء بشفاعة لَلَّذِى موجودٌ اليومَ غلوّاً عباده ببطاء لَلَّذِى ؛ فلا يكون لأحدهم مطالعةٌ في المستقبل من حاله بل يكون بحكم الوقت ؛ فلا يكون له خوف ؛ لأن الخوف — كما قلنا من قبل — ينشأ من تطلع إلى المستقبل لِمَا من زوال محبوبٍ أو حصولٍ مكروه ، وإن الذى بصفة الرضا^(١) لا حُزونة في حاله ووقته .

ويمكن القول : « لا تخافوا » من العذاب ، « ولا تحزنوا » على ما خلفتم من الأسباب ، « وأبشروا » بحسن الثواب في المآب .

ويقال : « لا تخافوا » من عزل الولاية ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الجناية ، « وأبشروا » بحسن النهاية في البداية .

ويقال : « لا تخافوا » عما أسلفتم ، « ولا تحزنوا » على ما خلفتم ، « وأبشروا » بالجنة التى لها نكلفتكم .

ويقال : « لا تخافوا » للذلة ، « ولا تحزنوا » على ما أسلفتم من الزلة ، « وأبشروا » بدوام الوصلة .

قوله جل ذكره : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا

وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتمون

أهلكم ولكم فيها ما تدعون » نزلاً

من غفورٍ رحيم .

الولاية من الله بمعنى المحبة ، وتكون بمعنى النصرة .

(١) هذا من أدقّ المبروح لِمَا « الرضا » الذى كما تعرف من معجب التشيرى مرحلة انتقال من الغفلات إلى الأحوال .

وهذا الخطاب يحصل أن يكون من قبل اللائكة الذين تنزلوا عليهم ، ويحتمل أن يكون ابتداء خطابٍ من الله .

والنصرة تصدر من الحبة ؛ فلو لم تكن الحبة الأزلية لم تحصل النصره في الحال .

ويقال : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بصحيح للفرقة ، « وفي الآخرة » بتحصيل المغفرة .

ويقال « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » بالنباية ، « وفي الآخرة » بحسن الكفاية وجعل الرعاية .

« في الحياة الدنيا » بالمساعدة ، « وفي الآخرة » بالمعينة .

في الدنيا بالرضاء بالقضاء ، وفي الآخرة باللقاء في دار البقاء .

في الدنيا بالإيمان ، وفي الآخرة بالنفوس .

في الدنيا بالحبة ، وفي الآخرة بالقربة .

« ولكم فيها » أى فى الجنة « ما تشتهى أنفسكم » : الولاية هُـدًى ، وتحصيل الشهوات وعدٌ ، فمن يشتغل بشهده قلماً يشتغل بوعده^(١) .

« ولكم فيها ما تدعون » : أى ما تريدون ، وتدعون الله ليُعطيكم .

« نزلاً » : أى فضلاً وعطاءً ، وقُدْمة لما يستديم إلى الأبد من فنون الأفضال ووجوه المبارء^(٢) .

(١) تفيد هذه الإشارة الممتدة حقاً في توضيح الفكرة الصوفية للشائمة التي تقول إن العبادة الحقّة هي المبردة عن الطبع في الثواب والخوف من العقاب .. وهي عند الكثير من أمارات الولاية والحبة الصافية .. ويمكن بعض الصوفية في ذلك يذهبهم طلب الله لذاته إلى القول :

أريدك لا أريدك غيوباً ، ولكنى أريدك للعقاب
فكل ما أريدى قد نلت منها سوى ملوذة وجدي بالعذاب

(٢) فتكره (نزلاً) منصوب على المصدر أى أنزلناه نزلاً . وقيل : حل الحال . وقيل هو جمع نازل أى لكم ما تدعون نازلين .

« من غفور رحيم » : وفي ذلك مسامحٌ لآمال اللذين ؛ لأنهم هم الذين يحتاجون إلى الغفرة ، ولولا رحمة لما وصلوا إلى مغفرته .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

أى لا أحد أحسنُ قولاً منه ، ويكون للراى منه النبى صلى الله عليه وسلم . ويحتمل أن يكون جميع الأنبياء عليهم السلام .

ويقال هم المؤمنون . ويقال هم الأمة الذين يدعون الناس إلى الله .

وقيل هم المزدنون . ويقال الداعى إلى الله هو الذى يدعو الناس إلى الاكتفاء بالله وترك طلب العوض من الله ، ويسكل أمره إلى الله ، ويرضى من الله بقسمة الله .

« وَعَمِلَ صَالِحًا » : أى كما يدعو الخلق إلى الله يأتى بما يدعوهم إليه .

ويقال هم الذين عرفوا طريق الله ، ثم سلكوا طريق الله ، ثم دعوا الناس إلى الله .

ويقال بل سلكوا طريق الله ؛ فبسلوكهم وبمنازلاتهم عرفوا الطريق إلى الله ، ثم دعوا الخلق إليه بعدما عرفوا الطريق إليه .

« وقال إني من المسلمين » : المسلمون لحكمهم الراضون بقضائه وتقديره .

قوله جل ذكر : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ

أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » .

ادفع بالعلمة التى هي أحسن السيئة أى بالغو عن الكفاة ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الاتصاف ^(١) .

« فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » يشبه الولى الحميم - ولم يعبر ولياً مخلصاً .. وهذا من جملة حسن الأدب فى الخلعة فى حق محبتك مع الله ؛ تعلم مع عباده لأجله .

(١) هذه الآية مأخوذة من آيات الفتوة - كما ورد فى الفصل الذى عقده لما فى رسالته .

ومن جملة حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الصَّحْبَةِ مَعَ الْخَلْقِ الْأَنْتِظَمَ لِنَفْسِكَ ، وَأَنْ تَعْوَى عَنْ خَصَمِكَ .

قوله جل ذكره : « وما يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا

وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

لا يقوم بحق هذه الأخلاق إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ بِتَوْفِيقِ الصَّبرِ ، وَرَفَى عَنْ سَفَاسِ الشِّيمِ إِلَى

مَعَالِي الْأَخْلَاقِ . وَلَا يَصِلُ أَحْسَنَ الْمَرْجَاتِ إِلَّا مَنْ صَبَرَ عَلَى مَقَالَسَةِ الشَّدَائِدِ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ

فَتَسْتَبْدِ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

إِذَا اتَّصَلَتْ بِقَلْبِكَ نَزْعَاتُ الشَّيْطَانِ فَبَادِرْ بِذِكْرِ رَبِّكَ ، وَارْجِعْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَيْةِ خَطْوَةٍ (١) ..

فَإِنَّكَ إِن لَّمْ تَخْلُفْ أَوَّلَ مَا جِئَ مِنْهُ هَوَاجِسُ الشَّيْطَانِ صَارَ فِكْرُهُ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَحْصِلُ الْعَزَمُ

عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ .. فَإِذَا لَمْ تَتَذَكَّرْ ذَلِكَ تَجْرَى الزَّلَّةُ ، وَإِذَا لَمْ تَتَذَكَّرْ ذَلِكَ يَحْصُنْ

الرَّجْسُ صَارِفًا .. وَبِتَادِي الْوَقْتِ تَصْبِيحُ فِي خَطَرٍ كُلِّ آتَةٍ .

وَلَا يَتَخَلَّصُ الْعَبْدُ مِنْ نَزْعَاتِ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِصِدْقِ الْأَسْتِثْنَاءِ وَصِدْقِ الْأَسْتِثْنَاءِ وَبِطَلْكِ

يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » (٢) ؛ فَكُلَّمَا أَزْدَادَ

الْعَبْدُ فِي تَبَرُّهِ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ (٣) ، وَأَخْلَصَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِتَضَرُّعِهِ وَاسْتِغْنَاءِهِ وَاسْتِغْنَاءِهِ زَادَ

اللَّهُ فِي حِفْظِهِ ، وَدَفَعَ الشَّيْطَانَ عَنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

(١) هكذا في م وهي في ص (خطرة) بالراء ، ونحن لا نرفض ذلك إذ يقول القشيري في رسالته ص ٤٦ :
والغواطر عذاب يرد على الصائرين وقد يكون الغواطر بإلقاء سلكك ، وأو بإلقاء الشيطان ، وقد يكون حديث الكفص ..

ويقول في نفس الموضوع : كل غاطر لا يشهد الظاهر فهو باطل .

(٢) آية ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) لأنه كلما ازداد في ذلك ازدادت مبرورته ، فتدفع في زمرة «مباحين» الذين ليس للشيطان عليهم سلطان .
وهذا الفهم يتأيد السياق ويتأكد في ظل الشاهد القرآني .

أَوْضَحَ الْآيَاتِ ، وَأَلَحَّ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَزَاحَ عِلَّةَ مَنْ رَامَ الْوَصُولَ . وَاخْتَلَفَتْ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ ، وَدَوَّرَانِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ جَمَلَةِ أَمَارَاتِ قُدْرَتِهِ ، وَدَلَالَاتِ تَوْحِيدِهِ .

« لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ » فِي عِلَالِهَا ، « وَلَا لِلْقَمَرِ » فِي ضِيَائِهِ : « وَاسْجُدُوا لِلَّهِ »
تَدْغَارُ^(١) عَلَيْكَ أَنْ تَسْجُدَ لِتَوْبِهِ .

وَالشَّمْسُ — وَإِنْ عَلَتْ ، وَالْقَمَرُ — وَإِنْ حَسُنَ . . فَلَا حِجَابَ خَفَيْنَاهُمَا ، فَلَا تَسْجُدْ
لَهَا ، وَاسْجُدْ لَنَا .

وَيَقَالُ : خَلَقَ لِللَّائِكَةِ — وَمَعَ كَثْرَةِ عِبَادَتِهِمْ ، وَمَعَ تَقَدُّمِهِمْ فِي الطَّاعَةِ — قَالَ لَمْ :
اسْجُدُوا لِآدَمَ ، وَحِينَ امْتَنَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لَيْنَ إِلَى الْإِيدِ . وَقَالَ لِأَوْلَادِ آدَمَ الْمَصَاوِرِ
لِلذَّبِينِ : « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ... فَتُتَّانِ مَا هَا !! »

وَالْحَقُّ — سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى — يَأْمُرُكَ بِحَيَاةٍ وَجْهِكَ عَنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ . . وَأَنْتَ
لِأَجْلِ كُلِّ حَقٍّ خَاسِرٍ نَقْلَ قَسَمِكَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ؛ وَتَدْخُلُ بِمَحْيَاكَ عَلَى
كُلِّ أَحَدٍ !!

قوله جل ذكره: « فَمَنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ

يُصَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمِ

لَا يَسْمُونَ »^(٢)

أَيُّ: إِنَّ تَرَفَّعَ الْكُفْرُ فَلَا خَلَلَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ غَفَى عَنْ كُلِّ أَحَدٍ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّائِكَةَ
— الَّذِينَ هُمْ سُكَّانُ الْآخِرَةِ — يَسْجُدُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِ لَا يَسْمُونَ
مِنْ عِيَادَتِهِ .

(١) يَقُولُ الْقَشِيرِيُّ فِي رِسَالَتِهِ ص ١٢٦ وَالْقَيْسِيُّ كِرَاهِيَةَ مِشَارَكَةِ الْغَيْرِ ، وَإِذَا وَصَفَ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ بِالْقَيْسَةِ
لَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِمِشَارَكَةِ الْغَيْرِ مَعَهُ شَيْئًا حَوْقَ لَهُ مِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ .

(٢) هَذِهِ آيَةُ سَجْدَةٍ ، وَاخْتَلَفَ فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ مِنْهَا . . فَقَالَ مَالِكٌ إِنَّ مَوْضِعَهُ هَذَا كُنْمْ لِإِيَادِ تَعْبِيدِهِمْ
فَ لِأَنَّهُ مُصَلِّ بِالْأَمْرِ . . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ إِنَّهُ : هُوَ لَا يَسْمُونَهُ لِأَنَّهُ تَمَامُ الْكَلَامِ وَغَايَةُ الْعِبَادَةِ وَالْإِمْتِنَانِ .
وَقَدْ تَقَسَّيَتْ الْآيَةُ صَلَاةَ الْكُفْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَقُولُ : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَكْشِفَانِ إِلَّا لَمُوتَ
مُطِمْ . . فَصَلَّى الْبُخَارِيُّ (ص) صَلَاةَ الْكُفْرِ (الْقُرْطُبِيُّ) ص ١٥ - ٣٦٤ .

قوله جل ذكره : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعةً فلما أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمنى للوحي إنه على كل شيء قدير »

الأرض تكون جَذْبَةً يَابِسَةً في الشتاء ، فلما نزل عليها المطرُ اهتزت بالنبات واخضرت وكذلك القلوب إذا خشت لاستثمارها بما أَلَمَّتْ به من الذنوب أقبل عليها الحق سبحانه ، فظهرت فيها بركاتُ النعم ، وعفا عن أربابها ما قصرُوا في صِدْقِ القَدَمِ . وكذلك إذا وقمت للعبد فترةٌ في معاملاته ، أو غيبةٌ عن بساط طاعته ، ثم تَبَدَّلَ الحقُّ — سبحانه — بما يدخل عليه من التذكر تظهر في القلب أنوارُ الوفاق ، فيعود إلى مألوف مقامه ، ويرجع عود سداذه غَضًّا طريًّا ، ويصير شجر وقافه — بعدما أصابته الجدوبة — بماء النياة مستقيًّا . وكذلك إذا بدت لأهل العرفان وقفة ، أو حدثت لهم من جرأ سوء أدبٍ بَدَرٍ منهم حجةٌ ثم نظر الحقُّ — سبحانه — إليهم بالرعاية.. اهتزت رياضُ أنسهم ، واخضرت مشاهدُ قريهم ، وانهمزت وفودُ وقتهم .

« إن الذي أحيها لمنى للوحي إنه على كل شيء قدير » : إن الذي أحيأ الأرض بعد موتها قادرٌ على إحياء النفوس بالحشر والنشر . وكذلك هو قادر على إحياء القلوب بنور النياة بعد الفترة والحجبة .

قوله جل ذكره : « إن الذين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لَا يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا لُحْظًا مِنْ نَارٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »

سَيَلْتُونَ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَسْتَوْجِبُونَهُ .. فَتَلَمَّعُوا مَا شَاءُوا . . فليسوا يَسْمَعُونَ إِلَّا فِي ذَمِّهِمْ ، وليسوا يمشون إِلَّا إلى هلاكهم بأقدامهم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَأُجَاهِدُونَ »
لِكِتَابٍ عَزِيزٍ .

الجواب محذوف ومعناه : بقوا عَنَّا ، ووضوا في هوانهم وشقوا إلى الأبد .

« وإِنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ » : كِتَابٌ عَزِيزٌ لَا مِثْلَ لَهُ حَيْثُ قَدْ عَيَّرُوا عَنْ الْإِنْيَانِ بِمِثْلِهِ .
كِتَابٌ عَزِيزٌ غَالِبٌ لِشَيْبَةِ الْبِتْدَعِينَ وَالْكَفَارِ .

عَزِيزٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى مَعَارَضَتِهِ أَحَدٌ . . . مِنْ قَوْلِهِمْ أَرْضُ عَزَازٍ ^(١) .

كِتَابٌ عَزِيزٌ لِأَنَّهُ كَلَامُ رَبِّ عَزِيزٍ إِلَى رَسُولٍ عَزِيزٍ بِفَضْلَةِ مَلَكٍ عَزِيزٍ إِلَى أُمَّةٍ
عَزِيزَةٍ .

كِتَابٌ عَزِيزٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُ كِتَابٌ حَيِّيمٌ . . . وَكِتَابٌ الْحَيِّيبِ إِلَى الْحَيِّيبِ عَزِيزٌ .
« لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَيِّيمٍ » .

أَيُّ لَا يَنْقُضُهُ كِتَابٌ آخَرُ لَا مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَلَا مِمَّا بَاقٍ مِنْ بَعْدِهِ . . . أَيْ
لَا كِتَابٌ بَعْدَهُ ، وَلَا نَسَخٌ لَهُ .

وَيُقَالُ لَا يَنْفَعُ ^(٢) مَعْنَاهُ لَفْظُهُ ، وَلَا يَخَالِفُ لَفْظُهُ مَعْنَاهُ . . .
وَيُقَالُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

قوله جل ذكره : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ

مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَوِ مُنْفَرِقٌ وَذُو
عِقَابٍ أَلِيمٍ » .

أَصُولُ التَّوْحِيدِ لَا تَخْتَلِفُ بِالشَّرَائِعِ ؛ فَجَوْهَرُهَا فِي الْأَحْكَامِ وَاحِدٌ : هُوَ أَنَّهُ تَجِبُ مُوَاقِفَةُ
أَوَامِرِهِ ، وَاجْتِنَابُ مَزَاجِرِهِ . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي كُلِّ كِتَابٍ ، وَشَرَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ يَعْرِفُوا

(١) الْأَرْضُ الْفَرَاغُ - الْأَرْضُ الصَّالِيَةُ السَّرِيَّةُ السَّيْلُ (الْوَسِيلُ) .

(٢) دَمَحَ الْبَنَى - نَحَسَهُ وَأَزَالَهُ ، قَالَ تَعَالَى : هَلْ يُولَا دَمَحُ اللَّهِ النَّاسَ بِمَعْنَى لِنَسَعَتِ الْأَرْضِ . . .

أَهَ لِلْعَلِيمِينَ مُتَيْبٌ ، وَلِلْكَافِرِينَ ذُو عَذَابٍ شَدِيدٍ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْ جِئْتَهُمْ قُرْآنًا مُعْجِبًا يُقَالُوا لَوْلَا

فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أَعْجَبِيْهُ وَعَرِّفِيْ قُلُوبَهُ »

لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ فِي آثَانِهِمْ وَقَرْ ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ

عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

أخبر أنه أزال الْعَلَّةَ لِيَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ صِدْقَ الدَّعْوَةِ ، وَحِجَّةَ الشَّرِيعَةِ .

ثُمَّ وَصَفَ الْكِتَابَ بِأَنَّهُ شِفَاءٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَسَبَبٌ شِفَاءٍ لِلْكَافِرِينَ .

وَهُوَ شِفَاءٌ لِلْعِلَاءِ حَيْثُ اسْتَرَاحُوا بِهِ عَنْ كَدِّ التَّكْرَرِ وَتَعْيَرِ الْخُلَاطِطِ .

وَهُوَ شِفَاءٌ لَضَيْقِ صُدُورِ الْمُرِيدِينَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَمُّ بِقِرَاءَتِهِ ، وَالتَّلَذُّدِ بِالتَّكْرَرِ فِيهِ .

وَهُوَ شِفَاءٌ لِقُلُوبِ الْخَبِيرِينَ مِنْ لَوَاعِيَجِ الْإِشْتِيَاقِ لِمَا بِهِ مِنْ لُطْفِ الْوَاجِدِ .

وَهُوَ شِفَاءٌ لِقُلُوبِ الْخَالِفِينَ بِمَا يُؤَالِي عَلَيْهَا مِنْ أَنْوَارِ الصَّحَقِ ، وَأَثَارِ خُطَابِ الرِّبِّ الْعَزِيزِ .

« وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آثَانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » : هُمْ لَا يَسْمَعُونَ بِقُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَقِّ ،

وَلَا يَسْتَجِيبُونَ . . . بَقُوا فِي ظِلْمَاتِ الْجَسَدِ وَالْجَهْلِ .

« وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » : لَا يَزِدُّادُونَ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ إِلَّا ضَلَالًا .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخُتِلِفَ

فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ

بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيدِينَ » .

آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَةَ ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى قَوْمِهِ ، فَخُتِلِفُوا فِي أَمْرِهِ . . . فَمَنْ كَفَّلْنَا سِرَّهُ بِنُورِ

التَّوْحِيدِ صَدَّقَهُ ، وَمَنْ أَعْيَنَاهُ عَنْ مَوَاقِعِ الْبَيَانِ قَابَلَهُ بِالتَّكْذِيبِ وَجَعَدَهُ .

« وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » وَهِيَ أَنَّ عَقُوبَتَهُمْ فِي النَّارِ بَعْدَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ لَمْ يَجْعَلْنَا

استصالحهم ، ولأذقناهم في الحلال وبأكم^(١) .

قوله جل ذكره : « مَنْ حَمَلَ صَالِحًا فَلْنَفِضْهُ وَمَنْ أَسَاءَ

فَلْنُفِضْهُ »

« فَلْنَفِضْهُ » لأن النفع عائد إليه . وَمَنْ حَمَلَ عَمَلًا سَيِّئًا فَلْيَتِمَّا ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَأَسَاءَ إِلَيْهَا ، لِأَنَّهُ

هُوَ الَّذِي يَقَامِي ضَرَّهُ وَيُلَاقِي شَرَّهُ .

قوله جل ذكره : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ

ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَمِهَا وَمَا نَحْمِلُ مِنْ أَثَرٍ

وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا بِلِيهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ

شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعْذَرْنَاكَ مَا مَتَّعَنَا مِنْ

شَبِيدٍ » .

لَمَّا اسْتَجَابُوا وَقَالُوا : مَتَى تَقُومُ هَذِهِ الْقِيَامَةُ الَّتِي يَتَوَعَّدُنَا بِهَا ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنَّ عِلْمَ

الْقِيَامَةِ يَنْفَرِدُ بِهِ الْحَقُّ فَلَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، فَكَيْفَا لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَا الَّذِي يُخْرِجُ مِنَ الْأَشْجَارِ مِنَ الثَّمَرِ ،

وَمَا الَّذِي تَنْطَوِي عَلَيْهِ أَرْحَامُ النِّسَاءِ مِنْ أَوْلَادِهَا ذَكَورًا وَإِنَاثًا ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَوْصَافِ

الْخَلْقَةِ ، وَمَا يَحْصُلُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مِنْ نَتَاجِهَا — فَلَا يَعْلَمُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا اللَّهُ — فَكَذَلِكَ

لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَى تَقُومُ الْقِيَامَةُ .

« وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ » : يَتَبَرَّءُونَ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ، وَلَكِنْ فِي وَقْتٍ لَا تَنْفَعُهُمْ

كَثْرَةُ تَدْمِيهِمْ وَبِكَائِهِمْ .

قوله جل ذكره : « لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَا الْخَيْرِ وَإِنْ

مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُتَوَسَّسْ قَنُوطًا » .

(١) في موضع سبق أَوْضَحَ التفسيرى أَنَّهُ رَجِمَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي تَأْخِيرِ عِقَابِ أُمَّةٍ قَبْلِيٍّ وَمِنْهُ

— كَمَا حَدَّثَ الْأَمُّ السَّابِقَةَ — هُوَ تَأْخِيرُ الْعَذَابِ بِسَبَبِ مَا يُخْرِجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

لا يعل الإنسان من إرادة النفع والسلامة ، وإن مسه الشر فيشوش لا يرجو زواله ليدم عليه بربه ، واستناد الطريق على قلبه في الرجوع إليه .

« وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبٍ مِمَّا سَوَّيْنَاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أُعْطِيَ السَّاعَةَ فَأَمَّا وَلِئِنْ رُجِيتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُلَاقِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذَقَنَّاهُمْ مِنْ عَذَابٍ عَظِيمٍ » .

لئن كشفنا عنه البلاء ، وأوجينا له الرجاء لأدعاه استحقاقاً أو افتاقاً ، وما اعتقد أن ذلك ميّناً فضل ولا مجلب .

ويقول : لو كان لي حشر ونشر لكان لي من الله لطف وخير ، وغداً يعلم الأمر ، وأنه بخلاف ما توهم . . . وذلك عندما تذيبه ما يستوجب من عذاب .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا أَنْسَأْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَمْرًا وَنَآئٍ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاوٍ عَرِيضٍ » .

هو لا يميز بين البلاء والعطاء ؛ فكثير مما يتوهم عطاء هو مكر واستدراج . . . وهو يستدعيه . . . وكثير مما هو فضل وصرف^(١) وعطاء يظنه من البلاء فيما^(٢) ويكرهه .

ويقال إذا أنسنا عليه صاحبه بالطر ، وإذا أبلىناه قابله بالضر .

ويقال إذا أنسنا عليه أحبب نفسه ، وتكبر مخالفاً في زهوه ، لا يشكر ربه ، ولا يذكر فضله ، ويتباعد عن بساط طاعته .

(١) صرف الله المكافء صرفاً أي أبعدها .

(٢) في م (يماني) وهي خطأ في النسخ .

والمستغنى عنهم على وجهه ، وإذنا منه الشرُّ فذودعاء كثير ، وتفرغ عريض ،
وابتهال شديد ، واستكشاف^(١) دائم .

ثم إذا كشفنا عنه ذلك فله إلى عتوه ونُبُوهُ عَوْدٌ ، ولسوء طريقته في الجود إعادة .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ
كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَصْلُهُ مِنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ • سَتُرِيدُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ
وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ اللَّهُ الْحَقُّ
أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَهٌّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ • أَلَا لَهُمْ فِي مِزَانِ رَبِّهِمْ قَلِيلٌ
رَبِّهِمْ إِلَّا إِلَهُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ » .

« سترهم » : السين للاستقبال ؛ أى سيظهر لهم من الآيات ، ومن الأحداث التي تجري
في أحوال العالم ، وما سيحل بهم من اختلاف الأمور ما يتبين لهم من خلاله أنَّ هذا الدين
حقٌّ ، وأنَّ هذا الكتاب حقٌّ ، وأنَّ محمداً — صلى الله عليه وسلم — حقٌّ ، وأنَّ المُجْرِي
لهذه الآيات والأحداث والأمور والمنشئ له هو الحقُّ — سبحانه .

ومن تلك الآيات ما كان من قهر الكفار ، وعُلُوِّ الإسلام ، ونلاش أعداء الدين .

ويقال من تلك الآيات في الأفاق اختلاف أحكام الأئمة مع اتفاق جواهرها في الصبغات ..
وهذه آيات حدوث العالم ، واقتضاء الحديث لصفاته .

« وفي أنفسهم » : من أمارات الحدوث واختلاف الأوصاف ما يمكنهم إدراكه .

ويقال : « في الأفاق » للماء ، « وفي أنفسهم » لأهل المعرفة مما يحذونه من العقاب إذا
أَلْمَوْا بِذَنبٍ ، ومن الثواب إذا أخلصوا في طاعة .

وكذلك ما يحصل لهم من اختلاف الأحوال من قبض ووسط وجمع وقرق ، وحجب

(١) الاستكشاف والاستصراف طلب كشف النُّسْبة ومصرَّتها

وجذب . . . وما يجلوه بالضرورة في معاملاتهم ومنزلاتهم^(١) .

« أولم يكن بربك أنه على كل شيء شهيد » : هو الكافي ، ولكنهم — أي الكفار — في مِرْيَةٍ من لقاء ربهم في القيامة . والإشارة فيه : أن العوام لن يَشْكُ من تجوز ما يُكَاشَفُ به أهلُ الحضور من تعريفات السرِّ .

« ألا إنه بكل شيء محيط » : عالم لا يَحْتَفِى عليه شيء .

(١) ينفتح هذا مع ما يلعب إلى جمهور السوية حين يميزون الأحوال والمقامات ، فالأحوال مواهب من الحق ، والمقامات مكاسب العبد — وإن كانت هذه المكاسب ثم هي الأخرى بفعل الله وعونه .

سُورَةُ الشُّورَى

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

سلوةُ الماصين في سماعِ رحمةِ الله ، وحظوةُ العابدين في رجاؤهم نعمةَ الله ، وراحةُ القراء في رضاهم بقسمةِ الله .. لكلٍ من حاله نصيب ، وكلٍ في مُتَنَفِّهِ مُصِيب .

قوله جل ذكره : « حَمْدٌ • عَسَى »

الحاء مفتاح اسمه : حليم وحافظ وحكيم ، واليم مفتاح اسمه : ملك وماجد ومجيد ومنان ومؤمن ومهيمن ، والعين مفتاح اسمه : عالم وعادل وعالي ، والين مفتاح اسمه : سيد وسميع وسريع الحساب ، والالف مفتاح اسمه قلدر وقاهر وقريب وقدير وقُدوس^(١) .

« كَذَلِكَ يُوحِي إِيَّاكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

أقسم بهذه الأسماء وهذه الحروف إني كما أوحى إلى الذين من قبلك كذلك يوحى إليك العزيز الحكيم ، كما أوحى إليهم العزيز الحكيم .

« لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

له ما في السموات وما في الأرض مُلْكًا .

« وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » : علوه وعظمتُه استحقاقه لأوصاف الجدد ؛ أى وجوب أن يكون

بصفات الجدد والجلال .

(١) ربما يتبادر اتجاه التشبيهي في تفسير هذه الحروف المقطعة هنا بالأسماء والأوصاف الإلهية بنطاق الآيات التالية بالعزيز الحكيم والعلو العظيم والنفوذ الرسم .. كأن هذا هو المنطق الذي ترمي به احتجاجية السورة .

قوله جل ذكره: « تكاد السّمواتُ
يَنفَطِرْنَ مِن فَوْقهنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْجُدُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهنَّ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

أى تكاد السموات تنشق من عظمة من فوقهن وهو الله تعالى ، والقوية هنا فوقية
رتبة^(١) ؛ وذلك من شدة هيبتهم من الله .

وقال من « تَعْلَمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ هُمْ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لِكُرْسِيِّهنَّ » . وفى الخبر : « أطلت^(٢)
السّماء أطلًا وحق لها أن تنط ؛ ما من موضع قدّم فى السموات إلا وعليه قائم أو راكم
أو ساجد » .

وقال إنه على عادة العرب إذا أخبروا عن شئ قالوا كادت السموات تنشق له .. وهنا
لتبجح قول المشركين ولجراتهم على الله تعالى ، ولعظم قولهم كادت السموات تنشق .. قال
تعالى : « لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السّموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً .
أَنْ دَعَوْا الرَّحْمَنَ وَلَهُ »^(٣) وعلى هذا التأويل : « ينفطرن من فوقهن » أى إلى أسفلهن ،
أى تنفطر جملتها^(٤) .

ومع أن أولاد آدم بهذه الصفة إلا أن الملائكة يسجدون بحمد ربهم لا يقفرون ،
ويستغفرون لمن فى الأرض .. ثم قال : « أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » : أى ينفر لهم مع
كثرة عصياتهم . وفى الوقت الذى يرتكب فيه الكفار هذا الجرم العظيم بسبب شرّكم فإنّه
— سبحانه — لا يقطع رزقه ونعمه عنهم — وإن كان يريد أن يذّبهم فى الآخرة .

قوله جل ذكره: « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ

(١) لجأ التشبى إلى التّأويل كما يتفاهة نسبة المكانية إلى الإلوهية .

(٢) أطلّ الظهور — صوت من فطر الجبل (الوسيط) .

(٣) آيات ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ سورة مريم .

(٤) يقول التنوخي : كان القياس أن يقال ينفطرون من تحت من الجهة التى جاءت منها كلمة الكفر ، ولكنه
بولغ فى ذلك فجعل مؤثرة فى جهة الفرق كأنه قيل : كذا ينفطرون من الجهة التى فوقهن دح الجهة التى تحت من
(التنوخي ٤ ص ١٠٠) .

حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل»

الشركون اتخذوا الشياطين أولياء من دونه ، وذلك بموافقهم لما فيا توسوس به إليهم .
وليس يخفى على الله أمرهم ، وسيذبهم بما يستوجبونه . ولست — يا محمد — بمسكّن عليهم .
وفي الإشارة : كل من يسلم بتبابعة هواه ويترك الله حداً أو يتقضى له عهداً فهو يتخذ
الشياطين أولياء ، والله يعلمه ، ولا يخفى عليه أمره ، وعلى الله حسابهم . ثم إن شاء عذبهم وإن
شاء غفر لهم .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك قرآننا عربياً
لتنذّر أمّ القريّ ومن حوّلها وتُنذِر
يومَ الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة
وفريق في السير » .

أُنزلنا عليك قرآننا يُفلى بلفظة العرب لتعزّف به أهل مكة والذين حوّلها . وجميع العالم
تُحدّق بالكعبة ومكة لأهلها سرّة الأرض .

« وتنذر يومَ الجمع » : تنذروهم يوم القيامة . والإنذار الإعلام بموضع الخاتمة . ويوم الجمع
— وهو اليوم الذي يُجمع فيه الخلق كلهم ، ويُجمع بين المرد وعمله وبين الجسد وروحه^(١) ،
وبين المرد وشكله في الخير والشر — لا شك في كونه . وفي ذلك اليوم فريق يُبعث إلى
الجنة وفريق يحصل في السير . وكما أنهم اليوم فريقان ؛ فريق في راحة الطامعات وحلاوة
المبادات ، وفريق في ظلمة الشرّ وعقوبة المجدد . فكل ذلك غداً ؛ فريق هم أهل اللقاء ،
وفريق هم أهل الشقاء والبلاء .

قوله جل ذكره : « ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدةً
ولكن يَدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَالظَّالِمُونَ مَلَمٌ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ » .

لأن أراد أن يجمعهم كلهم على الهدى والرشاد لم يكن مانع . . وإذناً لا زَنْ لَمْ . ولو شاء

(١) من هذا نعلم أن القسري يؤمن بالبعث الكامل أي بعودة الجسد والروح سوا إلى الحياة مرة أخرى .

أن يجمعهم كلهم على الفساد والعدا لم يكن دافع — وإننا لاشين منه . وحيث خلقهم مختلفين — على ما أراد — فلا مبالاة بهم . إنه إله واحد جبارٌ غيرُ مأمور ، متولٍ جميع الأمور ؛ من الخير والشر ، والنفع والضر . هو الذى يحيى النفوس والقلوب اليوم وغداً ، ويميت النفوس والقلوب اليوم وغداً^(١) .. وهو على كل شيء

قوله جل ذكره : « وما اخْتَلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ تُشْكِكُمْ
إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » .

« تُشْكِكُمْ إِلَى اللَّهِ » : أى إلى كتب الله ، وسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأئمة ، وشواهد التيسر . والمبرة بهذه الأشياء فهى قانون الشريعة ، وجعلها من كتب الله ؛ فإنَّ الكتاب هو الذى يدلُّ على صحة هذه الجلة^(٢) .

وقال : إذا لم تهتدوا إلى شيء وتمازست منكم اطواطر فدعوا تديركم ، والتحنوا إلى ظلِّ شهود تديره ، وانتظروا ما يبنى لكم أن تعملوه بحكم تيسيره^(٣) .
وقال إذا اشتغلت قلوبكم بحديث أضكم ؛ لا تدرون أبا لسانة جرى حُكْمُكُمْ أم بالثقاوة مضى اسمُكُمْ ؟ فيكَلُوا الأمر فيه إلى الله ، واشتغلوا في الوقت بأمر الله دون التفكير فيما ليس لكم سبيل إلى عليه عن عواقبكم .

قوله جل ذكره : « فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَفْرُقُ فِيهِ رُجُوًّا يُبَيِّنُ لَكُمْ وَيُذَكِّرُ أَنْتُمْ أَهْلُ الْبَصَرِ » .

خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا : أى أشكالاً ؛ فخلق حواءَ مِنْ آدَمَ وَخَلَقَ

(١) الإحياء والإماتة اليوم مرتبطان بالماني الصوفية من صفاء وكثورة ونحو ذلك .
(٢) هذا رد على من يتهمون الصوفية بعدم الاحتفال بالمصادر الأساسية للشريعة ، فضلاً عن أننا نشعر بانتمائهم بالجانب العقل حين يبرزون والقياس كصدر من مصادر التشريع .
(٣) وهذا المصدر الأخير خاصة بالسادة الأولياء الأصفياء — همنا أمره حين ندرس مصادر الفقه الصوفي .

— بسبب بقاء التنسل — جميع الحيوانات أجساداً .

« يَنْزُوكُمْ » : يُكْثِرُ خَلْقَكُمْ . « فيه » الماء تعود إلى البطن أى فى البطن ، وقيل : فى الرَّحِم ، وقيل : فى التَّزْوِج (١) .

« ليس كمثل شئ » : لأنه فاطر السموات والأرض ، ولأنه لا يَمِثْلُ بِصَارِعِهِ ، ولا شَكْلَ شَاكِلِهِ . والكاف فى ليس « كمثل » صلة أى ليس مثله شئ . ويقال : لفظ « مثل » صلة ؛ ومعناه ليس كهو شئ . ويقال معناه ليس له مثل ؛ إذ لو كان له مثل لكان كمثل شئ وهو هو ، فلما قال : « ليس كمثل شئ » فمعناه ليس له مثل ، والحق لا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أحكامه .

وقد وقع قومٌ فى تشبيه ذاته بذات الخلقين فوصفوه بالحدِّ والنهاية والكون فى المكان ، وأقبح قولاً منهم مَنْ وصفوه بالجوارح والآلات ؛ فظنوا أن بَصَرَهُ فى حدة ، وسمعه فى عضو ، وقدرته فى يدٍ . . . إلى غير ذلك .

وقومٌ قالوا حُكْمُهُ على حُكْمِ عِبَادِهِ ؛ قالوا : ما يكون من اتَّخَذَ قَبِيحًا كُنْهَ قَبِيحٍ ، وما يكون من اتَّخَذَ حَسَنًا فَهُوَ حَسَنٌ !! وهؤلاء كلهم أصحاب التشبيه — والحق مستحقٌّ للتَّزْوِج دون التشبيه ، مستحقٌّ للتوحيد دون التعديد ، مستحقٌّ للتَّحْصِيلِ دون التَّمْطِيلِ والتَّمْثِيلِ .

قوله جل ذكره : « له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ » .

« مقاليد » أى مفاتيح ، والمفاتيح للخزائن ، وخزائنه مقلوداته . وكأن فى الموجودات معادن مختلفة فكذلك القلوب معادن جواهر الأحوال ؛ فبعض القلوب معادن للفرقة ، وبعضها معادن المحبة ، وبعضها للشوق ، وبعضها للأُنْسِ .. وغير ذلك من الأحوال كالنوحيد والتفريد والميية والرضا . وفائدة التصرُّف بأن تقاليد له : أن يقطع اليدُ أفكاره عن الخلق ، ويتوجّه

(١) يقول المتن : اعتبر بابه على ٥٩٥ لأنه جعل هذا للتدبير كالنبيح أو المدين لئلا يتكبر .

في طلب ما يريد من الله الذي « يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر » ، والذي هو « بكل شيء عليم » :
يوسّع ويضيئ أرزاق النفوس وأرزاق القلوب حسب ما شاء بوحكم وعلم .

قوله جل ذكره : « شَرَحَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا
به إبراهيمَ وموسىَ وعيسىَ أَنْ أَقْبِمُوا
الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
مَا تَدْعُوهُمْ إِلَهُ اللَّهِ يَجئُ إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » .

« شرع » : أي بيّن وأظهر . « من الدين » أراد به أصول الدين ؛ فلهذا لا يختلف في جميع
الشرائع ، وأما التفرع فمختلفة ، فالآية تدلُّ على مسائل أحكامها في جميع الشرائع واحدة .
ثم بيّن ذلك بقوله : « أَنْ أَقْبِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » . وفي النسخة أن تحرم البليات
والأخوات إنما شُرِعَ في زمان نوح عليه السلام .

قوله جل ذكره : « وما تفرَّقوا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُتِقُوا فِيهِمْ »
يعني أنهم أصرُّوا على باطلهم بعد وضوح البيان وظهور البرهان حين لا عذر ولا شك
« ولولا كلمة سبقت من ربك » . . . وهو أنه حكم بتأخير العقوبة إلى يوم القيامة لعلَّ لم
ما يمتنونه .

قوله جل ذكره : « فَلِلَّهِ فَادِعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُمْ
وَلَا تَنْبِسْ أَعْرَافَكُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُْمِرْتُ لِأَعْدِلَ
يَسْكُنُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُ

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
اللَّهُ يَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ الصِّرَاطَ .

أى ادْعُ إِلَى هَذَا التَّوَكُّلِ ، وَإِلَى الدِّينِ الْحَقِيقِيِّ ، وَاسْتَقِيمْ فِي الدِّعَاءِ ، وَفِي الطَّلَاعَةِ . أَمَرَ
الْكُلَّ مِنَ الْخَلْقِ بِالِاسْتِقَامَةِ ، وَأَفْرَدَهُ بِذِكْرِ الزَّامِ الْاسْتِقَامَةِ .

وَيَقَالُ : الْإِلَهَ وَالسَّيِّئَ وَالنَّارَ فِي الْاسْتِقَامَةِ لِلسُّؤَالِ وَالرَّغْبَةِ ؛ أَيْ سَلِّمْ نَفْسَ أَنْ أُنْقِصَ ،
« وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ » : أَمَرْتُ
بِالْعَدْلِ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَبِأَنْ أُعْلِمَ أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ الْجَمِيعِ ، وَأَنَّهُ يَحْسِبُ غَدَاً كُلَّامَةً ، وَبِأَنْ الْحُجَّةَ
لِلَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَبِأَنْ الْحَاجَةَ لَمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا
اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » .

يَعَادِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لِلدَّعَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ عَلَى الْمُشْرِكِينَ .
حُجَّةٌ هَذِهِ الْكُفْلُ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ لِأَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِالْبَاطِلِ ، وَهُمْ مِنَ اللَّهِ مُسْتَوْجِبُونَ
لِلْعَذَابِ وَالْعُقَابِ (١) .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَاللِّبْرَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ » .

أَنْزَلَ الْكِتَابَ ، وَأَنْزَلَ الْحُكْمَ بِاللِّبْرَانِ أَيْ بِالْحَقِّ .

وَيَقَالُ الْمُهْمَمُ وَزْنَ الْأَشْيَاءِ بِاللِّبْرَانِ ، وَمِرَاعَاةَ الْعَدْلِ فِي الْأَحْوَالِ .

« وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّةَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ » : يَزْجُرُ عَنْ طَوْلِ الْأَمَلِ ، وَيُنَبِّهُهُمْ إِلَى انْتِظَارِ
مَجْمُوعِ الْأَجَلِ .

(١) سَمِعْنَا حِسَّةً حَسْبَ زَعْمِهِمْ - وَإِنْ كَانَتْ شُبْهَةً فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهَا . وَمِنْ أَشْأَةٍ حَسْبِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ كَانُوا
يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ : كَاتِبَاتُ قَبْلِ كِتَابِكُمْ ، وَنَبِيَّاتُ قَبْلِ نَبِيِّكُمْ ، فَتَحْنُ خَيْرَ مِنْكُمْ وَأَوَّلُ بِالْحَقِّ .. وَكُلُّ هَذِهِ الْحَسِيجِ
دَاحِضَةٌ بَعْدَ دُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَرَكُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَتَاهَا ، اسْتِجَابَةً لِلدَّعَاءِ الرَّسُولِيِّ : اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ
الْعَصَابَةُ فَظَنُّ نَعْدِي فِي الْأَرْضِ .

قوله جل ذكره : « يستجبل بها الذين لا يؤمنون بها

والذين آمنوا مُشْفِقُونَ منها ويعلمون

أنها الحقُ إِلَّا إِنََّّ الذينَ يُمارون في

الساعة لفي ضلالٍ مبيد » .

المؤمنون يؤمنون بالبعث وما بعده من أحكام الآخرة ، وَيَكُونُ أُمُورُهُمْ إِلَى اللَّهِ ؛ فلا

يتمنون الموتَ حَذَرَ الابتلاء ، ولكن إذا وَرَدَ الموتُ لم يكرهوه ، وكانوا مستعدين له^(١) .

قوله جل ذكره : « اللَّهُ لَطِيفٌ بِبَإِذِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

وهو القويُّ العزيز » .

« لطيف »^(٢) أى عالم بدقائق الأمور وغوامضها . واللطيف هو المُلَطِّفُ الحسن . .

وكلاهما في وصفه صحيح . والطف في الحقيقة قدرة الطاعة ، وما يكون سبب إحسانه للعبد اليوم

هو لُطْفٌ منه به .

وأكثرُ ما يتمثل اللطف — في وصفه — في الإحسان بالأُمور الدينية .

ويقال : خَاطَبَ العابدين بقوله : « لطيف بعباده » : أى يعلم غوامض أحوالهم من دقيق

الرياء والتصنع لئلا يُضْجَبُوا بأحوالهم وأعمالهم . وخاطَبَ المُصَادِّ بقوله : « لطيف » : لئلا

يأسوا من إحسانه .

ويقال : خَاطَبَ الأغنياء بقوله : « لطيف » : ليعلموا أنه يعلم دقائق معاملاتهم في جمع المال

من غير وجهه بنوع تأويل ، وخاطَبَ الفقراء . بقوله : « لطيف » أى أنه مُخْبِرٌ بِرِزْقِ

من يشاء .

ويقال : سَمَّاعُ قوله : « اللَّهُ » يَرْجِبُ الهيبة والنزع ، وسماعُ « لطيف » يوجبُ السكونَ

(١) لأن الموت يفرجهم من القياد .. لقاء المحبوب .

(٢) تصانف أقوال التشيرى هنا في « اللطيف » إلى ما ذكره في كتاب التصير في التذكير (تحقيق بسوزن)

وما ذكره في كتاب : شرح أسماء الله الحسنى (تحقيق الخوافي) صدر بالطباعة سنة ١٩٦٩ من ١٧٦ وما بعدها .

والعلمانية . فسبحانُ قوله : « الله » أوجب لم تهويلاً ، وسماع قوله : « لطيف » أوجب لم تأملاً .

ويقال : اللطيفُ مَنْ يعلَى قَدْرَ الكفايةِ وفوق ما يحتاج البِدُّ إليه .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالبِدِّ عِلْمُهُ بَأْتِهِ لطيف ، ولولا لُطْفُهُ لَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ لطيف .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ أَنَّهُ أعطاه فوق الكفاية ، وكَلَّفَهُ دون الطاقة .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالبِدِّ إِبْهَامُ عَاقِبَتِهِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ سَمَلَتَهُ لَا تَكَلَّ عَلَيْهِ ، وَأَقْلَبَ عَلَيْهِ . وَلَوْ عَلِمَ شَقَاوَتَهُ لَا يَسَّ وَلَتَرَكَ حَمَلَهُ . فَأَرَادَهُ أَنْ يَسْتَكْتَفِرَ فِي الْوَقْتِ مِنَ الطَّاعَةِ .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالبِدِّ إِخْفَاؤُهُ أَجَلَهُ عَنْهُ ؛ لِثَلَا يَسْتَوْحِشُ إِنْ كَانَ قَدْ دَنَا أَجَلُهُ .

ويقال : مِنْ لُطْفِهِ بالبِدِّ أَنَّهُ يُغْسِيهِ مَا حَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الزَّلَّةِ ؛ لِثَلَا يَتَنَمَّصَ عَلَيْهِ الْمَشِيشُ فِي الْجَنَّةِ .

ويقال : اللطيفُ مَنْ تَوَرَّ الْأَسْرَارَ^(١) ، وحفظ على عبده مَهْ أَوْدَعَ قَلْبَهُ مِنَ الْأَسْرَارِ^(٢) ، وغفله ما عَمِلَ مِنْ ذُنُوبٍ فِي الْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ .

قوله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ

لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ

الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

نَصِيبٍ » .

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ » : نَزِدْهُ — الْيَوْمَ — فِي الطَّلَعِ تَوْفِيقًا ، وَفِي الْمَارِفِ وَصْفًا الْحَالَاتِ تَحْقِيقًا . وَنَزِدْهُ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا وَاقْتِرَابًا وَفَنُونًا نِجَاتٍ وَصُنُوفَ دَرَجَاتٍ .

« وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا » : مَكْتَنِيًا بِهِ ثَوْتَهُ مِنْهَا مَا يُرِيدُ ، وَلَيْسَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ

نَصِيبٌ .

(١) هذه (الأسرار) جمع السر وهو الملكة الباطنية التي تملأ الروح - كما تعرف من اللعب الرناني لفتشيري .

(٢) وأما (الأسرار) لكاتبة فهي جمع السر كما تعرفه - بمعنى الشان الخفي .

قوله جل ذكره : « أَمْ لَمْ تُشْرِكُوا شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ
لَفُتِنَ بِهِمْ وَلَوْلَا الظَّالِمِينَ لَمْ عَذَابُ إِلَهُ »

« مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ » : أى ليس ذلك مما أُمِرَ به ، وإنما هو افتراء منهم .

« وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ » . . أى ما سبق به الْحُكْمُ بتأخير العقوبة إلى القيامة . .

« تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ

وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ

رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ » .

إذا حصل الإجماع عَلَى وَقْتِ مَا لَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ فِي الْمَغَالبِ، وَلَكِنَّهُ لَا مَحَالَةَ يَذِيبُهُمْ، وَرَبَّمَا يُثَبِّتُ

ذَلِكَ لِبَعْضِ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ فَيَتَأَسَّفُونَ، وَيَسْأَلُونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ اللَّهِ لَمْ مَعْجَلٌ قَدْ أَصَابَهُمْ، أَمَّا الْكَفَّارُ..

فَقَدْ يُشْفِقُونَ مَا قَعَبَ بِهِمْ عِنْدَ مَا يَقْرَؤُنَهُ فِي كِتَابِهِمْ، لِأَنَّ الْمَذَابَ — لَا مَحَالَةَ — وَاقِعٌ بِهِمْ .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ » : فِي الدُّنْيَا جَنَّاتُ الْوَصْلَةِ ، وَالْآخِرَةِ

الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ، وَطَيْبُ الْأَنْسِ فِي أَوْقَاتِ الْخُلُوعِ . وَفِي الْآخِرَةِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّةِ : « لَمْ

مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » : إِنْ أَرَادُوا دَوَامَ اللَّطْفِ دَامَ لَهُمْ ، وَإِنْ أَرَادُوا تِمَامَ الْكَشْفِ كَانَ

لَهُمْ . . ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » .

ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ قَدْ مَضَى ذِكْرُهُ فِي التَّوْرَانِ مَتَرَفًا بِمَنْ أَوْصَفَ الْجَنَّةَ وَأَطْلَبَهَا،

وَمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الثَّوْبَةِ .. وَهُوَ ذَلِكَ .

« قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْوَدْعَ فِي التَّوْبَةِ » .

قُلْ — بِإِعْذَارِ — لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . مَنْ بَشَّرَ أَحَدًا بِإِطْلَاقِ طَلَبٍ عَلَيْهِ أَجْرًا، وَلَكِنْ

اللَّهُ — وَقَدْ بَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بِمَا لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ الْأَبَدِيَةِ — لَمْ يَطْلُبْ عَلَيْهِ أَجْرًا ؛

فَاللَّهُ — سبحانه — لا يطلب عَوْصًا ، وكذلك نَبِيُّه — صلى الله عليه وسلم — لا يَأَلُ أجرًا ؛
فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ خُلُقًا حَسَنًا . . فَمَنْ يَطْلُبُ الرِّسُولَ مِنْهُمْ أَجْرًا ؟ ! وهو — صلوات
الله عليه — يَنْعَمُ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَاللَّهُ — سبحانه — يعطي الثَّوَابَ لِكُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ .
« إِلَّا لِلْمُؤَدَّةِ فِي الْقَرْنِ » : أَرَادَ أَنْ تُثَبِّتَ مَوَدَّتَكَ فِي الْقَرْنِ ؛ فَتَوَدَّ مَنْ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ
فِي طَاعَتِهِ ^(١) .

« وَمَنْ يَقْرِئْ حَسَنَةً تَزِدْ لَهُ فِيهَا
حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

تضعيف الثواب في الآخرة للواحد من عشرة إلى سبعمائة . . هذه هي الزيادة .

ويقال : الزيادة هي زيادة التوفيق في الدنيا .

ويقال : إذا أتى زيادة في المجاهدة فمضئنا بزيادة . . وهي تحقيق المشاهدة .

ويقال مَنْ يَقْرِئْ حَسَنَةَ الْوُضُوءِ ^(٢) تَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنَ الطَّائِفِ .

ويقال : تلك الزيادة لا يصل إليها العبدُ بوسعه ؛ فهي مما لا يدخل تحت طَوَاقِ ^(٣) الْبَشَرِ .

قوله جل ذكره : « أَمْ يَقُولُونَ افترى على الله كذبًا فَإِنْ

يَكُنَّا اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبِئْسَ اللَّهُ

الْبَاطِلَ وَمُحْيِي الْحَيِّ بِكَلَامِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذَاتِ الصُّوَرِ » .

أَيُّ أَنَّكَ إِنْ افْتَرَيْتَهُ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَكْذِبْ عَلَى رَبِّكَ .

ومعنى الآية أَنَّ اللَّهَ يَقْصُرُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ : مِنْ إِصْدَارِ وَتَقَرُّبِ ، وَإِدْنَاءِ وَتَبَعِيدِ ^(٤) .

(١) استقلت هذه الآية الكريمة استقلالاً عقدياً وسبباً في صدور متاعرة خصوصاً من جانب المتشيعين لعل
كرم الله وجهه ويته . . ورائح أن التشيرى أطلق القرابة على كل من يقرب إلى الله بالطاعة ؛ فهي عنه قرابة في الله ،
وربما كان ذلك نتيجة سببه وحرمه على سببه . (أنظر مفصل الطائف ١٥ ص ٢٥) .

(٢) المقصود بالوُضُوءِ أداء المبادات والتزام آداب الشريعة .

(٣) في ص ورودت (طرق) بالرأه وهي غلطاً في النسخ .

(٤) يقول مجاهد : ويختم على قلبك أي يربط عليه بالصبر على أذام وإتهامهم له بالافتراء والكلاب لتلا تدخله

شفقة بسبب تكليمهم .

قوله جل ذكره : « وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ

ويسفو عن السيئات وَيَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ »

« ويسفو عن السيئات » الألف واللام للجنس مطلقاً ، وهي هنا العهد ؛ أى تلك السيئات التي تسكنى التوبة للذكورة في الشريعة لقبولها ؛ فإنه يسفو عنها إذا شاء ^(١) . « ويسلم ما تعملون » : من الأعمال على اختلافها ^(٢) .

وهو « الذي » : . . الذي من الأسماء الموصولة التي لا يتم معناها إلا بصفة ، فهو قد ترفع إلى عباده على جهة المدح لنفسه بأنه يقبل توبة العبد ؛ فالزكاة — وإن كانت توجب العبد ذميمة الصفة — فإن قبولها يوجب للعق حيدة الاسم .

ويقال : قوله : « عباده » اسم يقتضى الخصوصية (لأنه أضغفه إلى نفسه) ^(٣) حتى غنى كثير من الشيوخ أن يحاسبه حساب الأولين والآخرين لله يقول له : عبيد . ولكن ما طلبوه نبياً قالوه موجود في « التوبة عن عباده » ؛ وإذا فلا ينبغي لم أن يمتنوا كذلك ، وعليهم أن يتوبوا لكي يصلوا إلى ذلك .

ويقال لما كان حديث الضور عن السيئات ذكرهما على الجمع والتصريح ^(٤) قال : « ويسفو عن السيئات » . ثم لما كان حديث التهديد قال : « ويسلم ما تعملون » فذكره على التلويح ؛ فلم يقل : « ويسلم زلتك » — بل قال ويسلم « ما » تعملون ، وتدخل في ذلك الطاعة والزكاة جميعاً ^(٥) .

قوله جل ذكره : « ويستجيب الذين آمنوا وعملوا

الصالحات ويزيدهم من فضله ..

(١) يشير التفسيرى إلى الآية الكريمة وإن الله لا يفرق أن يشرك به ويفر ما دون ذلك لمن يشاء

(٢) ويدخل في ذلك — كما سيأتى بعد قليل — المأسي والطاعات .

(٣) ما بين القوسين إضافة من معناها طبقاً لما نعرفه من أسلوب التفسيرى في مثل هذا الموضع .

(٤) هكذا في م وهي في ص (والنصرع) وهي غطاء في النسخ لعدم ملائمتها للسياق ؛ فالنصرع يقابل التلويح ، المذكور فيها بعد .

(٥) في هذه الإشارة وما تلاها يجر افتتاح باب الأهل أمام الصلاة ، وكيف يحرم هذا الإمام الجليل على التوبة الآلة والرجاء الوطني في رحمة الله .

(أى إذا دَعَوْهُ استجَابَ لَهُ) ^(١) بَظِيمِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ .

« وَيَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ » : يَقُولُ الْمُفَسِّرُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي هَذِهِ الزِّيَادَةِ إِنَّهَا الرُّوْيَةُ .

ذَكَرَ التَّوْبَةَ وَأَهْلَهَا ، وَذَكَرَ الْعَامِينَ بِوَصْفِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمُطِيعِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الزِّيَادَةِ — الَّتِي هِيَ الرُّوْيَةُ — قَالَ : « وَيَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ » عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَالْكِنَايَةِ ^(٢) إِذَا تَلَّتْ مَذْكُورَاتٍ رَجَعَتْ إِلَيْهَا جَمِيعًا ؛ فَيَكُونُ لِلْعَنَى أَنَّ الطَّاعَاتِ فِي مُقَابَلِهَا الْهَرَجَاتِ ، وَتَكُونُ بِمُقَابِلِهَا فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ، وَأَمَّا الرُّوْيَةُ فَسَبِيلُهَا الزِّيَادَةُ وَالْفَضْلُ . . . وَالْفَضْلُ لَيْسَ فِيهِ تَمْيِيزٌ .

وَيَقَالُ : لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ التَّائِبِينَ قُبِلَ تَوْبَتُهُمْ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّعِبْ غُفِرَ زَلَّتْهُ ^(٣) ، وَأَنَّ الْمُطِيعِينَ لَمْ يَجِبْ لَهُمْ . . . فَلَمَّا خَطَرَ بَيَالٍ أَحَدٌ : وَإِذَا فَهَذِهِ النَّارُ لَيْنٌ هِيَ ؟ هَلْ جَلَّ ذِكْرُهُ :

« وَالْكَافِرُونَ لَمْ يَعْطَابُوا شَدِيدًا » .

فَالْمَعْنَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَعْطَابُوا . . . أَمَّا الْكَافِرُونَ فَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ؛ لِأَنَّ دَلِيلَ الْخُطَابِ يَتَضَعُ هَذَا وَذَلِكَ ؛ يَتَضَعُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ يَعْطَابُوا . . . وَلَكِنْ لَيْسَ بِشَدِيدٍ ، وَأَمَّا عَذَابُ الْكَافِرِينَ فَشَدِيدٌ .

وَيَقَالُ : إِنْ لَمْ يَتَّعِبْ الْعَبْدُ خَوْفًا مِنَ النَّارِ ، وَلَا طَمَعًا فِي الْجَنَّةِ لَكَ أَنْ يَتُوبَ لِيُقْبَلَ الْحَقُّ — سَبَّحَانَهُ .

وَيَقَالُ إِنْ الْعَامِيَ يَكُونُ أَبَدًا مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ ، فَإِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الطَّاعَةَ مِنَ الْمُطِيعِينَ يَتَمَنَّى أَنْ لَيْتَ لَهُ طَاعَةً مُبَكَّرَةً لِيَقْبَلَهَا ، فَيَقُولُ الْحَقُّ : عِبْدِي ، إِنْ لَمْ تَكُنْ لَكَ طَاعَةٌ تَصْلَحُ لِقَبُولِ فَطَلَتْ تَوْبَةٌ إِنْ أَتَيْتَ بِهَا تَصْلَحُ لِقَبُولِهَا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَنَوْا »
فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ

(١) مَا بَيْنَ التَّوْبَتَيْنِ زِيَادَةٌ مِنْ عَفَا وَجَدَّاهَا شُرُوبِيَّةٌ لِتَوْضِيحِ الْمُبَارَةِ .

(٢) يُقْصَدُ التَّشْبِيهُ بِالْكِنَايَةِ الْخَصِيرِ فِي « وَيَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ » .

(٣) لَا إِلَهَ وَهَذَا ذَلِكَ بِمَعْنَاهُ — سَبَّحَانَهُ — فَقَالَ وَيُفَضَّرُ مَا مَوْجَدٌ ذَلِكَ لَنْ يَشَاسَ .

مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبِإِذْنِهِ خَيْرٌ بِصِيرٍ .

هذا الخطاب في الظاهر يشبه الاعتذار في مخاطب الآمين . وللمنى : أتى لم أبسط عليك أيها الفقير في الدنيا لِمَا كَانَ لِي مِنَ الْعِلْمِ أَتَى لَوْ قَسَمْتُ عَلَيْكَ الدُّنْيَا لَفَعْنَيْتَ ، وَلَسَمَيْتَ فِي الْأَرْضِ بِالنَّاسِ .

ويقال : قوله : « ولكن .. » : لكن كلمة استدراك ، فالمنى : لم أَوْسَعُ عَلَيْكَ الرِّزْقَ بِمَقْدَارِ مَا تَرِيدُ ؛ وَلَمْ أَمْنَعُ عَنْكَ (الْكُلِّ) ^(١) ؛ لِأَنِّي أَنْزَلْتُ بِقَدَرٍ مَا أَسَاءُ .

قوله جل ذكره : « وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ » .

الله — سبحانه يُنْجِي الْقُلُوبَ ؛ فَكَمَا أَنَّهُ « وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ » ، فَبِمَا أَصَابَتِ الْأَرْضَ جَدْوً ، وَأَبْطَأَ زَوَلُّ النَّشْرِ ، وَقَطِيعَ النَّاسِ مِنْ عَجَى الْمَطَرِ ، وَأَشْرَفَ الْوَقْتُ عَلَى حَدِّ الْقَوَاتِ يُنْزِلُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ الْغَيْثَ ، وَيَجِيءُ الْأَرْضَ بِدَفْقِ قَوَاطِرِ أَهْلِهَا . . . فَكَذَلِكَ الْعَبْدُ ؛ إِذَا ذَبَلَ غُصْنُ وَقْتِهِ ، وَتَكَدَّرَ صَفْوُ وَدَّهِ ، (وَكَسَفَتْ) ^(٢) شَمْسُ أَنْفِهِ ، (وَبَعَدَتْ) ^(٣) عَنِ الْحَضَرَةِ وَسَاحِلَةِ الْقَرَبِ هَذِهِ ظَرْبًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْحَقُّ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَيُنْزِلُ عَلَى سِرِّهِ أَمْطَارَ الرَّحْمَةِ ، وَيَمُودُ عَوْدُهُ طَرْبًا ، وَيُنْثِيَتْ فِي شَاهِدِ أَنْفِهِ وَرَدًّا جَنِيًّا . وَأَنْشَدُوا :

إِنْ رَاعَى مِنْكَ الصَّدُودُ قَلْبُ الْإِمَى تَصْبُودُ
وَلَسْلَ مَهْلِكٌ بِاللَّوَى يَمِياً قَدْ تَحْمَا الْيَهُودُ
وَالْتَمَنَ يَبِيسُ تَارَةً وَتَرَاهُ مُخَضَّرًا يَمِيدُ

قوله جل ذكره : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) حِكَايَاتِي م ، وَهِيَ فِي ص (الْكِلِّ) وَهِيَ حَقَائِقُ التَّبَسُّغِ كَمَا هُوَ رَاضِعٌ مِنَ الْبَيْتِ .

(٢) حِكَايَاتِي ص ، وَهِيَ فِي م (كَسَفَتْ) بِاللَّيْنِ وَهِيَ حَقَائِقُ التَّبَسُّغِ كَمَا هُوَ رَاضِعٌ .

(٣) حِكَايَاتِي م وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي م وَالْبَيْتِ يَطْلُبُهَا .

وما بثَّ فيها من دابةٍ وهو على جمعيهم
إذا يشاء قديرٌ .

جمل الله في كلِّ شيء من المخلوقات دلالةً على توحّده في جلاله ، وفردّه بتمت كبريائه
وجلاله (١) .

« وهو على جمهم إذا يشاء قدير » : والإشارة منها أنَّ الحقَّ — سبحانه — يشار على
أوليائه أن يسكنَ بعضهم قلبه إلى بعضٍ ؛ فأبداً يبدؤُ شملهم ، ولا تكاد الجماعة من أهل
القلوب تتفق في موضع واحد إلا نادراً ، وذلك لمدّة يسيرة .. كما قالوا :

رى الصهرُ بالفتيان حتى كأنهم

بأكنافِ أطرافِ السماء نجومٌ

وفي بعض الأحيان قد يتفصّل الحقُّ عليهم فتدنو بهم الديار ، ويحصل بينهم — في الظاهر —
اجتماعٌ والتقاء ، فيكون في ذلك الوقت قد نظر الحقُّ — سبحانه — بفضله إلى أنْ في اجتماعهم
بركاتٌ لحياة العالم .

وهذا — وإن كان نادراً — فإنه على جمهم — إذا يشاء — قدير .

قوله جل ذكره : « وما أصابكم من مصيبةٍ فَمَا كُتِبَتْ
أيديكم ويسفون كثير » .

إذا تحقّق العبدُ بهذه الآية فإنه إذا أصابته شظيةٌ أو حالةٌ مما يسوءه ، وعلم أن ذلك جزء
له ، وعقابٌ على ما بدرَ منه من سوء الأدب لاستحقاقه بحجته من فعله ، ولشأنه ذلك عن رؤية
الناس ، فلا يحاول أن ينتقمَ منهم أو يكافئهم أو يدعو عليهم ، وإنما يشغله تلافى ما بدرَ منه
من سوء الفعل عن محاولة الاتصاف لنفسه بمن يسلط عليه من الخلق .. تاركاً الأمر كله لله .
وقال : إذا كثرت الأسبابُ من البلايا على العبد ، وتوالى عليه ذلك .. فلْيَسْكِرْ
في أفضاله للغمومة .. كم يحصل منه حتى يبلغَ جزءاً ما يغله — مع الغفوا الكثير — هذا المبلغ ! ؟
فمنذ ذلك يزادَ حزُّه وتأسُّفه ؛ لِمَلِهِ بكثرة ذنوبه ومعاصيه .

(١) سبق أن نبّهنا القارئ إلى توحيد القالة وتوحيد اللاملة .

قوله جل ذكره : « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام » .
يريد بها السفن التي تجري في البحار ؛ يرسل الله الريح فتسيرها مرة ، ويسكنها أخرى ،
وما يريهم خلال ذلك من الملاك أو السلامة .. وهو بهذا يحثهم على التفكر والتنبه دائماً .
والإشارة في هذا إلى إمساك الناس ^(١) في خلال فترة الوقت عن الأنواء المختلفة ،
وحفظهم في إيواء السلامة ، فالواجب الشكر في كل حالة ، وإذا خلص الشكر استوجب
جزيل المزيد .

قوله جل ذكره : « فما أوتيتُم من شيء فمتاعُ الحياةِ
الدُّنيا وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين
آمَنوا وعلى ربهم يتوكلون » .

يعني أن الراحة في الدنيا لا تصفو ، ومن المشائب لا تخلو . وإن اتفق وجود البعض
منها في أحيان فلها سرية (الزوال) ^(٢) ، (وشيكه) ^(٣) الاحتمال .
« وما عند الله » من الثواب للعود « خير » من هذا القليل للوجود .

قوله جل ذكره : « والذين يمتدحون كِبائرَ الإِمرِ
والنواحيشِ وإذا ما غَضِبُوا هم ينفثون »
« كِبائرَ الإِمرِ » : الشِرْك . و « النواحيش » : ما دون ذلك من الزلات . فإذا تركوها
لا يصبغون كاستِ الغضب بل تسكن لديهم سَوْرَةُ النَّفْسِ ؛ لأنهم يتوكلون على ربهم
في عموم الأحوال .

« والذين استجابوا لربهم وأقاموا
الصلاةَ وأمرهم شورى بينهم ومما
رزقناهم يُنفقون » .

(١) المقصود بإمساك الناس هنا حفظ الله سبحانه وتمالك لهم .

(٢) وردت (لغالب) في م ومعنى عطف في التسخ .

(٣) وردت (وشيكه) في م ومعنى عطف في التسخ .

« استجابوا اليهم » : فبدأ دعاءهم إليه وما أمروهم به من فنون الطاعات ؛ فهؤلاء هم الذين لم حَسُنُ الثوابِ وحيدُ المآبِ .

والمستجيبُ رَبُّهُ هو الذي لا يبق له نَفْسٌ إِلَّا على موافقة رضاه^(١) ، ولا يَبْقَى منه لِنَفْسِهِ بَقِيَّةٌ .

« وأمرهم شورى بينهم » : لا يَتَبَدُّ أحدهم برأيه ؛ لأنه يَتَّبِعُ أمرَهُ ورأيه أبداً^(٢) . ثم إذا أراد القطعَ بشيء يتوكل على الله .

قوله جل ذكره : « والذين إذا أصابهم البغيُ هم يَنْتَصِرُونَ » .

« البغيُ » : الظلمُ ، فيعلم أحدهم أن الظلمَ الذي أصابه هو من قَبْلِ نَفْسِهِ ، فينتصر على الظالم وهو ضَعْفٌ ؛ بأن يَكْبَحَ عنانها عن الركن في ميدان المحاكات .

قوله جل ذكره : « وجزاء سيئةً سيئةً مِثْلُهَا فَتَنٌ عَنَّا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » .

(يعني لا تجاوزوا حدَّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام)^(٣) .

« فتن عنا وأصلح فأجره على الله » : مَنْ عَنَّا عن الجاني ، وأصلح ما بينه وبين الله — أَصْلَحَ اللهُ ما بينه وبين الناس . « فأجره على الله » : فالجى للعبد من الله وعلى الله ، وعند الله خيرٌ مما يسله باختياره .

قوله جل ذكره : « وَكَانَ أَتَمَرُ بِهِ عِلْمُ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ • إِنَّا سَبَّلْنَا عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ وَيَتَعَوَّنُونَ فِي الْأَرْضِ بِئِيرَ الْمَقْصُودِ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(١) هذا ما يعرف منه الصورية بمراجعة الأنفاس .

(٢) هذا أصل من أصول أهل الخلافة للنيابورية .

(٣) ما بين القوسين سقط في ص وموجود في م .

عَلَّمَ اللَّهُ أَنْ الْكُلَّ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَجِدُ التَّحَرُّرَ مِنْ أَحْكَامِ النَّفْسِ ، وَلَا يَتِمَّكَنُ مِنْ مَحَاسِنِ الْخَلْقِ فَرَحَّصَ لَهُمْ فِي الْمَكَائِفِ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْلِ وَالْقَسْطِ — وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَى بِهِمُ الصَّنْعُ وَالْمَعْنَى .
 « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلُمُونَ النَّاسَ . . » : السَّبِيلُ بِالْمَلَامَةِ لَنْ يَجَاوِزَ الْحَدَّ ، (وَعَدَا الطَّوْرَ) (١) ، وَأَتَى غَيْرَ الْمَأْذُونِ لَهُ مِنَ الْقَتْلِ . - فَهَؤُلَاءِ لَمْ عَذَابُ أَلِيمٍ .
 قوله جل ذكره : « وَكَانَ صَبْرٌ وَغَفْرٌ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

صَبْرٌ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ غَيْرِ شَكْوَى ، وَغَفْرٌ — بِالتَّجَاوُزِ عَنْ الْخَطِيئَةِ — وَلَمْ يَبْقَ لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ دَعْوَى ، بَلْ يُبْرِئُ خَصْمَهُ مِنْ كُلِّ دَعْوَى ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . . فَذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .
 قوله جل ذكره : « وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ يُعْرَى الظَّالِمِينَ نَمًا رَأَوْا الْمَذَابَ يَتُوكُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ » .

إِنَّ الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ اللَّهُ ، وَأَعَى أَبْصَارَهُمْ وَجَاهَرَهُمْ ، وَأَوْقَعَهُمْ فِي كَدِّ عِقَابِهِمْ ، وَحَرَمَهُمْ بَرْدَ الرِّضَا لِحُكْمِ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا مَانِعٌ لَهُمْ مِنْ عِقَابِهِ . وَتَرَاهُمْ إِذَا رَأَوْا الْمَذَابَ يَطْلُبُونَ مِنْهُ النِّجَاةَ فَلَا يَنَالُونَهَا .

وَتَرَاهُمْ يَمْرَضُونَ عَلَى النَّارِ وَهُمْ خَاشِعُونَ مِنَ الذَّلِّ ؛ لَا تَنْصَحُهُمْ تِلْمَازَةً ، وَلَا تُنْشَعُ مِنْهُمْ دَعْوَةٌ ، وَيُمَيِّرُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ بِمَا ذَكَرُوهُمْ بِهِ فَلَا يَسْمَعُونَ ، فَالْيَوْمَ لَا نَاصِرَ يَنْصُرُهُمْ ، وَلَا رَاحِمَ يَرْحَمُهُمْ .

قوله جل ذكره . « أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلِجَةٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ » .

الاستجابةُ لِلَّهِ الْوَفَادُ بِعَهْدِهِ ، وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ ، وَالرَّجُوعُ عَنْ مَخَافَتِهِ إِلَى مَوَاقِفِهِ ، وَالِاسْتِغْلَامُ

(١) فِي مَنْ (وَعَدَ) وَمَنْ خَطَأَ فِي التَّنْصِيحِ . وَيُقَالُ عَدَا وَمَعْنَى الطَّوْرُ أَيْ جَاوِزَ حُدُودَهُ وَقَدَرَهُ (الرَّوَيْدُ) .

في كل وقتٍ لحُكْمِهِ . والطريقُ اليومَ إلى الاستجابة مفتوحٌ . وعن قريبٍ سُنْفَلِقُ البابُ على القلبِ بشفةٍ ، ويؤخذُ قلعةً .

قوله جل ذكره : « فَنَ أَعْرَضُوا فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » .

فَنَ أَعْرَضُوا عن الإجابة فليس عليك إلا تبليغُ الرسالة ، ثم نحنُ أعلمُ بما نعاملهم به .

« وَإِنَّا إِنَّمَا أَدَقُّنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرَحَ
بِهَا ، وَإِن تَصِيَّهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيَهُمْ فَنَ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ » .

إذا أَدَقُّنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَاحَةً وَنَمَّةَ فَرَحَ تلك الحلة ، وقابلها بالبطير ، وتوصل بتمام
مافيه إلى الحفاقة ، وجعل السلامة ذريعةً للمخالفة . وإنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ وبليّة ، ومَسَّتْهُ مصيبةٌ
ووردة فَنَاهُ كَفُورٌ بنمائها ، جعردُ لآلاتنا .

قوله جل ذكره : « فَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يُهَيِّبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا مُهَيِّبُونَ
يَشَاءُ الذِّكْرُ » ^(١)

يهيب لمن يشاء الذكور ، ولين يشاء الإناث ، ويهيب لمن يشاء عتياً ،
فلا اعتراضَ عليه في تقديره ، ولا اختياره في اختياره ، فهو أولى بعباده من عباده .

قوله جل ذكره : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولاً فَيُوحِيَ بِلَاذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ » .

فَهُ يَخْلُقُ مُلْكَهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ ، ويعطى مَنْ يَشَاءُ من عباده ما يشاء ، ولكن أجرى

(١) يرى القس أن عدم الإناث من الذكور هنا ليرفع أنه فاعل لما يشاءه لا لا يشاء الإنسان ، فكان تقدم
الإناث اللذان من جملة ما لا يشاءه الإنسان أم ، والأم واجب التقديم . - ص ١١١ .

المادة وحسبكم بأنه لا يفعل إلا ما وُزِدَ في هذه الآية ؛ فلم يُكَلِّم أحدًا إلا بالوحى ، أو من وراء حجاب ؛ يعنى وهو لا يرى الحق ، فالمنجوب هو البعد لا الرب ، والمنجوب أن يخلق في محل الرؤية ضد الرؤية . . تعالى الله عن أن يكون من وراء حجاب ؛ لأن ذلك صفة الأجسام المحدودة التى يُسَبَّلُ عليها ستر . إنه « عِلِّيٌّ » : فى شأنه وقدره ، « حَكِيمٌ » : فى أفعاله .

قوله جل ذكره : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا

ما كُنْتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان

ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء

من عبادنا وإنك تتهدى إلى صراط

مستقيم . »

أى ذلك مثلما أوحينا إليك « روحاً » من أمرنا يعنى القرآن ؛ تنمّاه روحاً لأنه من آمن

به صار به قلبه حياً .

ويقال « روحاً من أمرنا » : أى جبريل عليه السلام ، ويسمى جبريل روح القدس .

« ما كنت تدرى ما الكتاب . . » : ما كنت تدرى قبل هذا ما القرآن ، « ولا الإيمان » :

أى تفصيل هذه الشرائع .

« ولكن جعلناه : أى القرآن « نورا » نهدي به من نشاء من عبادنا المؤمنين .

« ألا إلى الله نصير الأمور » : لأن منه ابتداء الأمور .

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بسم الله : اسمٌ عزيزٌ مَنْ وَثِقَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ لَمْ يَسْلُكْ بَيْتَهُ صَوَاعِدَ هَيْمَةٍ ، وَلَمْ يَقِفْ عَلَى سُدَّةٍ مَخْلُوقٍ يَتَقَدَّمُهُ فِي ابْتِغَاءِ كَرَمِهِ . اسمٌ عزيزٌ مَنْ عَوَّدَهُ خَفَايَا لُطْفِهِ ^(١) لَمْ يَتَذَلَّلْ ^(٢) فِي طَلَبِ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَرِّهِ وَخَيْرِهِ .

قوله جل ذكره : « حَمْدٌ • وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ • إِنَّا جِطَلَاءُ

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَكُمْ تَفْتَلُونَ »

الحلوة تدل على حياته والميم على مجده .. وهذا قسمٌ ؛ ومعناه : وحياتي ومجدي وهذا القرآن إن الذي أخبرتُ عن رحي بعباد المؤمنين حقٌ وصِدْقٌ . وجِطَلَاءُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِيُتَيَسَّرَ عَلَيْكُمْ فَهَمُّ مَعْنَاهُ .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَهْدِينَا

لَعَلَّ حَكِيمٌ »

« فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَهْدِينَا » : أَيُّ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ .

« لَعَلَّ حَكِيمٌ » : لَعَلَّ الْقُدْرَ ، حَكِيمٌ الْوَصْفُ ؛ لَا تَبْدِيلَ لَهُ وَلَا تَحْوِيلَ .

قوله جل ذكره : « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا

أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ »

أَيُّ أَنَا لَا ضَمْلَ ذَلِكَ ؛ (فَيَكُونُ مَعْنَى الْأَسْتَهْلَامِ) ^(٣) أَفَنَقْطَعُ عَنْكُمْ خُطَابَنَا وَتَعْرِيفَنَا

(١) مَكَلًا فِي مَوْحَى فِي ص. (خفاء حكه) . وقد ذكرنا الأول لأنها أكثر تنصيصاً للمعنى .

(٢) مَكَلًا فِي مَوْحَى فِي ص. (لم تبدل) وروايتُ لِقَوْلِهِ لِلنَّاسِ .

(٣) مَا بَيْنَ الْقُرْآنَيْنِ إِسْوَافَةً مِنْ مَعْنَى لِيَسْلُكَ السَّيْلَ . وَالْأَسْتَهْلَامُ فِي الْآيَةِ يَهْدِي الْإِتِّكَارَ .

إِنْ أَسْرَفْتُمْ فِي خِلَافِكُمْ ؟ لا... إِنْ لَا نَزَعَ التَّكْلِيفَ بِأَنْ خَالَفْتُمْ ، وَلَا نَهَجْرَكُمْ — يَنْقُطُ
الْكَلَامُ عَنْكُمْ — إِنْ أَسْرَفْتُمْ .

وفى هذا إشارة لطيفة وهو أنه لا يقطع للكلام — اليوم — عَيْنَ تَمَادٍ فِي عَصِيَانِهِ ،
وَأَسْرَفٍ فِي أَكْثَرِ شَأْنِهِ . فَأَحْرَى أَنْ مَنْ لَمْ يَقْصُرْ فِي إِيمَانِهِ — وَإِنْ تَلَطَّحَ بِعَصِيَانِهِ ،
وَلَمْ يَدْخُلْ خَلَلٌ فِي عِرْفَانِهِ — أَلَا يَنْسَخَ عَنْهُ لَطَافُ غَفْرَانِهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ •
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

ما أنعم من رسولٍ قابله بالتصديق ، بل كَذَّبَ بِهِ الْأَكْثَرُونَ وَجَعَدُوا ، وَعَلَى
غَيْبِهِمْ أَصْرُوا ...

فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا •

أَي لَمْ يُفَضِّلْنَا أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَلَمْ تَتَذَكَّرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَاتَّقِنَا مِنَ الَّذِينَ أَسَاءُوا .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ •

كَانُوا يَقُولُونَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ ، وَأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَإِنَّمَا جَعَدُوا حَدِيثَ
الْأَنْبِيَاءِ ، وَحَدِيثَ الْبَيْتِ وَجَوَازِهِ •

« الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَكُمْ تَسْتَوُونَ •

كَاجْعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا لِأَشْبَاحِهِمْ جَعَلَ الْأَشْبَاحَ قَرَارًا لِأَرْوَاحِهِمْ ؛ فَاتَّطَلَّقَ سُكَّانُ
الْأَرْضِ ، فَلِذَا انْتَهَى الْمَدُّ — مَدَّةُ كَوْنِ النَّفْسِ عَلَى الْأَرْضِ — حَكَمَ اللَّهُ بِمُخْرَاجِهَا •
كَذَلِكَ إِذَا فَارَقَتِ الْأَرْوَاحُ الْأَشْبَاحَ بِالسَّكَلَةِ قَضَى اللَّهُ بِمُخْرَاجِهَا •

(١) هكذا تتجلى نزعة الأمل والفضول عند هذا الصوفى حيث يحاول في إشارته أن يبين كيف أن رسة الله
تستد لتشمل اللزمتين الخاصة حتى من أسرف منهم على نفسه .

قوله جل ذكره : « والذى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرِ

فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ »

بمعنى كما يُخْرِجُ الأَرْضَ بِالْمَطَرِ يُخْرِجُ الْقُلُوبَ بِحُسْنِ النَّظَرِ .

قوله جل ذكره : « والذى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا »

أى الأصناف من الخلق

« وجعل لكم من النُّفُكِ وَالْأَنْعَامِ

مَا تَرْكَبُونَ »

كذلك جَعَلَ عليكم الأحوال كلها ؛ فمن رَغِبَ في الخيَرات إلى رَهْبَةٍ مما تَوَعَّدُكُمْ به من

العقوبات . ومن خَوِفَ بِمَحَلِّكُمْ عَلَى تَرْكِ الزَّلَّاتِ إلى رَجَاءٍ يَشْكُمُ عَلَى فُلِ الطَّاعَاتِ طَمَعًا

فِي الثَّوَابِ .. وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ فُتُونِ الصِّفَاتِ

« لَتَسْتَخْرِجُوا عَلَى ظُهُورِهِ » .

بمعنى النُّفُكِ وَالْأَنْعَامِ ..

« ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ

عَلَيْهِ وَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا

وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ »

مطيعين ، وَكَأَنَّ سَخَّرَ لَمْ يَنْفُكْ فِي الْبَحْرِ ، وَالْقُلُوبَ لِلرُّكُوبِ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْهِمُ النِّعَةَ بِذَلِكَ

فَكَذَلِكَ (سَهَّلَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَرْكَبَ التَّوْفِيقِ فَصَحَّحَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى بَسَاطَةِ الطَّاعَةِ ^(١)) ، وَسَهَّلَ

لِلْمُرِيدِينَ مَرْكَبَ الْإِرَادَةِ فَصَحَّحَهُمْ عَلَيْهِ إِلَى مَرَاتِبَاتِ الْجُودِ ، وَسَهَّلَ لِلْمَارْفِقِينَ مَرْكَبَ الْمِصْمَرِ

فَأَتَاخَوْا بِغَفْوَةِ الْمِرَّةِ . وَعِنْدَ ذَلِكَ تَحْطُّ الْكَلَفَةُ ؛ إِذْ لَمْ تَخْرُجْ سَرَادِقَاتِ الْمِرَّةِ هِيَّةً

مُخْلُوقٍ : سِوَاهُ كَانَ مَكْنَاً مُقَرَّبًا أَوْ نَبِيًّا مُرْسَلًا أَوْ وَلِيًّا مُكْرَّمًا ، فَتَدِ سَطَوَاتِ

الْمِرَّةِ يَتَلَاشَى كُلُّ مُخْلُوقٍ ، وَيَقِفُ وَرَاءَ مَا كُلُّ مُخْدَتٍ مَسْبُوقٍ ^(٢) .

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّعِ وَحُجُودٍ فِي مَوْضِعٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٍ فِي مَقَائِدِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّ مَرَاتِبَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَةً

تَلِيهَا مَرَاتِبَةُ الْمُرِيدِينَ وَهِيَ خَاصَّةٌ ، ثُمَّ الْمَارْفِقِينَ وَهِيَ عَوَامُ الْخُلَاصِ .

(٢) يَرْتَبِطُ ذَلِكَ بِمَلْجَبِ الْقُبُورِ فِي «الْفَتَاوَى» ، وَكَيْفَ أَنَّ الصِّدْقَةَ تَهْلُ مِنَ الْإِسْتِثْنَاءِ .. فَاعْلَمْ بِمَا يَزْعُمُهُ

آخِرُونَ مِنْ حُلُولِ الْقِتَادِ .. وَغَيْرِ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : « وجعلوا له من عباده جزءاً إنَّ
الإنسانَ لَكَفُورٌ مِينٌ »

هم الذين قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ؛ فجعلوا البناتِ لله جزءاً على التخصيص من جملة
خلقاته . . . نسكاً لم في قولهم ذلك وخزياً ^(١) ! ! فردَّ عليهم ذلك قائلاً :

« أم اتَّخَذَ عَمَّا يُخْلُقُ بناتٍ وأصنافاً
بالبين »

قال لم على جبهة التوبيخ ، وعابهم بما قالوا ؛ إذ — على حدِّ قولهم — كيف يُؤرِّمُ
بالبين ويجعل لنفسه البنات ؟ ! ففي قولهم ضلالٌ ؛ إذ حكموا القديرَ بالولَدَ . وفي جهلٌ ؛
إذ حكموا له بالبنات ولم بالبين — وهم يستفكرون من البنات . . . ثم . . . أى عيب في البنات ؟
ثم . . . كيف يحكمون بأن الملائكة إنثى — وهم لم يشاهدوا خِلْقَتَهُمْ ؟
كلُّ ذلك كان منهم خطأ محظوراً .

قوله جل ذكره : « وقالوا لو شاء الرحمنُ ما عبدناهم
مالم يملك من عِلْمٍ إنَّ م
إلا يغرُّصُونَ »

إنما قالوا ذلك استهزاء واستعلاءً لا إيماناً وإخلاصاً ، قال تعالى : « مالم يملك من علم
ولو علموا ذلك وقالوه على وجه التصديق لم يكن ذلك منهم مطولاً .

ثم قال : « أم آتيناكم كتاباً من قَبْلِهِ فهم به
مُتَنَبِّحُونَ »

أى ليس كذلك ، حتى أخبر أنهم ركنوا إلى تقليدٍ لا يُفْقِى إلى العلم ، قال :
« بل قالوا إِنَّا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وَإِنَّا
على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »

(١) في م (وحرناً) وهي غير ملائمة — كما هو واضح .

فصحن قتلدى بهم ، ثم قال :

« وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي
قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا
وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ
مُقْتَدُونَ »

سلكوا طريق هؤلاء في التقليد لأسلافهم ، والاستقامة إلى ما اعتادوه من السيرة
والصادة .

قوله جل ذكره : « قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدًى
مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ »
فلم يسمع فيهم قوله ، ولم ينفهم وعظمه ، وأصرُّوا على تكذيبهم ، فانتقم الحق
— سبحانه — منهم كما فعل بالذين من قبلهم .
قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي يَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ »

أخبر أن إبراهيم لما دعا أباه وقومه إلى الله وتوحيده أبرأً إلا تكذيبه ؛ فغضب
منهم بأجمعهم ، وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عَمِيهِ وقومه .
قوله جل ذكره : « بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ
حَقَّ جَاسِمٍ وَرَسُولٍ مُبِينٍ » .
أَرْخَيْتَنَا عَنَّا إِمَامَهُمْ مَدَّةً ، ثُمَّ كَانَ أَمْرُهُمْ ^(١) أَنْ ائْتَمَرْنَا مِنْهُمْ ، وَدَمَرْنَاَهُمْ
أَجْمَعِينَ .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

(١) مذكراً في ص وهو في (أمرهم) وهو مقبولة في السبيل على معنى (أمر أمرهم) أو (أمر شأنهم) .

عَلَى رَجُلٍ مِنَ الرَّحِيمِينَ عَظِيمٍ ،

إِنَّا بِي مَسْعُودِ التَّقَى^(١) أَوْ أَبِي جَهْلٍ ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ فَرْطِ جَهْلِهِمْ .

« أُمُّ يَقْسُمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ؟

نَحْنُ قَسَمْنَا بِنَفْسِنَا بِمَعِيشَتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَوَرَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَوَّجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ،

وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْتَمِعُونَ »

أُمُّ يَقْسُمُونَ - يَأْمُرُ - رَحْمَةً رَبِّكَ فِي التَّنْصِيفِ بِالنَّبْوَةِ ؟ أَيْ يَكُونُ اخْتِيَارُ اللَّهِ

- سَبْعَانَهُ - عَلَى مُتَقَضَى مَوَاقِفٍ ؟ بَلَى مَا يَحْكُمُونَ !

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ » فَلَمْ يَجْعَلِ الْقِسْمَةَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمْ فَكَيْفَ يَجْعَلِ

قِسْمَةَ النَّبْوَةِ إِلَى هَؤُلَاءِ ؟ !

وَالْإِشَارَةُ مِنْ هَذَا : أَنَّ الْحَقَّ - سَبْعَانَهُ - لَمْ يَجْعَلِ قِسْمَةَ السَّادَةِ وَالْمُتَقَاوِرَةِ إِلَى

أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا الرَّدُّ مِنْ رَدِّهِ بِحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَالْمُتَبَوِّلُ - مِنْ جِلَّةِ عِبَادِهِ - مَنْ

أَرَادَهُ وَقَبِلَهُ . . . لَا لِبَلَّةٍ أَوْ سَبَبٍ ، وَلَيْسَ الرَّدُّ أَوْ الْقَبُولُ لِأَمْرِ مُكْتَسَبٍ^(٢) . . .

نَمَّ إِنَّهُ قَسَمَ لِبَعْضِ عِبَادِهِ النِّسْمَةَ وَالْفَنَى ، وَلِبَعْضِ الْقَلَّةِ وَالْفَقْرَ ، وَجَعَلَ لِكُلِّ

وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَكَنًا يَسْكُنُونَ إِلَيْهِ يَسْتَقِلُّونَ بِهِ ؛ فَلَاغْنِيَاءَ وَجُودُ الْإِنْعَامِ وَجَزِيلُ

الْأَقْنَامِ . . فَشَكَرُوا وَاسْتَبْشَرُوا ، وَلِلْفُقَرَاءِ شُهُودُ السُّنَنِ وَالنَّسَامِ . . فَخَدَمُوا وَافْتَخَرُوا .

الْأَغْنِيَاءُ وَخَدَمُوا النِّعْمَةَ فَاسْتَفْتَوْا وَانْشَغَلُوا ، وَالْفُقَرَاءُ سَمِعُوا قَوْلَهُ : « نَحْنُ » فَاسْتَفْتَوْا^(٣) .

(١) هو أَبُو مَسْعُودٍ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ التَّقِيُّ مِنَ الْخَلَفَاءِ ، وَأَبُو جَهْلٍ مِنْ مَكَّةَ فَالْقَرِيبَانِ هَا الْخَالِفَانِ وَمَكَّةَ .
وَرَوَى أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْقَلْبِيَّةِ - وَكَانَ يَمْسِي رِيحَانَةَ قَرِيضٍ - كَانَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ مَا يَقُولُهُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَزَلَ مِنْ
أَرْضِ أَبِي مَسْعُودٍ .

(٢) مَرَّةً أُخْرَى يَبْنِي الْقَشِيرِيُّ إِلَى أَنَّ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فِي الْأَمْرِ فَضْلُ اللَّهِ وَقِسْمَتُهُ ، وَلِهَذَا الرَّأْيُ شَائِعٌ فِي سَائِلَةِ
الْغُرَبَاءِ وَالْمَغْنَابِ إِلَى اخْتِفَافِ الْمُتَرَلِّهِ وَسَيْلَةٍ مِنْ وَسَائِلِ تَبْرِيرِ الْحُرِّيَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ - كَمَا تَبَيَّنَ إِلَى ذِكْرِ فِي مَوَاقِفٍ كَثِيرَةٍ
مِنَ الْكُتُبِ .

(٣) أَيْ (اسْتَفْتَوْا) بِأَنَّهُ دَلَّاهُ دُونَ خَايَةِ خَيْرِيهِ أَوْ سَطَعَ زَائِلٌ . وَنَحْنُ لَا نَسْتَبْدِهُ أَنَّهَا تَكُونُ فِي الْأَصْلِ
(فَاسْتَفْتَوْا) فَهَذَا هُوَ تَبْرِيرُ الْفَرَسِ الْمَأْلُوفِ فِي مِثْلِ هَذَا السَّيَالِ .

وفي الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأتار : أما ترضون أن يرجع الناس بالنفي ؟ وأنتم ترجعون بالنبي إلى أهلكم ؟

« ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .. » : لو كانت للتأديب متساوية لتصلت للمعيشة ، ولكي يكلَّ عند حاله ؛ فجعل بعضهم مخصوصين بالرفق واللطف ، وآخرين مخصوصين بالقرع وورقة الحال .. حتى احتاج الفقير في جبر حاجته إلى أن يعمل للنفي كي يرتفع من جهة بأجرته فيصلح بذلك أمر النفي والفقير جيئاً .

قوله جل ذكره : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة »

جللنا لمن يسكف بالرحمن لبيوتهم
سُقفاً من فنة ومعارج عليها يظهرُونَ »

معنى الآية أنه ليس لدينا عندنا خطر ؛ فالتقى بيني منّا لو صببنا عليه الدنيا بمخافها لم يكن ذلك جبراً أصيبته . ولولا فنة قلوب المؤمنين لجللنا لبيوتهم سُقفاً من فنة ومعارج من فنة ، وكذلك ما يكون شبيهاً بهذا .

ولولنا .. لم يكن لنا أعلينا خطر ؛ لأن الدنيا بأسرها ليس لها عندنا خطر .

قوله جل ذكره : « ومن يشأ عن ذكر الرحمن
فيمض له شيطاناً فهو له قرين » .

من لم يعرف قدر الخلوة مع الله فساد عن ذكره ، وأخذ إلى انطواء الرديّة فيض الله له من يشغله عن الله — وهذا جزاء من ترك الأدب في الخلوة . وإذا اشتغل البدن في خلوته بربه .. فوترض له من يشغله عن ربه صرته الحق عنه بأي وجه كان ، وصرف دواعيه عن منافعها بما يشغله عن الله .

وقال : أصب الشياطين نفسك ؛ والعبد إذا لم يعرف خطر فراغ قلبه ، وانبع شهوته ، وضع ذلك الباب على نفسه حتى يدعوه أسيراً لا يكاد يتخلص عنه إلا بعد مدة .

قوله جل ذكره : « وإلهم ليعبدونك من السبيل
ويعتصمون أنهم مهتدون » حتى إذا جاءنا

قال يا ليت بيني وبينك بُعد الشرقيين
فبئس القرين »

الذي سوت له نفسه أمراً يتوهم أنه على صواب ، ثم يحمل صاحبه على موافقته في باطله ، ويدعى أنه على حق . وهو بهذا يضر بنفسه ويضر غيره . ثم إذا ما انكشف — غداً — النطاة تبين صاحبه خيائنه ، وتدم على صحبته ، ويقول : « يا وليّ ليئلي لم آخذ فلاناً خيلاً »^(١) و « يا ليت بيني وبينك بعد الشرقيين » . ولكن هذه الندامة لا تنفع حينئذ ؛ لأن الوقت يكون قد فات ، لهذا قال تعالى :

« ولن ينصركم اليوم إذ ظننتم أنكم في الغلاب مُشتركون »

قوله جل ذكره : « أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي السُّمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

هذا الاستفهام فيه معنى النفي ؛ أي أنه ليس بإمكانك هداية مَنْ سَدَدْنَا بصيرته ، ولَبَّسْنَا عليه رؤيته ، وَمَنْ صَبَّأْنَا في سماع فهمه رصاص الشقاء والحزن... فكيف يمكنك إسماعه؟! قوله جل ذكره : « فَأَمَّا نَذَاهِنَ يَكَ ظُلْمًا مِنْهُمْ مَنَّمُونَ »

يعني : إن اضغى أهلك ولم ينفق لك شهود ما تتوعدهم به فلا تتوهم أن صديقك كلامنا يشوبه مَيِّن^(٢) ، فإن ما أخبرناك عنه — لا محالة — سيكون .

قوله جل ذكره : « أَوْ نُفَيْتُكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ »

أُفَيْتُهُ عَلَى حَدِّ الْغُلُوفِ^(٣) وَالرَّجَاءِ ، وَوَقَفَهُ عَلَى وَصْفِ التَّجْوِزِ لِاسْتِبْدَادِهِ^(٤) — سبحانه

(١) آية ٢٨ سورة الفرقان .

(٢) في م (مين) وفي خط في النسخ إذ الصواب (المن) أي الكذب .

(٣) في م (الحزن) ؛ لكننا آثرنا جلباً ما جاء في م فالغوف — لا الحزن — يقابل الرجاء في المصطلح الصوري (أنظر رسالة التشيرى ص ٣٥) .

(٤) استبد بالآخر مع انفراد به (الغوسيط) .

بعل النيب . والمقصود كذلك أن يكون كلُّ أحد بالنسبة لأمر الله من جلة نظارة التقدير —
فألهُ بفعل ما يريد .

قوله جل ذكره : « فاستميكِ باقى أوجى إليك إنك
على صراطٍ مستقيم »

اجتهد من غير قصير وتوكل على الله من غير فتور ، وقِفْ حَيْثُ أَمَرْتَ ، وثِقْ بِأَنَّكَ
على صراطٍ مستقيم .

قوله جل ذكره : « وإِنَّ لَدِرْكَرُكَ وَتَقْوَمِكَ وَسُوفَ
تُسْأَلُونَ » .

أى إن هذا القرآن لَدِرْكَرُكَ ؛ أى شرف لك ، وحسنُ صيتٍ ، واستحقاقُ منزلةٍ .

قوله جل ذكره : « واسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلْنَا أَجَلُنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آيَةً يُعْبَدُونَ » .

حَسَرَ أَرْوَاحَ الْأَنْبِيَاءِ — عليهم السلام — لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ ، وَقِيلَ لَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
سَلِّمْ : هَلْ أَمَرْنَا أَحَدًا بِعِبَادَةِ غَيْرِنَا ؟ فَلَمْ يَشْكُ النَّبِيَّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَلَمْ يَسْأَلْ^(١)
وَيَقَالَ : الْخَطَابُ لَهُ ، وَلِلرَّأْيِ بِهِ غَيْرُهُ . . فَمَنْ يَرْتَابُ فِي ذَلِكَ ؟ (وَيَقَالَ : الْمُرَادُ مِنْهُ سَلِّ
أَقْوَامَهُمْ ، لَكِنْ إِذَا قَالُوا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ كَانَ هَذَا الْبَلْغُ فِي إِبْرَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ)^(٢) .

قوله جل ذكره : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا . . .
. إذا هم يضحكون »

كَرَّرَ قِصَّةَ مُوسَى غَيْرَ مَرَّةٍ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَعَادَهَا هُنَا مَجْلَّةً ؛ أَرْسَلْنَاهُ بِدَلَالَتِنَا ، أَرْسَلْنَاهُ بِحُجَّةٍ
ظَاهِرَةٍ قَاهِرَةٍ ، أَرْسَلْنَاهُ بِالْمُعْجَزَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنَ الْقَبْطِ ، قَبُولِ بِالْمَرْءِ وَالضَّحْكَ

(١) عن ابن عباس أنه قال : « لا أسأل قد اكتفيت » ومنه أيضاً : أنه لم يسأل لأنه كان أعلم بالله منهم .
(٢) ما بين القوسين مائتة في م. ، والمقصود بها : أسأل مؤمن أهل الكتابين الفجور والافتخار — وعلى هذا الرأي جمهور من المفسرين منهم مجاهد والضحك وتكاد .

والتكذيب . ومع أنَّ الله سبحانه لم يُخبر عليه من اليَنَات شيئاً إلا كان أوضح مما قبله إلا أنهم لم يتأبلوه إلا بجناحه أَوْحَشَ مما قبله . فلَمَّا عَصَوْهُمُ الأَمْرُ قالوا : يَا أَيُّهَا الْمَاحِرُ ، ادْعُ لَنَا رَبَّكَ لِيَكْشِفَ عَنَّا الْبَلَاءَ لَنُؤْمِنَ بِكَ ، فدعا موسى ... فكشف اللهُ عنهم ، فسادوا إلى كفرهم ، وقصوا عَهْدَهُمْ .

قوله جل ذكره : « وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

نَمَزَزَ بِمُلْكِ مِصْرَ ، وَجَرَى النِّيلُ بِأَمْرِهِ ! وَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ مَنْ تَمَزَّزَ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَخَسَهُ وَهَلَكَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ .

« أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » .

استصغر موسى وحديثه ، وعابَه بالقتل . فَسَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ هَلَاكُهُ بِيَدِهِ ، فَمَا اسْتَصَغَرَ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا سَلَّطَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ »

أَطَاعُوهُ طَاعَةَ الرِّبَةِ ، وَطَاعَةَ الرِّبَةِ لَا تَكُونُ مُخْلِصَةً ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الطَّاعَةُ صَادِقَةً إِذَا صَدَرَتْ عَنِ الرِّغْبَةِ .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » .

« آسَفُونَا » أَغْضَبُونَا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَغْضَبُوا أَوْلِيَائَنَا ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ . وَهَذَا لَهُ أَصْلٌ فِي بَابِ

(١) يحاول التفسير أن يفهم بأولئك الذين يتعرضون للإغتيال والدارتين ، وكيف أن الحق - سبحانه - يتول منهم رد كيده الكائين .

الجميع^(١) ؛ حيث أضاف إيمانهم لأدليته إلى نفسه . . وفي الخبر : أنه يقول : « دَمَرْتُ ظِمَّ تَمَدَّقِي^(٢) .

وقال في قصة إبراهيم عليه : « يَا تَوَكُّرْ جَالاً . . »^(٣)

وقال في قصة نبيينا — صلى الله عليه وسلم : « من يطلع الرسول قد أطاع الله »^(٤) .

قوله جل ذكره : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِنَّا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

وَمَرْبُ السَّلْبِ بَيْسَى هو قوله : « إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ »^(٥) ؛ حَقَّقَ عِيسَى بِلَا أَبْ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِلَا أَيْوَنَ . فاجعلوا بهذه الآية .

وقيل هو قوله : « إِنْ كُنْتُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَسْبَ جَهَنَّمَ »^(٦) ، قَالُوا : رَضِينَا بِأَنْ نَكُونَ فِي النَّارِ مَعَ عِيسَى وَعُزَيْرَ وَالْمَلَائِكَةِ ، وَلَيْسَ لَمْ فِي الْآيَةِ مَوْضِعٌ ذِكْرٌ ؛ لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَالَ : « وَمَا تَعْبُدُونَ ، وَلَمْ يَلْ »^(٧) ومن « تعبدون » .

قوله جل ذكره : وَقَالُوا «الْمُتَنَبِّئُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

ما ضربه لك إِلَّا جَدَلًا : وذلك أنهم قالوا : إِنْ قَالَ آلَهُتُكُمْ خَيْرٌ هَذَا أَقْرَبُ بِأَنَّهَا مَعْبُودَةٌ ، وَإِنْ قَالَ : عِيسَى خَيْرٌ مِنْ آلَهُتُكُمْ هَذَا أَقْرَبُ بِأَنْ عِيسَى يَصْلَحُ لِأَنْ يُعْبُدَ ، وَإِنْ قَالَ : لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ

(١) عتما يضاف الفعل إلى الحق يكون المعنى مصرفاً إلى حال الجميع . وعتما ينسب إلى الخلق يكون مصرفاً إلى حال الفرق ، عتما أرواح التشييع هنا ، وعتما أرواح عند قوله تعالى : « وما ربيت إذ ربيت ولكن الله رب » .

(٢) أصل الحديث : أنه تعالى يقول : « يَا ابْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَمْنَحْ ، وَاسْتَقْبَلْتَنِي فَلَمْ تَسْقِ ، وَاسْطَبَسْتُكَ فَلَمْ تَطْمِئِنِّ » فقرطبي : ج ٢٠ ، ص ٥٥ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج . والمخاطب في الآية لإبراهيم في مقام الفرق ، ولينينا في مقام الحج .

(٤) آية ٨٠ سورة لقاب .

(٥) آية ٩٩ سورة آل عمران .

(٦) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

(٧) لأن « من » للماتل و « ما » للير الماتل فالمقصود الاستنام .

خيراً قد نفى ذلك عن عيسى عليه السلام . هم داموا بهذا الكلام أن يجادلوه ، ولم يكن سؤالهم للاستفادة . فكان جواب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم : أن عيسى عليه السلام خيرٌ من ألفتكم ولكن لا يستحق أن يُعبد ؛ إذ ليس كلُّ ما هو خيرٌ من الأصنام يستحق أن يكون معبوداً من دون الله . وهكذا بين الله — سبحانه — نبيّه أنهم قوم جدلون^(١) ، وأنَّ حُجَّتَهُم داحضةٌ عند ربهم

قوله جل ذكره « إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ » .

فليس عيسى إلا عبداً أنعمنا عليه بالنبوة .

« وَلَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَتَخَفَتُونَ »

ولو شئنا لأزّلنا ملائكةً من السماء حتى يكونوا سُكَّانَ الْأَرْضِ بِدَلِّكُمْ .
ثم قال : « وَإِنَّ لِكُلِّ السَّاعَةِ فَلَا تَنْفَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ »
« وَإِنَّ لِكُلِّ السَّاعَةِ » : يعنى به عيسى عليه السلام إذا أنزله من السماء فهو علامةٌ للسَّاعة ، « فَلَا تَنْفَرُنَّ » بنزوله بين يدي القيلة^(٢) .

« وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »

ولا يصدنكم الشيطان عن الإيمان بالسَّاعة ، وعن اتِّباع الإيمان بهدأى .

(١) سبب نزول هذه الآية وما سبقها تلك المناظرة التي حاول بها عبد الله بن الزبير السبي أن يستوى فريشاً بالزلة اعتراضات باطلة ، فأفهمه المنطق القرآن ، وأغرس بلاجه .
يقول معروف الكرخي : إذا أراد الله به غيراً فتح له باب العمل وأغلق عليه باب الجدل ، وإذا أراد الله به غيراً أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل (الروضة اللاتية ، ج ١ ، ص ١٣٩) .
(٢) من أبي هريرة — كما ثبت في صحيح مسلم وابن ماجه — قال قال رسول الله (ص) : ليترن عيسى ابن مريم حكماً عادلاً فليكرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضن الجزية ولتكرن القلانس فلا يسكن إليها ، ولتلعن الشعنا ولتباغض ولتباغض ولتبعون إل المال فلا يقيه أحد .

قوله جل ذكره : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتوا الله وأطيعون » .

ذكر بحىء عيسى عليه السلام أول مرة ؛ حيث أتى قومه بالشرائع الواضحة ، ودعاهم إلى دين الله ، ولكنهم تمزَّبوا عليه ^(١) ، وإن الذين كفروا به يستحقون العقوبة .

« الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا لِلتَّائِبِينَ » .

ما كان لغير الله فآله إلى الضياع . والأخلاء الذين اصطحبوا على متنفذ الهوى بعضهم بعض عدو ؛ يتبرأ بعضهم من بعض ، فلا ينفع أحد أحداً .
وأما الأخلاء في الله فيشتنع بعضهم في بعض ، ويتكلم بعضهم في شأن بعض ، أولئك هم اللعنون الذين استكنهم الله بقوله : « إِلَّا لِلتَّائِبِينَ » .

وشروط الغلظة ^(٢) في الله ؛ ألا يستعمل بعضهم بعضاً في الأمور الدنيوية ، ولا يرتفق بعضهم ببعض ؛ حتى تكون الصعوبة خالصة لله لا لتصيب في الدنيا ، ويكون قبول بعضهم بعض لأجل الله ، ولا تجري بينهم مهادنة ، وقدر ما يرى أحدهم في صاحبه من قبول لطريق الله قبله ، فإن علم منه شيئاً لا يرضاه الله لا يرضى ذلك من صاحبه ، فلذا عاد إلى تركه غاد هذا إلى مودته ، وإلا فلا يبنى أن يساعده على معصيته ، كما يبنى أن يقيه قلبه ، وألا يسكن إليه لترض دينوى أو لطمع أو ليعوض .

قوله جل ذكره : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تمزنون » .

يقال لم غداً : « يا عبادى ^(٣) لا خوف عليكم اليوم » ما بقاه أهل

(١) كان تمزجهم إلى فرق متعددة هم : البقية والسطورية والملكاية والشمسية .

(٢) تصان هذه الآراء إلى ما ذكره التفهيم في رسالته في باب « الصفة » .

(٣) بالياء في الرسل والوقف مدنى وشائ وأبو حمزة ، ويصح الياء أبو بكر ، والباثون بلفظ الياء .

الجمع^(١) من الأهل ، ولا أنتم تحزنون فإيا قَصَرْتُمْ من الأعمال ...

أَمَّا الذنوب . . قد غفرناها ، وأَمَّا الأهوال ... فكفيتها ، وأَمَّا المظالم . . قضيتها .
فإذا قال للنادى : هذا الخطاب يُطِيعُ الكلَّ قالوا : نحن عباده ، فإذا قال :
« الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين »

أَيَسَ الكفارُ ، وَقَوَى رجاءُ المسلمين^(٢) .

قوله جل ذكره : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم
تُحِبُّونَ^(٣) »

في رياض الجنة ، وترتسون .

ويقال : « تحببون » من لذة السماع .

قوله جل ذكره : « يُطَافُ عليهم بصحافٍ من ذهبٍ
وأَكوابٍ وفيها ما تشبه الأنفسُ وتَلَدُّ
الأعينُ وأنتم فيها خالدون . »

البَّاد لم فيها ما تشبه أنفسهم لأنهم قاسوا في الدنيا — بحكم المجاهدات — الجوع
والعطشَ ، وتَحَلَّوا وجوهَ الشاقِّ ، فيجازون في الجنة بوجوه من التواب .

وأَمَّا أهل المعرفة والحيون فلهم ما يُلدُّ أعينهم من النظر إلى الله^(٤) لطول ما قاسوه من
فَرْطِ الاشتياقِ بقلوبهم ؛ وما علجوه من الاحتراق لشدة غليهم .

(١) يفسر قس أهل الجمع بأنهم أهل مكة (آية هـ - سورة القمر) .

(٢) قريب مما ذكره القشيري ما أورده الحارث المحاسبي في رعايته : (ينادي النادى يوم القيامة ربا عبادي
لا خوف عليكم اليوم ... فيرفع الخلائق ويوسمهم ، ويقولون : نحن عباد الله . ثم ينادى للقائية : « الذين آمنوا ... »
ثم ينادى الثالثة : « الذين آمنوا وكانوا يتقون » فينكس أهل الكبائر ويوسمهم ، ويبقى أهل التقوى رائى ويوسمهم ،
قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم) .

(٣) تحببون أى تسرون سروراً يظهر بهجاءه (= أفره) حل وجوهكم .

(٤) الجنة الحقيقية عند أرباب الأحوال رؤية الله ، وود في الخبر : أسألك الله النظر إلى وجهك .

قوله جل ذكره : « وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ »

أَي يَقَال لَمْ — وَالْخَطَابُ لِلطَّيِّبِينَ غَدًا — : أَنْتُمْ يَا أَصْحَابَ الْإِبْلَاسِ فِي أَعْمَالِكُمْ ؛
وَالصَّدَقُ فِي أَحْوَالِكُمْ :

« لَكُمْ فِيهَا مَا كُنْتُمْ كَثِيرَةً مِنْهَا

تَأْكُلُونَ » .

من الفاكهة الكثيرة تأكلون ، وفي الأنس تنفيلون .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْجَرِيمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ » .

هؤُلَاءِ هُمُ الْكَافِرُ الْمُشْرِكُونَ ، فَهَمُ أَهْلُ الْخُلُودِ ^(١) ، لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا يُخَفَّفُ .

وَأَمَّا أَهْلُ التَّوْحِيدِ : قَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ قَوْمٌ فِي النَّارِ . وَلَكِنْ لَا يَخْلُدُونَ فِيهَا .

وَدَلِيلُ الْخَطَابِ يَقْتَضِي أَنَّهُ يُفْتَرُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ . وَرَدَّ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ : أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمُ الْحَقُّ

— سُبْحَانَهُ — إِمَامَةً إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ — وَلِلَّيْلِ لَا يَمُوتُ وَلَا يَبْتَاطِمُ ^(٢) .

« لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » .

الْإِبْلَاسُ ^(٣) مِنَ الْخَلْقِ ، وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَأْسُ لَمْ فِيهَا ، وَإِنْ كَانُوا فِي

بِلَاسِهِمْ فَهَمُّ عَلَى وَصْفِ رَجَائِهِمْ ؛ يَدُلُّونَ أَيَّامَهُمْ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ حَسَابُهُمْ .

وَلَقَدْ قَالَ الشُّبُوحُ : إِنَّ حَالَ الْمُؤْمِنِ فِي النَّارِ — مِنْ وَجْهِ — أَرْوَحُ قَلْبِهِ مِنْ حَالِهِ فِي

الدُّنْيَا ؛ فَالْيَوْمَ — خَوْفُ الْمَلَائِكَةِ ، وَغَدًا — يَقِينُ النَّجَاةِ ، وَأُنْشَدُوا :

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا مُتَوَقِّعٌ قِسْوَامِ الظُّهْرِ

وَفَضِيلَةُ الْبُلُوِّ تَرْقُبُ أَهْلَهَا — عَقَبَ الرَّجَاءِ — مَوَدَّةَ الدَّهْرِ

(١) يضاف هذا الكلام إلى رأى التشبُّه في أبيعة النار ، على خلاف ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن

الفترة الجسدية تنعاقب فلا به من ثباتها ، ولأنَّ دوام الإحراق مع بقاء الحياة نمرج من حكم النقل (انظر شرح

الوقوف ، ج ٨ ، ص ٣٠٧ وشرح المقاصد ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٢) روى أحد في مسنده : « . . . أَمَاتَهُمْ إِمَامَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا نَصَا أَذُنَ بِالْخَلَاةِ ، فَهِيَ بِمِثْلِ شَاتِرِ

بِشَاتِرٍ ، نَبْرًا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قِيلَ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . أَنْفَسُوا عَلَيْهِمْ مَسُونُ لَبَاتِ الْجَنَّةِ ..

(٣) أَيْسَ : سَكَتَ لَمَرُّهُ وَانْتِفَاعَ حَجَّتِهِ .

قوله جل ذكره: «وما علمناهم ولكن كانوا هم الظالمين»

هذا الخطاب يُشِيرُ كَلِمَةُ الْمَذْرُوعِ - وَإِنْ جَلَّ قَدْرُهُ - سُبْحَانَهُ - عَنْ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره: «وادعوا لي ما ليك لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رِيْكَ»

قال إنكم ما كُثِنْتُمْ • لقد جئناكم بالحقِّ

ولكنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

وقالوا: «يا مَلِكُ» لعلَّ أقوالهم^(١) كانت أقربَ إلى الإجابة، ولكنَّ الأجنبيَّةَ حالت

بينهم وبين ذلك^(٢)، فكان الجوابُ عليهم:

«إنكم ما كُثِنْتُمْ» فيها... يُصَحِّمُ ظَنُّ تَنَصُّعِهِمْ، ولم يقبلوا القولَ في حينه، وكان

أَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهِينَ .

قوله جل ذكره: «أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَلَمَّا مِيرِمْوْنَ»^(٣)

بل أمورُهم مُتَقَضَّةٌ عليهم؛ فلا يَتَشَى لِمَ شَيْءٍ عَمَّا دَبَّرُوهُ، ولا يَرْتَضِعُ لِمَ أَمْرٌ عَلَى نَحْوِ
مَا قَدَّرُوهُ - وهذه الحالُ أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى إِيْثَابِ الصَّانِعِ .

قوله جل ذكره: «أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

ونجواهم عَلَى وُؤْسُنَا لَيْسَ بِهِمْ يَكْتُبُونَ» .

إنما خَوْفُهُمْ بِمَجَاعِ الْمَلِكِ، وبكُتَابَتِهِمْ أَعْمَالَهُمْ لِنَفْسِهِمْ عَنِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ، ولو كان

لَمْ خَبِرْ عَنِ اللَّهِ لِمَا خَوْفُهُمْ بِخَيْرِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تَكْتُبُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ يُطَالَبُ بِمُقْتَضَى

ذَلِكَ - قَلَّ إِلْسَامُهُ بِمَا يَخَافُ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ ..

قوله جل ذكره: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

الْعَابِدِينَ» .

(١) في ص (أحوالكم) وقد آثرنا عليها (أقوالكم) التي في م كما يوضح من السياق القرآني والسياق التفسيري .

(٢) بالمتن التفسيري نظرنا - من يمينه - إل أن الدعاء ينبغي أن يتجه بالكناية إلى الرب سبحانه، وقد يكون

للك أهمية في ذكره الاستشفاع بالوسيلة - كما يتصورها هذا الإمام.

(٣) يقال إن الآية نزلت في تدبير الكاثنتين المكر بالتي (ص) في دار الندوة حين استقر أمرهم - حسب مشورة أبي جهل - هل أن يبرز من كل قبيلة رجل، ثم يشتركون في قتله فتضيق المطالبة بسنة صلوات الله عليه . وكانت النتيجة أن تطلوا جميعاً يوم بدر .

أَيُّ إِنِّ كَانَ فِي ضَمِيرِكُمْ وَفِي حُكْمِكُمْ وَفِي اعْتِقَادِكُمْ أَنَّ لِلرَّحْمَنِ وَلَهُمَا فَنَّا أَوَّلُ مَنْ
يَسْتَكْفِفُ مِنْ هَذِهِ الْقِتَالَةِ .

قوله جل ذكره : « سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّ
الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

تَزَّهَّ اللَّهُ تَزَهَّاهَا ، وَتَقَدَّسَ تَقَدَّسَاهَا عَمَّا قَالُوهُ . وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَمْتَالِهَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ
حِكَايَةِ قَوْلِ الْمُبْتَدِعَةِ — فِيمَا أَخْطَأُوا فِيهِ مِنْ وَصْفِ الْمُبُودِ — قَصْداً لِرَدِّ عَلَيْهِمْ ، وَإِخْبَاراً
بِقَبِيحِ أَقْوَالِهِمْ ، وَبِطِلَالِ مَزَاجِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : « فَذَرُّهُمْ » يَخْرُضُوا وَيَلْبِسُوا حَقَّ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ .

إِذْ لَيْسَ بِفُوتِ أَمْرِهِمْ ، وَهَمٌّ لَا عَمَلَةٌ سَيَلِقُونَ صَنْعَهُمْ .
وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَبْنِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَفْتَرَّ بِطُولِ السَّلَامَةِ فِيمَا الْمَوَاقِبِ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ .

قوله جل ذكره « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ
إِلَهُهُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .
الْمُبُودُ — فِي السَّمَاءِ — اللَّهُ ، وَالْمَقْصُودُ — فِي مَطْلَبِ الْحَوَائِجِ فِي الْأَرْضِ — اللَّهُ .
أَهْلُ السَّمَاءِ لَا يَجِدُونَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَأَهْلُ الْأَرْضِ لَا يَقْضِي حَوَائِجَهُمْ غَيْرَ اللَّهِ .
« وَهُوَ الْحَكِيمُ » فِي إِمْرَالِهِ لِلنَّصَةِ ، « الْعَلِيمُ » بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ .

« وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَالِيهِ تُرْجَعُونَ » .
ثُمَّ قَالَ وَتَزَّهَّ وَتَكَبَّرَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِقُدْرَتِهِ تَظْهَرُ . لَا هُوَ يَظْهَرُهَا يَتَمَرَّزُ^(١) .

(١) الصُّورَةُ يُسْتَعْمَلُونَ بِأَتَمِّهَا عَلَى مَا خَلَقَ ، لِأَنَّهُ سَاطِعٌ وَشَاهِدٌ ، وَهُوَ عَمِيمٌ قَامَتْ بِهِ الْخَادِعَاتُ ...
يَقُولُ ابْنُ عَمَّارٍ اللَّهُ الْكَثِيرُ : « مَنِ شَيْءٌ حَتَّى تَكُونَ الْأَكْرَانُ شَاهِدَةً عَلَيْكَ ؟ »

قوله جل ذكره : « ولا يملك الذين يدعون من دونه

الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » .

أى شهد - اليوم - بالتوحيد ، فثبت له الحق حق الشفاعة . وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين شفاعتهم تكون غداً مقبولة^(١) .

قوله جل ذكره : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله

فأنى يؤفكون » .

فكيف لا يتبرون ؟ وكيف يتكبرون عن طاعة الله .

« وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون »

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون »

أى يعلم علم الساعة ويعلم^(٢) « قيله يارب »

« فاصفح عنهم ... أى أنهلهم ، وقل لكم منى سلام ... ولكن سوف تعلمون عقوبة

ما تستوجبون .

(١) واضح أن القسرى يصرف الآية إلى المسلمين عامة ويخرج المشركين ، وتذهب بعض التفاسير إلى أن معنى « الذين من دونه » هم عيسى وعزير والملائكة ، فهم لا يملكون الشفاعة .

(٢) حاصم وحزة يجران (قيله) على الإضافة وعنده علم الساعة وعلم قيله يارب ، والسببة على التعصب : ويعلم قيله ...

سورة الدخان

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة من ذكرها نال في الدنيا والمُؤمِنُ بهجته ، ومن مرَّفها بذل في طلبها مُهَجَّتُهُ ،

كلمة إذا استوت على قلبٍ عطَلته من كل شغل ، كلمة إذا واطب على ذكرها عَبدُ أَمَنَّتْهُ من كل هول .

قوله جل ذكره : « حم * والكتاب المبين »

الحاء تشير إلى حقِّه ؛ والميم تشير إلى عبثه . ومناه : بحق وبمحق لمبادئ ، وبكتابي المميز إليهم : إني لا أعذبُ أهل معرفتي برفق (١) .

قوله جل ذكره : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا

مُنذِرِينَ * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »

« في ليلة مباركة » : قيل هي ليلة القدر ، وقيل هي النصف من شعبان وهي ليلة الصلوات (٢) .

أُنزِلَ القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا كل سنة بمقدار ما كان جبريلُ ينزل به على الرسول صلى الله عليه وسلم (٣) .

وسمائها : « ليلة مباركة » لأنها ليلة افتتاح الوصلة . وأشدُّ الليالي بركة ليلة يكون العبدُ

فيها حاضراً بقلبه ، شاهداً لرَبِّه ، يَتَنَعَّمُ فيها بأنوار الوصلة ، ويحد فيها نعيم القربة .

(١) يبدو أن التفسير لم يجر « إنا أنزلناه... » جواباً للقسمة ، ولأن هذا يلزم بطش النحاة الذين يعبرون ذلك صفةً لِمُسْتَسْمٍ به ، ولا تكون صفةً لِمُسْتَسْمٍ به جواباً للقسمة (انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١ ص ١٢٥) .

(٢) من أسماء هذه الليلة : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصلوات .

(٣) أي على مدى ثلاث وعشرين سنة .

وأحوال هذه الطائفة (١) في لياهم مختلفة ، كما قالوا :

لا أَظِلُّمُ اللَّيْلَ ولا أَدْعِي أَنَّ بِحَوْمِ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَزُولُ
تَحِلِّي كما شامت : قَصِيرٌ إِنَّا جَادَتْ ، وَإِنْ صَفَتْ فَلْتَحِلِّي طَوِيلُ
« فيها يفرق كل أمر حكيم » يكتب من أم الكتاب في هذه الليلة ما يحصل في السنة كلها
من أقسام الحوادث في الخير والشر ، في الحن والين ، في النصر والهزيمة ، في الخصب والقحط .
ولهؤلاء القوم (يعني الصوفية) أحوال من الخصب والجذب ، والرسل والفصل ، والوفاء
والخلاف ، والتوفيق والخذلان ، والقبض والبسط . . فكم من عبد ينزل له الحكم والقضاء
بالعبد والشفاء ، وآخر ينزل حكمه بالرفد والوفاء .

قوله جل ذكره : « أمراً من عندنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ »
رحمة من ربك إنه هو السميع العليم .
« رحمة من ربك » : وهي الرسول — صلى الله عليه وسلم ، قال صلوات الله عليه :
« أنا رحمة مهداة »

ويقال : « إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ » رحمة لنفوس أوليائنا بالتوفيق ، ولقلوبهم بالتصديق .
« إنه هو السميع العليم » : « السميع » لأنين المشتقين ، « العليم » مجنين المجبين .
قوله جل ذكره : « رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما
إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ »

مالك السموات والأرضين ، ومالك ما بينهما — وتدخل في ذلك أكساب العباد .
وَتَمْلِكُهَا بمعنى القدرة عليها ، وَإِذَا حَصَلَ مقدور في الوجود دَلَّ على أنه مفعول ؛ لأن معنى
القول مقدور وجيد (٢) .

(١) يقصد طائفة الصوفية .

(٢) لاحظ كيف يحاول التشبیه أن يدخل في « وما بينهما » أفعال العباد ، فتسبب أكساب العباد — في نظر هذا المتكلم داخلة — من حيث هي مقدورة — في نطاق الخلق المنسوب إلى الله .

قوله جل ذكره « لا إله إلا هو يحيى ويميتُ ويحكمُ وربُّ
آبَاتِكُمُ الأولين »

هذه الكلمة فيها نفيٌ ما أُنبتوه بهلهم ، وإثباتٌ ما غَوَّهَ بهلهم .
« ربكم ورب آباءكم الأولين » : مُرَبِّي^(١) أَصْلَكُمْ وَنَسْلَكُمْ .

قوله جل ذكره : « بل هم في شكٍّ يلبون »

اللَّيْبُ فَعْلٌ يَجْرَى عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ تَشْبِهُاً بِاللَّعَابِ الَّتِي يَسِيلُ لَا (٢) عَلَى نِظَامٍ مَخْصُوصٍ ؛
فَوَصَفَ النَّافِقَ بِاللَّيْبِ ؛ وَذَلِكَ لِرُدُّدِهِ وَتَحْوِيلِهِ نَتِيجَةَ شَكِّهِ فِي عَقِيدَتِهِ .

قوله جل ذكره : « فارتبَّ يومَ تَأْتِي السَّمَاءُ
بُدُخَانٍ مَبِينٍ » .

هنا من أشراف الساعة ؛ إذ يقدم عليها (٣) .

وقيامة هؤلاء (يقصد الصوفية) معجزة (أى تم هنا في هذه الدنيا) فيومهم الذى تأتى
السما في بدخان مبین هو يوم غيبة الأجباب ، وانسداد ما كان مفتوحاً من الأبواب ، أبواب
الأنس بالأجباب وفى معناه قالوا :

فما جانبُ الدنيا بسهلٍ ولا الضحى بظائقٍ ولا ماءُ الحياة يباردٍ

قوله جل ذكره : « يَفْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

(١) لاحظ كيف يربط القشيري بين « القرية » و « الرب » .

(٢) سقطت (لا) من ص . . . وهى ضرورية كما هو واضح من السياق ، وهى موجودة في م ، ولا تحقق
حل القاريه روعة الرب بين « الب » و « العباب » ، ومدى السفرية من دماغ المناق وقد ماثلت فما تتحرك فيه
لشكوك " تحرك " العباب .

(٣) هناك اتجاهاً في معنى « البدان » في هذه الآية : أحدها أنه - كما يذكر القشيري أنه من أشراف الساعة ،
خروج النمل من حديقته أنه سأل الزن (من) : « يا بنى الله ، ما البدان في هذه الآية ؟ فقال : هو بدان يملأ ما بين
الشرق والغرب يحكك أربعين ليلة ويوماً ، فأما المؤمن فيصيبه من شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة
السكران يخرج البدان من فمه ومنفخه وعينه وأذنيه ودهره » ، وأما الاتجاه الثاني فهو ما أساب قريشاً من البؤس
بدعاء الذى عليهم ، وقد كشفه الله عنهم . ويؤيد ابن مسعود هذا القول الثاني بهذا الكشف ، لأنه لو كان قبل
يوم القيامة ما كشفه الله عن الناس .

وعذاب هؤلاء (يقصد الصوفية) متيم في الثالب ، وهو عذاب مُستَعَذَّب ، أولئك يقولون :

« رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْمَذَابَ إِنَّمَاؤُمِنُونَ »

وهؤلاء يستزيدون — على العكس من اَنَلَقَ — المَذَابَ ، وفي ذلك يقول قائلهم :

فَكُلُّ مَا رَى قَدْ نَلْتُ مِنْهَا سِوَى مَقْوُودٍ وَجَدَى بِالْمَذَابِ (١)

فهم يسألون البلاءَ وَأَنَلَقُ يَتَكَشَّفُونَهُ ، ويقولون :

أَنْتَ الْبَلَاءُ فَكَيْفَ أَرْجُو كَشْفَهُ

إِنْ الْبَلَاءُ إِذَا قَدَّزْتُ بَلَاءِي

قوله جل ذكره : « أَتَى لِمَ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُم

رَسُولٌ مَّيِّينٌ »

إِنْ خَالَقُوا دَوَاعِيَ قُلُوبِهِمْ مِنْ الْخَوَاطِرِ (٢) الَّتِي تَرْدُ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْهِمْ عَوِقُوبًا — فِي الْوَقْتِ بِمَا لَا يَتَّعَسُّ لَمْ يُسَمِّعْهُمْ ، فَأَذا أَخَذُوا فِي الْإِسْتِغْنَاءِ (٣) يُقَالُ لِمَ : أَتَى لَكُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ (٤) عَلَى قُلُوبِكُمْ تَخَالُفٌ ؟ !

قوله جل ذكره : « إِنَّا كَاشَفُو الْمَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ

عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَاطِلَةَ الْكَاهِنِينَ

إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » .

(١) البيت قلاج مسروق بهذا البيت :

أَرَيْدُكَ ، لَا أَرَيْدُكَ الْفَوَابِ وَلَكِنِّي أَرَيْدُكَ الْمَقَابِ

(ديوان الخلاج المقطعة السابقة)

(٢) الخواطر من الحق ، والخواجس والوساوس من الشيطان .

(٣) حكماً في م وهي في ص (الاستغناء) وكلامها مقبول في السياق .

(٤) الرسول هنا — لأن الحديث هنا من الصوفية — مقصود به ما يردُّ عَلَى تَلَوِّجِمْ مِنْ لَدُنْ الْحَقِّ مِنْ الْكُشُوفَاتِ وَالْمُرَاصَلَاتِ

حيث نود منكم حزنا طويلا ، ولا تجدون في ظلال انتقامنا مقبلا .

قوله جل ذكره : ولقد قَتَلْنَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَِّّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ .

فَتَنَّهُمْ (١) بِدَمَا أَصْرُوا عَلَىٰ جُحُودِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ طَرِيقِ الرَّشَدِ مِنْ غَرَّةِ عُنُودِهِمْ (٢) « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » : يَطَالِبُهُمْ بِإِزَالَةِ الظُّلْمِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنْ يَتَبَصَّرُوا ، وَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ ، وَأَنْظِرَ الْحُجَّةَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ .

« فَأَنشَرِ بِبَدَايِ لَيْلَا إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ » .

أَمَرَهُ بِأَنْ يَسْتَرِيَ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَرَفَهُمْ أَنَّهُمْ سَيُتَّقَدُونَ ، وَأَنْ عُدُوَّهُمْ « جُنْدٌ مُعَرَّفُونَ »

قوله جل ذكره : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرَ كَرِيمٍ * وَهُمْ فِيهَا فَكِهِينَ » .

مَا خَلَقُوهُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمِنْ رِيشَتِهِمْ ، وَمَا تَرَكُوهُ مِنْ أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ اسْتَلْبَنَهُ عَنْهُمْ .

« كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ » .

وَأَسْكَنْتُمَا قَوْمًا آخَرِينَ فِي مَنَازِلِهِمْ وَدُورِهِمْ .

قوله جل ذكره . « فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ » .

لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْقَدَرِ وَالْخَطَرِ مَا يَصْرُكُ فِي الْعَالَمِ بِسَيِّئِهِمْ سَاكِنٌ ، أَوْ يَسْكُنُ مُتَحَرِّكٌ

(١) مَكْدَا فِي مَرْحَى حَقِيْقَةٍ فِي السَّابِقِ إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « وَلَقَدْ قَتَلْنَا . . . أَمَا فِي مَرْحَى نَفْسِهِمْ » وَوَالْحَقُّ فِيهَا خَصًّا لِلنَّاسِ .

(٢) نَفَرَ الْجَلَّةُ : وَدَرَمَ وَتَجَانَى عَنْ الْعَمَلِ ، وَنَفَرَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا : أَعْرَضَتْ وَصَدَّتْ ، وَنَفَرَ مِنَ الشَّيْءِ : فَرَّجَ مِنْهُ وَانْقَبَضَ مِنْهُ وَانْشَدَّ .

ولا الخضره بسببهم اغبرت ، ولا الغبراء لغيبتهم اخضرت . لم يبقَ منهم عينٌ ولا أثرٌ ، ولم يظهر مِنُ فَيْلَهم على قلبٍ أحدٍ من عبادنا أثرٌ . وكيف تبكي السماءُ لفقْدٍ من لم تستبشر به مِنُ قَبْلُ ؟ بعكس المؤمن الذي نُسِرَ السماء بصمودِ عله إليها ، فلها تبكي عند غيابه وفقْدِه ^(١) .

قوله جل ذكره : ولقد نجّينا بني إسرائيلَ من العذابِ

للّهين • من فرعون إنّه كان عاليًا

من اللّسرفين • ولقد اخترناهم على عِلْمٍ

على العالمين » .

نَجَّاهُمْ ، وَأَفَى عَدُوَّهُمْ ، وَأَهْلَكَ .

« ولقد اخترناهم . . . » أى عَلِمْنَا ما يحْتَبِونَ من أوزارهم ^(٢) ، فرقنا — باختيارنا — من أَفْئادِهِم ما وَصَّاهُ فَيْلَهُمْ وتَدَنَّهُمْ بأَوْضارِهِم .

ويقال : « على علم منا » بأحوالهم أنهم يُؤْتِرُونَ أمرنا على كل شيء .

ويقال : « على علم منا » بحجة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا .

ويقال : « على علم منا » بما نودع عندهم من أسرارنا ، وما نكشفهم به من حقائق حقنا .

قوله جل ذكره : « وآتيناهم من الآياتِ ما فيه

بلاءٌ مبين »

من مطالبة بالشكر عند الرخاء ، والصبر عند الكدِّ والمناة ^(٣) .

قوله جل ذكره : إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُنَّ • إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا

(١) عز شريح الخضرى : قال اللّبي (س) : « ألا لا غربة على مؤمن ، فإمات مؤمن في غربة غالباً معه براكيه إلا بكت عليه السماء والأرض » .

(٢) في ص (إنلارم) والسيق يرفنها ، والصواب ما في م .

(٣) لأن البلاء يكون بالنسبة والظنة ، قال تعالى : « ولبلوكم بالشر والخير فتنة » .

الأولى وما نحن بِعُثْرَيْن • فأتوا

بِأَيُّهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ •

اقترح أبو جهل على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يحییَ لم نفساً^(١) :

« لتخبرنا : هل أنت صادق أم لا ؟ » فأخبر الله - سبحانه - أنهم اقترحوا هذا بعد قيام الحجة عليهم، وإظهار ما أزعج لهم من المذر : ثم قال جلّ ذكره :

أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

أَهْلَكْنَاهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ • وما خلقنا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ •

« تُبْعِ » هو ملك للين ، وكان مسلماً ، وكان في قومه كثرة ، وأهلك الله سبحانه قومه على كثرة عددهم ، وكال قوتهم .

قوله جل ذكره : « وما خلقنا السموات والأرض . »

ما خلقناها إلا بالحق ، بالحكم الحق ؛ وبالأمر الحق ... « فأتا محیی في خلقهما » : أي كان لي خلقهما .

قوله جل ذكره : « إِن يَوْمَ الْفُتُلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ • يَوْمَ

لَا يُفْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ • إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ لَهُ هُوَ

الْمَرْزُوقُ الرَّحِيمُ •

(١) حدّد أبو جهل ذلك حين قال النبي : إنيث لنا - إن كنت صادقاً - وجلا مثل نفسي بن كلاب لنسأله عما يكون بعد الموت .

وهذا القول من أبي جهل فيه ضعف ؛ لأن اليث يكون الجزاء لا التكليف .

يَوْمَئِذٍ لَا يُقْنِي نَصْرٌ عَنْ نَاصِرٍ وَلَا جَيْمٌ عَنْ جَيْمٍ ، وَلَا نَسِيبٌ عَنْ نَسِيبٍ .. شَيْئًا .
وَلَا يَنْلِمْ نَصْرٌ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ ؛ وَبِفَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ • طَلَامُ الْأَنْثَمِ »

• كَالْمُهْل يَتَلَّى فِي الْبَطُونِ • كَتَلُ الْحَيْمِ • .

« الْأَنْثَمِ » مَرْتَكِبُ الذُّنُوبِ . « الْمُهْل » : التَّحْلُسُ الْمَذَابِ . « الْحَيْمِ » : الْمَاءُ الْحَارِ .

قوله جل ذكره : « خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ »

• ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَيْمِ • .

ادفروا به إلى وسط الحيم . ويقال له :

« دُفِقَ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » :

أنت كذلك عند قومك ، ولكنك عندنا ذليل مهين .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ • فِي

جَنَّاتٍ وَعِوِينَ » .

آمِنِينَ مِنَ الْخَلْجِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ، لِأَسْهُمٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَفَرَّاشُهُمْ مِنْ سُدُسٍ وَاسْتَبْرَقٍ ،
« مُقَابِلِينَ » : لَا يَبْرَحُونَ وَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا حَوْلًا .

قوله جل ذكره : « كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ » .

‘نَبَاحٌ لَمْ تُصَحِّبْتُهُنْ ، وَلَا يَكُونُ فِي الْجَنَّةِ عَقْدُ تَزْوِجٍ وَلَا طَلَاقٍ ، وَيَمْكُنُ الْوَلِيُّ بِهِذِهِ
الْأَوْصَافَ مِنْ هَذِهِ الْأَطْلَافِ . ثُمَّ قَدْ يُخْتَصَفُ قَوْمٌ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، فَيُتَحَرَّرُونَ مِنْ هَذِهِ
الْجَلَّةِ ؛ فَكَأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا يُخْتَلَفُونَ عَنْ كُلِّ الْمَلَائِقِ فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ طَلْعُ الْحُورِ الْعِينِ
فِي صَحْبَتِهِمْ فَيَسْتَلْبِهُمُ الْحَقُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ » (١) .

(١) الصَّوْنِيَّةُ الْعَلِيَّةُ يَمْدَحُونَ اللَّهَ لَا سَلْبًا فِي جَنَّةٍ وَلَا غَوْفًا مِنْ عَذَابٍ ، فَرُؤْيَاُ اللَّهِ جَنَّتِهِمْ ، وَاحْتِجَابُهُ عَنْهُمْ
بِهَيْبَتِهِمُ الْكِبَرَى . وَبِمِثْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَمْدَحُونَ اللَّهَ لَا ذِكْرًا ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ :

إِنْ ذَا الْحُبِّ لَمْ يَفْنِ لَهُ لَا لِقَاءُ ذَاتِ لُحْمٍ وَطَرَفٍ
لَا وَلَا الْقَرْدُوسُ - لَا يَأْتِيهَا لَا وَلَا الْهَوَاءُ مِنْ فَوْقِ غَرْفٍ

الزاهد في الدنيا يحبه منها ، والعارف في الجنة يحبه من الجنة .

قوله جل ذكره : « لا يفوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى

ووقتهم عذاب الجحيم » .

الموتة الأولى هي قبض أرواحهم في الدنيا ، وقيمهم الله في الآخرة العذاب بفضل ، وذلك

هو الظفر بالبنية ، ونيل السؤل .

قوله جل ذكره : « فإنما يسرناه بلسانك . . » .

إعبد ، ليتذكر به أهلك ، فارقيب السواقب تر العجايب . إنهم يرتقبون ، ولكن لا يرون

إلا ما يكرهون .

سورة الجاثية

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » باسم مَلِكٍ لا يستظهر ببيته ، أحدٍ لا يبتسك ببيته ^(١) ، جبار ارتدى بكبريائه ، قهار انصف بمرئياته .

« بسم الله » باسم كريمٍ صَدَدٍ لا يبتفرق وجوده أمد ، أبدى عظيمٍ أحد ، لا يوجد من دونه مفر ولا ملتحذ .

قوله جل ذكره : « حم * نزل الكتاب من الله »

العزيز الحكيم .

« العزيز » : في جلاله ، « الحكيم » : في أفضاله .

« العزيز » : في آزاله ، « الحكيم » : في لطفه بالبعد بوصف إقباله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

لِلْمُؤْمِنِينَ » .

شواهد الربوبية لأئمة ، وأدلة الإلهية واضحة ؛ فمن صحاب من سَكَّرَ الفلة ، ووضع مِرَّه في محالِّ العِبرة ^(٢) حَطَى — لا محالة — بمقائق الرصلة .

قوله جل ذكره : « وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ

آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » .

(١) حكلا في ص ، وفي م . . ولر صبح أنها حكلا من التشعيرى فرما كان قصده أن الله سبحانه — حتى بدون عوامل استمساك تثبت هذه الحياة .. فهو حتى لا يسبب أو عارض لأنه لا يلتفت إلى ذلك ، أما الحدث فإنه يصعد في حياته حل ما يحفظ حياته ، وتزول هذه الحياة بزوال عوامل هذا الخلق .

(٢) حكلا في م وفي ن (هذه) ونحن تؤثر الأول للامعة الاصحاح لسباق التطور في المخلوقات .

إنما أنعم العبدُ نظرَه في استواء قدَّه وقامته ، واستكمال عقله وتمام تمييزه ، وما هو مخصوص به في جوارحه وحوائجه ، ثم فكَّرَ فيما عنده من الدواب ؛ في أجزائها وأعضائها . . ثم وقف على اختصاص وامتنانه بنى آدم من بين البرية من الحيوانات في الفهم والمثل والتمييز والعلم ، ثم في الإيمان والرفان ووجوه خصائص أهل الصفة من هذه الطاقة في فنون الإحسان — عرَّفَ تخصُّصهم بمناقبهم ، وانفرادهم بفضائلهم ، فاسقين أن الله كرمهم ، وعلى كثير من المخلوقات قدَّمهم .

قوله جل ذكره : « واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون » .

جَمَلَ اللهُ العلومَ الدينيةَ كسبيةً مُصَحَّحةً بالآلائِ ، مُحَقَّقةً بالشواهد . فَنَ لَمْ يَسْتَبْصِرْ بها زَلَّتْ قَدَمُهُ مِنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ (١) ، ووقع في عذاب الجحيم ؛ فالיום في ظلمة الخيرة والتقليد ، وفي الآخرة في التخليد في الوعيد .

قوله جل ذكره : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » فَنَ لا يؤمن بها فبأى حديث يؤمن ؟ ومن أى أصل يستمد بده ؟ ومن أى بحر في التصديق ينترف ؟ هيملت أ ما بقى للإشكال في هذا مجال .

قوله جل ذكره : « ولعلَّ لَكَ أُنْأَمُكُمْ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

(١) في هذا ردٌّ على من يزعمون أن الصوفية يتنكرون للعلوم الكسبية ؛ فهي كما هو واضح ذات أهمية عصرية في تثبيت الإيمان . هذا في الوقت الذي يقر الكثيرون بالعلوم الروحية كما يتضح من المانش رقم (٢) في الصفحة التالية .

كلٌ صامتٍ فاطق؛ يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم^(١) .
فَمَنْ اسْتَمَعَ بِسَمْعِ الْفَهْمِ ، وَاسْتَبْصَرَ بِنُورِ التَّوْحِيدِ فَازَ بِذَخْرِ الْبَارِئِ ، وَتَصَدَّى لِمِرْ
الْمُتَزَلِّينَ . وَمَنْ تَعَامَلْ بِحُكْمِ التَّفَلُّعِ وَقَعَ فِي وَهْدَةِ الْجَهْلِ ، وَوَسِمَ بِكَيِّ الْهَجَرِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا
هُزُوءًا أُولَئِكَ لَمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » .

قابه بالناد ، وتأولوه على ما يقع له من وجوه الراد من دون تصحيحٍ يستند ...
فهؤلاء « لم عذاب مهين » : مُذِلٌّ .

وقد يَكْشَفُ البِدُّ من يواطن القلب بتمريفاتٍ لا يتداخله فيها ريبٌ ، ولا يتخالجه منها
شكٌّ فيا هو به من حاله ... فلذا استهان بها وقع في ذُلِّ الحجة وهوانِ الفرة^(٢) .

قوله جل ذكره : « مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ
مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

فند هذه الفرة ، وفي وقت هذه الحنة فلا عذرٌ يُقْبَلُ منهم ، ولا خطابٌ يُسْمَعُ منهم ،
ولم عذابٌ متصل ، ولا يُرَدُّونَ إلى ما كانوا عليه من الكشف :

فَخَلَّ سَبِيلَ الْيَمِينِ بِبُكَاءِكَ لَيْسَ لِأَيَّامِ الصَّفَاءِ رَجُوعٌ

قوله جل ذكره : « اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ
الْفُلُوكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتُتَبَتَّلُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

عندما يركبون البحر فلربما تَسَلَّمُ السفينةُ ولربما تفرق .

(١) يشير القشيري بذلك إلى أن كل شيء ناطق بالوحانية .. إما نطق قالة - كما في حال الإنسان ، وإما نطق
دلالة - كما في حال الجمادات .

(٢) يشير القشيري بذلك إلى العلوم الروحية ، وضرورة اعتبارها رافداً هاماً من ووافد الإيمان الكشفي والترحبي
الشهودي .

وكذلك البعد في تلك الأعصام في بحار التقدير ، تمشي به رياح العناية ، وأشرعة التوكل مرفوعة ، والشبيل في بحر اليقين واضحة . وطالما تهب رياح السلامة فالغنية ناليتها . أما إن هبت نكبات الفتنة فستندثر لا يبقى يد للأح شيء ، والتقدير غالباً ، وسرعان ما تبلغ قلوب أهل السفينة الحنجر .

قوله جل ذكره : « وسفر لكم ما في السموات وما في الأرض جيهاً من إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

« جيهاً منه » : كل ما خلق من وجوه الانتفاع بها — كله منه سبحانه ؛ فإما من شيء من الأعيان الظاهرة إلا — ومن وجه — للانسان به انتفاع . وكلها منه سبحانه ؛ فالسماوات لم يناء ، والأرض لم يهاد . إلى غير ذلك . ومن الغين أن يستخرتك ما هو مسخر لك (١) ولتأمل البعد كل شيء . كيف إن كان خلل في شيء منها ماذا يمكن أن يكون ؟ قولوا الشمس . . كيف كان يمكن أن يتصرف في النهار ؟ (٢) ولو لم يكن الليل كيف كان يمكن بالليل ؟ ولو لم يكن القمر . كيف كان يهتدي إلى الحساب والأجبال . . . إلى غير ذلك من جميع المخلوقات .

قوله جل ذكره : « قل للذين آمنوا يتقوا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون » (٣) .

ندبهم إلى حسن الخلق ، وجعل المشرة ، والتجاوز عن الجهل ، والتقى من كدورات البشرية . ومقتضيات الشج .

(١) هذا الكلام يصرف إلى الدنيا بأنفسنا . فلا ينبغي أن يستترك ما هو جليل .

(٢) مجاً من معناه .

(٣) يقال إن الآية نزلت بسبب أن رجلاً من قريش شتم حمرين الخطيب فهم أن يبطش به . ويقال نزلت في عمر حين أراد أن يبطش بسلام عبد الله بن أبي جهن فذهب ليستق فنهض حتى ملئت قرب النبي وقرب أبي بكر ، فلما بلغ ذلك عبد الله قال : ما فعلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سنكليك يا كلك ، فلما بلغ حمر ذلك اشتعل سيفه وأراد التوجه لقتله ، فأقول الله هذه الآية .

وَيَبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ — سبحانه — لا يفوته أحدٌ . فَمَنْ ارَادَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يَحْفَظُ أَوْلِيَاءَهُ ،
وَكَيْفَ يُدَمِّرُ أَعْدَاءَهُ . فَتُصَيِّرُ أَيْمَانًا قَلِيلًا لِيَعْلَمَ كَيْفَ صَارَتْ عَوَاقِبُهُمْ .

قوله جل ذكره : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَلِيهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ »

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ مَثْوَاهُ ، وَمَنْ ارْتَكَبَ سَيِّئَةً فَلَهُ بُلُوَاهُ . . . ثُمَّ مَرْجَعُهُ إِلَىٰ مَوْلَاهُ .
قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ » .

كَرَّرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ذِكْرَ مُوسَىٰ وَذِكْرَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ . . . بَعْضُهُ عَلَى الْجُمْلَةِ وَبَعْضُهُ
عَلَى التَّفْصِيلِ . وَهَذَا أَجْمَلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ عَقِبَهُ حَدِيثُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :

« ثُمَّ جِئْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ
فَاتَّبِعُوهَا وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ »
أَفْرَدْنَاكَ بِطَلَائِفِ فَاغْرِهَا ، وَسَخَّنَا لَكَ طَرَائِقَ فَاسْكُكْهَا ، وَأَهْمَمْنَا لَكَ حَقَائِقَ فَلَا تَتَجَاوَزْهَا ،
وَلَا تَجْنَحْ إِلَىٰ مُتَابَعَةِ غَيْرِكَ :

« إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .. »
إِنْ أَرَادَ بِكَ نَسْمَةً فَلَا يَمْنَعُهَا أَحَدٌ ، وَإِنْ أَرَادَ بِكَ فِتْنَةً فَلَا يَصْرِفُهَا عَنْكَ أَحَدٌ .
فَلَا تُسَلِّقْ بِمَخْلُوقٍ فَكُفْرَكَ ، وَلَا تَتَوَجَّهْ بِضَمِيرِكَ إِلَىٰ شَيْءٍ ، وَتَتَوَكَّلْ بِرَبِّكَ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : « هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ
يَرْقُون » .

أَنْوَارُ الْمَصِيرَةِ إِذَا تَلَاكَاتِ انْكَشَفَتْ دُونَهَا بَهْمَةُ التَّجْوِيزِ .
وَنَظَرُ النَّاسِ عَلَىٰ مَرَاتِبٍ ^(١) : فَمِنْ نَازِلٍ بِنُورِ نَجْوَاهُ ^(٢) — وَهُوَ صَاحِبُ عَقْلِ ،

(١) حِكْمَةٌ فِي مَوْحِيٍّ مِنْ (مَرَاكِبٍ) يُكَاثِفُ وَهُوَ غُلَامٌ مِنَ النَّاسِ

(٢) « . . . » (وَمَاهِرٌ) وَهُوَ غُلَامٌ مِنَ النَّاسِ .

ومن ناظر بنور فراسته وهو صاحب ظنٍّ يُقَوِّيه لَوْحٌ — ولكنه من وراء السُّرِّ^(١) ،
ومن ناظر ييقن علمه بحكم برهانٍ وشرطٍ فِكْرٍ ، ومن ناظر بين إيمان بوصف اتباع ،
ومن ناظر بنور بصيرة هو على نهله ، وثمَّة طالعة وسماؤه من السحاب^(٢) مصحية^(٣) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ

أَنْ نَجْزِيَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَوَاءٌ عِندَ اللَّهِ بِعَمَلِهِمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ » .

أَمِنْ خَفَضَانِهِ فِي حَضِيضِ الصَّمَةِ كَمَنْ رَفَعَهُ إِلَى أَعَالَى التَّمَتَّةِ ؟

أَمِنْ أَخْذَاتِ يَدِهِ وَرَحْمَتِهِ كَمَنْ حَاسَهُ الْخُذْلَانُ فَرَجَانَهُ ؟

أَمِنْ وَهْبَانِهِ بَسْطَ وَقْتٍ وَأَنْسَ حَالٍ وَرَوَّحَ لُطْفٍ حَتَّى خَصَمْنَاهُ وَرَقَبْنَاهُ ، ثُمَّ قَرَّبْنَاهُ
وَأَذْنَيْنَاهُ كَمَنْ تَرَكَّ جَهَنَّمَ وَاسْتَفْرَغَ وَسَمِعَ وَاسْبَالَ دَمْعَهُ وَاحْتَرَقَ قَلْبَهُ ... فَا انْمَشَاهُ ؟

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ

اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَسَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ

عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ... » .

مَنْ لَمْ يَسْلُكْ سَبِيلَ الْإِتِّبَاعِ ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ أَحْكَامَ الرِّيَاضَةِ ، وَلَمْ يَسْلُخْ عَنْ هَوَاهُ
بِالْكَلْبِيَّةِ ، وَلَمْ يُوَدِّدْهُ إِمَامٌ مُتَّقِيٌّ فَهُوَ يَنْجَرِفُ فِي كُلِّ وَهْدَةٍ ، وَيَهْمُ فِي كُلِّ ضَلَالَةٍ ، وَيَضِلُّ
فِي كُلِّ فِتْنَةٍ ، خَسْرَانُهُ أَكْثَرُ مِنْ رَنْجِهِ ۱۱ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ؛ يَسْلُوْنَ الْقُرْبَ عَلَى مَا يَجْعَلُهُمْ
نَاشِطِينَ هَوَسَهُمْ^(٤) ، زِمَامُهُمْ يَدُ هَوَاهُمْ ، أُولَئِكَ أَهْلُ^(٥) الْكُرْ .. اسْتَدْرَجُوا وَمَا يَشْعُرُونَ ۱ .

(١) الفراسة ما يخلق الله في قلب العبد من خير كسب به ، وهي من ثمرات الإيمان الكامل ، وما يسميه
القدسي هنا (لوساً) يسميه في موضع آخر (سواطع) أنوار تلعب في القلب تذكر بها الماني (الرسالة ص ١١٦) .
ولمعرفة الفرق بين الولوج والراسع أنظر الرسالة ص ٤٢ . ويعرف الجنيذ الفراسة فيقول : هي صاندة الإصابة ،
ثم يذكر أنها موجهة كالفة مائمة (الصرف للكلابنخي ص ١٥٧) .

(٢) حكنا في م وهي في ص (الصحاب) بالصاد وواضح في ذلك خطأ للتأنيص .

(٣) هذه الدرجة الأخيرة — كما هو واضح — أصل درجات النظر تلوها من الآفات .

(٤) لأن النفس محل المعلومات ، فسلهم مرتبة ينشغلهم وأحوالهم .

(٥) حكنا في (ص) وهي في م (أصل) وهي خطأ من التأنيص لأنهم «أصل» المكررة إلى قوله تعالى :

«وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» .

قوله جل ذكره : « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم

بَذَلِكُمْ مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُونَ . »

لم يتصبروا بما وجدوا عليه خَلَقَهُمْ وسَلَفَهُمْ ، وأزجوا في البهيمية عَيْشَهُمْ وعُمُرَهُمْ ، وأعفوا

عن كُدِّ التَّفَكُّرِ قُلُوبِهِمْ ... فلا يَلم استبصروا ، ولا من التَّصَقُّقِ استبدوا . رأسُ مآلِهِم

الظُّنُّ — وهم ظَنُّونَ .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْنَاتٍ

مَا كَانُوا يَحْتَسِبُونَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا نَأْتِيهِمْ بَأْيَاتِنَا

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . »

طلبوا لإحياء موتاهم ، وسوف يَرَوْنَ ما استبصروا .

ثم أخبر أن مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لله ، وإنا أقام القيامةَ يُخَشِّرُ أصحابُ البطلان ،

فإذا جامع يومُ النِّصَامِ :

« وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى

إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . »

كلُّ بحسبه^(١) مطالبٌ ... فأما الذين آمنوا فآزوا وسادوا ، وأما الذين كفروا

فهلِكوا وبادوا^(٢) .. وقال لهم : أَأَنْتُمْ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَكُمْ حَدِيثٌ غُيِّبَ كَمْ كَذَّبْتُمْ مَوْلَاهُمْ ؟

فاليوم — كما نَحْمِلُونَا — نَسْأَلُكُمْ ، والنَّارُ مَاوَاهُمْ .

قوله جل ذكره : « فَهَلْ لِحُجْدِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ

رَبُّ الْمَالِينَ * وَهَلْ لِكَبِيرَاءِ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

هل الحمدُ على ما يُبْدَى وَيُفْشَى ، ويَحْيَى وَيُفْنَى ، ويَجْرِي وَيُمْسَى .. إذ الحُكْمُ لله .

والكَبِيرَاءُ لله ، والسَّلْطَةُ وَالسَّنَاءُ لله ، والرِّفْعَةُ وَالْبَهَاءُ لله .

(١) هذا أيضاً رأى يحيى بن سلام ، وقيل « كتاباهم السُّرُكُ » عليها لينظر مل سلوا بما فيه . وقيل : الكتاب
من هو الفرج المفوظ .

(٢) مكدلا في م ، وهي في ص (وناموا) وهي غطا من التلخس .

سورة الاحقاف

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة للقلوب سالبة ، للمقول غالبية ، للمطيعين واهبة ، للعارفين ناهية . . هاتين يهيم ظلم لطفه ، والذين يهيمهم قمن مصغه فهو عنه خلفه (١) .

قوله جل ذكره : « حم » تنزيل الكتاب من الله

العزيز الحكيم .

سميت قلوب أهل عنايتي فصرفت عنها خواطر التجوز ، وتبعتها في مشاهد اليقين بنور التحقيق ؛ فلات فيها شواهد البرهان ؛ فأضفت إليها لطائف الإحسان ؛ فكملت مثلاً من عين الوصلة ، وغذيتهم بنسيم الأنس في ساحل القربة .

« العزيز » : المعز للمؤمنين بإزالة الكتاب عليهم .

« الحكيم » ، الشحك لكتابه عن التهديل والتحويل .

قوله جل ذكره : « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما

إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا

عما أنذرنا معرضون » .

الكافرون معرضون عن موضع الإنذار ، مقيمون على حد الإصرار

(١) وفي ذلك يقول شاعرهم :

أنت ل خلقت ؟ كفى عرقاً . لما وراك ل قصه ولا أمل

ويقول أبو حمزة موصفاً كيف أن هذا الميت في مهبل محبوه حين الحياة :

ونحي عجباً أنت في الحب حظه . وإذا حجب .. كود الحياة مع الخلف ا

(اللع لمرآج ص ٢٢٥) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَقْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ
قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَاثَةٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

أروني .. أي أثر فيهم في اللك ، أو القدرة على النفع والضر ؟ إن كانت لكم حُجَّةٌ
فأُظهِرُوهَا ، أو دَلَالَةٌ تَبَيَّنُوهَا .. وإذ قد عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ فهُلَّا رَجَعْتُمْ عَنْ غَيْبِكُمْ وَأَقْلَمْتُمْ ؟
قوله جل ذكره : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ
مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيَاةِ وَهُمْ عَنْ
دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ » .

مَنْ أَضَلُّ ضَلَالًا يَمُنُّ عَبْدَ الْجِنِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَيَاةٌ وَلَا لَهْ فِي النِّفَعِ أَوْ الضَّرِّ إِبْتَاتٌ ؟
قوله جل ذكره . « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ
وَكَانُوا بِبَيَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » .
إِذَا حُشِرَ النَّاسُ لِلْحَسَابِ وَقَعَتِ الْمُلَاوَةُ بَيْنَ الْأَصْنَامِ وَعَابِدِيهَا .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا مُتَلَّى عَلَيْهِمْ آلَاءُنَا يَتَّبِعُونَ قَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ » .

رموا دُسْنًا بِالسُّحْرِ بِالْاِقْتِرَاءِ وَاللَّكْرِ .. قُلْ — يا محمد — كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
شَهِيدًا ؛ أَتُمْ أَثَرَكُمْ بِهِ ، وَأَنَا أَخْلَصْتُ لَهُ تَوْحِيدًا . وما كنتُ بدعاً من الرسل ؛ فَلَستُ بِأَوَّلَ
رَسُولٍ أُرْسِلَ ، وَلَا بَشِيرٍ مَاجِئًا بِهِ مِنْ أَصُولِ التَّوْحِيدِ جِئْتُ ، إِنَّمَا أَمَرْتُكُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِي
التَّوْحِيدِ ، وَالصِّدْقِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَالْعَمَلِ إِلَى عِمَاسِ الْأَخْلَاقِ .

قوله جل ذكره : « وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ

أَتَبِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

وهنا قبل أن نزل قوله تعالى : « لِنَفِّرَنَّ لَكَ اللَّهُ مَا تَهْدِمُ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تُبْنِي » (١) .

وفي الآية دليل على نفاذ قول أهل التَّذَرُّعِ والبدع حيث قالوا : « إِبْلَامُ الْهَرِيِّ قَبِيحٌ فِي الْمَقَلِّ » . لأنه لو لم يُجَزَّ ذلك لكان قول : أَعْلَمُ — خَطَأً — أي رسول الله ، وأنى مصوم .. فلا محالة ينفري ، ولكنه قال : وما أدرى ما يُفْعَلُ بي ولا بكم ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُهُ ، وَالْحَكْمَ حُكْمُهُ ، وَلَهُ أَنْ يَفْعَلَ بِعِبَادِهِ مَا يَرِيدُ (٢) .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ (٣) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ قَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاطِلِينَ » .

تبيّن له أنه لا عُذْرَ لِمَ يَعْجَلُ ، وَلَا أَمَانَ لِمَنْ مِنْ عَقُوبَةِ اللَّهِ . وما يسترحون إلا بمن حُبِّبَهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ كُلَّهَا — فِي التَّحْقِيقِ — باطلٌ . وأخبر أن الكفار قالوا : لو كان هذا الذي يقوله

(١) آية (٢) سورة القصص وبزوالها تسخت هذه الآية ، وزال فرح المشركين واليهود والمناققين الذين كانوا يقولون : كيف نتبع نبياً لا يدري ما يفعل به ولا يتأمله لا فضل له علينا ، ولو لا أنه اجتمع الذي يقول من تلقاه نفسه لأخبره الذي به ما يفعل به — وبزوال هذه الآية أُرغم الله أنوفهم ، وقالت الصحابة : منيتاً لك يا رسول الله ! ودينياً لنا !

(٢) القشيري يذكر أن يذهب البشر إلى التماس تلميحات للأفعال الإلهية ؛ لأن أفعال الله سبحانه لا تخضع للأفراض ، فهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فهو يهود بالأمر كله إلى الحكمة والإرادة الإلهيتين ، وطائفاً خارجاً غير نطاق الإنسانية فلا ينهى إغصانها للفاهيم الإنسانية من حسن وقبح ، وغير ذلك ؛ لأن هذه المفاهيم متأثرة بالمصلحة والفرض .. والله مبدء عن ذلك ، فله أن يفعل بعباده ما يشاء ، وإذا كان رب الأسرة لا يتوقد ما إلا إلى التغير فما ظنك برب البرية وخالق كل شيء ؟ !

(٣) هو عبد الله بن سلام عنه المجهود ، ولما قيل إن هذه الآية مدنية ؛ لأن إسلامه كان بالمدينة . وروى أنه سأل النبي عن ثلاث لا يملطن إلا نبي : ما أول أشراف الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ، وما بال أولك ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال الرسول (ص) : أول أشراف الساعة نازحهم من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد حوت ، وأما قوله فلماذا سبق ماء الرجل تزوجه وإن سبق ماء المرأة تزوجه . فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً . (صحيح البخاري ٢٠ ص ٢٢٦) .

من الحشر والنشر حقاً لم يتناصر ديننا عند الله عن رتبة أحد ، ولقدّمنا — في الاستحقاق —
على الكل . ولما لم يجدوا لهذا القول دليلاً صرحوا :

« فيقولون هذا إنك قديم » .

وقد بعث الله أنبياءه — عليهم السلام — وأنزل عليهم الكتب ، وبين في كل كتاب ،
وعلى لسان كل رسول بأنه يبعث محمداً رسولاً ، ولكن القوم الذين في عصر نبينا — صلى الله
عليه وسلم — كنتموه ، وحسدوه .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُوا

فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

مضى تصوير الاستقامة . وإنّ من خرج على الإيمان والاستقامة حظي بكل كرامة ،
ووصل إلى جزيل السلامة .

وقيل : السين في « الاستقامة » سين الطلب ؛ وإنّ السقيم هو الذي يتهل إلى الله تعالى
في أن يُعْطَى على الحق ، ويُثَبَّت على الصديق .

قوله جل ذكره : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا » . .

أمر الإنسان برعاية حقّ والديه على جهة الاحترام ، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام ،
ولما لم يُحْسِن الإنسان حرمة من هو من جنسهم عن حسن مراعاة سيّده أبداً . ولولم يكن
في هذا الباب إلا قوله — صلى الله عليه وسلم : « رضا الرب من رضا الوالدين ، وسخطه في
سخطهما » لكان ذلك كافياً . ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام ، ورعاية حق الأم من
حيث الشفقة والإكرام . ووعد الله على يرّ الوالدين قبول الطاعة بقوله جل ذكره :

« أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَقِيلًا

وَيَجْزَاوُزُ عَنْ سَبَائِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ

وَعَدَ الصِّدِّيقِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَ » .

قبول الطاعة وغفران الزّلة مشروطان ببرّ الوالدين . وقد ذمّ الله — سبحانه — الذي

يُصَفِّ في حَقِّهِما بِالتَّأَثُّبِ ، وَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهُ عَلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ أَى تَعَنُّفٍ ، وَعَلَى أَنَّ الَّذِي يَسْلُكُ ذَلِكَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْخُسْرَانِ ، وَبِالتَّالِي يَكُونُ نَاقِصَ الْإِيمَانِ .

وَسَبِيلُ الْعَبْدِ فِي رِعَايَةِ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ أَنْ يُصْلِحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ، فَيُخَذِّلَ بِمَا يَصْلُحُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ — عَلَى الصَّوْمِ ، وَأَهْلِهِ — عَلَى الْخُصُوصِ .

وَشَرُّ خُصَالِ الْوَالِدِ فِي رِعَايَةِ حَقِّ وَالِدَيْهِ أَنْ يُجَرِّمَ بِطَوِيلِ حَيَاتِهِمَا ، وَيَتَأَذَّى بِمَا يَحْفَظُ مِنْ حَقِّهِمَا . وَعَنِ قَرِيبِ يَمُوتُ الْأَصْلُ وَيَبْقَى النَّسْلُ ، وَلَا يَدُّ مِنْ أَنْ يَبْقِيَ النَّسْلُ الْأَصْلُ^(١) ، وَقَدْ قَالُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى .

رَوَيْدُكَ إِنْ أَلْهَمَكَ فِي كِفَايَةِ تَفْرِيقِ ذَاتِ الْبَيْنِ . . فَانْتَظِرِ الدَّعَاءَ^(٢)
قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَذَّيْتُمْ لَطَائِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْكُرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » .

سَبِيلُ الْعَبْدِ إِلَّا يَنْسَى فِي كُلِّ حَالٍ مَعْبُودَهُ ، وَأَنْ يَذْكُرَ أَنَّهُ مَعَهُ فِي هَذِهِ وَسُورِهِ ، وَفِي مُنَاجَاتِهِ عِنْدَ رِخَائِهِ وَبَلَائِهِ . فَمَنْ أَتَقَى أَنْ حَصَلَ لَهُ الْأُنْسُ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ رَجَاهُ وَبَسْطُتْهُمُ هَجْمٍ عَلَى قَلْبِهِ قَبْضُ أَوْ مَسَّ خَوْفٍ . . فَيُلَاحِظُ رَبَّهُ حَتَّى لَا يَكُونَ مِنْ جَمَلَةٍ مَنْ قِيلَ لَهُ : « أَلَذَّيْتُمْ لَطَائِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا . . »

قوله جل ذكره : « وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْثَافِ^(٣) وَقَدْ خَلَّتِ النَّذَرُ مِنْ بَيْنِ

(١) أَيْ أَنَّ أَوْلَادَهُ سَوْفَ يَهْلِكُونَ بِالْكُفْيَةِ الَّتِي حَامِلٌ بِهَا أَبُوهُ .

(٢) إِذَا لَاحِظْنَا أَهَمَّ التَّشْبِيرِ هُنَا بِرِعَايَةِ حَقِّقِ الْأَبَوَيْنِ ، وَإِذَا تَذَكَّرْنَا أَنَّهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَرَى أَنَّ حَقِّقِ الشَّرِيعِ وَالْمَرْبِ لَا تَقْلُ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَلَنْ نَرَوَيْنَ يَرْبُونَ : لِشَيْخٍ . وَالتَّشْبِيرُ يَرْبُونَ الْأَرْوَاحَ « عَلَّمْنَا أَنْ هَلْهُ الْإِفَادَةُ مُوجِبَةٌ إِلَى الْمَرْبِ بِنَفْسٍ لِلْمَرْبَةِ الْمَرْبَةِ إِلَى الصَّوْمِ .

(٣) الْأَحْثَافُ — جُ حَقْفٍ وَهُوَ رَمَالٌ عَظِيمٌ مُوجِبَةٌ لَا تَبْلُغُ أَنْ تَكُونَ جِبَالًا . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : أَسْتَفَافُ الْجِبَلِ مَا نَسَبَ عَنْهُ الْمَاءُ زَمَنَ الْفَرَقِ . وَهَكَذَا اخْتَلَفَ فِي مَكَانِ دِيَارِ عَادٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي كِتَابِ التَّضْيِيرِ .

يديه ومن خلقه إلا تعبدوا إلا الله إني
أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

أخبر بالشرح عن قصة هود وقومه عاد وما جرى بينهم من الخطاب ، وتوجه عليهم من
المتاب ، وأخذهم باليمين العذاب .

قوله جل ذكره : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ... »
فلم يُضَرَّ عنهم ما آتيناهم ... وانظروا كيف أهلكناهم .

قوله جل ذكره : « وإذ صرنا إليك نكرة من الجن
يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا
أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم
منذرين » .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس . وإن قوماً
أتوه ليلة الجن^(١) وآمنوا به ، ورجعوا إلى قومهم فأخبروهم ، وآمن قوم منهم ؛ فاليوم في الجن
مؤمنون ، وفيهم كافرون .

« فلما حضروه قالوا أنصتوا . . » الصيحة على الباب وفوق البساط غيبة ؛ ولهذا لما حضر
الجن بساط خدمته — صلى الله عليه وسلم — ناصوا فيما بينهم بحفظ الأدب ، وقالوا لما حضروا
بساطه : « أنصتوا » ، فأهل الحضور صفتهم الذبول والسكون ، والمهية والوقار . والثوران
أو الاتزعاج يدل على غيبة أو قلة تيقظ أو هوان اطلاع^(٢) . « فلما قضى . . » يعنى الوحي
« ولوا إلى قومهم منذرين » وأخبروهم بما رأوه وسموه .

قوله جل ذكره : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا

(١) حدث ابن مسعود عن هذه الليلة ، وأبان كيف سمع — وقد كان وحده بصحبة لقي — وهو يقرأ القرآن —
لنظماً وغممة ، وشاهد أشغال النور تهوى وتمشي في رقرقها ... الخ .

(٢) هنا نجد القشيري ينصح بالكنان ولا يرى الإنصاح ، وقد مثل الجني في ذلك فأجاب : « وترى الجبال
تحسب جامدة وهي تمر مر السحاب (أنظر بحث هذه القضية في كتابنا «نشأة التصوف الإسلامي» ط المعارف ص ٢٢٩) .

به يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ
مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .

يقال الإجابة على ضربين : إجابة لله ، وإجابة للداعي ؛ فإجابة الداعي بشهود الواسطة
— وهو الرسول صلى الله عليه وسلم . وإجابة الله بالجهر إذا بَلَّغَتْهُ الرِّسَالَةُ على لسان النّبي ،
وبالسّر إذا حصلت التعريفات من الوارثات على القلب ؛ فتستجيب بنفسه ومستجيب بقلبه
ومستجيب بروحه ومستجيب بصره . ومن توقف عن دعاء الداعي إِيَّاهُ ، ولم يبادر بالاستجابة
هَجَرَ فَيَا كَانَ يُخَاطَبُ بِهِ (١) .

قوله جل ذكره : « أَوْ لَمْ يَعْرِوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْسِيَ الْمَوْتَ ؟ بَلَى :
إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

الرؤية هنا بمعنى العلم .

« وَلَمْ يَتَّخِ » أى ولم يجهز ولم يصنف .

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا
عَلَى النَّارِ » .

ثم يقال لم على سبيل تأكيد لإلزام الحجة :

« أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا : بَلَى وَرَبَّنَا . قَالَ : فَذُوقُوا
الْعَذَابَ .. »

جزاء لكم على كُفْرِكُمْ .

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو التَّوَكُّلِ
مِنَ الرُّسُلِ » .

(١) هكذا في م وهى في من (يطلب به) وكلاهما مقبول في السياق قاله عاء خطاب ومطالبة ليدعو .

أولو الجِدِّ والصبر والحزم . وجاء في التفسير أنهم : نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد
صلى الله عليهم وسلم . وقيل : هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام . وقيل : منهم يعقوب
وأيوب ويونس .

والصبرُ هو الوقوفُ للحُكمِ اللهُ ، والثباتُ من غيرِ بَثٍّ ولا استكراهٍ .

قوله جل ذكره : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ

لَمْ يَلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » .

ويقال مُدَّةُ الخلقِ : من مبتدأ وقتهم إلى مُنتهى آجالهم ، بالإضافة إلى الأزلية^(١) كلحظةٍ

بل هي أقلُّ ؛ إذ الأزلُّ لا ابتداء له ولا انتهاء . . وأى خطرٍ لما حصل في لحظةٍ . . خيراً كان

أَوْشَرًا ؟ !

(١) بالإضافة إلى = بالنسبة إلى .

سورة محمد - صلى الله عليه وسلم^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

مَنْ ذَكَرَ « بسم الله » جَلَّتْ رُتْبَتُهُ ، وَمَنْ عَرَفَ « بسم الله » صَفَتْ حَالُهُ ، وَمَنْ أَحَبَّ « بسم الله » أَشْكَلَتْ قَسَمَتُهُ^(٢) ، وَمَنْ حَبَّبَ « بسم الله » امْتَصَتْ أُذُنُهُ^(٣) ، وتلاشت بالكلية — بجلته .

قوله جل ذكره : « الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله

أضلّ أَعْمَلَمَ • والذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وآمنوا بما نَزَّلَ على محمدٍ وهو الحقُّ من ربِّهم كَفَرَّ عنهم حيثابهم وأصلح بالهم » .

« الذين كفروا » : امتنعوا ، وصدّوا قُصِرُوا ؛ فلا تُهم امتنعوا عن سبيل الله استوجبوا الحِجَابَةَ والْتِيَةَ .

« أضلّ أَعْمَلَمَ » : أى أحبطها .

« والذين آمنوا .. » بما نَزَّلَ على محمد ، « وهو الحق من ربهم .. »

(١) وتسمى هذه بعض المفسرين « سورة القتال » .

(٢) الكلام في هذه النقطة كثير لا يتسع له حاش عتيق ، ومن أراد أن يعرف كيف أن قصة الهين الإلهين مشكلة فيمكن أن يعلم أن قصة هذه القصة الوصول إلى التوسيع .. أن يفتح المرحلة في المرحلة فلا يكون هناك إلا واحد ، إن تحدث فباقة ، وإن تحرك فباقة . هو بين الناس كأنهم بائن ، يقف صره بين وجهه ولقد .. (أنظر قصة هذا الحب بتفاصيلها الدقيقة في كتابنا : نقاة التصوف الإسلامي ، باب الحب والفناء والمعرفة .

(٣) تلاشت آثار بشرته لا بشرته .

أصبح حالم ، فالكفرُ للأعمالِ مُخِيطٌ ، والإيمانُ للتخليدِ ^(١) مُسْقِط .
ويقال : الذين اشتغلوا بطاعةِ الله ، ولم يعملوا ^(٢) شيئاً مما خالفَ الله — فلا عمالةً — هوم
بكفاية اشتغالهم بالله .

قوله جل ذكره : « ذلك بأنّ الذين كفروا اتَّبِعُوا الْبَاطِلَ
وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

أى يضرب أمثال هؤلاء لحسناتهم ، وأمثال هؤلاء لسئلتهم .
ويكون اتباعُ الحقِّ بموافقةِ الشَّيْءِ ، ورعايةِ حقوقِ الله ، وإيثارِ رضاه ، وإتيانِ بطاعته .
ويكون اتباعُ الباطلِ بالابتداعِ ، والعملِ بالهوى ، وإيثارِ الخلفوظ ، وارتكابِ للمصيبة .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا قَيِّمْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ
الرِّجْلِ حَتَّى إِذَا انْخَضُوا وَقَدِ انْقَضَى
الْحَرْبُ فَلَمَّا مَتَّأ بِمَدُّ وَلَمَّا فِدَا حَتَّى تَصَاحَ الْحَرْبُ
أَوْزَارَهَا » .

إذا حَصَلَ الظَّفَرُ بالدوِّ فالنفوسُ عنهم وَتَرَكُوا لِلْبَاقَةِ فِي التَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ — لِلدِّمِ مُوجِبٌ ،
وللقصةِ تَضْيِيقٌ ؛ بل الواجبُ إِزْهَاقُ نَفْسِهِمْ ، واستئصالُ أَسْوَلِهِمْ ، واقتلاعُ شَجَرِهِمْ
من أصله .

وكذلك العبدُ إذا خَفرَ بنفسه فلا يَبْنِي أَنْ يُنْقِىَ بَدَا تَفَاشٍ شَوْكها قَبِيَّةٌ مِنَ الْحَيَاةِ ،
فَمَنْ وَضَعَ عَلَيْهَا لِاصِبًا بَنَتْ مُبْهَمًا فِيهِ ^(٣) .

« فَإِذَا مَتَّأ بِمَدِّ وَلَمَّا فِدَا » ذلك إذا رجا للسلون في ذلك غبطةً أو فائدةً ؛ مثل إفراج

(١) القالب الموقد .

(٢) حكماً في م وهي في ص (ولم يعملوا) وهي خطأ من النسخ .

(٣) ذلك لأن نفسك التي بين جنحيك هي أمضى أعدائك ، وجهادها هو الجهاد الأكبر . . لأنها تقودك إلى
دواعي الهوى ، وفي ذلك منه الصوفية شركٌ عَنِي .

الكفار عن قوم من المسلمين ، أو بسبب ما يؤخذ من الفداء .. وأمثال هذا ، لم ينفذ ذلك مُسلم على ما يراه الإمام ^(١) .

كذلك حال المجاهدة مع النفس : حيث يكون في إغناء ساعة أو في إظهار يوم ترويح للنفس من الكد ، وقوة على الجهد فيما يستقبل من الأمر — فذلك مطلوبٌ حسبما يحصل به الاحتسابُ من شيخ المرید ، أو خوى لسان الوقت ، أو فراسة صاحب المجاهدة ^(٢) .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُغْلِبَ أَعْمَالُهُمْ • سَيُهِيمُ سَيِّدُهُمْ وَيُصْلِحُ بَأْفَهُمْ • وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا اللَّهُ » .

إذا قُتِلَ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ تَوَلَّى وَرَثَةُ الْقَتُولِ بِأَحْسَنِ مِنْ تَوَلِيَةِ الْقَتُولِ .
وكذلك يرفعُ درجاته ؛ فَيُعْظِمُ ثَوَابَهُ ، وَيُكْرِمُ مَا بِهِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ تَنصَرُوا لَكُمْ • وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

نصرةُ الله من العبد نصرةٌ دينه بإيضاح الدليل وتبيينه .
ونصرةُ الله للعبد بإعلاء كلمته ، وقمع أعداء الدين ببركاتِ سَمِيهِ وَجْهِهِ .
« وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » بإقامة التوفيق لئلا ينهزمَ من صولةِ أعداء الدين .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا قَتَلُوا نَفْسَهُمْ وَأُضِلُّوا أَعْمَالَهُمْ • ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ » .

(١) للإمام الحق أن يقبل أو يمين أو يفادي أو يسترق . والرسول نفسه . قتل حقبة بن معيط والقتل ابن الحارث يوم بدر ، وفادي سائر أسارى بدر ، ومن على شامة الحق وهو أسير ، ومن على سبي هوازن ، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أنفاساً من المسلمين .. هذه كلها ثابتة في الصحيح — وهذه الأربعة إليها مذهب الشافعي .

(٢) تهتم هذه الفقرة إذا تذكرنا أن القشيري متشدد في الرخص ، وقياس الرخصة هنا على آية القتال وعلى حرب المشركين وعلى تصرف الإمام .. فيها دقة تحتاج إلى تدبر . ثم تهتمنا في معرفة من الذي يمنح الرخصة للمريد ؟

تصالحهم : لنا وطربا ، وقمنا وبُعدا

« أصلُ أعمالهم » : هتكَ أسرارهم ، وأظهرَ للؤمنين أسرارهم ، وأخذَ نازهم .

قوله جل ذكره : « أظلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » .

وكيف أمكنكم وأبداكم وأقام ؟

قوله جل ذكره : « ذلك بأن الله مَوَّلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوَّلَى لَهُمْ » .

المولى ^(١) هنا بمعنى الناصر ^(٢) ؛ فالفُّ ناصرٌ للذين آمنوا ، وأما الكافرون فلا ناصرَ لهم .
أو للمولى من اللوالة وهي ضد للمادة ، فيكون بمعنى الحب ؛ فهو مولى الذين آمنوا أي
يحبهم ، وأما الكافرون فلا يحبهم الله .
ويقول تعالى في آية أخرى : « والذين كفروا أوليؤم الطاغوت » ^(٣) .

ويصح أن يقال إنَّ هذه أرجى ^(٤) آية في القرآن ؛ ذلك بأنه سبحانه يقول : إن الله مولى
الذين آمنوا ، ولم يقل : مولى الزهاد والمجاهدين وأصحاب الأوراد والاجتهاد ؛ فالؤمن — وإن كان
عاصيا — من جملة الذين آمنوا ، (لا سيما « آمنوا » فعل ، والفعل لا محوم له) ^(٥) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

(١) تضاد أقوال القشيري هنا في (المولى) إل سنده من ذلك الاسم في كتاب التحرير في التذكير . وإل
سنده في (الولاية والمولى) في مواضع متفرقة من مصنفاته .

(٢) جاءت (الناظر) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٣) آية ٢٥٧ سورة البقرة .

(٤) جاءت (أرجى) في ص وهي خطأ في النسخ .

(٥) سقطت الباء بين القوسين من ص وجاءت في م . والقشيري مستفيد من السياق للقرآن إذ عبر عن
الإيمان بالفعل وهو « آمنوا » وجبر عن الكفر بالاسم فقال : « وأن الكافرين لا مولى لهم » .

مضى الكلام في هذه الآية .

« والذين كفروا يشتمون ويأكلون
كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .
الأنعام تأكل من أى موضع بلا تمييز ، وكذلك الكافر لا يميز له بين الحلال والحرام .
[كذلك الأنعام ليس لها وقت لأكلها ؛ بل في كل وقت تقتات وتأكل ، وكذلك الكافر ،
وفي الخبر : « إنه يأكل في سبعة أمعاء » . أمّا المؤمن فيكتفي بالقليل كما في الخبر : « إن كان
ولا بُد فُلْتُك للطعام وتُلْتُك للشراب وتُلْتُك لنفس » وما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه^(١) .
ويقال : الأنعام تأكل على التفة ؛ فمن كان في حال أكله ناسياً ربّه فأكله كما كل
الأنعام .

قوله جل ذكره : « وكأين من قرية هي أشدّ قوة
من قرطك التي أخرجتك أهلكتهم فلا
نصر لهم »^(٢) .

« أهلكتهم » : يعني بها من أهلكتهم من القرون الماضية في الأعصر الحالية .
قوله جل ذكره : « أفسن كان على يثينة من ربّه كمن
زُنّ له سوء عمله واتيوا أهواءهم » .
« اليثينة » : الضياء والحجة ، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماء في ضياء برهاتهم ،
والعارفون في ضياء بيانهم^(٣) ؛ فهؤلاء بأحكام أمة الأصول يُبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام
والوصول يتبصرون .

(١) ما بين القوسين الكبيرين ماقط بآية من ص وثابت في م ، وهذه الأخبار موجودة في الجمع الصغير
ص ٢٨ وفي كتاب « الأئمة » بالجزء الثالث من صحيح البخاري ، هو الأذكار للنووي . وتكملة الخبر الأول :
من أي حريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : يأكل المسلم في صمى واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء ،
وروي كذلك عن ابن عمر .

(٢) عن ابن عباس قال : لما خرج النبي (ص) من مكة إلى البدار كتبت إلى مكة وقال : والله أنت أحب البلاد
إلى الله وأنت أحب البلاد إلى ولولا للمشركون أهلك لأخرجوني لما خرجت منك فزلت الآية - ذكره القسطلي ،
وهو حديث صحيح .

(٣) حكاه في ص وهو في م (ثباتهم) ولكن ما في ص والاصوب ؛ لأننا نعرف من ملعب للتشويق أن
(كبيان) للمازنين والبرهان لأرباب العلم .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا

أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ

لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ

لِلْشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصْقًّى وَلَهُمْ

فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » .

كذلك اليومَ شأنُ الأولياء ، لهم شرابُ الوفاء ، ثم شرابُ الصفاء ، ثم شرابُ الولاء ،
ثم شرابُ حالِّ القواء .

ولسلكهم من هذه الأثرية عملٌ ، ولصاحبهِ سُكُورٌ ومحو ؛ فَمَنْ تَحَقَّى شرابَ الوفاء
لم ينظر إلى أحدٍ في أيام غيبته عن أحبابه ؛

وما سرَّ صدرى منذ شطَّ بك النوى

أُنيسٌ ولا كأسٌ ولا معصرف

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الصَّفَاءِ خُلَّصَ لَهُ عَنْ كُلِّ شَوْبٍ ، فلا كدورةَ في عهده ، وهو في كلِّ
وقتٍ صافٍ من نفسه ، خالٍ من مطالباته^(١) ، قائمٌ بلا شغلٍ — في الدنيا والآخرة —
ولا أربٍ .

وَمَنْ شَرِبَ كَأْسَ الْوَلَاءِ عَدِمَ فِيهِ الْفِرَارُ ، ولم يَنْسِبْ يَسْرَهُ لحظةً في ليلٍ أو نهار .

وَمَنْ شَرِبَ فِي حَالِ الْقَتَاءِ أُنِيسَ عَلَى النَّوَامِ يِقَاتُهُ ؛ فلم يطلب — مع بقائه — شيئاً
آخَرَ من عطاءه ؛ لاستهلاكه في علاقه عند سطوات كبريائه^(٢) .

قوله جل ذكره : « ومنهم مَنْ يَتَمَعَّ إِلَى حَتَّى إِذَا

خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا

(١) أي مطالبات المحظوظ ؛ محظوظ النفس .

(٢) تنبه إلى أهمية هذه الفقرة التي أطال فيها التشعيرى حديثه من الأثرية حيث لم يتناولها بنفسه في رسالته
عن بحث مصطلح السُّكُور .

الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آيَةً أَوْلَتْكَ الَّذِينَ مَتَّبِعَ اللَّهُ
عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .

مُتَّبِعُونَ الَّذِينَ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ؛ لِيَا فِيهِ مِنْ اقْتَضَائِهِمْ .

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَوَارِعَهُمْ »

« اهْتَدَوْا » : بِأَنْوَاعِ الْجَاهِلِيَّاتِ ، « زَادَهُمْ هُدًى » : بِأَنْوَاعِ الشَّاهِدَاتِ .

« اهْتَدَوْا » : بِتَأَمُّلِ الْبِرْهَانِ ، « زَادَهُمْ هُدًى » : بِرُوحِ الْبَيَانِ .

« اهْتَدَوْا » : بِعِلْمِ الْيَقِينِ ، « زَادَهُمْ هُدًى » : بِحَقِّ الْيَقِينِ .

[« اهْتَدَوْا » : بِأَدَابِ لِلنَّجَاةِ ، « زَادَهُمْ هُدًى » : بِالنَّجَاةِ وَرَفَعِ الدَّرَجَاتِ .

« اهْتَدَوْا » : إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ وَلَمْ يَخْتَفُوا فِي أَنَّهُ الْحَقُّ ، « زَادَهُمْ هُدًى » بِالْإِسْتِمْلَةِ
عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ^(١) .

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : « فَعَلَّ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ

بِئْسَ مَا أَشْرَطُهَا فَأَتَى لَهُمْ إِذَا

جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

وَاسْتَغْفَرَ لِدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .

كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فَأَمَرَهُ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهَا ؛ قَالَ (ص) : « أَنَا أَعْلَمُكُمْ
بِاللَّهِ ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ ^(٢) » .

وَيَقَالُ : كَيْفَ قِيلَ لَهُ : « فَأَعْلَمَ . . . » وَلَمْ يَقُلْ : عَلِمْتُ ، وَإِبْرَاهِيمُ قِيلَ لَهُ : « أَسْلِمْتَ ^(٣) » .

قَالَ : « أَسْلَمْتُ ... ؟ فَيُجَابُ بِأَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا قَالَ : « أَسْلَمْتُ » ابْتَدَأَ ، وَبَيَّنَّا صِلَى اللَّهِ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قِيلَ : عَلِمْتُ مُؤَقَّتًا .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ الْكَثِيرِينَ سَاقِطٌ فِي ص. وَمَوْجُودٌ فِي م .

(٢) الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ : (وَأَنَّهُ إِلَى الْأَعْيَانِ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ)

وَالشَّيْخَانِ مِنْ مَالِكَةَ : (وَأَنَّهُ إِلَى الْأَعْلَمِ بِأَنَّهُ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ عَشِيَّةً) .

(٣) آيَةُ ١٣١ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : « قَالَ لَهُ رَبِّي أَسْلَمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وإبراهيم عليه السلام أتى بقلده شرع كَشَفَ سِرَّهُ ، وثبتنا صلى الله عليه وسلم لم يأتِ
بذلك شرع .

وقال : نبينا صلى الله عليه وسلم أخبر الحق عنه بقوله : « آمن الرسول ^(١) » .. والإيمان
هو العلم — وإخبار الحق سبحانه عنه أنهم من إخباره بنفسه عن نفسه : « عَلِمْتُ » .

وقال : فرق بين موسى عليه السلام لما احتاج إلى زيادة العلم فأحيل على الخضر ، ونبينا
صلى الله عليه وسلم قال له : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ^(٢) » .. فكَم بين مَنْ أُحِيلَ في استزادة
العلم على عَبدٍ وبين مَنْ أُمِرَ باستزادة العلم من الحق !!!

وقال لما قال له « فاعلم أنه لا إله إلا الله ^(٣) » كان يأمره بالاختطاع إليه عن الخلق ،
ثم بالانقطاع منه — أي من الرسول — إليه .. أي إلى الحق سبحانه . والبدل إذا قال هذه
الكلمة على سبيل المصادرة والضعف عن الحقيقة — أي كان بصفة النسيان — فليس قوله كثير
قيمة ؛ كأن يقال عند التصجب من شيء .. فليس لهذا قدر . أمّا إذا قلنا مخلصاً فيها ، ذا كراً
لنناها ، متحققاً بحقيقتها .. فإن كان بنفسه فهو في وطن الترفقة .. وعندهم ^(٤) هذا من الشرّ
الخلق ، وإن قلنا بحقي فهو الإخلاص . فالعبد يعلم أولاً رَبَّهُ بدليل وَحْيَةٍ ؛ فعلمه بنفسه
كشيء .. وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كل علم استدلال ^(٥) ! ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان
وزيادة الحجب ، ويتناقص علمه بنفسه لتَلَبَّاتِ ذِكْرِ الله على القلب . فإذا انتهى إلى حال
الشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه صار علمه في تلك الحالة ضرورياً . وقيل لإحساسه بنفسه
حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال ؛ وكأنه غافل ^(٦) عن نفسه أو ناس لنفسه .

(١) آية ٢٨٥ سورة البقرة : وآمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .

(٢) آية ١١٤ سورة طه .

(٣) هنا يفرق التشييع بين التوحيد المنطوق باللسان ، والتوحيد عند أرباب الحقيقة .

(٤) أي عند أرباب الحقائق ، لأن أي شعور بالثبوت نتيجة عدم الإخلاص نقص في التوحيد .

(٥) من هذا يتضح أن الصوفية لا يحملون العقل تماماً بل يترمون في مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان ،
ولكنهم لا يقولون عليه تماماً في بقية مراتبهم الروحية . وهذا رد حاسم على من ينكرون على الصوفية علاقتهم بالعقل
والمعلوم العقلي .

(٦) في من (وكأنه قال) وهي خطأ من التلخيص كما هو واضح من السياق بعده .

ويقال : اتى على البحر ينقلب عليه ما يأخذه من رؤبة البحر ، فإذا ركب البحر قويت هذه الحالة ، حتى إذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه ومستهلك^(١) .

« واستغفر لذنبك » : أى إذا علمت أنك علمت فلستغفر لذنبك من هذا ؛ فإن الحق — على جلال قدره — لا يسله غيره^(٢) .

قد له حل ذكره : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة

فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها

القتال رأيت الدين في قلوبهم مرتضى

ينظرون إليك نظر الغشى عليه من

الموت . . .

كان المسلمون تضيق قلوبهم بلباط الوحي ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي بسرعة فقال تعالى : « فإذا أنزلت سورة محكمة^(٣) وذكر فيها القتال » رأيت المناقين يكرهون ذلك إما كان يشق عليهم من القتال ، فكأنوا يفتضون عندئذ ، وكانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم — بناية الكراهة .

... فأولئ هم » .

(١) القشيري هنا مستفيد من شيعة أبي علي اللذان حين أوضح مراحل التواجد فالوجود فالوجود قائلاً : والتواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجود يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شرد البحر ثم ركب البحر ثم فرق في البحر الرسالة ص ٣٧ .

(٢) يذكرنا هذا بقول رابعة بعد ليال قضيتها في الصلاة والاستغفار : « إن صلاتنا في حاجة إلى صلاة ، واستغفارنا في حاجة إلى استغفار » كما يذكرنا بقول القشيري في موضع مماثل : « ... جلت السعدة حين أن يستغفر من إهلاكها بشر » ، وفي ذلك يقول أبو عبد الله الجلاء (ت ٣٠٦ هـ) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبار في القيد مر ؟
هو الذي أحدث الأشياء ميتحاً فكيف يدركه مستحدث التسم ؟

(شذرات الذهب ص ٢٨٠ ٢٤٩) .

(٣) قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة . وقيل معناه ميتة غير متشعبة ، لا تحفل وجهاً إلا وجوب القتال .

تهديد^(١) .

قوله جل ذكره : « طاعة وقول معروف » .

وهو قولهم : « لولا أنزلت سورة ... » .

ويقال : فأولى لهم طاعة منهم لله ورسوله . « وقول معروف » بالإجابة لما أُمروا به من الجهاد .

ويقال : طاعة وقول معروف أمثلُ بهم .

قوله جل ذكره : « فلما عَزَمَ الأمرُ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

إذا عزم الأمرُ — أى جَدَّ وفُرضَ القتالُ — فالصدقُ والإجابةُ خيرٌ لهم من كذبهم وشقاقهم وتعاذهم عن الجهاد .

قوله جل ذكره : « فهل عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ » .

أى فلعلكم إنْ أعرَضْتُمْ عن الإيمان — بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم — ورجعْتُمْ إلى ما كنتم عليه أَنْ تُفسدُوا فِي الْأَرْضِ ، وتفسكوا النعماء الحرامَّ ، وتقطُّوا أرحامكم ، وتوددوا إلى جاهليتكم .

قوله جل ذكره : « أولئك الذين لننهم الله فأنصنهم وأحى أبصارهم » .

أصنهم عن سماع الحق وقبوله بقلوبهم ، وأحى بصائرهم .

(١) يقول الشاعر :

فأول ثم أول ثم أول	وحل له رَّ يُحَلِّبُ من سرِّد
وقال الأصمعي مصححاً : قاربه ما يملكه واقتد :	
ضادى بين حاديتين منها	وأول أن يزيه حل الثلاث
وقال الجوهري : يقال إنَّ من بالطيب : أول لك ! أى : قاربت الطيب .	

قوله جل ذكره : « أَقْلًا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْلًا » .

أى إن تَذَبَّرُوا الْقُرْآنَ أَفَضَى بِهِمْ إِلَى الْعُرْفَانِ ، وَأَرَاهِمُ مِنْ ظِلَّةِ الضَّحْرِ .
 « أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْلًا » : أَقْلَ الْحَقِّ عَلَى قُلُوبِ الْكَفَّارِ فَلَا يَدَاخِلُهَا زَائِرُ التَّغْيِيهِ ،
 وَلَا يَبْسُطُ عَلَيْهَا شِمَاعُ الْعِلْمِ ، فَلَا يَحْصِلُ لَهُمْ فَهْمُ الْخَطَابِ ؛ فَالْبَابُ إِذَا كَانَ مُقْلًا .. فَكَمَا
 لَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ ؛ كَذَلِكَ قُلُوبُ الْكَفَّارِ مُقْلَةٌ ، فَلَا الْكَفَرُ الْقَدَى فِيهَا
 يَخْرُجُ ، وَلَا الْإِيمَانُ الْقَدَى هُمْ يَدْخُلُونَ إِلَيْهِ يَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ .

وَأَهْلُ الشِّرْكِ وَالْكَفَرِ قَدْ سُدَّتْ بِصَارِهِمْ وَغُطِّيَتْ أَسْرَارُهُمْ ، وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ التَّحْقِيقِ .
 قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ » .

الَّذِي يَطْلُعُ مِنْ قَلْبِهِ ، وَيَتَلَأَلُ نَوْرُ التَّوْحِيدِ فِيهِ ، ثُمَّ قَبِلَ مَتَوَعَّجَ نَهَارِ إِيْمَانِهِ انْكَسَفَتْ
 شَمْسُ يَوْمِهِ ، وَأَظْلَمَ نَهَارُ عُرْفَانِهِ ، وَدَجَا لَيْلُ شَكِّهِ ، وَغَابَتْ بِحُجُومِ عَقْلِهِ .. فَحَدَّثَ عَنْ
 ظُلُمَاتِهِ ١٠٠ وَلَا حَرَجَ (١)

[ذَلِكَ جَزَائُهُمْ عَلَى مَالِهِمْ مَعَ الْفَاقِقِينَ ، وَتَظَاهَرَهُمْ .. فَلَمَّا تَوَقَّعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ نَقُصَلَ
 أَلَامُهُمْ ، وَلَا تَقْطَعُ بَعْدَ ذَلِكَ حُقُوبَاتُهُمْ] (٢) .

قوله جل ذكره : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » .

لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَوَهَّمُوهُ ، بَلِ اللَّهُ يَضَعُهُمْ وَيَكْشِفُ تَلَيُّسَهُمْ ، وَلَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولَ عَنْهُمْ ،
 وَعَرَّفَهُ أَعْيَانَهُمْ .

(١) الْقَشِيرِيُّ هَذَا يَدْعُو مِنْ يَتَسَوَّنَ إِلَى طَرِيقَةِ الصُّوفِيَّةِ ثُمَّ يَتَسَوَّنُونَ مَقْدَمَ مَعَ اللَّهِ ، وَيَتَسَوَّنُونَ مِنْ طَرِيقِ
 الْإِرَادَةِ بَعْدَ قَطْعِهِمْ مَسَاقَ تَصْوِيرَةٍ .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَوْمَيْنِ الْكَافِرِينَ سَاطِعٌ قَدْ وَثَّابَتْ فِيهِ ص .

قوله جل ذكره : « ولو نشاء لأرضاكم فلم تركهم

بسيماهم ولتركهم في لحن القول » .

أي في معنى الخطأ ، فالأبيرة تدل على السرية ، وما يخاف القلوب فعلى الوجه
يلوح أثره :

لستُ ممن ليس يدري ما هو ان من كرامة

إنَّ للحبِّ والنفسِ على الوجه علامة

وللؤمن ينظر بنور القراسة^(١) ، والمارف ينظر بنور التصديق ، وللوحد ينظر بالله
فلا يستقر عليه شيء^(٢) .

ويقال : بصائر الصديقين غير مضطأة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدوا كل
خوخة غير خوخة أبي بكر »^(٣) .

قوله جل ذكره : « ولتبلونكم حتى تعلم الجاهدين

منكم والصابرين وتبلى أخباركم » .

بالابتلاء والامتحان تبين جواهر الرجال ، فيظهر المخلص ، ويختصم المنافق ، وينكشف
المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا وناقوا وقسوا^(٤) في الهوان
وأذلوا ، ووهبوا بالشقاوة وقطعوا .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرسول ولا تطيعوا أعمالكم » .

(١) هكذا في م وحى في ص (يعني القراسة) . روى الترمذي والطبراني من حديث أبي أمامة ، والترمذي
من حديث أبي سعيد ، والطبراني وأبو نعيم والبيهقي بسند صحيح عن أنس وأتقوا قراءة المؤمنين فإنه ينظر بنور الله .

(٢) يفيد هذا الكلام في ترتيب القوم : مؤمن ثم عارف ثم موجد فالملحون أهل درجات السالين .

(٣) يقول القشيري في كتابه والمرآة ص ٧٢ : (كان الصديق مخصوصاً من البصيرة بما لم يخص به غيره
قال (ص) : وسدوا كل خوخة غير خوخة أبي بكر » . وذلك لما لتصور في المسجد من كل دار خوخة ،
والإشارة فيه أن الصديق ليس بمنعز من الإيثار بحال) .

(٤) سقطت (وقسوا) في ص ، ووجوده في م .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بإراءه والإيجاب والملاحظة .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بالمساكنة إليها . « ولا تبطلوا أعمالكم » بطلب الأعراض عليها .

« لا تبطلوا أعمالكم » : بتوهمكم أنه يجب بها شيء دون فضل الله ^(١) .

قوله جل ذكره : « فلا تهنؤا وتدعوا إلى السلم وأنتم

الأعلون والله ممكم » .

أى لا تميلوا إلى الصلح مع الكفار وأنتم الأعلون بالحجة ^(٢) .

أنتم الأعلون بالنصرة . قوله « والله ممكم » . أى بالنصرة ويقال : لا تضعفوا بقلوبكم ،

وقوموا بالله ؛ لأنكم — والله ممكم — لا يخفى عليكم شيء منكم ، فهو على الدوام يراكم .
ومن علم أن سيده يراه يتحصل كل مشتة مشتة برؤيته :

« ولن يترككم أعمالكم »

أى لا ينقصكم أجر أعمالكم .

قوله جل ذكره : « إنا الحياة الدنيا كسب ولهو وإن

تؤمنوا وتكفروا يؤتكم أجرهم ولا يأنكم أموالكم »

ولا يأنكم أموالكم

تجنبوا الشرك واللعن حتى يؤتكم أجوركم .

والله لا يأنكم من أموالكم إلا اليسير منها وهو مقدار الزكاة ^(٣) .

« إن يأنكموها فيؤتكم تبطلوا

ويخرج أضغانكم » .

(١) هذه الإشارة موجبة إلى الذين يزعمون أن الطاعة توجب على الله الثواب . ويرى القشيري أنه لا وجوب على الله ؛ فكل شيء من فضله ؛ لأن طاعة العبد لا توجب لله زينة ، ومصيبته لا تلحق به سبحانه شيئا . والله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء .

(٢) عند هذا الحد انتهت النسخة م ، ولذا فإننا نقصد على النسخة من نى بقية السورة ، وهى مساحة كبيرة .

(٣) وهى على سعة تعبير سفيان بن عيينة : غيظ من غيظ .

« الإخفاء » الإلحاح في المسألة ... وهذا إنما يقوله لمن لم يُوقَّ شُحُّ نفسه ، فأما الإخوان ومن عَظُمَ رَتْبُهُمْ في باب حرية القلب فلا يسأعون في استيفاء ذِكْرِهِ ، وبطالِبون بديل الروح ، والزام الغرامات .

قوله جل ذكره : « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لتنفقوا

في سبيلِ اللَّهِ فنسكم مَنْ يبخلُ ومن

يبخلُ فإِنَّمَا يبخلُ عَنْ نَفْسِهِ » .

البخلُ مَنْعُ الواجب ، وإِذَا بَخَلَ إِنَّمَا يبخلُ عَنْ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَحَقَّ لَهُ

الثراء — هكذا يظن .

وقوله جل ذكره : « وَاللَّهُ النُّقُوتُ وَأَنْتُمْ الْقَرَاءُ » .

« غنى » بنفسه على قول ، وغنىٌ يوصفه على القول الثاني^(١) . وغناه كونه لا تنقيد

مراداته . أما العبدُ فهو فقيرٌ بنفسه ؛ لأنه لا يستغنى عن مولاه ؛ في الابتداء منذ خَلَقَهُ

إلى الانتهاء ، وهو في دوام الأولات مفتقرٌ إلى مولاه .

والفقيرُ الصادقُ مَنْ يشهد انتقاره إلى اللَّهِ . وَصِدْقُ الْفَقِيرِ في شهود فقره إلى اللَّهِ . وَمَنْ

افتقر إلى اللَّهِ استغنى بِاللَّهِ ، وَمَنْ افتقر إلى غيرِ اللَّهِ وقع في الذُّلَّ والموان .

ويقال : اللَّهُ غِنَى عَنْ طَاعَتِكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْقَرَاءُ إلى رحمة .

ويقال : اللَّهُ غِنَى لَا يَحْتَاجُ إِلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ الْقَرَاءُ لِأَنَّكُمْ لَا بَدِيلَ لَكُمْ عَنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَنْقَبِذْكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

ببَدِيلِ قَوْمًا غَيْرَكُمْ يَكُونُونَ أَشَدَّ مِنْكُمْ طَاعَةً ، وَأَصْدَقَ مِنْكُمْ وِفَاءً ؛ فَهُوَ قَادِرٌ

عَلَى خَلْقِ أَمْثَالِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَالَكُمْ فِي الصِّبَانِ وَالْإِعْرَاضِ وَتَرْكِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ ...

بَلْ سَيَكُونُونَ خَيْرًا مِنْكُمْ .

(١) أي يمكن أن تكون من صفات الذات أو من صفات الفعل انظر « النقي » في كتاب « التعبير في التكبير »

للإمام القشيري تعليق د . بسيوني .

سورة الفتح

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » تشير إلى سُموه في أزلِه ، وعلوه في أبدِه ، وُسُموه في أزلِه نَفَى البداية عنه
بِحَقِّ الْقَدَمِ ، وعلوه في أبدِه نَفَى الانتهاء عنه باستحالة المَدَم ؛ فمعرفة سُموه توجبُ للعبدُ سُموًا ،
ومعرفة علوه توجبُ للعبدِ علوًا^(١) .

قوله جل ذكره : « إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا » .

فُضينا لك قضاءً بَيِّنًا ، وحكمتنا لك بِتَقْوَةِ دينِ الإسلام ، والنصرة على عدوك ،
وأكرمناك بفتح ما اُتفق على قلب من هو غيرك مِن قَبْلِكَ — بضَمِّ شرايع الإسلام ،
وغير ذلك من فُوحات قلبه صلوات الله عليه .

نزَلَت الآيةُ في فَتْحِ مكة ، ويقال في فَتْحِ الحُدُودِية^(٢) .

ويقال : هَدَيْنَاكَ إلى شرايع الإسلام ، وَبَيَّنَّا لَكَ أُمُورَ الدِّينِ .

« لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَدْمُ مِنْ ذَنْبِكَ »

وما تأخر » .

(١) واضح أن مطلب التقديري في معرفة أسماء الله سبحانه لا يقتصر على المعرفة الكلامية النظرية بل يتجاوز ذلك إلى التأديب بها ، ولتخلق بأعلاق الله .. فالعمل مترتب على العلم (انظر مقدماتنا لكتاب التحجير في التذكير) .

(٢) يقال نزلت هذه السورة بين مكة والمدينة (رواية محمد بن اسماعيل عن الزهري عن حمزة عن السور ابن حمزة وسروان بن الحكم) وأنها نزلت في شأن الحديبية . (كذلك في البخاري في سماع قتادة عن أنس) . وقال الفساحك : « ميناة أي بنير قتال . وقال مجاهد : كان نصح الحديبية آية عظيمة إذ نزع ما لو ما فجع فيها ففدت بالماء حتى شرب جميع من كان معه . وقال الشعبي : هو نصح الحديبية ؛ فقد أصاب فيها ما لم يصب في غزوة ؛ فغفر الله له ذنبه ، ويبيع بيعة الرضوان ، وألمسوا نخل خيبر ، وبلغ الحديبية ، وظهرت الروم على الفرس .

كلا القسمين — المتقدم والمتأخر — كان قبل النبوة^(١).

وقال « ما قدم » من ذنب آدم بحُرْمَتِكَ ، « وما تأخر » : من ذنوب أُمَّتِكَ^(٢) .
وإنَّا نُحِيلُ على ترك الأولي^(٣) قد غفر له جميع ما فعل من قبيل ذلك ، قبل النبوة
وبعد^(٤) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا : هنيئاً لك يا نازل الله تعالى :

« ليدخل المؤمن والمؤمنة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . . وقال :
حسنت الأبرار سيئات للقرين .

« وَيُحِبُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا » .

يتم نعمته عليك بالنبوة ، وبوفاء العاقبة ، وبسط الشريعة ، وبشفاعته لأمته ، وبرؤية الله
غداً ، [ويظهر دينه على الأديان ، وبأنه سيد ولد آدم ، وبأنه أَوْفَى بِعَهْدِهِ ، وخصه بالبيان]^(٥) .
وبسائر كلامه سبحانه ليلة المراج ، وبأن بَشَرَهُ إلى سائر الأمم . . . وغير ذلك من مناقبه .

« ويهديك صراطاً مستقيماً » يثبتك على الصراط المستقيم ، ويريدك هداية على هداية ،
ويهدي بك اتخلف إلى الحق .

ويقال : يهديك صراطاً مستقيماً بترك حَقْلِكَ .

« وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

(١) نص^١ القشيري على « قبل النبوة » لأن الأنبياء موصوفون من الذنب.

(٢) هذا أيضاً قول علماء المراسل .

(٣) ترك الأول تمييز أدنى مهذب من « الذنب » . ويقال : كان الذنب المتقدم على يوم بدر قوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن تلك هذه الصابية لا تميد في الأرض » . والذنب المتأخر كان يوم حنين حيث رمى جبرائيل في وجوه المشركين قائلاً : « شاعت الوجوه » . سم . لا ينصرونه . فأنهزم القوم عن آخرهم ، ولم يبق أحد إلا امتلأت صباه رملًا وحصباء . وعتد عودة النبي مع أصحابه قال لهم : لو لم أرهم لم ينهزموا ! فأنزل الله عز وجل : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

(٤) روى الترمذي عن أنس أن النبي فرح بهذه الآية فرحاً شديداً وقال : لقد أنزلت على أبي أحب إلى ما على وجه الأرض .

(٥) ما بين القوسين الكبيرين موجود في ص وغير موجود في م .

لَا ذُلَّ فِيهِ ، وَتَكُونُ غَالِبًا لَا يَنْبَلِيكَ أَحَدٌ .

ويقال : ينصرُك على هواكَ وَنَفْسِكَ ، وينصرُك بِعَمْسِ خُلُقِكَ ومقاساةِ الأذى من قومك .
ويقال نصرأ عززاً : مُعِزّاً لَكَ وَلِنَ آمِنَ بِكَ .

وهكذا اشتعلت هذه الآية على وجوه من الأفضال أكرمَ بها نبيُّه — صلى الله عليه وسلم — وخصَّ بها من النصح والطَّفر على النَّفس والعلو ، وتيسر ما اتفق على غيره ،
والنفرة ، وإتمام النعمة والهداية والنصرة . . . ولكلٍّ من هذه الأشياء خصائصٌ عظيمةٌ .

قوله جل ذكره : « هو الذي أنزل السَّكينةَ في قلوبِ

المؤمنين » . .

السَّكينةُ ما يسكنُ إليه القلبُ من البصائر والحُجج ، فيرتق القلبُ بوجودها عن حدِّ
الفكرة إلى رَوْجِ اليقين وثَلَجِ القوادر ، فتصير العلومُ ضرورةً^(١) . . . وهذا للخواصُّ .

فأما عوامُّ المسلمين فالمرادُ منها : السكونُ والطَّمانينةُ واليقينُ .

ويقال : من أوصافِ القلبِ في اليقين للمعارف والبصائر والسَّكينةُ .

وفي التناسير : السَّكينة ريحٌ هَنَاقَةٌ . وقالوا : لما وجهٌ كوجهِ الإنسان . وقيل لها جناحان .

« ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »

أى يقيناً مع يمينهم وسكوناً مع سكونهم . تطلع أقارُ عين اليقين على نجوم علم اليقين .
ثم تطلع شمسُ حقِّ اليقين على بَدْرِ عين اليقين .

« وَفِيهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ

اللهُ عَلَيْهَا حَكِيماً » .

« جنود السموات والأرض » : قيل : هي جميع القلوب البالغة على وحدانية الله .

ويقال : مُلْكُ السموات والأرض وما به من قوى تقهر أعداء الله .

(١) لى لا يعدد كسبه حيث لم يبد للإنسان من نفسه لنفسه شيء .

ويقال : ثم أنصارُ دينه .

ويقال : ما سلَّطه الحقُّ على شيء فهو من جنوده ، سواء سلَّطه على وليِّه في الشدة والرخاء ، أو سلَّطه على عدوِّه في الراحة والبلاء .

قوله جل ذكره : « لِيَدْخُلَ لِلْإِيمَانِ لِلزُّمَنِ وَالزُّمَنِاتِ جَنَّتِ
تَجْرِي مِنَ مَحْمِيَا الْأَنْهَارِ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَوَابَهُمْ » ، وكان ذلك
عند الله فوزاً عظيماً .

يَسْتُرُ ذُنُوبَهُمْ وَيُعْطِيهِمْ عَنْهُمْ . . . وذلك فوزٌ عظيم ، وهو الظفرُ بالبغية^(١) .
وسُؤْلُ كُلِّ أَحَدٍ وَمَأْمُولُهُ ، وَمُبْتَغَاهُ وَمَقْصُودُهُ غَيْفٌ . . . وقد وَعَدَ الْجَمْعَ ظَفَرًا بِهِ .

قوله جل ذكره : « وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ ، الْعَظَائِقَ بِالْفِئَةِ ظَنِّ السَّوَةِ
عَلَيْهِمْ حَاقَّةٌ السَّوَةِ » .

يُعَذِّبُهُمْ فِي الْأَجَلِ بِمَذَابِهِمْ وَسَوْءِ عِقَابِهِمْ .

« ظَنِّ السَّوَةِ » : هو ما كان بنير الإِذْنِ ؛ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَتَنْبِيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامَ .
« عَلَيْهِمْ حَاقَّةٌ السَّوَةِ » : عَاقِبَتُهُ تَدُورُ عَلَيْهِمْ وَتَحْبِقُ بِهِمْ .
« وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ » : أَبْهَمَ عَنْ فَضْلِهِ ، وَحَقَّتْ فِيهِمْ كَلَّتُهُ ، وَمَا سَبَقَتْ لَهُمْ — مِنْ اللَّهِ سَبْعَانَهُ —
قَسَمَتُهُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً » .
« أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً » : عَلَى أَمْتِكَ يَوْمَ التَّيَامَةِ . وَيَقَالُ : شَاهِدًا عَلَى الرَّسْلِ وَالْكِتَابِ .
وَيَقَالُ : شَاهِدًا بِوَحْدَانِيَّتِنَا وَرَبِّيَّةِنَا . وَيَقَالُ : شَاهِدًا لِأَمْتِكَ بِتَوْحِيدِنَا . « وَمُبَشِّراً » :
لَمْ يَمُنَّا بِالْأَنْبِيَاءِ ، « وَنَذِيراً » : لِمَخْلُوقِ زَاوِجِرٍ وَمُحَذَّرٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْخَلَاةَاتِ .

(١) مَكَلَّافٌ مَوْهَمٌ فِي صِ بَالْتَمَةِ .

وقال : شاهداً من قِبَلِنَا ، وَمُبَشِّرًا بِأَمْرِنَا ، وَنَذِيرًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَنَا وَمِنَا .

قوله جل ذكره : « لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُزَكَّرُوا وَتُوقَّرُوا وَتُسَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا » .

قرى^(١) : « لِيُؤْمِنُوا » بالياء ؛ لأن ذكر المؤمنين جرى ، أى ليؤمن المؤمنون بالله ورسوله ورسوله وينصروه أى الرسول ، ويوقروه : أى يُعْظَمُوا الرسولَ . وتُسَبِّحوه : أى تُسَبِّحُوا الله وتزهوه بكُرَّةٍ وَأَصِيلًا^(٢) .

وقرى^٣ : « لَتُؤْمِنُوا » — بالياء — أيها المؤمنون بالله ورسوله وتُزَكَّرُوا — على المخاطبة . وتُزَكَّرُوا يكون بإشارته بكل وجه على نفسك ، وتُزَكَّرُوا يكون على حُكْمِك . وتُوقَّرُوا يكون باتباع سُنَّتِهِ ، والعلَمُ بأنه سَيِّدُ بَرِيَّتِهِ^(٤) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

وهذه البيعة هي بيعة الرضوان بالحديبية تحت شجرة^(٥) .

وذلك أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعث عِثَانَ الله عنه إلى قريش لِيُكَلِّمَهُمْ فَأَرْجَوْا بَقْتْلَهُ . وأتى عروة بن مسعود^(٦) إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال :

جئت بأوشاب الناس لتفرضَ بِيَضَّتِكَ يَدُكَ ، وقد استعدت قريش قتالكَ ، وكأني بأصحابك

(١) قراءة ابن كثير وابن محسن وأبي عمرو .. وكذلك يسبحوه بالياء ، والباقر بن الياء ، والباقر بن الياء .
(٢) وتلاحظ أن القشيري قد توقف قبل تسبوه فحصلها بالياء ، وهناك من المفسرين من يرى ذلك أيضاً (انظر القرطبي ج ١٦ ص ٢٦٧) .

(٣) مزود الرجل أى ددته معه ونصرته وأيدته — وهو من الأضداد — لأنه قد يأتي بمعنى أدبته وأُستدته .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : وقد رضى الله من المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة والسمرة : شجرة الطلع .

(٥) جاء في السيرة لابن إسحاق ج ٣ ص ٧٧٨ :

بعد أن خرج الرسول صلى الله عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت ، فلما سمعت قريش بذلك استعدت لقتاله مع أنه لم يكن ينوي قتالاً وتماثلت السفراء بينه وبينهم ، وكان كل سفير من قريش يلعب إلى النبي ثم يعود ليقنع قريش بحقيقة نية النبي ولكنهم كانوا لا يرضون بما جاء به ، حتى جاء دور عروة بن مسعود الثاني — وهو عنده قريش غير منهم زوال قنبي وإن قريش قد خرجت معها السود للطفيل ، قد لبسوا جلود الثنور ، يماضون الله لا تدخلها أبداً عليهم منيرة . وحينما قال عروة : وإني والله لكأني بهؤلاء — يريد أصحاب الرسول — قد انكشفوا عنك غداً . فابصرى أبصر بكرة قالوا : انحنى نتكشف عنه ... الخ .

قد انكشفوا! عنك إذا منهم حرّ السلاح ! قال أبو بكر : أنظن أنا نلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فياهمم النبي صلى الله عليه وسلم على أن يُبَاتِلُوا وَالْأَيُّهُرُوا^(١) ، فأنزل الله تعالى :
« إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » : أى عَقْدُكَ عَلَيْهِمْ هُوَ عَقْدُ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » .

أى « يد الله » : فى اللّنة عليهم بالتوفيق والهداية^(٢) : « فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » بالوفاء حين بايئوك .

ويقال : قدرة الله وقوته فى نصرته دينة ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم فوق نصرهم لدين الله ورسوله .

وفى هذه الآية تصريحٌ بعين الجمع^(٣) كما قال : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »
قوله جل ذكره : « فَمَنْ تَكَفَّرَ فَإِنَّمَا يَتَكَفَّرُ عَلَى نَفْسِهِ »
أى عَذَابُ التَّكْفِيرِ عَائِدٌ عَلَيْهِ .

« وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْوَتُهُ
أَجْرًا عَظِيمًا » .

أى من قام بما عاهد الله عليه على التام فمِثْوَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا .
وإذا كان العبد بوصف إخلاصه ، بما ميل الله فى شئ هو به متحقق ، وله بقلبه شاهدٌ
فإن الوسائط التى تظهورها أماراتُ التمرّفاتِ بحمله محوًّا فى أسرارِهِ . . والحكم عندئذ راجعٌ
إلى الواحد — جلّ شأنه^(٤) .

(١) قال جابر بن عبد الله بايئنا رسول الله (ص) تحت الشجرة على الموت وحل ألا نفر فما تكف أحد منا البية إلا به بن قيس وكان منافقاً اخشياً فتمت بطلان بيعه ولم يسمع القوم .

(٢) فلا حظ أن التفرق هنا يؤول اليد حتى ينش عن الله الاتصاف بالمجارحة .

(٣) أنت حين بايئت أو حين ربيت فأنت من حيث الظاهر تقوم بعمل وأنت فى حال الترق ، ولكن الحقيقة أنه لا فاعل إلا الله فمنه التوفيق والسداد والإصابة .. وهذا هو حال الجمع . وبمقدار ما يكون العبد فى منزلة التمكن ويمدأ من التلوين يكون دونه من حال الجمع ، إلى بمقدار حال جمع الجمع .. وثبتنا صلى الله عليه وسلم كان عنده إذ هو صلوات الله عليه محمول لا متحمل ؛ أى يربى لا ينفسه .

(٤) أى إذا أفضى العبد بشئ من المرفان عندئذ فيكون نطقاً وما يظهر عليه من الله وبالله .

قوله جل ذكره : « سيقول لك المحققون من الأعرابِ

شَفَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلوانَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا

يقولون بالستم ما ليس في قلوبهم »

لَمَّا قَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّوَجَّهَ إِلَى الْحَدِيثِيَّةِ تَخَلَّفَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنْهُ. قِيلَ : هُمْ أَسْلَمُ وَجِهِيَّةٌ وَغَفَارٌ وَمَزِينَةٌ وَأَشْجَعٌ ، وَقَالُوا : « شَفَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلوانَا » وَلَيْسَ لَنَا مِنْ يَوْمٍ بِشَأْنِنَا . يَقَالُوا : انْتَظِرُوا مَاذَا يَكُونُ ؟ فَمَا هُمْ فِي قَرِيشٍ إِلَّا أَكَلَةُ رَأْسٍ ^(١) . فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءُوهُ مُتَعَذِّرِينَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَمْ أَحَدٌ يَوْمَ بِأَمْوَالِهِمْ ، وَقَالُوا : اسْتَغْفِرْ لَنَا .

فَأُطْلِعَهُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَى كَذِبِهِمْ وَفَقَاهِهِمْ ؛ وَأَنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ ذَلِكَ اخْتِلَامًا ، وَهِيَ سِوَاةٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

« قُلْ قَدْ يَكُنْ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ مَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ ضَمًّا بَلْ كَانَ

اللَّهُ بِمَا تَسْلُوكُونَ خَبِيرًا »

فَضَحَّيْهِمْ . وَيَقَالُ : مَا شَغَلَ الْمُبْدِعَ عَنِ اللَّهِ شُؤْمٌ عَلَيْهِ .

وَيَقَالُ : عُذْرٌ لِلْمَآذِي وَتَوْبَةٌ لِلنَّافِقِينَ كَلَامًا لَيْسَ حَقًّا .

قوله جل ذكره « بَلْ عَلَنَ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ

إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ

وَعَلَنَ ظَنُّ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

حَسِبْتُمْ أَنْ لَنْ يَرْجِعَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ السَّفَرَةِ إِلَى أَهْلِهِمْ أَبَدًا ، وَزَيَّنَتْ لَكُمْ الْأَمَانِي الْأَيُّودُ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَنْ يَبْصِرَهُمْ . « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » أَيُّ هَالِكِينَ فَاسِدِينَ .

(١) أَيُّ مَمْلُوكٍ .

ويقال : إنَّ العدوَّ إذا لم يقدر أن يكيدَ بيده بشئٍ ما تنقاصر عنه مُكْبِتُهُ ، وتلك صفةُ كلِّ عاجزٍ ، ونستُ كلَّ لئيمٍ . ثم إنَّ اللهَ — سبحانه — يَكْسُ ذلكَ عليه حتى لا يرتفع مراده « ولا يحجى المكرُ السيِّئ إلا بأهله ^(١) » .

ويقال : من العقوبات الشديدة التي يلقبُ اللهُ بها اللُّبَطْلُ أنْ يتصوَّرَ شيئاً يتمناه ويوطِّنَ نَفْسَه عليه لفرط جهله . ويُلقَى الحقُّ في قلبه ذلكَ التمتي حتى تسول له نفسه أن ذلك كالكاثرين .. ثم يعذبه اللهُ بامتناعه .

قوله جل ذكره : ومن لم يؤمن باللهِ ورسوله فلإنَّا أخذنا
للكافرين سيراً «

وما هو آت قريب .. وإنَّ اللهَ ليرخي عنانَ الظُّلُمَةِ ثم لا يفلتون من عقابه .. وكيف — وفي الحقيقة — ما يحصل منهم هو الذي يحرمه ^(٢) عليهم ؟

قوله جل ذكره : « وللهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ
غَفوراً رحيماً »

يفغفرُ — وليس له شريك يقول له : لا تفعل ، ويعذب من يشاء — وليس هناك مانعٌ من
فعله يقول له : لا تفعل .

قوله جل ذكره : « سَيَقُولُ الْكَافِرُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى
مِفَازٍ لَتَأْخُذَنَّكُمْ ذُرُوعُنَا وَنَضَحَتُمْ يُرِيدُونَ
أَن يَبْدُلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَّنْ تَتَّبِعُونَا »

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما رجسوا من الحديبية وعلمهم الله خير ،

(١) آية ٤٣ ، سورة فاطر .

(٢) حكنا في ص رمي في م (بحره) بالزوى وقد رجعتا (بحره) أولاً لاتصالها بملعب التشبيري وكون الله — على الحقيقة — فاعل كل شيء حتى أكساب السباد . وثانياً لأنها لو كانت بالزوى لقال : يجزهم عليه .

وَأَنَّ فِيهَا سِيقَرُ بِأَعْدَائِهِ ، فَلَمَّا هَمَّ بِالْخُرُوجِ أَرَادَ هَؤُلَاءِ الْخَافِقُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ لِمَا عَلِمُوا فِي ذَلِكَ مِنْ النِّفْمَةِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّمَا يُخْرِجُ مَنِ إِلَى خَيْرٍ مِنْ خُرُوجٍ إِلَى الْحَدِيدِيَّةِ ، وَاللَّهُ بِذَلِكَ حَكَمٌ لَا يُخْرِجُوا مِنَّا »

قَالَ الْمُتَخَفُونَ : إِنَّمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُونَ ذَلِكَ حَسَدًا لَنَا ؛ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِنُكْذِبِهِمْ ، وَلِيُبَيِّنَ حُكْمَ الْأَيْسَاصِهِمْ فَمَنْ أَهْلُ طَمَعٍ ، وَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا مَرَادَهُمْ ، وَرَدُّوا بِاللَّهْلِ وَافْتَضَحَ أَمْرُهُمْ .

قوله جل ذكره : « قُلْ لِلْمُتَخَلِّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْفَعُونَ

إِلَى قَوْمٍ أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ تَخَاطَبُهُمْ
أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تَطَلَّعُوا يَوْمَ تَكْمِ اللَّهِ
أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَأَن تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ
يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا »

جاء في التفسير أنهم أهل الإمامة أصحاب مسيلة — وقد دعاهم أبو بكر وحاربههم ، فالآية تدل على إمامته . . وقيل هم أهل فارس — وقد دعاهم عمر بن الخطاب وحاربههم ؛ فالآية تدل على حجة إمامته . وصحة إمامته تدل على حجة إمامة أبي بكر . « أُولَى بِأَسْ شَدِيدٍ » أُولَى شَدَّةً . فَإِنْ أَطَعْتُمْ اسْتَوْجِبْتُمُ الثَّوَابَ ، وَإِنْ تَخَلَّفْتُمْ اسْتَوْجِبْتُمُ الْعِقَابَ . ودلت الآية على أنه يجوز أن تكون للبعد بداية غير مرضية ثم يتغير بعدها إلى الصلاح — كما كان لهؤلاء وأنشدوا :

إِنَّا قَدَدَ الْإِنْسَانَ بَدَّ صِلَاحِهِ

فَرَجَّ لَهُ عَوْدَةَ الصَّلَاحِ . . لَهُ

قوله جل ذكره : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) الببارات التي وردت في إثبات صحة الإمامين جاءت في م ولم ترد في م .

يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا

مؤلا: أصحبا الأعداء . . رفع عنهم الحرجَ في تحقُّقهم عن الوقفة في قتال المشركين .
وكذلك مَنْ كان له عُذْرٌ في المجاهدة مع النفس . . فإنَّ الله يحبُّ أَنْ تَوْفَى رُخْصَتُهُ كما
كما يحبُّ أَنْ تَوْفَى عَزَائِمُهُ ^(١) .

قوله جل ذكره: « قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » .

هذه بيعة الرضوان ، وهي البيعة تحت الشجرة بالمدينة ، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى
« قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ . . » .

وكانوا أنا وخمسائة وقيل وثلاثمائة وقيل وأربعمائة . وكانوا قصدوا دخول مكة ، فلما بلغ
ذلك للمشركين قلوبهم صادّين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجاً لحرب ، قصده
المشركون ، ثم صلحوا على أن ينصرف هذا العام ، ويقيم بها ثلاثاً ثم يخرج ، (وأن يكون
بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتدخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً) ^(٢) وكان النبي قد رأى في
منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشر بذلك أصحابه ، فلما صدم المشركون خامر قلوبهم
شيء ، وعادت إلى قلوب بعضهم همّة حتى قال الصديق : لم يقلُ العام ! فسكنت قلوبهم بنزول
الآية ؛ لأنَّ الله سبحانه علم ما في قلوبهم من الاضطراب والتشكك . فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِهِمْ ،

(١) هذه لفظة عامة جداً ، حيث لم تنمُود من القشيري في سائر مصنفاته أن يستجيز الرخصة . وربما هو
يتحدث هنا عن عامة المسلمين ، ولكن حيناً يتحدث عن الصوفية يعتبر الجوار إلى الرخصة بمثابة فسح عند الإرادة
(أنظر الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) ما بين الأقواس تكملة من مطلقا أخذنا فيها على المصادر الخطفة . أوردناها ليوضح الساق

وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ . « وَأَتَاهُمُ فَتْحٌ قَرِيبٌ » هو فَتْحُ خَيْرٍ بِمد مدلة بسيرة ، وما حصلوا عليه من مقامٍ كثيرة من خير . وقيل ما يأخذه إلى يوم القيامة ^(١) .

وفى الآية دليل على أنه قد خطر ببال الإنسان خواطرٌ مُشْكِكَةٌ ، وفى الرَّيب موقعة ، ولكن لا عبرة بها ؛ فإنَّ الله سبحانه إذا أراد ببعد خيراً لازم التَّوْحِيدَ قَلْبَهُ ، وقارن التحقيق سرَّهُ فلا يضرُّه كيدُ الشَّيْطَانِ ، قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ^(٢) .

« وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَنَاقِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا » ويدخل فى ذلك جميع ما يفتنه المسلمون إلى القيامة فيجَلُّ لكم هذه — يعنى خير ^(٣) ، وقيل : الحديبية .

« وَكَفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنْكُمْ » لما خرجوا من المدينة حرسهم الله ، وحفظ عيالهم ، وحى يَنْقُضُهُمْ حين هَبَّ الْيَهُودُ ^(٤) فى المدينة بعد خروج المسلمين ، فغلبهم الله عنهم .
أو يقال : كفَّ أَيْدَى النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيبَةِ .

« وَلَتَكُونَنَّ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا »

لتكون هذه آيةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةٌ يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى حِرَاسَةِ اللَّهِ لَهُمْ .
« وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » : فى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَالثَّقَّةِ بِهِ .

ويقال : كفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنِ الْعِبَادَةِ أَنْ يَرْزُقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، لئلا يمتاح إلى أن يَكْفُفَ النَّاسُ .

ويقال : أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ أَيْدَى الظُّلَمَةِ .

(١) هذا أيضا قول ابن عباس ومجاهد .

(٢) آية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) يرجح أنها غير ، لأن الحديبية كان فيها صلح .

(٤) يرجح الطبرى ذلك ، لأن كفَّ أَيْدَى الْمُشْرِكِينَ فى الحديبية مذكور فى قوله تعالى :
« وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ »

وقال : ألا تحمله الطالبة بسبب كثرة العيال وفتنتهم الكبيرة على الخطر بدنيه ؛ فيأخذ من الأضياء — برخصة التأويل — ما ليس بطيب^(١) .

قوله جل ذكره : « وأخري لم تقصروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً »

قيل : فتح الروم وفارس^(٢) . ولعل : فتح مكة^(٣) .

وكان الله على كل شيء قديراً : فلا تصلقوا بنهره قلوبكم .

قوله جل ذكره : « ولو فأنككم الذين كفروا لؤكروا الأديار ثم لا يحملون ولياً ولا نصيراً »

يعني : خير وأسد وضلعان وغيرهم — لو فأنككم لانهزموا ؛ ولا يحملون من دون الله نصيراً

قوله جل ذكره : « مُسْتَأْنَفُ اللَّهِ التَّى قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا »

أي مُسْتَأْنَفُ اللَّهِ خِلاَتُهُمْ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

قوله جل ذكره : « وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة منْ يَبدَأْكُمْ أَنْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا »

قيل إن سمين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التميم متسلحين يريدون قتله (فأخذناهم سِلَاحًا فاستعينناهم) فأنزل الله هذه الآية في شأنهم^(٤) .

(١) مرة أخرى ننبه إلى إضافة هذا الكلام إلى موقف التشيرى من الرخصة ومداها .

(٢) قال ابن عباس : هي أرض فارس والروم وجميع ما فتحه المسلمون . وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى .

(٣) من الحسن أيضا وقطادة ، وقال عكرمة : حنين .

(٤) في ص ، و م (فأعلمهم سِلَاحًا) ، وما خطأ في النسخ ، فالرواية عن يزيد بن حارون قال : أعبرنا حباد ابن سلمة عن ثابت عن أنس أن (ثمانين) رجلا من أهل مكة هبطوا على النبي (ص) من جبل التميم مسلحين يريدون —

وقيل أخذ اثني عشر رجلا من المشركين - بلا تفصيل - كمن عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) وقيل : هم أهل الحديبية كانوا قد خرجوا لمنع المسلمين ، وحصل تراضى الأجير بينهم ؛ فاضطرم المسلمون إلى يوتهم ، فأنزل الله هذه الآية بمن عليهم حيث كف أيدي بعضهم عن بعض عن قدرة من المسلمين لا عن عجز ؛ فلما الكفار فكفوا أيديهم رعباً وخوفاً ؛ وأما المسلمون فنهتاً من قبل الله ، لما في أصلابهم من المؤمنين - أراد الله أن يخرجوا ، أو لئلا يعلم أن قوماً منهم يؤمنون ..

والإشارة فيه : أن من التهمة الباردة والنعم السنية أن يتلم الناس منك ، وتسلم منهم . وإن الله يفعل بأوليائه ذلك ، فلا من أحد عليهم حيف ، ولا منهم على أحد حيف ولا صاحب ولا مطالبة ولا صلح ولا محاربة ، ولا صداقة ولا عداوة .. وكنا من كان بالحق - وأنشدوا :

فلم يبق لي وقتٌ ليذكر محافٍ

ولم يبق لي قلبٌ لذكر موافٍ .

« قوله جل ذكره : «م الذين كفروا وصدؤكم عن المسجد الحرام والمهدى مكوكاً أن يبلغ محله»

« كفروا » وجعلوا ، « وصدؤكم » ومنعواكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية .

« والمهدى مكوكاً^(٢) » أي منعوا المهدى أن يبلغ منحره ، فعكوفاً حالاً من الهدى أي محبوساً .

١ - مرة (أن يصيبوه حل غلة) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأخذهم سلباً فاستحييناهم . (أي أعلنوا نهراً وأسلموا أنفسهم) وقال ابن الأثير السلم (يكره اللين وتضعها لفتان في الصلح) . وفي رواية قتادة أن النبي سلم : «هل لكم حل ذمة ؟» (أي عهد) قالوا : لا ، فأرسلهم فزلت .
وفي رواية الترمذي أنهم ثمانون رجلاً هبطوا عليه عند صلاة الصبح ، فأخذهم وأحدهم . وذكر ابن هشام أنهم يُسبون للقتل .. ومنهم معاوية وأبيوه .

(١) من قتادة : أن المشركين رموا رجلاً من أصحاب النبي يقال له زُئيم بهم فقتلوه ، فبث النبي عيلاً فأمر بالتي عشر فارساً من الكفار ، فقال لم النبي (ص) : هل لكم حل ذمة ؟ ... الخ .

(٢) في البخاري من ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله (ص) مستترين فقال كفار قريش دون البيت فنصر الرسول وحلق رأسه ، فنحروا بنحره وحلقوا ، وقد غضب الرسول من توقف عن ذلك .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ساق تلك السنة سبعين سنة .

قوله جل ذكره : « ولولا رجال مؤمنون ونساء »

مؤمنات لم تعلم أن تعلم (١) فتصيح
منهم مئة مرة بتير علم ليُدخل الله في رحمته
من يشاء »

لو تسلط عليهم لأصابتهم مئة ومضرة منكم بتير علم لسلطناكم عليهم ولأغترناكم بهم .
وفي هنا تعريف للمبد بأن أموراً قد تنفلق وتتمسك فيضيق قلب الإنسان . . . والله في ذلك
سيره ، ولا يعلم ما يجري من الأمر أن يكون خيراً للمبد وهو لا يدري . . . كما قالوا :
كم مرة حفت بك للكاره خير لك الله . . . وأنت كاره

قوله جل ذكره : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم
الحية حية الجاهلية فأنزل الله سكينته
على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم
كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها
وكان الله بكل شيء عليا »

يعنى الآية (٢) : أى دفنتهم أمة الجاهلية أن يمتروكم عن المسجد الحرام سنة الحديبية ،
فأنزل الله سكينته في قلوب المؤمنين حيث لم يقابلهم بالخلاف والحاربة ، ووقفوا واستقبلوا
الأمر بالسلام .

« وألزمهم كلمة التقوى » وهى كلمة التوحيد تصدُر عن قلب صادق : فكلمة التقوى
يكون منها الاتقاء من الشر .

(١) أن تعلم : بالقتل والإيقاع بهم . يقال وطئت القوم : أى أوقعت بهم . فجهاب لولا محابو والمضى :
ولو أن تعلموا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموا لأن الله لكم في دخول مكة ، ولسلطكم عليهم ، ولكننا
صنا من كان فيها بكم وإيمانهم .

(٢) هكذا في م وهى في ص (الآية) وقد رجعنا الأول .

« وكانوا أحقُّ بها » حسب سابق حُكْمِهِ وقَدِيمِ^(١) عِلْمِهِ ... وكان الله بكل شيء عليماً ،
ويقال : الإلزامُ في الآية هو إلزامُ الإكرامِ ولطف ، لا إلزامُ الإكراهِ وعُتْفٍ ؛ وإلزامُ بُرْ
لا إلزام جبر . .

وكم بأسطين إلى وصلنا

أكفهمو ... لم ينالوا نصيباً

ويقال كلمة التتوي : التواضع بينهم بحفظ حق الله .

ويقال : هي أن تكون لك حاجة فتسأل الله ولا تبديها للناس .

ويقال : هي سؤالك من الله أن يحرُسَكَ من الطامع .

قوله جل ذكره : قد صدقَ اللهُ رسوله الرؤيا بالحق
لتَدْخُلَنَّ السَّجْدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ
آمِنِينَ مُحَقِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ
لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجِئَ مِنْ دُونِ
ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً .

أى صدقه^(٢) في رؤياه ولم يكذبه ؛ صدقه فيما أراه^(٣) من دخول مكة « آمِنِينَ مُحَقِّقِينَ
رُءُوسَهُمْ وَمُقَصِّرِينَ » كذلك أراه لما خرج إلى المدينة وأخبر أصحابه . فوطئ أصحابه نفوسهم
على دخول مكة في تلك السنة . فلما كان من أمر المدينة عاد إلى قلوب بعض المسلمين شيء .
حتى قيل لهم لم يكن في الرؤيا دخولهم في هذا العام ، ثم أذن الله في العام القابل ، فأنزل الله :
« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » فكان ذلك تحقيقاً لما أراه ، فرؤياه صلوات الله عليه حق ؛
لأن رؤيا الأنبياء حق .

(١) مكثاً أي صبراً ومي في م (وقدر) وقد رجعت الأولى .

(٢) أي هل حدث الجار كقولته تعالى : وصفتوا ما عاهدوا الله عليه . ٩ .

(٣) إشارة إلى الرؤيا التي أراه إليها من دخوله وصحبه مكة آمِنِينَ

وكان في ذلك نوع امتحان لهم : « فلم مالم تملوا » أنتم من الحكمة في التأخير ^(١) .
 وقوله : « إن شاء الله » معناه إذ شاء الله كقولهم : « إن كنتم مؤمنين »
 وقيل : فلما على جبة نبيهم إلى التأذّب بتقديم المشيئة في خطابهم ^(٢)
 وقيل يرجع تقديم المشيئة إلى : إن شاء الله آمين أو غير آمين .
 وقيل : يرجع تقديم المشيئة إلى دخول كلمهم أو دخول بعضهم ؛ فإن الدخول كان بعد سنة ،
 ومات منهم قوم .

قوله جل ذكره . « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله
 شهيدا » .

أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين الحنفى ، وشرية الإسلام ليظهره على كل
 ما هو دين ^(٣) ؛ فما من دين يقوم إلا ومنه في أيدي المسلمين سر ؛ وللإسلام العزة والغلبة عليه
 بالحجج والآيات .

وقيل : ليظهره وقت نزول عيسى عليه السلام ^(٤) .

وقيل : في القيامة حيث يظهر الإسلام على كل الأديان .

وقيل : ليظهره على الدين كله بالحجة والدليل .

قوله جل ذكره . « محمد رسول الله والذين معه أشداء
 على الكفار رحماء بينهم »

(١) قد تكون الحكمة في التأخير هو ما يحدث لهم من الخير والصلاح والتفوق وكثرة العدد ، فإنه عليه السلام
 رجع من هذا الموقف إلى خير فافتتحها ، ورجع بأموال وعدة ورجال أضاف ما كان عليه في ذلك العام ،
 وأقبل على مكة في أوبة وعدة . يدك حل ذلك أنهم كانوا عام الحديبية سنة ست عدهم ألف وأربعمائة ، وكانوا بعده
 عشرة آلاف .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك فعلاً إلا إني شاء الله » .

(٣) أى أن (الدين) في الآية اسم جنس ، أو اسم بمعنى المصدر ، ويستوى فيه المفرد والمجمع .

(٤) أى عند نزوله لا يبقى على وجه الأرض كافر .

« أشداء » . جمع شديد ، أى فيهم صلاة مع الكفار .

« رحاء » . جمع رحيم ، وصفهم بالرحمة والتوادف فيما بينهم .

« ... تراهم ركعاً سجداً آيئون فضلاً من الله ورضواناً »

تراهم راكعين ساجدين يطلبون من الله الفضل والرضوان .

« ... سيأهم في وجوههم من أثر السجود »

أى علامة التخشع التى على الصالحين .

ويقال : همى فى القيامة يوم تبيض وجوه ، وأنهم يكونون غداً محجلين .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »^(١)

ويقال فى التفسير : « مه » أبوبكر ، و « أشداء على الكفار » عمر ؛ و « رحاء بينهم »

عثمان ، وتراهم ركعاً سجداً على رضى الله عنهم^(٢)

وقيل : الآية عامة فى المؤمنين .

« ذلك مسئلهم فى التوراة ومسلهم

فى الإنجيل كزورج أخرجه شطأه قازره

فاستنظف فاستوى على سوقه يسحب

الزراع ليغيط بهم الكفار » .

هنا مسئلهم فى التوراة ، وأما مسئلهم فى الإنجيل فكزورج^(٣) أخرجه شطأه أى : فراخه .

(١) جاء فى سنن ابن ماجة : حدثنا اسحاق بن عمار الطائفى قال سمعنا ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كثرت صلاته ... » وقال ابن العربى : هو مضموس على وجه القنط .

(٢) هكذا فى م أما فى ص فلم يرد ذكر الصحابة ورضوان الله عليهم سوى الجزء الأخير الخاص بمل كرم الله وجهه ، وقد يمكن لوئذ ذكرنا ما جاء فى هامش ص ٢٥ - أن نستنبط أن ناسخ ص - الذى هو ناسخ الأصل كما قلنا فى مدخل الكتاب - ربما كان شيئاً .

(٣) فعل هذا يجوز الوقف على (التوراة) ثم يستأنف الكلام فيكون هناك مثلاً . وقال جاهد : هو مثل واحد . وعنه النفس : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم ينتهون نبات الزرع والمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (٤- ص ١٦٤) .

يقال : أشطأ الزرع إذا أخرج صفاره على جوانبه . « فَأَزْرَهُ » أى عاونته . « فاستنظط » أى غلظ واستوى على سوقه ؛ وأَزْرَتِ الصفار الكبار حتى استوى بعضه مع بعض . يعجب هذا الزرعُ الزَّرَاعُ ليفظ بالمسلمين الكفار ؛ شبه النبي (صلى الله عليه وسلم) بالزرع حين تخرج طاقه واحدة ما بنيت حولها فقتلت ، كذلك كان وحده في تقوية دينه بمن حوله من المسلمين .

فَنَـ حَلَّ الآيَةِ عَلَى الصَّحَابَةِ : فَنَـ أَبْضَحَهُمْ دَخَلَ فِي الْكُفْرِ ، لِأَنَّهُ قَالَ : « لِيَفْظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ » أى بأصحابه الكفار . وَمَنْ حَلَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقِيَهُ حُجَّةٌ عَلَى الْإِجْمَاعِ ، لِأَنَّ مَنْ خَالَفَ الْإِجْمَاعَ فَاللهُ يَغَاطِظُ بِهِ الْكُفَّارَ — فَمُخَالَفُ الْإِجْمَاعِ كَافِرٌ .

قوله جل ذكره : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ

مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا »

وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَغْفِرَةً لِلذَّنُوبِ ، وَأَجْرًا عَظِيمًا فِي الْجَنَّةِ قَوْلُهُ : « مِنْهُمْ » لِلْجِنْسِ أَوَّلَ الَّذِينَ خَتَمَ لَهُمُ الْإِيمَانُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[« بِسْمِ اللَّهِ » : إِنْخِلَازٌ عَنْ وَجُودِ الْحَقِّ بِنَتِ
الْقِدَمِ .

« الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » : إِنْخِلَازٌ عَنْ جَنَاحِهِ يَوْصَفِ
الْعِلَاءَ وَالكَرَمَ .

كَاشَفَ الْأَرْوَاحَ بِقَوْلِهِ : « بِسْمِ اللَّهِ » فَهَيَّيْهَا .
وَكَاثَفَ النَّفُوسَ بِقَوْلِهِ : « الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »
فَقَيَّيْهَا ؛ فَالْأَرْوَاحُ دَهَشَتْ فِي كَشْفِ جَلَالِهِ ، وَالنَّفُوسُ
عَطَشَتْ إِلَى لُطْفِ جِلالِهِ] .

عبد الكريم التتيرى

فِي

بِسْمَةِ « الشَّمْسِ »

سُورَةُ الْجُحُرَات

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ كريمٌ مَنْ تَنَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ زَلَّاتِهِ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِبِنَايِهِ ، وَمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِطَاعَاتِهِ تَطَوَّلَ عَلَيْهِ بِدِرْجَاتِهِ .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ عزيزٌ مَنْ قَرَّبَ إِلَيْهِ بِمُنَاجَاتِهِ قَابَلَهُ بِلُطْفِ أَفْضَالِهِ ، وَمَنْ تَحَبَّبَ إِلَيْهِ بِإِعَانَةِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِكَشْفِ جَلَالِهِ وَجْهَالِهِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ

يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلِيمٌ » .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » : شهادةٌ لِلنَّادَى بِالشَّرَفِ .

« لَا تَقْدُمُوا » أَمْرٌ بِجَعْلِ الْكَفْلِ قَدَّمَ الْإِكْرَامَ بِالشَّرَفِ عَلَى الْإِثْرَامِ بِالْكَفْلِ أَيْ لَا تَقْدُمُوا بِحُكْمِكُمْ « بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » : أَيْ لَا تَقْضُوا أَمْرًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، أَيْ لَا تَعْمَلُوا مِنْ ذَاتِ أَنْفُسِكُمْ شَيْئًا .

وَيَقَالُ : قُوا حَيْثَا وَقُضِّمَ ، وَافْلُوا مَا بِهِ أَمِرْتُمْ ، وَكُونُوا أَصْحَابَ الْاِتِّدَاعِ وَالْاِتِّبَاعِ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفُوا أَصْوَاتَكُمْ

فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

أمرهم بحفظ حرمة ، ومراعاة الأدب في خدمته ومحبة ، وألا ينظروا إليه بالعين التي ينظرون بها إلى أمثالهم . وأنه إذا كان بخلقه يُلائمهم فينبى ألا يَبْسُطُوا مِمَّه متجاسرين ، ولا يكونوا مع ما يكثرهم به مِنْ تَحَقُّقِهِ عن حدودهم زائدين .

ويقال : لا تبدأوه بحديثٍ حتى يُفَاحِصَكُم .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَتُخَذُونَ أَصْوَابَهُمْ عِنْدَ

رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ

قُلُوبَهُمْ لَتَتَوَّى لَهُمْ مَغْرَةٌ وَأَجْرٌ

عَظِيمٌ » .

هم الذين قنع الكينة عليهم من هبة حضرة ، أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى بانزعاج حُبِّ الشهوات منها ، فآثروا سوء الأخلاق ، وراعوا الأدب .

ويقال : هم الذين انسلخوا من عادات البشرية .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يُتَسَادَّدُونَكَ مِنْ وِزَارِ

الْمُجْرِمَاتِ أَكْثَرُمْ لَا يَتَّقُونَ »

ولو أنهم صبروا حتى تَخْرُجَ إليهم

لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم » .

أى لو عرفوا قَدْرَكَ لَمَا تَرَكُوا حُرْمَتَكَ ، والزموا هَيْبَتَكَ .

ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ، ولم يستعجلوا ، ولم يوقظوك وقت القيلولة بمناداتهم لكان

خيراً لهم ^(١) .

أما أصحابه — صلوات الله عليه وسلامه — الذين يعرفون قَدْرَهُ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ — كافي الخبر :

« كَانَهُ يَقْرَعُ بَابَهُ بِالْأُظْفَارِ » .

(١) يقال : نزلت من قوم من بين تميم منهم الأقرع بن حابس وسويد بن هاشم ، ووكيع بن وكيع ، وعيينة ابن حصن ، وأن الأقرع نال النبي (ص) من وراء حبرته أن أخرج إلينا فإن ممسحاً زيناً ودمناً شيناً . وكان ذلك وقت الظهيرة والنبي في راحته وبعض شفته الخالصة . فاستيقظ وخرج لم .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّي جَاءَكُمْ فَلِئْسَ
بِنَفْسٍ قَنِيئَةٍ أَنْ تُهَيِّبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصَيِّرُوا عَلَى مَا فَضَلْتُمْ نَادِمِينَ » .

دَلَّتِ الْآيَةُ (١) عَلَى تَرْكِ السُّكُونِ إِلَى خَيْرِ الْفَلَسَفِ إِلَى أَنْ يَظْهَرَ حَيْدُهُ .
وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى تَرْكِ الْإِسْتِنَاعِ إِلَى كَلَامِ السَّاعِي وَالنَّامِ وَالْمُنْتَهِبِ لِلنَّاسِ .
وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى قَبُولِ خَيْرِ الْوَاحِدِ إِذَا كَانَ عَدْلًا .
وَالْفَلَسَفُ هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ (٢) . وَقَالَ هُوَ الْخَارِجُ عَنْ حَدِّ اللَّوَدَةِ .
وَقَالَ : هُوَ الَّذِي أَتَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ .

قوله جل ذكره : « وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُبَيِّتُكُمْ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ لَعَنَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ » .

أَيُّ لَوْ وَاقَكُمْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا تَطْلُبُونَ مِنْهُ لَوَقَعْتُمْ فِي الْمَنْتِ
— وَهُوَ الْفَسَادُ (٣) . وَلَوْ قَبِلَ قَوْلَ وَاحِدٍ (قَبِلَ وَضُوحَ الْأَمْرِ) لَأَصَابَتْكُمْ مِنْ ذَلِكَ شِدَّةٌ .
وَالرَّسُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَا يُعْطِيكُمْ فِي أَكْثَرِ الْأُمُورِ إِذَا لَمْ يَرَفِ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَكُمْ
وَلِلَّذِينَ .

(١) يُقَالُ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيِّ بْنِ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مُسَيْبٍ .. أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ (ص) لِيَجِسَّ السُّدُقَاتِ مِنْ بَنِي الْمُصَلِّقِ .
فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ تَقَدَّمُوا نَحْوَهُ فَهَاجَمُوا ؛ فَقَدْ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ إِسْتِئْذَانٌ .. فَمَادَ مِنْ فُورِهِ إِلَى النَّبِيِّ وَآخِرُهُ أَنَّهُمْ ارْتَدَوْا عَنْ
الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَقْنَعْ النَّبِيُّ (ص) بِمَا سَمِعَ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ خَالَهُنَّ الْوَلِيدَ لِيُثَبِّتَ مِنَ الْأَمْرِ فَأُخْبِرُوهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِإِسْلَامِهِمْ ،
وَأَنَّهُمْ كَانُوا خَارِجِينَ إِلَى صِفْرِ النَّبِيِّ لِإِكْرَامِهِ ، وَاسْتَيْقَنَ خَالَهُ مِنْ ذَلِكَ حِينَ سَمِعَ أَذَانَهُمْ وَصَلَاتَهُمْ .. فَمَادَ إِلَى النَّبِيِّ
وَجَلَّ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ .

(٢) مُشْتَقٌّ مِنْ فَسَّطَتِ الرُّطْبَةَ أَيُّ خَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَالْفَأْرَةُ مِنْ جَهْرِهَا .

(٣) لَمَسَتْ مَعَانٍ أُخْرَى : فَهُوَ: التَّجَوُّرُ وَالزَّنَا — كَمَا جَاءَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ . وَهُوَ: الْوُقُوعُ فِي أَمْرٍ شَاقٍّ كَمَا جَاءَ
فِي آخِرِ سُورَةِ بَرَاءَةِ .

« ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ » : الإسلام والطاعة والتوحيد ، وزَيَّنَهَا فِي قُلُوبِكُمْ .

« وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْمِصْيَانَ . . . » : هذا من تلوين الخطاب .

وفي الآية دليلٌ على صحة قول أهل الحقِّ في التَّدَرُّسِ^(١) ، وتخصيص المؤمنين بالطَّافِ
لا يشترك فيها الكفارُ - ولولا أَنَّهُ يَوْفَرُ الدَّوَاعِيَ لِلطَّلَاعَاتِ لَحَصَلَ التَّغْرِيطُ والتَّصْمِيرُ
في المباداتِ .

« فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً » : أَيْ فَمَلَّ هَذَا بِكُمْ فَضْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً . والله عليم حكيم .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ^(٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا

فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَقِيَ إِحْدَاهُمَا عَلَى

الْأُخْرَى فَاتَّبِعُوا الْتَّى بَقِيَ حَقٌّ تَقَى ، إِلَى

أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَائِزًا فَاصْلَحُوا بَيْنَهُمَا

بِالدَّلِيلِ وَأَقْبَطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ » .

تدل الآية على أن المؤمن بفسقه — والنفس دون الكفر — لا يخرج عن الإيمان لأن
إحدى الطائفتين — لا محالة — فاسقة إذا اقتتلا .

وتدل الآية على وجوب نصرته المظلوم ؛ حيث قال : « فَإِنْ بَنَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَى . . . » .

والإشارة فيه : أن النفس إذا غَلَبَتِ القلب بدعائه إلى شهواتها ، واشتغالها في فسادها فيجب

(١) يقصد بتشيري أن القائلين بأن الله سبحانه المتفرد بخلق ذوات اليباد وخلق أنفاسهم وصفاتهم واختلاف
أنسهم . . . على صواب لأن الآية صريحة في خلق الأنفال ؛ فهو الذي حَبَّبَ إِلَى الْإِيمَانِ والمَكْسُ .

(٢) يقال نَزَلَتْ فِي ابْنِ أَبِي حَتْمٍ وَقَفَّ الرُّسُولُ عَلَى مَجْلِسٍ بِهِ بَعْضُ الْأَنْصَارِ وَهُوَ عَلَى حِجَارٍ فَقَالَ ابْنُ أَبِي :
حُلْ سَبِيلَ حِمَارِكَ فَقَدْ آذَانَا ، فَأَنْبَرِي لَهُ عَيْدَ اللَّهِ بَيْنَ رُوَاحَةٍ قَائِلًا :
وَأَقْبَرُ إِنْ بُولَ حِمَارِهِ لِأَطْيَبٍ مِنْ مَسْكِكَ .

وبعد أن مضى الرسول (ص) طالع الخوض يبيها حتى استبَّ وتجاهلها ، واشتبك الأوس والخزرج وتجاهلوا
بأنفسهم . وقيل بالأبدي والسمال والسلف ، فرجع الرسول (ص) إليهم فأصلح بينهم .

أن يقاتلها حتى تشحن بالجراحة بسيف الجهادة . فإن استعجاب إلى الطاعة يُعفى عنها لأنها هي للطنية إلى باب الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَأَقْرَبُوا اللَّهُ لَكُمْ تُرْحَمُونَ . »

إِغْلُغُ الصِّلَحُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِمِينَ مِنْ أَوْكَدِ عِزَائِمِ الدِّينِ .

وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وَزْرِ الوائى والنَّامِ ؛ وَلِلصَّدْرِ فِي إِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ .
(ويقال إنما يتم ذلك بقسوة القلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْقَ حِمِّهِ بغيرِ في إصلاح ذات البين) (١) فإنه يرفع عنهم تلك المصيبة (٢) .

فأما شرط الأخوة : فَمِنْ حَقِّ الْأَخُوَّةِ فِي الدِّينِ الْأَخْوَجُ أَخَاكَ إِلَى الْإِسْتِغْنَاءِ بِكَ أَوْ التَّمَسُّكِ بِالنَّصْرَةِ عَنْكَ ، وَالْأَقْرَبُ فِي تَقَدُّرِ أَحْوَالِهِ بِمِثْلِ عَيْشِكَ عَلَيْكَ مَوْضِعَ حَاجَتِهِ فَيَحْتَاجُ إِلَى مَسَائِدِكَ .

وَمِنْ حَقِّهِ أَلَّا تُلْجِئَهُ إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِكَ بَلْ تَبْطِئَ عُدْرَهُ ؛ فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ وَجْهَهُ عُدَّتْ بِاللَّامَةِ عَلَى فَسْكَ فِي خِفَاءِ عُدْرِهِ عَلَيْكَ وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَتَوَبَّعَ عَنْهُ إِذَا أَذْنَبَ ، وَتَعُودَ إِذَا مَرَضَ . وَإِذَا أَشَارَ عَلَيْكَ بِشَيْءٍ فَلَا تُطَالِبْهُ بِالْبَدِيلِ عَلَيْهِ وَإِرَازِ الْحُجَّةِ — كَمَا قَالُوا :

إِذَا اسْتَنْجَدُوا لَمْ يَأْلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةٍ حَرْبٍ أَمْ لِأَيِّ مَكَانٍ

وَمِنْ حَقِّهِ أَنْ تَحْفَظَ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ ، وَأَنْ تُرَاعِيَ حَقِّهِ فِي أَهْلِ الْمُتَصَلِّينَ بِهِ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمُنِيبِ ، وَفِي حَالِ الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَاتِ (٣) — كَمَا قِيلَ :

وَحَلِيلُ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَنصَقًا كُنْتَ مَنصَقًا

(١) ما بين القوسين موجود في م وساقط في ص .

(٢) حكنا في م وهي في ص المصيبة ونحن نؤثر الأول للاستيعاب لسياق .

(٣) في هذه الفقرة ما يفسد مزامم الذين يقولون بأن الصوفية قوم النزالين ، لا يهتمون سوى الملائكات الاجتماعية ولا يقدرونها .

تَحْصِي لَهُ الْأَمَرَ بَيْنَ وَكُنْ مَلَأْنَا
إِنْ يَجْلُكَ اسْتَوَاحِرَةً تَ رَضَى لَا تَكَلَّفْنَا

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ
قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ
وَلَا نُمَاءٌ مِنْ نَمَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ
خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ
وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْسِنِ اثْنَيْنِ
الْفُسُوقُ بِدِ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

نَهَى اللَّهُ — سبحانه وتعالى — عَنْ اِزْدِرَاءِ النَّاسِ ، وَعَنِ الْغَيْبَةِ ، وَعَنِ الْاِسْتِهَانَةِ
بِالْحَقِيقَةِ ، وَعَنِ تَرْكِ الْاِحْتِرَامِ .

« وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » : اِى لَا يَمَيِّزَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، كَقَوْلِهِ : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ »^(١) .
وَيُقَالُ : مَا اسْتَمْتَرَ أَحَدٌ أَحَدًا إِلَّا سُلِّطَ عَلَيْهِ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَبَرَ بِظَاهِرِ أَحْوَالِ النَّاسِ
فَلَنْ فِي الزَّوَايَا خُبَايَا . وَالْحَقُّ يَنْتَرِ أَوْلِيَاءَهُ فِي حِجَابِ الضَّمَةِ^(٢) ؛ وَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ :
« رَبُّ أَشْمَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ لَا يُؤْتِيَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ »^(٣) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ
الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا
وَلَا يَمْتَسِبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، الْحَبِّ »

(١) آية ٢٩ سورة النساء .

(٢) لفظة هنا بمعنى خجل الذكر وانتفاء المنظر .

(٣) في بعض الروايات زيادة : « وَإِنَّ الْبِرَّاءَ مِنْهُمْ » ، وَعِنْدَ مُسْلِمٍ بِلَفْظِ « رَبُّ أَشْمَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ » .
الْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » .

أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً
فكرهتوه واتصوا الله إن الله
توابٌ رحيم .

النفس لا تصدق ، والقلب لا يكذب . والتميز بين النفس والقلب مُشْكِلٌ وَمَنْ
جَهِتَ عليه من حظوظه قَبِيَّةٌ — وَإِنْ قَلَّتْ — فليس له أن يدعى يان القلب بل هو بنفسه
مادام عليه شيء من نفسه ، ويجب أن يتهم نفسه في كل ما يقع له من قصاص غيره .. هذا
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يخاطب : « كلُّ الناس أهو من عمر ..
امرأه أهو من عمر » .

« ولا تجسوا » . والعارف لا يفرغ من شهود الحق إلى شهود الخلق .. فكيف
يفرغ إلى تجسس أحوالهم ؟ وهو لا يفرغ إلى نفسه فكيف إلى غيره ؟ « ولا يفتن بضمك
بضاً » : لا تحمل النية للخلق إلا من النية عن الحق .

« أيعب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً .. » جاء في التفسير أن التصود بذلك النية ،
وعلى ذلك يدل ظاهر الآية . وأحسن الكفار وأقلهم قدراً مَنْ يأكل الميتة .. وعزيز رُؤْيَا
مَنْ لا ينتاب أحداً بين يديك .

قوله جل ذكره : « يا أيها الناس ! إنا خلقناكم مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى وَجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إِنْ أكرمكم عند الله اتقاكم إِنْ الله
عليمٌ خيرٌ » .

إنا خلقناكم أجمعكم من آدم وحواء ، ثم جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا لا لتسكثروا
ولا لتنافسوا . فإذا كانت الأصولُ تربيةً ونفقةً وعلمةً .. فالتناحر بماذا ؟ أبا لحماً للسنون ؟ أم
بالنطقة في قرار مكين ؟ أم بما ينطوى عليه ظاهرك مما ترفه ؟ (١) وقد قيل :

(١) ربما نفهم من هذه العبارة ما يقصده القشيري في موضع آخر ماثل من سفرية بالإنسان وتعليم لتجبره .
كأن يقول له : من أنت أيها الإنسان ؟ أنت كتيّف في قميص ! ألا ترى إلى ربيع إبطك إذا عرفت ، والد ربيع
نمك إذا جئت ! ... ونحو ذلك .

إِنَّ آيَاتِنَا تَذُلُّ عَلَيْنَا فَانظُرُوا بِمَدَنَّا إِلَى الْآيَاتِ
 أم بأفلاك التي هي براء مشوبة ؟ أم بأحوالك التي هي بالإعجاب مصحوبة ؟ أم بمعاملتك
 التي هي ملأى بالخيانة ؟

« إن أكرمكم عند الله أتاكم ؟ أتاكم أي أبعدكم عن أنفسه ، فالتوى هي التحرر
 من النفس وأطاعها وحظوظها . فأكرم المباد عند الله مَنْ كان أبعد عن نفسه وأقرب
 إلى الله تعالى .

قوله جل ذكره : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا
 وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » .

الإيمان هو حياة القلب ، والقلب لا يحيا إلا بعد ذبح النفس ، والنفس لا تموت ولكنها
 تتيب ، ومع حضورها لا يتم خير ، والاستسلام في الظاهر لإسلام . وليس كل من استسلم
 ظاهراً مخلص في سره .

« وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ »

في هذا دليل على أن محل الإيمان القلب . كما أنه في وصف المنافقين قال تعالى :
 « في قلوبهم مرض » ؛ ومرض القلب والإيمان ضدان .

« إِنَّمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
 ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا
 بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
 أولئك هم الصادقون » .

جعل الله الإيمان مشروطاً بمخالف ذكرها ، ونص عليها بلفظ « إنما » وهي للتحقيق
 الذي يقتضى طرد العكس ؛ فمن خرج عن هذه الشروط التي جعلها للإيمان فردود
 عليه قوله .

والإيمان يوجب العبد الأمان ، فما لم يكن الإيمان موجباً للأمان نه 'حبه بنيره' أولى .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَتَعْمَلُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

تدل الآية على أن الوقوف^(١) في المسائل الدينية يُعتبر واجباً ؛ فالأسلم منه توأخذ ، والأحكم منه تطلب ، وأوامره متبعة^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَمْتُونُ عَلَيْكَ أَنْ أَسْأَلُوا قُلْ لَا تَعْتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كَمِ الْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

من لاحظ شيئاً من أعماله وأحواله فلن يراها من نفسه كان شركاً ، وإن رآها لنفسه كان مكرماً فكيف بمن المبد بما هو شرك أو بما هو مكر ؟ !

والذي يجب عليه قبول المنة ... كيف يرى لنفسه على غيره منة ؟ ! هذا لمرى فضيحة ! بل المنة لله ؛ فهو ولي النعمة . ولا تكون للمنة منة إلا إذا كان المبد صادقاً في حاله ، فأما إذا كان مملولاً في صفة من صفاته فهي عنة لصاحبها لا منة .

والمنة تُكدر الصنيع إذا كانت من المخلوقين ، ولكن بالمنة تطيب النعمة إذا كانت من قبل الله .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » .

(١) هكذا في م وهي بمنى (التوقف) (والتوقيف) عند بعض الأمور . ولهذا لما جاء في من وهو (التوقيف) عطفاً في التسع .

(٢) فالاتباع واجب ولا يتلذذ مرفوض - كما نبهنا للتشعير من قبل .

وَمَنْ وَقِفْ هَاهُنَا نَكْذَرُ عَلَيْهِ عَيْثُهُ ؛ إِذْ لَيْسَ بِدَرَى مَا غِيَبَهُ فِيهِ ، وَفِي مَعْنَى هَذَا
قَوْلُ الْقَائِلِ :

أَبْكِي .. وَهَلْ تَدْرِينَ مَا يَكْفِي ؟
أَبْكِي خِذَاراً أَنْ قَارِقِي
وَتَقْطَعِي وَشَلِي وَتَهْجُرِي^(١)

(١) نِي (السَّحَابُ) السَّرَاجُ وَتَقْطَعِي (سَبِيلَ) وَتَهْجُرِي (الْمَسَّحُ مِنْ ٣٠٥) وَكَلَامُهَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى مَلَأْتُ الْوُزْنَ .

سُورَةُ

« بِسْمِ اللَّهِ » اسم جَبَرِ أحوالَ مَنْ رَحِمَهُ ، متَجَبَّرٌ بكبريائه على مَنْ أقادَه قَهْرُهُ وحِكمُهُ .

« بِسْمِ اللَّهِ » لطيفٌ يعلمُ خفايا تَصْنَعُ العابدين ، غافراً لجلالِ ذُنُوبِ العاصين .

قوله جل ذكره : « قَدْ وَاتَرَاقَ الْجَبَدِ » .

قَدْ مُتْلَحَ أَسْمَاءُهُ : « قُورَى وَقَادِرٌ وَقَدِيرٌ وَقَرِيبٌ » . . أَسْمَ بِهِذِهِ الْأَسْمَاءُ وَاتَرَاقَ الْجَبَدِ .
وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ وَمَعْنَاهُ لَتُبَيِّنَنَّ فِي الْقِيَلَةِ .

وَيَقَالُ جَوَابُهُ : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ » أَيْ قَدْ عَلِمْنَا
وَحَذَفْتُ اللَّامَ لِمَّا تَطَاوَلَ الْخُطَابُ .

وَيَقَالُ : جَوَابُهُ قَوْلُهُ : « مَا يَدُلُّ الْقَوْلُ لَهَا » .

قوله جل ذكره : « يَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ »

فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ .

« مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » : هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَالْتَعْجَبُ نَوْعٌ مِنْ تَعْيِيرِ النَّفْسِ عَنْ اسْتِعْمَالِهَا لِأَمْرِ خَارِجِ الْمَادَةِ لَمْ يَعْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ قَبْلُ .
وَقَدْ مَعْنَى الْقَوْلِ فِي إِتْكَارِهِمُ اللَّيْثَ وَاسْتِعْمَالَهُمْ ذَلِكَ :

« أَأَنْزَلْنَاهُ مِنْ قُلُوبِنَا وَكُنَّا تَرَاءِبًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ »

أَيْ يَبْعُدُ عِنْدَنَا أَنْ نُبْعَثَ بَعْدَ مَا مِتْنَا . فَيَقَالُ جَلْ ذِكْرُهُ :

« قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ
وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » .

في هذا تلبيةً للمبدئ فإنه إذا وُسِدَّ التراب ، وانصرف عنه الأصحاب ، واضطرب لوفاته
الأحباب .. فَمَنْ يَتَّقِدْهُ وَمَنْ يَتَمَهَّدُ ... وهو في شفير قبره ، وليس لهم منه شيء سوى
ذكره ، ولا أحد منهم يدري ما الذي يقاسيه للسكين في حُفْرَتِهِ ؟ فيقول الحقُّ — سبحانه :
« قَدْ عَلِمْنَا ... » ولله عَجَبُ الْمَلَائِكَةِ قَائِلًا : عَيْدِي الَّتِي أَخْرَجْتَنِي مِنْ دُنْيَاهُ — ماذا بقي بينه
مَنْ يَهْوَاهُ ؟ هذه أجزاؤه قد تَفَرَّقَتْ ، وهذه عِظَامُهُ بَلِيَّتْ ، وهذه أَعْضَاؤُهُ قَدْ تَفَتَّتَتْ !

« وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ » : وهو اللُّوحُ الحَفِيزُ ؛ أثبتنا فيه تفصيل أحوالِ الْخَلْقِ مِنْ
غَيْرِ نِسْيَانٍ ، وَبَيَّنَّا فِيهِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ الْمَبْدُ إِلَى تَذَكُّرِهِ .

قوله جل ذكره : « بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ
فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ » .

« مَرِيجٌ » أي مختلط ومُتَنَبِّسٌ ؛ فهم يترددون في ظُلُمَاتٍ مُعْبِرَةٍ ، ويضطربون في شكِّهم .

قوله جل ذكره : « أَقَلَّمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ
بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » .

أَوَلَمْ يَتَّبِعُوا ؟ أَوَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بِمَا رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ السَّاءَ ، رَفَعْنَا سَمَكُهَا فَسَوَّيْنَاهَا ، وَأَثْبَتْنَا
فِيهَا السَّكَاكِبَ وَبَهَا زَيَّنَّاهَا ، وَأَذَرْنَا فِيهَا شَمْسَهَا وَفَرَّهَا ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ جَلَّسْنَا عَيْنَهَا
وَوَضَعْنَا أُنْفَهَا ؟

« وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَتَقَيْنَاهَا رَوَاسِيَ
وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

والأرض مددناها ؛ فجعلناها لهم مِهَادًا ، وجعلنا لها الْجِبَالَ أَوْتَادًا ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا أَشْجَارًا
وَأَزْهَارًا وَأَنْوَارًا .. كُلُّ ذَلِكَ :

« تَبَيَّرَ وَذَكَرُوا كُلَّ عِنْدٍ مُنِيبٍ »

علامة ودلالة لكل من أناب إلينا ، ورجع من شهود أفعالنا إلى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهود حقنا وذاتنا^(١) .

قوله جل ذكره : « وَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ

جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » .

أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا كَثِيرًا نَفْعٌ وَزِيَادَةٌ ، فَأَنْبَتْنَا بِهِ « جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ » :
أَيُّ الَّذِي يُحْصَدُ — كما يقول : مسجد الجمع .

الأجزاء متجانسة . ولكن أوصافها في الطومم والروائح والألوان والميزات والظواهر مختلفة .

قوله جل ذكره : « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » .

والنخلُ بَاسِقَاتٌ : طويلات ، لها طَلْعٌ منضود بضه فوق بعض لكثرة الطلوع أو لما فيها من النمل . وكيف جعلنا بعض النخل متفرقة كالتفاح والكثري وغيرها ، وكيف جعلنا بعضها مجتمعة كالعنب والرطب وغيرها . كل ذلك جعلناه رزقاً للعباد ولكي ينضموا به .

« ... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدًا مَيِّتًا كَذَلِكَ

الْخُرُوجِ » .

وكما سقنا هذا الماء إلى بلدةٍ جَنَّةٍ نَبَاتُهَا ، وكما فَضَّلْنَا كُلَّ هذه الأشياءِ ونعم فآخرون هم ذلك — كذلك نجممكم في الحشر والتشر ، فليس بَعَثُكُمْ بِأَمَدٍ مِنْ هَذَا .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ

الرُّسُومِ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

(١) هذا الترتيب في منازل للشهود له أهمية في فهم المعراج الروحي منه هذا الإيمان ، وواقعته أنه أصل درجات للشهود شهود الذات .. وذلك بشرائط سبقت الإشارة إليها في غير موضع من الكتاب ، ولكننا مع ذلك لا ننسى أن القشيري — كما نعرف من منهجه — يرى الاستشراق من (الذات) من الحال ، فقد جلت الحسدية عن الإدراك والعرق .. مهما ساء للعبد في معارجه الروحي .

لو • وأصحاب الأيكة وقوم تبع
كل كذب الرسل لحق وعيد .

إننا لم نَجْزَ من هؤلاء - الذين ذكر أسماءهم - وفيه تهديد لهم وتسلية للرسول .

« أقمينا بالخلق الأول ؟ بل هم في
لبس من خلق جديد . »

أى إننا لم نجْزَ عن الخلق الأول . . فكيف نجْزَ عن الخلق الثانى - وهو الإعادة ؟ لم
يتمس علينا فعل شيء ، ولم تنب من شيء . . فكيف يشق علينا أمر البعث ؟ أى ليس كذلك (١) .

قوله جل ذكره : « ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلم ما توسوس
به نفسه ونحن أقربُّ إليه من حبل الوريد » .

نعلم ما توسوس به نفسه من شهواتٍ تطلب استغناها ، مثل التصنع مع الخلق ، وسوء الخلق ،
والخذل . . وغير ذلك من آفات النفس التى تُشَوِّش على القلب والوقت .

« ونحن أقربُّ إليه من حبل الوريد » فحبل الوريد أقربُّ أجزاء نفسه إلى نفسه ، والمراد
من ذلك العلم والقدرة ، وأنه يسمع قوكم ، ولا يشكك عليه شيء من أمرهم .
وفى هذه الآية عيبةٌ وفزعٌ وخوفٌ لقوم ، ودروعٌ وسكونٌ وأنسٌ لقلبٍ لقوم .

قوله جل ذكره : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن
الشمال قيد » .

خوفهم بشهود للامسكة وحضور الحفلة . وبكتابهم عليهم أعمالهم ، فهما قيد (٢) كل

(١) فلاستفهام هنا للإكثار أو التثنية .

(٢) عبر من المعنى بالقرء للدلالة على الاستيناء مثل قوله الشاعر :

وما من بأس كنت منه ووللى
يرى ومن أجل العلى وما
أى وما من بأس كنت منه يرى وكان واللهى من يرى .

أحد : ويقال : إذا كان العبدُ قاعداً فواحدٌ عن يمينه يكتب خيراتِه ، وواحدٌ على يساره يكتب مصائبِه ، وإذا قام فواحدٌ عند رأسِه وواحدٌ عند قدميهِ ، وإذا كان ماشياً فواحدٌ قائمٌ بين يديه وآخرٌ خلفه .

ويقال : هما اثنان بالليل لكل واحدٍ ، واثنان بالنهار .

ويقال : بل الذى يكتب الخيراتَ اليومَ يكون غيره غداً ، وأما الذى يكتب الشر والمصيبة بالأمس فإنه يكون كاتباً للطاعة غداً حتى يشهد طاعتك .

ويقال : بل الذى يكتب المصيبة اثنان ؛ كل يوم اثنان آخران وكل ليلة اثنان آخران لئلا يُعلم من مساويك إلا القليل منها ، ويكون عِلْمُ الماضى مغزوقاً فيهم^(١) .

قوله جل ذكره : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد » .

إنما أشرقت النفسُ على الخروج من الدنيا فأحوالهم مختلفة ؛ فمنهم من يزاد في ذلك الوقت خوفُه ولا يتبين إلا عند ذهاب الروح حاله . ومنهم من يكشف قبل خروجه فيسكن رَوْعَه ، ويحفظ عليه عقله^(٢) ، ويتم له حضوره وتمييزه ، فيسلم الروح على مهلٍ من غير استكراه ولا جبر . . ومنهم ، ومنهم . . وفي معناه يقول بعضهم :

أنا إن ميتاً - والموتى حشوقى - فيداه المسمى يموت الكرامُ

ثم قال جل ذكره : « ونُفِخَ في الصورِ ذلك يومُ

الوعيد * وجاءت كل نفسٌ معها سائقٌ وشيّدٌ » .

سائقٌ يسوقها إما إلى الجنة أو إلى النار ، وشيّدٌ يشهد عليها بما فعلت من الخير والشر .

(١) واضح من ذلك مقدار ما يجهت الصوفية في نفوس الصائفة من تقاليد ورجاء آملاً في فتح باب التوبة

(٢) سقطت (عقله) من النسخة م ، وموجودة في ص .

ويقال له : « لقد كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ

غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

المؤمنون - الْيَوْمَ بَصَرُهُمْ حَدِيدٌ ؛ يُبْصِرُونَ رُشْدَهُمْ وَيَحْذَرُونَ شَرَّهُمْ .

والكافر يقال له غداً : « بَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » أى : ها أَنْتَ عَلِمْتَ مَا كُنتَ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ ؛ فَالْيَوْمَ لَا يُسْمَعُ مِنْكَ خُطَابٌ ، وَلَا يُرْفَعُ عَنْكَ عَذَابٌ .

قوله جل ذكره : « وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي » .

لَا يَخْتَفِي مِنْ أحوالهم شَيْءٌ إِلَّا ذُكِرَ ، إِنْ كَانَ خَيْرًا يَمْجَازُونَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ خَيْرٍ يُحَاسِبُونَ عَلَيْهِ ؛ إِنَّمَا بِرَحْمَةٍ مِنْهُ فَيُغْفَرُ لَهُمْ ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ مِقْدَارِ جُرْمِهِمْ يُعَذِّبُونَ .

« أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ •

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ » .

مَنَّاعٍ لِلزَّكَاةِ الْفَرُوضَةِ .

ويقال : يَمْنَعُ فَضْلَ مَالِهِ وَفَضْلَ كَلِمَتِهِ عَنِ السَّالِمِينَ .

ويقال : يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ ، وَيَسِيءُ الْقَوْلَ فِيهَا حَتَّىٰ يُزْهَقَ النَّاسَ فِيهَا .

ويقال : الْمَنَّاعُ لِلْخَيْرِ هُوَ الْيَمُومَانُ عَلَى الشَّرِّ .

ويقال : هُوَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ : « وَيَعْتَمُونَ الْحَبْلَ » (١) .

« مُرِيبٌ » : أَيْ يُشَكِّكُ النَّاسَ فِي أَمْرِهِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُخْلِصٍ ، وَيُلْبِسُ عَلَى النَّاسِ حَالَهُ

لأنه منافق .

قوله جل ذكره : « قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْلَيْتَنِي وَلَكِنْ

كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

يقول الْمَلَكُ مِنَ الْمَحْفَلَةِ الدُّوْكَالُ بِهِ : مَا أَعْجَبْتَنِي عَلَى الرَّثَّةِ .

(١) آية ٧ سورة الماعون .

وإنما^(١) كَتَبْتُهَا بَدَمًا فَلَمَّا — وذلك حين يقول الكافر : لم أَضِلْ هَذَا ، وَإِنَّمَا أَعْجَلَنِي
بِالْكِتَابَةِ عَلَى ، فيقول التَّائِبُ : رَبَّنَا مَا أَعْجَلَنِي ..

ويقال : هو الشيطانُ القرونُ به ، وحين يلتقيان في جهنم يقول الشيطانُ : مَا أَكْرَهْتَهُ
عَلَى كُفْرِهِ ، وَلَكِنَّهُ ضَلَّ — باختياره — مَا وَسَّوَسْتُ بِهِ إِلَيْهِ .

فيقول جل ذكره : « قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لِي وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ • مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَئِي
وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

لَا تَخْتَصِمُوا لِي الْيَوْمَ وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِالرُّشْدِ وَهَيَّيْتُكُمْ عَنِ النَّارِ .

قوله جل ذكره : يَوْمَ تَقُولُ لِيْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ
هَلِ مِنْ مَّزِيدٍ^(٢)

« قول لِيْجَهَنَّمَ ، » وتقول : « القولُ هنا على التَّوَشُّعِ ؛ لِأَنَّ لَوْ كَانَتْ جَهَنَّمَ عَنْ يَمِينِ لَمَّا لَقِيتَ
ذَلِكَ بَلْ يُحْيِيهَا حَتَّى تَقُولَ ذَلِكَ .

« هل من مزيد » : على جهة التَّضْلِيضِ ، وَالِاسْتِزَادَةِ مِنَ الْكُفَّارِ .

ويقال : بَلْ تَقُولُ « هل من مزيد » : أَيْ لَيْسَ فِيَّ زِيَادَةٌ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قِيلَ لَهُ :

يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ : هَلْ تَرْجِعُ إِلَى دَارِكَ ؟ قَالَتْ : وَهَلْ تَرُكُ لَنَا عَقِيلَ دَارٍ ؟^(٣) أَيْ لَمْ يَتْرَكْ ،
فَلَمَّا أَفْهَمَ — تَعَالَى — يَمْلَأُ جَهَنَّمَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالنَّاصَةِ ، فَلَمَّا مَا أُخْرِجَ الْعَصَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَزْدَادًا
غِيْظُ الْكُفَّارِ حَتَّى تَمْتَلَأَ بِمِجْمُوعِهِمْ .

(١) مَكَلَّأَ فِي مَوْجِئِهِ قَوْمًا (مَا) وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَا .

(٢) مِنْ تَجَادَدٍ مِنْ أَنَسٍ مِنَ النَّبِيِّ (ص) قَالَ : يَأْتِي فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ حَتَّى يَضَعُ قَدَمَهُ فَيَقُولُ
قَطْ قَطْ . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : يَقَالُ لِيْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ فَيَضَعُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَمَهُ
عَلَيْهَا فَيَقُولُ : قَطْ قَطْ (البخاري ٣٠ ص ١٢٨) .

(٣) عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ (ص) قَالَ : يَأْتِي رَسُولُ اللَّهِ ،
أَبْنُ نَزْلٍ خَدًى ؟ قَالَ بَلَى (ص) : وَهَلْ تَرُكُ لَنَا عَقِيلَ مَنْزِلٍ ؟ ثُمَّ قَالَ : لَا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ
الْمُؤْمِنَ (البخاري ٣٠ ص ٤٢) .

قوله جل ذكره : « وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ اللَّتَيْنِ غَيْرَ بَعِيدَ » .

يقال : إِنَّ الْجَنَّةَ قُرْبُ من اللتين ، كما أَنَّ النَّارَ بُحْرٌ بِالسَّلاسلِ إِلَى الحِشْرِ نحو الجرمين .

ويقال : بَلْ قَرَبَ الْجَنَّةَ يَأْنٍ يَسْهَلُ عَلَى اللَّتَيْنِ حَشْرُهَا وم خواص الخواص .

ويقال : م ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : قَوْمٌ يُحْشَرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مَشَاءً وَمَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ : « وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ^(١) » — وَمَ عَوَامُ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) وقوم يحشرون إِلَى الْجَنَّةِ رُكْبَانًا عَلَى طَاعَتِهِمْ لِلصُّورَةِ لَمْ بِصُورَةِ حَيَوَانَ ، وَمَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ جَلَّ وَعَلَا : « يَوْمَ نُحْشَرُ لِلتَّائِبِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ^(٣) » — وَمَوْلاهُ مَ الْخُصَاصُ وَأَمَّا خَاصُ الْخَاصِ فَهَمُ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ : « وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ اللَّتَيْنِ » أَيْ قُرْبُ الْجَنَّةِ مِنْهُنَّ

وقوله : « غَيْرَ بَعِيدَ » نَأْكِذٌ لقوله : « وَأَزَلَّتِ » .

ويقال : « غَيْرَ بَعِيدَ » : مِنْ الْعَاصِينَ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ .

الْأَوَّابُ : الرَّاجِعُ إِلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أحواله .

« حَفِيفَ » : أَيْ مُحَافِظٌ عَلَى أوقاته ، (وَيَقَالُ مُحَافِظٌ عَلَى حَوَاسِهِ فِي اللَّهِ مُحَافِظٌ لَأَخْلَاسِهِ

مَعَ اللَّهِ) ^(٤) .

قوله جل ذكره : « مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ

بِقَلْبِهِ مُنِيبَ » .

الْخُشْيَةُ مِنَ الرَّحْمَنِ هِيَ الْخُشْيَةُ مِنَ التَّرَاقِقِ . (وَالْخُشْيَةُ مِنَ الرَّحْمَنِ تَكُونُ مَقْرُونَةً بِالْأَنْسِ ؛

وَلَقَدْ لَمْ يَقُلْ : مَنْ خَشِيَ الْجَبَلَّ وَلَا مَنْ خَشِيَ التَّهَلَّلَ) ^(٥) .

(١) آية ٧٢ سورة الزمر .

(٢) مَا بَيْنَ الْقَتْمَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي م

(٣) آية ٨٥ سورة مريم .

(٤) مَا بَيْنَ الْقَتْمَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَسَاقِطٌ فِي م .

(٥) مَا بَيْنَ الْقَتْمَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَسَاقِطٌ فِي م .

ويقال : الخشية من الله تخفض العلم بأنه يصل ما يشاء وأنه لا يتألم عما يفعل .

ويقال : الخشية أطفأ من الخوف ، وكأنها قرية من المياه^(١) .

« وجاء قلب متيب » : لم يقل بنفسه مطيعة بل قال : قلب متيب ليكون المعصية في هذا أملاً ؛ لأنهم — وإن قصروا بنفوسهم وليس لهم صدق القدر — ظلم الأنف بطوبهم وصدق الندم .

قوله جل ذكره : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » .

أى يقال لهم : ادخلوها بسلامة من كل آفة ، ووجود رضوان ولا يستدل عليكم الحق أبداً .

ومنهم من يقول له للكَ : ادخلوها بسلام ، ومنهم من يقول له : لكم ما تشاؤون فيها — قال تعالى :

« لم ما تشاؤون فيها ولقد بشا مزيد » .

لم يقل : « لم ما يألون » بل قال : « لم ما يشاؤون » : فكل ما يخطر بيلهم فإن سؤالهم بصحتهم لم في الوهلة ، وإذا كانوا اليوم يقولون : ما يشاء الله فإن لم غداً منه الإحسان . . وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

« ولقد بشا مزيد » : اتفق أهل التفسير على أنه الرؤية ، والنظر إلى الله سبحانه^(٢) . وقوم يقولون : للزيد على التواب في الجنة — ولا مغفلة بينهما .

(١) يقول الحافظ شيخ الفقهري : هي مراتب : الخوف والخشية والمحبة : فالخوف من شرط الإيمان « وعلموا أن كنتم مسلمين » والخشية من شرط العلم : « إنما ينشئ الله من عباده العلماء » . والمحبة من شرط المعرفة : « ويعلمكم الله نفسه » . وقال أبو القاسم الحكيم : الخوف على شرين : رغبة وخشية ؛ فحاسب الرغبة ينتهي إلى الحرب إذا عاف وحاسب الخشية ينتهي إلى قرب (الرسالة ص ٦٥) .

(٢) أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة ، وأنه يراه المؤمنون دون الكافرين ؛ لأن ذلك كرامة من أفاضه تعالى لقوله : « الذين أسعوا الحسن وزهدوا . وجوزوا للرؤية بالقلوب وأوجبوا بالسبح » وإنما جاز في القلوب لأنه موجود ، وكل موجود قبوز رؤيته إذا وضع الله سبحانه فيها للرؤية له ، ولو لم تكن للرؤية جائزة عليه لكان سؤال المحسن عليه السلام : « لئن أنظر إليك جهلاً وكفراً . وجاء السبح بوجوه في مثل » .

قوله جل ذكره: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ م أَشَدُّ

مِنْهُمْ يَلْبَثُوا فَنَنْفِثُ فِي الْبِلَادِ.. هل

من يحصى ؟» .

أى اعتبروا بالذين هَدَمُواكم ؛ انهكموا فى ضلالتهم ، وأَصْرُوا ، ولم يَقْلَمُوا .. فأهْلَكْنَاهُمْ
وما أَبْقَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا .

قوله جل ذكره: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» .

قيل : « لمن كان له قلب » : أى من كان له عقل . وقيل : قلب حاضر . ويقال قلبٌ على
الإحسان مُقْبِل . ويقال : قلبٌ غيرُ قلبٍ .

« أو ألقى السمع » : استمع إلى ما يتكذى به ظاهره من الخلق وإلى ما يهود إلى سره
من الحق^(١) . ويقال : لمن كان له قلبٌ صَاحِبٌ لم يَسْكُرْ^(٢) من الغفلة . ويقال : قلبٌ يمد
أَنفَاسَهُ مع الله . ويقال : قلبٌ حَيٌّ بنور اللوامة . ويقال : قلبٌ غيرُ مُعْرِضٍ عن
الاعتبار والاستبصار .

ويقال : « القلبُ — كافي الخليل — بين إصمين من أصابع الرحمن » : أى بين فصتين ؛
وهما ما يدفعه عنه من البلاء ، وما يتفقه به من النِّجَاء ، فكلُّ قلبٍ مَنَعَ الحقَّ عنه الأوصافَ
النعيميةَ وَالزَّمَّةَ النُّمُوتِ الحَيِّدَةَ فهو الذى قال فيه: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» .
وفى الخليل: «إِنَّ اللَّهَ أَوَّاهٌ أَلَّاهٌ القلوب ، وأقربها من الله مَلُوقٌ وصفاً شبه القلوب
بالأَوَّاهِ ؛ قلبُ الكافرِ منكوسٌ لا يدخل فيه شئ ، وقلبُ المنافقِ إمَّاءٌ مكسور ، ما يُثْنَى فيه
من أوله يخرج من أسفه ، وقلبُ المؤمنِ إمَّاءٌ صحيح غير منكوس يدخل فيه الإيمانُ وَيَبْقَى .

« كلا إنيهم من درجہ يومئذ مجبورون . « ووجوه يومئذ ناجية إلديها ناطرة .. « وقوله «ص» .. إنكم سترون
ربكم كما ترون القمر ليلة القدر لا تغيبون فى رؤيتہ يوم القيامة . وأجمعوا على أنه لا يرى فى الدنيا بالأبصار ،
ولكن بالقلوب ؛ لأن الدنيا دار غناء ولا يشرى الباقى فى الدار الآتية .. وحى على الصوم رؤية بلا كيفية ولا إحاطة .

(١) حكلا فى م وحى فى ص (الخلق) وحى غطا فى التسع .

(٢) حكلا فى م وحى فى ص (يسكن) وحى غطا فى التسع .

ولكن هذه القلوب غفلة؛ قلبٌ مُطْلَعٌ بالاضلالت وفنون الآفات؛ فالشرابُ الذي يُتَقَى فيه يصحبه آثر، ويطلع به .

وقلبٌ صفا من الكدورات وهو أملاها قَدْرًا .

قوله جل ذكره : « ولقد خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

وما بينهما في ستةِ أَلَمٍ وَمَا تَكُنَّا مِنْ

لُغُوبٍ » .

وَأَنى يَمَكُّهُ الْغُوبُ .. وهو صَدَدٌ لَا يَحِلُّثُ فِي ذَاتِهِ حَادِثٌ ؟ !

قوله جل ذكره : « فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

الغروبِ » .

إِن تَأَذَّنْ مُتَمَلِّكٌ بِمَا يَقُولُونَ فِيَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَقَدَّسُ عَنْهَا تَقَى فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ،

وَاسْتَرْحِ عَنْ ذَلِكَ بِتَسْيِيطِكَ لَنَا .

« وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُورِ » .

فَاللَّيْلُ وَقْتُ الظُّلَّةِ — وَالسَّهَاءُ فِي الظُّلَّةِ أَتَمُّ وَأَصْنَى .

قوله جل ذكره : « وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادَى لِلنَّاسِ مِنْ مَكَانٍ

قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ » .

النِّدَاءُ مِنَ الْحَقِّ — سَبْحَانَهُ — وَارْدٌ عَلَيْهِمْ ، كَأَنَّ النَّجْوَى مُحَصَّلٌ دَائِمًا بَيْنَهُمْ . وَالنِّدَاءُ

الَّذِي يَرُدُّ عَلَيْهِمْ يَكُونُ بِنَفْتَةٍ وَلَا يَكُونُ لِلْعَبْدِ فِي إِفْهِهِ اخْتِيَارٌ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ » .

إِلَيْنَا مَرْجِعُ الْكُلِّ وَمَصِيرُهُمْ .

قوله جل ذكره: «يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ يِرَاعًا
ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ» .

هذا يبرر علينا: سواء خلقناهم جملةً أو فرادى^(١)؛ قال تعالى: «ما خلقكم ولا بشكم
إلا كنفساً واحدة»^(٢) .

قوله جل ذكره: «مَنْ أَعْلَمَ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِعَاقِلٍ فَلَكَ كُوفٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخْلَفُ
وَعَيْدٌ» .

ما أنت عليهم بمُعَلِّلٍ تُكْرِهُهُمْ .

وإنما يُؤثِّرُ الضعيفُ والإنذارُ والتذكيرُ في الخلقين ، فَأَمَّا مَنْ لَا يَخَافُ فَلَا يَسْمَعُ فِيهِ
الضعيفُ — وطيرُ السماءِ على آلافها تنعُ .

(١) حكايا في من وحي ق م (فرداً)
(٢) آية ٢٨ سورة لقمان .

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

بسم الله كلمة عزيزة مَنْ ذَكَرَهَا عَزَّ لِسَانُهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا اعْتَزَّ بِصَحْبَتِهَا جَنَانُهُ
« بسم الله » كلمة للألباب غلبة ، كلمة لأرواح الحيين سلاية .

قوله جل ذكره : « والطارياتِ ذُرُوءًا • فالطاملاتِ وقرأ •
فالطارياتِ يُشْرَأ • فالتَّمَسَّكُتِ أَمْرًا •
إِنَّا نُوَعِدُونَ لَصَادِقٌ • وَإِنَّا
الَّذِينَ نُوَاقِعُ » .

والطارياتُ : أى الرياح الخملات « وقرأ » أى السحاب « فالطاريات » أى السفن .
« التَّمَسَّكُتِ أَمْرًا » أى للالتصاك .. أقسم يربُّ هذه الأشياء بقدرته عليها . وجواب القسم :
« إِنَّا نُوَعِدُونَ لَصَادِقٌ » ، والإشارة في هذه الأشياء أن من جلة الرياح . الرياح البصحية^(١)
تعمل أنين للشتاقين إلى ساحل المَرْءِ فيآى نسيمُ القربةِ إلى مَشَامِ أسرارِ أهلِ الحبة ..
فمنذئذ يمدون راحةً من غَلَبَاتِ القوعة ، وفي مناه أنشدوا :

وإني لأستهدى الرياحَ نسيكُم
وإذا أقبلتَ من أرضكُم بهبوب
وأسألتُها حِلَّ السلامِ إليكو فإني يومًا بَلَّكتُ .. فأجيبى

ومن السحاب ما يطر بمتاب النية ، ويؤذن بهواجم التوى والفرقة . فلذا عن لهم من
ذلك شئ أبصروا ذلك بنور بصائرهم ، فيأخذون في الابتغال ، والتضرُّع في السؤال استملاذةً
منها .. كما قالوا :

(١) إشارة إلى صيحاتهم عند اشتداد البرد .

أقول — وقد رأيتُ لها سحاباً من المجران مقبلة إلينا
وقد سحّت عزاليها^(١) بينَ حوائنا الصدود ولا علينا
وكأقد يحملُ لللّاحُ بعضَ الفقراء بلا أجرٍ طمأ في سلامة السفينة — فهؤلاء^(٢) يرجون
أن يحسّلوا في فلكِ السّناية^(٣) في بحار^(٤) القدرة عند تلاطم الأمواج حول السفينة .
ومنَ اللّاشكِّ مَنْ ينزَلُ لتفقد أهل الوصلة ، أو لتمزيّة أهل اللصبة ، أو لأنواع من
الأمر تتصل بأهل هذه القصة ، فهؤلاء القوم يألونهم عن أحوالهم : هل عندهم خيرٌ عن
فراقهم ووصالهم — كما ظنوا :

بربك يا صاحبي قفا يا أسائلكم عن حالهم وأسألانيا
« إنا نواعدون لصديق . وإن الدين لواقع » : الحق — سبحانه — وعدّ الطمعين
بالجنة ، والثابتين بالرحمة ، والأولياء بالقربة ، والمارفين بالوصلة ، وعدّ أرباب المصائب بقوله :
« أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة^(٥) » وهم يتصدون لاستبطاء حُسن المياد — واللهُ
رءوفٌ بالعباد .

قوله جل ذكره : « والسماء ذاتِ الحُبك * إنكم لفي
قولٍ مُختلفٍ * يؤفكُ عنه مَنْ
أفك »

« ذاتِ الحُبك » أي ذات الطرائق الحسنّة — وهذا قسَمٌ ثلثي ، وجوابه : « إنكم لفي
قولٍ مُختلفٍ » يعني في أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم فأحدهم يقول : إنه ساحر ، وآخر يقول :
مجنون ، وثالث يقول : شاعر . . . وغير ذلك .

(١) الأزل من السحاب مالا طريقه (الوسط ج ٢ ص ٦٠٥) .

(٢) بقصة الصوفية .

(٣) حكاه في ص وهي في م (الكفاية) .

(٤) حكاه في ص وهي في م (عالم) .

(٥) إشارة إلى الآيتين ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

« الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » .

والإشارة فيه إلى القسم بسماء التوحيد ذات الزينة بشمس العرفان ، وقر الحبة ، ونجوم
 التُّرب .. إنكم في باب هذه الطريقة لى قولٍ مختلف ؛ كَين مُتَكَبِّرٍ يحسد الطريقة ، ومن
 مُتَرَضٍ يترضى على أهلها يتوهم قسانهم في القيام بحق الشريعة^(١) ، ومن متسبب^(٢) لا يخرج
 من ضيق حدود اليهودية ولا يعرف خبراً عن تخصيص الحق^٣ أوليائه بالأحوال السنية ،
 قال قائلهم :

قد سحبَ الناسُ أذيالَ الظنون بنا وقرَّ الناسُ فينا قولهم فِرَقاً
 فكاذبٌ قدرى بالظنِّ غيرَكم وصادقٌ ليس بدرى. أنه صدقاً
 قوله جل ذكره : « يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَيْتَكَ » .

أى يُصَرِّفُ عنه مَنْ صُرِفَ ، وذلك أنهم كانوا يصدون الناسَ عنه^(٣) ويقولون :
 إنه لجنون .

قوله جل ذكره : « قَتَلَ الْخَاسِرُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ
 سَاهُونَ » .

لَمِنَ الْكَذَّابِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمَرَةٍ الضَّلَالَةِ وظلمة الجهالة ساهون لاهون .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ
 عَلَى النَّارٍ يَنْفَتُونَ * ذُوقُوا فَتَلَّاتِكُمْ
 هذا الذى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

يسألون أيان يوم القيامة ؟ يستعجلون بها ، فلاجل تكذيبهم بها كانت نفوسهم لاتسكن

(١) نلاحظ هنا حرص الإمام القشيري على أن أرباب الحقيقة لا يتكبرون بحال من الأحوال لاي حق من
 حقوق الشريعة .

(٢) هكذا فى ص وهو فى م (مشتق) الذى هو عطافى التنسخ .

(٣) واضح أن القشيري يرى التفسيرق (عنه) الحق فى الآية عائداً إلى الرسول (ص) . ويبيده بفهم المفسرين
 إلى القرآن أو إلى الدين أو إلى (ما توعدون) . ومعنى عبارة القشيري أنه يصرف عنه من صرفه فى سابق علمه .

إلها . ويوم هم على النار يُحْرَقُونَ وَيُذَيَّبُونَ يقال لهم : قلوا عتوبتكم ، هذا الذي كنتم به تَسْتَعِجِلُونَ .

والإشارة فيه إلى الذين يَكْذِبُونَ في أعمالهم لِما يتدخلهم من الرياء ، ويكذبون في أحوالهم لِما يتدخلهم من الإعجاب ، ويكذبون على الله فيما يدعونه من الأحوال . . . قُتِلُوا وَلَئِنَّا . . . وسيقون غيباً عليهم بما يُحْرَمُونَ من اشتام راحة الصدق .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لِلَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَعِیُونَ • آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ » .

في عابهم في جَنَّتِ وَصَلَّيْهِمْ ، وفي آجالهم في جَنَّتِ فَصَلَّيْهِمْ ؛ فنذا درجات ونجاة ، واليوم قُرْبَاتٍ ومناجاة ، فها هو مؤجَّل حظُّ أنفسهم ، وما هو معجَّل حقُّ ربِّهم . هم آخِذِينَ اليوم ما آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ؛ يأخذون نصيبهم منه بِيَدِ الشكر والحمد ، وغداً يأخذون ما يعطيهم ربُّهم في الجنة من قُتُونِ المطاء والرَّغْدِ .

وَمَنْ كَانَ اليومَ آخِذَهُ بلا واسطة من حيث الإيمان والإيمان ، وملاحظة القسمة في المطاء والحرامان . كان غداً آخِذَهُ بلا واسطة في الجنان عند اللقاء والعيان . « إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ » ؛ كانوا ولكنهم اليوم بانوا^(١) ولكنهم بعد ما أعدناهم حصوا واستبانوا . . . فهم كما في الخبر : « أَعْبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ . . . »^(٢) .

قوله جل ذكره : « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ • وبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » .

(١) العارف كائن بان (هذا رأى يحيى بن معاذ : رسالة القشيري ص ١٥٧) والمعنى أنه وإن بدا بين الناس مشاركتهم ويهتفونهم إلا أنه مشتغل عنهم بمسروقه لا يشغل عنه طريقة عين .
(٢) جلد في الخلقة عن زيد بن أرقم : « أَعْبَدَ اللَّهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ نَسَاكَ » ، وأجسب نفسك في الموقف ، وأنت دعوة المظلوم • كذلك رواء الطبراني والبيهقي من معاذ بن عيسى : « أَعْبَدَ اللَّهُ وَلَا تَهْرِكْ بِهِ شَيْئاً وَاصِلْ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، واعد نفسك في الموقف » .

المعنى إِيَّاهُ : كانوا قليلًا وكانوا لا يظلمون إلا بالليل (كقولُه تعالى : « وقليلٌ من عبادي الشكور »^(١)) أو : كان نومُهم بالليل قليلًا ، أو :^(٢) كانوا لا يظلمون بالليل قليلًا^(٣) .

« وبالأسعار هم يستنفرون » : أخبر عنهم أنهم — مع تهمدهم ودُعائهم — يُزِيلُونَ أنفسهم في الأسعار منزلة الماسين ، فيستفرون استصنارًا قَدْرِيهم ، واستصنارًا لِثَنَهم .

والليلُ .. للأحباب في أنس للنجاة ، وللصدا في طلب النجاة . والسهْرُ لم في لياليهم دائمًا ؛ إِيَّاهُ قَرَضُوا أَسْبَرُ أَوْ لِسْدَةً لَهَبٍ ، وإِيَّاهُ لَشَقِيئِي أَوْ قَرَاتِي — كما قالوا :

كَمْ لَيْلَةٍ فَيْكَ لِاصْبَحَ لَهَا أَفْنَيْتِنَا قَابَضًا عَلَى كَبْدِي
قَدْ غَضَّتْ الْعَيْنُ بِالْمَوْجِ وَقَدْ وَضَعَتْ خُلَى عَلَى بَنَانِ يَدِي

وإِيَّاهُ لِكُلِّ أَنْسٍ وَطَيْبِ رُوحٍ — كما قالوا :

سَقَى اللَّهُ حَيْثَا قَصِيرًا مَعَى زَمَانَ الْمَوَى فِي الصَّبَا وَالْجُورِ
لِيَالِيهِ تَحْكِي اسْتِدَادَ لِحَافِلِ لَسِيٍّ عِنْدَ ارْتِدَادِ الْجُفْرِ

قوله جل ذكره : « وفي أموالهم حقُّ للسائل والمحروم » .

السَّائِلُ هو الْمُتَشَكِّفُ ، والمحرومُ هو الْمُتَشَكِّفُ — ويقال هو الذي يحرم منه بترك السؤال .. هؤلاء هم الذين يُعْطَوْنَ بشرط العلم^(٤) ، فأما أصحابُ الرِّوَاةِ : فغيرُ المستحقِّ للملمِ أَوْكَى من المستحقِّ^(٥) . وأما أهلُ الفترة فليس لهم مالٌ حتى تتوجه عليهم مطالبة ؛ لأنهم أهلُ الإيثار — في الوقت — لِكُلِّ مَا يُفْتَحُ عَلَيْهِمْ بِهِ .

(١) آية ١٣ سورة سبأ .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وسقط في ص .

(٣) يقول التنسي : ولا يجوز أن تكون ما نافية على معنى أنهم لا يجعون من الليل قليلًا ويحبونه كله لأن ما نافية لا يصلح ما بعدها نفيًا قبلها فلا تقول : زيدًا ما ضربت (التنسي - ص ١٨٤) .

(٤) أي حسب شرائط الشريعة في الزكاة .

(٥) هكذا في م وهي منطوية بخط فوفها في ص ... والعبارة قد تبدو غامضة ، وقد يكون مراد القشيري — إن صحبت مع العبارة هكذا — أن أهل المروءة لا يظفرون في عطائهم بما تفرسه الشريعة للمستحقين وحسب فإن للمستحق يأخذ ما هو حق له ، وإِيَّاهُ يظلمون دائمًا ويحتجون دائمًا بنفسه النظر عن استحقاق أو عدمه .

قوله جل ذكره : « وفي الأرض آيات للموقنين • وفي

أنفُسكم آيات لتُبهَرُونَ • وفي السماء

رِزْقُكُمْ وما توعَدُونَ • »

كما أَنَّ الأرضَ تحمل كلَّ شيء فكذلك العارف يتحمل كلَّ أحد .

وَمَنْ اسْتَغْلَ أَحَدًا أَوْ تَعَيَّرَ بِرُؤْيَا أَحَدٍ فَلْيَتَبَيَّنْهُ مِنَ الْحَقِيقَةِ ، وَلِطَالَمَتِهِ الْخَلْقَ بَيْنَ
الْفَرَقَةِ — وَأَهْلُ الْخَلْقِ لَا يَتَصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ .

ومن الآيات التي في الأرض أنها يُلقَى عليها كلُّ قنطرة وقامة — ومع ذلك تُنبتُ
كلُّ زهرة ونوزٍ .. كذلك العارف يشرب كلَّ ما يُسقى من الجفاء ، ولا يترشح إلَّا بكلِّ
خُلُقٍ حَلِيٍّ وشِيمَةٍ زَكِيَّةٍ ^(١) .

ومن الآيات التي في الأرض (أَنَّ مَا كَانَ مِنْهَا سَبْعًا يُزَكَّى وَلَا يُعَمَّرُ لَهُ) لَا يَحْتَمِلُ
المعارة — كذلك الذي لَا إِمَانًا لَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُهَيِّئُ ، فَجَابِلُهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ^(٢) كِبَالَتَهُ
البذر في الأرض السبعة .

« وفي أضكم أفلا تبصرون » : أي وفي أضكم أيضًا آيات ، فتها وقاحتها في هتها ^(٣) ،
ووقاحتها في هتها ، ومنها دلوها الرخصة فيما ترى منها وبها ، ومنها أحوالها الرخصة حين تزم
أَنَّ دَرَّةً أَوْ (...) ^(٤) بها أو منها .

« وفي السماء رزقكم وما توعَدُونَ » : أي قسمة أرزاقكم في السماء ، فاللائكة للوُكُلُونِ
بِالأرزاق ينزلون من السماء .

وَيْتَالِي : الداء هاءا المنطوق ، فبالطريق بيت الحب والمرعى .

(١) يقول الجنيدي : « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلَّا كل طيب » ، وقال أيضًا :
« إِنَّ كَالْأَرْضِ يَطْرَحُهَا الْبَرُّ وَالْقَاطِرُ » (الرسالة ص ١٣٩) .

(٢) ما بين القوسين موجود في م وساقط في ص .

(٣) هكذا في م وهي في ص (صفتها) ويبدو أن الهاء اشتبهت على النسخ .

(٤) مشتبهة في النسختين .

قوله جل ذكره: «قَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ

نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

أى فارجعوا إلى الله — والإنسان بإحدى حالتين؛ إمَّا حالة رعية في شيء، أو حالة رعية من شيء، أو حال رجاء، أو حال خوف، أو حال جَلْبٍ نَفْعٍ أو رَفْعِ ضَرٍّ . . وفى الحالتين يعينى أن يكونَ فِرَارُهُ إلى الله؛ فإنَّ النافعَ والضارَّ هو اللهُ .

ويقال: مَنْ صَحَّ فِرَارُهُ إِلَى اللَّهِ صَحَّ قَرَّارُهُ مَعَ اللَّهِ .

ويقال: يجب على العبد أن يفرَّ من الجهل إلى العلم، ومن الهوى إلى التقى، ومن الشكِّ إلى اليقين، ومن الشيطان إلى الله .

ويقال: يجب على العبد أن يفرَّ من ضلِّهِ — الذى هو بلاؤه إلى ضلِّهِ الذى هو كفائته، ومن ضلِّهِ الذى هو سقطه إلى ضلِّهِ الذى هو راحته، ومن ضلِّهِ — حيث قال: «وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ ضَلُّهُ» إلى ضلِّهِ حيث قال: «قَرُّوا إِلَى اللَّهِ»^(١) .

قوله جل ذكره: «وَلَا تَحْمِلُوا مَعَ اللَّهِ لِمَا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ

مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

أَتُخَوِّفُكُمْ أَلَيْمَ عِقَابِهِ إِنْ أَشْرَكْتُمْ بِهِ — فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

ثم بيَّن أنه على ذلك جرَّت عاداتهم فى تكذيب الرُّسُلِ، كأنهم قد توصوا بها بينهم بذلك .
قوله جل ذكره: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَأَنْتَ بِمَلُومٍ» .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَيْسَ تَعْلَمُكَ — بسوء صنيعهم — ملامة^(٢)

قوله جل ذكره: «وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ» .

ذَكِّرْ الماصين عقوبتى ليرجعوا عن مخالفةِ أمرى، وَذَكِّرْ اللطيمين جزيلَ فوائى ليزدادوا

(١) هنا استخدم التثنية ثنائته الكلامية فيما يصل بصفات (الفضل) وصفات (الكفا) (أنظر تقديمنا لكتاب التفسير فى التذكير) .

(٢) مَكَلَّمًا فِى مَوْحَى فِى مَوْحَى (مَلَامَةٍ) وهى عَطَا مِنْ التَّائِبِ .

طاعة وعبادة ، وَذَكَرَ العارفين ما صَرَفَتْ عنهم من بلائى ، وَذَكَرَ الأغنياء ما أَمَحَتْ^(١) لهم من إحسانى وعطائى ، وَذَكَرَ القراء ما أَوْجِبَتْ لهم من صَرَفِ الدنيا عنهم وَأَعَدَدَتْ لهم من لقاءى .

قوله جل ذكره : « وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيُعْبُدُونِ » ما أريد منهم مِنْ رِزْقٍ

وما أريد أن يُطِيعُونِ » إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ اللَّتِينِ » .

الذين اصطفتيهم في آزالى ، وَخَصَّصْتُهُمْ — اليَوْمَ — بِمَحَسَنِ إِقْبَالِى ، وَوَعَدْتُهُمْ جَزِيلَ أَفْضَالِى — مَا خَلَقْتُهُمْ إِلَّا لِيُعْبُدُونِ .

والذين سَخَطْتُ عليهم في آزالى ، وَرَبَّيْتُهُمْ — اليَوْمَ — بِالْغِلْظَانِ فَيَا كَلَفْتُهُمْ مِنْ أَعْمَالِى ، وَخَلَقْتُ النَّارَ لَهُمْ — بِحُكْمِ الْحَقِّى وَوَجُوبِ حُكْمِى فِي سُلْطَانِى — مَا خَلَقْتُهُمْ إِلَّا لِنِجَابِى وَأُنْكَالِى ، وَمَا أَعَدَدْتُ لَهُمْ مِنْ سِلَاسِلِى وَأَغْلَالِى .

ما أريد منهم أَنْ يُطِيعُوا أَوْ يَرْزُقُوا أَحَدًا مِنْ عِبَادِى فَلَنْ الرِّزَاقَ أَنَا .

وما أريد أن يطِيعُونِ فَإِنِّى أَنَا اللَّهُ « ذُو الْقُوَّةِ » : اللَّتِينُ الْقَوِيُّ .

قوله جل ذكره : « فَلَنْ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ

أَعْمَابِهِمْ فَلَا يُسْتَعِيلُونَ » .

لَمْ نَصِبْ مِنْ الْمُنَازِبِ مِثْلَ نَصِيبِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَعْمَابِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ فَلِمَ اسْتَعِيلُوا الْمُنَازِبَ — وَالْمُنَازِبَ أَنْ يَهْوَتْهُمْ ؟ .

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى

يُوعَدُونَ » .

وهو يوم القيامة .

(١) مَكَلَفَتْهُمُ وَهِيَ فِي مِصْ (الْحَدِّ) وَهِيَ فِيهِ مَلَامَةٌ لِهَيْبِاق .

سُورَةُ الطُّورِ

• قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة ما استوت على قلب عارفٍ إِلَّا تَيَسَّنَّه بِكَلَامِهِ ، وما استوت على قلب مُتَأَنِّفٍ إِلَّا أَا كَرَّمَتْهُ بِطَلْفِ أَفْضَالِهِ .. فهي كلمة قَهَّارَةٌ للقلوب .. ولكن لالكلِّ قلب ، مُدْهَبَةٌ للكروب .. ولكن لالكلِّ كُرب .

قوله جل ذكره : « وَالطُّورِ » وكتابٍ مسطورٍ •
في رُكْنٍ منشورٍ .

أقسم الله بهذه الأشياء (التي في مطلع السورة) ، وجواب التَّسْمِ قوله : « إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ » . والطُّورُ هو الجبلُ الذي كُلِّمَ عليه موسى عليه السلام ؛ لِأَنَّهُ مَعْلَقُ قَدَمِ الْأَحْبَابِ وَقَتَّ سَمَاعِ الْخَطَّابِ . ولأنه للوضع الذي سَمِعَ فيه موسى ذِكْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِكْرَ أُمِّهِ حَتَّى نَادَانَا وَمَحْنٍ فِي أَصْلَابِ آبَائِنَا قَال : أَعْطَيْتَكُمْ قَبْلَ أَنْ نَأُولِي « وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ » : مَكْتُوبٍ فِي الصَّاحِفِ ، وَفِي الْقَوَاعِدِ الْمَحْفُوظِ .

وقيل : كتاب لللائكة في السماء يقرءون منه ما كان وما يكون .

ويقال : ما كتب على نفسه من الرحمة لعباده .

ويقال ما كتب من قوله : سبقت رحمتي غضبي ^(١) .

ويقال : هو قوله : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » ^(٢) .

(١) في الحديث أن الله كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إِنْ رَحِمْتِي سَبَقَتْ غَضَبِي .

(٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .

وقال : الكتاب المصور فيه أعمال العباد يُسَطَّى لبياده بأيمانهم وشمالهم يوم القيامة .
« في رقٍّ منشور »^(١) : يرجع إلى ما ذكرنا من الكتاب .

« والبيت للممور » .

في السماء الرابعة^(٢) . وقال : هو قلوب المايدن العارفين للممورة بحجته ومرفته . ويقال :
هي مواضع عباداتهم ومجالس خلواتهم . وقيل : الكمية .

« والسقف للرقوع »

هي السماء . وقيل سماء جميعهم في اللكوت .

« والبحر للسمور »

البحار للملوءة .

أقسم بهذه الأشياء : إنَّ عذابه لواقع . وعذابه في الظاهر ما توعدَّ به عباده العاصين ،
وفي الباطن الحجاب بعد الحضور ، والستر بعد الكشف ، والردُّ بعد القبول .

« مأكله من طاف »

إذا ركَ عَيْلاً أهرَمَ القضاء يرده :

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر - الدهر - شَيْئِلُ

قوله جل ذكره : « يومَ تمورُ السماءَ مَوْرًا » ونسب الجبال

سيرا .

« تمور » : أى تدور بما فيها ، ونسب الجبال عن أماكنها ، فنسب سيرا .

« فويلٌ يومئذٍ للكُفَّرينَ » الذين هم في خوض

يلعبون .

(١) الرق هو الصحيفة أو الجلد الذى يكتب فيه ، منشور لا ختم عليه أو لائح .

(٢) يقابل الكمية مسور بالملائكة .

ويقال : على رب السماء أرزاقكم لأنه صَمَّهَا .

ويقال : قوله : « وفي السماء رزقكم » وما هنا وقف ثم تجسئ : « وما توعدون » .

قوله جل ذكره : « فَوَرَّبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ مِثْلُ

مَا أَنْتُمْ تَنْتَقُونَ » .

أى : إِنَّ الْبَيْتَ وَالنَّشْرَ لَخَلْقٌ .

ويقال : إِنَّ نصري لحمدٍ ولدينى ، ولذى أناكم به من الأحكام — لخلقٍ مثل

مَا أَنْتُمْ تَنْتَقُونَ .

كما يقال : هذا حقٌ مثل ما أنك هاهنا .

ويقال : منناه : « أَنَّ اللَّهَ رَازِقُكُمْ » — هذا القولُ حقٌ مثلنا أنكم إذا سُئِلْتُمْ :

مَنْ رِزْقُكُمْ ؟ وَمَنْ خَالِقُكُمْ ؟ قلتم : اللَّهُ .. فكما أنكم تقولون : إن الله خالق — وهذا حقٌ ..

كذلك القولُ بَأَنَّ اللَّهَ رَازِقٌ — هو أيضاً حقٌ .

ويقال : كما أَنَّ نُطْقَكَ لَا يَحْكُمُ به غيرك فرزقك لا يأكله غيرك .

ويقال : الفائدة والإشارة في هذه الآية أنه حال برزقك على السماء ، ولا سبيل لك إلى

العروج إلى السماء لتشتغلَ بما كلفك ولا تسمى في طلب ما لا تصل إليه .

ويقال : في السماء رزقكم ، وإلى السماء يُرْفَعُ عَمَلُكُمْ .. فلئن أَرَدْتَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكَ

رِزْقُكَ فَأَصْبِدْ إِلَى السَّمَاءِ عَمَلَكَ — ولهذا قالوا : الصلاةُ قَرْنُ بابِ الرِّزْقِ ، وقال تعالى : « وَأْمُرْ

أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا » ^(١) .

قوله جل ذكره : « هل أنك حديثٌ ضيفٌ لإبراهيم

المكرمين » .

(١) آية ١٢٢ سورة طه .

قيل في التفسير : لم يكن قد أتاه خبرهم قبل نزول هذه الآية .

وقيل : كان عددهم اثني عشر ملكاً . وقيل : جبريل وكان معه سبعة . وقيل : كانوا ثلاثة .

وقوله : « المكرمين » قيل لقيامه — عليه السلام — بمحبتهم . وقيل : أكرم الضيف بطلاقة وجهه ، والاستبشار بوفودهم .

وقيل : لم يشكف إبراهيم لهم ، وما اعتذر إليهم — وهذا هو إكرام الضيف — حتى لا تكون من المضيف عليه منة فيحتاج الضيف إلى تحملها .

ويقال : تمام مكرمين لأن غير المدعو عند الكرام كرم .

ويقال : ضيف الكرام لا يكون إلا كريماً .

ويقال : المكرمين عند الله .

قوله جل ذكره : « إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال

سلام قوم منكرُونَ » .

أى سلمنا عليك (سلاماً) فقال إبراهيم : لكم منى (سلام) .

وقوله : « سلاماً » أى لك منّا سلام ، لأنّ السلام : الأمان .

« قوم منكرُونَ » : أى أنتم قوم منكرون ؛ لأنه لم يكن يعرف مثلهم في الأضياف .
ويقال : غُرَبَاء .

قوله جل ذكره : « فرأى إلى أهله فجاء بِسِتْرٍ مَّحِينٍ »

فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون . » .

أى عدل إليهم من حيث لا يعلون^(١) ، وكذلك يكون الروغان^(٢) .

(١) أى من حيث لا يعلم الأضياف .

(٢) وكذلك يكون روغان الكرام : عَفَيفَةً حتى لا يُسبب لأضيافه المهرج .

« فجاء بجبل سمين » فشواه ، وقربه منهم وقال : « ألا تأكلون ؟ » وحين امتنعوا عن الأكل :

« فَأَوْجِسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا :
لَا تَخَفْ ، وَبَشِّرْوه بِبَلَاءٍ عَظِيمٍ » .

تَوَهَّمُ أَنَّهُمْ لَصُومٍ قَالُوا لَهُ : « لَا تَخَفْ » .

« وبشروه ببلاء عظيم » : أى بَشِّرْوه بالولد ، وبقاء هذا الولد إلى أن يصير علياً ؛ والعليم مبالغة من العلم ، وإِنَّمَا يصير علياً بعد كبره .

« فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » .

« فى صرّة » أى فى صيحة شديدة ، « فصكت وجهها » أى فضربت وجهها بيدها كفعل النساء « وقالت عجوز عقيم » : أى أنا عجوز عقيم . قيل : إنها يومها كانت ابنة ثمان وتسعين سنة ، وكان إبراهيمُ ابنَ تسع وتسعين سنة .

« قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

أى قلنا لك كما قال ربك لنا ، وأن نُنْخِرَكَ أَنَّ أَقَّةَ هُوَ الْحَكِيمُ لِأَفْصَالِهِ ، « العليم » الذى لا يخفى عليه شئ^(١) .

« قَالَ فَاخْطُبْكُمْ أَهْلَ الْمَرْسُوكِ ؟ » .

سألهم : ما شأنكم ؟ وما أمرُكم ؟ وما لنا أُرْسِلُكم ؟

« قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ *
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجْرَةً مِنْ طِينٍ *

(١) روى أن جبريل قال فاجز استجبت : انظرى إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جلوسه موزعة مشعة .

مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ • فَأَخْرَجْنَا
مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ •

هم قوم لوط ، ولم نجد فيها غير لوطٍ ومن آمن به .

قوله جل ذكره : « وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

تركنا فيها علامةً يعتبر بها الخائفون — دون القاسية قلوبهم ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » .

أى بحجة ظاهرة بالغة ^(٢) .

... إلى قوله : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِمُونَ » : أى جعلنا بينها وبين الأرض
سمة ، « وَإِنَّا لِقَادِرُونَ » : على أن نزيد في تلك ^(٣) السمة .

« وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَتَنِمَّ لِلْمُهْدُونَ » .

أى جعلناها مهاداً لكم . ثم أننى على نفسه قائلًا : « فَنِمَّ لِلْمُهْدُونَ » .
دلٌ بهذا كله على كمال قدرته ، وعلى علم فضله ورحمته .

قوله جل ذكره : « وَبَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

أى صفتين في الحيوان كالدَّكْرِ والأنثى ، وفي غير الحيوان كالحركة والسكون ، والسواد
والبياض ، وأصناف التضادات .

(١) قيل هي ماء أسود عتق .

(٢) هكذا في م وهي في ص (قاهرة) وكلاهما مقبول في السياق .

(٣) هكذا في م وهي في ص (سلك) والسياق لا يقبل حذ .

قوله جل ذكره: «أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَائِفُونَ» .

أنا أمرهم عقولهم^(١) بهذا؟ أم تعلمهم مجاوزة الحد في ضلالهم وطمعهم قلى هذا؟
قوله جل ذكره: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ لَكُمْ لَيِّظُونُونَ» فليأتوا
بحديث مثله إن كانوا صادقين .
إذا كانوا يزعمون أنك تقول هذا القول^(٢) من ذات نفسك فليأتوا بحديث مثله إن
كانوا صادقين فبأمرهم ومولاك به !

قوله جل ذكره: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَخْلَاقُونَ؟» .

كلّا ليس الأمر كذلك ، بل الله هو الخالق وهم المخلوقون .
أم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ أم عندهم خزائن ربك .
— أى خزائن أرزاقه ومقدوراته؟ أم هم للسيطرون المتسلطون قلى الناس؟ .
أم لم يسلّم يرهون فيه فيستعمون ما يجري فى السموات؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين .
ثم إنه سقّه أحلامهم فقال:

«أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ» .

تألم أجراً فهم من مفرم مشتقون .

أم تألم قلى تبليغ الرسالة أجراً فهم مقلون من المزمم والإلزام فى مثال (بحيث يزعمهم ذلك فى اتباعك؟ .

(١) كانت قریش يدعون أهل الأحلام والهمى — فإستاد الأحلام إل الكفار فى الآية مجاز فيه سفرية منهم .
(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا كى يوضح السياق — فالقشرى كما هو واضح فى آخر السورة لا يسمى سوى كلمات متضبة ، وإما يتم بالمجانب الإشارى — إن وجد .

أَمْ عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ذَلِكَ ؟

أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا^(١) أَمْ أَنْ يَمْكُرُوا بِكَ مَكْرًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ .

أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَمْلِكُ شَيْئًا مِمَّا يَفْعَلُ اللَّهُ ؟ نَذِيرٌ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ! .

قوله جل ذكره : « وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا

يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ » .

أَيُّ إِنْ رَأَوْا قِطْعَةً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً عَلَيْهِمْ قَالُوا : إِنَّهُ سَحَابٌ مَرْكُومٌ^(٢) رُكْمٌ بَعْضُهُ عَلَى

بَعْضٍ وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ مِمَّا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَحَقَّ شَاهِدُوا بِأَعْيُنِهِمْ قَالُوا : إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ، وَلَيْسَ هَذَا عَيَانًا وَلَا مُشَاهَدَةً .

قوله جل ذكره : « فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي

فِيهِ يُصْعَقُونَ • يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ

كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

أَيُّ فَاعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَمُوتُونَ ، يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ،

وَلَا يُنصَرُونَ مِنْ هَذَا بَلَا .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْلَمُونَ » .

دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَمْ عَذَابُ الْقَتْلِ وَالسَّيْرِ ، وَمَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْمَوَانِ وَالْخِزْيِ يَوْمَ

بَدْرٍ وَغَيْرِهِ^(٣) .

« وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَسْلَمُونَ » : أَنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ لِدِينِهِ .

قوله جل ذكره : « وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ

بِأَعْيُنِنَا » .

(١) يُقَالُ هُوَ كَيْدُهُمُ الرِّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِدَارِ الْآخِرَةِ - وَقَدْ يُقَصَدُ بِهِ الْكَفَارُ أَجْمَعِينَ .

(٢) رُكْمٌ ص. (مَكْرُومٌ) وَهُوَ عَطَاءٌ أَوْ التَّسْبِيحُ .

(٣) وَيُقَالُ عَذَابُ النَّفَرِ لِأَنَّهُ يَسْبِقُ الْقِيَامَةَ .

أنت بمأى لنا، وفي نصرتنا .

« فإنك بأعيننا »^(١) : في هذا تخفيف عليه وهو يقاسى الصبر .

« وسبح بحمد ربك حين تقوم » .

أى قوم للصلاة الفروضة عليك .

« ومن الليل فسيحته وإدبار النجوم »

قيل : للغرب والمشاء وركعتا التيميم .

وفي الآية دليل وإشارة إلى أنه أمره أن يذكره في كل وقت ، وألا يخلو وقت من ذكره .

والصبر الحكيم شديداً ، ولكن إذا عرف اطلاع الرب عليه سهل عليه ذلك وهان .

(١) التيميم بالجمع هنا قد يفيد زيادة الرعاية في حق المصطفى صلوات الله عليه ، خصوصاً إذا ذكرنا أنه سبحانه قال في حق موسى عليه السلام «ولصنع على عيسى» فالتعبير في هذه الحالة بالمفرد ، والله سبحانه أعلم .

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» اسمٌ حليمٌ رحيمٌ ، يحلم^(١) فيما يعلم ، ويستمر ما يصبر ويصفر^(٢) ، وعلى العقوبة بقديرٌ ، يورى ويُنقى ، ويسلم ولا يُبدى .

قوله جل ذكره : «والنجم إذا هوى» ما ضلَّ صاحبكم وما غوى

والثريا إذا سقط وغرب . ويقال : هو جنسُ النجوم أقسم بها .

(ويقال : هي الكواكب)^(٣) . ويقال : أقسم بنجوم القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ويقال هي الكواكب التي تُرمى بها الشياطين .

ويقال أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم عند مُنصرفه من المراج .

ويقال : أقسم بضياء قلوب المارقين ونجوم عقول الطالبين .

وجوابُ القسم قوله : «ما ضلَّ صاحبكم وما غوى» : أى ما ضلَّ عن التوحيد قط ، وما غوى : «التي» : تبيينُ الرُّشد . . وفى هذا تخصيصٌ للنبي صلى الله عليه وسلم حيث تولى — سبحانه — الذِّبَّ عنه فيما رُمى به ، بخلاف ما قال لنوح عليه السلام وأُذِنَ له حتى قال : «ليس بي ضلالة»^(٤) ، وهود قال : «ليس بي سفاهة»^(٥) . . وغير ذلك ، وموسى

(١) حكذا فى م وهى فى ص (يكلم) وواضح أنها خطأ من النسخ .

(٢) حكذا فى م وهى فى ص (يفسر) وهى خطأ من النسخ .

(٣) مؤجود فى م وساقط فى ص .

(٤) آية ٦١ سورة الأعراف .

(٥) آية ١٧ سورة الأعراف .

الويل لكلمة قولها الرب لمن وقع في الحلاك .

« في خورس يلبسون » : في باطل التكذيب يخوضون .

« يَوْمٌ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً » هذه النار التي كنتم

بها تُكذَّبُونَ « أَصَحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ » .

يَوْمٌ يُدْعَوْنَ إِلَى النَّارِ دَعَاً ، ويقال لهم : هذه هي النار التي كنتم بها تُكذَّبُونَ . . .

ثم يسألون : أهذا من قبيل السحر على ما قلتم أم عَطَى عَلَى أَبْصَارِكُمْ ؟ !

قوله جل ذكره : « أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ

عَلَيْكُمْ إِنَّا نَجْزِي مَنْ كَانَتْ تَعْمَلُونَ »

والصبرُ على الجزاء في العاقبة لاقية له ، لأنَّ عذابهم عقوبةٌ لهم :

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ » فأكهين

بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب

الجبهم » .

المتقون في جنات ونعيم عاجلاً وآجلاً^(١) . « فأكهين » أي مُعْجِبِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ

وما أعطاهم .

ويقال : « فأكهون » : أي ذووا فأكهة : كفولهم رجل تامر أي ذو تمر ، ولا بن أي

ذو لبن .

قوله جل ذكره : « كُلُّوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون »

قوم يصير لهم ذلك هنيئاً بطمئنه ولذته ، وقوم يصير هنيئاً لهم سماع قولهم

(١) يشير التثنية إلى النعيم العاجل الذي هو القوسلة والقربة . فمن المعلوم أن الصوفية يسلكون طريقهم في حياة وسلبي فيها قيامة وحشر ونفث ونواب ؛ وعذاب ، بما يشعرون ؛ من حشر ووصل ، وخوف ورجاء . ونحو ذلك من الأحوال .

عنه — سبحانه — هنيئاً ، وقوم يصير لهم ذلك هنيئاً لئلا وهم يشهد منه :

فاشرب على وجهها كَفَرَتْهَا مُدَامَةً فِي الْكُتُوسِ كَالشَّرِّ

«مُتَكِينٍ عَلَى سُورٍ مَصْفُوفَةٍ

وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ»

يُظَلِّلُونَ فِي سُورٍ وَحُبُورٍ ، وَنَصِيبٌ مِنَ الْإِنْسِ مَوْفُورٍ .

قوله جل ذكره : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ

بِإِيمَانٍ آخِذِينَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ»

يُكْمَلُ عَلَيْهِمْ سُورُهُمْ بِأَنْ يُلْحَقَ بِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ؛ فَإِنَّ الْإِنْفِرَادَ بِالنِّعَةِ عَمَّنِ
الْقَلْبِ مُشْتَرِكٌ بِهِ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْقَرِيبَةِ يَجِبُ تَنْفِصُ الْعِيشِ .

وَكُلُّكَ كُلٌّ مِنْ قَلْبِ الْوَلِيِّ يَلَاخِظُهُ مِنْ صَدِيقٍ وَقَرِيبٍ ، وَوَلِيٍّ وَخَادِمٍ ، قَالَ تَعَالَى
فِي قِصَّةِ يُوسُفَ : «وَأَتَوْنِي بِأَمْلِكُمْ أَجْمَعِينَ»

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ قَالُوا :

إِنِّي عَلَى جَفَوَاتِهَا — فَبَرِّهَا وَبِكُلِّ مُتَّصِلٍ بِهَا مُتَوَسِّلٍ

لَأَحِبِّهَا ، وَأَحِبُّ مَنْزِلَهَا الَّذِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحِبُّ أَهْلَ النَّزْلِ

«وَمَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ

كُلُّهُ أَمْرٌ بِمَا كَتَبَ رَهِيْنٌ»

أَيُّ مَا أَتَيْنَاهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بَلْ وَفِينَا وَوَقَرْنَا . وَفِي الْإِبْتِدَاءِ نَحْنُ أَوْلَيْنَا وَزِدْنَا .
عَلَى مَا أَعْطَيْنَا .

« كل امرئ بما كسب رهين » مُطَالَبٌ بـ«هـ» يوفى عليه أجره بلا تأخير ، وإن كان ذنباً فالكثير منه مغفور ، كما أنه اليوم مستور .

قوله جل ذكره : « وأمددناهم بنாகيةٍ ولحمٍ مما يشتهون »
• يتنازعون فيها كالمسا لا لَمَوَّ فيها
ولا تأثيم »

أى لا يجرى بينهم باطل ولا يؤثمهم كما يجرى بين الشُّرْبِ^(١) فى الدنيا ، ولا يذهب الشُّرْبُ بقولهم فيجرى بينهم ما يُخْرِجُهُم عن حَدِّ الأدب والاستقامة .

وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ومن العلوم من يستقيم ، وهم بمشهد منه وعلى رؤية منه ؟ .

قوله جل ذكره : « ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » .

والقومُ عن النارِ وعنَّ فى النارِ مُخْتَلِفُونَ لاستيلاء ما يستفرقهم ؛ فالشرابُ يؤنسُهُم ولكن لا يَمُنُّ بِجَنَانِهِمْ^(٢) ؛ وإذا كان — اليوم — للعبد وهو فى السجن فى طول عمره ساعة^(٣) امتناع عن سماع خطاب الأنبياء ، وشهود واحدٍ من المخلوقين — وإن كان ولداً عزيزاً ، أو أخاً شقيقاً — فَمِنْ الْحَالِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ يَرُدُّ مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى .. إِنَّ كَانَ مِنْ أَهْلِ التَّوْبِ وَالْجَنَّةِ ، ومن الحال أن يظن أنه يكون غداً موسوماً بالشقاوة .

وإذا كان العبدُ فى الدنيا يتلقى فى غُرْبَتِهِ مِنْ مُقَاسَاةِ الْغِنَى وَالْفَقْرِ — فإذا يجب أن يقال إذا

(١) الشُّرْبُ بالفتح القوم يشربون ويصنعون حل الشراب (الوسيط والكسان) .

(٢) مكنوناً فى م وحى أقرب إلى الصواب مما جاء فى ص (يحالسم) باللام لأن السياق يتقدم بالأولى ؛ فالأنس الحاصل يومئذ بالغى لا بالخلق .

(٣) هذه محاولة طبية يقدمها التفسير الإنشائى عند بحث قضية التتم فى الآخرة وفى الحيات عن هذا المنتهى ؛ لأنه إذا تصورنا أن العبد فى ساعة القضاء يكون محملاً فيما يشهد ، وأن ذلك يحدث فى الدنيا .. فما بالك فى الآخرة وهم ناظرون إلى وجههم ؟ !

رجع إلى منزله ؟ أبقى على ما كان عليه في سفرته ؟ أم يلقى غير ما كان يلقى في سفرته ،
ويصير غير ما كان يُسنى من كاسات كُرّه ؟ .

قوله جل ذكره : « وأقبل بضئهم على بعضهم يشاءون »

قالوا : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ •

فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا لَوْ أَنَّا نَعْلَمُ الْغُيُوبَ •

ولا أنهم قالوا : « فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا » لكانوا قد لاحظوا إشفاقهم ، ولكن الحق - سبحانه -

اختطفهم من كهود إشفاقهم ؛ حيث أشهدهم مِنَّةَ عليهم حتى قالوا : « فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْنَا ، وَوَقَّانَا
عَذَابَ السَّعِيرِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ » .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ فَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

وَلَا مَجْنُونٍ » .

أى أنهم يملون أنك لست بك كهانة ولا جنون ، وإنما قالوا ذلك على جهة التفتيش ؛

فالتفتيش يسطر لسانه فيمن يسبّه بما يعلم أنه منه برى .

« أم يقولون شاعرٌ تلهيهم به ريبٌ

الجنون • قل توبصوا فلي معكم من

المتريين » .

تربص به حواشي الأيام ؛ فإن مثل هذا لا يدوم ، وسيموت كما مات من قبله كهان

وشعراء .

ويقال : قالوا : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ مَاتَ شَابًا ، وَرَجَوْا أَنْ يَمُوتَ كَمَا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ، فَالْتَمَعُوا :

« قل توبصوا ... » فإننا منتظرون ، وجاء في الضمير أَنْ جيمهم ماثوا . فلا ينبغي

لأحد أن يؤكل موت أحد . قتل مَنْ تكون هذه صنعة إِلَّا سَبَقَتْهُ الْمَنِيَّةُ — دون أَنْ
يُدْرِكَ مَا يَتَمَنَاهُ مِنَ الْأَمْنَةِ .

قال فرعون : « وَاِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا » (١) . وقال لتبينا صلى الله عليه وسلم :
« ماضٍ صاحبكم وماغوى » : منناه ماضٍ صاحبكم ، ولا غفلَ عن الشهود طَرْفَةً عَيْنٍ .

قوله جل ذكره : « وما ينطق عن الهوى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

أى ما ينطق بالهوى ، وما هذا القرآنُ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . وفى هذا أيضاً تخصُّصٌ له
بالشهادة ؛ إذ قال لداود : « فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهوى » (٢) .

وقال فى صفة نبينا صلى الله عليه وسلم : « وما ينطق عن الهوى » .

(ومضى ينطق عن الهوى وهو فى محل التجوى ؛ فى الظاهر مزمومٌ بِزمام التقوى ، وفى
السرائر فى إيواء المولى ، مُصَنِّى عن كدورات البشرية ، مُرَقِّى إلى شهود الأحديّة ،
مُكَاشَفٌ بِجلال الصمدية ، مُخْتَلَفٌ عنه بالكليّة ، لم تبق منه إِلَّا الْحَقُّ بِالْحَقِّ بَقِيَّةٌ . . وَمَنْ
كَانَ بِهَذَا التَّمَتُّ . . متى ينطق عن الهوى ؟) (٣) .

قوله جل ذكره : « عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ

فَأَسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى » .

أى جبريل عليه السلام . و « ذُو مِرَّةٍ » : أى ذو قوة وهو جبريل . « وَهُوَ بِالْأُفُقِ
الْأَعْلَى » أى جبريل .

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
أَوْ أَدْنَى » .

دنا جبريلُ من محمدٍ عليه السلام ، فتدلَّى جبريلُ : أى تَرَكَ من المُلُو إلى محمد .

وقيل : « تدلَّى » تعيد الزيادة فى القُرب ، وأنَّ محمداً عليه السلام هو الذى دنا من ربِّه
دَنُوً كرامةً ، وأنَّ الْإِنِّى هُنا معناها السجود .

(١) آية ١٠٢ سورة الإسراء .

(٢) آية ٢٦ سورة ص .

(٣) كل ما بين القوسين موجود فى مكان آخر ، وضمنناه فى مكانه الصحيح حتى يستقيم السياق .

وقال : دنا محمد من ربه بما أودع من لطائف اللذة وزوائدها ، فندلى بكون قلبه إلى ما أدناه .

« فكان قلب قوسين أو أدنى » : فكان جبريل - وهو في صورته التي هو عليها - من عند صلى الله عليه وسلم بحيث كان بينهما قدر قوسين أو أدنى .

ويقال : كان بينه - صلى الله عليه وسلم - وبين الله قدر قوسين : أراد به دنو كرامة لا دنو مسافة .

ويقال : كان من حالتهم إذا أرادوا تحقيق الألفة بينهم إلصاق أحدهم قوسه بقوس صاحبه عبارة عن ^(١) عند اللوالة بينهما ، وأنزل الله - سبحانه - هذا الخطاب على مقتضى معهودهم . ثم رجع الله هنا فقال : « أو أدنى » أى بل أدنى .

قوله جل ذكره : « فأوحى إلى عبده ما أوحى »

أى أوحى الله إلى محمد ما أوحى . ويقال : أحسنه احتمالاً ^(٢) لم يطلع عليها أحد .

ويقال : قال له : ألم أجعلك نبياً فأوحيك ؟ ألم أجعلك ضالاً فهديتك ؟

ألم أجعلك عائلاً فأغنيك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟

ويقال : بشره بالمحوض والكوفر .

ويقال : أوحى إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أممك . والأولى أن يقال : هذا الذى قاله كله حسن ، وغيره عالم يطلع أحد .. كله أيضاً كان

له في تلك الليلة وحده ، إذ رقاؤه إلى مارقائه ، وقائه بما لقاه ، وأدناه حيث لا دنو قبله ولا بعده ، وأخذنه عنه حيث لا غير ، وأصحاه له في عين ما صحاه عنه ، وقال له ما قال .. دون أن يطلع

أحد على ما كان بينهما من السر ^(٣) .

(١) كما تقول في أسلوبنا الآن (تصيراً عن ..)

(٢) حكنا في ص وهي أصوب مما جاء في م (أجمله إجمالاً) بالجمع فالسابق يرفضهما .

(٣) هذه الفترة الأخيرة محاولة من جانب أرباب الحقيقة لفهم بعض جوانب في قصة الإسراء والمعراج . ومفسدون كلام التشيرى أننا لو كنا نستطيع حدوث أحوال الكشوفات والمواصلات التي تتلخ للأولياء العارفين .. فكيف لا نتقبلها باليسرة المصطنع عليه صلوات الله وسلامه ؟ وبمضى آخر : نجد التفسير المرفوع يبرز نفسه في قوة ونصاعة لتوضيح قضية من قضايا التبيين ، كانت موضع جدل في زمانها وبعد زمانها .

قوله جل ذكره : « ما كَذَّبَ التَّوَّادُ مَا رَأَى » .

ما كَذَّبَ تَوَّادُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ملأه بصره من الآيات . وكذلك قال : رأى ربّه تلك الآية على الوصف الذى عليه قبل أن يراه ^(١) .

قوله جل ذكره : « أَفَتَعْلَمُونَ عَلَى مَا يَرَى » .

أفَعْلَمُونَ عَلَى مَا يَرَى ؟

قوله جل ذكره : « وَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى » عند سِدْرَةِ
المتين • عندها جنة للأوى •

أى جبريل رأى الله مرة أخرى حين كان محمدٌ عند سِدْرَةِ المتين ؛ وهى شجرة الجنة ،
وهى منتهى الملائكة ، وقيل : تنهى إليها أرواحُ الشهداء . ويقال : تنهى إليها أرواحُ المخلّقي ،
ولا يتم ما وراها إلا الله تعالى — وعندها « جنة للأوى » وهى جنة من الجنان .

قوله جل ذكره : « إِذْ يَنْشَى السُّدْرَةَ مَا يَشَى » .

يشاها ما يشاها من الملائكة ما الله أعلم به •

وفى خبر : يشاها دُفِرَ طَيْرٌ خُضِرَ •

ويقال : يشاها قَرَّاشٌ من ذهبٍ •

(١) يقول القسرى فى كتابه المراج ص ٩٤ : « وانطلقوا فى رؤية الله سبحانه ليلة المراج ؛ فقالت عائشة
رضى الله عنها : إن النبى (ص) لم يَرِ الله ليلة المراج ، ومنّ زعم أن محمداً رأى الله ليلة المراج فقد أعظم
على الله العتية . وقال ابن عباس : إن نبينا (ص) رأى الله ليلة المراج .

ثم اختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ ففى رواية أنه رأى بعين رأسه ، وفى رواية أنه رأى بقلبه . وقال أهل
التحقيق من أهل السنة : اختلفهم فى هذه المسألة دليل على إجماعهم أن الحق سبحانه يميز أن يرى ؛ لأنه لو لا أنهم
كانوا متفقين على جواز الرؤية لم يكن لاختلافهم فى الرؤية فى تلك الليلة معنى .

وقد رويت فى هذا الباب أخبار ، والله أعلم بصحتها ، فإن صحّ ذلك فلها وجود من التأويل . من ذلك
ما روى أنه قال : « رأيت ربى فى أحسن صورة - فهذا المبرّ يحتل وجوهاً منها : رأيت ربى وأنا فى أحسن
صورة يعنى فى أكل رتبة وأتم فضيلة ، وأقوى ما كنت ؛ لم يصحنى دهن ، ولا دهقنى حية .

ويمكن أن تكون الرؤية بمعنى العلم ، أى رأيت من قدرة الله تعالى ودلائل حكمته ، ولم يشأنى شهود
المصورين ذكر الصور ، بل رأيت للفاعل فى القل .

ويقول : الصورة بمعنى الصفقة ، يقال : أرفق صورة هذا الأمر أى : صفته . وفى « مل معنى » مل أى
رأيت ربى على أحسن صفة من جلالة وصفه وإنشائه معنى .

ويقال : أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) عندها خواتيم البقرة ، وَغُفِرَ لِمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِهِ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى »

مَا مَالَ — صلوات الله عليه وسلامه — ببصره عما أُبَيحَ له من النظر إلى الآيات ، والاعتبار بدلائلها .

فَمَا جَاوَزَ حَدَّهُ ، بل رَأَى شروطَ الأدب في الحفصة (١) .

قوله جل ذكره : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

أى « الآيات » الكبرى ، وَحَدَّثَ الآياتُ .. وهى تلك التى رآها فى هذه الآية . ويقال : هى بقاءه فى حال لقائه ربّه بوصفِ الصَّخْرِ ، وَحَفَظَهُ حَتَّى رَأَاهُ (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمُزَيَّنَّ » وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

الْأُخْرَى • أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟

• تِلْكَ إِذْ قَسَمَ لِيُتْرَى • .

هذه أصنامٌ كانت العرب تعبدونها ، فَاللات صِنْمٌ لثيف ، وَالْمُزَيَّنَّ شَجَرَةً لِنُطْلُفَان ، وَمَنَاة صخرَةٌ لَهْدِيل وَخُرَاعَةُ (٣) .

ومعنى الآية : أَخْبَرُونَا ... هل لهذه الأصنام التى تبدلونها من دون الله من القدرة أن تفعل بما نريد بها مَا قَمَلْنَا لِمَنْ لَحْدٍ صلى الله عليه وسلم من الرُّتْبِ والتخصيص ؟ .

(١) قال أبو يزيد السجستاني : حفظ النبي (ص) طرفه فى المرمى ، فما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، لعلمه بما يؤهل له من المشاهدة ، فلم يشاهد فى ذلك شيئاً ، ولم يُسِرْ طرفه أحدًا ، ثم لما رُدَّ إِلَى عِلِّ التَّأْدِيبِ نظر إلى الجنة والجنة ، والأنياب والملائكة لإيجارها ، وتأديب العنق بها ، فالقوام الأول مقام خصوص والمقام الثالث مقام عموم .
وقال دوسم : لما أكرمهم عليه الصلاة والسلام بأعظم الشرف فى المرمى حَسَّتْ هَيْبَتُهُ عن الانكسار إلى الآيات والكرامات والجنة والجنة ، فما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ، أى ما أعاد طرفه شيئاً من الأكرام ، ومن شاهد البحر استقل الأنهار والأودية .

(٢) سئل الشبل : « كيف ثبت النبي (ص) فى المراجِعَ لِقَاءَ وَهَامِيَةِ ؟ » فقال : إنه هَيَّسَ لَأَمْرِ فَسَكَّنَ فِيهِه وَيَقَارَنُ الْفَشِيرَى فى موضع آخر بين موسى عليه السلام إِذْ عَرَّ صَعْقًا بِجَرْدِ سَبَاحِ لِقَاءِ وَبَيْنَ تَبَيُّنَاتِ عَلَيْهِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ إِذْ بُدِئَتْ فى عمل المشاهدة ، ويضيف : إن موسى فى حال التلويح ، ومعجمه فى حال التمكن .
(٣) هذه الأصنام كلها مؤنثات .. وكانوا يقولون : إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله !

ثم وَحَّيَهُمْ فَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَخْتَارُونَ لِأَعْيُنِكُمُ الْبَيْنِينَ وَتَنْسَوْنَ الْبَنَاتِ إِلَى اللَّهِ ؟ تِلْكَ إِذْهَا
قِسْمَةٌ ثُلَاثَةٌ ۚ

قوله جل ذكره : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » .

أنتم ابتدعتم هذه الأسماء من غير أن يكونَ اللهُ أَمَرَكمَ بِهَذَا ، أو أَمَرَكمَ لَكُمْ بِهِ .
فَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الظَّنَّ ، « وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَصِلُ إِلَى الْحَقِّ شَيْئًا » (١)

« وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى » : فَأَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَكَأَنَّ ظَنَّ الْكُفْلَرِ أَوْجَبَ لَهُمُ الْجَهْلَ
وَالْخَيْرَةَ وَالْحُكْمَ بِالْخَطَأِ - فَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ (٢) : « مَنْ عَرَّجَ عَلَى أَوْصَافِ الظَّنِّ لَا يَتَحَقَّقُ » (٣)
بشيءٍ من الحقيقة ؛ فليس في هذا الحديث إلا القطعُ والتحققُ ، فبهاؤهم قد مَتَّعَ (٤) ، وَشَمَّسَهُمْ
قد طَلَّتْ ، وَعَلَّوْهُمْ أَكْثَرَهَا صَارَتْ ضَرُورِيَّةً .

أَمَّا الظَّنُّ الْجَبِلُ بِاللَّهِ فَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ، وَالتَّيَّاسُ عَاقِبَةُ الرَّجُلِ عَلَيْهِ لَيْسَ (٥) أَيْضًا مِنْ
هَذِهِ الْجِلَّةِ ذَاتِ الظَّنِّ الْمَلُولِ فِي اللَّهِ ، وَفِي صِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ .

قوله جل ذكره : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » .

أَي لَيْسَ (٦) لِلْإِنْسَانِ مَا يَتَمَنَّى ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى طَوْلَ الْحَيَاةِ وَالرِّفْقَةَ وَالْخَصْبَ الْمَيْشِرَ ..
وَمَا لَانْهِيَا لَهُ ، وَلَكِنْ أَحَدًا لَا يَبْلُغُ ذَلِكَ بِجَمَاعِهِ .

(١) آيَةُ ٢٨ فِي السُّورَةِ نَفْسَا .

(٢) يَقْصِدُ طَرِيقَةَ الصُّوفِيَّةِ .

(٣) فِي م (يُضَلُّ) وَهِيَ غَطَا فِي التَّبَسُّعِ

(٤) فِي ص (مَتَّعَ) بِالْمَثَرِ وَهِيَ غَطَا ، فَتَنَوَّعَ الْبَهَارُ مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ الصُّوفِيَّةِ إِلَى زَادِهَا الْقَشِيرَةِ عَلَى (الْوَرَائِعِ
وَالطَّلُوعِ وَالْوَرَامِ) كَمَا تَوَهَّنَا مِنْ قَبْلِ .

(٥) هَكَذَا هِ ، م وَهِيَ فِي ص (لَيْبِينَ) وَهِيَ غَطَا مِنَ التَّبَسُّعِ .

(٦) هِيَ (أَمْ) الْمَنْقُطَةُ ، وَبَعْنَى الْمَهْزَةِ فِيهَا الْإِنْكَارُ ، أَيْ الْإِنْسَانُ - بِعَيْنِ الْكَافِ - مَا تَمَنَّى مِنْ شَفَاعَةِ الْأَصْنَامِ ،

وغير ذلك من التسي .

ويقال : ما يمنّاه الإنسان أن يرتفع مرادّه واجباً في كل شيء — وأن يرتفع مرادّه عبديّ واجباً في كل شيء ليس من صفات الخلق بل هو لله ، الذي له ما يشاء :

« فله الآخرة والأولى » .

له الآخرة والأولى خلقاً ومِلْكاً ، فهو المَلِكُ المالكُ صاحبُ الملكِ التام . فأمّا الخلقُ فالتقصُّ لازمٌ للكلِّ .

قوله جل ذكره : « وكم من ملك في السموات لا تنفعي شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

وهنا ردّ عليهم حيث قالوا : إنّ الملائكة شفعائنا عند الله (١) .

قوله جل ذكره : « إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة لیسعون الملائكة تسمية الأنثى » وما لهم به من علم إنّ يتبعون إلا الظنّ وإنّ الظنّ لا يثبت من الحق شيئاً » .

هذه التسمية من عندهم ، وهم لا يتبعون فيها علماً أو تحقيقاً . . بل ظناً — والظنّ لا يفيد شيئاً .

قوله جل ذكره : « فأعرض عنّ قولی من ذكرنا ولم یردّ إلا الحیة الدنيا » ذلك مبطلهم من العلم إنّ ربّك هو أعلمُ بمنّ ضلّ عن سبيله وهو أعلمُ بمنّ اهتدى » .

أى أعرض عنّ أعرض عن القرآن والإيمان به وتدبیر ممانیه ، ولم یردّ إلا الحیة الدنيا .

(١) لا تنفع شفاعة أحدٍ إلا إذا أذن الله .. فإذا كانت الملائكة مع كثرتها وقربها من الله لا تصلح لشفاعة إلا بإذن من الله — فكيف هذه الأصنام لشفاعة ؟ !

ذلك ميلهم من العلم؛ وإعازوا بالدين لأنهم لم يملوا حديث الآخرة، وإن ربك عليهم
بالضال، علم بالهتدي.. وهو يجازي كلاً بما يستحق.

قوله جل ذكره: «وَقَدْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ

الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ».

يجزي الذين أساءوا بالتقويات، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله جل ذكره: «الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ

إِلَّا الْإِثْمَ».

الذنوب كلها كِبَارَ لِأَنَّهَا غَايَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَلَكِنْ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ. وَلَا شَيْءَ
أَعْلَمُ مِنَ الشَّرِّكَ. «وَالْفَوَاحِشَ» المأصي.

«إِلَّا الْإِثْمَ»: تكلموا فيه، وقالوا: إنه استثناء منقطع، والإثم ليس بآثم ولا من جملة
الفواحش.

ويقال: الإثم من جملة الفواحش ولكن فيها اشتباهاً — فأخبر أنه يفرها.

ويقال: الإثم هو أن يأتي المرء ذلك ثم يُفْلِحَ عنه بالتوبة.

وقال بعض السلف: هو الوقعة من الزنا تحصل مرة ثم لا يعود إليها، وكذلك شرب

الخمر، والسرقة.. وغير ذلك، ثم لا يعود إليها.

ويقال: هو أن يهيم بالزَّوْلَةِ ثم لا يضلها.

ويقال: هو النَّظَرُ. ويقال: ما لاحدٌ عليه من المأصي، وتُكَفِّرُ عنه الصلوات.

(والأصحُّ أنه استثناء منقطع وأن الإثم ليس من جملة المأصي)^(١).

قوله جل ذكره: «إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ النَّفْثَةِ» هو أعلمُ

بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم

(١) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في س.

أَجِنَّةٌ فِي بَطْنِ أَهَانِكُمْ فَلَا تَزْكُوا
أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

« إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ » : يَفْنَى خَلَقَ آدَمَ .

وَيَقَالُ : تَزْكِيَةُ النَّفْسِ مِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِ الْمَرْءِ مُحِبًّا عَنِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْجَنُوبَ إِلَى الْغَايَةِ
وَالْمُسْتَرْقَ فِي شَهْوَدِيَّةٍ لَا يُزَكِّي نَفْسَهُ (١) .

« هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » : لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِكُمْ مِنْكُمْ .

وَيَقَالُ : مَنْ اعْتَدَ أَنْ عَلَى الْبَسِيطَةِ أَحَدًا شَرًّا مِنْهُ فَهُوَ مُتَكَبِّرٌ .

وَيَقَالُ : الْمُسْلِمُ يُجِبُّ أَنْ يَكُونَ بِمِثْرِ كُلِّ مُسْلِمٍ خَيْرًا مِنْهُ ؛ فَلَمَّا رَأَى شَيْخًا ، قَالَ :
هُوَ أَكْثَرُ مَعِيَ طَاعَةً وَهُوَ أَفْضَلُ مَعِيَ ، وَلَمَّا رَأَى شَابًّا قَالَ : هُوَ أَفْضَلُ مَعِيَ لِأَنَّهُ أَتْلُ
مَعِيَ دُتْبَسًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « أَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى • وَأَصْلَى قَلِيلًا
وَأَكْذَبَى » .

أَعْرَضَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَصَدَّقَ بِالْقَلِيلِ . « وَأَكْذَى » أَيَّ قَطْعِ عِلَاقَةٍ .

« أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرٌّ »

« فَهُوَ يَرَى » : فَهُوَ يَعْلَمُ حَقًّا ذَلِكَ . يُقَالُ : هُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الْجِهَادِ قَلِيلًا
ثُمَّ يَقْطَعُ ذَلِكَ ؛

« أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ » : فَهُوَ يَرَى حَالَهُ فِي الْآخِرَةِ ؟

« أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بَمَا فِي مُصْحَفِ مُوسَى •
وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(١) قَارَنَ ذَلِكَ بِقَوْلِ النَّسْفِيِّ فِي ذِكْرِ الْمَرْءِ لَطَاعَتَهُ : « .. وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِصْحَابِ أَوْ الرِّيَاءِ لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّسْبَةِ فَإِنَّهُ جَائِزٌ لِأَنَّ الْمَرْءَ بِالطَّاعَةِ طَاعَةً وَذَكَرَهَا شُكْرًا » النَّسْفِيُّ ج ٤ ص ١٩٨ . وَنَظَنُّ أَنْ فِي عِبَارَةِ النَّسْفِيِّ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ التَّصْوِيبَ : فَالْأَوَّلُ أَنْ يُقَالُ : وَهَذَا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّسْبَةِ - لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِصْحَابِ أَوْ الرِّيَاءِ - فَتَبْهَةٌ جَائِزَةٌ ..

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ هَذَا الْكَافِرُ بما في صف موسى ، وصف إبراهيم الذي وقى ؛ أَيْ أَمْ مَا طَوَّلَ به في نفسه وماله وولده .

قوله جل ذكره : « الْأَتْرُورُ وَازِرَةٌ وِزْرُ أُخْرَى • وَأَنْ

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى • وَأَنْ

سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى • ثُمَّ يُخْرَأُ

الجزء الأوفى » .

الناسُ في سعيهم مختلفون ؛ فَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا خَسِرَتْ صَفَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ الْجَنَّةِ رَجَحَتْ صَفَتُهُ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي رِيَاضَةِ نَفْسِهِ وَصَلَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي الْإِرَادَةِ شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَهُ ثُمَّ هَدَاهُ إِلَى نَفْسِهِ .

وَأَمَّا الْمَذْنِبُ — فَإِنَّا كَانَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ غُرَاهُ ، وَتَدَمَّرَ الْقَلْبُ عَلَى مَا اسْوَدَّ مِنْ دِيْوَانِهِ ، فَسَوْفَ يَجِدُ مِنَ اللَّهِ التَّوَابَ وَالْقَرَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالزَّلَّةَ .

وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ فِي عَدِّ أَهْلِيهِ مَعَ اللَّهِ ؛ لَا يَسْرُجُ عَلَى قَصِيرٍ ، وَلَا يُقَرِّطُ فِي مَأْمُورٍ فَيُرى جِزَاءَ سَعْيِهِ مُشْكُورًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، ثُمَّ يَشْكُرُهُ بِأَنْ يُخَاطِبَهُ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ بِإِسْمَاعِيهِ كَلَامَهُ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ : عَبْدِي ، سَعْيِكَ مُشْكُورٌ ، عَبْدِي ، ذَنْبُكَ مَغْفُورٌ .

« ثُمَّ يُخْرَأُ الْجِزَاءُ الْأَوْفَى » : هُوَ الْجِزَاءُ الْأَكْبَرُ وَالْأَجَلُّ ، جِزَاءٌ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوعٍ .

قوله جل ذكره : « وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » .

إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، فَابْتِدَاءُ الْأَشْيَاءِ مِنْ اللَّهِ خَلْقًا ، وَانْتِهَاءُ الْأَشْيَاءِ إِلَى اللَّهِ مَصِيرًا .

وَيَقَالُ : إِنَّا أَنْتَهِىَ الْكَلَامَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَاشْكُرُوا .

وَيَقَالُ : إِذَا وَصَلَ الْعَبْدُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ إِلَّا الْأَعْلَاقُ مِنَ مَالٍ أَوْ مَنَالٍ أَوْ تَحْقِيقِ آمَالٍ أَوْ أَحْوَالٍ . . يُخْرِجُهَا عَلَى مَرَادِهِ — وَهِيَ حَظُوظٌ لِلْعِبَادِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى » .

أَرَادَ بِهِ الضَّحْكَ وَالْبُكَاءَ التَّصَارُفَ عَلَيْهِمَا بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُخْرِجُهُ وَيَخْتَلِقُهُ .

ويقال : أضحك الأرضَ بالنبات ، وأبكى السماءَ بالمطر .

ويقال : أضحك أهلَ الجنةَ بالجنة ، وأبكى أهلَ النارَ بالنار .

ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة وأبكاه في الدنيا ، وأضحك الكافرَ في الدنيا وأبكاه في الآخرة .

ويقال : أضحكهم في الظاهر ، وأبكاهم بقلوبهم .

ويقال : أضحك المؤمنَ في الآخرة بغفرانه ، وأبكى الكافرَ بهوانه .

ويقال : أضحك قلوبَ المارفينَ بالرضا ، وأبكى عيونهم بخوفِ الفراق .

ويقال : أضحكهم برحمة ، وأبكى الأعداءَ بسخطه .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا » .

أَمَاتَه في الدنيا ، وأَحْيَاهُ في القبر ؛ فالتعبير إما للراحة وإما للإحساس بالعقوبة .

ويقال : أَمَاتَه في الدنيا ، وأَحْيَاهُ في الحشر .

ويقال : أَمَاتَ قُوسَ الزاهدين بالمجاهدة ، وأَحْيَا قُوبَ المارفينَ بالمشاهدة .

ويقال : أَمَاتَ قُوسَهُمَ بالماملات ، وأَحْيَا قُوبَهُمَ بالمواصلات .

ويقال : أَمَاتَهَا بالهيبَةِ ، وأَحْيَاهَا بِالْأُنْسِ .

ويقال : بِالْإِسْتِقْرَارِ ، وَالتَّجَلُّلِ .

ويقال : بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ .

ويقال : بِالطَّاعَةِ ، وَالْمُصِيبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالْأُنثَى » .

سماهما زوجين لازدواجهما عند خلقهما من التُّفْطَةِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى » .

« أَغْنَى » : أَعْطَى الْغِنَى ، « أَقْنَى » : أَكْثَرَ الْقَنِيَةِ أَيْ الْمَالِ . وقيل « أَقْنَى » :

أَي أَحْوَجَهُ إِلَى الْمَالِ — فلي هذا بكون المعنى : أَنَّهُ خَلَقَ الْغِنَى وَالْفَقْرَ .

ويقال : « أنقى » أى أرشد بما أعطاه ^(١).

ويقال : « أغنى » أى أقم ، « وأقى » : أى أرضى .

« وأنه هو ربُّ الشَّعْرَى »

(الشَّعْرَى : كوكبٌ يطعم بعد الجوزاء في شدة الحر ، وكانت خِزاعة تبديها فأغنى الله أنه ربُّ معبودهم هنا) ^(٢) .

« وأنه أهلكَ عادًا الأولى » ونمودًا

فما أتى • وقومَ نُوحٍ من قَبْلِ لُهم
كافوا هم أَظلمَ وأظنى » .

عاد الأولى هم قوم هود ، وعاد الأخرى هي لَآم ذات العباد ، كما أهلكَ نوحًا فَمَا أتى منهم
أحدًا . وأهلكَ مِنْ قَبْلِهِمْ قومَ نُوحٍ الذين كانوا أَظلمَ من غيرهم وأغوى لِطُولِ أعمارهم ،
وقوة أجسادهم .

« والموتفكة أهوى • فَنشأها ما عَشَى »

أى المحسوف بها ، وهي قرى قوم لوط ، قَلَبَهَا جبريل عليهم ، فهي مقبرة معكوسة .

وقوله : « أهوى » أى : أسقطها الله إلى الأرض بعدما اقلعها من أصلها ، ثم عَكَبَهَا
وألقاها في الأرض ، فنشأها ما عشاها من المذاب .

قوله جل ذكره : « فَبأى آلاءِ ربِّكَ تَبَارَى ؟ »

فَبأى آلاءِ ربِّكَ — أيها الإنسان — تشكك ؟ وقد ذكر هذا بعد ما عدَّ إحسانه عليهم
وإحسانه إليهم .

قوله جل ذكره : « هذا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الأولى » .

(١) أنقى : من صانها أرضى — كما ورد في أكثر المصاحف .

(٢) ما بين القوسين إضافة من جانبنا اعتمادًا على كتب التفسير ، وهي غير موجودة في نص التشيرى :
ولكننا أردنا إضافتها لظفت النظر إلى خاطرة تراودنا .. أليس هناك ارتباط بين افتتاحية السورة والنتيجة إذا هي •
وبين هذه النهاية ؟ . عابدون ومعبدون يهود ونسطاطرون ويملكوت .. أبعد هذا أيها الإنسان تشكك في أن هذا
النذير صاوات الله عليه لم يأتِ بعدًا ؟ !

هو محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسلناه نذيراً كما أرسلنا الرُّسُلَ الآخرين .
 « أَزِفَتِ الْأَازِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ كَاشِفَةٌ » .
 أى قَرَبَتِ القيامة . ولا يقدر أحدٌ على إقامتها إلا الله ، وإذا أقامها فلا يقدر أحدٌ على
 ردّها وكشفيها إلا الله .
 ويقال : إذا قامت قيامة هذه الطائفة — اليوم — طيس لما كاشفٌ غيره . وقيامتهم قوم
 في اليوم غير مَرَّةٍ . قوم بالمَجْرِ والنَّوى والفرار .
 قوله جل ذكره : « أَفَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَمَجِّبُونَ » .
 أفن هذا القرآن تمجبون ، وتكونون في شكٍّ ، وتسهرئون ؟
 « وَأَنْتُمْ سَلِيدُونَ » : أى لاهون ..
 « فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » : فاسجدوا لله ولا تعبدوا سواه^(١) .

(١) عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال : « ... فسجد رسول الله (ص) وسجد من خلفه إلا رجلاً رأى
 أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأى به ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف » (البخارى ج ٣ ص ١٣٠) .

سُورَةُ الْقَمَرِ ^(١)

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » : كلمة بها نور القلوب والأبصار ، وبرقانها يحصل سرور الأرواح والأمرار .
كلمة تدلُّ على جلاله — الذى هو استحقاقه لأوصافه . كلمة تدل على نته الذى هو غاية
أفضاله وألطافه .

قوله جل ذكره : « أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » .

أجمع أهل التفسير على أنَّ القمر قد انشقَّ على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .
قال ابن مسعود ^(٢) : « رأيت حراء بين فلقى القمر » ولم يوجد لابن مسعود مخالف فى ذلك ؛
قد روى أيضاً عن أنس وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم .. كلهم روىوا
هذا الخبر .

وفيه إعجازٌ من وجهين : أحدهما رؤية من رأى ذلك ، والثانى خفاء مثل ذلك على من
لم يره ؛ لأنه لا ينكتم مثله فى العادة فلما خفى كان قبح العادة .
وأهل مكة رأوا ذلك ، وقالوا : إنَّ محمداً قد سحر القمر .

ومعنى « أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ » : أى ما بقى من الزمان إلى القيامة إلا قليلٌ بالإضافة إلى ما مضى .
قوله جل ذكره : « وَلَوْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا

(١) يسجد البخارى : سورة واقربت الساعة .

(٢) من يحيى بن شعبه وسفيان بن الأصبغ عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : انشق للقمر على
عهد رسول الله (ص) ففرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه . فقال رسول الله (ص) : اشهدوا .
وعن قتادة عن أنس قال : انشق القمر ففرقتين .

وعن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله قال : انشق القمر ونجم مع لئى (ص) فصار فترتين . فقال لنا : اشهدوا
اشهدوا . (البخارى ٣٨ ص ١٣٠) .

وقد جاء فى التفسير : قال ابن مسعود رضى الله عنه « رأيت حراء بين فلقى القمر » (التفسير ص ٢٠١) .

سِحْرٌ مُسْتَعَرٌ • وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعَرٌّ •

يعنى أن أهل مكة إنما رأوا آية من الآيات أمرضوا عن النظر فيها ، ولو نظروا لحصل لهم العلم واجباً .

« سحر مستر » : أى حاتمٌ قوىٌ شديد .. (ويقال إنهم قالوا : هذا خايب لا يتبقى مدته)^(١) فاستمر : أى ذهب .

« وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » : التكذيب واتباع الهوى قرينان ؛ فإذا حصل اتباع الهوى فإن شؤبه يحصل التكذيب ؛ لأنَّ اللهَ يَلْبِسُ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهِ حَتَّى لَا يَسْتَبْصِرَ^(٢) الرشد . أما اتباع الرضا فمقرون بالتصديق ؛ لأنَّ اللهَ يَرْكَاتِ اتِّبَاعَ الْحَقِّ بِنُفُوحِ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ فيحصل التصديق .

وكلُّ امرئٍ جَرَتْ لَهُ الْقِسْمَةُ وَالتَّضْدِيرُ فَلَا حَالَةَ يَسْتَرْ لَهُ حَصُولُ مَا قَسَمَ وَقَدَّرَ لَهُ .
« وكلُّ أمرٍ مستر » : يستمر على اللزوم فوجب له الجنة ، ويستمر على الكافر فيجزي .

قوله جل ذكره : « وَتَقْدِجَاهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ •
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَا تُغْنِ التَّذْذِيرُ » .

جاءهم من أخبار الأنبياء والأمم الذين من قبلهم والأزمنة الماضية ما يجب أن يحصل به الارتداع ، ولكن الحق — سبحانه — أسبل على بصائرهم سُجُوفَ الْجَهْلِ فَعَمُوا عَنْ مواضع الرشد .

« حكمة بالغة .. » : يدل من (ما) فيما سبق : (ما فيه مزدجر) •

والحكمة البالغة هي الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن تفكر فيها .

« فَا تُغْنِ التَّذْذِيرُ » : وأى شيء يغنى إنذار التذير وقد سبق التذير لهم بالشقاء ؟

(١) ما بين التوسمين موجود في م وغيره . وجود في م .

(٢) هكذا في م . وفي في م (لا يستبصر) ، والاصوب ما أثبتنا .

قوله جل ذكره : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الْفَاحِشُ إِلَى شَيْءٍ سَكْرٌ خَشْمًا أَمْصَرُهُمْ » .

« تَوَلَّ عَنْهُمْ » : هَاهُنَا تَعَامُ الْكَلَامَ — أَيْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ .
ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ : « يَوْمَ يَدْعُ الْفَاحِشُ .. » وَالْجَوَابُ : « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » —
أَرَادَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَمَعْنَى « نُسَكْر » : أَيْ شَيْءٌ يَنْسَكُرُونَهُ (يَهْوَوْنَهُ وَفُطَاعَتُهُ)^(١) وَهُوَ يَوْمَ الْبِثِّ وَالْحَشْرِ .
وَقَوْلُهُ : « خَشْمًا » مَنصُوبٌ عَلَى الْحَالِ ، أَيْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ — وَهِيَ الْقُبُورُ —
خَافِضِينَ الْأَبْصَارَ .

« ... كَانَهُمْ جِرَادٌ مُنْتَشِرٌ »
مُهْطِعِينَ إِلَى الْفَاحِشِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ .

كَانَهُمْ كَالْجِرَادِ لِكَثْرَتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ ، « مُهْطِعِينَ » : أَيْ مُدْبِئِي النَّظَرِ إِلَى الْفَاحِشِ — وَهُوَ
إِسْرَافِيلُ .

« يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ » : لِنُتَوَالِي الشَّدَائِدَ الَّتِي فِيهِ .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا

عَبْدَنَا وَقَالُوا مُجْنُونَ ۖ وَازْدُجِرَ *
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَاتَّصِرْ *
فَتَحْنَتْنَا أُبُوبَ السَّمَاءِ بِمَا هُمْ مُنْهَمِرٌ »

كَذَّبَ قَوْمُ نُوحٍ نَبِيَّهُمْ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مُجْنُونٌ ، وَزَجَرُوهُ وَشَتَمُوهُ .

وَقِيلَ : « اِزْدُجِر » : أَيْ اسْتَطَارَعَ عَلَيْهِ ، أَيْ قَوْمُ نُوحٍ قَالُوا لَهُ ذَلِكَ .

فَدَعَا رَبَّهُ فَقَالَ : إِنَّي مَغْلُوبٌ ؛ أَيْ بِقِلْطِ قَوْمِي عَلَيَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا بِالْحُجَّةِ لِأَنَّ الْحُجَّةَ
كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ نُوحٌ لِلَّهِ : اللَّهُمَّ فَاتَّصِرْ مِنْهُمْ أَيْ اتَّقِمْ .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ تَوْضِيحٌ مِنْ جَانِبَيْهِ غَيْرُ مُوجِدٍ فِي النَّصِّ .

فَتَحْنَاهُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْصَبٍّ ، وَشَقَقْنَا عِوَنًا بِالسَّاءِ ، فَالتَقَى مَاءُ السَّمَاءِ وَمَاءُ الْأَرْضِ
 عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ، وَقَدْ رَ عَلَيْهِ بِأَهْلَاكِهِمْ !
 وفي التفسير : أن الماء الذي نَبَعَ من الأرض نَصَبَ . والماء الذي نزل من السماء هو
 البخارُ اليوم .

« وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ »
 وحملنا نوحاً على « ذات ألواح » أى سفينة ، « ودسر » يعنى اللامبر وهو جمع دسار
 أى مسار .

« تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا »
 « دأعينا » : أى يمرأى مِنَّا . وقيل : تَجْرَى بِأَوَّلَانَا .

ويقال : بأعين ملائكتنا الذين وكلناهم لحفظهم .

ويقال : بأعين الماء الذى أنبته من أوجه الأرض .

« جَزَاءَ لِمَن كَانَ كُفِرًا » : أى الذين كفروا بنوح ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ »
 جعلنا أمر السفينة علامةً بَيِّنَةً لِمَن يَسْتَبْرِهَا .

« فهل من مدكر » : فهل منكم من يستبر ؟ . أمرهم بالاعتبار بها ^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ »

فالما على جهة التنظيم لأمره .

وقد ذكر قصة نوح هنا على أفصح بيان وأقصر كلام وأتم معنى ^(٣) .

(١) يرى بعض المفسرين أن (الذى كُفِر) هو نوح عليه السلام لأنه مكفور به ، فكل نبي رحمة لآلته ، فكان نوح رحمة مكفورة .

(٢) أى أن الاستفهام - بلغة البلاغين - قد خرج من مناه الأصل إلى الأمر .

(٣) كأن القشورى يريد أن يوضح قليلاً (فكراد) قصة نوح . ونحن نعلم أن القشورى لا يستريح تماماً
 لتكرار القول بال تكرار في القرآن .

وكان نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً ، وأشدّهم لبلاءً مقلّسةً
 ثم إن الله - سبحانه - لما نجّى نوحاً ممته بعد هلاك قومه ومنع أولاده ، فكلّ مَنْ
 على وجه الأرض من أولاد نوح عليه السلام . وفي هذا قوة لرجاء أهل الدين ، إذا اتوا في دين
 الله بحنة ؛ فإنّ الله يُهلك - عن قريب - عدوهم ، ويُمكّنهم من ديارهم وبلادهم ، ويورثهم
 ما كان إليهم .

وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، وسنة الله في جميع أهل
 الضلال أن يزيّر أوليائه بعد أن يزهق أعداءه .

قوله جل ذكره : « ولقد يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
 مِنْ مُدْكِرٍ »

يَسِّرْنَا قِرَاءَتَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ ، وَيَسِّرْنَا عِلْمَهُ عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَيَسِّرْنَا فَهْمَهُ
 عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَيَسِّرْنَا حِفْظَهُ عَلَى قُلُوبِ قَوْمٍ ، وَكَلَّمَهُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ ، وَكَلَّمَهُمْ أَهْلُ
 اللَّهِ وَخَاصَتَهُ .

ويقال : كاشَفَ الْأَرْوَاحَ مِنْ قَوْمٍ - بِالْقُرْآنِ - قَبْلَ إِدْخَالِهَا فِي الْأَجْسَادِ .
 « فهل من مدكر » لهذا العهد الذي جرى لنا منه .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَنَابُيْ »

وَنُذِرُ • إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا

فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ • تَنْزِعُ النَّاسَ

كُلَّهُمْ أَهْبَاجًا • تَتَخَلَّوْا مُنْقَرِعِينَ •

كَذَّبُوا هَوًى ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا • أَيْ : باردة شديدة المهبوب ، يُسْمَعُ
 لها صوت .

« فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أَيْ : فِي يَوْمٍ شَدِيدٍ اسْتَمَرَّ فِيهِ الْعَذَابُ بِهِمْ ، وَدَامَ ذَلِكَ
 فِيهِمْ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ وَسَبْعَ لَيَالٍ . وَقِيلَ : دَامَ الشُّؤْمُ تَنْزِعَ رِيحَهُ النَّاسَ عَنْ حُرْمِهِمُ الَّتِي جَنَرُوهَا

حتى صاروا كأنهم أسافل نُخْلٍ مُنْقَطِعٍ . وقيل : كانت الريح تقطع رموسهم عن مناكبهم
ثم تلقى بهم كأنهم أصول نخْلٍ قطعت رموسها .

« وقد يَسْرِنَا الْقُرْآنَ لَدَّ كَرِّهِلٍ
من مُدَّ كَرِّ ؟ » .

هو نونا فراءته وحِفْظُهُ ؛ فليس كتب من كُتِبَ الله تعالى بُرْأ ظاهراً إلا القرآن .
قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ » صَالُوا أَبْشَرَأ
مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ ؟ .. إنا إذنا لفي
ضلالٍ وسُوءٍ » .

هم قوم صالح . وقد مضى القول فيه ، وما كان من عظم الناقة . . إلى أن أرسل الله
عليهم صيحة واحدة أوجبت هذا الهلاك ، فَصَيَّرَهم كَالْهَشِيمِ ، وهو اليابس من النبات ،
« المحتظر » : أى : المحصول في الحظيرة ، أو الحاصل في الحظيرة ^(١) ..

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ »
إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آلَ لُوطٍ
نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نَسْمُةٌ مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ » .

فأرسلنا عليهم « حاصباً » : أى : حجارةً رُمُوا بها .
« كذلك نجزي مَنْ شَكَرَ » : أى : جعلنا لإنجائهم في إهلاك أعدائهم .
وهكذا نجزي من شكر ؛ فمثل هذا نعاملُ به مَنْ شَكَرَ نعمتنا .
وَالشُّكْرُ عَلَى نِعَمِ الْمَرْغُوعِ أَمْ مِنْ الشُّكْرِ عَلَى نِعَمِ النِّعَمِ — ولا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا كُلُّ
مَوْفَّقٍ كَيْسٍ .

« فَلَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ »

(١) يقصه الشَّيْخُرى أنها قد تقرأ بفتح الظاء وبكسرهما .

جاء جبريلُ ومَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى وُجُوهِهِمْ فَنَسُوا ، ولم يَهْتَدُوا^(١) للخروج — وكذلك أجرى سُنَّتَهُ في أوليائه أَنْ يَطْطِيسَ عَلَى قُرْبِ أَعْدَائِهِمْ حتى يلبس عليهم كيف يؤذون أوليائه ثم يُخَلِّصُهُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ .

قوله جل ذكره : « سَيُخَذِّمُ الْجَعُ وَيُولُونَ اللَّهَ بِرَّ » .

أخبر أنه يفعل هذا بأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحق ذلك يوم بدر ، فصار ذلك من معجزاته صلوات الله عليه وسلامه^(٢) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ »

ذوقوا مَسَّ سَرِّ » .

سحبهم على الوجوه أمارَةٌ لإذلالهم ، ولو كان ذلك مرة واحدة لكانت عظيمة — فكيف وهو التأييد والتخليد ١١ .

وكأن أمارَةَ الدَّلِّ تظهر على وجوههم فلامَةٌ لإعزاز المؤمنين وإكرامهم تظهر على وجوههم ، قال تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة^(٣) » . وقال : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم^(٤) » .

قوله جل ذكره : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ »

أى بِقَدَرٍ مكتوب في اللوح المحفوظ .

ويقال : خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ مَا عَلِمْنَا وأَرَدْنَا وأَخِيرْنَا .

قوله جل ذكره : « وَمَأْمُرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ »

أى إِذَا أَرَدْنَا خَلَقَ شَيْءٌ لَا يَتَسَرَّرُ وَلَا يَتَمَدَّرُ عَلَيْنَا ، قول له : كُنْ — فيكون

(١) هكذا في م وهي في ص (لم يهتدوا) .

(٢) من ابن عباس أن رسول الله (ص) قال وهو في قبة يوم بدر : اللهم إني أنشدك بهذا رسولك ، اللهم إن تغافلني بعد اليوم — فأغضب أبو بكر يده فقال : حسيك يا رسول الله ، ألحمت حل ربك فخرج وهو يقول : سيجزم الجع ويولون الله (البخاري ج ٣ ص ١٣١) .

(٣) آية ٢٢ سورة القنقانة .

(٤) آية ٢٤ سورة المطففين .

بقدرتنا . ولا يقتضى هذا استئناف^(١) قوله فى ذلك الوقت ولكن استحقاق أن يقال قوله القديم أن يكون أمراً فذلك للكون إنما يحصل فى ذلك الوقت .

« كلح بالمر » : أى كأن هذا القدر عندكم (أى قدر ما يلح أحدكم ببعده) لا تلحقكم به مشقة — كذلك عندنا : إذا أردنا نخلق شيئاً — قل أو كثر ، صغر أو كبر — لا تلحقنا فيه مشقة .

قوله جل ذكره : « ولقد أهلكنا أشياءكم فصل من مدكر » .

أى أهلكنا القرون التى كانت قبلكم فكلهم أمثالكم من بنى آدم ...

« وكل شئ فى أوله فى الزبر » .

فى اللوح المحفوظ مكتوب قبل أن يسه^(٢) . وفى صحيفة اللائكة مكتوب . لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ..

« وكل صغير وكبير مستطر » .

كل صغير من الخلق ، وكل كبير من الخلق — تحتمله للنية .

ويقال : كل صغير من الأعمال وكبير مكتوب فى اللوح المحفوظ ، وفى ديوان اللائكة .

وتعريف الناس عما يكتبه اللائكة هو على جهة التخويف ؛ لئلا يتجاسر المبد على الزلة إذا عرف الحاسبة عليها والطلالبة بها .

قوله جل ذكره : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى

مقتدر صدق عند مالك مقتدر » .

(١) مكلاً فى م — وحى — فى م (استفاد) وكلامها يمكن أن يتقبله السياق . هل معنى أن قوله القديم « كن » لا (يستأنف) عند خلق الحدث . وعلى معنى أنه لا يشترط أن يستوفى خلق السموات والأرض يمكن اكتفاء بقوله القديم — والله أعلم .

(٢) مكلاً فى وحى م أصوب فى السياق من (يسه) التى جاءت فى م لأن ما (فعلوه) التى فى الآية تزدى إلى ذلك .

لم يساتين وأنهار ، والجمعُ إذا قوبل بالجمع فالأحدُ تقابلُ بالأحد .
 فظاهرُ هذا الخطاب يقتضى أن يكون لكل واحدٍ من المتين جنةٌ وسرٌّ .
 « في مقصد صدق » : أى فى مجلسِ صدق .
 « عند مليكٍ مقتدر » : أراد به عنديةَ القرُبةِ والزلفة .
 ويقال : مقعد الصدق أى مكان الصدق ، والصادق فى عبادته من لا يتمدد على ملاحنة
 الأطماع ومطالبة الأعواض .
 ويقال : من طلب الأعواض هتكته الأطماع ، ومن صدق فى المبودية محرر عن
 لقاصد الدنيا .
 ويقال : من اشتغل بالدنيا حجبته الدنيا عن الآخرة ، ومن أسرّه نعم الجنة حجب عن
 التيام بالحقيقة ، ومن قام بالحقيقة شل عن الكون بميلته (١) .

(١) أبواب الحقيقة لا تشغلهم فكرة الثواب والعقاب بل التسوالمألوف عند العبادين بنفوسهم . فحينئذ
 الكبرى هى دقيقتهم لمحبهم ، ولم فى ذلك أنوال كثيرة شعراً ونثراً .. من ذلك :
 قول أبي علي الروزبهاري :

من لم يكن بك قائماً من حبه وعن المحوى والأنس بالأسباب
 أو تبعة صباية جمعت له ما كان مغترفاً من الأسباب
 فكانه بين المراتب والقف الخال حظ أو لحسن مكاب
 ويقول الجنه : كل حبة كانت لغرض إذا زال الغرض زالت تلك المحبة . ويقول يحيى بن معاذ :
 إن ذا الحب لمن يفنى له لا لدار ذات نسو وطرف
 لا ولا القردوس - لا يأنها - لا ولا المهوراء من فوق طرف
 ويقول أصم :

كلهم يمدون من خوف ناس ويرون الجنان حظاً جزلاً
 ليس له فى الجنان النار رأى أنا لا أبنى يحيى بهيلاً
 (انظر كتابنا : نشأة التصوف الإسلامى ط المعارف ص ١٩٥ ، ص ١٩٦) .

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله»: إخبارٌ عن عِزِّهِ وعظَمته .

«الرحمن الرحيم»: إخبارٌ عن فضله ورحمته .

فيشهود عظمته بكل سرور الأرواح ، وبوجود رحمته يحصل نعيم الأشباح . ولولا عظمته لما عبَدَ الرحمنَ عابِدٌ ولولا رحمته لما أحبَّه الرحمنُ واحدٌ .

قوله جل ذكره: «الرحمن» • علم القرآن •

أى الرحمن الذى عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَجَحَدَهُ الْكَافِرُونَ هو الذى عَلمَ القرآن . ويقال: الرحمن الذى رحمهم ، وعن الشُّرْكَ عَصَمَهُمْ ، وبالإيمان أكرمهم ، وكَلَّمَ التَّوْقَى الْأَمَمَ — هو الذى عَرَفَهُم بِالْقُرْآنِ وَعَلَّمَهُمْ .

ويقال: اغرد الحقُّ بتعليم القرآن لعباده .

ويقال: أجرى اللهُ تعالى سُنَّتَهُ أَنَّهُ إِذَا أُعْطِيَ نَبِيُّنا صلى اللهُ عليه وسلم شَيْئاً^(١) أَشْرَكَ أُمَّتَهُ فِيهِ^(٢) عَلَى مَا يَلِيْقُ بِصِفَاتِهِمْ؛ فَلَمَّا قَالَ لَهُ (صَلِّمْ) : «وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»^(٣) . قال لأُمَّتِهِ : «الرحمن • علم القرآن» .

ويقال: عَلمَ اللهُ آدمَ الأسماءَ كُلَّهَا ثُمَّ أَمَرَهُ بِعَرَضِهَا عَلَى اللَّائِكَةِ وَذَكَرَ آدَمُ ذَلِكَ لَمْ — قال تعالى : «أَتُنَبِّئُهُم بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ» يَا آدَمُ ، وَعَلَّمَ (نَبِيُّنا صلى اللهُ عليه وسلم)^(٤)

(١) شَيْئاً) غير موجودة في م . وموجودة في ص - والسياق يقوى بها .

(٢) هكذا في ص وهي في م (فيه أمه) .

(٣) «وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» آية ١١٣ سورة لقمان .

(٤) ما بين القوسين إضافة من جانبنا لينضج السياق .

المسلمين^(١) القرآن قال صلى الله عليه وسلم : « لاصلاة إلا بغائمة الكتاب ، والمُصلّي مُناجٍ ربه » قال لآدم : أَذْكَرُ مَا عَلَّمْتُكَ لِللَّائِكَةِ . وقال لنا : نَاجِي بِاعْبُدِي بِمَا عَلَّمْتُكَ^(٢) . وقد يُلاطِفُ مع أولادِنا نلتهم بما لا يُلاطِفُ به آبائهم .

ويقال : لما عَلَّمَ آدَمَ أسماءَ المخلوقاتِ قال له : أخيرِ لللائكةِ بذلك ، وعَلَّمْنَا كلامه وأسماءه فقال : قَرَأُوا عَلَىَّ وخطبوا به مني .

ويقال : عَلَّمَ الأرواحَ القرآنَ — قَبْلَ تركيبها في الأجساد بلا واسطة^(٣) ، والصيغُ إنما يُسَكَّنُونَ القرآنَ — في حالِ خَيْرِهِمْ — قَبْلَ أَنْ عَرَفَتْ أرواحنا أحداً ، أو سَمِعْنَا من أحدٍ شيئاً . . عَلَّمْنَا أسماءه :

أتاني هوامها قبل أن أعرف الهوى ضاقت قلبي فارغاً فتمسكتها
ويقال : سَتِيًّا لِأَيَّامٍ مضت — وهو يُعَلِّمُنا القرآن .

ويقال : برحمته عَلَّمَهُم القرآنَ ؛ فبرحمته وصلوا إلى القرآن — لا بقراءة القرآن يصلون إلى رحمته .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » .
« الإنسان » : هاهنا جِنْسُ الناس ؛ عَلَّمَهُم الْبَيَانَ حتى صاروا مُتَمَيِّزِينَ^(٤) — فافصلوا بالبيان عن جميع الحيوان . وَعَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُم الذي يتكلمون ويتخاطبون به .
والبيان ما به تَبَيَّنُ المعاني — وَشَرَحَهُ في مسائل الأصول .

ويقال : لما قال أهل مكة إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ رَدَّ اللَّهُ — سبحانه — عليهم وقال : بَلْ عَلَّمَهُ اللَّهُ ؛ فالإنسانُ على هذا القول هو محمدٌ صلى الله عليه وسلم . وقيل هو آدم عليه السلام .
ويقال : البيان الذي خُصَّ به الإنسان (عموماً) يعرفُ به كَيْفِيَّةُ مخاطبةِ الأعيان من الأمثال والأشكال . وأما أهل الإيمان والفرقة فيبينهم هو عَلِمُهُم كَيْفِيَّةَ مخاطبةِ مولاهم — وبيانُ

(١) حكاه في م وهي في ص (المسلمون) وهي خطأ في النسخ .

(٢) أنظر كتابنا (البسلة بين أهل العبارة وأهل الإشارة) ورايتنا في معنى (الرحمن) .

(٣) إشارة إلى يوم القدر .

(٤) بتشديد الياء وفتحها على معنى أن البيان علامة تميز عن سائر الحيوان ، وبكسرهما على معنى أن البيان

وسيلة انفرد بها الإنسان لتخصيص صلاته لنفسه للتمييز بين الأشياء .

المبيد مع الحق مختلف : قومٌ يَخْلَطُونَهُ بِلِسَانِهِمْ ، وقومٌ بَأْغَاسِهِمْ ، وقومٌ بِدُمُوعِهِمْ :
دموعُ النّفى عَنَّا يَحْسُ تَرَجُمُ وَأَشْوَاقُهُ تَبْدِينُ مَا هُوَ يَكْتُمُ
وقومٌ بِأَيْنِهِمْ وَحَنِينِهِمْ :

قُلْ لِي بِأَلْسِنَةِ النَّفْسِ كَيْفَ أَنتَ وَكَيْفَ حَالُكَ ؟

قوله جل ذكره : « الشمس والقمر يحسبان » .

يعنى يجرى أمرهما على حدٍّ معلوم من الحساب . فى زيادة الليل والنهار ، وزيادة القمر
وقصائه ، وتُعرَفُ بمرورِها الشهور والأيام والسنون والأعوام .. وكذلك لها حساب إذا
انتهى ذلك الأجلُ .. فالشمس تُكَوِّرُ والقمرُ يَنْكَدِرُ .

وكذلك لشمس^(١) للعارف وأقارب العلوم — فى طلوعها فى أوج^(٢) القلوب والأسرار —
فى حكمة الله حسابٌ معلومٌ ، يُجَرِّبُهَا عَلَى مَا سَبَقَ بِهِ الْحُكْمُ .

قوله جل ذكره : « والنجم والشجر يسجدان » .

ويقال : النجم من الأشجار : ما ليس له ساق^(٣) ، والشجر : ما له ساق .

ويقال : النجوم الطالعة والأشجار الثابتة « يسجدان » سجودَ دلالة على إثبات الصانع
بنمت استحقاقه للجلال .

قوله جل ذكره : « والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ لِلزَّيْنِ » .

سَمَكَ الْمَاءَ وَأَعْلَاهَا ، وَعَلَى وَصْفِ الْإِثْنَيْنِ وَالْإِحْكَامِ بِنَلَاهَا ، وَالنَّجْمَ فِيهَا أَجْرَاهَا ،
وَبَثَّ فِيهَا كَوَاكِبَهَا ، وَحَفِظَ عَنْ الْاِخْتِلَالِ مَنَاقِبَهَا ، وَأَمَجَّتْ عَلَى مَا شَاءَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ..
وَحَلَقَ لِلزَّيْنِ بَيْنَ النَّاسِ لِيَتَبَرَّوا الْإِنصَافَ فِي الْمَعَامَلَاتِ بَيْنَهُمْ .
ويقال : لِلزَّيْنِ الْمَدْلُ .

« أَلَا تَطْفَرُونَ فِي الزَّيْنِ »

(١) هكذا بالفرد فى م وهى فى ص بالجيم (شمس) ونرجع أنها بالفرد حسبما نعرف من أسلوب التفسيرى
فشمس الحقائق واحدة إذا طلعت ضلّى نورها أثار العلوم .

(٢) هكذا فى ص وهى أصوب مما جاء فى م (روح) فلا معنى لما هنا .

(٣) لأنه ينبغى عن الألف بلا ساق مثل اليعقول (الغنى) ٤٠ ص ٢٠٧ .

احفظوا المَدْلَ في جميع الأمور ؛ في حقوق الأعمى وفي حقوق الله ، فيعتبر المدلُّ ، وترَكُّ الحَيِّفِ ومجاوزةُ الحدِّ في كل شيء ؛ ففي الأعمال يمتَبرُ الإخلاصُ ، وفي الأحوال الصدقُ ، وفي الأمانس الحقائقُ ومساواةُ الظاهرِ والباطنِ وترَكُّ الداهيةِ والخلداعِ والكسرِ ودقائق الشَّرِكِ وخفايا النفاقِ وغوامض الجناياتِ .

« وأقيموا الوَزنَ بالثِّقَةِ ولا تُخْصِرُوا

للِيزانِ » .

(وأقيموا الوزن بالمكيال الذي تحبون أن تُتَكَلَّوا به ، وعلى الوصف الذي ترجون أن تتألوا به معكم ومشرىكم دون تطفيف)^(١) .

قوله جل ذكره : « والأرضَ وضعا للأنام » فيها

فاكهةٌ والنَّخلُ ذاتُ الأكمامِ *

والْحَبُّ ذو المَصْفِ والرَّيْحَانُ » .

خلق الأرضَ وجعلها مهاداً ومشوى للأنام .

وقال : وضعا على الماء وبسط أقطارها ، وأنبت أشجارها وأزهارها ، وأجرى أنهارها وأغطش ليها وأوضح نهارها .

« فيها فاكهة . . » يعنى ألوانُ الفاكهةِ المختلفةِ في ألوانها وطولها وروائحها ونعمها

وضرورها ، وحرارتها وبرودتها . . وغير ذلك من اختلافٍ في حبِّها وشجرها ، وورقها ونورها .

« والنَّخلُ ذاتُ الأكمامِ » وأكمام النَّخلِ ليفها وما يَنْطَفيها من السَّعفِ .

« والْحَبُّ » : حَبُّ الحنطة والشعير والمدس وغير ذلك من الحبوبِ .

« ذو المَصْفِ » : والمَصْفُ ورق الزَّرْعِ^(٢)

(١) ما بين القوسين مضطرب في النص حاولنا تنظيمه ليحلى معنى .

(٢) قال الضحاك : المَصْفُ التين ، وقال بعضهم المَصْفُ هو الماء كقول من الحب ، والرَّيْحَانُ النضج الذي لم يؤكل . وقال أبو مالك : المَصْفُ أول ما ينبت تسمي التين مبروراً . وقال بعضهم : المَصْفُ ورق الحنطة . (البخاري - ٣ ص ١٣١) . وسيت الرياح عواصف لأنها تأتي بالمصْف وهو ورق الزرع وحطائه .

« والريحان » الذى يُشَمُّ . . . ويقال : الرزق لأن الرب يقول : خرجنا نطلب ربحان الله «
 ذكّرهم عظيم مِنته عليهم بما خَلَقَ من هذه الأشياء التى يفتخرون بها من مأْكولاتٍ
 ومشموماتٍ وغير ذلك .

قوله جل ذكره : « فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكَا تُكَذِّبَانِ »

فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَجْحَدَانِ ؟ والآلاءُ النعماء .

والثنيةُ فى الخطابِ للمُكَلَّفَيْنِ من الجنِّ والإِنسِ .

ويقال : هى على عادة الرب فى قولهم : خَلَقْنِي ، وَفَعَّلَا ، وَأَرْحَلَاهَا بِالْغَلَامِ ، وَأَزْجَرَاهَا
 بِالْغَلَامِ .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ »

« الْإِنْسَانِ » : يعنى آدم ، والصلصالُ الطينُ اليابس الذى إذا حُرِّكَ صَوَّتَ كالفخار .
 ويقال : طين مخلوط بالرمل .

ويقال : مُتَنَّنٌ ؛ من قولهم صَلَّ وَأَصَلَ إذا تَنَبَّرَ .

« وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ »

للجارج : هو الالهب المختلط بواد النار

« فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكَا تَكْذِبَانِ »

يُذَكِّرُ الْخَلْقَ من الجنِّ والإِنسِ كما سبق — وكرّر الله سبحانه هذه الآية فى غير موضع
 على جهة التضرير بالنسبة على التفصيل ، أى سعةً بعد سعة .

ووجهُ التسمية فى خلق آدم من طين أنه رَقْلُهُ إلى رَجَبِهِ بعد أن خلقه من طين .

ويقال ذَسَّكَرَ آدَمَ نِسَبَتُهُ وَذَكَّرْنَا نِسَبَتَنَا لِثَلَاثِ نُسَبٍ بِأَحْوَالِنَا .

ويقال عَرَفَهُ قَدْرَهُ لِثَلَاثِ عَشْرٍ ^(١) طَوْرَةٍ .

(١) مكلا فى سر ومضى فى م (لا يحدو) .

قوله جل ذكره : « رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » فبأي
آلاءِ رَبِّكُمَا تُكْلِبَانِ .

« المشرقين » : مشرق الصيف ومشرق الشتاء وكذلك مغربهما .

وجه النعمة في ذلك جر ياتهما على ترتيب واحد حتى يكل انتفاع الخلق بهما .
ويقال : مشرق القلب ومغربه ، وشوارق القلب وغواربه إنما هي الأنوار والبصائر
التي جرى ذكر بعضها فيما مضى .

قوله جل ذكره : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بينهما بَرَزَخٌ
لا يمينان .

« برزخ » أي حاجز يفترقه فلا يمتزج أحدهما بالآخر ، أراد به البحر المذبذب والبحر
المالح . ويقال : لا يمينان على الناس ولا يترفاهم .

« يُخْرِجُ مِنْهَا الْقُؤُوزَ وَالْمُرْجَانُ »

القُؤُوزُ : كبار الدر ، والمرجان : صغار الدر . ويقال : للمرجان التسلسل .

وفي الإشارة : خَلَقَ في القلوب بحرين : بحر الخوف وبحر الرجاء . ويقال الثبؤن والبط
وقيل الحمية^(١) والأنس . يُخْرِجُ منها القُؤُوزَ والجواهر وهي الأحوال الصافية والطائفة للتوالية .

ويقال : البحران . إشارة إلى النفس والقلب . فالقلب هو البحر المذبذب والنفس هي البحر
المسح . فمن بحر القلب كل جوهر ثمين ، وكل حالة لطيفة . . ومن النفس كل خلق
ذميم^(٢) . والدر من أحد البحرين يخرج ، ومن الثاني لا يكون إلا القميص مما لا قَدَرُ له
من سوا كثر القلب . « بينهما برزخ لا يمينان » : يصون الحق هذا من هذا ، فلا يبتغي هذا
على هذا .

قوله جل ذكره . : « وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ في الْبَحْرِ
كَلَالًا عَلَامٌ »

« الجوارى » : واحدها جارية ، وهي السفينة .

(١) هكذا في م وهي الصواب أصلاً في م فهي (المحيط) وهي خطأ في النسخ .

(٢) النفس عند الصوفية عمل المملولات والقلوب عمل المحمودات .

« الأعلام » : الجبال

(له هذه السفن التي أنشئت وخلقت في البحر كأشجار الجبال العالية)^(١) .

قوله جل ذكره : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »

كل من على وجه الأرض في حكم الفناء من حيث الجواز . ومن حيث التغير : ستبقى الدنيا ومن عليها و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . « والوجه » : صفة لله — سبحانه — لم يبدل عليه القتل قطعاً ودل عليه جوازاً ، وورد التغير بكونه قطعاً .

ويقال : في بقاء الوجه بقاء القات ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا بحالة شرطها قيامها بنفسه وذاته . وثالثة تخصيص الوجه^(٢) بالذكر أن ما عداه يُعرفُ بالقتل ، والوجه لا يُسَمُّ بالقتل ، وإنما يُعرفُ بالقتل والأخبار . و « يبقى » : وفي بقاءه . سبحانه . خَلَفَ عَنْ كُلِّ نَفٍ^(٣) ، وتولية المسلمين عما يصيبهم من الصائب ، ويفوتهم من الواهب . قوله جل ذكره : يَأْتِيهِمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ .

أهل السموات يسألون أبدأ للنفرة ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والنفرة ، أي لا يُبدُّ لأحدٍ منه (سبحانه) .

وفي السموات والأرض مَنْ لا يسأله : وهم مَنْ قيل فيهم : مَنْ شَفَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسَائِي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين^(٤) .

ويقال : ليس كل مَنْ في السموات والأرض يسألونه مِمَّا في السموات والأرض ولكن :

بَيْنَ الْخَبِيرِ مِرُّ لَيْسَ يُشِيرُهُ قَوْلٌ وَلَا قَلَمٌ لِلخَلْقِ بِحِكْمِهِ

(١) ما بين القوسين مشترك في حاشي القودة بالنسخة من

(٢) سقطت لفظة (الوجه) من النسخة م .

(٣) هكذا في م وهي في ص (ثالث) وهي صحيحة ولكن السياق والموسم الداعية تتأكله (تلف) .

(٤) من شفه ذكرى من مسائي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين « رواه البخاري في التاريخ ، والبراز

في السنة ، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب .

« كل يوم هو في شأن » من إحياء وإماتة ، وقبض قوم وبسط قوم .. وغير ذلك من فنون أقسام الخلقوت ، وما يُجرّبه عليها من اختلاف الصفات .

وفي الآية ردُّ على اليهود حيث قالوا : إنّ الله يستريح يوم السبت لا يفعل شيئاً ، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن ، ولو أخذ العالم لحظة من حفظه لثلاثي وبطل .

(ومن شاء أن ينفّر ذنباً ، وسرّ عيياً ، ويذهب كرباً)^(١) ، ويطيّب قلباً ، ويُغمي عبداً ويُدني عبداً ... إلى غير ذلك من فنون الأفعال . وله مع عباده كل ساعة برٌّ جديدٌ ، وسِرٌّ^(٢) بينه وبين عبده — عن الرقباء — بعيد .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ سَوَّى للقدور إلى أوقاتها .

ويقال : كل يوم هو في شأنٍ إظهارٍ مستورٍ وسرٍّ ظاهرٍ ، وإحضارٍ غائبٍ وتضييٍ حاضرٍ .

قوله جل ذكره : « سَتَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّهَ الثَّقَلَانِ »^(٣) .

أى للحساب يوم القيامة — وليس به اشتغال ... تعالى الله عن ذلك .
ومعنى الآية : ستصعد لحسابكم .

قوله جل ذكره : « يا مَعْشَرَ الْبَشَرِ الْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَمْطَارِ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

أَمْطَارُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ نواحيها . أى إن قدرتم أن تخرجوا من مُلككم فاخرجوا .

(١) هذا القراء أيضاً لأبي هريرة (البخارى ٣٠ ص ١٣١) .

(٢) مكنا في م ، أما في ص فهي (يُسّر) وقد رجحنا الأول لأن (السّر) يكون يبدأ عن الرقباء .

(٣) الثقلان = الإنس والجن سبياً بذلك لأنهما ثقل الأرض .

ثم قال : « لا تتفنون إلا بسلطان » . أى لا تملن إلى موضع إلا وهناك سلطانى ومثلكى ولا تتفنون فى قُلُوبِ إلا وهناك عليكم حجة^(١) .

قوله جل ذكره : « يُرْسَلُ عَلَيْكَ شُواظٌ مِنْ نَارٍ وَتُحْسَرُ فَلَا تَقْتَصِرُ » .

أى فلا تفتان . والشواظ : اللهب من النار لا دخان معه . والنحاس : الصفر^(٢) للذباب قوله جل ذكره : « فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ » .

ينفك بعضها عن بعض . وتصير فى لون الورد الأحمر . ويقال : بها الفُرش الموردة كالدهان وهو جمع دهن . أى كدهن الزيت وهو دودى الزيت .

ويقال : كما أن الوردة يتلون لونها ، إذ تكون فى الربيع إلى الصفرة ، فإذا اشتدت الوردة كانت حمراء ، وبد ذلك إلى التبرة — فكذلك حال السماء تلون من وصف إلى وصف فى القيامة .

قوله جل ذكره : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ » .

أراد فى بعض أحوال^(٣) القيامة لا يُسألون ، ويُسألون فى البعض فى يوم القيامة طويلاً .

وقال : لما كانت لم يومئذ علامات : فلكفار سوادُ الوجه وزُرْقَةُ العين ، وللمسلمين بياض الوجه وغير ذلك من العلامات — فاللائكة لا يحتاجون إلى سؤالهم : من أتم ؟ لأنهم يعرفون كلاً بجام .

(١) هكذا فى م وحى فى ص (وجهه) . فإذا قبلنا (حجة) فيكون المعنى أنكم أينما توجهتم فى بقاع السموات والأرض فتستجدون دائماً برهاناً على وحدانية الله ، وشامداً على ربوبيته . وإذا قبلنا (وجهه) فهو على معنى : « فأينما تولوا ثم (وجهه) الله » .

(٢) الصفر = النحاس الأصفر .

(٣) أحوال القيامة هنا بمعنى مواعين للقيامة فى ذلك اليوم الطويل . وربما كانت (أحوال) .

وقال : لا يُسألون سؤالاً يكون لهم ويُسألون^(١) سؤالاً يكون عليهم^(٢) .

قوله جل ذكره : « يُرَفِّقُ الْعَجْرَمُونَ بِسِلَاحِهِمْ فَيُؤْخَذُ

بِالنَوَاسِي وَالْأَقْدَامِ » .

المؤمنون غرّاً يُحِبُّونَ ، والكفارُ سود الوجوه زُرْقُ السِيُون ، فيعرف الملائكة هؤلاء
فيأخذون بنواصيرهم ، ويخربونهم مرةً بها ومرةً بأفئادهم ثم يقوهم في النار ، ويطرحونهم
في جهنم :

« هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْجَحْرَمُونَ

• يطوفون فيها وبين جحيم آتٍ » .

يقال لهم : هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون !

« حِمِيمٌ : مَاءٌ حَارٌّ » . « آن » تنهى في الضحج

قوله جل ذكره : « وَلَمَّا خَفَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ »

يقال : لَمَّا خَفَ قُرْبَ رَبِّهِ مِنْهُ واطلاعه عليه .

وقال : لمن خاف وقوفه غداً بين يدي الله — جنتان ، ولقطة التثنية هنا على العادة في قولهم :

خَطِيئٌ ونحوه .

وقيل : بل جنتان على الحقيقة ، مُتَّجِلَةٌ في الدنيا من حلاوة الطاعة وروح^(٣) الوقت ،

ومُؤَجَّلَةٌ في الآخرة وهي جنة الثواب . ثم هم مختلفون في جنات الدنيا على مقادير أحوالهم كما
يختلفون في الآخرة على حسب درجاتهم .

« ذَوَاتَا أَفْئَانٍ » فيأى آلاء ربكما تكذبان

فيهما غينان تجريان » .

دلَّ على أن المجنتين في الآخرة . والأفئان الأعصان . وهي جمع فئ .

(١) سئلت (ويسألون) هل من م موجودة في ص وهي ضرورية .

(٢) هذه المحاولات التي يلها التفسير مقصود منها — حسبنا نظر — التوفيق بين هذه الآية وبين آيات أخرى

مثل : « وَطُورِكَ لِسَانُهُمْ أَجْمِينَ » ومثل « وَتَقْوَاهُمْ لِيُؤْمِنُوا بِهِمْ » .

ومن قبيل هذه المحاولات قول قتادة : « خَشِيَ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ الْقُرْآنَ وَتَكَلَّمَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(٣) محكماً في م وهي في ص (روح) .

ويقال : ذواتا ألوانٍ من كلِّ صنفٍ ولونٍ تشبه النفس والعين — وتكون جمع فن .
 « فيهما عيتان تجريان » إحداهما التنعيم ، والأخرى السليل .
 ويقال : عيتان تجريان غداً لمن كان له — اليوم — عيتان تجريان بالعموم .
 « فيهما من كلِّ فاكهة زَوْجان » .
 زوجان أى صنفان وصَربان ؛ كالرطب واليابس ، والصب والزيب .
 ويقال : إنها في نهاية الحسن والجودة .

« مُتَكَتِنِينَ عَلَى فُرُشٍ جَلَّاتُهَا مِنْ
 إِسْتَبْرَقٍ وَجِيَّ الْجَنَّتَيْنِ ذَاكَ » .

بطانتها من استبرق فكيف بظواهرها ؟ . « والبطائن » : مائلي الأرض . « والاستبرق » :
 الديباج النليظ . وإنما خاطبهم على قَدَرِ قَهْمِهِمْ ؛ إذ يقال إنه ليس في الجنة شيء مما يُشبه ما في
 الدنيا ، وإنما الخطاب مع الناس على قَدَرِ أَنْهَامِهِمْ ^(١) .

« وجيَّ الجنة تان » : أى ما يجتئى من ثمرها — إذا أرادوه — دنا إلى أفواهم فتناولوه
 من غير مَشَقَّةٍ تنالهم . وفي الخبر السند : « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ
 أَكْبَرُ غَرَسَ اللَّهُ لَهُ شَجَرَةً فِي الْجَنَّةِ أَصْلُهَا ذَهَبٌ وَفَرْعُهَا بَرٌّ وَطَلْمُهَا كُنْدَى الْأَبْكَارِ أَلَيْنِ
 مِنَ الزُّبْدِ وَأَحْلَى مِنَ الْمِسْلِ ، كُلًّا أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا عَدَا كَمَا كَانَ » — وذلك قوله : ودنا
 الجنة تان .

ويقال : ينالها القائم والقاعد والناائم .

قوله جل ذكره : « فِيهِنَّ قَائِمَاتٌ ظُرُوفٌ لَمْ يَطْلُبْنَهُنَّ
 إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ » .

أى في الجنان حورٌ قَصَرْنَ عِيونَهُنَّ عن غير أزواجهن .
 وإذا كانت الزوجات قاصراتِ الظُّرُوفِ عن غير أزواجهن فأولى بالمبد إذ رجا لقاءه
 — سبحانه — أن يقصر طرفه ويَقْصَهُ عن غير مَبْلَغٍ .

(١) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية يوضح مدى تصور القشيري لنعيم الجنة وإيضاحها عن المحسات .

بل عن الكل^{١٠٠} إلى أن يقامه .

ويقال : من الأولياء من لا ينظرُ إليهن — وإن أُمِح له ذلك لصرَّوه عن الشهوات ،
ولم لو همته عن المخلوقات^(١) — وأنشدوا :

جِنًّا بَلَّيْ وَهِيَ جُنَّتْ بِسِيرَتَا

وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٍ لَا تَرِيدُهَا

ويقال : هُنَّ لَمَن قَصَرَتْ يَدُهُ عَنِ الْحَرَامِ وَالشَّبَهَةِ ، وَطَرَفَهُ عَنِ الرَّيْبِ .

« لَمْ يَطْلُبْنِ إِنْ سَقَلَهُمْ وَلَا جَان » : لَمْ يَصْحَبْنِ غَيْرُ الْوَلِيِّ وَلَمْ يَحْزَنْ غَيْرَهُ ، وَفِي الْخَبَرِ .
اشْتَاقَتْ الْجَنَّةُ لِلثَّلَاثَةِ^(٢) .

« كَانِهِنَّ الْيَقُوتُ وَاللَّرْجَانُ » .

أى : فِي مَفَادِ الْيَقُوتِ وَلَوْنِ اللَّارْجَانِ .

قوله جل ذكره : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ » .

يقال : الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنْ اللَّهِ وَالثَّانِي مِنَ الْعِبْدِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ
إِلَّا أَنْ يُحَسِّنَ لَنَا بِالْعَمَلِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ بِالْوَلَاءِ إِلَّا أَنْ يُحَسِّنَ لَنَا بِالْوَفَاءِ ؟ .

ويصح أن يكون الْإِحْسَانُ الْأَوَّلُ مِنَ الْعِبْدِ وَالثَّانِي مِنَ اللَّهِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ
مِنْ حَيْثُ الطَّاعَةِ إِلَّا أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْقَبُولِ وَالثَّوَابِ ؟ .

وهَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ حَيْثُ الْخَلْعَةِ إِلَّا أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ النِّعَةِ ؟

ويصح أن يكون الْإِحْسَانُ ثَلَاثٌ مِنَ الْخَلْقِ ؛ أَى : هَلْ جَزَاءُ مَنْ أَحْسَنَّا إِلَيْهِ فِي الْإِبْتِدَاءِ
إِلَّا أَنْ يُحَسِّنَ إِلَيْهِ فِي الْإِتِّهَادِ ؟ وَهَلْ جَزَاءُ مَنْ قَاتَعْنَاهُ بِاللُّطْفِ إِلَّا أَنْ تُرِيَّ لَهُ فِي
النِّفَاضِ وَالْعَطْفِ ؟ .

(١) يضاه هذا الكلام إلى رأى القشيري في موضوع والعصية .

(٢) إن الجنة تشاقل ثلاثة : حل وجوار وملائكة .

(الترمذي من أنس ، ورواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي ربيعة الأياضي . وقد حسن الترمذي
حديثه . قاله الحافظ الميمني) ويرجع أن الموضع الصحيح الخبر هو بعد النص القشيري السابق ، ونرجع أيضاً
أن السبب في استبعاد القشيري بهذا الخبر هنا هو إثبات اشتياق الجنة لأهل النعيم ، بينما هؤلاء الزماد الثلاثة
لا أربَّ لهم في الدارين ، لأنهم بالقوت برهمهم .

ويصح أن يكون كلاما من البعد ؛ أى : هل جزاء من آمن بنا إلا أن يثبت في المستقبل على إيمانه ؟ وهل جزاء من عقد الوفاء إلا أن يقوم بما يقتضيه بالتفصيل ؟

ويقال : هل جزاء من بعد عن نفسه إلا أن يقر به مينا ؟

وهل جزاء من قف عن نفسه إلا أن يبقى بنا ؟

وهل جزاء من رفع لنا خطوة إلا أن نكافئه بكل خطوة ألف خطوة ،

وهل جزاء من حفظ لنا طريقه إلا أن نكرمه بقائنا ؟

قوله جل ذكره : « ومن دونها جنتان » .

هما جنتان غير هاتين اللتين ذكرنا ؛ جنتان أخرتان . وليس يريد دونهما في الفضل ،

ولكن يريد « جنتان » سواهما^(١) .

« مُدَاهَتَانِ » .

أى : خضران خضرة تضرب إلى السواد . فلهذه السواد^(٢) والقليل منه ادعاهم والاسم

منه مُدَاهَاتٌ ، وللثلاث مداهاتٌ ، ولثلاثه للثلاث مداهاتان .

« فِيهِمَا عَيْنَانِ تَصْلَخَانِ » :

والتَّصْلُخُ قَوْرَانُ الْعَيْنِ بِالْمَاءِ .

« فِيهِمَا فَاسَكَةٌ وَتَحْلٌ وَرُمَانٌ »

الاسماء متشابهة : . واليون^(٣) فلا .

« فِيهِنَّ جَبَرَاتٌ حِسَانٌ » .

(١) قارن ذلك بما رأى القس في قوله يقول : « هما جنتان من دون هاتين الجنتين الميزودتين المقربين » وما لمن دونهم من أصحاب العين وفي موضع آخر من « صفة ذاتها يقول القس : « وإنما تناسرت مهابات هاتين الجنتين من الأولين لأن مداهاتان دون (ذوات أنان) وتضاهاتان دون (جبريات) هاتيك (دون كل فاكهة) (القس ج ١ ص ٢١٢) .

(٢) هذا رأى الخليل أيضاً .

(٣) ربما يقصد القشيري (٢ الأعيان) فهذا هو الاستفهام بالثلاث استعجالاً على ملأى الفلسفة والكلام . بل إن القشيري نفسه يستعمل في مثل هذا الموضع . والفتوى أن القرآن يتحدث من اسم الجنة حسب أفعال الناس ، ولكن الأعيان غير الأسماء .

أى : حورٌ خَيْرَاتُ الأخلاقِ حِسانُ الوجوه . واحدها خَيْرَةٌ والجمع خَيْرَاتٌ وهذا هو الأصل ثم خُفِّفَ فصارَت خيرات .

« حُورٌ مقصوراتٌ في الخيام » .

محبوسات على أزواجهن . وهُنَّ لَيْنٌ هو مقصور الجوارح عن الزَّلَّاتِ ، مقصورُ القلب عن الفلَّاتِ ، مقصورُ السَّرِّ عن مساكنة الأشكال والألعال والأشباه والأمثال .

وفى بعض التفاسير : أن الخليفة من دُرٍّ مَجُوفَةٍ فرسخ في فرسخ لها ألف باب^(١) .

ويقال : قصرت أهنس وقلوبهن وأبصارهن على أزواجهن . وفى الخير : أنهن يلقن : نحن الناعبات^(٢) . فلا نبؤس ، الخلفيات فلا يبد ، الراضيات فلا تسعط .

وفى خبر عن عائشة رضى الله عنها : أن المؤمناتِ أَجَبْنَهُنَّ : نحن المصليات وما صَلَّيْنَهُنَّ ، ونحن الصائمات وما صُمَّيْنَهُنَّ ، ونحن المتصدقات وما تَصَدَّقْتُنَّ ، قالت عائشة يظنن قوله . « لَمْ يَطْنِيْنَهُنَّ^(٣) إِنْ سَ قَبِلْتُمْ وَلَا جَانٌ » .

قوله جل ذكره : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفُوفٍ ضَخْمَةٍ وَعِجْرِي حِسانٍ » .

قيل : رياض الجنة ، وقيل : المجالس ، وقيل : الزرائق والوسائد — وهى ضُفْرٌ وعِجْرِي حِسان : العِجْرِي عند العرب كلُّ ثوبٍ يُنَوِّشُ .

قوله جل ذكره : « تَبَارَكُ الَّذِي يَخْلُقُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » .

مضى تشييره .

(١) نبهنا لخمدة بن الحنفى قال : حدثنا عبد العزيز بن عبد الحميد : حدثنا أبو عمران الجوني عن أبي بكر بن عبد الله ابن أبي قحيس عن أبيه : أن رسول الله (ص) قال : « إن في الجنة عيمة من لؤلؤة غريبة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون إلا عشرين يطوف عليهم المؤمنون .. البخارى ج ٢ ص ١٣٢ . وذكر ابن جرير البغوي أن الخليفة لؤلؤة أربعة فراسخ في أربعة فراسخ . هذا أربعة آلاف مضراع من ثياب (ص ٢٧٧ ص ٨٤) .

(٢) نفس الناعبات فلا نبؤس أبداً . نحن الخلفيات فلا نبؤس أبداً . رواه الترمذى عن جل : وقال : حديث غريب . رواه البيهقي وأبو نعيم عن أبي أيوب في حقة الجنة : وذكره المصنف في المعجم ٣٤٥ .

(٣) الطمث : الجراح بالفتنة

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسم جبار من احتق بشأنه أحضره بإحصائه، فلن آبي إلاّ تمادياً في عصيانه حال بينه وبين اختياره^(١) بقهر سلطانه، وإن لم يلزم هذه^(٢) الطاعة أبتأه بالبلاء فيأتيها بانطراده .

اسم عزيز أزلّ، جبار صمدى، قهار أحدى، للمؤمنين وليّ، وبالماصين حتىّ، ليس لجهل كفى، ولا في جلاله سى، لكنه^(٣) لمصاة من اللّومين وليّ .

قوله جل ذكره: «إِذَا وَقَّتِ الْوَاقِعَةُ» ليس لوقفتها كاذبة .

إذا قلت التيامة لا يردّها شيء .

«كاذبة» هلينا مصدر: كالفافية، والعاقبة، أى: هى حق لا يردّها شيء، وليس في وقوعها كذب .

ويقال: إذا وقت الواقعة فمن سلك منهاج الصعّة والاستقامة وصلّ إلى السلامة ولقى الكرامة، ومن حاد عن نهج الاستقامة وقع في الندامة والانزامة، وعند وقوعها يقين الصادق من الملائق :

إِذَا اشْتَبَكَ صَوْعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى
«خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ»

(١) هكذا في ص وهي في م (لسانه) .

(٢) هكذا في م وهي في ص (ثمة) الطاعة .

(٣) هكذا في م، وفي ص توجد كلمة غير واضحة للكتابة .

« خافضة » : لأهل الثقلوة ، « رافعة » : لأهل الرقاة .

« خافضة » : لأصحاب الدعاوى ، « رافعة » : لأرباب المناق .

« خافضة » : للنفوس ، « رافعة » : للقلوب .

« خافضة » : لأهل الشهوة ، « رافعة » : لأهل الصنوة .

« خافضة » : لمن جحد ، « رافعة » : لمن وَّحد .

قوله جل ذكره : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » .

مُرَّكَت حركة شديدة .

قوله جل ذكره : « وَبَعَثَ الْجِبَالُ بَنًا » فكانت

هذه مُنبِئًا .

فَتَلَّتْ فكانت كالحباء الذي يقع في الكوة عند شعاع الشمس .

قوله جل ذكره : « وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثًا » فَأَصْحَابُ

الْيَمِينَةِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ • وَأَصْحَابُ

الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ •

وَالسَّائِقُونَ السَّائِقُونَ .

« ما أصحاب اليمين » ؟ على جهة التضمين لشأنهم والتعظيم لِقَدْرِهِمْ ، (وهم أصحاب اليمين

والبركة والثواب) ^(١) .

« ما أصحاب الشمال » : على جهة التضمين للبالغة في ذمهم ، وهم أصحاب الشزم على أنفسهم ويقال :

أصحاب اليمين هم الذين كانوا في جانب اليمين من آدم عليه السلام يوم القدر ، وأصحاب الشمال

هم الذين كانوا على شماله .

(١) موجود في ص، وغير موجود في م .

وقال : الذين يُعَلِّقُونَ الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ ، والذين يُسَلِّقُونَ الْكِتَابَ بِشِئَانِهِمْ .
(وقال : هم الذين يُؤَخِّدُ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ .. إلى الجنة ، والذين يُؤَخِّدُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ..
إلى النار) ^(١) .

« والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ » : وهم الصف الثالث . وهم السابقون إلى انقصال الجيدة ،
(والأفضل الجيدة) ^(٢) .

وقال : السابقون إلى الهجرة . وقال : إلى الإسلام . وقال : إلى الصلوات الخمس .
وقال : السابقون بصدق التَّوْبَةِ . وقال : السابقون بِكُلِّ الْهَيْمَةِ . وقال : السابقون إلى
كل خير . وقال السابقون للتسارعون إلى التوبة من الذنوب فيتسارعون إلى النَّدَمِ إِنْ لَمْ
يَتَسَارَعُوا بِصِدْقِ الْقَدَمِ .

وقال : الذين سبقت لهم من الله الحسنى فسبقوا إلى ما سبق إليه :
« أولئك الْمُقَرَّبُونَ »
ولم يقل : الْمُقَرَّبُونَ ، بل قال : أولئك الْمُقَرَّبُونَ — وهذا عين الجمع ، فكلمة الكفاية
أنهم بقرب ربهم سبقوا — لَا يَقَرَّبُهُمْ ^(٣) .

« فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ »
أى : في الجنة ^(٤) . وقال : مقرَّبُونَ إِلَّا مِنَ الْجَنَّةِ فَحَالُ أَنْ يَكُونُوا فِي الْجَنَّةِ ثُمَّ يَقَرَّبُونَ
مِنَ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا يَقَرَّبُونَ إِلَى غَيْرِ الْجَنَّةِ : يَقَرَّبُونَ مِنْ بَسَاطِ الْقَرِيبَةِ .
وَأَنَّى بِالْبَسَاطِ وَلَا بَسَاطَ ؟ ! مقرَّبُونَ .. ولكن من حيث الكرامة لا من حيث المسافة ؛
مُقَرَّبَةٌ قُرْبِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَقُرْبِهِمْ إِلَى الْحَقِّ .
مُقَرَّبَةٌ قُرْبِهِمْ مِنْ بَسَاطِ الْمَرْقَةِ ، وَأَرْوَاحُهُمْ مِنْ سَاحِلَتِ الشُّهُودِ — فَالْحَقُّ عَزِيزٌ ..
لَا قُرْبَ وَلَا بُدَّ ، وَلَا فَصْلَ وَلَا وَصْلَ .

(١) موجودة في م وغير موجود في ص .

(٢) موجودة في م وغير موجود في ص .

(٣) هذه إشارة إلى أن العمل الإنساني — وحده — لا يوصل عليه إذا تيسر بالفضل الإلهي .

(٤) يستحدث التشبيهي هنا في ضوء حال الفرق والجمع .

وقال : مقربون ولكن من حظوظهم ونصيبهم . وأحوالهم --- وإن مَنَّتْ --- فخلقُ
وزاء الراء .

قوله جل ذكره : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » وقليلٌ مِنَ
الْآخِرِينَ » .

الثُلَّةُ : الجماعة . وقال : ثلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ الذين شاهدوا أنبياءهم وقليلٌ مِنَ الْآخِرِينَ الذين
شاهدوا نبيئاً صلى الله عليه وسلم .

وقال : ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ : من السلف وقليلٌ مِنَ الْآخِرِينَ : من الأمة .

« عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ »^(١) .

أى منسوجة نسيج اللدع من الذهب . جاء فى التفسير : طول كل سرير ثمانية ذراع ،
إن أراد الجلوس عليه تواضع ، وإن استوى عليه ارتفع .

« مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ » .

أى لا يرى بعضهم قفا بعضٍ . وَصَفَهُمْ بِصِفَاءِ الْمُدَّةِ وَتَهَذَّبَ الْأَخْلَاقِ .

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَفَّفُونَ » .

يطوف عليهم وهم مقيمون لا يبرحون ولدان فى سِنَّ واحدة . لا يهرمون .

وقيل : مُقَرَّبُونَ (المخلدة . القُرُط)

« بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِقٍ وَكَأْسٍ مِنْ

مَّعِينٍ » لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزَيَّفُونَ .

« بِأَكْوَابٍ » جمع كوب وهى آنية بلا عروة ولا خرطوم ، « وَأَبَارِقٍ » : جمع إبريق
وهو عكس الكوب (أى له خرطوم وعروة) .

ولا صداع لهم فى شربهم إياها ، كما لا تنهب عقولهم بسببها .

ولم كذلك فأكهة مما يخبرون ، ولم طير مما يشتهون ، وخور عين ، كأمثال الأولئ
المكتنون ، أى : للصون ، جزاء بما كانوا يعملون .

(١) وَمَنْ تَنَزَّاهُ فَتَبَّهْ بِالْجَوْهَرِ ، فهو راسخ وهى واسعة والمفعول موصوفون .

قوله حر ذكره : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا *
إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا » .

الغزو : الباطل من القول ، والتأثيم : الإثم والمذنبان
ولا يسمعون إلّا قِيلًا سَلَامًا ، وسَلَامًا : نعت قتل .

« وَأَحْلَبُ الْيَمِينَ مَا أَحْصَاهُ الْيَمِينَ * فِي سِدْرٍ مَحْضُودٍ » : لا شوكَ فيه ، « وَطَلَحَ
مَنْضُودٌ » : والطلح شجر الوز ، متراكم نضيد بعضه على بعض .
« وَظَلَّ مَمْدُودٌ » كما بين الإسفار^(١) إلى طلوع الشمس^(٢) . وقيل : ممدود أى دائم .
« وَمَادَ مَسْكُوبٌ » : جَارٍ لَا يَتَصَبَّوْنَ فِيهِ .

« وَفَاكِهِ كَثِيرَةٌ » : لا مقطوعة عنهم ولا ممنوعة منهم .
« وَفُرُوشٌ مَرْفُوعَةٌ » لم . وقيل : أراد بها النساء^(٣) .
« إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَمِنْهُنَّ مُبْتَلَاتٌ أَمْكَارًا » أى الخور العين .
« عُرُبًا » : جمع عُرُوبٍ^(٤) وهى الفَنِيحَةُ المنجية إلى زَوْجِهَا . ويقال عرباً : أى مُقَشَّهَاتٌ
إلى أزواجهن .

« أَتْرَابًا » : جمع رَبِّبٍ ، أى : هُنَّ عَلَى سَنٍّ وَاحِدَةٍ .
« لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ » : أى خَلْقْنَاهُنَّ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ .
« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » : أى : ثَلَّةٌ مِنْ أَوَّلَى هَذِهِ الْأَمَّةِ ، وَثُلَّةٌ مِنْ
أُخْرَاهَا .

« وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ » : وَالسَّمُومُ فَيَحُجُّ جَهَنَّمَ وَحَرَّهَا .
وَالْحَمِيمُ : اللَّاهُ الْحَارُّ .

(١) طلوع الفجر أو المسح .

(٢) سقطت (الشمس) من م .

(٣) لأن المرأة يكنى منها بالفراش .

(٤) جاء من البخاري : غروب مثل : صبور يسبها أهل مكة : السَّريَّة وأهل المدينة : الفَنِيحَةُ ، وأهل
ال عراق : الفَنِيحَةُ (البخاري ٢٠ ص ١٢٢) .

« وظلٌّ من يحوم » ، وهو الدخان الأسود .

« لا بارد ولا كرم » : لا بارد : أى لا راحة فيه . ولا كرم : ولا حسن لم ؛ (حيث لا يقع فيه) .

« إنهم كانوا قبل ذلك مقرنين » : أى : كانوا فى الدنيا ممتتين .

« وكانوا يُصرون على الحنث العظيم » أى الذنب العظيم .

« وكانوا يقولون أنما متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لَمُبْمُتُونَ ؟ » أى : أنهم يكذبون بالبحث .

ثم يقال لهم : « إنكم أيها الضالون المكذبون » اليوم « لا تكون من شجرة من زقوم » وجاء فى التفسير : أن الزقوم شجرة فى أسفل جهنم إذا طريح الكافر فى جهنم لا يصل إليها إلا بعد أربعين خريفاً .

« فالتون منها البطون » فشاريون عليه من الحميم « شرابٌ لا تهانون به فشاريون شرِبَ الحميم » : وهى الإبل السطش . ويقال : الحميم أى الرملُ ينضب فيه كل ما يصب عليه . « هذا تزولم يوم الدين » : يوم القيمة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناكم فلو لا نُفَعِّدُكُمْ » . نحن خلقناكم : يا أهل مكة — فهلاً آمنتم لتخلصوا ؟ توخون وتمتابون .. واليوم تمفِّدُون ! ولكن لا ينفعكم ذلك ولا يُسمعُ منكم شيء .

وإن أشدَّ العقوبات عليهم يومئذ أنهم لا يفزعون من آلام غوسهم وأوجاع أعضائهم إلى التحسُّر على ما فاتهم فى حق الله .

ويقال : أشدُّ البلاء - اليوم - على قلوب هذه الطائفة^(١) خوفهم من أن يشكَّهم - غداً - بمقاساة آلامهم عن التحسُّر على ما تكذَّروا عليهم من المثارب فى هذا الطريق . وهذه محنة لا شىء أعظم على الأصحاب منها . وإن أصحَّ القلوب - اليوم - — يتهلون إليه ويقولون : إن

(١) يتعد الصوفية .

حَرَمْتَنَا مشاهدَ الأُنسِ فلا تَشْتَلْنَا بِلَذَائِهِ تَشْتَلُّنا عن التَّحَسُّرِ على ما فاتنا ، ولا بِالْأَمْرِ تَشْتَلُّنا عن التَّأَسُّفِ على ما عَدِمْتَنَا منك .

قوله جل ذكره : « أَوَلَمْ يَأْتِمْ مَا تَمْنُونَ * ؕ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ » .

يقال : مَنَى الرجلُ وأَمْنَى . وللمنى : هل إذا بَشَرْتُمْ وَأَنْزَلْتُمْ وانقذ الولد .. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ وإِخْلَقْنَاهُمَا : التَّصَوُّر ؛ أى : أَأَنْتُمْ تَجْعَلُونَ صُورَ الْوُلُودِ وَتُرَكِّبُونَ أَعْضَاءَهُ .. أَمْ نَحْنُ ؟ .

وم كانوا يُخْرِثُونَ بالنشأة الأولى فاحتجَّ بهذا (على جواز النشأة الأخرى عند البعث الذى كانوا ينكرونه . وهذه الآية أصلٌ فى)^(١) إثبات الصانع ؛ فإن أصلَ خِلْقَةِ الإنسان من قطرتين : قطرة من صُلْبِ الأب وهو للمنى وقطرة من تربية الأم^(٢) ، وتجتمع القطرتان فى الرحم فيصير الولد . وينضم للامان المخططان إلى هذه الأجزاء التى هى أجزاء الإنسان من العظم والعَصَبِ والبرقِ والجِلْدِ والشَّعْرِ .. ثم يركبها على هذه الصور فى الأعضاء الظاهرة وفى الأجزاء الباطنة حيث يشكِّلُ كل عضوٍ بشكلٍ خاص ، والعظام بكيفية خاصة . - إلى غير ذلك . وليس يخفى : إمَّا أَنْ يَكُونَ الأَبْوَكانُ يصنعاها - وذلك التقديرُ محالٌ لتَقاصرِ عِلْمِهِمَا وَقُدْرَتِهِمَا عن ذلك وتمنَّيْها الولدُ ثم لا يكون ، وكراهتها الولدُ ثم يكون ! والنقطة أو التَّنْطُرَةُ محالٌ تحديرُ فعلها فى نَفْسِها على هذه الصورة لكونها من الأموات بعدُ ، ولا عِلْمَ لها ولا قُدْرَةَ .

أَوْ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ .. وبالضرورة يُعَلِّمُ أَنَّهُ لا يَجُوزُ .
فلم يَبْقَ إِلَّا أَنْ الصَّانِعَ الْقَدِيمَ لِلَّهِ الْعَلِيمِ هو الْخَالِقُ^(٣) .

قوله جل ذكره : « نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ اللَّوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ * ؕ عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْفِثَكُمْ فِىْهَا لَا تَعْلَمُونَ . » .

(١) ما بين القسمين موجود فى م وغير موجود فى ص .

(٢) قربة الأم طمة الصدر والجمع ترائب .

(٣) هذا نموذج طيب يصوِّر طريقة التثبُّرِ متكلاً .

يكون الموتُ في الوقت الذي يريده ؛ منكم من يموت طفلاً ومنكم من يموت شاباً ،
ومنكم من يموت كهلاً ، ويعطي خلقه وبأسباب متفاوتة وفي أوقات مختلفة .

« وما نحن بمسيوقين » في تحديدنا فيقوتنا شيء ، ولنا بلايين عن أن نخلق أمثالكم ،
ولا بلايين عن تبديل صوركم التي تملون ؛ إن أردنا مسخكم وتبديل صوركم فلا ينصنا
من ذلك أحد .

وقال : ونشككم فيما لا تملون من حكم السادة والشفوة^(١) .

قوله جل ذكره : « ولقد علمت النشأة الأولى فلولاً
تذكرون » .

أى : أتم أقررتم بالنشأة الأولى .. فهلاً تذكرون لتسلوا جواز الإعادة ؛ إذ هي في معناها^(٢) .

قوله جل ذكره : « أقرأئهم ما عرّضون • أنتم
تزرعون أم نحن الزارعون ؟ »

أى : إنا أتيهم الحب في الأرض .. أنتم تفتقون أم نحن المُنبتون ؟ وكذلك وجوه
الحكمة في إنبات الزرع ، وإسالم الحب الواحدة على الشجرة الناجية منها (في قشرها ولحائها
وجذعها وأغصانها وأوراقها وعمارها)^(٣) — كل هذا :

« لو نشاء لجلناها حطماً فظننم
تسكّهون » .

لو نشاء لجلناها حطماً يابساً بعد خضرته ، فصرنم تتجيبون وتندمون على تبكم فيه ،
ولما شككم عليه ، ثم تقولون :

« إنا لَمَرْمُومُونَ » بل نحن عرّضون •

أى : لَمَرْمُومُونَ غرامة ما أختنا في الزرع ، وقد صار ذلك غرماً علينا — فالنرم من
ذهب إلفقه بنير عوضه .

(١) وضع هذا السطر في مكان تالي بعد (في سماء) فخلناه إلى موضعه الصحيح .

(٢) أى أن الإمامة لا تفترق في شيء من الخلق الأول .

(٣) ما بين القوسين موجود في م وغير موجود في ص .

« بل نحن محرومون » بل نحن محرومون بعد أن ضاع مِنَّا الرزق .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم الماء الذى تشربون • أأنتم
أنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ
• لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ » .

أأنتم أنزلتموه من السحاب .. أم نحن أنزلناه متى نشاء أننى نشاء كما نشاء على من نشاء وعلى
ما نشاء ؟ ونحن الذين نجعله مختلفًا فى الوقت وفى المقدار وفى الكيفية ، فى القِلَّةِ وفى الكثرة .
ولو نشاء جعلناه مِلْعًا . . أفلا تشكرون عظيمَ نعمةِ الله — سبحانه — عليكم فى تمكينكم
من الانتفاع بهذه الأشياء التى خَلَقَهَا لكم .

قوله جل ذكره : « أفرأيتم النار التى توردون • أأنتم
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ •
نحن جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا
لِّلْمُقْوِينَ » .

وَرَى الزَّيْتُونُ يَرْبِيْهُ فَهُوَ وَارٍ .. وَأَوْدَاهُ بُورِيْهِ أَى يَقْدَحُهُ .

يعنى : إذا قَلَحَ الزَّيْتُونُ .. أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَنْظُرُ النَّارَ — فهل أنتم تَخْلُقُون ذلك ؟
أأنتم أنشأتم شَجَرَتَهَا — يعنى الْمَرْيَخَ وَالْمَفَارَ^(١) — أم نحن الْمُنْشِئُونَ ؟
« نحن جعلناها تَذْكِرَةً » : أى يمكن الاستدلالُ بها .

« وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ » : قال : أقوى الرجل إذا نزل بالقواء أى : الأرض الخالية .

فاللعنى : أن هذه النار « تَذْكِرَةٌ » يتذكَّرُ بها الإنسان ما توعد به فى الآخرة من نار
جهنم ، و « متاعاً » : يستمتع بها المسافر فى سفره فى وجوه الانتفاع المختلفة .

(١) المَرْخ : شجر ينقرض ويطول فى السَّيَاءِ ليس له ورق ولا شوك ، سريع الوردى يُسْتَفْعَ به .
والمَفَار : شجيرة من الفصيلة الأربكية لها ثمر لَبِىٍّ أحمر ، ويضخ منها الزناديقسرح الوردى . وفى أمثال العرب :
« فى كل شجر نار واستجد المَرْخُ وَالْمَفَارُ » .

قوله جل ذكره : « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ »

أى : اسبح بفكرك في بحار عقلك ، وغصن بقوة التوحيد فيها تنظّر بجواهر العلم ، وإليك أن تُقصر في النوص لسبب أو لآخر ، وإليك أن تتداخلك الشبهة فيتلف رأس مالك ويخرج من يدك وهو دينك واعتقادك . . وإلا غرقت في بحار الشبهة ، وضللت .

وهذه الآيات ^(١) التي عدّها الله — سبحانه — تمهيداً لسلك طريق الاستدلال ، فسكا في الطير « ففكر ساعة خير من عبادة سنة » — وقد نبّه الله سبحانه بهذا إلى ضرورة التفكير .

قوله جل ذكره : « فَلَا تُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ • وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَطَّلَوْنَ عَظِيمٌ • إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ • فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ • لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ • تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَالِكِينَ » .

قيل : هي مواقع نجوم السماء : ويقال : مواقع نجوم القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم .

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » : والكريم نفي الدناءة — أى : أنه غير مخلوق ^(٢) ويقال : هو « قرآن كريم » : لأنه يدل على مكارم الأخلاق .

ويقال هو قرآن كريم لأنه من عند رب كريم على رسول كريم ، على لسان ملك كريم . « فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ » : يقال : في اللوح المحفوظ . ويقال : في المصاحف . وهو محفوظ عن التبديل . « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » عن الأدناس والسيوف والمماصي .

(١) إذا تبهرنا هذه الآيات ألفينا القرآن يحاطب العقل الإنساني بالتدبر في ثلاثة أشياء : الظاهر والملاء والبار ، وبدون الثلاثة لا تقوم الحياة ولا تنظم .

(٢) هذه إحدى الأفكار الخاطئة التي اشتجر حولها اختلاف بين الأشاعرة الذين يقولون : (القرآن غير مخلوق) وبين المعتزلة الذين يقولون : إنه مخلوق .

وقال : هو خير فيه معنى الأمر : أى لا يبنى أن يمس للصحن إلا من كان متطهراً
من الشرك وعن الأحداث (١) .

وقال : لا يد علمه وبركته إلا من آمن به .

وقال لا يقربه إلا للوحدون ، فأما الكفار فيكفرون سماعة فلا يقربونه .

وقرى للظهر : أى الذين يظهرن قوصمهم عن الذنوب والخلق الذى .

وقال : لا يمس خيره إلا من طهر يوم التمسع عن الشقاوة .

وقال : لا يقم لطامة إلا من طهر سره عن الكون (٢) .

وقال : المظهرون سرائرهم عن غيره .

وقال : إلا المحترمون له القائمون بحقه .

وقال : إلا من طهر بهاء السلوة بماء الرحمة

« تنزيل من رب العالمين » : أى منزل من قبله — سبحانه .

قوله جل ذكره : « أفبهذا الحديث أنتم مذهبون »

ويجملون رزقكم أنكم تكذبون »

أفبهذا القرآن أنتم تقاتلون ، وبه تكذبون .

« ويجملون رزقكم ... » : كانوا إذ أسطروا يقولون : أسطرنا يتوه كذا .

يقول : أيجملون بدل إضمار الله عليكم بالمر الكفران به ، وتوهمون أن المر — الذى

هو نسة من الله — من الأنواء والكواكب ١١ .

وقال : أيجملون خطكم ونصيبكم من القرآن التكذيب ؟

قوله جل ذكره : « قلوا إنا بكتبت الحنوف » وأنتم

حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إلى

منكم ولكن لا نغيرون .

(١) هو ما جمع حدة أى العجلة التى ترتفع بالوهو أو الغل أو التيهن .

(٢) لتذكر أن هذا الكتاب الذى وضعه الله عز وجل من لفهم (لما تطلب الإشارات) القرآنية ، ولتذكر رآيه
في مئات هذا القرن من التفصيل وأطلة .

يَخَاطِبُ أُولَاهُ الْمَيِّتِ^(١) فيقول : هَلَا إِنَّا بَلَّغْتُ رُوحَهُ الْمَحْضُومِ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْمَرِيضِ ، رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَحْتَمُّ بِه ؟ فَضَعْنِ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالرُّؤْيَا وَالْقُدْرَةِ ... وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ !

وَيَقَالُ : أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْبَدَنُ مِنَ الْحَقِّ عِنْدَمَا يَتِمُّ اسْتِقْلَالُهُ ذِكْرُهُ وَشُحُودُهُ عَلَيْهِ ، فَيَنْتَقِي لِإِحْسَاسِ الْبَدَنِ بَنِيهِ ، وَعَلَى حَسْبِ انْتِشَاءِ الْعِلْمِ وَالْإِحْسَاسِ بِالْأَعْيَالِ — حَقٌّ مِنْ هُنَا — يَكُونُ تَحَقُّقُ الْبَدَنِ فِي سِيرِهِ حَتَّى لَا يَرَى غَيْرَ الْحَقِّ .

فَاتَقَرَّبَ وَالْبَدَنُ مِمَّا هُوَ : أَنَّ الْبَدَنَ فِي أَوَانٍ مَحْضُومٍ وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْخَذْ — بَدَنٌ — عَنْ هُنَا ؛ فَلِذَا أَخِذْ عَنْهُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا الْحَقُّ . . لِأَنَّهُ حَيْثُ لَا قُرْبَ وَلَا بُعْدَ .

قوله جل ذكره : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تُرْجَوْنَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

ليس لكم من أمر الموت شيء .

« تُرْجَوْنَهَا » أَيُ : تَرْجُونَ الرُّوحَ إِلَى الْجَدِ .

« إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » : فِي أَنَّهُ لَا بَيْتَ^(٢) .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ » .

لِلْمُقَرَّبِينَ هُمُ الَّذِينَ قَرَّبَهُمُ اللَّهُ بِفَضْلِهِ ، فَاهُمْ « رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ » .

وَيَقَالُ : الرُّوحُ الْإِسْتِرَاحَةُ ، وَالرَّيْحَانُ الرِّزْقُ .

وَقِيلَ : الرُّوحُ فِي الْقَبْرِ ، وَالرَّيْحَانُ : فِي الْجَنَّةِ .

(١) فِي « الْبَيْتِ » (وَقَدْ صَحَّ الْبَيْتُ) وَهَذِهِ هِيَ الصَّوَابُ .

(٢) تَقَرَّبَ إِلَى الْقَبْرِ الْقَبْرِ هُنَا مُتَقَرَّبٌ ، وَيَلْزَمُ التَّوَضُّعُ : تَرْجِبُ الْآيَةُ هُوَ : فَلَوْلَا تُرْجَوْنَهَا إِذَا بَلَغْتَ الْمَحْضُومَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . . أَمَّا مَنْ فَضَعْنِ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَيِّتِ بِقُدْرَتِنَا وَعِلْمِنَا أَوْ بِمَلَائِكَةِ الْمَوْتِ . . أَمَّا أَنْتُمْ ... فَأَمَّا لَكُمْ لَا تُرْجَوْنَ الرُّوحَ إِلَى الْبَدَنِ بَدَنٌ بَلَوْنَهُ الْمَحْضُومَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَقَرَّبًا فَكُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي تَطْلِيلِكُمْ وَكَفَرِكُمْ بِالْحَقِّ الْمَجِيئِ بِالْبَيْتِ الْمُهَيَّأَةِ ؟ !

ويقال : لا يخرج مؤمنٌ من الدنيا حتى يوتى برِيحانٍ من رِياحين الجنة فيشمه قبل خروج روحه ، فالرَّوْحُ راحةٌ عند الموت ، والريحانُ في الآخرة .

ويقيل : كانت قراءة النبي (ص) « الرُّوح » بضم الراء أى لم فيها حياة دائمة .

ويقال : الرُّوحُ قلوبهم ، والريحانُ لنفوسهم ، والجنةُ لأبدانهم .

ويقال : رَوْحٌ في الدنيا ، وريحانٌ في الجنة ، وجنةٌ نعيمٌ في الآخرة .

ويقال : رَوْحٌ وريحانٌ مُمَجَّلَان ، وجنةٌ نعيمٌ مؤجلةٌ .

ويقال : رَوْحٌ للمايدين ، وريحانٌ للعارفين ، وجنةٌ نعيمٌ لعوام المؤمنين .

ويقال : رَوْحٌ نعيمٌ القرب ، وريحانٌ كمالُ البسط ، وجنةٌ نعيمٌ في عمل المناجاة .

ويقال : رَوْحٌ رؤيةُ الله ، وريحانٌ سماعُ كلامه بلا واسطة ، وجنةٌ نعيمٌ أن يدوم هذا ولا ينقطع .

قوله جل ذكره : « وأما إن كانَ من أصحابِ اليَمينِ »

فسلامٌ لك من أصحابِ اليَمينِ » .

أن تخبرك بسلامة أحوالهم .

ويقال : سقرى فيهم ما تعب من السلامة .

ويقال : أمانٌ لك في بابهم ؛ فلهم السلامة . ولا تُشْغِلُ قلبَكَ بهم

ويقال : فسلامٌ لك — أيها الإنسان — إياك من أصحابِ اليمينِ ، أو أيها الإنسان الذي

من أصحابِ اليمينِ .

قوله جل ذكره : « وأما إن كانَ من المكذِبينِ »

الضَّالِّينِ * فَزُلْ من سعيهم *

وتصليَةُ جحيمٍ » .

إن كان من المكذِبينَ لله ، الضَّالِّينَ عن دينِ الله فله إثمَةٌ في الجحيمِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَمَوْحٌ لِّيَقِينٍ » فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

هذا هو الحق اليقين الذى لا محالة حاصل .

« فسبح باسم ربك العظيم » أى قدس الله عما لا يجوز فى وصفه .

ويقال : صل الله . ويقال : اشكر الله على عصمة أئمتك من الضلال ، وعلى توفيقهم فى اتباع سنتك .

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

سَمِعَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ شَرَّكَابٌ يَنْتَقِي بِهِ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ وَمَعَالَى — قُلُوبَ أَحِبَّائِهِ ،
فَإِنَّا شَرَّيْنَا طَرَبِيَا ، وَإِنَّا طَرَبِيَا أَنْبَسَطُوا^(١) ، ثُمَّ لَشَهُودُ حَقِّهِ^(٢) تَرْضَوْنَا ، وَبِنَسِيمِ قُرْبِهِ
اسْتَأْنَسُوا^(٣) ، وَعِنْدَ الْإِحْلَاسِ بِهِمْ غَايَا . . فَقَوْلُهُمْ تَسْتَفْرِقُ^(٤) فِي لُطْفِهِ ، وَقُلُوبُهُمْ تُسْتَهْلِكُ
فِي كُفْرِهِ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

التَّسْبِيحُ التَّعْدِيسُ وَالتَّنْزِيهِ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى سُبْحَةِ الْأَسْرَارِ فِي بَحَارِ الْإِجْلَالِ ، فَيُظْفَرُونَ
بِجَوَاهِرِ التَّوْحِيدِ وَيَنْظُمُونَهَا فِي عُقُودِ الْإِيمَانِ ، وَيُرْصَّصُونَهَا فِي أَطْوَاقِ الْوَصْلَةِ :

وقوله « مَا » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمُرَادُ بِهِ « مَنْ » فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَسْجُدُونَ
لَهُ طَوْعًا وَكَرْهًا ؛ طَوْعًا تَسْبِيحٌ طَائِفَةٌ وَعِبَادَةٌ ، وَكَرْهًا تَسْبِيحٌ عَلَامَةُ وَجَلَالَةٍ .

وَيُحْمَلُ « مَا » عَلَى ظَاهِرِهَا فَيَكُونُ الْمَعْنَى : مَا مِنْ مَخْلُوقٍ مِنْ عَيْنٍ أَوْ أَثَرٍ إِلَّا وَيَذُلُّ عَلَى
الصَّانِعِ ، وَعَلَى إِمْتِنَانِ جَلَالِهِ ، وَعَلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِمَوْتِ كِبَرِيَّاتِهِ .

(١) أَنْبَسَطُوا أَيْ : ذَاتُوا حَالِ الْبَسْطِ . وَيَصِلُ الْعَارِفُ إِلَى الْقَبْرِ وَالْبَسْطِ بِهِ حَالُ الرِّجَاءِ وَالْخَوْفِ . وَالْمَبْسُوطُ
قَدْ يَكُونُ فِيهِ بَسْطٌ يَحْصِي الْخَلْقَ فَلَا يَسْتَوْشِقُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَكُونُ مَبْسُوطًا لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ شَيْءٌ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ
(الرِّسَالَةُ ص ٣٥) .

(٢) شَهَادَةُ حَقِّ اللَّهِ لَا تَمُوتُ إِلَّا بِدَعْوَةِ الْغَيْبِ حَقُّوهُ بِالْبَهِّ .

(٣) مِنَ الْأَنْسِ . سَأَلَ الْجَنَّةَ عَنْهُ فَقَالَ : هُوَ ارْتِفَاعُ الْحَشِيَّةِ مَعَ وَجُودِ الْحَبِيبَةِ . وَسَلَّ ذُو الْقُنُونِ عَنْهُ فَقَالَ :
هُوَ أَنْبَسَاطُ الْمَهَبِ إِلَى الْغَرِيبِ .

وَسَلَّ الْقَبِيلَ عَنْهُ فَقَالَ : هُوَ حَشْتَلِيَّةٌ مِنْهُ . (التَّنَزُّهُ لِلْكَلاِبَالِيِّ ص ١٢٦ ، ١٢٧) .

(٤) تَهْلِكُهَا كُلُّهَا مَهْلِكَةً لِلْمَجْهُولِ لِأَنَّ الْمَفْرُوضَ أَنَّ شَيْءَ الْحَقِيقَةِ يَسْتَفْرِقُ نَوْرَهَا نَجْمًا لِلْمَقْلِ .

ويقال : يُسبح لله ما في السموات والأرض ، كل واقف على الباب بشاهد الطلب ...
ولكنه — سبحانه — عزير^(١).

وقال : ما تَلَبَّ أحدٌ من جاحِدٍ أو ساجِدٍ إلا في قبضة الرزق الواحد ، فما يُصرفهم إلا مَنْ خَلَقَهُمْ ؛ فَمِنْ مَطْعِمِ أَلْبَنِهِ نطاق وفاته — وذلك فَضْلُهُ ، وَمِنْ عَاصِرِ رَبِّطِهِ مَمْلَأةُ الخذلان — وذلك عَدْلُهُ .

« وهو الرزق الحكيم » : الرزق : المَرْزُوقُ يَنْ طَلَبَ الوصول ، بل الرزق : التقديسُ عن كل وصول .. فا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ إِلَّا حَظَّهُ ونصيبه وصفته على ما يليق به .

قوله جل ذكره : « لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْفِي

وَيُخَيِّتُ وهو على كل شيء قدير » .

الْمَلَكُ مبالغة من الْمَلِك ، وهو القدرة على الإبداع ، ولا مَالِكٌ إِلَّا اللهُ . وإذا قيل لنوره : مالك فلي سبيل الجواز ؛ فالأحكام المتعلقة في الشريعة على رِئَاكِ الناس صحيحة في الشرع ، ولكن لَفْظُ الْمَلِكِ فيها توسعٌ كما أن لَفْظَ التَّيْمِ في استعمال التراب — عند علم الماء — في السفر مجازٌ ، فالسائل الشريعة في التيمم صحيحة ، ولكن لَفْظُ التَّيْمِ في ذلك مجاز .

« يُخَيِّ وَيُخَيِّتُ » : يُخَيِّ النفوسَ وَيُخَيِّتُها . وَيُخَيِّ القلوبَ بِإِقْبَالِهِ عليها ، وَيُخَيِّتُها بِإِعْرَاضِهِ عنها .
ويقال : يُخَيِّبُها بنظره وتفصله ، وَيُخَيِّتُها بجهره وتمزُّزه .

قوله جل ذكره : « هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ والباطنُ

وهو بكل شيء عليم » .

« الأول » : لاستحقاقه صفة التَّيْمِ ، و « الآخر » : لاستحقاقه نعت التَّيْمِ .

و « الظاهر » بالعلو والرفعة ، و « الباطن » : بالعم والحكمة .

ويقال : « الأول » فلا اختراع لوجوده و « الآخر » فلا انقطاع لثبوتِهِ .

« الظاهر » فلا خفاء في جلال عِزِّهِ ، « الباطن » فلا سبيل إلى إدراك حَقِّهِ .

ويقال « الأول » بلا ابتداء ، و « الآخر » بلا انتهاء ، و « الظاهر » بلا خفاء ، و « الباطن »

بنت اللاء وعِزُّ الكسرية .

(١) أي حَلَّتْ السُّبُودَةُ أَنْ يَسْتَعِزَّ مِنْ ذَاتِهَا لَمْ .. فَكُلُّ واقف بالباب على الباطل .

وقال «الأول» «النهاية» ، و «الآخر» «المنهاية» ، و «الظاهر» «البراعة» ،
و «الباطن» «الولاية» .

وقال : «الأول» «بخلق» ، و «الآخر» «لرزق» ، و «الظاهر» «الإحياء» ، و «الباطن»
«الإماتة والإفناء» .

قال تعالى : «الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم» (١) .
وقال : «الأول» «لا زمان» ، و «الآخر» «لا بأوان» ، و «الظاهر» «بلا اقتراب» ،
و «الباطن» «بلا احتجاب» .

وقال : «الأول» «بالوصلة» ، و «الآخر» «بالخلقة» ، و «الظاهر» «بالأدلة» ، و «الباطن»
«بالبعد» (٢) عن مشابهة الجملة (٣) .

وقال : «الأول» «بالصرف» ، و «الآخر» «بالتكليف» ، و «الظاهر» «بالتشريف»
و «الباطن» «بالتبغيف» (٤) .

وقال : «الأول» «بالإعلام» ، و «الآخر» «بالإلزام» ، و «الظاهر» «بالإنعام» و «الباطن»
«بالإكرام» .

وقال : «الأول» «بأن امصطاك» و «الآخر» «بأن هدالك» ، و «الظاهر» «بأن رعاك» ،
و «الباطن» «بأن كفالك» .

وقال (٥) : مَنْ كَانَ النَّالِبُ عَلَيْهِ اسْمُهُ «الأول» كانت فكرته في حديثٍ ساقته : بماذا
سمّاه مولاه ؟ وما الذي أجرى له في سابق حُكْمِهِ ؟ أبعاده أم بشاقته ؟ .

(١) آية ٤٠ سورة الروم .

(٢) مقطع - (بالبعد) في التسنن م وموجودة في ص

(٣) المقصود (بالجملة) هنا جملة المخلوقات .

(٤) هكذا في م ومن في ص (بالتحقيق) وهذه وإن كانت - صحيحة إلا أن السياق الموسيقي الذي جرى عليه
المصنف يرجح (بالتحقيق) كل معنى أنه علم ضيف مباداه فلم يكلفهم فرق طائفتهم .

(٥) هذه الفقرة عامة في بيان أن الصوفية حيناً يتصا - ن لدراسة الأسماء والصفات ينتهون بالأدب ؛ والصلوك
وكيف يصلّق الصوف بأغلاق الله ويتأدب بأسماءه أنظر مقدمة كتاب ؛ التعبير في التذكير بتحقيق يسيرتي) .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْآخِرِ» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي : بِمَاذَا يَحْتَمِلُ لَهُ حَالُهُ؟ وَإِلَّا
يَصِيرُ مَا لَهُ؟ أَعْلَى التَّوْحِيدِ يُخْرِجُ مِنْ دِيَارِهِ أَوْ — وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ — فِي النَّارِ غَدًا — مَثْوَاهُ ؟
وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الظَّاهِر» فَاسْتَفْهَلَهُ بِشُكْرِ مَا يَجْرِي فِي الْحَالِ مِنْ تَوْفِيقِ
الْإِحْسَانِ وَتَحْقِيقِ الْإِيمَانِ وَجَمِلِ الْكِفَايَةِ وَحُسْنِ الرَّعَايَةِ .

وَمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى قَلْبِهِ اسْمُهُ «الْبَاطِن» كَانَتْ فِكْرَتُهُ فِي اسْتِبْهَامِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ فَيُتَعَثَّرُ
وَلَا يَدْرِي . . أَفْضَلُ مَا يَعْمَلُهُ بِهِ رَبُّهُ أَمْ مَكْرٌ مَا يَسْتَلْجِ بِهِ رَبُّهُ ؟

وَيَقَالُ : « الْأَوَّلُ » عِلْمٌ مَا يَضِلُّهُ عِبَادُهُ وَلَمْ يَنْمِمْ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْرِفِهِمْ ، « وَالْآخِرُ » رَأْيُ
مَا عَمِلُوا وَلَمْ يَنْمِمْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرَانِهِمْ « وَالظَّاهِرُ » لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَلَيْسَ يَدْعُو
شَيْئًا مِنْ إِحْسَانِهِمْ « وَالْبَاطِنُ » يَعْلَمُ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ مِنْ خُسْرَانِهِمْ وَقَسْطَانِهِمْ فَيُدْفِعُ ^(١) عَنْهُمْ
فِتْنُونَ يَحْتَمِلُهُمْ وَأَحْزَانَهُمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » .

مَعْنَى الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ .

« يَسْأَلُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ

وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا » .

أَيُّ مَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقَطْرِ ، وَالسَّكَنُوزِ ، وَالْبُذُورِ ، وَالْأَمْوَاتِ الَّذِينَ يُدْفَنُونَ
فِيهَا ، « وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا » مِنَ النَّبَاتِ وَاضْجَاعِ الْمَيِّتِ وَمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَعَادِنِ .

« وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » .

مِنَ الْمَطَرِ وَالْأَرْزَاقِ . أَوْ مَا يَأْتِي بِهِ لِللَّائِكَةِ مِنَ الْقَضَاءِ وَالْوَحْيِ .

« وَمَا يُخْرِجُ فِيهَا » .

أَيُّ وَمَا يَصْدُرُ إِلَيْهَا مِنَ اللَّائِكَةِ ، وَمَطَاعَاتِ الْعِبَادِ ، وَدَعَوَاتِ الْخَلْقِ ، وَصَفِّ الْكَافَّةِ ،
وَأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) هَذَا إِشَارَةٌ لِنَسَمِ الْفِتْنَةِ أَوْ لِمَنْعِ الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْطِنَ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ .

« وهو ممك أن ما كنتم والله
بما تعملون بصير » .

« وهو ممك » بالعلم والقدره .

وقال (١) : « يعلم ما يلج في الأرض » إذا دُفِنَ الْعَبْدُ فَاللهُ سبحانه يعلم ما الذي كان
في قلبه من إخلاص في توحيدِهِ ، ووجوه أحرانه خسرانه ، وشكّه وجعوده ، وأوصانه
المحودة والمثبومة . . ونحو ذلك مما يخفى عليكم .

« وما ينزل من السماء » على قلوب أوليائه من الألطاف والكشوفات وفنون الأحوال
العزيزة .

« وما يرج فيها » من أنفاس الأولياء إذا تصاعدت ، وحسراتهم إذا علّت .
قوله جل ذكره : « يُبْرِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَبِّجُ
النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » .

مغنى معناه .

قوله جل ذكره : « آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُتُوا مِمَّا
جَمَعَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ الَّذِينَ آمَنُوا
مَعَكُمْ وَأَنْقُتُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

صَدَّقُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَصَدَّقُوا « مما جعلكم مستخلفين فيه » بتليكم ذلك وتسييره
إليكم . والذين آمنوا معكم وتصدقوا على الوجه الذي أمروا به لهم ثواب عظيم : فَإِنَّ مَا عَوَّيَ
الْأَبْدَى مُعَرَّضٌ لِّزَوَالٍ ، فَالْعَبْدُ مَنْ قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ عِمَارَةً حَالَهُ ، وَالشَّقَى
مَنْ سَارَ فِيهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَقَالُ مَا لَهُ .

قوله جل ذكره : « وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالرَّسُولِ
يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ
مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(١) هذه الفقرة استعاره آية القشيري متأخراً عن مؤلفه الأصل قليل .

أى شيء لكم فى تزكيتكم بالإيمان بالله وبرسوله ، وما أتاكم به من الخسر والنشر ، وقد أزالح الملة بأن الآخ لكم الحجة ، وقد أخذ ميثاقكم وقت الذر ، وأوجب عليكم ذلك بحكم الشرع .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرْحُومٌ رَحِيمٌ » .

ليخرجكم من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين .

وكذلك يرهم فى أخسهم من الآيات بكشوفات السر وما يحصل به التعريف مما يعملون

فيه الفتح والخير ؛ فيخرجهم من ظلمات التدبير^(١) إلى سعة فضاء التفويض ، وملاحظة فنون جريان المقادير .

وكذلك إذا أرادت النفس الجنوح إلى الرخص والأخذ بالتصنيف^(٢) وما تكون عليه

المطالبة بالأشئ — فلن بادئ إلى ما تدعوه الحقيقة إليه وجدة فى قلبه من النور ما يعلم به ظلمة هواجس النفس^(٣) .

قوله جل ذكره : « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

ما فى أيديكم ميراثه لله ، وعن قريب سينقل إلى غيركم ولا تبتون بتناول أعمالكم . وهو

بهنا يمنهم على الصدقة والهدار إلى الطاعة وتزك الإخلاص إلى الأمل . ثم قال :

« لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ

قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ أُولَئِكَ أَطْعَمُوا دَرَجَةً

(١) أى ظلمات التدبير الإنسانى ، والتحويل على النفس ، فاستأاد الإنسان على تدبيره مجلبة لشقائه . . وأن لعلمين أن يكون ذا تدبير ؟ !

(٢) هكذا فى مذهب الصواب أما (التصنيف) التى فى من قوس خطأ فى النسخ ؛ لأن الاسير عاص جنوح إلى (التصنيف) كما نعلم

(٣) يطق هذا مع قول الرسول الكريم «استغث قلبك ولو أخفاك المقصود» .

من الذين أفقرنا من بعدُ وقاتلوا
وكلاً وَعَدَ اللهُ الْحَسَنَ وَاللَّهُ بِمَا
تَصْلُحُونَ خَيْرٌ .

لا يستوى منكم من أفقر قبل فتح مكة والحديبية والذين أفقرنا من بعد ذلك . بل أولئك
أعظم ثواباً وأعلى درجة من هؤلاء ؛ لأنَّ حاجة الناس كانت أكثر إلى ذلك وكان ذلك
أشقَّ على أصحابه^(١) .

ثم قال : « وكلاً وَعَدَ اللهُ الْحَسَنَ » إلّا أنَّ فضيلة السَّيِّئِ لهم ، ولهذا قالوا :
السَّيِّئَ السَّيِّئَ قَوْلًا وَضَلَاً حَذَرَ النَّفْسَ حَسْرَةَ الْمَسْبُوقِ

قوله جل ذكره : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

للرَّاد بالقرض الصدقة ، وإيما ذكرها سبحانه كذلك تطليقاً لقلوبهم ، فكان للتصدق
وهو يقرض شيئاً كالتي يقطع شيئاً من ماله ليدفعه إلى الْمُتَقْرِضِ .

ويقال « يقرض » أى يضل فملاً حسناً ، وأراد بالقرض الحسن ما هنا ما يكون من وجه
حلال ثم عن طيب قلب ، وصاحبه مخلص فيه ، بلا رياء يشوبه ، وبلا من على الفقير ،
ولا يُكَدِّرُهُ تطويلُ الوعد ، ولا ينتظر عليه كثرة الأعواض .

ويقال : أن تقرض وتقطع عن قلبك حُبَّ الْفَارِسِ^(٢) ، ففي الخبر : « خير الصدقة ما كان
عن ظهر غنى »^(٣) وَمَنْ لَمْ يَتَحَرَّرْ مِنْ شَيْءٍ تَفَرَّجَتْ عَنْهُ تَكَلُّفٌ^(٤) .

(١) لأن الإسلام لم يكن يمد - قد عز واستمكن وانتشر في الأرجاء .

(٢) أى دون أن يكون قصدك حل ما تفعل عوضاً أو مرفعاً سواء في الدنيا أو في الآخرة إذ يمكن أن تعلم
أى طرف لك أن تُحَرِّضَ الله !!

(٣) حدث البيهقي عن عبد الرحمن بن خالصة بن مسافر عن ابن شهاب عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله
(ص) قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى » وأبدأ بمن يقول « البخاري ٣٠ ص ١٩١ (كتاب النفقات) .

(٤) هكذا في ص وهي في م وتكلف . كما أثبتنا لأن السَّيِّئَ يَقْبَضُ ذِكْرَهُ . وتوجه به (تكلف) عبارة منبهة
في الخط والمضى ، تشبه أن تكون : (وهو حل من يصل إليه ولي به) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى

نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ
الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

وهو نورٌ يُعطى للمؤمنين وللمؤمنات بقُدْرِ أعمالهم الصالحة ، ويكون لذلك النور مطالوحٌ
شماخ يمشون فيها والنورُ يسرى بين أيديهم ، ويحيط جميع جهاتهم .
ويقال : « وبِأَيْمَانِهِمْ » كُتِبَ لَهُمْ .

« بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ » أى بشارتكم اليوم — من الله جنات . وكأن لم فى العرصة
هذا النور فالיום لم فى قلوبهم وبواطنهم نورٌ يمشون فيه ، ويبتلون به فى جميع أحوالهم ، قال
صلى الله عليه وسلم : « المؤمن ينظر بنور الله » وقال تعالى : « فهو على نورٍ من ربه^(١) » .
وربما ينبسط ذلك النورُ على مَنْ يَقْرُبُ مِنْهُمْ . وربما يقع من ذلك على القلوب قهراً —
ولأوليائه — لاعتاقه — هذه الخصوصية .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ

آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » .

انظُرُونَا فلنحق بكم لنقتبس من نوركم . وذلك لأن المؤمنين والمنافقين يُعْطَوْنَ كُتُبُهُمْ
وهم فى النور ، فإذا مَرُّوا ... انطلق النور أمام المنافقين وسبق المؤمنين ، فيقول المنافقون
للمؤمنين : انظُرُونَا حتى نقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . فيقول المؤمنون :

« قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا »

أى إلى الدنيا وأخلصوا ! — تعريفاً لهم أنهم كانوا منافقين فى الدنيا .

وقال : ارْجِعُوا إِلَى حُكْمِ الْأَزْلِ فَاطْلُبُوا^(٢) هذا من القسمة ! — وهذا على جهة ضرب
المتل والاستبعاد .

(١) آية ٢٤ سورة الزمر .

(٢) مكثفاً أى من وجهى ذم (فاطلبوا) وقد آثرنا الأول لأنها أكثر فى الاعتماد — وهو المقصود .

« فَتَقْرَبُ بِهِمْ بِسُورٍ لَهُ بَلَبٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وَيُظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » .

« يسور : وهو جبلُ أصحاب الأعراف ، يستر بينهم وبين الناقصين ، فالوجهُ الذي على
الزَّوْمِ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَفِي الْوَجْهِ الْآخَرِ الْعَذَابُ .

قوله جل ذكره : « ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ،
ولكنكم قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ... » .

ألم نكن معكم في الدنيا في أحكام الإيمان في المناكحة والمماشرة ؟
قالوا : بلى ، ولكنكم قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ..

« وَتَرْبِصُمُ ، وَارْتَبِعُمُ ، وَغَرَّكُمُ الْأَمَانُ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَعَرَّكُمُ بِاللَّهِ الْعَرُورُ » .

تربصتم من الإخلاص ، وشككتم ، وغرَّكم الشيطان ، وركنتم إلى الدنيا .

قوله جل ذكره : « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْكَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ
وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ » .

النَّارُ مَا أَوْكَاكُمْ وَمَصِيرُكُمْ وَمُقْتَلَبُكُمْ .

وهي « مولاكم » أي هي أولئك بكم ، وبشِّرِ الْمَصِيرُ !

ويقال : عِصَابَةُ الضَّيَالِ وَالسَّرَائِلُ لَا تَنْتَكُمُ بِمَوَاقِعِ الظَّالِمِ^(١) ، والأسرار لا تنتكس عند الاختيار

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ
قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنَ الْحَقِّ
وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

(١) السياق حديث عن الناطقين وعن الكفار .. وأراد التشبُّه أن يتقل هذا السياق إلى الجهر الصوري فوجه
تحذيره لأولئك : الرباء والهدوى ، أولئك الذين يظنون أنهم إن تماهروا بالقيام بموافقة الشريعة وموافقة القوم
فإن الأسيرة سريراً ما لكشف السيرة - على حد المصير ، في موضع مماثل .

مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

أَلَمْ يَحْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَوَاضَعَ قُلُوبُهُمْ وَتَلِينَ لَذِكْرِ اللَّهِ وَالْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعِيرِ ؟
وَالْأَيْكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ؟ وَأَرَادَ بِهِمُ الْيَهُودَ ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ
فَاسِقُونَ كَافِرُونَ .

وَأَرَادَ بِطُولِ الْأَمَدِ الْفَتْرَةَ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ مُوسَى وَنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِي الْخَبَرِ :
أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصَابَتْهُمْ مَلَلَةٌ قَالُوا : لَوْ حَدَّثْتُنَا .

فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ .. » فَبَدَأَ مُدَّةً قَالُوا :

لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا !

فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « نَحْنُ نَهْصُ عَلَيْكَ نَهْأَمُ بِالْحَقِّ ... » فَبَدَأَ مُدَّةً قَالُوا : لَوْ ذَكَرْتُنَا
وَوَعَّظْتُنَا !

فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ .

وَفِي هَذِهِ آيَةٍ مَا يَشْبَهُ الْاسْتِطَاءَ .

وَإِنْ قُوَّةُ الْقَلْبِ تَحْصُلُ مِنْ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ ، وَالشَّهْوَةُ وَالصَّفْوَةُ لَا تَجْتَمِعَانِ ؛ فَلِذَا حَصَلَتْ
الشَّهْوَةُ رَحَلَتْ الصَّفْوَةُ . وَمَوْجِبُ الْقُسُوفِ هُوَ انْحِرَافُ الْقَلْبِ عَنْ مَرَاقِبَةِ الرَّبِّ . وَيُقَالُ : مُوجِبُ
الْقُسُوفِ أَوَّلُهُ خَطَرَةٌ فَإِنْ لَمْ تُتَذَكَّرْ صَارَتْ فِكْرَةً وَإِنْ لَمْ تُتَذَكَّرْ صَارَتْ عَزِيمَةً ، فَإِنْ لَمْ تُتَذَكَّرْ
جَرَتْ الْخَالِقَةُ ، فَإِنْ لَمْ تُتَذَكَّرْ بِالثَّلَاثِ صَارَتْ قُسُوفًا وَبَعْدُ نَصِيرٌ طَبِيعًا وَرَبَّنَا^(١)

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخْفِي الْأَرْضَ بِدُمُوتِهَا

قَدْبَيْنَا لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَلِكِكُمْ تَقُولُونَ » .

يُخْفِي الْأَرْضَ بِدُمُوتِهَا بِإِزَالِ الْمَطَرِ عَلَيْهَا وَإِخْرَاجِ النَّبْتِ مِنْهَا .

(١) دَانَ الْغَرِيبُ ؛ وَهَيْئَتُهُ أَيْ تَطْبُحُ وَتَدْنَسُ ، وَرَأَتْ الْفَتَى أَيْ خَفِيَتْ وَكُتِبَتْ . (الْوَسِيطُ) .

وَيُحْيِي الْقُلُوبَ الْمَيِّتَةَ — بعد إغراضِ الحقِّ عنها — بحسن إقباله عليها^(١) .
 قوله جل ذكره : « إِنَّ الْمُذْتَبِينَ وَالْمُذْتَبَاتِ وَأَقْرَضُوا
 اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفْ لَهُمْ وَلَهُمْ
 أَجْرٌ كَرِيمٌ » .

أى الصدّيقين والصدقات .
 « وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » : يعنى فى التواضع .
 « يُضَاعَفْ لَهُمْ » فى الحسنات ، الحسنَةُ بِشَرِّ أمثلها .. إلى ما شاء الله
 « وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ » : ثوابٌ كبيرٌ حَسَنٌ . والثوابُ الكَرِيمُ أَنَّهُ لَا يَضِنُّ بِأَقْصَى الْأَجْرِ
 عَلَى الْعَلَاةِ — وَإِنْ قَلَّتْ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ
 الصّٰدِقُونَ وَالشّٰهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ
 أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » .

الصّٰدِقُونَ : مبالغة فى الصدق ، والشّٰهَدَاءُ : الذين استشهدوا فى سبيلِ الله ، فالْمُؤْمِنُونَ بمنزلة
 الصّٰدِقِينَ والشّٰهَدَاءِ — لم أجزم فى الجنة ونورهم فى القيامة .

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

والصّٰدِقِينَ مَنْ اسْتَوَى ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ .
 ويقال : هو الذى يحمل الأمر على الأشَقِّ ، وَلَا يَنْزِلُ إِلَى الرُّخْصَةِ ، وَلَا يَجْنَحُ
 لِلتَّأْوِيلَاتِ .

والشّٰهَدَاءُ : الذين يشهدون بغيرهم مواطن الوصلة ، ويستكنون بأسرارهم فى أوطان القربة ،
 « وَنُورُهُمْ » : ما كمل الحقُّ به بصائرهم من أنوار التوحيد .

(١) كان المعروف أن تكون اميلارة مكلفا :
 (ويصور للقلب الميتة بعد اغراضه عنها) .
 ما يستعمل (الحق) فى الإضافة سأتة هم أرباب القلوب المتخفين الثابتين عن الخلق الباطنين بالحق .

قوله جل ذكره : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لَيبٌ وَلَهُوَ
وزينةٌ وَتَفْلَحُوا بِكُمْ وَتَكَاثُرُوا
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ » .

الحياة الدنيا مُرَوَّضَةٌ لِلزَّوَالِ ، غيرُ لَابِثَةٍ وَلَا مَآكِنَةٍ ، وهى فى الْحَالِ شَاغِلَةٌ عَنْ اللَّهِ ،
مُطْلِمَةٌ ^(١) وَغَيْرُ مُشْبِعَةٍ ، وَتَجْرَى عَلَى غَيْرِ سَنَنِ الْإِسْقَامَةِ كَجَرَّيَانِ لَيبٍ ^(٢) الصَّيَّانِ ، فَهِيَ تُلْهِى
عَنِ الصَّوَابِ وَاسْتِبْصَالِ الْحَقِّ ، وَهِيَ تَفْلَحُ وَتَكَاثُرُ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .

« كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَيَاتُهُ
ثُمَّ يَهْبِجُ قَرَارُهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطْلَامًا » .

الْكُفَّارُ : الزُّرَّاعُ .

هُوَ فِى غَايَةِ الْحُسْنِ ثُمَّ يَهْبِجُ قَرَارُهُ يَأْخُذُ فِى الْجَفَافِ ، ثُمَّ يَنْتَعِى إِلَى أَنْ يَتَحَطَّمَ وَيَتَكَسَّرُ .
« وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ » .

لَأَهْلِهِ مِنَ الْكُفَّارِ .

« وَمَنْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ » .

لَأَهْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ » .

الدُّنْيَا حَقِيرَةٌ — وَأَحْقَرُ مِنْهَا قَدْرًا طَالِبُهَا وَأَقْلَبُ مِنْهُ خَطَرًا الْمَزَامِ فِيهَا ، فَاهِى إِلَّا جِفَةٌ ؛
وَطَالِبُ الْجِنَّةِ لَيْسَ لَهُ خَطَرٌ . وَأَخْسَ أَهْلُ الدُّنْيَا مَنْ يَحْتَلِّ بِهَا .

وهذه الدنيا المذمومة هى التى تَشْتَلُّ الْعَبْدَ عَنِ الْآخِرَةِ !

(١) ربما كانت - (مطمئة) فى الأصل ؛ فقد تبدو للدنيا ذات قيمة ولكنها فى الحقيقة عديمة القيمة .

(٢) فى اللسنتين (لِأَب) الْأَهْلِيَّةُ ، وَدَعِ ذَلِكَ فَقَدْ أَثَرْنَا أَنْ تَلْبِثَ حَتَّى (لَبِ) بِالرَّغْمِ مِنْ تَحَسُّنَاتِ لِاسْمِئَالِ
(الْأَب) فِى مَوْضِعٍ سَبَقَ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّنَا نَرَى إِضَافَةَ الْغَابِ إِلَى الصَّيَّانِ لَا يَزِيدُ الْمَعْنَى تَأْكِيدًا ، فَالْغَابُ ظَاهِرَةٌ فَسَيَرُوجِيَّةٌ
تَجْرَى عَلَى فَيْرِ نِظَامٍ — وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ — عِنْدَ الْكِبَارِ وَاصْتِفَافِ عَلَى حِدِّ سَوَاءٍ ، بَيْنَمَا إِضَافَةُ الْغَابِ إِلَى الصَّيَّانِ تَعْلَى
الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ .

قوله جل ذكره : « سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » .

أى سارعوا إلى تحلي يوجب لكم مغفرة من ربكم ، وذلك العمل هو التوبة .
« وجنة عرضها ... » ذكر عرضها ولم يذكر طولها ؛ فالطول على ما يوافيه العرضُ .
« أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » : وفي هذا دليل على أن الجنة مخلوقة ^(١) .

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

وفي ذلك رد على من يقول : « إن الجنة مُسْتَحَقَّةٌ عَلَى الطاعات ، ويجب على الله إيفال العبد إليها » ^(٢) ... لأن الفضل لا يكون واجبا .

ويقال : لما سمعت أسرار المؤمنين ^(٣) هذا الخطاب ^(٤) اجتدرت الأرواح مُتَقَصِّية المارعة من الجوارح ، وصارت الجوارح مستجيبة للسلالة ، مُستبشرة برعاية حقوق الله ؛ لأنها علمت أن هذا الاستماع من جانب الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْبِرَ أُمَّهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » .

المصيبة حَصْلَةٌ ^(٥) تقع وتحصل . فيقول تعالى : لا يحصل في الأرض ولا في أنفسكم شيء

(١) هكذا أيضاً يرى ابن القيم في (إنباح الجيوش الإسلامية ص ٥٢) .

والاشارة والسلف يرون ذلك ويرون أن الجنة والناو مخلوقتان الآن وأنها بالقيتان .

(٢) هذا رأى الممثلة الذين اعتبروا ذلك من مقتضيات العدل الإلهي .

(٣) هكذا في م وهي في ص (الفرسدين) .

(٤) هكذا في م وهي في م (الخطاة) ورائع فيها خطأ الناس لأن الأمر متعلق بالفعل (سابقوا ...)

(٥) بمعنى حادث يحصل ، وهي في (غصلة) بالهاء والصواب حَصْلَةٌ . (انظر ما يقوله القشيري في سورة التناين عند ما أصاب من مصيبة على منى : (غسل الم غصلا وغصلة) أى وقع بلزق الحدف أو أساه .

إلا وهو مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ على الوجه الذي سبق به العلم ، وحق في الحكم ؛ قبل أن
تخلق ذلك أَيْتَنَاهُ في اللوح المحفوظ .

فكلُّ ما حصل في الأرض من خصبٍ أو جَدْبٍ ، من سعةٍ أو ضيقٍ ، من فتنةٍ أو استقامةٍ
وما حصل في النفوس من حزنٍ أو سرورٍ ، من حياةٍ أو موتٍ كلُّ ذلك مُثَبَّتٌ في اللوح المحفوظ
قبل وقوعه بزمان طويل .

وفي قوله : « من قبل أن نراها » دليلٌ على أن أكساب المباد مخلوقة لله سبحانه . وللمبدئ
في العلم بأن ما يصيبه : من بسطٍ وراحةٍ وغير ذلك من واردات القلوب من أفرق — أشد السُرور
وَأَمُّ الْأَنْسَى ؛ حيث عَلِمَ أنه أَفْرَدَ بذلك بظهور غيبٍ منه ، بل وهو في كنز المدَمِّ ،
ولمنا قالوا :

سَقِيًا لِمَعْنِكَ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ قَلْبِي لِلصَّابَةِ مَعْنِيًا^(١)

قوله جل ذكره : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

عَدَمُ الفرح بما آتاكم هو من صفات المتصوِّرين من رِقِّ النَّفْسِ ، قِصَّةُ الرِّجَالِ تَتَبَيَّنُ بِتَغْيِيرِهِمْ
— قَنَ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِمَا يَرِدُ عَلَيْهِ — مما لا يريد — من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محنةٍ فهو كاملٌ ،
وَمَنْ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِالسَّارِ كَمَا لَا يَتَغَيَّرُ بِالضَّارِّ ، وَلَا يَسْرُهُ الْوُجُودُ كَمَا لَا يُحْزِنُهُ الْعَدَمُ —
فهو سَيِّدٌ وقته^(٢) .

ويقال : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الرَّجُلَ فَاطْلُبْهُ عِنْدَ الْوَارِدِ ؛ فَالتَّغْيِيرُ عِلَامَةُ بَقَاءِ النَّفْسِ بِأَيِّ
وَجْهِ كَانَ :

« وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ ظُحُورٍ » .

(١) وهكذا نرى أن الجبرية عند الصوفية ترتبط بالحكمة القديمة ، فإِنَّ الْبَارِيَّ الْخَالِقَ الْبَرَّ مِنْ الْعَدَمِ .. لن يريده
به إلا التَّغْيِيرَ .. وَحَقُّ لَوْ أَنَّ صَاحِبَ الْبَيْتِ تَلَفَ .. فَرَحِيحًا بِهِ فَهُوَ تَلَفٌ فِي سَبِيلِ الْمَحْبُوبِ .
(٢) التَّغْيِيرُ مِنْ عِلَاجَاتِ التَّلَوِينِ ، وَالْقِيَامَاتِ فِي الْمَسَارِ وَالْمَضَارِ — مِنْهُ تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ عَلَى الْبَارِئِ — مِنْ عِلَاجَاتِ
التَّسْكِينِ . فَسَادَاتِ الْوَقْتِ مِنْ أَهْلِ التَّسْكِينِ .

فلاختيال من علامات بقاء النفس ورؤيتها^(١)، والتخبر^(٢) (تأنيج^(٣)) عن رؤية مابه بفخر .
 قوله جل ذكره : « الذين يخطون ويأْمُرُونَ النَّاسَ
 بالبخل ، وَمَنْ يَقُولُ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ
 الْغَنِيُّ الْغِيثُ » .

يجلوا بكتبان صفة بُيِّنَا صلى الله عليه وسلم وأُتْرُوا أَتْبَاعَهُمْ بذلك ، وذلك لما خاطبوا
 من كساد سُوقِهِمْ وبطلان رياستهم .

« وَمَنْ يَقُولُ . . . عَنِ الْإِيمَانِ ، أَوْ إعطاء الصَّدَقَةِ » فإن الله هو الغنى الحيد » .
 والبخلُ — على لسان العلم — مَنَعُ الواجب^(٤) ، فأما على بيان هذه الطائفة^(٥) قد قُلُوا :
 البخلُ رؤية قَدْرٍ للأشياء ، والبخلُ الذى يُعْطَى عند السؤال^(٦) ، وقيل : مَنْ كَتَبَ
 على خاتمه اسمه فهو بخل^(٧) .

قوله جل ذكره : « قد أرسلنا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا
 معهم الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
 النَّاسُ بِالْقِسْطِ » .

أى أرسلناهم مُؤَيِّدِينَ بِالْحَقِّصَحِّ اللَّامِعَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ ، وَأَرْخَنَا لِحِلَّةِ لَيْنٍ أَرَادَ سُلُوكَ
 الْحَبِيبَةِ اللَّيْنَتَى ، وَبَسَّرْنَا السَّيْلَ عَلَى مَنْ آمَنَ أَتْبَاعَ الْهُدَى . وَأَنزَلْنَا معهم الْكِتَابَ لِلْمَنْزِلَةِ ،
 و « الْمِيزَانَ » : أى الْحُكْمَ بِالْقُرْآنِ ، واعتبار العدلِ والتسوية بين الناس .
 « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » : فلا يظلم أحدٌ أحداً .

(١) هكذا فى ص . وهى أصوب من (زيتها) فى م ، فروية النفس آفة يحذر منها أرباب الطريق — خاصة
 أهل الملاحة .

(٢) إضافة من عتدنا حتى يتضح السياق .

(٣) يقصد منع الزكاة المفروضة حسب علوم الشريعة .

(٤) يقصد طائفة الصوفية .

(٥) أى لا ينتظر حتى يسأله سائل ، وإنما هو يعطى دائماً دون انتظار لدعوة داعٍ أو سؤال سائل .

(٦) لأنه ينبغي أن يكون مستجداً لأعضائه كثيره منه أى طرف من الأطراف ، والمقصود أن يكون فى اند
 يُشار إليهما (راجع فصل للفترة فى رسالة الفقيهى) .

قوله جل ذكره : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ

وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ

وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

« أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ » : أى خلقنا الحديد .

ونصرة الله هى نصرته دينه ، ونصرة الرسول باتباع سنته .

« إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » : أقوى من أن يُنازعه شريك ، أو يضارعه فى الملك ملك ،

وأعز من أن يحلج إلى ناصر .

قوله جل ذكره : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا

فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ »

أى : أرسلنا نوحا ، ومن بعده إبراهيم ، وجعلنا فى نسلهما النبوة والكتاب .

« فَفَنَّمْهُمْ هَهِيرَ » .

أى : مستجيب .

« وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

خرجوا عن الطاعة .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آلِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا

بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً

وَرَحْمَةً » .

أى : أرسلنا بهم عيسى ابن مريم .

« وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا

عَلَيْهِمْ » .

يَبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِالرَّهْبَانِيَّةِ (١) بَلْ هُمُ الَّذِينَ ابْتَدَعُوهَا

(١) الرهبانية هى : الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخلف - صيغة فعلان من رهب مثل خشيان من خشى ،

وكانوا يفرون إلى الجبال والصحراوات ليخلصوا من الفتنة فى دينهم ، ويقطعون أنفسهم عن الزواج والنسل .

ثم قال :

« إِلَّا ابْتَغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » .

هم الذين اتفردوا بما عقده معنا (أن يقوموا بحَقِّنا)^(١)

« فَأَتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَوَى » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ

مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ

بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا .

« كَفْلَيْنِ » : أى تَمَيِّيزَيْنِ ؛ نصيبًا على الإيمانِ بالله ، وآخرَ على نصرتهم

وإيمانهم بالرسول .

قوله جل ذكره : « لِيَسْلَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ

أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

ومعناه : يعلم أهل الكتاب ، و « لا » صلة . أى : ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على

شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ^(٢) : فإن النفل بيد الله . و « اليد » هنا بمعنى : القدرة ، فالفضلُ بقدرة الله .

(١) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٢) ونظيره قول ابن جني في « تلا يعلم أهل الكتاب » أى ليعلموا فهي متراكبة قائمة مقام إعادة الجملة مرة أخرى . (إقتان للسيوطي - ص ١٥ ص ١٧١ ط المطبعي .

والإشارة في هذا : اتقوا الله يحفظ الأدب معه ، ولأنتم أنتموا مكره أن يتلَبَّكم ما وهبكم من أوقاتكم . وكونوا على حذرٍ من بَنَاتِ قَدِيرِهِ في تشير ما أذاقكم من أنسٍ محبته .
 واتَّبِعُوا السَّفَرَاءَ والرُّسُلَ ، وحافظوا عل اتِّباعهم حتى يُرَتِّبَكُم نصيبين من فضله :
 عَصمةً ونعمةً ؛ فالعصمة من البقاء عنه ، والنعمة هي البقاء به .
 وقال : يؤتكم نصيبين : نصيباً من التوفيق في طلبه ، ونصيباً من التحقيق في وجوده^(١)

(١) (الوجود) هنا ليس معناه (ضد النعدم) بل هو أعل درجات الشهود ، فالوجود بداية ، والوجود واسطة والوجود نهاية (نشر التـلالة ص ٣٧) .

سُورَةُ الْمُحَادَّةِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله» كلمة من عَرَفَهَا بَدَلُ الرُّوحِ فِي مَلَبِهَا — وَإِنْ لَمْ يَحْظَ بِوَصُولِهَا ، كَلِمَةً مِنْ مَلَبِهَا اِكْتَفَى بِالطَّلَبِ مِنْ (١) قَبُولِهَا .

كَلِمَةُ جِبَارَةٍ لَا تَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ، كَلِمَةُ قَهَارَةٍ لَا يُوجَدُ مِنْ دُونِهَا مُلْتَمَحِدٌ .
كَلِمَةٌ مِنْهَا بِلَاءُ الْأَحْيَاءِ — لَكِنْ بِهَا شِفَاءُ الْأَحْيَاءِ .

قوله جل ذكره: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشكى إلى الله» .

لَمَّا صَدَقَتْ (٢) فِي شِكْوِهَا إِلَى اللَّهِ وَأَيَّتْ مِنْ اسْتِكْشَافِ ضَرْمِهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ —
أَنْزَلَ اللَّهُ فِي شَأْنِهَا: «قد سمع الله» .

تَفَرَّغَتْ إِلَى اللَّهِ ، وَرَفَعَتْ قِصَّتَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَنَشَرَتْ غُصَّتَهَا (٣) بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ — فَتَنَظَرَ إِلَيْهَا اللَّهُ ، وَقَالَ: «قد سمع الله» .

وَيَقَالُ: صَارَتْ فَرْجَةً (٤) وَرُخْصَةً لِلسَّالِكِينَ إِلَى التَّيَامَةِ فِي مَسْأَلَةِ الظُّهَارِ (٥) ، وَلِيَعْلَمَ الْمَالِدُونَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَحْضُرُ عَلَى اللَّهِ .

وَفِي الْخَبَرِ: أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ أَوْسًا تَزَوَّجْنِي شَاكَّةً غَنِيَّةً ذَاتَ أَهْلٍ ،

(١) وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: اِكْتَفَى مِنَ الْقَبُولِ بِالطَّلَبِ ، لَيْ اِكْتَفَى أَنْ يَشْرَفَ بِطَلَبِهَا وَعَمَلُ اللَّهِ [تَمَامَ الْفَضْلِ بِالْقَبُولِ] — وَهَذَا أَسَاسُ هَامٍ فِي مَنَاسِبِ الطَّالِبِينَ وَالسَّالِكِينَ .

(٢) هِيَ خَوْلَةٌ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ امْرَأَةُ أَوْسٍ بِنْتُ لُصَّاصَتِ أُسَى مِيَادَةَ .

(٣) هَكَذَا فِي صِرَ وَهِي فِي م (نُصَبَهَا) وَقَدْ آثَرْنَا مَا جَاءَ فِي م لَتَلْوِينِ الْكَلَامِ وَخِدْمَةِ السِّيَاقِ .

(٤) فِي التَّمَجِّنِ (فَرْجَةٍ) وَلَا بِأَسْ بِهَا فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّا نَشِيرُ أَنَّ (فَرْجَةً) نَدْعُ السِّيَاقَ عَلَى نَحْوِ آكِدَ .

(٥) ظَاهِرُ امْرَأَتِهِ ظُهَارًا أَيْ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَى كَظْهِرِ أَوْسٍ أَيْ أَنْتِ رَحِمُ ام .

ومالٍ كثير ، فلما كبرت سِنِّي^(١) ، وَذَهَبَ مَالِي ، وَتَفَرَّقَ أَهْلِي جُلَيْتِي عَلَيْهِ كَظَلِّهِ أُمِّي ،
وَقَدْ تَدِيمُ وَتَدِيمَت ، وَإِنِّي لِي مِنْهُ صَبِيَّةٌ صَبَارًا إِنِّي صَبَّغْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا ، وَإِنِّي ضَمَّيْتُهُمْ
إِلَيْي جَاعُوا .

قَالَ لَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِي رِوَايَةٍ — : مَا أَمَرْتُ بِشَيْءٍ فِي شَأْنِكَ .

وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ قَالَ لَهَا : بَنَيْتَ عَنْهُ (أَيِ حَرَمْتَ عَلَيْهِ) .

فَرَدَدْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ص) فِي ذَلِكَ ، وَشَكَتُ .. إِلَى أَنِ أَنْزَلَ اللَّهُ حُكْمَ الظَّهَارِ .

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ

نِسَائِهِمْ لَمْ يَنْكِحُوا أُمَّهَاتَهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ

إِلَّا الْأُولَى وَلَقَدْ نَهَيْتُهُمْ وَأَنَّهُمْ لَيَقُولُونَ

مُنْكَرًا مِنَ التَّوَلَّى وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ

يَعْلَمُ غُفُورًا » .

قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِنِسَائِهِمْ — جَرِيًّا عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الشَّرْكِ — أَنْتِ عَلَى كَظَلِّهِ أُمِّي ..
هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَحْكَمْهُ اللَّهُ بِهِ ؛ وَلَا هَذَا الْكَلَامُ فِي نَفْسِهِ صِدْقٌ ، وَلَمْ يَبْتَ فِيهِ شَرْعٌ ،
وَلِئَلَّا هُوَ زُورٌ كَخُصٍّ وَكَذِيبٌ مِثْرَفٌ .

فَصَلِّهِ الْكَافَّةُ أَنَّ الْحَقَائِقَ بِالتَّلْيِيسِ لَا تَتَمَرَّزُ^(٢) ؛ وَالسَّبَبُ إِذَا لَمْ يَكُنْ صَحِيحًا فَبِالْمَعَاوِدَةِ
لَا يَبْتَ ؛ فَالْأَرْأُ لَمَّا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) قَوْلَهُ : بَنَيْتَ عَنْهُ — كَانَ وَاجِبًا عَلَيْهَا
السَّكُونُ وَالصَّبْرُ ؛ وَلَكِنَّ الضَّرُورَةَ أَنْفَقَتْهَا وَحَلَّتْهَا عَلَى الْمَعَاوِدَةِ ، وَحَصَلَتْ مِنْ ذَلِكَ
مَسْأَلَةٌ : وَهِيَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ يَحْكُمُ فِيهَا ظَاهَرُ الْمَلِكِ بِشَيْءٍ ؛ ثُمَّ تُغَيَّرُ الضَّرُورَةُ ذَلِكَ
أَحْكَمُ لِمَصَاحِبِهَا^(٣) .

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ

(١) فِي رِوَايَةٍ : خَلَا سَنَى وَشَرَّتْ بَطْنِي — أَيْ كَثُرَ وَلَدِي .

(٢) دِيمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ (لَا يَتَقَرَّرُ) وَبَعْدَ ذَلِكَ فَالْمَعْنَى حُكْمًا مُقْبُولًا .

(٣) هَذِهِ غُرَّةٌ رَقِيقَةٌ بِأَوَّلِكَ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالظَّاهِرِ ، وَدَعْوَةً إِلَى التَّرْتِيبِ .

يُودُونَ لِمَا قَالُوا خُصِرُوا رَقَبَةً مِّنْ
قَبْلِ أَنْ يَبَاسَ ۖ ذَلِكُمْ مُوعَدُونَ ۖ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝

الظاهر — وإن لم يكن له في الحقيقة أصل ، ولا تصحيحه نطق أو دلالة شرع ، فإنه
بعد ما رُفِعَ أمرُهُ إلى الرسول (ص) ولَوِّحَ بشيء ما ، وقال فيه حُكْمُهُ ، لم يُغْلِ اللهُ ذلك من
بيان ساق به شرعهُ ؛ قَفِى فيه بما انتظم جوانب الأمر كُلَّهُ .

فارتفع الأمر حتى وصوله إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، والتعاظم لديه سَحَلِ
الصدى عناء فقلته ، وأعاد للرأى حقها ، وكان سَبِيلًا لتجديد المسألة بِرُتْبَتِهَا ... وهكذا فُتِنَ
كل صَبْرٍ إلى زواله ... وكلُّ لِقَاءٍ — وإن طالت — فإلى إسفار (١) .

قوله جل ذكره : «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا
مَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقد
أَنزَلْنَا آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا الْكَافِرُونَ
عَلَّامٌ مُّبِينٌ ۝»

الذين يُحَادِّثُونَ أمرَ اللهِ ويتركون طاعةَ رسولِ اللهِ أَذِلُّوا وَخَذِلُوا ، كما أَذِلُّ
الذين من قَبْلِهِمْ من الكُفَّارِ والمُصَّاءِ .

وقد أجرى اللهُ سُلَّتَهُ بالانتقام من أهل الإِجْرَامِ ؛ فَنَ ضَيِّعَ للرسولِ سُنَّةً ، وأَحْدَثَ
في دينه بِدْعَةً انخرط في هذا السلك ، ووقع في هذا الدُّلُّ .

قوله جل ذكره : «يَوْمَ يَمُنُّهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
كَانُوا عَمِلُوا إِنَّهُمْ عَمِلُوا أَلْفًا وَلَمْ يَتَوَكَّلُوا عَلَى
شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝»

يقال : إذا حُوسِبَ أحدٌ في القيامة على عمله تصور له ما فعله وتذكَّره ، حتى كأنه قائمٌ
في تلك الحالة عن بساط الزلَّةِ ، فيقع عليه من الخجلِ والندَمِ ما يَنسَى في جَنَنِهِ كُلَّ عَقوبة .

(١) حدث تدل على جانبنا في ترميم هذه الفقرة التي جاءت في التبيين منبهة الكتابة والمعنى .

فنبيلُ السلمِ ألا يحومَ حولَ عاتلةِ أمرِ مولاهُ ، فإنَّ جَبريَّ المقدورُ ووقَعَ في هجنةِ
التصيرِ فتسكنُ زَلَّتْهُ على بَالٍ ، وليتضرعْ إلى الله بحسنِ الإتهالِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى
ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ
إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ
وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا
ئِمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

مَعِيَّةُ الْحَقِّ — سبحانه — وإن كانت على السبوحِ بالسلمِ والرواية ، وعلى
الخصوصِ بالفضلِ والنصرة — فلها انطباعٌ في قلوبِ أهلِ المعرفةِ أثرٌ عظيمٌ ، ولهم
إلى أنْ يَتَبَيَّنَ الْأَمْرُ بِهِمْ إِلَى التَّوَكُّلِ ^(١) فَالْوَلِّهِ فَلِهَاجَانِ فِي غَارِ سَمَاعِ هَذَا عَيْشِ رَاغِدِ .

ويقال : أصحابُ الكهف — وإنْ جَلَّتْ رَقَبَتُهُمْ واختصت من بين الناس مرتبتهم —
فالحقُّ سبحانه يقول : « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ » ^(٢) ولكنا انتهى إلى هذه الآية
قال : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة ... فشتان بين مَنْ رَايَهُ
كَلْبُهُ وبين مَنْ رَايَهُ رَبُّهُ !! »

ويقال : أهلُ التوحيدِ ، وأصحابُ القولِ من أهلِ الأصولِ يقولون : اللهُ واحدٌ لا من طريقِ
العددِ ^(٣) ، والحقُّ يقول : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... » ويقال : حيثما كنتَ
فأنا معك ؛ إن كنتَ في المسجدِ فأنا معك ، وإن كنتَ في اللصطةِ فأنا معك ، إن طَلَبَ الْعِلْمَ

(١) وردت التباريل في ص والتأول في م والمصحح — في نظرنا — أن تكون التوكُّلُ ، فهو المأزلة التي تسبق
التوكُّلَ والهجان .

(٢) آية ٢٤ سورة الكهف .

(٣) الواحد على الحقيقة ليس عدداً لأن العدد هو ما يبلغ نصف مجموع حائثيه ، وليس قبل الواحد شيء .

التأويل^(١) وشوشعوا قلوباً أولى المواجهين فلا بأس -- فانا معهم .

إن حضرت المسجد فانا معك بإسباغ النية ولكن وغداً ، وإن أتيت المصطبة فانا معك بالرحمة وإسبال ستر الغفرة ولكن ههنا .

هَبْكَ تَبَاعَدْتَ وَخَالَفْتَنِي قَدَرُ أَنْ تَخْرُجَ عَنْ لُطْفِي ١٩

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنْ التَّجَوُّيِّ

ثُمَّ يَمُودُونَ لَأَنَّهُمْ عَنْهُ يُفْتَابُونَ بِالْإِيمِ

وَالْمَدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا

جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » .

أَذَوَاتُ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَانُوا يَتَنَاجُونَ بِهِ فَيَا بَيْنَهُمْ^(٢) ، ولم تكن في نتائجهم فائدة

إلا قصدهم بذلك شَقْلَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ، ولم ينهوا عنه لَمَّا نَهَوْنَا عَنْهُ ، وَأَصْرُوا عَلَى ذَلِكَ

وَلَمْ يَنْزَجِرُوا ، فَتَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَكُونُ عِقَابُهُمْ بِأَن تَتَنَازَلَ الْمَلَائِكَةُ فِي بَيْنِهِمْ فَيَا بَيْنَهُمْ ،

وَحِينَ يَشَاهِدُونَ ذَلِكَ تَرَجُّمُ ظَنُونِهِمْ ، وَيَتَعَذَّبُونَ بِتَقَسُّمِ قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ لَا يَنْكَشِفُ الْحَالُ لَهُمْ

إِلَّا بِمَا يَزِيدُهُمْ حَزَنًا عَلَى حَزَنِ ، وَأَسْمًا عَلَى أَسْفٍ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ

فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِيمِ وَالْمَدُونِ وَمَعْصِيَةِ

الرَّسُولِ وَتَنَاجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا

اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

إِنَّمَا قَبِضَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَعَظَّمَهُ لِأَنَّهُ تَضَمَّنَ إِفْسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ مَا عَادَ

بِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَبِكَسَهُ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِضَدِّهِ .

(١) وفيما حجاج أهل هذه الطائفة أظهر من حجاج كل أحد ، وقواعد منهم أقوى من قواعد كل مله . والناس : إما أصحاب النفل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر .. وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة ؛ فالله الناس غيب فهو لم يظهور ، واللهى الخلق من المعارف مقصود فانهم من الحق سبحانه موجود ، فهم من أهل الوصال والناس أهل الاسلاله الرسالة التشريعية من ١٩٨ وانظر فكرة الحفاظ للفتوى - ٤ ص ١٥ .

(٢) كان اليهود والمنافقون يتنازعون فيما بينهم وبأيمانهم إغافة المؤمنين ، وكانوا إذا أقبلوا على الرسول نالوا له : السلام عليك يا محمد .. والسلام هو الموت .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارَةٍ شَيْئًا إِلَّا

بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » .

النجوى من تزيين الشيطان ليحزن الذين آمنوا . وإذا كانت المشاهدة غالباً ، والقلوب

حاضرة ، والتوكل صحيحاً ؛ والنظر من موضعه صائباً فلا تأثير لثقل هذه الحالات ، وإنما

هذا للضعفاء .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ

تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ

لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا » (١) .

لكمال رحمة بهم وتماز رأفته عليهم ، علَّهم مراعاة حُسن الأدب ينهم فيما كان من أمور

المادة (دون أحكام العبادة) (٢) في التفسُّح في المجالس والنظام في حال الزَّحمة والكثرة ..

وأُعزِّزُ بأقوامٍ أمرهم بدقائق الأشياء بعد قيامهم بأصول الدين وتحققهم بأركانه !

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَابَعْتُمُ الرُّسُلَ

فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ

خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَلَنْ لَمْ يَجْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣) .

لما كان الإذن في النجوى مقروناً ببذل المال امتنعوا وتركوا ، وبذلك ظهرت جواهر

(١) (انفثروا) أي : انفثروا القوس على المقاتلين ، أو انفثروا من مجلسه صلواته عليه وسلم إذا أيرمهم بالهزيمة

عنه ، أو انفثروا إلى الصلاة ، أو إلى الجهاد ، أو إلى أعمال الخير .

(٢) هذه موجودة في م وغير موجودة في م .

(٣) رُحِّصَ بمذلل في المناجاة من غير صدقة . وقيل : كان ذلك حشر ليال ثم نُسخ . وقيل : ما كان إلا ساء

من نهار ثم نُسخ . . . ويحكي : أن علياً كرم الله وجهه كان يصدق بغيرهم كلُّنا نأجي الرسول - في بداية الأمر - ثم توقف لما نسخت الآية ، وأزيلت المخالفة .

الأخلاق وخلوة الرجال - ولقد قال تعالى : « ولا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ • إن يَسْأَلُكُمَا فَيُخْسِفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَمْوَالَكُمْ » (١) .

قوله جل ذكره : « ألم تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ

الله عليهم مآلهم منكهم ولا منهم » .

مَنْ وَافَقَ مَفْضُوبًا عَلَيْهِ أَشْرَكَ نَفْسَهُ فِي اسْتِعْتِلَاقِ غَضَبِ مَنْ هُوَ الْغَضَبَانِ ؛ فَمَنْ تَوَلَّى مَفْضُوبًا عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ اسْتَوْجَبَ غَضَبَ اللَّهِ وَكَتَبَ بِذَلِكَ هَوَانًا وَخِسْرَانًا .

« وَيُخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ •

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا لِإِثْمِهِمْ سَاءَ

مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ • اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ

جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ

عَذَابٌ مُهِينٌ »

هَذَا وَصَفٌ لِلنَّافِقِينَ

« اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً أَى وَفَاةً وَسِتْرًا ؛ وَمَنْ اسْتَتَرَ بِجُنَّةٍ طَاعَتَهُ لَتَسْلَمْ لَهُ دِيَارُهُ فَإِنْ

سَاهَمَ التَّضَدُّيرُ مِنْ زَوَائِدِهِ نَكَشَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشُرُ • • فَلَا دِينَ لَهُ بَقِي ، وَلَا دِيَارَهُ تَسْلَمُ ، وَلَقَدْ

قَالَ تَعَالَى : « لَنْ نُنْفِىَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » (٢) .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ

كَمَا يُخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى

شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السَّكَادُونَ •

عَوْبُهُمُ الْكِبَرَى فَلَهُمْ أَنْ مَا عَمِلُوا مَعَ خُلُقِي يَتَشَى أَيْضًا فَمُعَامَلَةُ الْحَقِّ ، فَتَرَطُّ الْأَجْنِبَةِ

وَفَاةُ الْجَهْلِ أَكْبَهُهُمْ عَلَى مَنَافِعِهِمْ فِي وَهْدَةٍ تَدْمِيهِمْ •

(١) آية ٣٧ سورة محمد .

(٢) آية ١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره: «استعوذَ عليهم الشيطانُ فأنّاهم

ذَكَرَ اللهُ أولئك حِزْبُ الشَّيْطَانِ إِلَّا

إِنْ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» .

إذا استعوذ الشيطانُ على صِدِّ أَنْتَاهُ ذَكَرَ اللهُ .

والنفسُ إذا استولتْ على إنسان أنسته اللهُ .

ولقد خسرَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، وأخسرُ منه مَنْ أعانَ نفسه — التي هي أعلى عدوه ،

إِلَّا بَأْنِ يَمِيَّ فِي قَهْرِهَا لَكِهْ يَنْجُو مِنْ كَرْهَا .

قوله جل ذكره: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» .

مَنْ أَرْتَمَتْ شِفْوَتَهُ لَمْ تُنْمِشْهُ قُوَّتُهُ ، وَمَنْ قَصَصَهُ التَّغْدِيرُ لَمْ يَمِصْهُ التَّغْدِيرُ ، وَمَنْ اسْتَهَانَ

بِالَّذِينَ انْخَرَطَ فِي سِلْكِ الْأَذَلِّينَ .

قوله جل ذكره: «كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» .

الذي ليس له إلا التدبير . . كيف تكون له مقالمة مع التدبير ؟ (١) .

قوله جل ذكره: «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ» .

مَنْ جَنَعَ إِلَى مَنْحَرِهِ مِنْ دِينِهِ ، أَوْ حَاوَى مُبْتَدِعًا فِي عَهْدِ نَزَعِ اللهِ نَوْرَ التَّوْحِيدِ مِنْ

قَلْبِهِ فَهُوَ فِي خِيَانَتِهِ جَائِزٌ عَلَى عَهْدَتِهِ ، وَسَيَنُوقُ قَرِيبًا وَبَالَ أَمْرِهِ .

«أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَ بِرُوحٍ مِنْهُ» .

خلق اللهُ الإيمانَ في قلوبِ أوليائه وأُتَمَّتْهُ ، وَيَقَالُ : جَلَّ قُلُوبُهُمْ مُطَوَّرَةٌ بِاسْمِهِ .. وَأَعَزَّزَ

عِلَّةً لِأَسْرَارِ قَوْمِ طَرَاذُهَا اسْمُ «الله» ١١

(١) التدبير الخلق والتدبير الحق .

سُورَةُ الْحَشْرِ^(١)

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ عَزَّزْ - الْكَوْنُ بِمَحَلَّتِهِ فِي طَلَبِهِ .. وَهُوَ عَزَّزْ .

الْشَّمْسُ وَالْأَفْقَارُ وَالنَّجْمُ ، وَاللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَجَمِيعُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْأَعْيَانِ وَالْأَهَارِ
مُتَنَادِيَةً عَلَى أَنْفُسِهَا : نَحْنُ عَبِيدُهُ .. نَحْنُ عَبِيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .. نَزِيدُ مَنْ لَمْ يَزَلْ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

قَدَسَ اللَّهُ وَرَزَمَهُ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؛ فَكُلُّ مَا خَلَقَهُ جَعَلَهُ عَلَى وَحْدَانِيَةٍ دَلِيلًا ، وَلَمَنْ
أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ طَرِيقًا وَسَبِيلًا .

أَتَقِنَ^(٢) كُلَّ شَيْءٍ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ وَحِكْمَتُهُ ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ، وَذَلِكَ شَاهِدٌ عَلَى
مَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ .

« وَهُوَ الْعَزِيزُ » فَلَا شَيْءَ يَسَاوِيهِ ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمُلْكِ يَنْزِعُهُ وَيُضَاهِيهِ .

« الْحَكِيمُ » الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُوجَدُ فِي حُكْمِهِ عَيْبٌ ، وَلَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ عَقَبٌ^(٣) .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ

الْحَشْرِ » .

مِنْ أَهْلِ النَّصِيرِ ، وَكَانُوا قَدْ طَعَدُوا النَّبِيَّ (ص) أَلَّا يَكُونُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَدَأُوا قَتْلَهُ

(١) رُبِّسَهَا إِبْنُ عَبَّاسٍ سُورَةُ التَّحْسِينِ (الْبَحَارُ ص ٣٠ من ١٢٣) .

(٢) هَكَذَا فِي ص مِنْ وَهِي فِي م (أَيْضًا) وَهِيَ حَقْلًا فِي التَّنْخِصِ .

(٣) هَكَذَا فِي ص مِنْ وَهِي فِي م (عَبَّابٌ) وَهِيَ حَقْلًا فِي التَّنْخِصِ .

الهدية ، وبايعوا أباسفيان وأهل مكة ، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فبث صلوات الله عليه إليهم محمد بن مسلمة ، فأومأ أنه يشكو من الرسول في أخذ الصدقة . وكان رئيسهم كعب بن الأشرف قتله محمد بن مسلمة (غيلة) ، وغزاهم ^(١) رسول الله (ص) وأجلام عن حصونهم النيمة وأخرجهم إلى الشام ، وما كان للسلطان يتوقعون الظفر عليهم لكثرتهم ، ولينعة حصونهم .

وظلوا يهدمون دورهم بأيديهم يتقبون ليخرجوا ، ويقطعون أشجارهم ليسدوا النقب ، فسموا أول الحشر ، لأنهم أول من أخرج من جزيرة العرب وحشر إلى الشام .
قال حل ذكره : « فاعتبروا يا أولي الأبصار » .

كيف نصر المسلمين — مع قلائهم — عليهم — مع كثرتهم . وكيف لم تمنهم حصونهم إذا كانت العائرة عليهم . وإذا أراد الله قهر عدو استنق ^(٢) أسده .

ومن مواضع العبارة في ذلك ما قاله : « ما ظننتم أن يخرجوا » بحيث داخلتمكم الريبة في ذلك لقرط قوتهم — فصاحتهم بذلك عن الإعجاب .

ومن مواضع العبارة في ذلك أيضاً ما قاله « وظنوا أنهم ما منتمهم حصونهم من الله » فلم يكن كما ظنوه — ومن قو بمخلوق أسله ذلك إلى صغاره ^(٣) ومذلته .

ومن الدلائل الناطقة ما ألقى في قلوبهم من الخوف والرعب ، ثم تخريبهم بيوتهم بأيديهم علامة ضعف أحوالهم ، وبأبدى المؤمنين قوة أحوالهم ، فقتل لم التلبه عليهم والاحتياط على ديارهم وإجلالهم .

هذا كله لا بد أن يحصل به الاعتبار — والاعتبار أحد قوانين الشرع .
ومن لم يتغير بغيره اعتبر به غيره .

(١) حاصرهم إحدى وعشرين ليلة وأمر بقتل نبيهم وأبن عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة آيات على بعير ولسد ما شاور من متاعهم فجعلوا إلى أربابهم وأذرعهم يارضى الشام .

(٢) الآلف والسير والباء فيها الضرورة أى صار نافذة وانتصود : تحادل المتجبر وصغر شأنه .

(٣) الصغار الرضى بالقله والموت .

ويقال: يُخْرِجُونَ يَوْمَهُم بِأَيْدِيهِمْ ، وَقُلُوبُهُمْ بِاتِّبَاعِ شَهَوَاتِ فُورِسِهِمْ ، وَدِينُهُمْ بِمَا يَمْزِجُونَهُ
بِهِ مِنَ الْبِدْعِ .

قوله جل ذكره : « وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ
لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابُ النَّارِ » .

لَوْلَا أَنْ قَضَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا لَعَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِالْقَتْلِ وَالْإِسْتِصْصَالِ (١) ، ثُمَّ فِي الْآخِرَةِ
لَمْ عَذَابُ النَّارِ .

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

ذلك بأنهم شاقوا أمر الله . والمشاقة أن يصحول المرء إلى شيء آخر .

فالأممى إذا انتقل من الطيعين إلى العاصين قد شاقَّ الله ، وَلَمَّا شَاقَّ اللَّهُ عَذَابُ النَّارِ .
قوله جل ذكره : « مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا
فَآتَمِّعُوا عَلَى أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِجَ
الْفَاسِقِينَ » .

اللينية : كلُّ نوعٍ من التخيل ماعدا السجوة والبرِّ (٢) .

لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَطْعِ بَعْضِ نَخِيلِ بَنِي النَضِيرِ قَالَتِ الْيَهُودُ :
مَا فَائِدَةُ هَذَا ؟ !

فَبَيَّنَ الْمُسْلِمُونَ عَنِ الْجَوَابِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ آيَةً لِيُوضِّحَ أَنَّ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ..
فَاقْطَعِ الْكَلَامَ .

وفى هذا دليلٌ على أن الشريعةَ غيرُ مُمَلَّكَةٍ ، وَأَنَّ الْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ إِذَا جَاءَ بِطُلَّ التَّعْلِيلُ ،

(١) كذلك في ص وهي م (الاستيصال) وهي غطا في التسخ .

(٢) واسمها البرنية ، وهو نوع جيد من الخمر يدور أحمر مشرباً بصفرة . (الوسيط) .

وَسَكَتَتِ الْأُنثَىٰ عَنْ الْمَطَالِبَةِ بِـ «لَمْ أَ؟» وَخُطِرُوا الْأَعْرَاضَ أَوْ الْأَسْتِقْبَالَ خُرُوجَ عَنْ حَدِّ الْعِرْفَانِ . وَالشَّيْخُ .

قَالُوا : مَنْ قَالَ لِأُسْتَاذِهِ وَشَيْخِهِ (١) : «لَمْ أَ؟» لَا يَفْلَحُ . وَكُلُّ مَرِيضٍ يَكُونُ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الظُّوْاطِرِ فِي قَلْبِهِ جَوَلَانٌ لَا يَمُوتُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَمَنْ لَمْ يَجْعِدْ قَلْبَهُ مِنْ مَلَكِبِ الْفُطُلِ ، وَلَمْ يَبْأَثِرْ حُسْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَا يَجْرِي وَاسْتَحْصَانَ مَا يَدُو مِنْ النِّيبِ لِسِرِّهِ وَقَلْبِهِ — فَلَيْسَ مِنَ الْفُتُو فِي شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : « وما آتاه الله على رسوله منهم فإا أوجبتم عليه من خيلكم ولا ركائب ولكن الله يسلبه رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير » .

يريد بذلك أموال بني النضير (٢) ، فقد كانت من جملة التي « لا من النسيئة » فآتاه ما صار إلى المسلمين من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل وركائب ، وتدخل في جلته أموالهم إذا ماتوا وصارت إلى بيت المال . والنسيئة ما كانت بقتال وإيجاب خيل وركائب . وقد خص رسول الله (ص) بأموال هؤلاء قراء المهاجرين ، واستأثر لنفسه بما شاء ، فطابت نفوس الأنصار بذلك ، وشكر الله لهم . ذلك لأن تحوُّر القلب من الأعواض والأملك صفة السادة (٣) والأكابر . ومن أتمرته الأخطار وبقي في شح نفسه فهو في تضييقه وتدنيقه ، وهو في مصادقته ومعاملته ومطالبته مع الناس دائماً يبحث في استيفاء حقلونه — وهذا ليس له من مناقات هذه الطريقة (٤) شيء .

(١) لا سطر كيف يوجهه التشيرى إشارته إلى المريدين ، وما ينبغي أن تكون عليه علاقتهم بشيوخهم .

(٢) عن الزهري عن مالك بن أنس عن حماد بن عمار عن أبيه قال : كانت أموال بني النضير ما آتاه الله على رسول الله (ص) ما لم يرجف المسلمون عليه بخيلهم ولا ركائب ، فكانت لرسول الله (ص) خاصة ينفق على أهله منها نفقة ستة ثم يحيل ما بقي في السلاح والكرام حلة في سبيل الله (البيهقي ٣٠ ص ١٣٣) .

(٣) هكذا في ص وهي في م (السادة) وهي خطأ من النسخ .

(٤) يتصم طريقة الصوفية .

وأهلُ الصفاء لم يَبْقَ عليهم من هذه الأشياء بقية ، وأما مَنْ بَقِيَ عليه منها شيء فترسم (١) سوقى .. لا مُتَحَقِّقٌ صوفى .

قوله جل ذكره : « وما آتاكم الرسول فخذوه ،

وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله

إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

هذا أصل من أصول وجوب متابعتها ، وتزوم طريقتها وسيرته — وفي العلم تفصيله .

والواجبُ على البديعِ عَرْضُ ما وقع له من الخواطر وما يَكْشِفُ به من الأحوالِ على

المعلم — فما لا يقبله الكتابُ والسنةُ فهو في ضلال (٢) .

قوله جل ذكره : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من

ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله

ورضواناً وينصرون الله ورسوله

أولئك هم الصادقون » .

يريد أن هذا النبي هؤلاء الفقراء الذين كانوا متدبراً مائة رجل .

« يبتغون فضلاً من الله ، وهو الرزق » ورضواناً « بالثواب في الآخرة .

وينصرون دين الله ، « أولئك هم الصادقون » : والفقيرُ الصادقُ هو الذي يترك كل سببٍ

وعلاقة ، ويفرض أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف (٣) قلبه على شيء سوى الله ، وَيَقِفُ مع الحقِّ

راضياً بِحُجْرَانِ حُكْمِهِ فِيهِ .

(١) هكذا في م وهو في ص (ترسم) . وعلى الأول يكون المعنى أنه شخص شبه الرسوم والأشكال ، أما باطنه وحقيقته فقدير وسمه ، ودعى الثاني يكون المعنى أنه يكنى من التصوف بالسمة أي العلامة ؛ كالقوب مثلا .. وباطنه غير سيم . والربط بين الصفاء والتصوف — كما يتضح من العبارة — عنصر أساسي في مذهب القشيري . (انظر رسالة باب التصوف) .

(٢) تحسب أنه ليس به هذا مجال التخصص بأن الصوفية يجانبون الشريعة أو يقللون من قدرها ، فمحصل خواطرم ، ومكاشفاتهم من خلال الأحوال .. كل ذلك ينبغي ألا يكون مرفوعاً من الشرع . ومحاولة عقد لقاء بين الحقيقة والشريعة عنصر أساسي آخر في مذهب القشيري — وسمه الله .

(٣) عطف يعطف هنا بمعنى مال وانحى تجاه ناحية تاركاً ناحية أخرى — وهذا هو أصل معنى الكلمة قبل أن تُؤخذ بمعناها الخاصة .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » .

نزلت هذه الآية في الأنصار . « تبوءوا الدار » أى سكنوا المدينة قبل المهاجرين .. « يحبون من هاجر إليهم » من أهل مكة .

« ولا يجدون في صدورهم حاجة » مما خصَّص به للمهاجرين من الفىء ، ولا يجدونهم على ذلك ، ولا يمتزضون بقلوبهم على حُكْمِ الله بتخصيص المهاجرين ، حتى لو كانت بهم حاجة أو اختلال أحوال .

« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

قيل نزلت الآية^(١) في رجلٍ منهم أهديت له رأسُ شاةٍ ضاف على سبعة آيات حتى انتهى إلى الأول .

وقيل نزلت في رجلٍ منهم نزل به ضيفٌ فترقب منه الطعام وأطعم السراج ليومٍ ضيفه أنه يأكل ، حتى يؤثِّر به الضيفَ على نفسه وعلى عياله ، فأنزل الله الآية في شأنه^(٢) .

ويقال : السكرمُ مَنْ بَنَى الدارَ لضيافته وإخوانه (واللتئمُ من بناها لنفسه)^(٣) .

وقيل : لم يقل الله : وَمَنْ يَتَّقِ شُحَّ نَفْسِهِ بَلْ قَالَ : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ^(٤) .

ويقال : صاحبُ الإيثارِ يُؤْثِرُ الشَّبْعَانَ على نفسه — وهو جائع .

(١) حديث القشيري سأله عن الإيثار يصلح أن يكون متعمداً لتفصيل الذى عقده في رسالته من القصة

ص ١١٣ .

(٢) هكذا في رواية أبي هريرة (البخارى ٣٠٠٠ ، ١١٣) .

(٣) ما بين القوسين موجود في ص وغير موجود في م .

(٤) فقاهه من الله لا من نفسه .

ويقال : مَنْ مَيَّزَ بَيْنَ شَخْصٍ وَشَخْصٍ فَلَيْسَ بِصَاحِبِ إِيضَارٍ حَتَّى يُؤَثِّرَ الْجَمِيعَ دُونَ تَمْيِيزٍ .

ويقال : الإِضَارُ أَنْ تَرَى أَنَّ مَا بَأَيْدِي النَّاسِ لَمْ ، وَأَنْ مَا يَحْصِلُ فِي يَدِكَ لَيْسَ إِلَّا كَالْوَدِيعَةِ وَالْأَمَانَةِ عِنْدَكَ فَتَحْتَظِرُ الْإِذْنَ فِيهَا .

ويقال : مَنْ رَأَى لِنَفْسِهِ رِجْلاً فَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْإِضَارِ .

ويقال : الْعَابِدُ يُؤَثِّرُ بِدُنْيَاهُ غَيْرَهُ ، وَالْعَارِفُ يُؤَثِّرُ بِالْجَنَّةِ غَيْرَهُ ^(١) .

وَعَزَّزَ مَنْ لَا يَطْلُبُ مِنَ الْحَقِّ لِنَفْسِهِ شَيْئاً : لَا فِي الدُّنْيَا مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ ، وَلَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْأَفْضَالِ ، وَلَا مِنْهُ أَيْضاً ذَرْبٌ مِنَ الْإِقْبَالِ وَالْوَصَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْوَالِ ^(٢) .

... وَهَكَذَا وَصَفُ التَّقْوَى ؛ يَكُونُ بِتَقْوِيهِ كُلُّ أَرْبَعٍ .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَقُولُونَ :

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً

لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

أَيُّ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ، ثُمَّ أَجْبَالُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَدْهُؤَلَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .
كُلُّهُمْ يَتَرَحَّمُونَ عَلَى السَّلَفِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ سَبَقُوهُمْ ، وَيَسْأَلُونَ طَرِيقَ الشَّفْعَةِ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَسْتَعِينُونَ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قُلُوبِهِمْ غِلّاً أَيْ حَسِداً . وَمِنْ ^(٣) لَا شَفْعَةَ لَهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الدِّينِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَتُوا يَقُولُونَ

(١) وَمَنْ قَبِيلَ ذَلِكَ مَا يَقُولُهُ الْحَسَنِ النَّوَوِيُّ (ت ٢٩٥ هـ) :

« الْعَلَمُ إِنْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ شَيْئُكَ إِلَى لَاتَخْتَلِفَ أَنْ تَمْلَأَ النَّارَ مِنَ النَّاسِ أَسْهَمِينَ فَإِنَّكَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ تَمْلَأَهَا بِوَحْدِي وَأَنْ تَطْلُبَ جَمِيعَ إِلَى الْجَنَّةِ » .

(٢) لِأَنَّ الْأَحْوَالَ مِنَ اللَّهِ ، فَهِيَ مِنْ حَيْثُ الْمَجْدُ ، كَمَا أَنَّ الْمَقَامَاتِ بَيْنَ الْيَهُودِ .

(٣) سَقَطَتْ (وَمِنْ) مِنْ مَوْجُودَةٍ فِي ص ، وَهِيَ شَرْوِيَّةٌ لِسَبَاقِ .

لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ
مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ،
وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ
يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ .

يريد بهم منافق المدينة ؛ ظاهروا بنى النصير وقرينة ، وعاهدوهم على المواقعة بكل وجه ،
فأخبر الله — سبحانه — أنهم ليسوا كما قالوا وعاهدوا عليه ، وأخبر أنهم لا يتناصرون ، وأنهم
يتخاذلون ، ولكن ساعدوهم في بعض الحروب فإنهم يتخاذلون إن رأوهم يهزمون أمام
من يجاهلونهم .

قوله جل ذكره : « لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ »
ذلك بأنهم قوم لا يفقهون .
أخبر — سبحانه — أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله ^(١) ، وذلك لقلة يفهمهم ،
ولمعارض قلوبهم عن الله .

قوله جل ذكره : « لَا يَمَاتُوكُمْ جِيعًا إِلَّا فِي قُرْمٍ مُحَصَّنَةٍ
أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ » .
أخبر أنهم لا يحسرون على مقاتلة المسلمين إِلَّا مُحَاتَلَّةً ، أو من وراء جدران .
وإعما يشتد بأسهم فيما بينهم ، أى إذا حارب بعضهم بعضاً ، فأما معكم ... فلا .
« تَحْسِبُهُمْ جِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » .

اجتماع النفوس — مع تنافر القلوب واختلافها — أصل كل فساد ، وموجب كل تخاذل ،
ومتفقى تجاسر العدو .

(١) والمعنى أنهم يهابونهم يقولون : نحن نخاف الله ، ولكنهم في الحقيقة يخافون منكم خوفاً أشد من خوفهم
من الله ، وذلك لقلة يفهمهم ... الخ .

واخاف القلوب؛ والاشتراك في الحق؛ والتساوي في التصدير يوجب كلاً ظنّاً وكلّ
سعادة . . ولا يكون ذلك للأعداء قط؛ فليس فيهم إلا اختلال كل حال، وانتقاض
كل شئ.

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا

وَأَلَّامُ أَعْرَاهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

مَثَلُ بَنِي قُرَيْظَةَ كَمَثَلِ بَنِي النَّضِيرِ^(١)؛ ذاق النضير وقال أمرهم قبل قريظة بسنة^(٢)؛

وذاق قريظة بعدهم وقال أمرهم .

قوله جل ذكره: «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

أَسْكُفْ؛ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ

مَنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» .

أى مثَل هؤلاء المنافقين مع النضير — في وعدهم بعضهم لبعض بالتناصر — كَمَثَلِ

الشيطان «إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ . . .» .

وكذلك أرباب الفترة وأصحاب الزلة وأصحاب الدعوى . . هؤلاء كلهم في درجة واحدة

في هذا الباب — وإن كان بينهم تفاوت — لا تنفع صُحبَتهم في الله؛ قال تعالى: «الْأَخْلَاقُ

يَوْمَئِذٍ بِضَمٍّ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»^(٣) وكلُّ أحدٍ — اليوم — يَأْتِي شَكْلَهُ؛

فصاحب الدعوى إلى صاحب الدعوى، وصاحب المعنى إلى صاحب المعنى .

قوله جل ذكره: «يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ

هَؤُلَاءِ مَا قَدَّمَتْ لِقَدِّهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» .

(١) يرى النسي أن: «مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ إِبْلِيسَ» (النسي ٤ ص ٢٤٣) .

(٢) وكان ذلك عقب مرجع النبي (ص) من الأجزاء؛ ففي رواية عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما رجع النبي (ص) من الخندق، ووضع السلاح واقتتل أثناء جبريل فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعت ما فخرجت اليوم قال: فإني أرى قال: ههنا — وأشار إلى بني قريظة (بخارى ٣ ص ٢٣) .

(٣) آية ٦٧ سورة المزمل .

التقوى الأولى على ذكر العقوبة في الحال والفكر في العمل خَيْرُهُ وَشَرُّهُ (١).

والثقوى الثانية تقوى للرأية والحاسبة ، وَمَنْ لَا حَاسِبَةَ لَهُ فِي أَعْمَالِهِ وَلَا مَرَاقِبَةَ لَهُ فِي أَحْوَالِهِ .. فَصَنَ قَرِيبَ سِتْفَضَح (٢).

وعلمة مَنْ نَظَرَ لِنَدِهِ أَنْ يُحْسِنَ مِرَاعَةَ يَوْمِهِ ؛ وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا فَكَّرَ فِيمَا عَلَيْهِ فِي أَمْسِهِ وَالنَّاسِ فِي هَذَا عَلَى أَقْسَامٍ : مُفَكِّرٌ فِي أَمْسِهِ : مَا الَّذِي قَسِمَ لَهُ فِي الْأَزَلِ ؟ وَآخَرُ مُفَكِّرٌ فِي غَدِهِ : مَا الَّذِي يَلْقَاهُ ؟ وَثَلَاثُ سَتَقِيلُ بِرَقَّتِهِ فِيَا يُلْزَمُهُ فِي هَذَا الْوَقْتُ فَهُوَ مُصْطَلَكٌ عَنْ شَاهِدِهِ مُوَصُولٌ بِرَبِّهِ ، مُنْدَوِّجٌ فِي مَذْكُورِهِ (٣) ؛ لَا يَتَطَلَّعُ لِلْمَاضِي وَلَا الْمُسْتَقْبَلِ ، فَتَوَقَّيْتُ الْوَقْتَ يَشْتَلُهُ عَنْ وَقْتِهِ (٤).

قوله جل ذكره : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

فَأَنسَاهُمْ أَصْحَابُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

تركوا طاعته فَتَرَكَهُمْ فِي الْمَذَابِ ؛ وَهُوَ الْخِذْلَانُ حَتَّى لَمْ يَتَبَرَّأُوا .. أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥).

قوله جل ذكره : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ

الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْفَعْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْوَصْلَةِ .

وَأَصْلُ كُلِّ آفَةٍ نِيَانُ الرَّبِّ ، وَلَوْلَا التَّسْيَانُ لَمَا حَصَلَ النَّصِيَانُ ، وَالَّذِي نَسِيَ أَمْرَ

نَفْسِهِ فَهُوَ الَّذِي لَا يَجْتَهِدُ فِي حَصِيلِ تَوْبَتِهِ ، وَيُسَوِّفُ فِيَا يُلْزَمُهُ بِهِ الْوَقْتُ مِنْ طَاعَتِهِ .

(١) ويكون العبد فيها في مرحلة التوبة (أى قبل المُسْكِر) : فيما دام هناك وورد الثواب أو عقاب أو فكر في حاله أو مآل - فهذا في منازل السالكين دون المرحلة التالية .

(٢) تلعب هذه الإشارة في توضيح الفرق في الاصطلاح بين : المراقبة والحاسبة .

(٣) لأن أقصى درجات الذكر أن يفنى الذّاكر في المذکور ، وقد اعتبرنا الأوصاف أساليب مفعول تمير أ

من فناء الإرادة الإنسانية ، وتجرد العبد من كل فعل في نفسه ولغته .

(٤) ولهذا يقولون : الموصوف ابن وقته ؛ وممتنا أنه مشغل بما هو أول به في الحال ، قائم بما هو مُطَالَبٌ به

في الحين ، مستسلم لما يبدوله من الغيب من غير اختيار له . ومن ساعدته الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت

فالوقت عليه مقت . (الرسالة ص ٣٤) .

(٥) سيهود القشيري لإتمام إشارة هذه الآية به الآية التالية .

قوله جل ذكره : «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ

خَلْطًا مَّزْجًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ

الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ» .

أى لو كان للجبل عقل وصلاح ففكر ويرى ، وأنزلنا عليه هذا القرآن تلخخ وخشخ .

ويموز أن يكون على جهة ضرب المثل كما قال : تكاد السموات يتفطرن منه ^(١) وبدل عليه

أيضاً قوله :

« وتلك الأمثال نضربها للناس » ليقولوا ويهتدوا ، أى بذلك أمرناهم ، وللقصود بيان

قوة قلوبهم عند سماع القرآن .

ويقال : ليس هذا الغلط على وجه الصواب مهم ، بل هو على سبيل المدح وبيان

تخصيصه بإنعام بالقوة ؛ فقال : «لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ» لم يُعَلِّقْ . وتلخخ — وهؤلاء

خصصتهم بهذه القوة حتى أطلقوا سماع خطبى ^(٢) .

قوله جل ذكره : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب

والشهادة هو الرحمن الرحيم » .

« الغيب » : ما لا يُعْرَفُ بالضرورة ، ولا يُعْرَفُ بالقياس من المعلومات ^(٣) . ويقال : هو

ما استأثر الحق بعلمه ، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه .

« والشهادة » : ما يُعْرَفُ بخلق .

وفى الجملة : لا يُعْرَفُ عَنْ عِلْمِهِ مَعْلُومٌ .

(١) آية ٩٠ سورة مريم .

(٢) يتصل هذا بموضوع السماع من الصوفية ، وقد عقد السراج له فصلاً يمتأ في «اللمع» ، ومن أقواله المتصلة بهذه النقطة إلى أنهما القشبرى يقول السراج : ألا ترى أحسن يكون ساكناً فيتحرك ويظهر منه الزفير والشهيق ، وقد يكون من هو أقوى منه ساكناً في وجهه لا يظهر منه شيء من ذلك (اللمع ص ٢٧٥) ويجب الجلبد حين مثل من سكروه وقلة اضطرابه من السماع : وترى الجبال تحبها جامدة وهي تمر من السحاب) .

(٣) أى لا يعرف بالضرورة العقلية ولا بالقياس العقل لأن العقل يستنبط أسكاته من الحواس ، والغيب بعيد عن الحواس ، فلا سبيل لخلق إليه برسائلهم المهدودة وحدها .

قوله جل ذكره : « هو الله القى لا إله إلا هو التليُّ

القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز

الجليل المتكبر سبحان الله عما

يشركون » .

التليُّ : ذو القدرة على الإيجاد .

القدوس : المنزه عن الآفة والنقص .

السلام : ذو السلامة من النقائص ، الذي يسلم على أوليائه ، والذي سلم المؤمنين من عذابه .

المؤمن : الذي يصدق عبده في توحيده فيقول له : صدقت يا عبيد .

والقى يصدق نفسه في إخباره أى يعلم أنه صادق .

ويكون بمعنى المصدق لوعده . ويكون بمعنى الخبير لبيده بأنه يؤمنهم من عقوبته .

المهيمن : الشاهد ، ومعنى الأيمن ، ويقال مؤيمن (مُفَيْل) من الأمن قلبت همزته هاء

وهو من الأمان ، ويقال بمعنى للمؤمن .

العزيز : النالِبُ الذى لا يقبَل ، والذى لا مثيل له ، والمستحق لأوصاف الجلال ،

وبمعنى : المُمِيز لبيده . والتَمَيِّع الذى لا يقْدِرُ عليه أحد .

الجليل : الذى لا تصل إليه الأيدي . أو بمعنى المصلح لأموالهم من : جَزَّ الكَسْر . أو بمعنى

القادر على تحصيل مراده ^(١) مِنْ خَلْقِهِ على الوجه الذى يريد من : جَبَرْتُهُ على الأمر وأجبرته .

المتكبر : المتدَّس عن الآفات .

قوله جل ذكره : « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء

الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض

وهو العزيز الحكيم » .

(١) مكلا ن م ومعنى ن ص (مرات) .

هو الشيء للأعيان والآثار .

« له الأسماء الحسنى » : التسميات الحسان .

« وهو العزيز الحكيم » : مضى معناها ، وقد استقصينا الكلام في معاني هذه الأسماء

(في كتابنا المسمى : « البيان والأحاطة في معاني أسماء الله تعالى »)^(١) .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م وهو موجود في ص . وهذه أول مرة نعرف القشيري كتابها بهذا الاسم فلم يرد ذكره في كتب القهارس والتراجم . وكنا نعلم حتى هذه اللحظة أن القشيري قد عالج دراسة الأسماء والصفات في كتابين فقط أولها : التمييز في التذكير بتحقيق يسوف . والثاني : شرح أسماء الله الحسنى بتحقيق الحلواني .

سُورَةُ الْمَتَّحَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم ملك لا أصل للملكه عند حدّث ولا نسل له ، فَعَنهُ يَرِث . ملك لا يَسْتَعْلِيهِ بِمِيشَرٍ وَعَدَدٌ ، ولا يَتَزَوَّجُ قَوْمٌ وَعَدَدٌ . ملك للعَلَوِ^(١) بِأَجْمِيعٍ — لكنه اختار قوماً — لا لينفخَ بهم — بل لِنَقِيمِهِمْ ، وردّ آخِرِينَ وَأَذْلَمَ بِمَنِيْعِهِمْ وَوَضَعِهِمْ :

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَالًا فِي سَبِيلِ وَاجِدَاءِ مَرْضَاتِي »^(٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : « أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ »^(٣) وَأَوْحَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « عَادِ نَفْسَكَ فَلَيْسَ لِي فِي الْمُلْكَةِ مُنَازِعٌ غَيْرُهَا » . فَنَزَلَ عَادَى نَفْسَهُ قَدْ ظَمَّ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَمَنْ لَمْ يَإِذْ فَهِيَ كَلِمَتُهُ هَذِهِ الْوَصَةُ . وَأَصْلُ الْإِيمَانِ الْمَوَالَاةُ وَالْمَادَاةُ فِي اللَّهِ وَمَنْ جَنَعَ إِلَى الْكُفَّارِ أَوْ إِلَى الْخَارِجِينَ عَنْ دَاوَةِ الْإِسْلَامِ انْحَاذْ إِلَى جَانِبِهِمْ .

(١) حكى في م وهي الصواب أما في م فهي (الحق) وهي عطف من التامع .

(٢) نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة الذي بعث في السر بكتاب مع امرأة يقال لها سارة إلى أهل مكة يحذرون فيه من استعداد النبي لم والقبول للقتال ، فوضعت الكتاب في عقال شرها . ونزل جبريل على الرسول ليخبره بالأمر ، فأرسل في إثرها فرسه ، فالتزموا الكتاب منها .

وحينما هم صر رضى الله عنه يضرب عتق حاطب قال الرسول : وما يدريك يا عبد الله قد اطع كل أهل بدر فقال لم : أصلا ما شئتم قد غفرت لكم ؟ ففاضت عينا عمر ، ونزلت الآية .

(٣) ينظر الصحفية إلى النفس على أنها محل المطالعات (الرسالة ص ٤٨) .

قوله جل ذكره : « وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ فِدْرًا سَوَاءً السَّبِيلِ » .

أنا أعلم « بما أخفيتم » من دقائق التصنع وخفيات الرياء .

« وما أعلّتم » من التزيّن للناس .

« ما أخفيتم » من الاستسار بالزّلة ، « وما أعلّتم » ، من الطاعة والبرّ .

« ما أخفيتم » من الخيانة « وما أعلّتم » من الأمانة .

« ما أخفيتم » من النّيل والنّس للناس ، « وما أعلّتم » من الفضيلة للناس .

« ما أخفيتم » من ارتكاب المخطوآت ، « وما أعلّتم » من الأمر بالمعروف .

« ما أخفيتم » من ترك الحشمة منى وقلة المبالاة بإسلاحي ، « وما أعلّتم » من تعليم الناس وعظهم .

« ومن يفعل منكم فِدْرًا سَوَاءً السَّبِيلِ » قد حاذ عن طريق الدين ، ووقع في الكفر .

قوله جل ذكره : « إِنْ يَنْفَكُوا يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً »

وَيَسْطُلُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ

بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * كَنْ

تَفْعَلُكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ » .

إِنْ يَنْفَكُوا بِكُمْ وَصَادَقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً ، وَلَنْ تَسْلُمُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ بِالسُّوءِ وَلَا مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ وَلَنْ تَكْفُرُوا بِالسُّوءِ .

« وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ » : وَلَنْ يَنْفَكُوا تَوَدُّدُكُمْ وَتَقَرُّبُكُمْ إِلَيْهِمْ ، وَلَا مَا يَنْسِكُمُ وَيُنْهِيهِمْ مِنَ الْأَرْحَامِ . ثُمَّ عِقَابُ الْآخِرَةِ تَذَرِّصُكُمْ ^(١) .

(١) لأنكم حينئذ تكونون قد آمنتم فرائضكم بأحكامكم على حقوق الله .

وكذلك صفة الخائف ، ولا ينبغي للمرء أن يسلّس إلى عشرته — وإن دأبته في قالة ،
ولا أن يندبح بثررها — وإن لا يكتفه في حجة

قوله جل ذكره : « قد كانت لكم أسوة حسنة في

إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا
بركاهم منكم وبما تعبدون من دون الله ،
كفرنا بكم ، وبذا بيننا وبينكم
المداوة والبعضاء أبداً حتى تؤمنوا
بالله وحده . ألا قول إبراهيم لأبيه
لأستغفرن لك وما أمركُ من
الله من شيء . »

أى لكم قدوة حسنة إبراهيم ومن قبله من الأنبياء حيث تبرأوا من الكفار من أقوامهم ؛
فأتدوا بهم .. ألا استغفار إبراهيم لأبيه — وهو كافر — فلا تقتلوا به .
ولا تستغفروا للكفار . وكان إبراهيم قد وعده أبوه أنه يؤمن فذلك كان يستغفر له ،
فكأن تبين له أنه لن يؤمن تبرأ منه

ويقال : كان منافقاً .. ولم يسلّم إبراهيم ذلك وقت استغفاره له .

ويقال : يجوز أنه لم يعلم في ذلك الوقت أن الله لا يغفر للكفار .

والفائدة في هذه الآية تخفيف الأمر على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بثرهم
أن من كانوا قبلهم حين كذبوا بأنبيائهم أهلهم الله ، وأنهم صبروا ، وأنه ينبغي لذلك
أن يكون بالصبر أمرهم .

قوله جل ذكره : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

وإليك المصير . »

أخبر أنهم قالوا ذلك .

ويصح أن يكون معناه : قولوا : « ربنا عليك توكلنا . »

وقد مضى القول في معنى التوكل والإنباء .

قوله جل ذكره : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا
وَافْرِزْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ » .

رَبَّنَا لَا تُفْتِرْهُمْ بِنَا ، وَلَا تُقَوِّمِ عَلَيْنَا .

والإشارة في الآية : إلى الأمر بِسُنَّةِ إِبْرَاهِيمَ فِي السَّخَاءِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ
وَالصَّبْرِ وَكُلِّ خَلْقٍ لَهُ ذِكْرٌ مَا لَنَا .

قوله جل ذكره : « عَسَى أَن يَمَلَ إِلَهُكَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا مِنْهُمْ مُّؤَدَّةً ۖ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۖ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

وقفهم في متنفذ قوله تعالى : « عَسَى اللَّهُ » عند حدِّ التجويز . . لا حُسْكَاءً بِالْقَطْعِ ،
وَلَا دَفْعَ قَلْبٍ بِالْيَأْسِ . . ثُمَّ أَمَرَهُم بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْعِلَاوَةِ وَالْوَلَايَةِ مِنْهُمْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَعَرَفَهُمْ
بَوُقُوعِ الْأَمْرِ حَسَبَ قَدِيرِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَجَرَّ بَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرِيدُ لَهُمْ ، وَصَدَّقَ هَذِهِ التَّرْجِيهَ
بِإِعْلَانِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ عِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَكَيْفَ أَسْلَمَ كَثِيرُونَ ، وَحَصَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
مُؤَدَّةً أَكِيدَةً .

قوله جل ذكره : « لَا يَنبَغِي لَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُبَايِعُواكَ
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكَ مِنْ دِيَارِكُمْ أَن
تَبْرَّهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْقَاسِمِينَ » إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ
قَاتَلُواكَ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكَ مِنْ دِيَارِكُمْ
وَعَلَّاهُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن
تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ » .

أَمَرَهُمْ بِشِدَّةِ الْعِدَاوَةِ مَعَ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَمْلِكُونَهُ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ فِيهِمْ ذَاخِلُونَ حَسَنًا ،

أو كان منه للمسلمين وجبة نفقة أو رقيق - فقد أكرم بالملانة منه . ولورثة قلوبهم شاهد
لهذه الجملة ، فإن الله يحب الرقيق في جميع الأمور^(١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءَكُمْ
لِلْزِينَةِ مَهَابِرَاتٍ فَاصْبِرُوا هُنَّ اللَّهُ
أَعْلَمُ بِالْعِلْمِ إِنَّ عِلْمَهُمْ لَظُهُورٌ مُؤَنَّنٌ
فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكَافِرِ » .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنعهم باليمين ، فيحلفن إن لم يخرجن إلا لله ، ولم يخرجن
مناجاة لأزواجهن ، ولم يخرجن طمعا في مال .

وفي الجملة : الامتناع طريق إلى المعرفة ، وجواهر^(٢) الناس تدين بالصبرية^(٣) . ومن أقدم
على شيء من غير تجربة تمسك كأس الندم .

« وَلَا تَشْكُوا إِلَيْكُمْ الْكَافِرُ »^(٤) .

لا توافقوا من كالت الحق في قليل أو كثير .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتِ
يَمَاجِكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا
وَلَا يَشْرِكْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ
أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ
أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَفْعَلْنَ فِي
مَعْرُوفٍ فَيَأْخُذْنَ وَأَسْتَفِزَّ مَنْ اللَّهُ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله رفيق يحب الرقيق ، ويبلى كل الرقيق مالا يبلى كل البنت » .

(٢) هكذا في من وهي في م (وجواهر) وهي غطاء في التفتيح .

(٣) هكذا في من وهي في م (المعرفة) .

(٤) العصة : ما يتصمم به من عقد وسبب ، والكولفر : جميع كاترة وهي التي بقيت في دار الحرب أولمحت
بدار الحرة ، مرتدة . أتى لا يكون بينكم وبينهن حصنة ولا حلقة زوجية ..

إذا جاءك النسا بيايبتك على الإسلام فطالبيهنّ وشارطنّ بهذه الأشياء :

تَرَكَ الشُّرْكَ ، وترك السرقة والزنا وقتل الأولاد والافتراء في إلحاق النسيب ،
وَأَلَا يَمْسِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ؛ فَلَا يَخَالِفَنَّكَ فِيَا تَأْمُرُهُنَّ بِهِ ، ويدخل في ذلك تَرَكَ النِّبَاحَةِ وشقُّ
الجيوب وَتَتَفُّ الشَّعْرَ عند المصيبة وتَحْمِيشُ^(١) الوجوه والتبرُّجُ وإظهارُ الزينة... وغير ذلك
مما هو من شأْنِ الدِّينِ في الجملة .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَزَكَّرُوا قَوْمًا
غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسَوْنَ مِنَ الْآخِرَةِ
كَأَنَّهُمْ يَتْلُونَ الْقُرْآنَ مِنْ أَصْحَابِ
الْقُبُورِ » .

الذين غضب الله عليهم هم الكفار . ينسوا من الآخرة كما ينس أصحاب القبور أن يعودوا
إلى الدنيا ويُبْعَثُوا (بعد ما تَبَيَّنُوا سوء عقابهم) .

ويقال : كما ينس الكفار حين اعتدوا أن الخلق لا يُبْعَثُونَ في القيامة^(٢) .

(١) خَشَر . أى جرح بغيره .

(٢) هكذا في موهي من (الأنقرة) وكلامها صحيح في السياق .

سُورَةُ الصَّاف

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة مَنْ وقفه الله لمرافقتها لم يصير عن ذكرها بلسانه ثم لا يفتر حتى يصل إلى اللُحَى بها مَحَنَانِهِ : في البداية بتأمل برهانه لمعرفة سلطانه ، ثم لا يزال يزيده في إحسانه حتى ينتهي في شأنه بالتصديق مما هو كَمِيَانِهِ .

قوله جل ذكره : « سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ »

وهو العزيز الحكيم .

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِفَ لَهُ تَسْبِيحَهُ فَلْيَصِفْ قَلْبَهُ مِنْ آثَارِ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِفَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ عَيْشَهُ فَلْيَصِفْ مِنْ أَوْضَارِ ذَنْبِهِ نَفْسَهُ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ

مَا لَا تَعْمَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ

أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ » .

جاء في التفسير أنهم قالوا : لو علمنا ما فيه رضا الله لفعلنا ولو فيه كل جهد . . ثم لما كان يومُ أحدٍ لم يثبتوا ، فنزلت هذه الآية في التتاب^(١) .

وفي الجملة : خلف الوعد مع كلِّ أحدٍ قبيحٌ ، ومع الله أقيح .

وقال إظهارُ التجلُّدِ من غير شهود مواضع الفقر إلى الحقِّ في كلِّ نفسٍ يؤذِنُ بالبقاء عما حصل بالدعوى^(٢) . . . واللهُ يحبُّ التَّوَّابِينَ مِنَ الْخَوَلَاءِ وَالْقَوَّةِ .

(١) قال محمد بن كعب : لما أخبر الله تعالى نبيه (ص) بثواب شهاده بدر قال بعض الصحابة : اللهم اشبه لنا نبينا فقالوا : تَشَبَّهْ بِهِ وَتَسَمَّ . . ففروا يوم أحد ، فغيرهم الله بذلك .

(٢) أي يدعو النفس ؛ تسوَّل له نفسه أن له في الأمر شيئاً ، وأن تدبیره هو الذي مكَّن له .

ويقال : لم يتوعد — سبحانه — زَلَّةٌ يَمْتَلِ ماعلى هذا حين قال : « كبر مقتاً عند الله أن يتولوا مالا تعلمون » (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُلْغِيَانُ مَرْصُوصٍ » .

الحبة تُوجِبُ الإِثْلَ ، وتقدم مُرَادُ حَبِيكَ عَلَى مُرَادِ نَفْسِكَ ، وتقدم محبوب حبيبك على محبوب نَفْسِكَ . فلذا كان الحقُّ تعالى يُحِبُّ من المبدأ أن يُقَاتِلَ عَلَى الوجه الذى ذكره فَتَنْ لَمْ يُؤَيِّرْ محبوبَ الله على محبوب نَفْسِهِ — أى على سلامته — انسلخ من محبته لربه ، وَمَنْ خلا من محبة الله وَقَعَ فِي الشُّقَّ الآخر ، فى خسارته .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

لَمَّا زَاغُوا بِتَرْكِ الْحَدِّ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِقَضِ الْمَهْدِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنْ طَرِيقِ الرُّشْدِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِالصَّدِّ وَالرَّدِّ وَالْبُعْدِ عَنِ الزُّوِّ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا بظواهرهم أَزَاغَ اللَّهُ سرائرهم .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنْ خِدْمَةِ الْبَابِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ التَّشَوُّقِ إِلَى الْبَاسِطِ .

ويقال : لَمَّا زَاغُوا عَنِ الْمُبَادَةِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِرَادَةِ .

قوله جل ذكره : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي »

رسول الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ

التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي

(١) من أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ص) : « أُنِيتُ لَيْلَةَ أُسْرَى . أى على قومهم تُعْرَضُ شَفَاعُهُمْ بِقَارِيضٍ مِنْ نَارِ كَلِمَةٍ تُعْرَضَتْ وَكُنْتُ « تَمَتَّ وَمَالَتْ » قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : « هَؤُلَاءِ نَخِيَاءُ آبَتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ ، وَيَقْرَأُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَلَا يَعْلَمُونَ ، (ابْنُ نَافِعٍ مِنْ حَدِيثِ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ثَمَامَةَ) .

اسمُهُ أَجْدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

بَشَّرَ كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ بَنِيْنًا صَلى الله عليه وسلم ، وأُفِرِدَ اللهُ — سبحانه — عيسى بالذِّكْرِ
في هذا الموضع لأنه آخِرُ نَبِيٍّ قَبْلَ نَبِيْنَا صَلى الله عليه وسلم : فَيَبَيِّنُ بذلك أَنَّ البشارة به عَمَّتْ
جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى انْتَهَتْ بِعيسى عليه السلام .

قوله جل ذكره : « يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ
بَأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ^(١) » .

فَمَنْ احْتَالَ لِيُوهِنَهُ ، أَوْ رَامَ وَهْيَهُ انْكَسَرَ عَلَيْهِ كَيْدُهُ ، وَانْقَضَ عَلَيْهِ تَدْبِيرُهُ .
« وَيَأْتِي اللهُ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ نُورُهُ » : كَمَا قَالُوا :

وَقَدْ سِرُّ فِي عِلَالِهِ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْمَدَى ضَرْبٌ مِنَ الْمَذْبَانِ
كَأَنَّهُ قَالَ : مَنْ تَحَقَّقَ أَنْ يُطْفِئَ نُورَ الْإِسْلَامِ بِكَيْدِهِ كَمَنْ يَحْتَالُ وَيَزُولُ إِطْفَاءَ شِعَاعِ
الشمسِ بِقَفْضِهِ وَتَفْخِخِهِ فِيهِ — وَذَلِكَ مِنَ الْحَالِ .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

لَمَّا قَاعَدَ قَوْمُهُ عَنْ نَصْرِهِ ، وَانْزَعَرُوا لِمُكَذِّبِهِ ، وَجَعَلُوا مَا شَاهَدُوهُ مِنْ صِدْقِهِ
فَيَقْسِمُ اللهُ لَهُ أَنْصَارًا مِنْ أُمَّتِهِمْ : نَزَاعُ الْقِبَائِلِ ، وَالْأَحْزَابِ الْأَفْضَلِ ، وَالسَّاحَاتِ الْأَمَامِلِ ، وَأَفْرَادُ
الْمَنَاقِبِ — فَبَدَّلُوا فِي إِحْدَادِ رَحْمَةِ دِينِهِ مُهْجَتَهُمْ ، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كِرَامَتِهِمْ ، وَوَقَوْه

(١) حكى طحاوي عن ابن عباس : أن القوم حين أبغوا على رسول الله (ص) أربعين يومًا قال كتب ابن الأثير :
يا مشرك اليهود : أبشروا ! فقد ألقا الله نور محمد فيها كان ينزل عليه ، وما كان لهم أمره ؛ فمزن النبي (ص) —
فأقول الله تعالى هذه الآية واتصل الوصل بعدها .

بأرواحهم ، (وأمدكم الله سبحانه بتوفيقه كي ينصروا دينه ، أولئك أقوامٌ عَجَبَ اللهُ
بما السعادة طينتهم ، وخلق من نور التوحيد أرواحهم ^(١)) وأهلكهم يومَ القيامة للسيادة على
أضرابهم .

وقد أرسل الله نبيهَ لدينه مَوْضِعًا ، وبالخلقِ مُنْصَحًا ، ولتوجيهه مُمْلِكًا ، ولجهدِهِ
في الدعاءِ إِلَيْهِ مُسْتَضِرًّا . . . فَأَقْرَعَ بِنُصْحِهِ قُلُوبًا نُكِرًا ، وَبَعَثَ بِنُورِ تَبْلِيغِهِ عِيُونًا
مُعِيًا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

تَجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ *

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

سَمَّى الْإِيمَانَ وَالْجِهَادَ تِجَارَةً لِأَنَّا فِي التَّجَارَةِ مِنَ الرِّبْحِ وَالْخُسْرَانِ وَنَوْعِ تَكْسِبٍ مِنْ

التَّاجِرِ — وَكَذَلِكَ : فِي الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ رِبْحُ الْجَنَّةِ وَفِي ذَلِكَ يَمْتَدُّ الْعَبْدُ ، وَخُسْرَانُهَا إِنْ كَانَ

الْأَمْرُ بِالضَّدِّ .

وقوله : « تَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . » أَيْ فِي ذَلِكَ جِهَادُكُمْ وَإِيمَانُكُمْ وَاجْتِهَادُكُمْ ، وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَّ الرِّبْحَ عَلَى تِلْكَ التَّجَارَةِ مَا هُوَ قَالُ :

« يَنْفِيزُ لَكُمْ دُؤُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ

جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

(١) حاشية بين القوسين ورد في م وسقط في م .

ومساكن طيبة في جنات عدن ذة
القرور العظيم .

قدّم ذكر أهم الأشياء — وهو النفرة . ثم إذا فرغت القلوب عن العقوبة قال :
« ويدخلكم جنات . . . » فيما ذكر الجنة ونعيمها قال : « مساكن طيبة » :
وبهذا تطيب تلك المساكن ؟ لا تطيب إلا بروية الحق سبحانه ، وذلك قالوا :

أجبرنا ما أوحى النار بدمكم إذا غيبتوها ونحن حضوراً
نحن في أكل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
عيب مانع فيه يا أهل ودي أنكم غيبٌ ونحن حضور
قوله جل ذكره : « وأخرى تحبونها : نصر من الله
وفتح قريب وبشر المؤمنين » .
أى ولكم نصر أخرى تحبونها : نصر من الله ؛ اليوم حفظ الإيمان وتثبيت الأقدام
على صراط الاستقامة ، وغداً على صراط القيلة .

« وفتح قريب » : الرؤية والزفة . وقال الشهود . وقال : الوجود ^(١) أبداً الأبد .

« وبشر المؤمنين » : بأنهم لا يقعون عليك في هذا التواصل .

قوله جل ذكره : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله

كما قال عيسى . أين مريم للحواريين

من أنصارى إلى الله ؟ قال

الحواريون : نحن أنصار الله فأمنت

(١) لفظة (الوجود) بالفتح الصواب مقبولة هنا ، ولكننا في ذات الوقت لا نستبعد أن تكون (الخلود)
إشارة إلى قوله تعالى : « خالدون فيها أبداً » .

طائفةٌ من بني إسرائيلَ وكَفَرَتْ
طائفةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

أَيُّ كُونُوا أَنْصَارًا لِدِينِهِ وَرَسُولِهِ كَمَا أَنَّ عِيسَى لَنَا اسْتَمَانَ وَاسْتَنْصَرَ الْحَوَارِيُّينَ نَصْرُوهُ ..
فَانصَرُوا عَمَلًا إِذَا اسْتَنْصَرَكُمْ .

ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ طَائِفَةً مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ آمَنُوا بِعِيسَى فَأَكْرَمُوا ، وَطَائِفَةٌ كَفَرُوا فَأَذَلُّوا ،
وَأَغْفَرَ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ... لَكِنِّي يَهْدِي الرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يُظْفِرُ
أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ .

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسم عزيز إذا تجلّى قلب عبْد بوصفِ جلاله تحمّست أفكاره على بساط جوده فلم يفرّق بسواه^(١) .

وَمَنْ تجلّى لسره بنت جلاله اندرجت جلته ، واستهيك في وجوده فلم يشمر بكرام دنياه ولا بظلم عقابه ..

وكم له من إمام ! وكم له من إحسان ! وكما في أمثالهم : « جرى الوادي ضلم على القرى^(٢) »

قوله جل ذكره : « يُسَبِّحُ فَخَمًا فِي السَّوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

تَسْبِيحٌ في بحار توحيد الحق أسرار أهل التحقيق ، وبخرم بلا شاطئ ؛ فبذل ما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح ، غلّزت أيديهم جواهر التفريد فرصعوها في تاج الرافان كي يلبسوه يوم القاء .

« الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الزَّيْرِ الْحَكِيمِ » .

« اللّك » : للك للفرّد باستحقاق الجبروت .

« الْقُدُّوس » : المُزَّة عن الدرك والوصول : فليس بيد الخلق إلا عرفان الحقائق بنت التملّ ، والتأمل في شهود أضاله ، فأما الوقوف على حقيقة أنيته — قد جلت الصمديّة عن

(١) لاحظ هنا فقه استعمال الاصطلاحين (المجس والفرق) .

(٢) لقرى — مجرى الماء في المروضة والمجس : أقرية وأقراو قرىان ، ويضرب المثل منه تجاوز للشيء .

إشرافٍ عليه ، أو طمعٍ إحدائِك في حالِ رؤيته ، أو جوازِ إحاطةٍ في العلمِ به .. فليس إلا قالة
بلسانِ مُستنطقي ، وحالة بشهودٍ حقٍّ مستغرقٍ (١) :

وَقُلْنَا لَنَا : نَحْمَدُكَ يَا نَحْمَدُكَ لِنَحْمَدُكَ بِحَمْدِكَ وَلَا تَقْرَأُ
قوله جل ذكره : « هُوَالَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ
قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

جرَّده عن كلِّ تَنَكُّفٍ لِنَحْمَدُكَ ، وعن الاصنافِ بِطَلْبِ (٢) . ثم بَعَثَهُ فِيهِمْ وَأَخْلَصَ
عليه من الأوصافِ ما طاق الجميع .

فَكَأَيُّقَمَةٍ فِي الْإِبْتِدَاءِ عَنْ آيَةٍ وَأَمَةٍ ، ثُمَّ آوَاهُ بِطَلْفِهِ — وَكَانَ ذَلِكَ أَلْبَغَ وَأَتَمَّ — فَلَمَّا
كَذَلِكَ أَفْرَدَهُ عَنْ تَنَكُّفِهِ الْمَلَمَّ — وَلَكِنْ قَالَ : « وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ » (٣) .

وَقَالَ : « مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جِئْتَهُ نُورًا » (٤) أَيْسَهُ لَيْسَ
الْعِزَّةُ ، وَتَوَجَّهَ بِتِلْكَ الْكِرَامَةِ ، وَخَلَّجَ عَلَيْهِ حُسْنَ التَّوَلَّى . لَتَكُونَ آثَارُ الْبَشَرِيَّةِ عَنْهُ
مَنْدَرَجَةً (٥) ، وَأَنْوَارُ الْحَقَائِقِ عَلَيْهِ لَأَمَةٌ .

وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَنَا يَلْمُحُوايِهِمْ وَهُوَ
التَّزْيِينُ الْحَكِيمُ » .

(١) هذه لفظة التي كتبها القشيري عن (القنوس) كل جانب كبير من الأهمية ؛ إذ هي توضح : أن الصوفي
هما ارتفع في مدارج الروح لا يستغرق من (الذات) تفجيات الصلابة عن ذلك ، وإنما هو يتحقق من شهود
(القلل) .. ولا شك أن أهل السنة المتفهمين سيجهلون في هذا النص ما يهبطهم نحو الصوفيين وأهله .

(٢) أي ولا تضيف .. والمقصود أن السالكين طريق الله دائماً كل العرب سائرهم وأن الحق سبحانه
لا يقف كل كتبه .

(٣) حتى ينفذ عنه سوء الظن في تلمسه شيئاً من الكتب السابقة ، وأن ما يدعو إليه ثمرة قرائته .

(٤) آية ١١٢ سورة لقمان .

(٥) آية ٥٢ سورة الشورى .

(٦) هي مكملة في ص وفي م مشتقة ، والمقصود لتطوّر عن آثار البشرية — لا البشرية نفسها — وتلوح
عليه أنوار الحقائق .

أى بَيْتَهُ فى الأَمِين ، وفى آخِرِينَ مِنْهُمْ وَهُمُ الْمَجْمُوع ، وَمَنْ بَاقَى ١٠٠ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ ؛ فَهُوَ
صلى الله عليه وسلم مِمِّمُوتٌ إِلَى النَّاسِ كَأَقَّة .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ »
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

يقصد به هنا النبوة ، يؤتيها « من يشاء » ؛ وفى ذلك ردٌّ على مَنْ قال : إنها تُسْتَحَقُّ
لِكثَرَةِ طَاعَةِ الرَّسُولِ — وَرَدُّ عَلَى مَنْ قال : إنها لتخصيصهم بطيئتهم ؛ فَالْفَضْلُ مَا لَا يَكُونُ
مُسْتَحَقًّا ، وَالْاِسْتِحْقَاقُ قَرَضٌ ^(١) لَا فَضْلَ .

ويقال : « فضل الله » هنا هو التوفيق حتى يؤمنوا به .

ويقال : هو الْأَنْسُ بِاللَّهِ ، وَالْبِدْ يُكْنَى كُلُّ شَيْءٍ إِنْما وَجَدَ الْأَنْسُ .

ويقال : قَطَعَ الْأَسْبَابَ ، — بِالْجَلَّةِ — فى اسْتِحْقَاقِ الْفَضْلِ ، إِذَا أَحَالَ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ .

قوله جل ذكره : « مَثَلُ الَّذِينَ هُمَلُوا التَّوَدَّاعَ ثُمَّ لَمْ
يَحْمِلُوها كَتَلٍ الْجَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
يَسْئَلُ مَثَلُ التَّوَمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

« ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها » : ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوا بِهَا .

وَيُلْحَقُ بِهِؤْلَاءُ ^(٢) فى الرَّعِيدِ . — مِنْ حَيْثُ الْإِشَارَةُ — لِلرَّسُولِ ^(٣) بِالْتَّالِيدِ فى أَى

(١) مَكَلًا فى ص و هـ فى م (فرد) وهى خطأ فى النَّسخ ؛ إِذِ الْمَقْصُودُ أَنَّهُ مِنْهُ الْاِسْتِحْقَاقُ فَضْلًا مِنْهُ
لَا (فَرْضًا) عَلَيْهِ ؛ فَلَا وَجُوبَ عَلَى اللَّهِ — كَمَا نَهَى عَنْ مَلَبِ الْقَشِيرِ .
(٢) أَيْ بِالْيَهُودِ الَّذِينَ لَا فَائِدَةَ لَهُمْ فَيُحْمَلُونَ مِنَ الْكُتُبِ ، فَهِيَ تَبْشِيرٌ بِعَذَابِهِ ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ بِهِ .
(٣) مَكَلًا فى ص و هـ فى م (الْمُؤْمِنُونَ) .

معنى شئت : في علم الأصول، ومعاً طريقه أدلة القول، وفي هذه الطريقة (١) بما طريقه
النازلات .

قوله جل ذكره : « قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا^(١) إِنْ زَعَمْتُمْ
أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا
لِلوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *
وَلَا يَتَنَوَّهْ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » .

هذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم ، فَصَرَّفَ قُلُوبِهِمْ عَنْ تَمَتُّيِ الوْتِ إِلَى هذه الدِّةِ
دَلَّ عَلَى صِدْقِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٢) .

ويقال : من علامات الحجة الاشتقاق إلى الحبوب ؛ فإذا كان لَا يَصِلُ إِلَى قَتْلِهِ إِلَّا بِالوْتِ
فَتَمَتِّيهِ — لَا محالة — شرطاً ، فأخبر أنهم لَا يَتَنَوَّهْ أَبَدًا . . وكان كما أخبر .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ بِالوْتِ الَّذِي تَمُرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُتَلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُفْلِسُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ » .

الموتُ حَسْمٌ مُتَقَيٌّ* . وفي الخبر : « مَنْ كَرِهَ قِتْلَهُ اللَّهُ كَرِهَ اللَّهُ قِتْلَهُ » . وبالموتُ جِسْرٌ
والمقصودُ عندَ اللَّهِ . . . وَمَنْ لَمْ يَمِشْ عَفِيقًا فَلَيْمَتْ ظَرْفًا^(٣) .

(١) يقدم طريقة الصولية . .

(٢) أصلاً التاسع في م وجعلها (آمنوا) .

(٣) والآية تؤكِّد هذا مرتين بِلِتِّصَالِ أَلْبُوبِ إِنْشَائِ (فتمتوا) وأسلوب خبري (ولا يتنوه أبداً) .

(٤) مثل الجنيت من الفلوف فقال : « اجتناب كل عَمَلٍ فَنِي وإتصال كل عَمَلٍ سَيِّئٍ » وأن تمل قد تم

لا ترى أنك علمت * (الصح للرجال ص ١٦٢) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

أَوْجِبَ السَّعْيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَأَمَرَ بِتَرْكِ الْبَيْعِ (١) .

.. ومنهم من يحمله على الظاهر ؛ أي ترك المصلحة مع الخلق (٢) ، ومنهم من يحمله عليه وعلى معنى آخر : هو ترك الاشتغال بملاحظة الأعراس (٣) ، والتناسي عن جميع الأغراض إلا ملاحظة الأمر ؛ فمنهم من يسى إلى ذكر الله ، ومنهم من يسى إلى الله ، بل يسمون إلى ذكر الله جهراً يجهرون ، ويسمون إلى الله تعالى سراً بسراً .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قُضِيََتِ الصَّلَاةُ فَانَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَجْنُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

إنما ينصرف من كان له جَنَحٌ يرجع إليه ، أو شغلٌ يقصده ويشغل به .. ولكن .. مَنْ لَا شُغْلَ لَهُ وَلَا مَأْوَى .. فإلى أين يرجع ؟ وإعاقبال : « واجنوا من فضل الله » إذا كان له أَرَبٌ .. فإِذَا مَنِ سَكَنَ عَنِ الْمَطَالِبَاتِ ، وَكَفَى دَاءَ الطَّلَبِ .. فإله واجتباء ما ليس يريدُه ولا هو في رِقَّة ؟

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ كُوزًا أَفْضَرُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَاعًا .. قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ

(١) هكذا في من وهي الصواب حسب الآية ، ولكنها في م (الجميع) .

(٢) هكذا في م وهي في م (الخلق) وهي خطأ في النسخ .

(٣) جميع (مترجمين) الحيات الدنيا .

خَيْرٌ مِنَ الْإِهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ .

مَنْ أَسْرَهُ أَخْطَارُ الْأَشْيَاءِ اسْتَجَابَ لِكُلِّ دَاخٍ جَرَّهَ إِلَيْهِ لَهْوٌ أَوْ سَحْلَةٌ عَلَيْهِ سَهْوٌ
وَمَنْ مَلَكَهُ سُلْطَانُ الْحَقِيقَةِ لَمْ يَنْحَرَفْ عَنِ الْحُضُورِ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ فِي حَالِ الشُّهُودِ . « قُلْ مَا عِنْدَ
اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الْإِهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ » وَمَا عِنْدَ اللَّهِ لِلْمُبَادِ وَالْإِهْوَادِ — غَدًا^(١) — خَيْرٌ مِمَّا^(٢) تَالَوْهُ
فِي الدُّنْيَا قَدَّمَ . وَمَا عِنْدَ اللَّهِ لِلْمَارْفِقِينَ — غَدًا — مِنْ وَارِدَاتِ الْقُلُوبِ وَبَوَادِهِ^(٣) الْحَقِيقَةِ خَيْرٌ
مِمَّا يُؤْكَلُ الْمُسْتَغْنَى^(٤) فِي الدُّنْيَا وَالشُّغَى .

(١) ويجوز أنها في الأصل « غداً » لتقابل « غداً » فهذا تخط في تعبير التشييعي مأخوذ ، ومع ذلك فالوجه
(غداً) .

(٢) هكذا في ص وهي في م (من) والصواب (ما)

(٣) الإيواد ما يفيض قلبك من الغيب على سبيل الوعدة ، وهي إما موجبات فرح أو موجبات ترح ، ومادات
الوقت لا تغيرهم اليوادة ، لأنهم فوق ما يفيضهم حالاً وقوة (الرسالة - ص ٤٤) .

(٤) موجودة في م وغير موجودة في م وهي ضرورة للسياق ، والمسلط : هو المراد الميطع الذي مازال
يفكر في الصواب الآجل والشراب العاجل .

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » اسم مَنْ تَحَقَّقَ بِهِ صِدْقَ قَوْلِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَعْمَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَخْلَاقِهِ
ثُمَّ صَدَقَ فِي أَحْوَالِهِ ، ثُمَّ صَدَقَ فِي أَغْلَاهِ (١) .. فَصِدْقُهُ فِي الْقَوْلِ لَا يَقُولُ إِلَّا عَنِ بَرَاهِنٍ ،
وَصِدْقُهُ فِي الصَّلَاةِ لَا يَكُونُ لِيَدْعُوَ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَخْلَاقِ لَا يُلَاحِظُ إِحْسَانَهُ
مَعَ الْكَافَّةِ بَيْنَ النَّفْسَانِ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَحْوَالِ أَنْ يَكُونَ عَلَى كَيْفٍ وَبَيَانٍ ، وَصِدْقُهُ فِي الْأَغْلَى
أَلَّا يَنْفَسَ إِلَّا عَلَى وَجْهِ كَالْبَيَانِ (٢) .

قوله جل ذكره : « إِنَّا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ
إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ » .

كَذَّبَهُمْ فِيمَا قَالُوا وَأُظْهِرُوا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَشْهَدُوا عَنْ بَصِيرَةٍ وَلَمْ يَسْتَقْبَلُوا تَصْدِيقَكَ ، فَهُمْ لَمْ
يَكْذِبُوا فِي الشَّهَادَةِ (٣) . وَلَكِنْ كَذَّبَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : « إِنَّمَا مَخْلُصُونَ لَكَ ، مُعَذِّقُونَ لَكَ .
فَصِدْقُ لِقَائِكَ لَا يَضَعُ مَعَ قُبْحِ الْحَالَةِ .

(١) مَكْنَاهُ فِي صَوْنٍ مِنْ قَوْلِهِ (الْمُنَافِقُونَ) وَالصَّوَابُ مَا أَتَيْنَا بِهِ لَوْلَا مَا بَيَّنَّاهُ .

(٢) لَاحِظْ هَذَا كَيْفَ تَتَقَرَّرُ الْبَسْمَلَةُ مَعَ السِّيَاقِ الْقَائِمِ لِلْمُورَةِ .

(٣) أَيْ تَقْرِيرُهُمْ أَنَّ عَصَا رَسُولِ اللَّهِ حَقِيقَةٌ لَيْسَ فِيهَا كَذِبٌ ، فَمِنْ حَيْثُ الظَّاهِرُ أَنَّ نَظْمَ الْبَسْمَلَةِ بِالْمُصَدِّقِ ،
وَلَكِنْ الْكَلْبُ كَامِنٌ فِي الْقَلْبِ .

ويقال : الإيمان ما يوجب الأمان ؛ فالإيمان يوجب المؤمن إذا كان عامياً خلاصاً من المذاب أكثره وأقله .. ألا ما ينقله من (أعلى) ^(١) جهنم إلى أسفلها .

قوله جل ذكره : « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا

عن سبيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَمْلِكُونَ » .

تَسْتَرُّوا بِأَيْمَانِهِمْ ، وَتَكْتُمُوا بِفَنَائِهِمْ عَنْ أَسْأَرِهِمْ فَاتَّضَحُّوا ، وَذَاقُوا وَبَالَ أَعْرَابِهِمْ .

قوله جل ذكره : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغِيَ

عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » .

استضاءوا بنور الإجابة فلم يَتَبَسَّطْ عليهم شعاعُ السعادة ، فانطلق نورهم بفتح الحرمان ، وبقوا في ظلمات القسمة الساجدة بحكم الشقاوة .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

وَلِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ

مُسْنَدَةٌ يَحْبُوبُونَ كُلٌّ صِيعَةٌ عَلَيْهِمْ

مِ الْمَدُونِ فَاحْذَرْتُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى

يُؤْفَكُونَ » .

أى م أشباح وقوالب وليس وراءهم ألب وحقائق — فاجلوز ^(٢) الفارغ مزين ظاهريه ولكنه للعب الصبيان ^(٣) .

« يحسبون كل صيحة عليهم .. » وذلك لجبنهم ؛ إذ ليس لهم اهتمام بربهم ، ولا استقلال بنيرهم .

(١) سقطت (أعلى) من النسخ في م وهي موجودة في ص .

(٢) هكذا في م وهي في ص « الخوش » وقد رجعت الأولى .

(٣) في هذه الإشارة تنبيه إلى قاعدة صوفية ؛ أن البيرة بمقتضى الأرواح لا يظهر الأشباح (بى الأجساد) .

« م المدؤ فاحذرهم » م عدو لك — يا محمد — فاحذرهم ، ولا يَمُرَّكَ تَبَطُّمُ
في الكلام على وجه التودد والتعريب .

قوله جل ذكره : « وإنا قيل لهم تَأَلَّوا يَسْتَفْزِرْ لَكُمْ
رسولُ الله قَوَّارًا وَسَمِمْ وَرَأَيْتَهُمْ
يَصُدُّونَ وَمِمْ مُسْتَكْبِرُونَ » .

سموا إلى ما يقال لهم على وجه التكبر ، وإظهار الاستفناء عن استفادتهم . . . نَقَلَ
سَبِيلَهُمْ ؛ فليس الفصح فيهم مسلخ ، ولن يُصَحِّحَهُمْ مِنْ سَكْرَتِهِمْ إِلَّا آخَرُ مَا سَبَقُوهُ مِنَ الْقُوَّةِ ،
فأدام الإصرارُ من جانبهم فيهم :

« سؤالا عليهم أَسْتَفَرَّتْ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَفْرِ لَهُمْ لَنْ يَنْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنْ اللهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

قد سبق المِلمُ بذلك :

قوله جل ذكره : « م الذين يقولون لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ
عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَقَّ يَنْفِقُوا وَقَدْ
خَزَّائِنُ^(١) السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
لِلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » .

كانهم مربوطون بالأسباب ، محجوبون عن شهود التقدير ، غير متحققين بصريفة الأيام ،
فَأَتَقَطَّعَهُمْ بِمَا خَافَ قُلُوبَهُمْ مِنْ تَمَسُّقِ انْقِطَاعِ نُورِ رَسُولِ اللهِ ، وَاتَّسَكَثَ شَلِيمُهُمْ ، فَتَوَاصَوْا فِيمَا بَيْنَهُمْ
قوله : « لَا تَنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ » قَالَ تَالَى « وَقَدْ خَزَّائِنُ السَّمَوَاتِ . . . » .
وليس استقلالك — يا محمد — ولا استقلالُ أصحابك بالمرزوقين . . بل بالرازي ؛ فهو
الذي يَسْكَبُكُمْ .

(١) « وقد خزان السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » بهذا أجاب كثيرون من أبواب الطريق كحاتم الأصم والجنيدي والشبل
عندما كانوا يسأل أحدهم : من أين تأكل ؟

قوله جل ذكره : « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الدِّينِ
لَنُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » وَفِيهِ الْبُرْهَانُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ .

إنما وقع لهم التلطُّ في تعيين الْأَعَزِّ وَالْأَذَلِّ ؛ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ الْأَعَزَّ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْأَذَلُّ هُمُ
الْمُسْلِمُونَ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ بِالْعَكْسِ ، فَلَا يَجُزُّ غَلَبَ الرِّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ ،
وَأَذَلَّ الْمُنَافِقُونَ بقوله : « وَفِيهِ الْبُرْهَانُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » : فَهُوَ عِزُّ الْإِلَهِ ، وَلِلرَّسُولِ عِزُّ النَّبِيِّ ،
وَالْمُؤْمِنِينَ عِزُّ الْوَلَايَةِ . وَجَمِيعُ ذَلِكَ فَهُوَ ؛ فَمِيزَةُ الْقَدِيمِ صِفَتُهُ ، وَعِزُّ الرِّسُولِ وَعِزُّ الْمُؤْمِنِينَ
لَهُ فِعْلًا وَصِفَةً وَفَضْلًا ، فَلِذَا فَهُوَ الْبُرْهَانُ جَمِيعًا .

وَيَقَالُ : كَأَنَّ عِزَّةَ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — لَا زَوَالَ لَهَا فَمِيزَةُ الْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّ لَا عِزَّ لَهُمْ ،
وَمِيزَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلَّا يَتَّقَى مِنْهُمْ مَخْلُودٌ فِي النَّارِ .

وَيَقَالُ : مَنْ كَانَ إِيمَانُهُ حَقِيقًا فَلَا زَوَالَ لَهُ .

وَيَقَالُ : مَنْ تَمَرَّدَ بِاللَّهِ لَمْ يَلْحَظْ تَمَيُّزًا عَنْ حَالِهِ بِغَيْرِ اللَّهِ .

وَيَقَالُ : لَا عِزَّ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَلَا ذُلَّ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . . وَمَا سَوَى هَذَا
فَلَا أَمَلَ لَهُ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُوا
أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ » .

لَا تُضَيِّعُوا أُمُورَ دِينِكُمْ بِسَبَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ بَلْ آتَمَرُوا حَقَّ اللَّهِ ، وَاشْتَغَلُوا بِهِ
يَكْفِيكُمْ أُمُورَ دُنْيَاكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ ؛ فَلِذَا كُنْتُ فَهُوَ كَانَ اللَّهُ لَكُمْ (١) .

(١) لَطَفَ مَا قُلْنَا فِي مَعْنَى هَذَا الْكِتَابِ بِأَنَّ الْقَشِيرِيَّ نَفْسَهُ قَدْ ضَرَبَ الْمَثَلَ عَلَى ذَلِكَ حِينَ هَاجَرَ مِنْ بَلَدِهِ
نَارُكَ أَمَلَهُ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ حِينَ تَمَرَّدَتْ طَبِيعَتُهُ السَّخِيَّةَ .

وقال : حن الله ما أؤمك الصيام به ، وحقق ضمن لك التيام به ؛ فاشنل بما كلفت
لا بما كنيت .

قوله جل ذكره : « وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ لِلْوَيْ قِيُولَ رَبِّ

لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ

وَأَكُنُّ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

لَا تَمْسِكُوا بِسُلَآمَةِ أَوْفَاتِكُمْ ، وَتَرَقَّبُوا بِنَتَاتِ آجَالِكُمْ ، وَتَاهَبُوا لِمَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ

مِنَ الرِّحَالِ ، وَلَا تَمُرَّجُوا فِي أَوْطَانِ التَّسْوِيفِ .

سُورَةُ التَّغَابُنِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

«بِسْمِ اللَّهِ..» كلمةٌ عزِزةٌ مَنْ ذَكَرَهَا بِحَاجٍ إِلَى لِسَانٍ عَزِيزٍ فِي النِّيَّةِ لَا يُبْتَدَلُ، وَفِي ذِكْرِ الْأَعْيَارِ لَا يُتَمَتَّلُ. وَمَنْ عَزَّنَهَا بِحَاجٍ إِلَى قَلْبٍ عَزِيزٍ لَيْسَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ خَلِيطٌ، وَلَا فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ زَبِيطٌ .

قوله جل ذكره: «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْكَوْكُبُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا بِحَمْدِهَا اللَّهُ سَبْعَانِ مَسْبُوحَةٌ . . . وَلَكِنْ لَا يَسْمَعُ تَسْبِيحَهَا مَنْ بِهِ طَرَشُ النُّكْرَةِ . .

وَيَقَالُ: الَّذِي طَرَأَ صَمُّهُ قَدْ يَرْجَى زَوَالَهُ بِنَوْعِ مَعَالِجَةٍ، أَمَّا مَنْ يُؤَلِّدُ أَصَمًّا فَلَا حِيلَةَ فِي تَحْصِيلِ سَمَاعِهِ. قَالَ تَعَالَى: «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى» ^(١) وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ» ^(٢).

قوله جل ذكره: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فِيكُمْ كَافِرًا وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» .

مِنْكُمْ كَافِرٌ فِي سَابِقِ حُكْمِهِ سَمَّاهُ كَافِرًا، وَعَلِمَ أَنَّهُ يَكْفُرُ وَأَرَادَ بِهِ الْكَفْرَ... وَكَذَلِكَ

(١) آية ٥٢ سورة الروم .

(٢) آية ٢٣ سورة الأنفال .

كانوا . ومنكم مؤمن في سابق حكمه سبحانه مؤمنا ، وعلم في آزاله أنه يؤمن وخلق مؤمنا ، وأراد مؤمنا . . والله بما تعملون بصير .

قوله جل ذكره : « خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ الْخَلْقُ

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ

لِلصِّرُ » .

« خلق السموات والأرض بالخلق » : أى وهو مُخَيَّرٌ فِي خَلْقِهِ .

« وصوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ » لم يَقُلْ لشيء من المخلوقات هذا الذى قال لنا ، صُورَ الظاهرَ

وصُورَ الباطن ؛ فالظاهر شاهد على كمال قدرته ، والباطن شاهد على جلال قربته ^(١) .

قوله جل ذكره : « يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم

ما تُسرُّون وما تُعلنون والله عليمٌ

بذات الصدور » .

قَصَرُوا حَيْثُكُمْ عَنْ مَطْلُوبِكُمْ ، فهو تتناصر عنه علوكم ، وأنا أعلم ذلك دونكم . .

فاستبوا مئى ، فأنا بذلك أعلم ، وعليه أقدر .

ويقال : « ويعلم ما تُسرُّون » . فاحذروا دقيق الرياء ، وخفى ذات الصدور « وما تعلنون » :

فاحذروا أن يخالف ظاهركم باطنكم .

في قوله « ما تُسرُّون » أمرٌ بالراقية بين العيد وربه .

وفي قوله « ما تعلنون » أمرٌ بالصدق فى المعاملة والمحاسبة مع الخلق ^(٢) .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَأْنِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهم وَهُمْ عَذَابٌ

(١) - القربة هنا إشارة إلى تميز الإنسان من بين المخلوقات بقيام المحبة بمنهاها الخامس بينه وبين الحق سبحانه ، وقد سبق بيان ذلك في مواضع مختلفة .

(٢) - مرة أخرى ننبه إلى ضرورة فهم الفرق بين اصطلاحى : الراقية والمحاسبة -- حسب المنهج التبشيري .

ألم • ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلهم
باليُنُسِ قالوا أَأَبْشَرَ يَهْدُونَا
فكفروا وتولَّوا وأسْتَغْنَى اللهُ واللهُ
غنيٌ عنيذٌ .

للراد من ذلك هو الاعتبار بِمَنْ سَلَفَ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ عَثَرَ فِي مَهْوَاةٍ مِنَ الْأَمَلِ ،
ثُمَّ لَا يَنْتَبِشُ إِلَّا بِدَفْعِ الْأَمْرِ مِنْ يَدِهِ .

« ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم .. » . شاهدوا الأمر من حيث اغلُظي فطَوَّحُوا
في متاهاتِ الإشْكَالِ الخَفِيَّةِ الْأَحْوالِ . ولو نظروا بين الحقيقة لَتَصَلَّصُوا مِنْ فَرَقَةِ الْأَبْطَالِ ،
وَاسْتَرَحُوا بِشُهُودِ^(١) التَّضْيِيرِ مِنْ اخْتِلَافِ الْأَحْوالِ ذَاتِ^(٢) التَّنْضِيرِ .

قوله جل ذكره : « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَنْبِئُهُمْ
قُلُوبُ : عَلَى وَرْدٍ كَتَبْنَاهُمْ ثُمَّ لَنْ نُنَبِّئَهُمْ
بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . »

لِلرَّادِ نُوعَانٌ : مَوْتُ نَفْسٍ ، وَمَوْتُ قَلْبٍ ؛ فَمَنْ الْقِيَامَةُ يُبْعَثُونَ مِنْ مَوْتِ النَّفْسِ ، وَأَمَّا
مَوْتُ الْقَلْبِ فَلَا يَبْثُ مِنْهُ — عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ مَخْطِئِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ ، قَالَ تَالِي مُخْبِرٌ عَنْهُمْ : « قَالُوا
يَا وَيْلَانَا مَنْ بَسَّنَا مِنْ مَرَدِّ نَا ؟ »^(٣) فَلَوْ عَرَفُوهُ كَمَا قَالُوا ذَلِكَ ؛ فَوَيْتُ قُلُوبِهِمْ مُسَرَّمَةٌ إِلَى
أَنْ تُصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرْورِيَّةً ، فَهَذَا الْوَقْتُ وَقْتُ مَوْتِ قُلُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : « قَامَتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي
أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » .

« النور الذي أنزلنا » : الْقُرْآنُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا أُنْزِلَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السَّكِينَةِ
وَفَنُونِ الْأُلُفَّافِ .

(١) هَكَذَا فِي صِرَ وَصِي فِي م (مِنْ يَهُودٍ) وَصِي خَطَأً مِنَ النَّاسِخِ .

(٢) فِي الْقِسْمَيْنِ (خَرَى) وَهَذَا رَأَيْنَا أَنْ تَكُونَ (ذَاتِ) أَوْ (فِرَاتِ) .

(٣) آيَةُ ٥٢ سُورَةِ يَس ، وَالْفَرْقُ وَاضِحٌ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ وَبَيْنَ مَا قَالَهُ أَصْحَابُ الْكَهْفِ الْمُؤْمِنُونَ .

قوله جل ذكره: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ

يَوْمُ التَّنَائُفِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ

صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

للطَّيْعِ — يومئذٍ — في غيب لأنه لم يستكثر من الطاعة ، والعاصي في غيب لأنه استكثر من الزَّلا^(١) .

وليس كلُّ الغيبِ في تفاوت الدرجات قلَّةً وكثرة ، فالتين في الأحوال أكثر .

قوله جل ذكره: « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَأْتِيهِ اللَّهُ

وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

أَيُّ حَمَلَةٍ حَصَلَتْ فَرِنَ قَبْلَهُ خَلَقًا ، وبطله وإرادته حُكْمًا .

وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ إِلَى اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى — (اليوم — وفي الآخرة يهديه إلى الجنة .

ويقال : « يَهْدِي قَلْبَهُ » لِلْإِخْلَاقِ السَّيِّئَةِ ، وَالتَّنَقُّيِّ مِنْ شُعْ النَّفْسِ .

ويقال : « يَهْدِي قَلْبَهُ » لِاتِّبَاعِ السُّنَنِ وَاجْتِنَابِ الْبِدْعَةِ .

قوله جل ذكره: « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا

الْبَلَاغُ لِلْبَيِّنِ » .

(١) قال بعض الصوفية: إن الله كتب التين على الخلق أجبين ، فلا يلقى أحدٌ ربه إلا منوبًا ؛ لأنه لا يمكنه الاستغناء للسل حتى يحصل له استغناء الخواب ، وفي الأثر قال النبي (ص) : « لا يلقى الله أحدٌ إلا ناسًا إن كان مسيئًا إن لم يحسن ، وإن كان حسنًا إن لم يزدده للقرطبي ح ١٨ ص ١٢٨ .

طاعةُ الله واجبَةٌ ، وطاعةُ الرُّسُلِ — الذين هم سفراءُ بينه وبين الخلقِ — واجبَةٌ كذلك . والأمرُ الذي تظهرُ عليك ^(١) وتطالبُ بمقتضاها كلها حقٌّ ، ومن الحقِّ . . فنهج طاعتها أيضاً .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوا ، وَإِنْ تَفَرَّقُوا وَتَصَفَحُوا وَتَفَرَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

إذا دَعَوْتُكَ لَتَجْمَعَ لِمُ الدُّنْيَا فَهَمَّ عَدُوُّكَ ، أَمَا إِذَا أَخَذْتُمْ مِنْهَا عَلَى وَجْهِ الْغَفَا ^(٢) قَلْبُوا لَكُمْ أَعْدَاءُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

« فِتْنَةٌ » : لأنهم يشغلونكم عن أداء حقِّ الله ؛ فَمَا تَبَيَّنَ عَنِ اللَّهِ مَشْغُولًا بِجَمْعِهِ فَهُوَ غَيْرُ مَيَّوْنٍ عَلَيْكَ .

ويقال : إذا جَمَعَتِ الدُّنْيَا لِنَافِعِ وَجْهِهِ فَإِنَّكُمْ تُشْغَلُونَ بِذَلِكَ عَنْ أَدَاءِ حَقِّ مَوْلَاكُمْ ، وَتُشْغَلُكُمْ أَوْلَادُكُمْ ، فَحَقُّونَ بِهِمْ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ — وَتِلْكَ فِتْنَةٌ لَكُمْ . . تَرْمُونَ لِإِصْلَاحِهِمْ . فَتُضَلُّونَ أَنْتُمْ وَهُمْ لَا يَصْلَحُونَ ۖ .

قوله جل ذكره : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(١) الخطاب هنا موجَّهٌ إلى سُلُوبِ الْأَحْوَالِ وَالْكَشُوفَاتِ .

(٢) مَتَّ حَقَّةً وَغَفَاً أَيَّ كَفَّ عَمَّا لَا يَمَلُّ وَلَا يَجْمَلُ . وَيُقَالُ : مِمَّ أَعْفَى لِفَقْرٍ ، أَيْ : إِذَا انْفَقَرُوا لِأَيَّامِهِ . (الرسيد) .

أى مادتم فى الجلة مستطيعين ويتوجه عليكم التكليف فاتقوا الله . والتقوى عن شهود
التقوى بعد ألا يكون تصير فى التقوى غاية التقوى .

« ومن يوق شح نفسه » حتى ترفع الأخطار^(١) عن قلبه ، ويصبر من ريق الكونيات ،
فأولئك هم الناجون .

قوله جل ذكره : « إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه
لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلیم . »

يتوجه بهذا الخطاب إلى الأغنياء ليبدل أموالهم ، ولتقراء فى إخلاء ألامهم وأوقاتهم من
مراداتهم وإثارة مراد الحق على مراد أنفسهم .

فالنقطة يقال له : آثر حكمة على مرادك فى مالك ، والنفير يقال له : آثر حكمة
فى نفسك وقلبك ووقتك وزمانك .

« عالم النيب والشهادة المميز الحكيم » .

جل شأنه .

(١) المقصود بالأخطار هنا : حجاب أن الله أمية وشافى .

سُورَةُ الطَّلَاقِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ مَنْ لاسْبِيلَ إِلَى وَصَالِهِ ، وَلَا غُنْيَةَ — فِي غَيْرِهِ — عَنْ رُفْعِهِ ، اسْمٌ مَنْ عَلِمَهُ وَقَعَ فِي كُلِّ سَكُونٍ وَرَاحَةٍ ، اسْمٌ مَنْ عَرَفَهُ وَقَعَ فِي كُلِّ اضْطِرَابٍ وَإِطْلَاحَةٍ^(١) ، الْعِلَادَةُ بِرَأْبِ عَلَيْهِمْ اسْتَقَلُّوا فَاسْتَرَحَوْا ، وَالْعَارِفُونَ بِطُلُوعِ حُكْمِهِ اضْطَلُّوا عَنْ شَوَاهِدِهِمْ .. فَيَادُوا وَطَلَحُوا .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ

فَطَلَّقُوهُنَّ لِذَوِّهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

وَأَقْبُوا اللَّهَ رِيبَكُمْ ... » .

الطَّلَاقُ — وَإِنْ كَانَ فَرَاقًا — فَلَمْ يَحْصِ الْحَقُّ مَحْضُورًا ... وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ مَكْرُوهٍ .

وَالطَّلَاقُ وَقْتِيَّةٌ^(٢) : سُنَّةٌ وَبَدْعِيَّةٌ ، وَمِبَاحَةٌ ، لَا سُنَّةٌ وَلَا بَدْعِيَّةٌ ؛ فَالسُّنَّةُ : أَنْ تَطْلُقَ فِي طَهْرٍ لَمْ تُبَاشِرْ فِيهِ طَلَقَةً وَاحِدَةً ، وَالدَّبْعِيَّةُ : فِي حَالِ الْخِيضِ وَطَهْرٍ جُمِعَتْ فِيهِ ، وَالدَّبَاحَةُ : فِي طَهْرٍ مَدَّ حَيْضٌ ثُمَّ يَطْلُقُهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْمَعَهَا^(٣) — وَالطَّلَاقُ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدَةٍ .

(١) إطلاحة إطلاعة أي أفناه وأذهب .

(٢) أي وجوه مرتبطة بأوقات خاصة . روى المارغني عن ابن عباس قال : الطلاق على أربعة وجوه : وجهان حلالان ووجهان حرامان : فأما الحلال فأن يطلقها طاهرًا من غير جماع ، وأن يطلقها حاملاً مستقبلاً حملها . وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض ، أو يطلقها حين جماعها لا تدرى اشتد الرحيم على ذلك أم لا .

(٣) قال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر طلق امرأته حائضاً تطليقة واحدة ، فأمره رسول الله (ص) بأن يراجعها ثم يسكنها حتى تطهر ويحيض ثم تطهر ، فلما أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر — من قبل أن يجلسها . ويقال : إنها نزلت في أساء بنت يزيد بن السكن الأنصارية .. فلم يكن قبلها لسلطة حدثة ، وحين طلقت مل عهد النبي (ص) طلقت بالعدة (مكثاً في كتاب أبي داود) .

وَالْمِدَّةُ — وإن كانت في الشريعة لتحصيل ما الزوج (حاملة على الأنساب) ^(١) تلتا يدخل على ما الزوج ما آخر — فالنائب والأقوى في معناها أنها للوفاء للصحة الماضية في وصلة النكاح ^(٢).

والإشارة في الآيات التالية إلى أنه بعد أن انتهت الوصلة فلا أقل من الوفاء مدة لهذه الصنيرة التي لم تحض، وهذه الآية من الحيض، وتلك التي اقطع خيضاها، والخيل حتى تلد... كل ذلك مراعاة للحرمة: وعدة الوفاة تشهد على هذه الجملة في كونها أطول؛ لأن حرمة لليت أعظم ^(٣) وكذلك الإمداد في أيام المدة... للنفي فيه ما ذكرنا من مراعاة الوفاء والحرمة.

قوله جل ذكره: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَسَدَّ ظِلْمَ نَفْسِهِ».

المبودية: الوقوف عند الحد، لا بالتقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده..

«لا تدرى لعل الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً».

قالوا: أراد ندماً، وقيل: ولعناً، وقيل: مثيلاً إليها، أولها إليه؛ فإن التوب

تقلب:

والإشارة في إباحة الطلاق إلى أنه إذا كان الصبر مع الأشكال حثاً للحرمة المتقدمة فانحلاص من مسأكة الأمثال، والتجرد لعبادة الله تعالى أولى وأحق.

قوله جل ذكره: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً»

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ».

(١) موجودة في ص وغير موجودة في م.

(٢) القشيري يركز جهده في استخراج إشارات في الصحة والخاصة وغير ذلك من المعاني من آيات الطلاق — غير مهم بتفاصيل هذا الموضوع الواسع الذي تنفي به كتب الفقه المتخصصة.

(٣) يقول القشيري في الصفحة ١٨٨ من المجلد الأول من هذا الكتاب: كانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام ستة شهور كقول العرب؛ وفيهم، ثم تُسح ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام؛ إذ لا بد من انتهاء مدة الحداد. «والمطلقات متاع بالمعروف» والإشارة فيه ألا يجسموا عليهن الفراق والحرمان فيضاض عليهن البلاء.

إِذَا صَدَقَ الْبِدْ فِي تَوَاهٍ أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَشْغَالِهِ كَالشَّمْرِ تُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْعِجِينَ لَا يَمْلِكُ
بِهَا شَيْءٌ - وَيَضْرِبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُتَّقِينَ سَرَادِقَاتٍ عَنَابِيَهُ ، وَيُدْخِلُهُ فِي كَنْفِ الْإِبْرَاءِ ،
وَيَصْرِفُ الْأَشْفَالَ عَنْ قَلْبِهِ ، وَيُخْرِجُهُ مِنْ ظِلْمَاتِ تَدْيِيرِهِ ، وَيُجَرِّدُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، وَيَنْقُلُهُ إِلَى
شُهُودِ فُضَاءٍ تَقْدِيرِهِ .

قوله جل ذكره : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » .
لم يقل : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْهُ حَسْبُهُ ، بل قال : فهو حَسْبُهُ ؛ أى فَاغْنَاهُ حَسْبُهُ
أى كَانِيَهُ .

« إِنْ اللَّهُ بِأَلْعِ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا » .

إِذَا سَبَقَ لَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّيْدِيرِ فَلَا مَحَالَةَ يَكُونُ ، وَتَوَكَّلْهُ لَا يَتَغَيَّرُ الْمُتَدَوِّرُ وَلَا يَسْتَأْخِرُ ،
وَلَكِنَّ التَّوَكَّلَ بِنِْيَانِهِ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْبِدْ مُرَوِّحَ الْقَلْبِ غَيْرَ كَارِهِ .. وَهَذَا مِنْ أَجْلِ النَّعْمِ .
قوله : « وَاللَّائِي يَتَّبِعْنَ مِنْ الْحَيْضِ » ... إِلَى قَوْلِهِ :
« يَحْمِلُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا » .

التَّوَكَّلُ : شُهُودُ نَفْسِكَ خَارِجًا عَنْ أَمْنَةِ^(١) تَجَرُّى عَلَيْكَ أَحْكَامُ التَّيْدِيرِ مِنْ غَيْرِ تَدْيِيرٍ مِنْكَ
وَلَا أَطْلَاعٍ لَكَ عَلَى حُكْمِهِ ، وَسَبِيلُ الْمَهْدِ الْمَحْمُودُ وَالرَّضَا دُونَ اسْتِعْلَامِ الْأَمْرِ ، وَفِي الْخَبَرِ :
« أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ » : وَمِنْ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَنْفَعُ - وَيَجِبُ أَنْ نَسْتَعِيذَ مِنْهُ - أَنْ يَكُونَ
لَكَ شُغْلٌ أَوْ يَسْتَبْكُكَ مُهِمٌّ مِنَ الْأَمْرِ وَيُشْتَبِهُ عَلَيْكَ وَجْهُ التَّيْدِيرِ فِيهِ ، وَتَكُونُ مُعَالِيَةً
بِالتَّوْفِيقِ - فَقَلْبُكَ الْعِلْمُ وَتَعْنِيكَ أَنْ تَعْرِفَ مَتَى يَصِلُحُ هَذَا الْأَمْرُ ؟ وَلِأَيِّ سَبَبٍ ؟ وَمِنْ
أَيِّ وَجْهِ ؟ وَعَلَى يَدِ مَنْ ؟ ... كُلُّ هَذَا تَخْلِيْطٌ ، وَغَيْرُ مُسْلِمٍ شَيْءٌ مِنْهُ لِأَكْبَرِ .

فَيَجِبُ عَلَيْكَ السَّكُونُ ، وَحُسْنُ الرِّضَا . حَتَّى إِذَا جَاءَ وَقْتُ الْكَشْفِ فَتَسْتَرَى صُورَةَ
الْحَالِ وَتَعْرِفَهُ ، وَرَبَّمَا يَنْتَظِرُ الْبِدْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَعْرِيفًا فِي النَّعْمِ أَوْ يَنْظُرُ فِي (...) (٢) مِنَ الْجَامِعِ ،

(١) السُّنَّةُ بِضَمِّ الْمِيمِ هِيَ مَا فِي إِمْكَانِ الْإِنْسَانِ وَجْهَهُ وَاسْتِطَاعَتَهُ .

(٢) مُشْتَبِهَةٌ فِي التَّحْقِينِ .

أو يرجو بيان حاله بأن يجري على لسان مستطلق في الوقت . . كل هذا ترك للأدب ، والله لا يرضى بذلك من أوليائه ، بل الواجب السكون .

قوله جل ذكره : « لَيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ، وَمَن قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا » .

إذا اتسع رزق العبد صلى قدر المسكن يطالب بالإعطاء والنفقة فمن قدر عليه رزقه — أى ضيق — فلينفق مما آتاه الله أى من متاع البيت ، ومن رأس المال — إن لم يكن من الربح ، ومن من الضيقة — إن لم يكن من الثلثة .

ومن ملك ما يكفيه الوقت ، ثم اهتم بالزيادة لئلا يفتقر لذلك اهتمام غير مرضى^(١) عنه ، وصاحبه غير ممان . فأما إذا حصل الجز بكُل وجه ، فإن الله تعالى : لا يكلف نفساً إلأ ما آتاهها ، وسيجعل الله بعد عسر يسراً . هذا من أصحاب المواعيد — وتصديقه على حسب الإيمان ، وذلك على قدر اليقين — وبقينه على حسب التقصية . وانتظار اليسر^(٢) من الله صفة للتوسطين في الأحوال ، الذين انحطوا عن حد^(٣) الرضا واستراء وجود السبب وقدره ؛ وارتقوا عن حد اليأس والفتور ، وعاشوا في أفياء^(٤) الرجال يُملكون^(٥) بحسن المواعيد . . وأبدأ هذه حالتهم وهي كما قلنا^(٦) :

إِنْ نَاصَبَكَ الْهَرُّ بِمَكْرُوهِهِ قِشٌّ يَهْوِينُ صَافِيهِ
فَمَنْ قَرِيبٍ يَنْجَلِي غَيْمُهُ وَتَنْقُضِي كُلُّ تَصَارُفِهِ

(١) حكنا في ص وهي في م (مرحوم) .

(٢) حكنا في م وهي في ص . (البر) وقد آثرنا الأول نظراً لسياق الآية ذاتها .

(٣) حكنا في م وهي في ص (درجة) وقد آثرنا الأول بدليل ورودها فيها به .

(٤) حكنا في ص ولكنها في م (القاء) والصلوب الأول .

(٥) أى يُملكون النفس .

(٦) أى أن البص الشعرى الشعرى لنفسه . (انظر الشعرى الشاعر في كتابنا : الإمام القشيري)

قوله جل ذكره : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا
وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا
وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا * فَذَاقَتْ
وَيْلَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا
خُسْرًا » .

مَنْ زَرَعَ الشُّكَّ لَمْ يَحْزَنْ الْوَرْدَ ، وَمَنْ أَضَاعَ حَقَّ اللَّهِ لَا يُطْلَعُ فِي حِفْظِ نَفْسِهِ ^(١) . وَمَنْ
اجْتَرَأَ ^(٢) بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ فَلْيَصِرْ عَلَى مَقَاسَةِ عِقَابِهِ .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا *
رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ
لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ فِيهِ بَيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ . . . فَكَيْفَ اسْتِغْنَاءُ بِنُورِهِ اهْتَدَى ، وَمَنْ لَجَأَ إِلَى سَمَةِ
فَنَاهُ وَصَلَ مِنْ دَاءِ الْجَهْلِ إِلَى شِفَائِهِ ^(٣) .

وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ، وَيَسْلُكُ صَالِحًا لِلَّهِ ، وَفِي اللَّهِ ، فَلَهُ دَوَامُ النِّعَمِ مِنَ اللَّهِ . . . قَالَ نَعَالِي :
« قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا » .

وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ مَا كَانَ عَلَى حَدِّ الْكَفَايَةِ ؛ لَا قَصْرَ فِيهِ تَمُطُّ الْأُمُورُ بِسَبَبِهِ ، وَلَا زِيَادَةً
فِي تَشَفُّلِهِ عَنِ الْاسْتِعْتِمَاعِ بِمَا رَزَقَ لِحُرُوبِهِ .

كَذَلِكَ أَرْزَاقُ الْقُلُوبِ . أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ فِي الْوَقْتِ ؛ مِنْ غَيْرِ

(١) هكذا في م وهي أصوب بما في م (حق نفسه) فالخوف في م والمخوف في م .

(٢) هكذا في م وهي أصوب بما في م (استرق) نسيق الآية يوحى بذلك .

(٣) أصل الجملة (وصل إلى شفاؤه من داء الجهل) . . . ولكن خرس التشييع على التركيب الموسيق دفعه إلى

هذه الصياغة .

نصان يجعله يمدد بتعطيه ، ولا تكون فيه زيادة فيكون على خطر من مغالطة لا يخرج منها إلا بتأييد سماوي من الله (١) .

قوله جل ذكره : « الله الذي خلق سبع سموات ومن

الأرض مثلهن » ينزل الأمر ينهن

لتعلموا أن الله على كل شيء قدير

وأن الله قد أحاط بكل شيء علما .

خلق سبع سموات ، وخلق ما خلق وهو حي في خلق وأمر ، حتى تعلم استصفا

جلاله وكل صفاته ، وأنه أسمى فيما قفى حكما ، وأنه أحاط بكل شيء علما .

(١) رأى القشيري في « الرزق الحسن » مفيد في دراسة الجانب النفسى من الصوفية ، والملود الى يبدأ عندما الصراع الداخلي ، وآفات ذلك ، وعلاجه .

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » . اسمٌ عَزِيزٌ يُبْهِلُ مَنْ عَصَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ وَنَادَاهُ . أَجَابَهُ وَلِيَّاهُ (١) فَلَمَّا لَمْ يَتَوَسَّلْ بِصِدْقِ قَدَمِهِ فِي ابْتِدَاءِ أَمْرِهِ ثُمَّ تَنَصَّلَ بِصِدْقِ تَدَمُّهِ فِي آخِرِ عَمَلِهِ أَوْسَمَهُ غَفْرًا (٢) ، وَقَبِلَ مِنْهُ عُذْرًا ، وَأَكْمَلَ لَهُ ذُخْرًا ، وَأَجَزَلَ لَهُ يَرْحَمُ .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

جاء في القصة : أن النبي صلى الله عليه وسلم حَرَّمَ على نفسه مَارِيَةَ الْقَبْطِيَّةِ ، وَفِي الْحَالِ حَافَتْ أَلَّا يَطَّأَهَا شَهْرًا مَرَاعَاةً لِقَلْبِ حَفْصَةَ حَيْثُ رَأَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا فِي يَوْمِهَا (٣) .
وقيل : حَرَّمَ على نفسه شَرْبَ الْعَسَلِ لَمَّا قَالَتْ لَهُ زَوْجَاتُهُ ، إِنَّا نَشْمُ مِنْكَ رِيحَ الْمَغَافِيرِ ! — وَالْمَغَافِيرُ صِنْفٌ فِي الْبَلَادَةِ كَرِيهِةِ الرَّائِحَةِ ، وَيُقَالُ : بَقْلَةٌ كَرِيهِةُ الرَّائِحَةِ ... فَضَابَتْهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ .
وهي صَبْرَةٌ مِنْهُ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ جَوَازِ الصَّفَاثِرِ عَلَيْهِ ، وَتَرَكْتُ لِلأَوَّلَى عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ لَمْ يَجُوزْ .

(١) حِكَايَا فِي مَوْحِي فِي ص (أَيْكَا) وَهِيَ غَطَا فِي التَّنْخِصِ .

(٢) حِكَايَا فِي مَوْحِي فِي ص (مُتَوَرِّدًا) وَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مَقْبُولَةً إِلَّا أَنَّ التَّرْكِيبَ الْمَوْسِقِيَّ يَحْمِلُنَا نَوَافِرَ (غَفْرًا) .

(٣) الْإِدَاوُطِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ قَالَ : دَخَلَ الرَّسُولُ (ص) بِأَمٍّ وَلَدَةٍ مَارِيَةَ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ وَكَانَتْ حَفْصَةُ غَائِبَةً إِلَى بَيْتِ أُمِّهَا فَقَالَتْ : تَدْخُلُونِي ! مَا صَحَّتْ فِي هَذَا مِنْ بَيْنِ لَسَانِكُ إِلَّا مِنْ عَرَاكِ عَيْنِكَ فَقَالَ لَهَا : لَا تَذْكُرِي هَذَا لِمَا نَفَسَتْ فِيهِ حَرَامٌ عَلَى إِنْ قَرَّبَتْهَا .

وقيل : إنه طلق حصة طلقاً واحدة ، فأمره الله بمراجعتها ، وقال له جبريل : إنها صرّاة قولمة

وقيل : لم يطلقها ولكن تمّ بتلقيها فمنته الله عن ذلك .

وقيل : لما رآته حصة مع مارية في يومها قال لها : إني مُسرّ إليك سرّاً فلا تخبري أحداً : إنّ هذا الأمر يكون بدي لأبي بكر ولأبيك .

ولكن حصة ذكرت هذا لعائشة ، وأوحى الله له بذلك ، فقال النبي حصة : لم أخبرت عائشة بما قلت ؟ .

فقال له : ومن أخبرك بذلك ؟ قال أخبرني الله ، وعرفت حصة بعض ما قالت ، ولم يصرح لما يجمع ما قالت ، قال تعالى : « عرف^(١) بعضه وأعرض عن بعض » ، فعاتبها على بعضي وأعرض عن بعض — على عادة الكرام .

ويقال : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما نزلت هذه الآية كان كثيراً ما يقول : « اللهم إني أعوذ بك من كل ظلم يظلمني عنك » .

وظاهر هذا الخطاب^(٢) عتاب على أنّه مراعاة قلب امرأته حرّم على نفسه ما أحلّ الله له .

والإنشابة فيه : وجوب تقديم حق الله — سبحانه — على كل شيء في كل وقت .

قوله جل ذكره : « قد فرّض الله لكم تحيلة أيمانكم »

والله مولاكم وهو العزيز الحكيم .

أنزل الله ذلك عناية بأمره عليه السلام ، وتجاوزاً عنه . وقيل : إنه كفر بتقريبه ، وعاد مارية .

(١) وفي قراءة « صرف » بدون التشديد : أي غصب فيه وجازى عليه ، وهو كفرك لئلا إياك : لأعرفك لك ما فعلت أي : لأجازيتك عليه ، وجاهذاً التي بأن طلقها طلقاً واحدة . وكان أبو عبد الرحمن السلمي يحسب بالمعجزة من يقرأها مشددة .

(٢) أي « تأيها التي لم تحرم ما أحل الله لك .. »

واقفه — سبحانه — أجرى سنته بأنه إذا ما كنَّ عبْدٌ قلبه إلى أحدٍ شَوَّشَ على خواصه محلٍّ ما كنته غَيْرَةً على قلبه إلى أنْ يُكَاوِدَ رَبَّهُ ، ثم يكفيه ذلك — ولكن بعد تطويل مدَّةٍ ، وأنشدوا في معناه :

إِذَا عَلِمْتُ رُوحِي حَيًّا تَمَلَّقْتُ بِهِ غَيْرَ الْأَيَّامِ كِي تَسَلِّبَنِيْ

وقد ألقى الله في قلبِ رسوله صلى الله عليه وسلم تناسياً بينه وبين زوجته فاعتزلن^(١) ، وما كان من حديث طلاق حفصة ، وما عاد إلى قلب أبيها ، وحديث الكفاية ، وإسماكه عن وطء مارية ثَمَاً وعشرين ليلة ... كل ذلك غَيْرَةً من الحق عليه ، وإرادته — سبحانه — تشويشُ قلوبهم حتى يكون رجوعهم كلهم إلى الله تعالى بقلوبهم .

قوله جل ذكره : « إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَفَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » .

عاتبهما على السر من خَطَرَاتِ القلب ، ثم قال : « وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ ... » .

« صالح المؤمنين » مَنْ لم يكن منهم في قلبه غشاق ، مثل أبي بكر وعمر رضى الله عنهما . وجاء : أن عمر بن الخطاب لما سمع شيئاً من ذلك قال لرسول الله : لو أمرتني لأضربنَّ عُنُقَهَا !^(٢)

(١) دخل على عمر في المثربة فلذا هو مضطجعٌ على حصير قد أفرَّ في جنبه ، وبجواره قبضة من شبر وتكاد عزائته تظلون من كل شيء فيبكي عمر وقال : يا بني الله .. أنت رسول الله .. وذاك قهر وكسرى في التَّأْوِيلِ والأَنهَارِ ، فقال النبي : يا ابن الخطاب ألا ترعى أن تكون لنا الآخرة ولم الدنيا ؟ فقال عمر : إن كان يشق عليك من أمر النساء .. فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون ! ولم يزل يحدثه حتى تبسّم صلوات الله عليه وغربا إلى الناس .

(٢) لما سمع عمر الناس بالمسيح يقولون : لقد طلق الرسول نساه ! غضب وذهب إلى بيت النبي ليعلم الأمر فذهب أولاً إلى عائشة وقال : يا بنة أبي بكر الله بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ؟ فقالت : يا ابن الخطاب عليك ببينك ، فأتبعه إلى حفصة وقال : والله لقد علمت أن رسول الله لا يعبك ولولا أنا لطلقك .. فبكيت بكاءً شديداً . وذهب إلى رسول الله قائلًا : والله لئن أفرق رسول الله بفردب حتى أبني لفعلت .

والتاب في الآية مع عائشة وحفصة رضي الله عنهما إذ نكلمتا في أمر ملوكة .

ثم قال تعالى زيادة في التاب وبين القصة :

« عسى رَبُّهُ أَنْ يُلْقِيَنَّ أَنْ يَبْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ
مَلَائِكَةً مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَاجِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَاجِدَاتٍ
يُتْبِئَاتٍ وَأَبْكَارًا » .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ » .

أى : قهروهم ، وأذبوهم ، وادعوم إلى طاعة الله ، وامنعوم عن استحقاق العقوبة بقرشادهم
وتعليهم .

وذلك الآية : على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب .

وقيل : أظهرُوا من أنفسكم المبادات ليتمسكوا منكم ، ويمتدوا كعادتكم .

ويقال : دلوهم على السنة والجملة .

ويقال : علوهم الأخلاق الحسان .

ويقال : مروم بقبول النصيحة .

« وقودها الناس والحجارة » : الوقود : الحطب .

ويقال : أمر الناس يصلح بحجرة أو مدرة ، فإن أصل الإنسان مدرة ، ولو أنه أقام حجرة
مقام مدرة فلا غرو من فضل الله .

اللهم فآلتي فيها بدلنا حجرًا وخلصنا منها .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَتَذَكَّرُوا

اليَوْمَ إِنَّمَا تَجَزَّوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

إذا فات الوقت استفضل الأمر ، وانتلق الباب ، وسقطت الحيل . . فالواجب البدار
والترار لصل إلى روض القرار .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ
عَنكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ »

التوبة النصوح : هي التي لا يقبها هضم .

ويقال : هي التي لا تراها من نفسك ، ولا ترى نجاستك بها ، وإنما تراها بربك .

ويقال : هي أن تجد المرادة في قلبك عند ذكر الآية كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ نُورُهُمْ يَسَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَتَيْنَا لَنَا نُورًا وَغُفِرَ
لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ بِرُكِّ شَفَاعَتِهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِاتِّصَافِهِمْ بِمَا قَبِلَ فِيهِمْ شَفَاعَتَهُ .
« نُورُهُمْ يَسَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » عبر بذلك عن أن الإيمان من جميع جهاتهم .

ويقال : بأيمانهم كتاب نجاتهم : أراد نور توحيدهم ونور معرفتهم ونور إيمانهم ،
وما يخصهم الله به من الأنوار في ذلك اليوم .

« يَقُولُونَ : رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورًا » : يستديمون التضرع والابتهال في السؤال (١) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

أمره بِالْمَلَابَةِ في وقت الدعوة ، وقال : « وَجَاهِدْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ » (٢) ثُمَّ لَمَّا أَمَرَهُمْ —
بِجِدِّيَّةِ الْحُجَّةِ — قَالَ : « وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » : لأن هذا في حال إصرارهم ، وزوال أعذارهم .

(١) هذه الإشارة موجهة إلى الصوفية من يبعد كي لا يكتفوا من التضرع والابتهال قط فإن غير العمل أدومه ؛
للاستعانة شرط أساسي لأن الطريق للصوف طويل وشاق .

(٢) آية ١٢٥ سورة النحل

قوله جل ذكره: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً

نُوحٍ وامْرَأَةً لَّوْطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَتَفَاثَنَاهُمَا فُلَمْ يَنْبُتَا

عَنَّهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا

النَّارَ مَعَ الظَّالِمِينَ .

لَمَّا سَبَقَتْ لَهَا التَّرَقُّةُ يَوْمَ النَّعْتَةِ لَمْ تَنْفَعْهُمَا الْقُرْبَى يَوْمَ الْقُرْبَى .

قوله جل ذكره: « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا

امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي

عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِئْسَ مِنْ فِرْعَوْنَ

وَعَمَلِهِ وَبِئْسَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

قالوا: صفرت هِمَّتُهَا حيث طلبت بيتًا في الجنة، وكان من حَقِّهَا أَنْ تَطْلُبَ الكثير.. ولا كما

تَوَهَّمُوا: فإنَّهَا قالت: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ، فَطَلَبْتُ جِوَارَ التَّوْبَةِ، وَلَيْسَتْ فِي الْجِوَارِ أَفْضَلُ

مِنْ أَلْفِ قَصْرِ فِي غَيْرِ الْجِوَارِ. وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْعِنْدِيَّةَ هُنَا عِنْدِيَّةُ التَّوْبَةِ وَالْكَرَامَةِ.. وَلَكِنَّهُ

عَلَى كُلِّ حَالٍ يَتَّحِدُ لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَهُ خُصُوصِيَّةٌ. وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَلُوا:

إِنِّي لِأَحْسَدَ جَارِكُمْ لَجِوَارِكُمْ طُوبَى لِمَنْ أُضْحِيَ لِدَارِكَ جَارًا

يَالَيْتَ جَارِكَ بَاعَنِي مِنْ دَارِهِ شَيْئًا لِأَعْطِيهِ بِشِيرَ دَارًا

قوله جل ذكره: « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَخْصَلَتْ

فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَوَدَّعَتْ

بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ فِي هَذِهِ

السُّورَةِ بِذِكْرِهَا بِدَمَا ذَكَرَ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مِنْ جِلَّةِ النِّسَاءِ، وَلَمَّا كَثُرَ فِي هَذِهِ

السُّورَةِ ذِكْرُ النِّسَاءِ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ لَا يُخْلَى السُّورَةُ مِنْ ذِكْرِهَا تَخْصِيصًا لِقُدْرَتِهَا^(١)

(١) هكذا في س وحى في م (لاكرها) والصواب ما أثبتنا. وجميل من التفشيры أن يلفت نظرنا إلى هذا الملحق - الذي نلقن - والله أعلم - أ: فيه تنبيهها للنساء اللاتي يبرهنن نموذجين لامرأتين صالحتين مرفعتا من الدنيا.

(١)

سُورَةُ الْمُلْكِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ مَنْ لَمْ تَتَقَطَّرْ الْقُلُوبُ إِلَّا بِسْمِهِ إِقْبَالِهِ ، وَلَمْ تَتَقَطَّرْ الدَّمُوعُ إِلَّا لِلْوَعْدِ فِرَاقِهِ أَوْ رَوْحِ وَصَالِهِ ؛ فَمَوْعُهُمْ فِي كُلِّهَا الْحَالَتَيْنِ مُنْسَكِبَةٍ ، وَقُلُوبُهُمْ فِي حُومِ أحوالهم مُتَنَبِّئَةٌ وَعَقُولُهُمْ فِي ظِلِّ أَوَاقَتِهِمْ مُتَنَبِّئَةٌ .

قوله جل ذكره : « تبارك الذي بيده الملك » وهو عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تَقْدَسَ وَتَمَالَى ، مَنْ إِحْسَانُهُ تَوَاتَرَ وَتَوَالَى ، فَهُوَ لِلتَّكْبِيرِ فِي جَلَالِ كِبَرِيَّاتِهِ ، الْمُبْجَرَّدِ فِي عِلَالِ بَهَائِهِ وَدَوَاعِ سَنَائِهِ .

« بيده الملك » : قُدْرَتُهُ إِظْهَارُ مَا يَرِيدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَأَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، ابْتِلَاءً لِلخَلْقِ ، يَخْتَبِرُهُمْ لِيَبْظَهَرَ لَهُ شُكْرَانُهُمْ وَكَفَرَانُهُمْ ، كَيْفَ يَكُونَانِ عِنْدَ الْحُكْمِ فِي الصَّبْرِ وَعِنْدَ النِّعَةِ فِي الشُّكْرِ — وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

« الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ؟ »

(١) قَالَ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَأْنِ هَذِهِ السُّورَةِ : « هِيَ الْمُنَافَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » .

عَرَفَهُمْ كُلَّ قَاتِرَةٍ بِدَلَالَاتِ خَلْقِهِ ، فَسَمَكَ أَسْمَاءَ وَأَسْكَنَهَا بِأَعْمَدٍ ، وَرَكَّبَ أَجْزَاءَهَا
غَيْرَ مُسْتَعِينٍ بِأَحَدٍ فِي خَلْقِهَا ، وَبِالنَّجْمِ زَيَّنَّهَا ، وَبَيْنَ اسْتِرَافٍ سَمِعَ الشَّيَاطِينَ حَصْنَهَا ،
وَبِنِيرٍ تَطْلِمُ مُعَلِّمٌ أَحْكَمَهَا وَأَجْنَبَهَا .

« مَا نَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ ، فَارْجِعِ الْإِنْسَانَ إِلَى نُفُوسِهِ مِنْ قُطُوبِهِ ؟ » : لَا نَرَى
فِيهَا خَلْقَ تَفَاقُوتًا يَبْقَى آتَمَرُ الْحِكْمَةِ وَلَا يَدُلُّ عَلَى كَلَالِ الْقُدْرَةِ .

وَيَقَالُ : مَا نَرَى فِيهَا تَفَاقُوتًا ، فِي اسْتِفْثَانِهِ عَنِ الْجَمِيعِ . . مَا نَرَى فِيهَا تَفَاقُوتًا فِي الْخَلْقِ ؛ تَخْلُقُ
السَّكْبِيرَ وَالْيَسِيرَ عِنْدَهُ سَيَّانٌ ، فَلَا يَسْهَلُ عِنْدَهُ الْقَلِيلُ وَلَا يَشْقَى عَلَيْهِ السَّكْبِيرُ ؛ لِأَنَّهُ مُتَنَزَّهٌ
عَنِ السَّهْوَةِ عَلَيْهِ وَلِطَوَقِ الْمُثَقَّةِ بِهِ .

فَأَنعَمِ النَّظَرَ ، وَكَرَّرِ السَّبْرَ وَالْفَيْكْرَ . . فَلَنْ تَجِدَ فِيهَا عَيْبًا^(١) وَلَا فِي عِزِّهِ قُصُورًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ
وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا
لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ » .

زَيَّنَّ السَّمَاءَ بِالسُّكُوكِ وَالنَّجْمِ ، وَزَيَّنَّ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ بِأَنْوَارٍ مِنَ الْأَنْوَارِ وَالنَّجْمِ ؛
فَالْمُؤْمِنُونَ قُلُوبُهُمْ مُزَيَّنَةٌ بِالتَّصَدِيقِ وَالْإِيمَانِ ثُمَّ بِالتَّحْقِيقِ بِتَأْمُلِ الْبَرَعَانِ ، ثُمَّ بِالتَّوْفِيقِ لَطَلَبِ
الْبَيَانِ . وَالتَّارِفُونَ قُلُوبُهُمْ مُزَيَّنَةٌ بِشَمْسِ التَّوْحِيدِ ، وَأَرْوَاحُهُمْ مُزَيَّنَةٌ بِأَنْوَارِ التَّفَرِيدِ ، وَأَسْرَارُهُمْ
مُزَيَّنَةٌ بِأَنْوَارِ التَّجَرِيدِ^(٢) . . . وَعَلَى الْقِيَاسِ : لِكُلِّ طَائِفَةٍ أَنْوَارٌ .

« وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » : فَنِ النَّجْمِ مَا هُوَ لِلشَّيَاطِينِ رُجُومٌ ، وَبَسْمَا مَا هُوَ لِلْمُتَعَدِّينَ بِهِ
مَعْلُومٌ . فَأَخْبِرْ أَنَّ هَذَا الْقُدْرَةَ مِنَ الْقُوَّةِ بِوَسْطَةِ الْجُودِ لَا يَكْفِي ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ مُؤَبَّدِينَ فِي السَّعِيرِ .

(١) حِكْمًا فِي مَوْحِي فِي مَوْحِي (عَيْنًا) .

(٢) يُمَيِّزُ الْكَلَامَ بَيْنَ التَّفَرِيدِ وَالتَّجَرِيدِ يَقُولُ (مُلْحَصًا) :

التَّجَرِيدُ : أَنْ يَتَجَرَّدَ بِنَظَرِهِ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَيَبَاطِلُهُ مِنَ الْأَمْوَاضِ ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ لَوَجُوبِ حَقِّ أَنَّهُ تَمَالٌ لَا لَمْلَعَةٍ فَيَرَى
وَلَا لِسَبِّ سَوَاءٍ ، وَيَتَجَرَّدُ بِسِرِّهِ عَنِ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الَّتِي يَنْزِلُهَا .
وَالْتَفَرِيدُ : أَنْ يَتَفَرَّدَ مِنَ الْأَشْكَالِ ، وَيَتَفَرَّدَ فِي الْأَسْوَالِ ، وَيَتَوَحَّدَ فِي الْأَنْمَالِ وَيَنْبَغِي عَنْ رُؤْيَا أَسْوَالِهِ بِرُؤْيَا مَعْوَلِهَا
وَلَا يَأْسُ بِأَشْكَالِهِ وَلَا بِسُوءِ حُشْنِ (التَّصَرُّفِ ص ١٣٣) .

قوله جل ذكره : « ولذين كفروا برؤسهم عذاب جهنم
 ويُسّ للصير • إذا ألقوا فيها سَمِعُوا
 لها شهيقاً وهي تخور • تكاد تشيزُ من
 التنيطِ كُلُّهَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجَ سَالِمٍ
 خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ » .

أخبر : أنهم يحتج عليهم بإرسال الرسل ، فقول لهم اللانكته : ألم يأتكم نذير ؟
 « قالوا : بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذبنا
 وقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ
 إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ • وقالوا لو كُنَّا
 نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
 السَّعِيرِ » .

« وقالوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ .. » فأخبر أنهم لم يكن لهم سمع قبول ، فاستوجبوا
 العقوبة لأجله^(١) ، لم يسموا نصيحة الناصحين ولا وعظ الواعظين ، ولا ما فيه قلوبهم حياة .
 وفي الآية للمؤمنين بشارة ؛ لأنهم يسمعون ويقبلون ما يسمعون ؛ فَإِنَّ مَنْ سَمِعَ بِالْحَقِّ
 سمع كل ما يقال عن الحق من كل مَنْ يقول عن الحق ، فيحصل له الفهم لما يسمع ، لأنه إذا
 كان من أهل الحقائق يكون سَمْعُهُ من الله وبالله وفي الله .

قوله جل ذكره : « فاعترفوا بذنبهم فَنَحْنُ لِأَصْحَابِ
 السَّعِيرِ » .

اعترفوا بذنبهم ولكن في غير وقت الاعتراف .. فلا جَرَمَ يقال لهم : « فَنَحْنُ
 لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

(١) من الآية ومن إشارتها يتضح : أن العقوبة لا تكون إلا بعد إرسال الرسل الذين يمسّطون الحجة
 ويستقنون البلد .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

الخشية توجب عدم التردد^(١) فيكون العبد أبداً — لا نزاع به — كالمحب على لائق ؛ لا يتردد لله أو نهائره ، يتوقع العقوبات مع مجارى الأفعال ، وكلما ازداد في الله طاعة ازداد في خشية .

قوله جل ذكره : « وَإِيرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ آجَهَرُوا بِهِ

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

خوفهم به ، وتدبرهم إلى مراقبته ؛ لأنه يعلم السر وأخفى ، ويسمع الجهر والنجوى . . ثم قال مؤكداً :

« أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ » .

وفي كل جزء من خلقه — من الأحياء والآثار — أدلة على علمه وحكمه .

قوله جل ذكره : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا

فَأَسْكِنُوا فِيهَا ، وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

وَالِهُ التَّشْوِيرُ » .

أى إذا أردتم أن تضربوا في الأرض سهلاً عليكم ذلك .

كذلك جعل النفس ذلولاً ؛ فلو طألتها بالوقار وجدتها مسعدة مؤافقة ، متأينة مسابقة . . وقد قيل في صفتها :

هِيَ النَّفْسُ مَقْوُودَتُهَا تَصَوُّدٌ وَلِلْهَرِ أَيَّامٌ تُذَمُّ وَتُحَمَدُ

قوله جل ذكره : « أَمِئْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ

الْأَرْضَ فَإِنَّا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِئْتُمْ مَنْ

(١) هكذا في م (الفراق) والصواب ما أثبتنا — دليل ما يمشى .

في السماء أن يُرْسِلَ عليكم حاصِباً

فستعلمون كيف نذير .

« من في السماء » أراد بهم الملائكة الذين يسكنون السماء . فهم موكِّلون بالمذاب .

وخوفهم بالملائكة أن يُنْزِلُوا عليهم العقوبة من السماء ، أو يخسفوا بهم الأرض ، وكذلك خوفهم أن يُرْسِلُوا عليهم حجارة كما أرسلوا على قوم نوط . ويُنْزِلُ أَنْ مَنْ كَذَّبَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُمْ ، ثم زاد في البيان وقال :

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ

وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَكِّنُ إِلَّا الرِّحْمُ

لَئِنْ بَكَلُ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

أولم يروا كيف خلق الطيور على اختلاف أجناسها ، واختصاصها بالطيران لأن لها أجنحة — بخلاف الأجسام^(١) الأخر . . . من الذي يمكِّن ويحفظهن ومن يقبض ويبسلن أجنحتهن في القضاء ؟ وما الذي يوجب القتل حفظ هذه الطيور أم بقية الأجسام الأخر ؟ .

« أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ

يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ .

إن أراد الرحمن بك سواه . فَمَنْ الَّذِي يُوسِّعُ عَلَيْكُمْ مَا قَبَضَهُ ، أو يعجز ما أبتغى ، أو يقدِّم ما أخره ، أو يؤخِّر ما قدَّمه ؟ .

قوله جل ذكره : « أَمَّنْ يَمْشِي مَكِيداً عَلَى وَجْهِهِ

أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ .

(١) مذكراً في م وهي في ص (الاستقام) والصواب ما أبتغاه ، لأن المقصود المقارنة بين الطيور وغيرها من الأجسام بصفة عامة .

وَحَصَّكُم بِالسَّعِ وَالْبَصْرِ وَالْأَفْئِدَةَ ، وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ عَظِيمَ نِعْمِهِ .
 « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ » .
 وأجاب عنه حيث قال : لا تستعجلوا العذاب ، وبين أنهم إذا رأوه كيف يخافون
 وكيف يندمون .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » قُلْ مَرُّ الرَّحْمَنِ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . . »
 وإليه أمورنا — جملة — فَوَضَعْنَا .

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ » .
 مِنَ الَّذِي يَأْتِيكُمْ بِالْمَاءِ إِذَا سَارَ ظَنَّمَا فِي الْأَرْضِ لَا تَنَالُهُ الْأَيْدِي .
 وهذه الآيات جميعها على وجه الاحتجاج عليهم . . . ولم يكن لواحدٍ عن ذلك جواب .

سُورَةُ الْقَلَمِ^(١)

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ كريمٌ مَنْ شَهِدَ لِقَلَمِهِ لَمْ يَتَذَلَّلْ بَعْدَهُ لَخَلْقٍ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ فِيهَا نَابَهُ مِنْ ضَرٍّ أَصَابَهُ أَوْ خَيْرٍ أَرَادَهُ بِمُحَدَّثٍ مَرْزُوقٍ .

إِنْ أُعْطَاهُ نَابُهُ بِالشُّكْرِ ، وَإِنْ مَنَعَهُ اسْتِجَابُهُ بِمِثْلِ الْحَدِّ^(٢) .

قوله جل ذكره : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ » .

« ن » قيل : الحوت الذي على ظهره الكون ، ويقال : هي الدواة .

ويقال : مفتاح اسمه ناصر واسمه نور .

ويقال له إنه أقسم بِنُصْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ — وَجَوَابُ الْقَسَمِ قَوْلُهُ :

« مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ • وَإِنَّ

لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ » .

مَا أَوْجِبَ لَصَدْرِهِ مِنَ الْوَحْشَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَعْدَاءِ عَنْهُ :

إِنَّهُ مَجْنُونٌ ، أَزَالَهُ عَنْ بَنِيهِ ، وَخُفِّعًا ذَلِكَ بِالْقَسَمِ عَلَيْهِ .. وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَمَا يَقُولُهُ الْأَعْدَاءُ فِيهِ يَرُدُّهُ — سُبْحَانَهُ — عَلَيْهِمْ بِخُطَابِهِ وَعَنْهُ يَنْفِيهِ .

(١) هكذا في ص ، وفي سورة ن والقلم .

(٢) يمكن أن يفهم ذلك في التمييز بين الشكر والحد — كما يرى القشيري .

« وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ » : أى غير منقوص .. لَمَّا تَمَّتْ هَيْئَتُهُ صلى الله عليه وسلم عن طلب الأعراض أثبت الله له الأجر ، قال له : إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ — وَإِنْ كُنْتُ لَارِيدَهُ .

ومن ذلك الأجر العظيم هذا الخلق ، فأنت لست تريد الأجر — وَبِنَا لَسْتَ تَرِيدُ ؛ فلولاً أَنْ خَصَصْنَاكَ بهذا التصور لكنك كأمثالك في أنهم في أسير الأعراض .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّكَ لَتَلِي خُلُقِي عَظِيمٌ » .

كما عرّفه الله سبحانه أخبار مَنْ قَبْلَهُ من الأنبياء عرّفه أنه اجتمعت فيه مميزات أخلاقيهم فقال له : إِنَّكَ لَتَلِي خُلُقِي عَظِيمٌ .

وقال : إِنَّهُ عَرَضَ عَلَيْهِ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا ، وَرَقَاهُ لَيْلَةَ الْمَرَاةِ ، وَأَرَاهُ جَمِيعَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجَنَّةِ فَلَمْ يَنْفَتِ إِلَيْهَا ، قَالَ تَالِي : « مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى » فَالْتَفَتَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ، وَلِهَذَا قَالَ تَالِي : « وَإِنَّكَ لَتَلِي خُلُقِي عَظِيمٌ » .. وَقَالَ : « عَلَى خُلُقِي عَظِيمٌ » : لَا بِالْبِلَادِ تَعْرِفُ ، وَلَا بِالْمَطَاءِ تَصْرِفُ ؛ احْتَمَلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْأَذَى شَجَّ رَأْسِهِ وَتَمَرَّه ، وَكَانَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » . وَفَلَدًا كُلُّهُ يَقُولُ : نَفْسِي نَفْسِي وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ : أُمِّي أُمِّي .

ويقال : قَلِمَ بِحَسَنِ الْإِخْلَاقِ يَقُولُهُ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » (١) .

سأل صلوات الله عليه جبريل : بِمَاذَا يَأْمُرُنِي رُبِّي ؟ قَالَ : يَبَارِكُ بِحَسَنِ الْإِخْلَاقِ ؛ يَقُولُ لَكَ : صَلِّ مَنْ تَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، فَأَدَّبَ بِهَذَا ؛ فَأَنشَى عَلَيْهِ وَقَالَ : « وَإِنَّكَ لَتَلِي خُلُقِي عَظِيمٌ » .

قوله جل ذكره : « فَتَقَبَّلُوهُ وَيُقَبِّرُوهُ » * بِأَيْكُمْ الْمَقْتُونُ *

(١) آية ١٩٩ سورة الأعراف .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ
سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ .

المفتون : المجهنون لأنه كُنِيَ أَيْ مُحِنٌ بِالْجُنُونِ .

« فَلَا تُطِيعُ الْمَكْذِبِينَ » .

مسيودك واحدٌ فليكن مقصودك واحداً . . وإذا شهدت مقصودك واحداً فليكن
مشهودك واحداً .

« وَذُورًا لَوْ تَذَرُهُنَّ يَغِيظُ الْهِنُونَ » .

مَنْ أَصْبَحَ عَلِيلاً تَمَى أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَرَضَى . . وَكُنَّا مَنْ وَسَمَ بَكَّى الْمُهْجِرَانِ
وَدَّ أَنْ يُشَارِكَهُ فِيهِ مَنْ عَادَاهُ .

« وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَاقٍ مُبِينٍ »

وهو الذى سقط من عيننا ، وألقناه بالبد مننا .

« هَمَّازٍ مَشَاءَ بَنِيهِ »

محبوبٍ مَنَّا مُتَذَبٍّ بِخِلَافِ الْوَقِيفَةِ فِي أَوَّلِيَانَا .

« مُتَّاعٍ لِلْغَيْرِ ^(١) »

مُهَانٍ بِالشَّعْءِ ، مَسْلُوبِ التَّوْفِيقِ .

« مُعْتَكِلٍ أَلَيْمٍ »

ممنوع الحياه ، مُشَقَّتٍ فِي أَوْدِيَةِ الْحَرَمَانِ .

« عَقْلٌ بَدَّ ذَكَرَ زَنِيمٍ »

لَيْمٍ الْأَصْلُ ، عَدِيمُ الْفَضْلِ ، شَدِيدُ الْخُصُومَةِ يَاطِلُهُ ، غَيْرُ رَاجِعٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْغَيْرِ
إِلَى حَاصِلِهِ .

« أَنْ كَانَ فَا مَالٍ وَبَيْنَ • إِذَا تَقَالَى »

عَلَيْهِ آتَيْنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

(١) حشد الجمهور - هو الوليه بن المغيرة ، وكان يقول لبنيه العشرة : من أسلم منكم منته رقبته .

(أى : لا تظنه لأن كان ذا مالٍ وبشئ.. ثم استأنف الكلام فقال^(١)) : إذا تلى .. فأبكتها بالكذب ، وحكم أن القرآن من الأساطير .

« حَتَّىٰ هَلَّىٰ عَلَىٰ غُرُطِهِمْ »

أى سجد له فى القياس على أنه نسيبها لصورته كى يعرف بها .

قوله جل ذكره : « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ » .

أى امتحنهم^(٢) .. حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأبطلهم الله بالجرع ، حتى أكلوا الحَبِيبَ — كابولنا أصحاب الجنة ، قيل : إن رجلاً من أهل اليمن كانت له جنة مشمرة وكان له ثلاثة بنين ، وكان للساكِن كل ما تدناه للتجمل فلم يجده من الكرم ، فلما طرح على البساط فكل شئ سقط عن البساط فهو أيضاً للساكِن ، فإخطأه القطار من غله وكرمه يدعه للساكِن . وكان يجتمع منه مال ، فلما مات هو قال وَرَثَتُهُ : إِنَّ هَذَا الْمَالُ تَرْتَقِ فِينَا ، وليس يمكننا أن نعمل ما كان يفعله أبونا ، وأقسموا ألا يسطوا للقرءاء شيئاً ، فأهلك الله جنَّهم ؛ فندمو وتابوا .

وقيل : أبذلهم الله جنة حسنة ، فأقسموا ليعصرنَّ جنَّهم وقت الصبح قبل أن تفتلن الساكِن ، ولم يقولوا : إن شاء الله :

« فَطَلَفَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ

نَائِمُونَ • فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » .

أرسل عليها من السماء آفة فأحرقت ثمارهم . وأصبحت « كالصريم » أى كالإبل السود ، فنادى بعضهم بعضاً وقت الصبح : أن اغدوا على حرمكم إن أردتم الصرام ، فانطلقوا

(١) ما بين القوسين موجود فى من وغير موجود فى م .. والمعنى : لا تظنه — مع هذه العناصر والمطالب — ليهاده وحظه من الدنيا وكثرة أولاده .

(٢) يقصد أهل مكة حين دعا عليهم الرسول : اللهم أشدد وطأتك على مشركى ، واجعلها عليهم عين كفى يوسف .

لا يرضون أوصيتهم فيما بينهم ثلاثاً يستهم أحدٌ . وقصدوا إلى المرام « على حرزٍ » أى :
 فادبرن عند أنفسهم ، وقال : على غضبٍ منهم على الساكنين .

فلما رأوا الجنة وقد استؤميت قالوا : ليست هذه جنتنا ۱۱

ثم قالوا : بل هذه جنتنا .. ولكننا خرمنا خيرها .

قال أوسطهم : أى أعدلهم طريقةً وأحسنهم قولاً :

« أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ؟ »

أى : تستنون وتقولون : إن شاء الله^(١) .

« قالوا سبعان ربنا إنا كنا ظالمين »

ثم أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، ويقولون :

« عسى ربنا أن يُبدِلنا خيراً منها »

إنا إلى ربنا راغبون .

قال تعالى : « كذلك المذابح » لأهل مكة « ولَعَذَابُ الآخرةُ أَكْبَرُ » :

وهكذا^(٢) تكون حال من له بداية حسنة ويحْدُ التوفيق على التوالى ، ويحْضِبُ الماصى ،
 فيَمْوِضُهُ اللهُ في الوقتِ نشاطاً ، وتلوحُ في باطنه الأحوالُ . فلِذَا بَدَّوْهُ منه سوء دعوى أو تركَهُ
 أدبٍ من آداب الخدمة تَنَسَّدُ عليه تلك الأحوالُ ويقع في قُرْبِهِ^(٣) من الأعمال . فلِذَا حَصَلَ منه
 بالمباداتِ إخلالٌ ، ولبعض الفرائض إهمالٌ — اقلب حاله ، ورُدَّ من الوصال إلى البعاد ،
 ومن الإقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، فصارت صفوته قسوةً . وإن كان له بعد ذلك
 توبة ، وعلى ما سَلَفَ منه ندامة — قد فأت الأمرُ من يده ، وقلنا يصل إلى حاله .

(١) هذا أيضاً رأى مجاهد ، فجعل لزال : إن شاء الله من التجميع ، وهذه هي حقيقة تقديم المشيئة ، فهي
 تزيهه به بأن لا شيء إلا بمشيئته .

(٢) هذه الإشارة موجهة إلى أرباب السلوك يقصد بها إلى التوضيح أن العبارة بالمحوالات ، وينبئ الإيهام بهذه
 الفقرة كلها عند بحثنا من « حواشي التفسيرى للمريدين » .

(٣) جمع أقره وهو ما أسود من الجله وتفسر .

ولا يبعد أن ينظر إليه الحقُّ بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك رعاية لما سَلَفَ في بدايته من أحواله . . . فإنَّ الله تعالى رموفٌ بعباده .

قوله جل ذكره : « إِنََّّ للفتين عند ربِّهم جناتٍ

النَّعيمِ » .

الذين يقنون الشُّركَ والكُفْرَ ، ثمَّ للعاصيِّ والفيثِّ ، لهم عند الله التَّوابُ والأجرُ .

قوله جل ذكره : « أَتَنْجِلُ السَّالِينَ كَالْجَرَمِينَ ؟ »

مالِكٌ كيف نَحْكُونُ ؟ ! أم

لكم كتابٌ فيه تَدْرُسُونَ ؟

كيف نَحْكُونُ ؟ هل لديكم حجة ؟ أم لكم كتابٌ فيه تدرسون ؟ أم لكم مناهجٌ فيها نَحْكُونُ ؟ والمقصود من هذه الأسئلة تقي ذلك .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ

إلى السَّجْدِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ »

« عن سَاقٍ » : أى عن شِدَّةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

ويقال في الضمير : عن سَاقِ الْعَرْشِ .

يُؤْمَرُونَ بِالسَّجْدِ ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فيسجدون ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَنَشُدُّ أَسْلَابَهُمْ فَلَا تَعْنَى .

وقيل : يكشف المريضُ عن ساقه — وقت التَّوَقُّفِ — لِيُفْعِرَ ضَعْفَهُ ، ويقول المؤذِّنُ : حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ — فَلَا يَسْتَطِيعُ .

وعلى الجملة فقد خَوَّفَهُمْ بهذه القالة : إمَّا عند انتهائهم في الدنيا أو ابتلائهم في الآخرة .

« . . . » وقد كانوا يُدْعَوْنَ إلى

السَّجْدِ وهم سَالِمُونَ » .

يَذَكِّرُهُمْ بذلك ليزدادوا حَسْرَةً ، ولتسكونَ الْحُجَّةُ عليهم أَيْلَاحُ .

قوله جل ذكره : « فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِنَا الْهْدِيثِ

سَلْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَبْلُغُونَ » .

سَلْتَدْرِجُهُمْ مِنْ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

والاستدراجُ : أَنْ يَرِيدَ الشَّيْءَ وَيَطْوِي عَنْ صَاحِبِهِ وَجْهَ الْقَصْرِ فِيهِ ، وَيُدْرِجُهُ إِلَيْهِ شَيْئًا

بَعْدَ شَيْءٍ ، حَتَّى يَأْخُذَهُ بَغْتَةً .

ويقال : الاستدراج : التمكن من التَّمَمِّ مَقْرُونًا بِنِجَانِ الشُّكْرِ (١) .

ويقال : الاستدراجُ : أَنَّهُمْ كَلَّمَا اِزْدَادُوا مَصِيبَةً زَادَهُمْ نِعْمَةً .

ويقال : أَلَا يَعْلَمُونَ فِي حَالِ الزَّلَّةِ ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُ الْعُقُوبَةَ إِلَى مَا بَعْدَهَا .

ويقال : هو الاشتغال بالنعمة مع نسيان المنعم .

ويقال : الاغترارُ بطول الإهمال .

ويقال : ظَهَرَ مَضْبُوطٌ وَبَاطِنٌ مُتَوَشِّشٌ .

قوله جل ذكره : « وَأَمَلَىٰ لَهُمْ إِنِّي كُنِيتُ مَتِينٌ »

أَمِيلُهُمْ .. ثُمَّ إِذَا أَخَذْتَهُمْ فَأَخَذِي أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

قوله جل ذكره : « أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ

مُسْتَقْلُونَ » .

أى : لَيْسَ عَلَيْهِمْ كُفَّةٌ مُقَابِلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَلَيْسَتْ عَلَيْهِمْ غَرَامَةٌ إِنْ هُمْ أَتَوْكَ .. فَأَنْتَ

لَا تَسْأَلُ أَجْرًا .. فَمَا وَجِيتُ النَّاسُخَ وَتَرَكْتُ الْأَسْتِجَابَةَ ؟

« أَمْ عِنْدَ الْغَيْبِ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ؟ » .

أَمْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ اضْطَرُّوا بِهِ وَأَوْجِبَ لَهُمْ أَلَّا يَسْتَجِيبُوا ؟ .

(١) فِي التَّنْخِيحِ (بِلِسَانِ) وَهِيَ غَلَاظُهَا ، فَقَدْ اِشْتَهَتْ عَلَى كُلِّ النَّاسِخِينَ . وَإِلَازِمُهُ رَأْيُنَا قَوْلُ سَفِيَّانٍ الثَّوْرِيِّ

فِي « سَعْدِ جَهَنَّمَ » نَسِخَ عَلَيْهِمُ الْغَيْبَ وَتَنَسَّيْنَاهُمُ الشُّكْرَ (لِقَطْرِ طَيِّبٍ ١٨٥) مِنْ (٢٥١) .

قوله جل ذكره: « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ

كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ».

صاحب الحوت : هو يونس عليه السلام ، نادى وهو مكظوم : ملؤه بالنمط على قومه .

فلا تستجلب — يا محمد — بقوبة قومك كما استجلب يونس قاتل مائتي ، وتنبئت عند جريان حكنا ، ولا تمارض تديرنا .

« لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنَدِمْتُ

بِالمراد وهو مضموم » .

أى : لولا أن الله رزقه بفضل طهره بالقضاء وهو يذمر . لكن :

« فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ لِحُكْمِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

فاصفاه واختاره ، وجهه من الصالحين بأن أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون .

قوله جل ذكره: « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزِيلُوكَ

بأبصارهم » .

كانوا إذا أرادوا أن يصيروا شيئاً بأعينهم جاعوا ثلاثة أيام ، ثم جاءوا ونظروا إلى ذلك

الشيء قائم : ما أحسنه من شيء فكان يسقط المنظور في الوقت . وقد فعلوا ذلك بالنم

صلوات الله عليه ، فقالوا : ما أفصحه من رجل ! ولكن الله سبحانه حفظه ، ومَرَّ

بذكره عليه^(١) .

(١) تبه إلى نقطة حادة .. ورد اسم التشيرى عند القرطبي لا يبنى أنه إيماناً به الكرم التشيرى صاحب هذا الكتاب ، بل ربما كان أسد أبيه السنة .. فكلمهم أمة . وربما كان ابنه أبا نصر عبد الرحمن (انظر القرطبي الجزء العشرين ص ٥٤) وليس أدل على ذلك من المقارنة بين قول التشيرى هنا وما جاء عند القرطبي في ١٨ ص ٢٥٥ قال التشيرى : وفي هذا نظر لأن الإصالة باليمين إنما تكون مع الاستحسان والإيماء لا مع الكرامة والبغض ، ولهذا قال : ويقولون إنه هيتون) أى ينسبك إلى الجنود إذا ولوك تقرأ القرآن .

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » كلمة عزيزة محتاج في سماعها إلى سَمْعٍ عزيز لم يُستعمل في سماع الغيبة ، واحتجاج في معرفتها إلى قلبٍ عزيز لم يَبْدُلْ في النقلة والغبية ، لم ينظر صاحبه بعينه إلى ما فيه رتبة ، ولم تقب نفسه اللبس ^(١) والطبّة ^(٢) .

قوله جل ذكره : « الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وما أدراك ما الْحَاقَّةُ » .

« الْحَاقَّةُ » : اسمٌ للقيامة لأنها تَحْمِلُ ^(٣) كلَّ إنسانٍ بعمله خَيْرُهُ وَشَرُّهُ .

« وما أدراك ما الْحَاقَّةُ ؟ » : استفهام يفيد التنظيم لأمرها ، والضميم لسانها .

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ » .

ذَكَرَ في هذه السورة : الذين كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ من الأمم ، وأصرُّوا على كفرهم ، ولم يقبلوا النصيحة من أنبيائهم ، فأهلكهم ، وانصم لأبيائهم منهم .

والفائدة في ذِكْرِهِم : الاعتبار بهم ، والتحرُّرُ عما فعلوا لئلا يُعييبهم ما أصابهم .

وعقوبة هذه الأمة مُؤَجَّلَةٌ مُؤَخَّرَةٌ إلى القيامة ، ولكنَّ خواصَّهم عقوبتهم مُعْجَلَةٌ ؛ هَؤُلَاءِ

(١) هكذا في ص أ ما في م نفس (اللبس) .

(٢) هكذا في م وهي في م (الطبقة) وقد رجعنا - وهو ترجيح بعيد - أنها قد تكون (الطبقة) بمعنى ادو والمهارة الناتجين عن الحيلة والتدبير ، وربما كانت (ولم يتبع مع نفسه الذين والطبقة فالنفس أملى الأعذار) .

(٣) لأنها تحم كل حماة في دين الله إلى كل محاسن (وهو قول الأزهري) . وساقته أي خاصته وأدعى كل واحد منها الحق (المساح) .

من هذه الطائفة إذا أشاعوا سراً ، أو أضعوا أدباً يملقهم بريح الحجة^(١) ، فلا يبقى في قلوبهم أثر من الاحتشام للذين ، ولا يما كان لهم من الأوقات ، ويصيرون على خطرٍ في أحوالهم بأن يُمتحنوا (بالاعتراض على التقدير^(٢)) والقسمة .

وأما فرعون وقومه فكان عذابهم بالفرق . . . كذلك مَنْ كان له وقتٌ فارغٌ وهو بطاعة ربّه مشغولٌ ، والحقُّ عليه مُقبلٌ — فإذا لم يشكر النعمة ، وأساء أدبه ، ولم يعرف قدرَ ما أنعم الله به عليه ردّه الحقُّ إلى أسباب التفرقة ، ثم أغرقه في بحار الاشتغال فيكدر مشربّه ، ويصير على خطرٍ بأن يُذكره سُخطُ الحقِّ وغضبه .

قوله جل ذكره : « إِنَّا لَنَّا طَعَنَ الْمَاءَ حَلِيقُكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » .

وكذلك تكون منته على خواص أوليائه حين يسلمهم في سفينة العافية ، والكون يتلاطم في أمواجِ الاشتغال على اختلاف أوصافها ، فيكونون بوصف السلامة ، لا مضارعة ولا محاسبة لهم مع أحد ، ولا توقّع شيء من أحدٍ ؛ سالون من الناس ، والناس منهم سالون .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ » .

بدأ في وصف القيامة والحساب . .

« يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » .

وفي كل نفسٍ مع هؤلاء القوم^(٣) محاسبة ومطالبة ، منهم مَنْ يستحق المأنة ، ومنهم - من يستحق للمأنة .

(١) في الإشارة قياس مل الريح إلى أهلكت عادة .

(٢) موجود في ص أما في م فهي (الإمراس) فقط .

(٣) يقصد أهل المجاهدات والذقات .

قوله جل ذكره: « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ
هَازِمٌ أَقْرَأُوا كِتَابِيَّةً * إِنِّي ظَنَنْتُ
أَنِّي مَلَائِكَةٌ حِسَابِيَّةٌ » .

يسلم له السرورُ بنعمة الله ، ويأخذ في الحمد واللدح .

« فهو في عيشة راضية » .

القومُ — غداً — في عيشة راضية أى مَرْضِيَّة لهم ، وهؤلاء القوم — اليوم — في عيشة راضية ، والفرق بينهما أنهم — غداً — في عيشة راضية لأنه قد قُضِيَتْ أوطارُهم ، وارتفعت مآربُهم ، وحصلت حاجاتهم ، وم — اليوم — في عيشة راضية إذ كفوا مآربهم فدفع عن قلوبهم حوائجهم ؛ فليس لهم إرادة شيء ، ولا تمسُّهم حاجة . وإنما هم في رَوْح الرضا . . فَيَشْهُوْا أَوْلَئِكَ فِي السَّلاَةِ ، وَعَيْشُ هَؤُلَاءِ فِي الرِّضَا ، لِأَنَّهُ إِذَا بَدَأَ عِلْمٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ أَوْ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا فَلَا يَكُونُ ثَمَّةُ حَاجَةٍ وَلَا سُؤَالٍ . وَيَقَالُ لِأَوَّلِكَ غَدًا .

« كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ
فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

ويقال لهؤلاء : اسمعوا واشهدوا . . اسمعوا منَّا . . وانظروا إلينا ، واستأنسوا بقربنا ، وطالعوا جلالنا وجلالنا . . فأنتم بنا ولنا .

قوله جل ذكره: « وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ
فَيَقُولُ : يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةً *
وَلَمْ أَدْرِمَا حِسَابِيَّةً * يَالَيْتَهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ » .

هناك — اليوم — أقوامٌ مهجورون تصاعد حسراتهم ، ونضاض أنيئهم — ليَّهم ونهارهم — قليلهم وبلّ ونهارهم بحدّ ؛ تسكّدت مشاربهم ، وخربت أوطان أنصبيهم ، ولا بكازم يؤخّم ، ولا أنيئهم يُسَمِّع . . فيندم أنهم مُبَدَّلُونَ . . وهم في الحقيقة من الله مرحومون ، أسبل عليهم السترَ فصترهم في أعينهم — وهم أكرم أهل القصة كما قالوا :

لا تُنْكِرْنَ جِطَىٰ هَٰؤُلَاءِ فَاَنتُمْ ذَاكَ الْجَعْدُ عَلَيْكَ سَتَرٌ مُّسَبِّلٌ
 قوله جل ذكره : « فلا أقسم بما تبصرون •
 وما لا تبصرون . »
 « لا » : صلة واللفظ : أقسم ؛ كأنه قال : أقسم بجميع الأشياء ، لأنه لا ثالث لما يبصرون
 وما لا يبصرون . وجواب القسم :

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ • »

أى وجهه عند الله • وقول الرسول الكريم هو القرآن أو قراءة القرآن .
 وما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن أى أن عمداً ليس شاعراً ولا كاهناً بل هو :
 « نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْمَالِئِينَ • »
 قوله جل ذكره : « وَلَوْ قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ •
 لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ لَقَطَمْنَا
 مِنْهُ الْوَتِينَ • »

أى لو كان محمدٌ يكذب علينا لمنناهُ منه وعصناه عنه ، ولو تمّد لعدّناهُ . والقول بصفة
 الأنبياء واجب . ثم كان لا ناصرَ له منكم ولا من غيركم ، وهذا القرآن :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ • وَإِنَّا لَنَعْلَمُ
 أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ • وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ
 عَلَى الْكَافِرِينَ • وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ • »

حقُّ اليقين هو اليقين بالإضافة هكذا إلى نفس الشيء^(١) .

وعلم الناس تختلف في الطرق إلى اليقين خفاءً وجلاءً ؛ فما يقال عن الترقى بين علم اليقين
 وعين اليقين وحقُّ اليقين يرجع إلى كثرة البراهين ، وخفاء الطريق وجلاءه ، ثم إلى كون
 بعضه ضرورياً وإلى بعضه كسبياً ، ثم ما يكون مع الإدراكات^(٢) .

(١) لو كان اليقين نعتاً لم يجوز أن يضاف إليه كما لا نقول : هذا ورد الأحمر ، بالإضافة هنا - كما
 يرى القشيري - إلى الشيء نفسه . فإن القرآن حق يقينٌ ويقينٌ حق .
 (٢) انظر محاولة القشيري التفريق بين معانيها في رسالته ص ٤٧ .

سُورَةُ الْمَعَاذِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله» كلمة من ظلمها وجدَّ جلالها، ومن شهدها شهد جلالها.

وليس كلُّ مَنْ ظَلَمَهَا ظَلَمًا، ولا كلُّ مَنْ احْتَلَمَهَا^(١) عَرَفَ جَلَالَهَا.

كلمة رقيقة عن إدراك الألباب منسية، كلمة على الحقيقة الصمدية دالة، كلمة لا بدَّ للعبد من ذكرها في كل حالة.

قوله جل ذكره: «سأل سائل بنذاب واقع».

الباء في «بنذاب» بمعنى عن، أى سأل سائل^(٢) عن هذا المذاب لِمَنْ هو؟ قال تعالى:

«للكافرين ليس له دافع».

الله ذى المارج».

هذا المذاب للكافرين ليس له دافع من الله ذى المارج؛ فهذا المذاب من الله.

ومعنى «ذى المارج» ذى الفضل ومعالى الدرجات التى يُبْلَغُ إليها أوليائه.

قوله جل ذكره: «تَمْرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يوم»

كان مقداره خمسين ألف سنة».

(١) هكذا في النسخين، ولو صحَّ أنها هكذا في الأصل فربما كان المعنى: ليس كلُّ مَنْ ادَّعى أنه يجيئه وتديره ومهارته وحلقه وصل إليها قد عرف أمرها.

(٢) هو التضرع الممارث قال: إن كان هذا هو الحق من متعة فأعطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بذاب أليم. وربما تكون سأل بمعنى دعا، ويكون السائل هو التضرع (مر).

« الروح » أى جبريل ، فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة من أيام الدنيا
يقضى به يوم القيامة .

ويقال : معناه يحلبسُ الخلقُ فى يومٍ قصيرٍ ووقتٍ يسيرٍ ما لو كان الناسُ يشتغلون به
لكان ذلك خمسين ألف سنة ، واللهُ يُجزئ ذلك ويمضيهِ فى يومٍ واحد .

ويقال : من أسفلِ الخلقِ إلى أعلاها مسيرةُ خمسين ألف سنة للناس ؛ فاللائكة
ترجع فيه من أسفلهِ إلى أعلاه فى يومٍ واحد .

قوله جل ذكره : « فَأَصْرِصْ صِرًا جِيلًا » .

فأصِرْ — بأحد^(١) — على مقاساةِ أدام صِرًا جيلًا . والصبرُ الجليلُ ما لا شكوى فيه .
ويقال : الصبرُ الجليلُ ألا تَسْتَقِيلَ الصبرَ بل تستدبه .

ويقال : الصبرُ الجليلُ ما لا ينتظرُ البدءَ الخروجَ منه ، ويكون ساكنًا راضيًا .

ويقال : الصبرُ الجليلُ أن يكون على شهودِ الشَّيْلِ .

ويقال : الصبرُ الجليلُ ما تجرَّد عن الشكوى والدَّعْوَى .

قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَهِيمًا • وَزَاهٍ قَرِيبًا •

إِنَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، وما اسْتَبْعَدَ مَنْ يَحْتَبِدُ إِلَّا لَأَنَّهُ مُرْتَلَبٌ ، فَأَمَّا الْوَاقِقُ
بِالشَّيْءِ فهو غيرُ مُسْتَبْعَدٍ لَهُ .

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَكُونُ السَّاهُ كَالْثَهْلِ •

وتكونُ الجبالُ كاللَّيْنِ » .

الإشارة فيه أنه فى ذلك اليومَ مَنْ كان فى سُمُوٍّ غَوِيٍّ وَثَبُوهٌ صَوْلَتُهُ بَلِينٌ وَيَسْتَكِينُ
وَيَصْفُفُ مَنْ كَانَ يَشْرَفُ ، وَيَذَلُّ مَنْ كَانَ يُذَلُّ .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيًّا » .

لا يَتَفَرَّغُ قَرِيبٌ إِلَى قَرِيبٍ ؛ فَكُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُفْنِيهِ .

(١) هكذا فى م س وحى ق م (بأحد) وواضح فيها أنها اشتبهت على الناسخ .

ولا يَصْهَرُ لَهُ السَّائِكِينَ — في ذلك اليوم — إلا الله .

« يَصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ لَوَيْلَى
مِنَ عَذَابِ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُ • وَصَاحِبَتِهِ
وَأَخِيهِ • وَفَضِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ • وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » .

« يصرونهم » أى يعرفون أقدارهم ، ولكن لا تَرَقُّ قُلُوبُ بعضهم على بعض .
ويتساقط الجرمُ يومئذٍ أَنْ يُتَدَيَّرَ من عذاب جهنم بأعزَّ مَنْ كَانَ عليه في الدنيا من
قريبٍ ونسبٍ وحميمٍ ووليدٍ ، وبكلِّ مَنْ في الأرض حتى يخلص من العذاب .
« كَلَّا لَأَمَّا لَهَا لَغْوِي » .

اسم من أسماء جهنم .

« رَّاعَةً لِّلشَّوْيِ » ^(١) .

قَلَّاعَةٌ لِلْأَطْرَافِ . تَكْشِطُ الْجِلْدَ عن الوجه وعن العظم .

قوله جل ذكره : « تدعو مَنْ أَذْبَرَ وَتَوَلَّى » .

قول جهنم للكافر والمنافق : يَا فُلَانُ .. إِلَى إِيَّائِي .

والإشارة فيه : أَنَّ جهنَّمَ الدنيا تعلق قلب المرء فتدعوه بكلام الجحيم إلى نفسه وتجبره
إلى جمعها حتى يؤثرها على نفسه وكلِّ أحدٍ له ؛ حتى لقد يَبْخَلُّ بديناه على أولاده وأَعَزَّتْهُ ...
وقليلٌ مَنْ نجا من مكر الدنيا وتسويلاتها .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَكُوعًا » .

(١) والشَّوْيِ جمع شَوَاةٍ وهي جلدة الرأس ، قال الأعمش :

قَالَتْ قُتَيْبَةُ : مَا لَكَ قَدْ جِلَّتْ شَيْئًا شَوَانُهُ

وجاء ن السباح : الشَّوْيِ جمع شَوَاةٍ وهي جلدة الرأس . وهي اليدين والرجلين والرأس من الآسفين ،
وكل ما ليس بمقتل . يقال : رماه فأشواه أي لم يصيب المقتل .

وقال الضحاك : تفرى الجلد والعظم من العظم حتى لا تترك منه شيئاً . ونرى أن المقصود — والله أعلم .
أن العذاب لا يقتضى عليهم ، حتى يستمر واقفاً بهم إلى الأبد .

وتفسيره ما يليه :

« إِذَا مَنَّ الشَّرُّ جَزَوْكَ • وَإِذَا مَنَّ

الْخَيْرُ مَنَعَكَ » .

وَالهَلْعُ شِدَّةُ الْحَرِّ مِنْ مَعَ الْجَزَعِ . وَيَقَالُ هَلْعًا : مُتَلَبِّيًا فِي غُرَاتِ الشَّهَوَاتِ .

وَيَقَالُ : يَرْضِيهِ الْقَلِيلُ وَيُسْنِطِلُهُ الْبَسِيرُ .

وَيَقَالُ : عِنْدَ الْحَمَةِ يَدْعُو ، وَعِنْدَ النِّعْمَةِ يَنْسُو وَيَسْهُو .

« إِلَّا السَّمَكَيْنِ • الَّذِينَ هُمَ عَلَى

صَلَاتِهِم دَائِمُونَ » .

اسْتَنْثَى مِنْهُمْ الْمَصْلِينَ — وَهُمُ الَّذِينَ يُلَازِمُونَ أَبَدًا مَوَاطِنَ الْاضْطِرِّ ؛ مِنْ صِلَى الْمَسْكَنِ^(١) .

« وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ •

لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » .

وَهُوَ لِلتَّكْتِفِ وَالْمُتَعَتِفِ .

وَمِنْ عَلَى أَقْسَامٍ : مِنْهُمْ مَنْ يُؤْتَرُ بِمَجِيعِ مَالِهِ ؛ فَأَمْوَالُهُمْ لِكُلِّ مَنْ قَعَدَ ، لَا يَخْصُونَ سَائِلًا مِنْ عَائِلٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْطَى وَيَسْكُ — وَهَؤُلَاءِ^(٢) مِنْهُمْ — وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى يَدَهُ يَدَ الْأَمَانَةِ فَلَا يَتَكَلَّفُ بِاخْتِيَارِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْتَظِرُ مَا يُشَارِعُ بِهِ مِنْ الْأَمْرِ ؛ إِنَّمَا بِالْإِمَّاكِ فَيَقِفُ أَوْ يَبْذُلُ الْكُلَّ أَوْ الْبَعْضَ فَيَسْتَجِيبُ عَلَى مَا يُطَالَبُ بِهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الْوَقْتِ وَهَؤُلَاءِ أَمْثَلُهُمْ .

(١) مَسْكِينَتَانِ لَلثَنَةِ أَوْ الْحَامِلِ وَنَحْوَهَا اسْتَرْخَى صَلَاحًا لِقَرَبِ تَنَاجُهَا (الْفَرَسِيطُ) .

(٢) أَيْ الَّذِينَ تَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ الْآيَةُ .

« وَالَّذِينَ يُضَاهُونَ يَوْمَ الدِّينِ » .

وأما رتبهم الاستعداد للموت قبل نزوله ، وأن يكونوا كإقيل :

مستوفزون على رجلٍ كأنهم قد يريدون أن يمضوا فيرتحلوا

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ قُرُوجِهِمْ حَافِلُونَ »

إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ • فَمَنْ أَبْغَضَ

وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَالِدُونَ » .

وإنما تكون صحبتهم مع أزواجهم للتصفف وصون النفس ، ثم لاجتماع أن يكون له ولد من صلبه يذكر الله . وشرط هذه الصفة : أن يعيش معها على ما يهون ، ولا يغيرها إلى هوى نفسه ويعملها على مراده وهواه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ »

يحفظون الأمانات التي عندهم للعالم ولا يخونون فيها . وأمانات الحق التي عندهم أعضاءهم الظاهرة — فلا يدسونها بالخطايا ؛ فالمعرفة التي في قلوبهم أمانة عندهم من الحق ، والأسرار التي بينهم وبين الله أمانات عندهم . والفرائض والوفاؤم والتوحيد .. كل ذلك أمانات .

ويقال : من الأمانات إقرارهم وقت الدين . ويقال : من الأمانات عند العبد تلك الحجة التي أودعها الله في قلبه .

قوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ » .

شهادتهم لله بالوحدانية ، وفيما بينهم لبعضهم عند بعض — يقومون بحقوق ذلك كله .

قوله جل ذكره : « فَلِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَبَاتٌ قَبْلَكَ مَهْلَكِينَ »

عن المؤمنين وعن المشركين عزيين » .

والإمطاع أن يُقبلَ يصبره إلى الشيء فلا يرفقه عنه ، وكذلك كانوا يفعلون عند النبي صلى الله عليه وسلم « وعزيين » : أي خَلَقًا خَلَقًا ، وجماعة جماعة .

« أَطْمَحُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ؟ »

كلّا .. إنك لاتدعو عن هذا ! وليس هذا بصوابٍ ؛ فليهممهم - اليوم - كفار ، وغداً ياملون بما يستوجبون .

« فلا أقسمُ ربَّ للشارق والمنارب . . لا — هنا صلة ، وللمنى أقسم . وقد مضى القولُ في للشارق والمنارب - « إنا قادرون » على ذلك .

« فنذرمُ يخوضوا ويلعبوا » غاية التهديد والتوبيخ لهم .

« يومٌ يخرجون من الأجداث سراعاً » كأنهم يسرعون إلى أصنامهم ، شبه إسرائيل حين قاموا من القبور إسرائيلهم إلى النُصْبِ - اليوم - كي يقوموا بعبادتهم إياها .

سُورَةُ نُوحٍ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمُ مَنْ قَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ بِقُدْرَتِهِ ، وَاسْتَقَامَتِ الْأَسْرَارُ وَالْقُلُوبُ بِمَصْرَتِهِ .. دَلَّتِ الْأَفْعَالُ عَلَى جَلَالِ شَانِهِ ، وَدَلَّتِ الرَّقَابُ عِنْدَ شُهُودِ سُلْطَانِهِ . أَشْرَقَتِ الْأَفْئَالُ بِنُورِهِ فِي الْمَقْبَى ، وَأَشْرَقَتِ الْأَسْرَارُ بِظُهُورِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَهُوَ الْقُدُّوسُ الْوَصَفُ الْأَعْلَى .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ

قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

أَرْسَلْنَا نُوحًا بِالنَّبِيِّ وَالرَّسَالَةِ . « أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ » أَيْ بَانَ أَنْذَرَهُمْ وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنَ اللَّهِ فَضْلٌ^(١) ، وَلَهُ بِحَقِّ مُلْكِهِ أَنْ يَفْعَلَ مَا أَرَادَ ، وَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ إِرْسَالُ الرُّسُلِ لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ لَا تَقْبَلُ الْوُجُوبَ .

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَى مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ جَائِزٌ^(٢) ، وَتَكْلِيفُهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَقْلُ جَائِزٌ^(٣) .

فُتُوحٌ — عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ .. وَمَعَ ذَلِكَ بَلَغَ الرِّسَالَةَ وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ :

« قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ »

أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَهْوُوا وَأَطِيعُوا^(٤)

(١) فِي التَّسْنِينِ (تَمَلُّ) وَهِيَ صَوَابٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ نُبَا يَمْدُ : (أَنْ يَفْعَلَ) مَا أَرَادَ وَلَكِنَّا رَجَعْنَا (فَضْلًا) لِأَنَّ الْقَشِيرَى يَمْشِي بِمَنْعَالِ (الْفَضْلِ) عِنْدَمَا يَتَصَدَّقُ عَنْ نَبِيٍّ (الْوُجُوبُ) عَلَى اللَّهِ .

(٢) كَيْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ حُجَّةً ، قَالَ تَمَالَى : « رَسَلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ يَمْدُ بِدِ الرُّسُلِ » .

(٣) وَلَكِنْ لَا عِقَابَ إِلَّا بِدِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ ؛ لِأَنَّ الْمَقْلُ وَحْدَهُ غَيْرُ كَافٍ فِي قَطْعِ الْمُنْفَرَةِ (تَارُونَ ذَلِكَ بِأَرَادِ الْمُنْزَلَةِ) .

« يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُغْفِرْ لَكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ
لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

يَغْفِرْ لَكُمْ « مِنْ » ذُنُوبِكُمْ : مِنْ هُنَا لِلْجَنَسِ لَا لِلتَّبْيِيزِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :
« فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » .

وَيَقَالُ : مَا مَعْلُومُهُ دُونَ مَا مَعْرُومُهُمْ أَنَّهُمْ سَيُفْلَوْنَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ غَفَرَ لَهُمْ ذَلِكَ كَانَ
إِغْرَاءً لَهُمْ .. وَذَلِكَ لَا يَحْجُزُ . فَأَبْرَأُوا أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ ، فَقَالَ :

« قَالَ رَبُّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا
وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » .

يَعْنِي أَنَّ الْمُهْدَايَةَ لَيْسَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنِّي أَرَدْتُ إِعْثَابَهُمْ قُلُوبَهُمْ بِقُدْرَتِكَ — سَبْحَانَكَ .
قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : « وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا »

وَأَيُّ مَا أَزْدَدَتْ لَهُمْ دَعَاءَهُ إِلَّا أَزْدَادُوا إِصْرَارًا وَاسْتِكْبَارًا .

وَيَقَالُ : لَمَّا دَامَ بَيْنَهُمْ إِصْرَارُهُمْ تَوَلَّى مِنَ الْإِصْرَارِ اسْتِكْبَارُهُمْ ، قَالَ تَعَالَى :
« فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَكَسَتْ قُلُوبَهُمْ » ^(١)

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : « ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا » • ثُمَّ إِنِّي

أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَصْرَنْتُ لَهُمْ إِصْرَارًا •

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

غَفَّارًا • يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا •

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا • .

(١) آيَةُ ١٦ سُورَةِ الْحَجِّدِ .

ليعلم العالمون : أنَّ الاستغفار قرعُ أبوابِ النعمة ، فمن وقت له إلى الله حاجةً فإن يصل
إلى مراده إلا بتقديم الاستغفار .

ويقال : مَنْ أَرَادَ التَّفَضُّلَ فَلْيُفِضْ بِالْمُذَرِّ وَالتَّنْثِيلِ .

قوله : « يرسل السماء عليكم . . . » : كان نوح عليه السلام كاملاً ازداد في بيان
وجوه الخير والإحسان زادوا هم في الكفر والنسيان .

قوله جل ذكره : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ »

ما لكم لا تخافون لله عظمة ؟ وما لكم لا ترجون ولا تؤمنون على توفيقكم للأمر
من الله لطفاً ونعمة ؟ .

« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ

سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَلَّ الْقَمَرُ فِيهِنَّ

نُورًا * وَجَلَّ الشَّمْسُ سَرَابًا »

ثم نبههم إلى خلق السموات والأرض وما فيها من اللذات على أنها مخلوقة ، وعلى أنَّ
خالقها يستحق صفات الملوك والمزفة .

ثم شكوا نوحاً إلى الله وقال :

« قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني

وَأَنبِئُوا مَنْ لَمْ يَرْزُقْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ

إِلَّا خُسَارًا * وَكَرِهُوا مَكْرًا كُبْرَارًا »

يعني كبارهم وأغنياءهم الذين ضلُّوا في الدنيا وهلكوا في الآخرة .

« وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ

الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » .

وذلك بتعريف الله تعالى إياه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . فاستجلب الله
فيهم دعاءه وأهلكهم .

(١)

سُورَةُ الْجِنِّ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسم عزيز به أَقْرَبُ مِنْ أَقْرَبَ بربوبيته ، وبه أَصْرَ مِنْ أَصْرَ على معرفته ، وبه استقرَّ من استقرَّ من خلقته ، وبه ظَهَرَ مَا ظَهَرَ من مقدوراته ، وبه بَطَّنَ مَا بَطَّنَ من مخاوفاته (٢) ، فَمَنْ جَعَدَ فَبِخْذَلَانِهِ (٣) وحرمانه ، ومن وَحَدَ (٤) فيلحاضته وامتنانه .

قوله جل ذكره : « قُلْ أُوْحِي إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ

الْجِنِّ قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا »

قيل : إن الجِنَّ كانوا يأتون السماء فيستمعون إلى قولِ الملائكة ، فيحفظونه ، ثم يلقونه إلى السكنة ، فيزبدون فيه ويقتصون . . . وكذلك كانوا في الفترة التي بين نبينا صلى الله عليه وسلم وبين عيسى عليه السلام . فلَمَّا بُعِثَ نَبِيْنَا صلى الله عليه وسلم وَرُجِعُوا بِالشُّبْهِ عَلَّمَ إبليس أنه وقع شيء (٥) فَرَّ جنوده ، فَاتَى ثَمَّةٌ مِنْهُمْ إِلَى بَطْنِ نَخْلَةٍ وَاسْتَمِعُوا قِرَاءَتَهُ صلى الله عليه وسلم فَأَمَنُوا ، ثُمَّ آتَوْا قَوْمَهُمْ وَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَأَمَنَّا بِهِ . . . إلى آخر الآيات .

(وجاء سبعون منهم وأسلموا وذلك قوله تعالى : « وَإِذَا صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ » (٦))

(١) أعطى التلخيص في ص وجهها (سورة الزمل) بيانا للتفسير جارم لسورة الجن .

(٢) إشارة إلى الجن . . . وهنا نوع من القرايط بين إعجازات البسمة والسورة .

(٣) الباء هنا مناعدا (بسبب) أي أن الملاحدة جحد بسبب غلغلان الله له في القصة .

(٤) حكلا في ص وهي القلوب نبيا في م (تصد) ونحن نعلم أن القشيري يستعمل (جحد) و (وح)

متقابلين .

(٥) وحديث شيء في الأرض (الترمذي) .

(٦) ما بين التوسين وود في م ولم يرد في ص ، والآية هي رقم ٢٩ سورة الأحقاف .

قوله جل ذكره : « وأنه نال جُدُّ ربنا ما اتَّخَذَ صاحِبَةً ولا ولداً » .

الجَدُّ العَظَمَةُ ، والعَظَمَةُ اسْتَحَقَّتْ تَوَاتُرَ الجَلالِ .

« وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً » .

أراد بالسفيه الجاهل بأنه يفتي إبليس - والشطط السرف .

« وأنا ظننَّا أن لَّنَ تحولَ الإنسانُ والجنُّ على الله كذباً » .

في كفرهم وكلمهم بالشرك .

« وأنه كان رجالاً من الإنسانِ يعوذون برجالٍ من الجنِّ فزادهم رهقاً » .

أى ذلة وصغار ؛ فالجنُّ زادوا للإنسانِ ذلَّةً ورهقاً^(١) (فكانوا إذا نزّلوا يقولون : نعوذُ ربِّ هذا الوادى فيومُ الجنِّ أنهم على شئٍ فزادهم رهقاً)^(٢) حيث استعاذوا بهم .

قوله جل ذكره : « وأأنهم ظنُّوا كما ظننتم أن لَّنَ يَبْعَثَ اللهُ أحداً » .

أى ظنُّوا كما ظنَّ الكفارُ من الجنِّ ألا بَشَ ولا نَشور — كما ظننتم أيها الإنسانِ .

« وأنا لَكُنَّا السماءَ فوجدناها ملئتٍ حَرَساً شديداً وشهباً » .

يعنى حين مُتَمَرَا عن الاستماع .

« وأنا كُنَّا نحمدُ منها مقامَ السَّمْعِ فمن يَسْمَعُ الآنَ يَحْدِثُ شهاباً رَصَداً » .

(١) أى أن الجن زادوا الإنسان رهقاً وهو الخليفة والإثم حين استعاذوا بغير الله .
وقال مجاهد : زاد الإنسان الجن رهقاً أى غلباها بهذا التمرد حتى نالت الجن : سدُّنا الإنسان والجن .
(٢) ما بين القوسين موجود فى ص وغير موجود فى م .

هَلْكَانَ قَدْ مُنِعْنَا .

« وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنِ فِي
الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ؟ » .
« وَالَّذِينَ اسْتَلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ
لَأَسْتَبِينَهم مَلَأَ غَدَقًا » .

الاستقامة على الطَّرِيقَةِ تَنْفِضُ إِكَالَ النَّمْعِ وَإِكْثَارَ الرَّاحَةِ . وَالْإِعْرَاضُ عَنْ اللَّهِ
يُوجِبُ تَنْمِصَ الْمَيْثُورِ وَدَوَامَ الْعُرْبَةِ .

قوله جل ذكره : « وَأَنَّ السَّاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ
اللَّهِ أَحَدًا » .

للسجدة فضيلة ، ولهذا خصَّه الله سبحانه وأفرده بالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْبَنَاتِ ، فهو محلُّ العبادة ..
وكيف يحلُّ العابد عنده إذا حلَّ محلُّ قَدَمِهِ (١) ١٩ .

ويقال : أراد بالساجد الأعضاء التي يسجد عليها ، أخبر أنها لله ، فلا تنبدوا بما لله غير الله .
قوله جل ذكره : « وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا » .

لما قام عبد الله يعني محمداً عليه السلام يدعو اتَّخَلَّقَ إِلَى اللَّهِ كَادَ الْجَنُّ وَالْإِنْسُ يَكُونُونَ
مَجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ ، يَمْنَعُونَهُ عَنِ التَّبْلِغِ ، قُلْ يَا مُحَمَّدُ :

« قُلْ إِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ
اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ
مُلْتَجَاً » .

لَا أَقْدِرُ أَنْ أَذْفَعَ عَنْكُمْ ضَرًّا ، وَأَسْوَقَ لَكُمْ خَيْرًا .. فَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ اللَّهِ . وَلَنْ أَجِدَ
مِنْ دُونِهِ مُلْتَجَاً إِلَّا :

(١) العبادة غاشقة وتحتاج إلى ترفيع .. وربما قصد التشيُّرُ إِذْ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِلْمَسْجِدِ وَهُوَ مَحَلُّ تَعَمُّدِ الْعَابِدِ
مَكْرَمًا .. فَيَا يَالِكَ بِالْعَابِدِ نَفْسَهُ ، وَعَمَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ .

« إِنْ بَلَغَا مِنْ اللَّهِ رِسَالَتَهُ »

فَلَنْ يُعْجِبَنِي مِنْ اللَّهِ إِلَّا تَبْلِيغِي رِسَالَتَهُ بِأَمْرِهِ .

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا » .

قوله جل ذكره : « قُلْ إِنْ أَدْرَى أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَمْلِكُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا »

أى : لا أدري ما تُوعَدُونَ من العقوبة ، ومن قيام الساعة أَقْرَبَ أَمْ بعيد ؟ فكونوا على حذر . ويجب أن يتوَقَّع العبدُ العقوباتُ أبدأً مع مجارى الأُفْهاسِ ليسلم من العقوبة .

قوله جل ذكره : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا • إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ »

فيُظْلِمُهُ بَقْدَرٍ مَا يُرِيدُهُ .

« لَعَلَّكُمْ ^(١) أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا » .

أرسل مع الوحي ملائكةً قُدَّامَهُ وَخَلْفَهُ . . . هم ملائكةٌ حَفَظَةُ ، يَحْفَظُونَ الْوَحْيَ مِنَ الْكُفَّةِ وَالشَّيَاطِينِ ، حتى لا يَزِيدُوا أو يَنْقُصُوا الرِّسَالَاتِ الَّتِي يَحْمِلُهَا . . . والله يعلم ذلك ، وَأَحَاطَ عِلْمُهُ بِهِ .

(١) قرأ ابن عباس (رضي الله عنه) أو يسمي الناس أن المرسل قد أبلغوا رسالات ربهم .

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» : الحادثاتُ بالله حصلت ، قلوبُ المارين بالله عرفت ما عرفت وأرواحُ الصّديقين بالله ألفت من ألفت وفهومُ الموحّدين بسلطانِ جلاله وقّعت ، وضموسُ المابدين بالعجز عن استعطاق عبادته اتّصفت وعقولُ الأولين والآخرين بالجبر عن معرفة جلاله أعرفت .

قوله جل ذكره : «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ • قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا •

أى : للزمّل للتلفّ في ثيابه . وفى الخبر : أنه كان عند نزول هذه الآية عليه مرط من شعرٍ ووبرٍ ، وقالت عائشة رضى الله عنها : كان نصفه علىّ وأنا نائمة ، ونصفه على رسول الله وهو يُصلّى ، وطولُ المرطِ أربعة عشر ذراعاً^(١) .

«نِصْفَهُ أَوْ أَشْهُسٌ مِنْهُ قَلِيلًا • أَوْ زِدْ

عليه ورتّل القرآن ترتيلاً» .

قم الليل إلا قليلاً ، نصفه بذلك منه ؛ أى : قم نصف الليل ، وأشْهُسٌ من النصف إلى الثلث أو زِدْ على الثلث ، فكان عليه الصلاة والسلام فى وجوب قيام الليل مُعَيَّرًا ما بين ثلث الليل إلى النصف وما بين النصف إلى الثلث . وكان ذلك قبل قرَضِ الصلوات الخمس ، ثم نُسِخَ بد وجوبها على الأمة — وإن كانت بقيت واجبة على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويقال : يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ بأعباء النبوة . . قم الليل .

(١) معنى هذا : أن السورة مغمية وليس مكية ، لأن التمس لم يثبت بمكة إلا فى المدينة .

وقال : أيها الذي يُخفي ما خصصناه به قُمْ فَأُنذِرْ . . فلما نصرناك^(١) .

وقال : قُمْ بنا . . يا مَنْ جلنا الليل ليسكن فيه كلُّ الناس . . قُمْ أنت
فليسكن الكلُّ . . ولتَمَّ أنت .

وقال : لكَ فَرَضٌ عليه القيام بالليل أخبر عن نفسه لأجل أمته وإكراماً لشأنه وقدره .
وفي الخبر : « أنه ينزل كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ... » ولا يُدرى التأويل للخبر^(٢) ،
أو أنَّ التأويل مألوم . . وإلى أن ينتهي إلى التأويل فلا حجابٍ راحةٍ كثيرة ، ووجوه
من الإحسان موفورة .

قوله جل ذكره : « وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ حَرْتِلًا »

لِتَتَعَ بِرَبِّكَ فِي فَهْمِهِ ، وتَأَنَّ بلسانك في قراءته .

« إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا » .

قيل : هو القرآن . وقيل : كلمة لا إله إلا الله .

وقال : الوحي ؛ وتجاه ثقيلاً أى خفيفاً على اللسان ثقيلاً في اللبزان .

وقال : ثميل أى : له وزن وخطر . وفي الخبر : كان إذا نزل عليه القرآن — وهو على
ناقته — وضمت جرائها^(٣) ، ولا تكاد تتحرك حتى يُسرِّي عنه .

ودروى ابن عباس : أن سورة الأنعام نَزَلَتْ مرةً واحدةً فَبَرَكْتَ ناقتهُ رسول الله
صلى الله عليه وسلم من ثقل القرآن وهيته .

وقال « ثميلاً » سماعه على مَنْ جصده

(١) هذا ترجمان عجزيان لفظة (النزل) .

(٢) هذا الخبر فضلاً كان موضع نظر ؛ فقد روى عن طريقين عن أبي هريرة عن الشك ، ففي صحيح مسلم
عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : إذا مضى شطر الليل أو ثلثه ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا
وفي رواية أخرى : « ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ،
أنا الله من ذا الذي يقرئكم القرآن ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيهِ ؟ من ذا الذي يستغفر لي فأغفر له ؟ فلا يزال
كذلك حتى يمضي الليل » . وخرجه ابن ماجه من حديث ابن شهاب عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن الرسول (ص)
قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى حين يمضي ثلث الليل الآخر فيقول . . . وهكذا انتظم الحديث والقرآن .

(٣) أى : صدمها .

ويقال : « قِيلَا بِمِثْنَيْهِ — إِلَّا عَلَى مَنْ أُيِّدَ بِقُوَّةِ سَمَاوِيَّةٍ ، وَرُئِيَ فِي جِجْرِ التَّغْرِيبِ »
 قوله جل ذكره : « إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا
 وَأَقْوَمُ قِيلًا » .

أى : ساعات الليل ، فكل ساعة تحدث فيها ناشئة^(١) ، وهى أشد وطئاً أى : مُوسَّطَةً
 أى : هى أشد موافقةً للسان والقلب ، وأشد نشاطاً .
 ويعتدل : هى أشد وأغلظ على الإنسان من القيام بالنهار .
 « وأقوم قِيلاً » أى : أَيْبَنُ قولاً .

ويقال : هى أشد موافقةً للقلب وأقوم قِيلاً لأنها أبعد من الرياء ، ويكون فيها حضور
 القلب وسكون السر أبلغ وأتم .
 قوله جل ذكره : « إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا » .

أى : سبْحاً فى أعمالك ، والسيح : اللعاب والسرعة ، ومنه السباحة فى الماء .
 فالمرنى : مناهيك فى النهار فيما يَشْفَعُكَ كثيرةٌ — واللَّيْلُ أَخْلَى لَكَ .
 قوله جل ذكره : « وَأَذْكُرْ اسمَ رَبِّكَ وَتَقَبَّلْ إِلَيْهِ
 تَجِيلاً » .

أى : اضطلعْ إليه اضطلاعاً تاماً .

« رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

الوكيلُ مَنْ تَوَكَّلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ ؛ أى : تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَكِلْ أَمُورَكَ إِلَيْهِ ، وثيق به ..
 ويقال : إنك إذا اتخذت من المخلوقين وكَيْلًا اخْتَرَلُوا مَالَكَ وَطَالَبُوكَ بِالْأَجْرَةِ ،
 وإذا اتخذت وكَيْلًا أَوْفَرُ عَلَيْكَ مَالَكَ وَأُعْطِيكَ الْأَجْرَ .

(١) قال ابن مسعود : الحيفة يقولون : نشأ أى قام .

فكان ناشئة الليل مصدر بمعنى قيام الليل ... مثل خاطئة وكاذبة .. فلذا اقرعنا أنها كلمة شائعة الاستعمال
 عند الحيفة بهذا المعنى فلها ذات أصل عربي أيضاً .

وقال : وكيف ينفق عليك من مالك ، وأنا أربذك وأثق عليك من مالي .

وقال : وكيف من هرو في القدر دونك ، وأنت ترفع أن تكلمة كثيراً . وأنا ربك وسيدك وأحب أن تكلمني وأكلمك .

قوله جل ذكره : « وأصبر على ما يقولون وأهجرم هجرًا جيلًا » .

الهجر الجليل : أن تمشيهم بظاهرك وتباينهم بسرّك وقلبك .

وقال : المجر الجليل ما يكون لحق ربك لا تحفظ نفسك .

وقال : المجر الجليل ألا تكلمهم ، ونكلمني لأجلهم بالدعاء لهم .
وهذه الآية منسوخة بآية القتال^(١) .

قوله جل ذكره : « وذري والمكذّبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً » .

أى : أولي التّهم^(٢) ، وأنظريهم قليلاً ، ولا تهتمّ بشأنهم ، فإنّ أ كفيك أمرهم .

قوله جل ذكره : « إنّ لدينا أنكلاً وجحياً * وطعناً ذا غصّة وعذاباً ألياً » .

ثم ذكر وصف القيامة فقال :

« يوم تَرَجُّفُ الأرضُ والجبالُ
وكانتِ الجبالُ كغصّاً مهيلًا » .

(١) قال قتادة : كان هذا قبل الأمر بالقتال ، ثم أمر بهد يقتلهم وتقتلهم فنسخت آية القتال ما كان قبلها من الترك . (القرطبي) ١٩٨ ص ٤٥ .

(٢) هم صناديد قريش ، وروساء مكة من المشركين .
وقال يحيى بن سلام : إنهم ينو المنيرة .

وقالت عائشة : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيراً حتى وقعت وقعة بدر .

ثم قال :

« إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا
عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » .

يعنى : أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ « كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولًا » ، « فَمَعَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولُ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا » ههنا .

« فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا » من مَوَلَاهُ يصير الزمانُ شيئاً — وههنا على
صَرْبِ المثل .

« السَّاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » أى بذلك : اليوم لهوله ^(١) .

ويقال : مُنْفَطِرٌ بالله أى : بأمره .

« كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » : فَاوْعَدَ اللَّهُ سَيَصْلِقُهُ .

« إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ » : يعنى هذه السورة ، أو هذه الآيات مَوْعِظَةٌ ؛ فَتَنَ انمط
بها سَمِدٌ .

« إِنَّ رَبَّكَ » يا محمد « يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ
الَّذِينَ مَعَكَ » من المؤمنين .

« وَاللَّهُ يُدْرِكُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » فهو خَالِقُهُمَا « عَلِيمٌ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ » وتطعيموه .

« فَتَقَابَ عَلَيْكُمْ » أى : خَفَّفَ عَنْكُمْ ^(٢) ، « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ » من خمس آيات
إلى ما زاد . ويقال : من عَشَرَ آياتٍ إلى ما يزيد ^(٣) .

(١) حكى فى م وهى فى ص (لفظه) والصواب ما جاء فى م كاهو وانشج من السيل .

(٢) كان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح غلاة أن يخطئ ، فانتفضت أقدامهم ، وانتضمت ألوانهم ، فرسمهم الله وغفط عنهم (مقاتل) .

(٣) قال الحسن : من قرأ مائة آية فى ليلة لم يحاجه القرآن ، وقال كعب : كُتِبَ من القرآنين .
وفى حديث مسند من عبد الله بن عمرو : أن النبى (ص) قال : « من قام بشهر آيات لم يكتب من القرآنين ، ومن قام بمائة آية كتب من القرآنين ، ومن قام بألف آية كتب من القرآنين (= أعلى من الأجر قطاراً) » خرجه
أبو داود الطيالسى فى مسنده .

« عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ » يسافرون ، ويعلم
أصحاب الأعذار ، فَفَسَخَ عَنْهُمْ قِيَمَ اللَّيْلِ .
« وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ » للفروضة .
« وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » مضى مثله .
« وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ » أى : ما تقدموا من طاعة تجدوها عند الله ثواباً
هو خير لكم من كل متاع الدنيا .

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمةٌ سَمَاعُهَا نَزْهُةٌ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ ، كَلِمَةٌ سَمَاعُهَا بَهْجَةٌ أَسْرَارِ الضُّعَفَاءِ ، رَاحَةٌ أَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ ، قُوَّةٌ قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ ، سُنَّةٌ صُدُورِ الْأَصْفِيَاءِ ، قُرْءَةٌ عِيُونِ أَهْلِ الْبِلَادِ .
قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ » .
يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ بِشَوَاهِدِهِ .

وهذه السورة من أول ما أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ . قيل : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبَ إِلَى حِرَاءَ قَبْلَ النَّبُوءَةِ ، فَبَقِيَ لَهُ جَبْرِيلُ فِي الْمَوَاءِ ، فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى بَيْتِ خَدِيجَةَ وَهُوَ يَقُولُ « دُثْرُونِي دُثْرُونِي » فَذَكَّرَهُ بِنُوبِ قَبُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ وَقَالَ : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ » ^(١) .
وقيل : أَيُّهَا الْعَالِبُ صَرَفَ الْأَذَى عَنْكَ بِالْإِثَارِ أَطْلَبَهُ بِالْإِنْذَارِ .

وَيَقَالُ : قُمْ بِنَا ، وَأَسْقِطْ عَنْكَ مَا سَوَانَا ، وَأَنْذِرْ عِبَادَنَا ؛ فَقَدْ أَقْنَعَكَ بِأَشْرَفِ الْمَوَاقِفِ ، وَوَقَفْنَاكَ بِأَعْلَى الْمَقَامَاتِ .
وَيَقَالُ : لَمَّا سَكَنَ إِلَى قَوْلِهِ : « قُمْ » وَقَامَ قَطَعَ سِرَّهُ عَنْ التَّكُونِ إِلَى قِيَامِهِ ، وَمِنَ الطَّائِفَةِ فِي قِيَامِهِ .

قوله جل ذكره : « وَوَيْكَ فَكَبِّرْ » .

(١) حَدَّثَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : جَاوَرْتُ بِمِرَاءَ شَهْرًا ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلَتْ فَاسْتَيْطَسْتُ بِلَهْلِ الْوَادِي ، فَخُدَيْتِ ، فَتَنَزَّلْتُ أَمَامِي زَعْلَانٍ وَمِنْ يَمِينِي وَمِنْ شِمَالِي فَلَمَّ أَرَأَسُكَ ، ثُمَّ نَوْدَيْتُ فَتَنَزَّلَتْ فَلَمَّ أَرَأَسُكَ ، ثُمَّ نَوْدَيْتُ فَرَفَعَتْ رَأْسِي فَلَإِذَا جَبْرِيلُ عَلَى حَرَشٍ فِي الْهَوَاءِ تَأَلَّعَتْنِي رَجْفَةً شَدِيدَةً فَأَتَيْتُ عَدِيمَةَ فَقُلْتُ : دُثْرُونِي . فَضَبُّوا عَلَيَّ مَاءً . وَوَاءَ الْبَحْثَارَى بِهَذِهِ الْتَهَامَةِ : دُثْرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا فَدُثْرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا فَتَنَزَّلْتُ : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .

كَبَّرَهُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ ، وَوَضَّلَ وَفَضَّلَ ، وَعَلَّ وَخَلَقَ .

« وَيَا بَكَ فَطَهَّرْ » .

طَهَّرَ قَلْبَكَ مِنْ ابْغْلَانِ أَجْعَ ، وَعَنْ كُلِّ صِفَةٍ مَنُومَةٍ .

وَطَهَّرَ نَفْسَكَ مِنَ الزَّلَّاتِ ، وَقَلْبَكَ مِنَ الْخَالَاتِ ، وَسِرْكَ عَنْ الْإِضْغَاتِ .

وَيَقَالُ : أَهْلَكَ طَهَّرْتَهُمْ بِالْعِظْ ؛ قَالَ تَمَالَى : « هُنَّ رِيسٌ لَكُمْ » ^(١) ، فَيَعْبِرُ عَنْهُمْ

— أحياناً — بِالنِّيَابِ وَالْإِبَاسِ .

قوله جل ذكره : « وَالرَّجَزَ فَاهْبِجْ » .

أى : لِلْمَاصِي . وَيَقَالُ : الشَّيْطَانُ . وَيَقَالُ : طَهَّرَ قَلْبَكَ مِنَ الْخَطَايَا وَأَشْغَالِ الدُّنْيَا .

وَيَقَالُ : مَنْ لَا يَصْبَحُ جِسْمُهُ لَا يَمُدُّ شَهْوَةَ الطَّعَامِ كَذَلِكَ مَنْ لَا يَصْبَحُ قَلْبُهُ لَا يَمُدُّ

حِلَاوَةَ الطَّاعَةِ .

« وَلَا تَنْتُنْ تَسْتَكْثِرِ » .

لَا تَعْطِ عَطَاءَ تَطَلَّبَ بِهِ زِيَادَةً عَلَى مَا تَعْلِيهِ .

وَيَقَالُ : لَا تَسْتَكْثِرِ الطَّاعَةَ مِنْ شُكِّكَ .

وَيَقَالُ : لَا تَمْنُنْ بِمَلَكَ تَسْتَكْثِرُ عَمَلِكَ ، وَتُسَبِّحُ بِهِ .

« وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

أى : أَنْتَ تُؤَادِي فِي اللَّهِ . فَاصْبِرْ عَلَى مَقْلَسَةِ إِذَا م .

قوله جل ذكره : « فَلَمَّا قُورِى النَّاقُورِ » * فَذَلِكَ يَوْمٌ مِثْلُ

يَوْمٍ عَسِيرٍ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .

بَعْنَى : إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ ، فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ هَيِّنٍ .

قوله جل ذكره : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » .

(١) آية ١٨٧ سورة البقرة .

أى : لا تَهْمُ بِأَنْهُمْ ، وَلَا تَحْزَنْ ؛ فَإِنَّ أَكْفَيْكَ أَمْرَمُ .
 إِنِّي خَلَقْتُهُ وَحَدَى ! لِمْ يَشَارِكُنِي فِي خَلْقِ إِيَّاهُ أَحَدٌ .
 ويحصل : خَلَقْتُهُ وَحَدَى لَا نَاصِرَ لَهُ .

قوله جل ذكره : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا •
 وَبَنِينَ شُهَبًا » .

حضوراً معه لا يحتاجون إلى التَّعَرُّفِ .

« وَهَدَيْتُهُ لَهُ نَهْيًا » .

أراد : تسهيل التصرف ، أى : مَكَّنْتُهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ ^(١) .

« ثُمَّ جَلَّعَ أَنْ أَزِيدَ » .

بطعم أن أزيدَه في النعمة :

« كَلَّا ، إِنَّهُ كَانَ لَا يَأْتِنَا عَيْنًا » .

يَجُودًا .

« سَأَرْهُقُهُ صُدُودًا » .

سأحله على مشقة من المذاب .

« إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • قَتَلَ كَيْفَ

قَدَّرَ • ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ » .

أى : لَمِنْ كَيْفَ فَكَّرَ ، وَكَيْفَ قَدَّرَ ، وَيُسَمَّى بِهِ : الْوَلِيدُ بْنُ النَّبِيِّ ^(٢) الَّذِي قَالَ فِي النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا بِمُجَنِّونٍ وَلَا بِكَذَّابٍ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ إِلَّا سَاحِرٌ ، وَمَا بَاقِي
 بِهِ لَيْسَ إِلَّا سَحَرٌ يُرَوَّى :

(١) واضح من هذا أن القشيري يؤمن بحرية الإنسان ، وأن الجبرية عنه ليست مطلقة .

(٢) كان الوليد يدعى رجلاً قرشي فلما سمع منه وأسلم القرآن : والله إن له خلاوة وإن عليه لعلوة وإن أجلاً لكسر ، وإن أسفله لحنق ... قالت قریش : صبا الوليد لصبيون قریش كلها ، فلما ذهب إليه أبو جهل ليتحرى ، قال له بعد أن خند مزاحهم : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأطه وولده ومواليه ؟

« ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَنَسَ وَبَسَرَ (١) *
 ثُمَّ أَذْبَرَ * وَاسْتَكْبَرَ * قَالَ :
 إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنَّ هَذَا
 إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأَصْلِيحُ سَقَرٌ *
 وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *
 لَوَاحِجٌ للبشرِ » .

لَا تَبْقَى ثَلَمًا ، وَلَا تَذَرُ عَقْلًا ، تحرق بشرة الوجه وتُسَوِّدُهَا ، من لاحتها الشمس ولوحت .
 « عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ » .

قال المشركون : نحن نجعل كثير . . فما يفعل بنا تسعة عشر ؟ ! فأنزل الله سبحانه :

« وَمَا جِئْنَا بِأَصْحَابِ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
 وَمَا جِئْنَا بِعِدَّتِهِمْ إِلَّا فَتْنَةً لِّلَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُ الَّذِينَ آمَنُوا
 آلَ كِتَابٍ وَبِرَّزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
 وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ » .

فيزداد المؤمنون إيمانًا ، ويقول هؤلاء : أى فائدة فى هذا القدر ؟ قال تعالى :

« كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ
 وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ » .

ثم قال :

« وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ
 وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ » .

أى : تقاصرت علوم الخلق فلم تتعلق إلا بمقدار دون مقدار ، والذي أحاط بكل شيء علماً .
 هو الله — سبحانه .

(١) يسر أى كلف وجهه وتغير لونه .

« كَلَّا وَالْقَمَرِ »

« كَلَّا » - حرف ردع وتنبيه ؛ أى : ارتدعوا عما أتم عليه ، واقبها لتغيره .
وأقسم بهذه الأشياء « كَلَّا وَالْقَمَرِ » : أى بالقمر ، أو بقدرته على القمر .
وبالليل إذا أذبر .. وقمرى « وَذَبَرَ » أى : مضى ، « والصَّيْحُ إذا أسفر » أى : تجلَّى .
« إِنَّهَا لَإِحدى الدَّوَاهِىِ السَّكْبَرِ » .

أى : النار لإحدى الدواهي السَّكْبَرِ .

ويقال فى « كَلَّا وَالْقَمَرِ » إشارة إلى أقمار العلوم إذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين ، فإنها تزداد ، ثم إذا صارت إلى حدِّ التمام فى العلم وبلفت النفاية تبدو أعلام المعرفة ، فالعلم يأخذ فى التفتُّن ، وتطلع شمسُ المعرفة ، فكأنَّه إذا قَرُبَ القمرُ من الشمس يزداد قصانه حتى إذا قرب من الشمس تماماً صار محاقاً - كذلك إذا ظهرَ سلطانُ الرِّفَاقِ تأخذُ أقمارُ العلوم فى التفتُّن لزيادة أعمارهم ؛ كالسراج فى ضوء الشمس وضياء النهار . « والليل إذا أذبر » أى إذا انكشفت ظلمةُ البواطن ، « والصَّيْحُ إذا أسفر » وتجلَّتْ أنوار الحقائق فى السرائر .. إنها لإحدى العظائم ! وذلك من باب التخويف من عودة الظلم إلى القلوب^(١) .

« نَذِيرًا لِلْبَشَرِ » فى هذا تحذيرٌ من الشواغل التى هى قواطع عن الحقيقة ، فيحذروا
المساكنةَ وللاحظةَ إلى الطاعات والمواعاة .. فليتها - فى الحقيقة - لا خطرَ لها^(٢) .
« لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَ » أو يتأخَّرَ « عن الطاعات .. وهذا على جهة التهديد .
قوله جل ذكره : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .
أى : مرتبنة بما عملت ، ثم لستنى :

« إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » .

(١) من خصائص أسلوب القشيري - كما أوضحنا ذلك فى كتابنا هـ - أنه كثيراً ما يستعين بمظاهر الطبيعة : الليل والنهار - والقمر والشمس والجمال والمطر والبحار وغير ذلك كيوضح من طريق ذلك دقائق العلم المصوفى .

(٢) يقصد أن نظرة الإنسان إلى صله ، وإصطاف هذا العمل قيمة .. من قبيل دعوى النفس .. المهم فى الطريق فضل الله واجباؤه الله .

تقال : إنهم غير مرتبهين بأعالمهم ، ويقال : هم الذين قال الله تعالى في شأنهم : « هؤلاء في الجنة ولا أبالي » ! .

وقيل : ألقاوا للزومين^(١) .

« في جَنَّتْ بِسَاءَلُونَ • عن الجرمين •
 ما سَلَكَكُمْ في سَرَّ ؟ • قالوا لم نَكُ
 من المُصَلِّينَ • ولم نَكُ نُطْعِمُ
 آلِ السَّكِينِ • وَكُنَّا نَخْوُضُ مع
 الْخَالِضِينَ • وَكُنَّا نُكَذِّبُ بيوم
 الدِّينِ » .

هؤلاء يسألون عن الجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حَصَلَ لهم إشراف عليهم :
 ما سلككم في سقر ؟ قالوا : أَلَمْ نَكُ من المُصَلِّينَ ؟ أَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين ؟ .
 وهذا يدل على أَنَّ السَّكَّارَ مُخَاطَبُونَ بتفصيل الشرائع .
 « وَكُنَّا نَخْوُضُ مع الْخَالِضِينَ » : نَسْرِعُ في الباطل ، وَنُكَذِّبُ بيوم الدين .
 « حَتَّى أَنَا الْبَاقِينَ » .

وهو معاينة القيامة .

« فَانْفَعْمَهُمْ شِقَاقَ الشَّافِعِينَ » .

أى : لا تَنَالِمُ شِقَاقَهُ مَنْ يَشْفَعُ .

« فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ »^(٢) .

والتَّذْكَرَةُ : التَّوَرَّانُ :

« كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ » • فَرَقَتْ
 من قَسْوَرَةٍ » .

(١) قال ابن عباس : هم الملائكة . وقال عل بن أبي طالب : هم أولاد المؤمنين لم يكتسبوا فيرثوها بكنسهم .
 وقال الضحاك : الذين سبقوا لهم من الله الحسنى . وقال مقاتل : هم الذين كانوا على بين آدم يوم الذر . والله أعلم .
 (٢) معترضين منصوب على الحال من المأمر إليهم في (لم) ، وفي اللام معنى الفعل فتنصب الحال على معنى الفعل .

كَانَهُمْ حُجْرًا نَافِرَةً فَرَّتْ مِنْ أَسَدٍ^(١)

« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ؛ فِيهِمْ أَنْ
يُؤْتِيَ صُحُفًا مُنَشَّرَةً » .

بل يريد كل منهم أن يُعطَى كتاباً منشوراً .

« كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ » .

أى : كَلَّا لَا يُعْطَوْنَ مَا يَشْتَوْنَ لِأَنَّهُمْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ .

« كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ • فَمَنْ شَاءَ
ذَكَرْهُ » .

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ — لَا أَنْ تَشَاءُوا

« هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى » .

أَهْلٌ لِأَنْ يَتَّقَى .

« وَأَهْلُ الْغَفْرِ » •

وَأَهْلٌ لِأَنْ يَغْفَرَ لِمَنْ يَتَّقَى — إِنْ شَاءَ .

(١) الْقِسْمَةُ بِلِسَانِ الْقُرْب : الْأَمْرُ ، أَوْ أَوَّلُ الْبَيْتِ ، أَوْ التَّحْدِيدُ . وَبِلِسَانِ الْخَبَرِ : الْبَرَاءَةُ .

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة من رزة من سمعها بشاهد العلم استبصر ، ومن سمعها بشاهد المعرفة تحير ..
فألباه في سكون برهانه ، والعارفون في دهش سلطانه .. أولئك في نجوم علومهم ، فأحوأهم
صَحَوْ في صَحْو ، وهؤلاء في شمس معارفهم : فأوقأنهم محو .. فشتان ما هما !

قوله جل ذكره : « لَا أَقْسِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

أى : أقسم بيوم القيامة

« وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » .

أى : أقسم بالنفس اللوامة ، وهى النفس التى تلوم صاحبها ، وتعرف نقصان حالها .

ويقال : غداً .. كلُّ نفسٍ تلوم نفسها : إما على كفرها ، وإما على قصيرها — وعلى هذا
فالقسم يكون بإضمار « الرَّبِّ » أى : أقسم برَّبِّ النفس اللوامة . وليس للوم النفس فى القيامة
خطراً — وإن حِيلَ على الكَلِّ (١) ولكنَّ الفائدة فيه بيان أنَّ كلَّ النفوس غداً — ستكون
على هذه الجملة . وجوابُ القسم قوله : على ...

قوله جل ذكره : « أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامُهُ ؟ »

أليظن أننا لن نبثه بعد موته ؟

« عَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُومَ بَنَانَهُ »

« قادرين » نصب على الحال ؛ أى بلى ، نسوى بنانه فى الوقت قادرين ، وقدر أى نجعل

(١) مكلفاً من وهو السوابب أى من فنى (الأكال) وهى غطاً قطعاً .

أصابع يديه ورجليه شيئاً واحداً كخُفِّ البعير وتلف الشاة .. فكيف لا تقدر على إعادته ؟ !

« بل يُريدُ الإنسانُ ليفتَحِرَ أَمَلُهُ » .

يُقَدِّمُ الزُّلَّةَ ويؤخر التوبة . ويقول : سوف أتوب ، ثم يموت ولا يتوب . ويقال : يعزم^(١) على ألا يستكثر من معاصيه في مستأنف^(٢) وقته ، وبهذا لا تَنَحَّلُ — في الوقت — عقدة الإصرار من قلبه ، وبذلك لا تصحُّ توبته ؛ لأن التوبة من شرطها العزم على ألا يعود إلى مثل ما عَمِلَ . فلذا كان استحلال الزُّلَّةِ في قلبه ، وفكر في الرجوع إلى مثلها — فلا تصح تدامته .

قوله جل ذكره : « يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ؟ »

على جهة الاستبعاد ، فقال تعالى :

« فَلِذَا يَرَى الْبَصَرُ » وَخَفَّ الْقَمَرُ »

وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » يقولُ

الإنسانُ يومئذٍ أَيَّنَ الْقَرُّ ؟ » .

« يَرَى بِكَسْرِ الرَّاءِ مَعْنَاهَا تَحْزِيرٌ ، « وَيَرَى » يَفْتَحِ الرَّاءَ شَخَصَ (فلا يَطْرُق) من البريق ، وذلك حين يُقَادُ إلى جهنم بسمين ألف سلسلة ، كل سلسلة بيد سبعين ألف ملك ، لها زفير وشهيق ، فلا يَبْقَى مَلَكٌ وَلَا رَسُولٌ إِلَّا وهو يقول : نَفْسِي نَفْسِي !

« وَخَفَّ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » كأنهما ثوران عقيران^(٣) .

ويقال : يجمع بينهما في الاء نورَهما .

(١) هكذا في موهي الصواب أما في ص نفهي (يعزم) وهي خطأ قطعاً بدليل ما بعدها... من شرطها (العزم) .

(٢) أي : في المستقل .

(٣) قال ابن عباس وابن مسعود : جمع بينهما أي ترون بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين مكورين مظلمين بقرنين كأنهما ثوران عقيران .

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن يزيد القزاعي عن أنس يرويه إلى النبي (ص) قال : قال رسول الله ص - « إن الشمس والقمر ثوران عقيران في النار » .

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » وللفرد موضع الفرار إليه ، فيقال لهم :

« كَلَّا لَا وَزَرَ »

اليوم ، ولا مهرب من قضاء الله^(١) .

« إلى ربك يومئذ المستقر » .

أى : لا تحيد عن حُكمه .

« يُقْبِضُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ

وَأَخَّرَ » .

أى : يَمْرِفُ مَا اسْتَلَقَهُ^(٢) من ذنوب أحصاها الله — وإن كان العبد نسيها .

« بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ »

ولو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » .

للإنسان على نفسه دليل علامة وشاهد ؛ فأعضاؤه تشهد عليه بما عمله ،

ويقال : هو بصيرةٌ وحُجَّةٌ على نفسه في إنكار البعث .

ويقال : إنه يعلم أنه كان جاحداً كافراً ، ولو أتى بكل حجة فلن تُسمع منه ولن تقبله .

قوله جل ذكره : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُبْجَلَ بِهِ »

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ » فإذا قرأناه

فَأَنْصِتْ قُرْآنَهُ » .

لا تستعمل في تلقف القرآن على جبريل ، فإِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي قَلْبِكَ وَحِفْظَهُ ، وكذلك

علينا تيسير قراءته على لسانك ، فإذا قرأناه أَى : جمعناه في قلبك وحفظك فأتبع بقرائك جمعه .

« ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ » .

نُبَيِّنُ لَكَ مَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَغَيْرِهَا . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يستعمل في التلقف غفلة النسيان ، فَنُفِىَ عَنْ ذَلِكَ ، وضمن الله له التيسير والتسهيل .

(١) الوزر في اللغة ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو نحوهما : قال الشاعر :

لمصرى ما ألقى من وزر من الموت يدركه والكبر

(٢) حكاه في م وهي في م (أسفل) وهي غفلة من التلحيز .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ • وَتَذَرُونَ

الْآخِرَةَ » .

أى : إنما يحصلهم على التكذيب للقيامة والنشر أنهم يحبون العاجلة في الدنيا ، أى : يحبون البقاء في الدنيا .

« وتذرون الآخرة » : أى : تتركون العمل للآخرة . ويقال : تكفرون بها .

قوله جل ذكره : « وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ • إِلَىٰ رَبِّهَا

نَاطِرَةٌ » .

« ناضرة » : أى مشرقة حسنة ، وهى مشرقة لأنها إلى ربها « ناظرة » أى رائية لله .
والنظر للقرآن به « إلى » مضافاً إلى الوجه^(١) لا يكون إلا الرؤية ، فالحق تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قلب العادة ، فالجوه ناظرة إلى الله تعالى .
ويقال : العين من جملة الوجه (فاسم الوجه)^(٢) يتناولها .

ويقال : الوجه لا ينظر ولكن العين في الوجه هى التى تنظر ؛ كما أن النهر لا يجرى ولكن الماء في النهر هو الذى يجرى ، قال تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » .

ويقال : فى قوله : « وجوه يومئذ ناضرة » دليل على أنهم بصفة الصحو ، ولا تتدخلهم حيرة ولا دهش ؛ فالنصرة من أمارات البسط لأن البقاء في حال اللقاء أتم من اللقاء .
والرؤية عند أهل التحقيق تقتضى بقاء الرائي ، وعندهم استهلاك المبدى في وجود الحق أتم ؛
فالذين أشاروا إلى الوجود وأوآ الوجود أعلى من الرؤية .

قوله جل ذكره : « وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ • تَظُنُّ أَنْ

يُفْعَلُ بِهَا قُتُولَةٌ » .

(١) مضافاً إلى (منسوباً إلى) .

(٢) ما بين القوسين وارد في م ولم يرد في م وهو عام في توضيح السياق .

« باسمه » : أى كلمة عابدة . « فاقرة » أى : دامية^(١) . وهى غاؤم فى النار على التأييد .
(تنظرن أن يخلقن فى وجوههم النظر^(٢)) .

ويحصل أن يكون معنى « تنظرن » : أى يخلقن ظناً فى قلوبهم يظهر أثره على وجوههم .
« كلاً إذا بَلَّتَتِ التَّرَاقِي » وقيل مَنْ رَاقٍ • وظنَّ أَنَّهُ
التَّرَاقِي • وَالضَّتَّ السَّاقُ بالسَّاقِ •
إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » .

أى ليس الأمر على ما يظنون ؛ بل إذا بَلَّتَتِ قلوبهم التَّرَاقِي^(٣) ، وقيل : مَنْ رَاقٍ ؟
أى يقول مَنْ حَوْلَهُ ؟ هل أَحَدٌ يَرْقِيهِ ؟ هل طَبيبٌ يداوِيهِ ؟ هل دواءٌ يَشْفِيهِ؟^(٤) .
ويقال : مَنْ حَوْلَهُ مِنَ اللَّائِكَةِ يقولون : مَنْ الذى يَرْقِي بِرُوحِهِ ؟ أَمَلَايَكُ الرِّحمة
أو ملائكة العذاب ؟ .

« وظننَّ أَنَّهُ التَّرَاقِي » : وعلم لليت أَنَّهُ للوثة ١ .
« وَالضَّتَّ السَّاقُ بالسَّاقِ » : ساقا الليت . فَتَقَرَّرُنَّ شِدَّةَ إِخْرَارِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ أَوَّلِهِ الْآخِرَةِ .
« إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ » أى اللَّائِكَةُ يسوقون رُوحَهُ إِلَى اللَّهِ حيثُ يأمرهم بِأَنْ يَحْمِلُوهُمَا
إِلَيْهِ : إِمَّا إِلَى عِلِّيِّينَ — ثُمَّ لَهَا تَقَاوُتٌ حَرِيَّاتٌ ، وَلَهَا إِلَى سَجِّينَ — وَلَهَا تَقَاوُتٌ دَرَكَاتٌ .
ويقال : النَّاسُ يُكَفِّنُونَ بَنِي اللَّيْتِ وَيُضِلُّونَهُ وَيُضِلُّونَ عَلَيْهِ .. وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يُثْلِسُ
رُوحَهُ مَا تَسْتَعِجُّ مِنَ الْحُلُلِ ، وَيُضِلُّهُ بِمَاءِ الرِّحْمَةِ ، وَيُصِلُّهُ عَلَيْهِ وَمَلَايِكَتُهُ .
قوله جل ذكره : « فَلَا صَدَقَ وَلَا صُلِّيَ » • وَلَكِنْ
كَذَّبَ وَقَتَلَى » .

(١) الْفَاقِرَةُ هَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : الْهَامِيَّةُ ، وَالْأَمْرُ الْعَظِيمُ ، وَالْقَسْرُ ، وَالْمَلَايِكَةُ ، وَدَعْوُهُمُ النَّارَ . وهى
فى الْأَصْلِ : التَّوَسُّعُ عَلَى أَدْنَى الْجَبْرِ بِجَدِيدَةٍ أَوْ نَارٍ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى الْعَظَمِ .
(٢) الْمُبَارَاةُ مَحْكَأٌ قَدْ أَمَّا قَدْ مِى فِى (.....) (الظن) بَدَلًا مِنْ (النظر) ، وَيُمْكِنُ قَبُولُ مُبَارَاةٍ عَلَى أَسَاسِ
نِ (النظر) أَمْرٌ عَظِيمٌ — وَهُوَ أَشَدُّ مَعَانِي (الْفَاقِرَةِ) كَمَا قُلْنَا .. وَلَكِنَّا نَرْجِعُ — وَاللَّهُ أَعْلَمُ — أَنَّ الْمُبَارَاةَ رُبَّمَا كَانَتْ
فِي الْأَصْلِ حَلَّ هَذَا النَّحْوِ : [تَنْظَرْنَ : (أى) يَخْلُقْنَ فِى وَجُوهِهِنَّ (الظن)] فَمِنْ هَذَا الظَّنِّ مَخْلُوقٌ فِى وَجُوهِهِنَّ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ..
وَرُبَّمَا يَتَأَيَّدُ مَا ذُكِرَ إِلَيْهِ بِمَا جَاءَ بِهَا مُبَاشَرَةً .
(٣) (جمع (ترقوة) : الْعِظَامُ الَّتِي تُكَتِفُ مَقْدَمَ الْخَلْقِ مِنْ أَعْلَى الْعِلْدَانِ ، وَهِيَ مَوْضِعُ الْمُتَرَجِّعَةِ .
(٤) معروف ألا رقية ولادواء الموت .. ولكنهم يتسلطون مَحْكَأً عَلَى وَجْهِهِ لِيَتَحَيَّرَ عَنْهُ الْإِشْفَاءُ عَلَى الْمَوْتِ .

يعنى : الكافر ما صدق الله ولا صلى له ، ولكن كذب وتولى عن الإيمان . وتدل الآية على أنَّ الكفارَ مُخاطَبونَ بتفصيل الشرائع .

« ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى » .

أى : يتبختر ويختال .

« أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى » .

العرب إذا دعت على أحدٍ بالكره قالوا : أولى لك او هنا أتبع اللفظ اللفظ على سبيل المبالغة . ويقال : معناه الويل لك يوم نحيا ، والويل لك يوم تموت ، والويل لك يوم تُنفث ، والويل لك يوم تدخل النار^(١) .

« أَتُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى » . *

مُهْتَلًا لَا يُكَلِّفُ^(٢) ! . ليس كذلك .

« أَلَمْ يَكُ نَفْلَةً مِنْ رَبِّهِ يُتْرَكَ^(٣) » ثم كان علقه

فَخَلَقَ نَفْسَهُ • فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ

الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى •

« من منى يعنى » أى تلقى فى الرحم ، ثم كان علقه أى : دماً عبيطاً^(٢) ، فسوى أعضاءه فى بطن أمه ، ورَكَّبَ أجزاءه على ما هو عليه فى الخلقة ، وجعل منه الزوجين : إن شاء خَلَقَ الذَّكَرَ ، وإن شاء خَلَقَ الْأُنْثَى ، وإن شاء كليهما .

« أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ لَكَوْنِي ؟ » .

أليس الذى قدر على هذا كله بقادر على إحياء الموتى ؟ فهو استفهام فى معنى التقرير^(٣) .

(١) فى معنى « الويل لك » تقول الخنساء :

هيمت بنفى كل المصوم فأول لنفى أول شا
سأحمل نفى على آلة لما عليها وإيا شا

ويقال : إن الرسول هدد أباه جهل بهاتين الآيتين .. حتى إذا كان يوم يدر ، ضرب الله عقه وقتل شر طئه .

(٢) الدم العبيط : الطوى الذى لم ينضج (الوسيط) .

(٣) هكذا فى م ومعنى الصواب أما فى ص فهى (التقدير) بالعدل ومعنى خطأ .

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

«بِسْمِ اللَّهِ» اسمٌ جَبَّارٌ تَوَسَّلَ فِي آزَالِهِ بِوصفِ جَبْرُوتِهِ ، وَتَفَرَّدَ فِي آيَادِهِ بِنِعْتِ مَلَكُوتِهِ ؛ فَأَزَلَهُ أَبَدُهُ ، وَأَبَدَهُ أَزَلُهُ ، وَجَبْرُوتُهُ مَلَكُوتُهُ ، وَمَلَكُوتُهُ جَبْرُوتُهُ .

أَحَدِيُّ الْوَصْفِ ، صَدِيدُ الْغَاثِ ، مُقَدَّسُ النَّسَبِ ، وَاحِدُ الْجَلَالِ ، فَرْدُ التَّمَالِي ، دَائِمُ الْعِزِّ ، قَدِيمُ الْبَقَاءِ .

قوله جل ذكره: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» .

فِي التَّفْسِيرِ : قَدْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا لَهُ خَطَرٌ وَمَقْدَارٌ . قِيلَ : كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَطْرُوحًا جَسَدُهُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ . ثُمَّ مَنَ صَلَاحُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ مَنَ حِلٌّ مَسْنُونُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ خَلَقَهُ بَعْدَ مِائَةِ وَعِشْرِينَ سَنَةً^(١) .

وَيَقَالُ : «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ . . .» : أَيُّ لَمْ يَأْتِ عَلَيْهِ وَقْتُ الْإِلَاحَانِ مَذْكُورًا إِلَيْنَا .

وَيَقَالُ : هَلْ غَفَلْتُ سَاعَةً عَنِ حِفْظِكَ ؟ هَلْ أَتَيْتُ — لِحَفْظِكَ — حَبْلَكَ عَلَى فَارِيكَ ؟ هَلْ أَخْلَيْتُكَ — سَاعَةً — مِنْ رِعَايَةِ جَدِيلَتِكَ وَهَامِيَةِ مَزِينَتِكَ .

قوله جل ذكره: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَشْجَارٍ نَّبْتِيَةٍ لِجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» .

(١) وزاد ابن مسعود أربعين سنة فقال : وأتاه وهو من ترابٍ أربعين سنة ثم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح (حكاه للقرطبي) .

« من عَقَّة » : أى من قطرة ماء ، « أمشاج » : أخلط من بين الرجل والراة .
ويقال : طوراً عَقَّة ، وطوراً عَقَّة ، وطوراً عَقَّةً ، وطوراً كَعَصاً .

« نَبْيَاهِ » : نَحْنُ وَنَحْنُ . وقد مضى منه . « لِحْيَاهُ سَمِيحاً بَصِيراً » .

« إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا
وَلَمَّا كَفُورًا » .

أى : قَرَّبْنَاهُ الطَّرِيقَ ؛ أى طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

ويقال : إِنَّمَا لِلشَّكَاوَةِ ، وَإِنَّمَا لِلْمَعَادَةِ ، إِنَّمَا شَاكَرًا مِنْ أَوْلِيَانَا ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا
مِنْ أَعْدَائِنَا ؛ فَإِنَّ شَكَرَ فَبِالتَّوْفِيقِ ، وَإِنْ كَفَرَ فَبِالْخِلَافِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا
وَأَغْلَالًا وَسِمِيرًا » .

أى : هِيَ أَسْلَسَاتٌ يُسَجَّبُونَ فِيهَا ، وَأَغْلَالًا لِأَعْنَاقِهِمْ يُهَانُونَ بِهَا ، « وَسِمِيرًا » :
نَارًا مُسَمَّرَةً .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا » .

قيل : الْبَرُّ : الَّذِي لَا يُضْمِرُ الشَّرَّ ، وَلَا يُوَدِّي الْقَرَّ .

ويقيل : الْأَبْرَارُ : هُمُ الَّذِينَ سَتَّ هِمَّتُهُمْ لِمَنِ السُّعُورَاتِ ، وَظَهَرَتْ فِي قُلُوبِهِمْ بَنَائِعُ الْحِكْمَةِ
فَاتَّقُوا مِنْ مُسَاكِنَةِ الدُّنْيَا .

يَشْرَبُونَ^(١) مِنْ كَأْسٍ وَاعْتَمَتْهَا كَرَامَةُ الْكَافُورِ ، أَوْ مِزْجَةٌ بِالْكَافُورِ .

ويقال : اخْتَلَفَتْ مَشَارِبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَكُلُّهُ يُسْقَى مَا يَلِيقُ بِمَالِهِ . . . وَكَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا
مَشَارِبُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَنَهْمٌ مَنْ يُسْقَى مَرْجًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى مِرْقًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى

(١) يتحدث القشيري في هذه السورة عن الشراب على نحو تفصيل يستحق التأمل ، وينبغي أن يضاف إلى
حديثه عن في رسالته عند بحث هذا الموضوع عنه هذا القول الحسن الجميل .

النَّوْبَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْقَى بِالنَّجْبِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْقَى وَحْدَهُ وَلَا يُنْقَى عَمَّا يُسْقَى غَيْرُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ
يَبْقَى هُوَ وَالْقَوْمُ شَرَابًا وَاحِدًا .. وَقَالُوا :

إِنْ كُنْتَ مِنْ تَعْلَى فَبِالْأَكْبَرِ اسْتَعْنِي وَلَا تَسْقِي بِالْأَصْفَرِ لِلتَّسْلِمِ
وَفَائِدَةُ الشَّرَابِ — الْيَوْمَ — أَنْ يَشْهَلَهُمْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيَرْجِعُ عَنْ الْإِحْسَاسِ ، وَيَأْخُذُ
عَنْ قَضَايَا الْعَقْلِ .. كَذَلِكَ قَضَايَا الشَّرَابِ فِي الْآخِرَةِ ، فِيهَا زَوَالُ الْأَرْبِ ، وَسَقُوطُ الطَّلَبِ ،
وَدَوَامُ الطَّرَبِ ، وَذَهَابُ الْحَرْبِ ، وَالتَّفَلُّعُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ .

وَلَقَدْ قَالُوا :

عَلَيْكَ عَنَّاكَ وَأَصْطَبِحْ وَأَقْدَحْ سُرُورَكَ بِالْقَدَحِ
وَاخْلَعْ عَنَّاكَ فِي الْمَوَى وَأَرْحِ عَنَّاكَ وَاسْتَرْحِ
وَاغْرَحْ بِوَقْتِكَ إِنَّمَا عُمُرُ الْفَنَى وَقْتُ التَّرَحِّ

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا» .

يُشَقِّقُونَهَا تَشَقِّقًا ، وَمَعْنَاهُ أَنْ تَلْكَ الْعَيُونُ تَجْرَى فِي مَنَازِلِهِمْ وَقُصُورِهِمْ عَلَى مَا يَرِيدُونَ .
وَالْيَوْمَ — لَمْ عَيُونٌ فِي أَسْرَارِهِمْ مِنْ عَيْنِ الْحُبَّةِ ، وَعَيْنِ الصَّفَاءِ ، وَعَيْنِ الْوَفَاءِ ، وَعَيْنِ الْبَسْطِ ،
وَعَيْنِ الرُّوحِ .. وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَغَدًا لَمْ عَيُونٌ .

« يُوفُونَ بِالنَّذْرِ »

ثُمَّ ذَكَرَ أَحْوَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَالُوا : يُوفُونَ بِالْمَعْدِ الْقَدِيمِ الَّذِي يَنْبَغِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ عَلَى
وَجْهِ غَضُوصٍ .

« وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُتَعْتِرًا » .

فاسياً ، منشراً ، معتداً .

« وَيُطْعِمُونَ الطَّامِعَ عَلَى حُبٍّ مِمَّنْ كُنَّا
وَقِيًّا وَأَسِيرًا » .

أى : على حُبِّهم للطعام لحاجتهم إليه . ويقال : على حُبِّ الله ، ولذلك يُطْعِمُونَ .
ويقال : على حُبِّ الإطعام .

وجاء في التفسير : أن الأسير كان كافراً — لأنَّ السلمَ ما كان يُتَأسَّرُ في عهده — فطاف
على بيت فاطمة رضى الله عنها^(١) وقال : تأسرونا ولا تطعمونا^(٢) !

« إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ
مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا شُكْرًا » .

إنما نطعمكم ابتغاء مرضاة الله ، لا نزيد من قِلبكم جزاء ولا شكراً .

ويقال : إنما لم يذكروا هذا بالسنتهم ، ولكن كان ذلك بضائرهم .

« إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا وَعِيسَى
قَمَطَرَ بَرًّا » .

أى : يوم القيامة

« فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ »

(١) حكلا في م ، وفي ص (صل الله عليا) .

(٢) قال الأسير وهو واقف بالباب : «السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسرونا وتطعمونا ولا تطعمونا !
أطعموني فإن أسير محمد » . فأعطوه الطعام ومكثوا ثلاثة أيام وليالها لم يترقوا شيئاً إلا الماء للفرج .. حتى لسق
بطن فاطمة بظفرها وفارت عينها من شدة الجوع » . فلما رأها النبي (ص) وعرف الحاجة في وجهها بكى وقال :
« واغترناه يا الله ! أهل بيت محمد يموتون جوعاً فنزلت الآية . ولكن بعض رجال الحديث يلمنون في هذا الخبر .
يقولون لم يلمس المحكم في نوادر الأصول : « هو حديث مزوق مزيف » لأن الله تعالى يقول : يسألونك ماذا ينطقون
قل الحق » ، والله يقول : « خير الصلوة ما كان من ظهر فسي » .

« وَقَتَّاهُمْ » أى : أعطاهم « نفرةً وسروراً » .

« وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً »

كافأهم على ما صبروا من الجوع ومقاتلته جنةً وحريراً

« مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ »

واحدها أريكه ، وهى السرير فى المجال^(١) .

« لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا »

أى : لَا يَتَذَوَّنُون فِيهَا بِحَرٍّ وَلَا بَرْدٍ .

« وَحَافِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ

قُطُوفُهَا تَذِيلًا » .

يشككون من ظائفها على الوجه الذى هم فيه من غير مشقة ؛ فإن كانوا قعوداً نزل لهم ،

وإن كانوا قياماً — وهى على الأرض — ارتقت إليهم .

« وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآثَانٍ مِنْ فِضَّةٍ »

الاسم فضة ، والمين لاثنبه العين^(٢)

« وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا »

قواريراً من فضةٍ قدَّروها قديراً »

أى : فى صفاء القوارير وبياض الفضة .. قدَّروا ذلك على مقدار إرادتهم .

« وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كِسًّا كَانَ مِزَاجُهَا

زَجْبِيلًا » .

للتصود منه الطَّيِّبُ ، قد كانوا (أى العرب) يستطيون الزججيل ، ويستلذون نكهته ،

(١) جمع حيلة وهى متر يعرب على سرير القروس كالقبة .

(٢) من هذا يتضح أن القشبرى يرى أن الجنة وصفت بما يمكن أن يكون منتهى تصوراتهم الدنيوية لحيالات النعمة .. فالألفاظ فى الألفاظ ولكن الحقائق هى آخر .

وبه يشبهون القاكهة ، ولا يريدون به ما يقرص اللسان ^(١) .

« عينا فيها نَسَمٌ سَلِيلًا » .

أى : يُنْقَوْنَ من عين — أثبت للنسب وأَجَلَّ مَنْ يقيمهم ؛ لأنَّ منهم من يقيه
الحق — سبحانه — بلا واسطة .

قوله جل ذكره : « وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ إِذَا
رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا » .

أى : يخدمهم وِلْدَانٌ مُّغَلَّدُونَ (وصفا لا يجوز واحد منهم حدَّ الوصف) ^(٢) .

وجاء فى التفسير : لا يهرمون ولا يموتون . وجاء مفرطون .

إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ مِنْ صَفَاءِ أَوَاتِهِمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ^(٣) .

وفى التفسير : مامن لإنسان من أهل الجنة إلا ويخدمه ألف غلام .

قوله جل ذكره : « وَإِذَا رَأَيْتَ ظَمًّا رَأَيْتَ نِيعًا
وَمُثْكَ كَبِيرًا » .

« ظم » : أى فى الجنة .

« مُثْكَ كَبِيرًا » : فى التفسير أن لللائكة تستأذن عليهم بالدخول .

وقيل : هو قوله : « لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ فِيهَا » ^(٤) ويقال : أى لا زوال له .

(١) من ذلك قول المسيح بن عيسى يصف ثمر المرأة :

وكان طعم لذيذ جميل به إذ فلقته وملاثة الشمر

وقال الأصب :

كان القز لذيذ والزعجيب . سل بنا بليها وأريا مشورا

(والأرى = هو السمل) .

(٢) هكذا فى النسختين وفيها شيء من غموض .

(٣) قول : إنما شهيم بالقول المشر لأنهم سراح فى الخلة ، بخلاف الحور العين إذ شهيم بالقول المكتون

المغزون لأنهن لا يتهن بالخلة (القرطبي ١٩٨ من ١٤٤) .

(٤) آية ٣٥ سورة ق .

« عَالَمُهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُفْرٌ
وَلَيْسَتِ بَرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ
وَسَقَامَ رَبِّهِمْ شَرَابًا مُلَهُورًا » .

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَصْفُ لِلْأَبْرَارِ . وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لِلْوِلْدَانِ وَهُوَ أَوْلَى ، وَالْأَسْمُ
يُؤَافِقُ الْأَسْمَ حُونَ الْعَيْنِ ^(١) .

« شَرَابًا مُلَهُورًا » : الشَّرَابُ الْمُلَهُورُ هُوَ الطَّاهِرُ فِي نَفْسِهِ الْمُطَهَّرُ لِنَفْسِهِ .

فَالشَّرَابُ يَكُونُ مُلَهُورًا فِي الْجَنَّةِ — وَإِنْ لَمْ يَحْصِلْ بِهِ التَّطَهُّرُ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَحْتَاجُ فِيهَا
إِلَى التَّطَهُّرِ .

وَلَكِنَّهُ — سَبَّحَانَهُ — لَمَّا ذَكَرَ الشَّرَابَ — وَهُوَ الْيَوْمَ فِي الشَّاهِدِ نَجَسٌ — أَخْبَرَ أَنْ
ذَلِكَ الشَّرَابُ غَدًا طَاهِرٌ ، وَمَعَ ذَلِكَ مُطَهَّرٌ ؛ يُطَهَّرُهُمْ عَنْ حُبِّهِ الْأَعْيَارِ ، فَنَ يَحْتَسِرُ مِنْ ذَلِكَ
الشَّرَابِ شَيْئًا طَهَّرَهُ عَنْ حُبِّهِ جَمِيعِ الْخَلْقِينَ وَالْمَخْلُوقَاتِ .

وَيَقَالُ : يُطَهَّرُ صُدُورَهُمْ مِنَ النَّيْلِ وَالنَّيْسِ ، وَلَا يُبْقِي لِبَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ خَصِيصَةً
(وَلَا عِلَاقَةً) ^(٢) وَلَا دَعْوَى وَلَا شَيْءَ .

وَيَقَالُ : يُطَهَّرُ قُلُوبُهُمْ عَنْ حُبِّهِ الْخُورِ الْعَيْنِ .

وَيَقَالُ : إِنْ لِللَّائِكَةِ تَرْضَى عَلَيْهِمُ الشَّرَابَ فَيَأْبُونَ قَبُولَهُ مِنْهُمْ ، وَيَقُولُونَ :
قَدْ طَالَ أَخْذُنَا مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَإِذَا هُمْ بِكَلَسَاتٍ تُلَاقِي أُنْفُسَهُمْ بَنِيرٌ أَوْ كَفٌّ ؛ مِنْ غَيْبِ
إِلَى عَيْدٍ .

وَيَقَالُ : الْيَوْمَ شَرَابٌ وَغَدًا شَرَابٌ .. الْيَوْمَ شَرَابُ الْإِنْسَانِ ^(٣) وَغَدًا شَرَابُ السَّكَلَسِ ،
الْيَوْمَ شَرَابٌ مِنَ اللَّطْفِ وَغَدًا شَرَابٌ يُقَارِ عَلَى الْكَفِّ .

(١) أَرَادَ بِهِ كَيْفَ يَلِغُ الْكَثِيرُ عَلَى مَعْنَى الْمَعْرِ ؟

(٢) غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي مَوْجُودَةٍ فِي مَوْجُودَةٍ .

(٣) هَكَذَا فِي مَوْجُودَةٍ فِي مَوْجُودَةٍ ، وَالْمَوْرَابُ مَا أَتَيْنَا كَمَا يُضَعُّ فِيهَا يَدُ (أَنَّهُ) .

وقال : مَنْ سَاقَ الْيَوْمَ شَرَابَ حَبِيَّتِهِ آتَتْهُ وَشَبَعَتْهُ ؛ فَلَا يَسْتَوْجِبُ فِي وَقْتِهِ مِنْ شَيْءٍ ،
وَلَا يَسْتَنْ بِرُوحِهِ عَنْ بَدَلٍ . وَمَنْ مَقْتَضَى شُرْبَهُ بِكَأْسٍ حَبِيَّتِهِ أَنْ يَمُودَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بِالْكُونَيْنِ
مِنْ غَيْرِ تَمَيُّزٍ ، وَلَا يَبْقَى عَلَى قَلْبِهِ أَثَرٌ لِلْأَخْطَارِ .

وَمِنْ آثَارِ شُرْبِهِ تَذَلُّهُ لِكُلِّ أَحَدٍ لِأَجْلِ حَبِيَّتِهِ ، فَيَكُونُ لِأَصْغَرِ الْخَدَمِ تَرْابَ الْقَدَمِ ،
لَا يَصْعَكُ فِيهِ لِلْكَبِيرِ عَرَقٌ .

وَقَدْ يَكُونُ مِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَنْ يَنْبَغِيَ عَلَى أَهْلِ
الْمَنَارِ .

وَمِنْ مَقْتَضَى ذَلِكَ الشَّرَابِ أَيْضًا أَنْ يَمْلِكَةَ سُرُورٌ وَلَا يَتَمَلَّكَ مَعَهُ مِنْ خَلْعِ الْمَنَارِ
وِاقَاءُ قَنَاقِ الْحَيَاءِ^(١) وَيُظْهِرُ مَا هُوَ بِهِ مِنَ الْوَأَجِيدِ :

يَخْلَعُ فِيكَ الْمَنَارَ قَوْمٌ فَكَيْفَ مَنَ مَا لَهُ عَذَابُ ؟

وَمِنْ مَوْجِبَاتِ ذَلِكَ الشَّرَابِ سَقُوطُ الْحَشْمَةِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِمَقْتَضَى الْبَسَطِ ، أَوْ بِمَوْجِبِ لَفْظِ
الشُّكْوَى ، وَبِمَا لَا يَسْتَفْرِجُ مِنْهُ - فِي حَالِ صَحْوِهِ - سَفِيهُ بِالْمُنَاقِشِ^(٢) وَعَلَى هَذَا
حَمَلُوا قَوْلَ مُوسَى : « رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ »^(٣)

قَالُوا : سَيَكْرَمُ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِهِ^(٤) ، فَتَنَلِّقَ بِذَلِكَ لِسَانَهُ . وَأَمَّا مَنْ يَسْقِيهِمْ شَرَابَ التَّوْحِيدِ
فَيَنْفَتِي عَنْهُمْ شَهَادَةُ كُلِّ غَيْرٍ فَيَهَيِّمُونَ فِي أَوْدِيَةِ الْعِزِّ ، وَيَتَهَيَّوْنَ فِي مَقَاوِزِ الْكِبَرِيَاءِ ، وَتَتَلَاشَى

(١) هكذا في م وهي في ص (الحياة) ، والملاحم تطلع المنار إلقاء قنقاع (الحياء) . وللقصود هما يهاوز
حده الصبر على المكثوم من الحب ، وتلق البعد وهو في غلبات الشهوة يشتمات ظاهرها مستغن وإن كان باطنها
في غاية السلامة (انظر تشریف السراج للشطرنج في الجمع) .

(٢) المناقش جمع مناقش ، ويقال في المثل : استخرجت منه حتى بالمناقش أي تعبت كثيرا حتى استخرجت
منه حق (الوسيط) .

(٣) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٤) الصبر في (كلامه) يعود على الرب ؛ سبحانه حييا قائما ؛ إني أنا الله ؛ وفي موضع آخر يصف
التشعير بموسى عليه السلام بأنه كان في حال التلون فظهر عليه ما ظهر ، بينا المصطفى (ص) ليلة المراج كان
في حال التمكن فما زاح بصره وما ملنى .

جلبهم في هواء القرفانية . . فلا عقل ولا تمييز ولا فهم ولا إدراك . . فكل هذه الماني ساقطة .

فالمبدؤ يكون في ابتداء الكشف مستوعباً ثم يصير مستغرقاً ثم يصير مُستهلكاً ..
« وأن إلى ربك للنهي »^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » .

يقال لهم : هذا جزاء لكم ، « مشكوراً » : وشكركم لسعيهم تكثير الثواب على القليل من العمل — هذا على طريقة العلماء ، وعند قوم شكرهم جزاءهم على شكرهم .

ويقال : شكرهم لم تناؤه عليهم بذكر إحسانهم على وجه الإكرام .

قوله جل ذكره : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ نَزِيلًا »

في مدّة^(٢) سنين .

« فَأَصِرْ لَشُكْرِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آتِمًا أَوْ كَفُورًا » .

أي : لترض بقضائه ، واستسلم لحكميه .

« وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آتِمًا أَوْ كَفُورًا » : أي : ولا كفوراً ، وهذا أمر له بإفراد ربه بطاعته .

« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً »

وأصيلاً * ومن الليل فاسجد له

وسبحه ليلاً طويلاً .

القرض في الأول ، ثم التفل^(٣)

« إِنَّ هَؤُلَاءِ .. »

(١) آية ٤٢ سورة النجم .

(٢) حكماً في التفتيش ولا تشييد أنها في الأصل (عدة) وكلاماً صحيح في السياق .

(٣) قال الصلاة جاءت في الأول (بكرة وأصيلاً) صلاة الصبح ثم الظهر والعصر (ومن الليل) المغرب والعشاء

ثم من بعد ذلك التفل وهو (وسبحه ليلاً طويلاً) : لأنه تطوع ، قيل : هو منسوخ بالصلوات الخمس ، وقيل : هو خاص بالنبي (ص) وحده .

أى كفار فرىش .

« يُحِبُّونَ الْمَلَاجَةَ وَيَذَرُونَ وِرَاءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا » .

أى : لا يملكون ليوم القيلة .

قوله جل ذكره : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا
شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » .
أعلمناهم ، وخلقنا غيرهم بدلاً عنهم . ويقال : أخذنا عنهم الليثاق^(١) .
« إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ... »

أى : القرآن تذكرة .

« فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا » .

بطاعته .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إِنَّ
اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا • يُدْخِلُ مَنْ
يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا » .

أى : عذاباً أليماً موجعاً يخلص وجهه إلى قلوبهم .

(١) تأخرت هذه العبارة من موضعها ، فأرجعناها إلى مكانها .

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمةٌ مَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْوَجْدِ وَقَى لَهُ قَلَمٌ يَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ ، وَمَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ الْمَلِكِ جَادَ لَهُ قَلَمٌ يَخْلُقُ بِرُوحِهِ عَلَى أَحَدٍ .

وَمَنْ سَمِعَهَا بِسْمِ التَّوْحِيدِ جَرَدَ مِرَّةً عَنِ الْإِثَارِ^(١) مَا سِوَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْمُقْبَى عَيْنًا وَأَمْرًا فَمَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ إِلَّا حَاصِلًا بِهِ كَاتِبًا مِنْهُ .

قوله جل ذكره : « وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا » .

« للمرسلات » : الملائكة ، « عُرْفًا » أى : أرسلوا بالمعروف من الأمر ، أو كنيدين كعُرْفِ الْفَرَسِ .

« قَالِصِفَاتٍ حَقِيقًا » .

الرياحُ الشديدة (المواصلاتُ تأتي بالصف وهو ورق الزرع وحطامه) .

« وَالنَّاسِثَاتِ نَثْرًا » .

الأمطار (لأنها تنثر النبات . فالنثر بمعنى الإحياء) . ويقال : السَّحْبُ نَثَرُ النَيْثِ .

ويقال : للملائكة .

« فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا » .

للملائكة ؛ تفرق بين الحلال والحرام .

« فَالْمُعْتِقَاتِ ذِكْرًا * عَذْرًا أَوْ

نَذْرًا » .

(١) حكاية من رمى في م (تياب) وهي عطفاً من اللطيف .

للالسكة : تُلقي الوحى على الأنبياء عليهم السلام ؛ إغماراً وإغماراً ..

وجواب القسم :

« إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ » .

فأقسم بهذه الاشياء : إِنَّ التَّيَمَةَ لَحَقٌّ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ » .

إِنَّمَا تَكُونُ هَذِهِ التَّيَمَةُ . « وَطُمِسَتْ » : ذهب ضوؤها .

« وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ » .

ذَهَبَ بِهَا كُلُّهَا بِسُرْعَةٍ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ .

« وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ » : لَأَيَّ يَوْمٍ

أُجِلَتْ • ليومِ الفصل .

أَيَّ : جَمَلَ لَهَا وَقْتًا وَأَجَلًا لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ التَّيَمَةِ .

وَيُقَالُ : أُرْسِلَتْ لِأَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ .

« وَمَا أَذْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ »

على جهة التنظيم له .

« وَيَلْ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ » .

مضى تفسيراً معنى الويل .

ويقال فى الإشارات : فَإِذَا نَجْمُؤُ الْمَارِفِ طُمِسَتْ بِوَقْعِ النَّبِيَّةِ .

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ : الْقُلُوبُ السَّاكِنَةُ بِقِيَمِ الشُّهُودِ حُرِّكَتْ عَفْوَةً عَلَى مَا هَمَّتْ بِالَّذِي

لَا يَجُوزُ . فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلرُّبَابِ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ ذَوَى الْقُلُوبِ الْمُطْبِقَةِ الْخَالِيَةِ

مِنَ الْمَانِي .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ » ثُمَّ نُنْعِمُهُمْ

الْآخِرِينَ » .

الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ ، وَجَعَلُوا آيَاتِنَا ؛ فَنَلَمْنَا أَهْلَكْنَا الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ شَمَلٌ بِالْجُرْمِينَ إِذَا

ضَلُّوا مِثْلَ نَعْلِهِمْ .

« ويلٌ يومئذٍ للكذابين » الذين لا يستوى ظاهريهم وباطنيهم في التصديق .
وهكذا كان المضمون من أهل الزَّلَّةِ والْفَقْرَةِ في الطريقة ، والحياة في أحكام المحبة مُعْذِرًا
للمُحْرَمَانِ في عاجلهم ، ولم يَنُوقُوا من المُنَافَى شيئاً .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ؟ » .

أى : حَتِير . وإذ قد علمت ذلك ظَلِمَ لم يَقيروا أمر البعث عليه ؟

ويقال : ذَكَرَهُمْ أَصْلَ خَلْقِهِمْ لئلا يُعْجَبُوا بأحوالهم ؛ فإنه لا جِنْسَ من المخلوقين
والمخلوقاتِ أَشدَّ دعوى من بنى آدم . فمن الواجب أن يَصْكَرَ الإنسانُ في أصله ... كان
نقطةً وفي انتهائه يكون جيفةً ، وفي وسائط حاله كَيْفٌ في قبض ! ! فبلهرى أَلَا يَذِلُّ
ولا يفتخر :

كيف يزهو مَنْ رَجِيَهُ أَبَدَ الدهرِ ضَجِيهَهُ

فهو منه وإليه وأخوه ورضيهُ

وهو يدعو إلى التَّحُشُّ^(١) . بهر فيطيه ١١٩

ويقال : يُذَكِّرُهُمْ أَصْلَهُمْ .. كيف كان كذلك .. ومع ذلك قد ظلمهم إلى أحسن صورة ،

قال تعالى :

« وصوركم فأحسن صوركم » ، والذى يفعل ذلك قَادِرٌ على أن يُرْقِيَكُم من الأحوال
الخسيسة إلى تلك للنازل الشريفة .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ

وَأَمْوَاتًا » .

« كِفَاتًا » أى : ذات جَمْعٍ ؛ فالأرض تضمهم وتحببهم أَحْيَاءَ وَاَمْوَاتًا ؛ فهم يعيشون على

ظواهرها ، ويُدْعَوْنَ بعد الموت في بطنها ..

« وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ شَاخِطَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرَاتًا » .

(١) الحش يفتح الحاء ونسبها = للكثيف .

والقصود : كيف تَرَوْنَ أَيْهَا الْإِنْسَانُ ، وإن ما يلقفه جسك من فضلات ملازم لك حياتك : ليك ونهارك ،
وأنت تطيه صاغراً إذا أمرك ودعاك بالامعاب إلى الحش ؟

أى : جبالاً مرتضات ، وجعلنا بها للآء سقياً لكم . يُدْكَرُكُمْ عَظِيمٌ مِنْتَهُ بِذَلِكَ عَلَيْهِ .
والإشارة فيه إلى عظيم مِنْتَهُ أَنَّهُ لَمْ يَخْشَفْ بِكُمْ الْأَرْضَ — وَإِنْ عَلِمْتُمْ مَا عَلِمْتُ .
« أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » .
يقال لهم : اطلقوا إلى النار التي كذَّبتُمْ بها .

« أَطْلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ • لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُنْفَى
مِنَ النَّارِ » .

كذلك إذا لم يعرف السببُ قَدْرَ اغْتِلاصِ طريقه إلى الله بقلبه ، وتزكُّزه بوجهه .. فلما
رجع إلى الخلق عند استيلاء النملة نَزَعَ اللهُ عَنْ قَلْبِهِ الرَّحْمَةَ ، وَانْصَدَّتْ عَلَيْهِ طُرُقُ رُشْدِهِ ،
فبَرَدَ مِنْ هَذَا إِلَى هَذَا .

وقال لهم : اطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . والاستقلالُ بالله جنةُ الأولى ، والرجوعُ
إلى الخلقِ قَرْعُ بابِ جهنم .. وفي مناه أُنْشِدُوا :

وَلَمْ أَرِ قَبْلِي مَنْ يُفَارِقُ جَنَّةً وَيَقْرَعُ بِالتَّقْطِيلِ بَابَ جَهَنَّمَ
ثُمَّ يَقَالُ لَمْ إِذَا أُخْذُوا فِي التَّصَلُّ وَالْإِعْطَالِ :

« هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ • وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيُتَكَلَّمُونَ » .
فإلى أَنْ تَنْتَهِيَ مَدَّةُ الْمُقُوبَةِ فَيَقْتَضِ : أَنْ اسْتَاقَتْ وَقَدْ اسْتَوْفَتْ لَكَ وَقْتُ . فَأَمَّا الْآنَ ..
فصبراً حتى تَنْقَضِيَ أَيَّامُ الْعِقَابِ .

« هَذَا يَوْمُ الْقَعْلِ جِئْنَاكُمْ
وَالْأَوَّلِينَ » .

فعلنا بكم ما فعلنا بهم في الدنيا من الغلظان ، كذلك اليوم سنفل بكم ما فعل بهم
من دخول التيران

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلتَّقِينَ فِي ظُلَالٍ وَصِيونَ » .

اليوم .. في ظلال العناية والحماية ، وغداً ... هم في ظلال الرحمة والسكينة .

اليوم .. في ظلال التوحيد ، وغداً .. في ظلال حُسن الزيد .

اليوم .. في ظلال المكارم ، وغداً .. في ظلال اللطائف .

اليوم .. في ظلال التمرُّف ، وغداً .. في ظلال التشريف .

« كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » .

اليوم تشربون على ذِكره .. وغداً تشربون على شهوده ، اليوم تشربون بكلمات الصفاء وغداً تشربون بكلمات الولاء .

« إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ » .

والإحسانُ من البذر تركُ الكلِّ لأجله اكَذلك غداً : يمازيك بترك كلِّ الحاصل عليك لأجلِكَ .

قوله جل ذكره : « كلوا وتمتعوا قليلاً إِنكم تُجرمون » .

هذا خطابٌ للكفار ، وهذا تهديدٌ ووعيد ، والويل يومئذٍ لكم .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّا قَلِيلٌ لَّهُمْ أَرْكَمُوا لَا يَرْكَمُونَ » .

كَانُوا يُصْرِئُونَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْاِسْتِكْبَارِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ الْبَلَاءَ الْعَظِيمَ ^(١) .

[ذكر في التفسير : أَن للتقين دائماً في ظلال الأشجار ، وقصور الدر مع الأبرار ، وعميون جارية وأنهار ، وألوان من الفاكهة والثمار .. من كل ما يريدون من اللذات الجبار . ويقال لهم في الجنة : كلوا من ثمار الجنة ، واشربوا شراباً سليماً من الآفات . « بما كنتم تعملون » من الطاعات . « كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ » من الكرامات . قيل : كلوا واشربوا « هنيئاً » : لا تبعة عليكم من جهة الخصومات ، ولا أذية في اللذات كولات والمشروبات .

وقيل : المعنى الذي لا تبعة فيه على صاحبه ، ولا أذية فيه من مكروهٍ لغيره .]

(١) إلى هنا انتهى تفسير السورة في م النسخة ص . وكل ما بين التوسيع الكبيرين موجود في النسخة م . .

(١)

سُورَةُ النَّبَاِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمُ مَلِكٍ تَجَمَّلَ عِبَادُهُ بِطَاعَتِهِ ، وَتَزَيَّنَ خَدَمُهُ بِبِلَادِهِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ لَا يَتَجَمَّلُ بِطَاعَةِ الْمُطِيعِينَ ، وَلَا يَتَزَيَّنُ بِمُنْعَمَةِ الْعَابِدِينَ ؛ فَرِيقَةُ الْعَابِدِينَ صُدَّارُ طَاعَتِهِمْ ، وَفَرِيقَةُ الْمَارْفِقِينَ حُلَّةُ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَفَرِيقَةُ الْحَبِيبِينَ نَائِجُ وَلَايَتِهِمْ . . . وَفَرِيقَةُ الَّذِينَ غَمَلُ وَجُوهِهِمْ بِصَوْبِ^(٢) عِبْرَتِهِمْ .

قوله جل ذكره : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ » عن النِّبَاِ الْعَظِيمِ
الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ .

مُخْتَلِفُونَ بِشِدَّةِ انْكَارِهِمْ أَمْرَ الْبَيْتِ ، وَلَا تَبَاسَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةُ مُسَاءَلَتِهِمْ عَنْهُ ، وَكَثْرَةُ مُرَاجَعَتِهِمْ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَاهُ .

تَكَرَّرَ مِنْ اللَّهِ أَنْزَالُ أَمْرِ الْبَيْتِ ، وَكَمْ اسْتَدْلَّ عَلَيْهِمْ فِي جَوَازِهِ بِوُجُوهِ مِنَ الْأَمْنَةِ . .
فَهَذَا مِنْ ذَلِكَ ، يَقُولُ : « عَمَّ يُتَسَاءَلُونَ . عن النِّبَاِ الْعَظِيمِ » : عن الْخَبَرِ الْعَظِيمِ « الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى جِهَةِ الْاجْتِهَادِ عَلَيْهِمْ :

« أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِيعَادًا ؟ »

ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْ سَكَنُوهَا

« وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا ؟ » .

(١) هذا هو اسم السورة كما جاء في من أضاف في من فتاوتها (سورة هم يتساءلون) .

(٢) هي في (بصوب) وهي في من (بصوت) وكلامها غير مقبول في السياق ، وقد رجحنا أن تكون في الأصل (بصوب) على أساس أن التثنية يستعمل الفعل (تفتقر) مع (البيرة) في مواضع مختلفة ، كما أنها أقرب في الرسم .

أوتاماً للأرضِ حتى تَمِيدَ بِهِمْ .

« وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا »

ذَكَرًا وَأُنْثَى، وَحَسَنًا وَقَبِيحًا . . . وَغَيْرَ ذَلِكَ

« وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا »

أَي رَاحَةً لَكُمْ، لَتَنْقَطِعُوا عَنْ حَرَكَاتِكُمْ الَّتِي تَسْتَبِيحُ بِهَا فِي نَهَارِكُمْ .

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا »

تُغَطِّي ظُلُمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ فَتَكُونُوا فِيهِ .

« وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا »

أَي وَقْتَ مَعَالِكُمْ .

« وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا »

« وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا »

أَي الشَّمْسَ، جَعَلْنَاهَا سِرَاجًا وَقَدَأًا مُشْتَعِلًا .

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَبَّاجًا »

« الْمُعْصِرَاتِ » الرِّيحُ الَّتِي تَقْصِرُ السَّحَابَ^(١) .

« مَاءً ثَبَّاجًا » مَطَرًا صَبَّاجًا .

« لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا »

« وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا »

« حَبًّا » كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، « وَجَنَاتٍ أَلْفَافًا » بَاتِنِينَ يَلْتَفُّ بِعَضْفِهَا بَعْضُهَا .

وإِذَا قَدْ عَلِمْتُمْ ذَلِكَ فَهَلَّا عَلِمْتُمْ أَنَّي قَادِرٌ عَلَى أَنْ أُعِيدَ أَتْلَقَ وَأُقِيمَ الْقِيَامَةُ ؟

(١) وَالْمُعْصِرَاتُ أَيْضًا السَّحَابُ تَقْصِرُ بِالطَّرِيقِ ، وَأَمَّا الْقَدَمُ أَيْ : أَسْطَرُوًا ، وَمِنْهُ « وَفِيهِ يَمْصَرُونَ » وَالْمُعْصِرُ الْجَارِيَةُ أَوَّلُ مَا أَدْرَكَتِ الْحَيَاضَ . فَالْمُعْصِرُ السَّحَابَةُ الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تَطْرُقَ (الصَّلَاحُ) .

فبذل أن عدَّ عليهم بعض وجوه إنشائه ، وتمكينهم من مناقضهم .. قال :

« إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا »

مضى ممناه

« يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ نَادُونَ
أُفْرَاجًا » .

أى فى ذلك اليوم نادون زمرأ وجماعات .

« وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا »

أى : تَشَقَّقَتْ وَاغْطَرَتْ .

« وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »

أى كالسراب .

« إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاحًا » .

أى محرأ . ويقال : ذات ارقابٍ لأهلها .

« لِلطَّاغِينَ مَأْبَأٌ »

أى مرجأ .

« لَا يَبْقَى فِيهَا آثَابًا »

أى دهوراً ، وللمنى مؤبدين

« لَا يُلَاقُونَ فِيهَا بَرَأً وَلَا شِرَابًا »

« إِلَّا حَبًّا وَغَسَّاكًا »

مضى ممناه . ثم يُبدلون بعد ذلك بأنواع آخر من المذاب .

« جَزَاءً وَفَاءً »

أى : جُوزُوا على وفق أعمالهم . ويقال : على وفق ما سبق به التقدير ، وجرى

به الحكم .

« لَهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا »

لا يؤمنون فيرجون الثواب ويخافون العقاب .

« وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا »^(١) .

أى : تكذباً .

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا »

أى : كتبناه كتاباً ، وعلناه علماً .

والمبشِّرُ الزاهدُ يحصى نبيحه ، والمهجورُ البائسُ يحصى أيامَ هجرانه ، والذي هو صاحبُ
وصالٍ لا يتفرَّغ من وصله إلى تذكُّرِ أليمه في المدد ، أو الطول والقصر .

واللائكةُ يحصون زلَّاتِ الباصين ، ويكتبونها في صحائفهم . والحق سبحانه يقول :

« وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا » فكما أحصى زلَّاتِ الباصين وطاعاتِ المطيعين فكذلك
أحصى أيامَ هجرانِ المهجورين وأيامَ محنِ المتحنين ، وإنَّ لم يَفِدْ ذَلِكَ لَسَلْوةً ونَفْساً ؛
فإنَّه قد مضى بلا تلاحٍ وما في الصبر فضلٌ عن ثمانٍ

وكم من أوقافٍ جاوزت أيامَ فترتهم الحدا وأزيت أوقافَ هجرانهم على العصر !

قوله جل ذكره : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا »

يأبها الصُّنْعُونَ في الجنة .. إفرحوا وتمتعوا فلن نزيدكم إلا نواباً .

أيها الكافرون .. احرقوا في النار .. ولن نزيدكم إلا عذاباً^(٢)

ويأبها المطيعون .. افرحوا وارتسوا فلن نزيدكم إلا فضلاً على فضل .

يأبها المساكين .. إيسكوا واجزعوا فلن نزيدكم إلا عزلاً على عزل .

قوله جل ذكره : « إِنَّ لِلنَّاسِ مَفَازًا » حقائق وأغاني

• وكواهب أرباباً • وكأساد هلاكاً •

(١) في « كَذَّبُوا » يقول الفراء : هجاء عمانية فسيحة ؛ يقولون : كذبت به كذاباً وخرقت القميص خيراً فاقاً .
فكأن فعل في وزن (فعل) مصلوه فحال مشددة في لغتهم .

(٢) قال أبو البرزة : سألت النبي (ص) عن أشد آية في القرآن فقال : قوله تعالى : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا » أى : « كلما نفست جلودكم بدلتهم بجلوداً غيرها » و« كلما خبت زنادكم سيراً » .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا كِتَابًا *

جزءاً من ربك عطائه حباً *

مُسْكَمُ التقيين ما وعدناهم به .. فبينما لم ما أعدنا لهم من التور بالبنية والنظر بالسؤال
والبنية : من حقائق وأعتاب ، ومن كواعب أترابٍ وغير ذلك .

فيأبها المهيمنون المتبينون هنئلاً لكم ما أتم فيه اليوم في سبيل مولاكم من تجريد وقهر ،
وما كلفكم به من توكل وصبر ، وما تجرعتم من صدٍّ وهجير .

أحرى الملابس ما تلقى الحبيب به يوم الزاور^(١) في الثوب الذي خلما

قوله : « لا يسمعون فيها ... » آثامهم مصونة عن سماع الأغيار ، وأبصارهم محفولة
عن ملاحظة الرسوم والآثار .

قوله جل ذكره : « ربُّ السموات والأرض وما بينهما

الرحمن لا يملكون منه خطاباً »

وكيف تكون للمُسكُون المخلوق الفقير للساكنين مُسَكَنَةً أَنْ يملك منه خطاباً ؟ أو يقتصر
بلونه نفساً ؟ كلا . . بل هو الله الواحد الجبار .

قوله جل ذكره : « يوم يقوم الروح واللائكة صفاً

لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن

وقال صواباً »

إنما تظهر الهيبة على الصوم لأهل الجمع في ذلك اليوم ، وأما الخواص وأصحاب الحضور
فهم أبداً بمشهد العز بنعت الهيبة ، لا نفس^(٢) لهم ولا راحة ؛ أحاط بهم سرادقها واستولت
عليهم حقاقها .

(١) هكذا في م وهي في ص (الزاور) وهي خطأ من النسخ ، والمقصود من النص العمري : أن الله يحب
أن يرى على الفقراء ثياب التجرد لأنها ثياب الحق علمها لهم بنفسه حيناً آثروا حقه على حظوظهم .
(٢) هكذا في ص وهي في م (لا نفس لهم ولا فرجة) وربما كانت (فرجة) بالجمع .

قوله جل ذكره : « ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ

إلى ربّه ما بآ » .

م بمشهد الحق ، والحكم عليهم الحق ، حكم عليهم الحق ، وم مجنونون بالحق للعق .

قوله جل ذكره : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً » .

وهو عند أهل النخلة بيده ، ولكنه في التحقيق قريب .

« يومَ ينظرُ للرء ما قدّمتْ يدهُ

ويقولُ الكافرُ^(١) : لا يفتي

كنتُ تراباً » .

مضوا في ذلّ الاختيار والتعق^(٢) ، ويُسْوَا في حسرة التميّ ، ولو أنهم رضوا بالتقدير

لتصلّوا^(٣) من التميّ .

(١) قيل : يراد بالكافر هنا أي بن خلف أو عتبة بن أبي معيط . ويرى أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي - صاحب هذا الكتاب : هو إبليس ، يقول : يا ليتني علمت كآدم من تراب ولم أقل أنا خير منه لأن من نار . (القرطبي ١٩ ص ١٨٩) .

(٢) وردت في التستين (التستين) وهي مقبولة ، ولكننا نرجح أنها ربما كانت في الأصل (التستين) لأن الاختيار كان في الدنيا ، واختيار المرء - حسب نظرية التميمي - مجلبة لعنائه وشغاله .. هذا فضلاً عن أن إثبات (التستين) يزيد المعنى - نظراً لتلون الفاصلة - قوة وجعلاً .

(٣) هكذا في م وهي في ص (لتصلوا) وواضح فيها خطأ النسخ

سُورَةُ النَّازِعَاتِ^(١)

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ لربِّ عزيز ، سماعُهُ يحتاج إلى سَمْعٍ عزيز ، وذكْرُهُ يحتاج إلى وقتٍ عزيز ، وفهمُهُ يحتاج إلى قلبٍ عزيز .

وأنتَ لصاحبِ سَمْعٍ بالنبيةِ مُبْتَدَل ، ووقتِ مُعْطَلٍ في الخناسِ مُسْتَعْرِق ، وقلبٍ في الاشتغال بالأخبار مستعمل . . . أَنَّى لَهُ أَنْ يَصْلُحَ لِمَا هَذَا الْإِسْمُ ١٩ .

قوله جل ذكره : « وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا » .

أى لللائكة ؛ تَنْزِعُ أرواحَ الكفَّارِ من أبدانهم .

« غَرَقًا » : أى إغراقًا كالغريق في قَوْسِهِ^(٢) .

ويقال : هى النجوم تنزع من مكانٍ إلى مكان .

« وَالنَّاسِطَاتِ نَسْطًا » .

هى أُنسُ المؤمنين تَنْشَطُ للخروج عند الموت .

ويقال : هى اللائكة تَنْشَطُ أرواحَ الكفَّار ، وتنزعها فيشتدُّ عليهم خروجُها .

ويقال : هى الوحوش تنشط من بلبر إلى بلبر .

ويقال : هى الأوهام^(٣) .

(١) مَكَلَّا فى ص وهى فى م (سورة والنازعات) بإثبات الواو .

(٢) إغراق النازع فى القوس أن يبلغ مداه ويستقرى شططا .

(٣) مَكَلَّا فى م وهى فى (س الأوهام) بالراء وهى خطأ فى النسخ ، والأوهام جمع وهى بحركاته وتد يسكن : الحيل تشد به الإبل والخيول حتى تتوخى فى طرفة أنفوسه . وأوهى الدابة أى طرح فى صفها الروح ، ومن مكرمة وهما : الأوهام تنشط السهام .

ويقال : هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق .

« وَإِلَّامَاتٍ سَبِّحًا »

للالئكة تسبح في زوالمها .

ويقال : هي النجوم تسبح في أفلاكها .

ويقال : هي السفن في البحار .

ويقال : هي أرواح للؤمنين تخرج بسهولة لشوقها إلى الله .

« فَالْمَآبَاتِ سَبِّحًا »

للالئكة يسبقون إلى الطير والبركة ، أو لأنها تسبق الشياطين عند نزول الوحي ، أو لأنها تسبق بأرواح الكفار إلى النار .

ويقال : هي النجوم يسبق بعضها بعضاً في الأفول .

« فَالْمَدَبَرَاتِ أَمْرًا »

للالئكة تنزل بالحرام والحلال .

ويقال : جبريل بالوحي ، وميكائيل بالقطر والنبات ، وإسرافيل بالصور ، وملكُ اللوت يهبس الأرواح . عليهم السلام .

وجوابُ القسم قوله : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَعَمْرَةٍ لَنْ يَخْشَى »^(١)

قوله جل ذكره : « يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ » .

تتحرك الأرض حركةً شديدة .

« تَتِيمَهَا الرَّادِفَةُ »

النفثة الأولى في الصور . وقيل : الراجعة النفثة الأولى والرادفة النفثة الثانية .

(١) هذه هي الآية رقم ٢٦ بالسورة وهو اختيار القرطبي أيضاً .. وهي كما ترى متاعرة جداً . ويرى بعض المفسرين أن جواب القسم مفسر لأنه لا ينبغي حل القسم ، ويرى آخرون - كالقراء - أنه البعث بدليل « أننا كنا عظاما نخرة » . ويرى للقرطبي : أنه قسم جوابه : إن القتامة حق .

« قلوب يومئذٍ واجبة » .

خاتمة .

« يقولون أئتنا لمدعوون في
الخطية ^(١) » .

أى إلى أول أمرنا وحالتنا ، حتى أئذنا متنا نبث ونُرَدُّ إلى الدنيا (ونعشى على الأرض
بأقدامنا) ؟ قالوه على جهة الاستبعاد .

« أئذنا كُنَّا عِظَامًا نَحِرَّةً » .

أى بالية .

« تلك إنَّكَ كَرَّةٌ خاسِرةٌ » .

رَجْمَةٌ ذات خسران (ما دام المصيرُ إلى النار) .

قوله جل ذكره : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ » فإذا

هم بالساهرة ^(٢) » .

جاء في التفسير إنها أرض الحشر ، ويقال : إنها أرض يضاء لم يعض الله فيها ^(٣) .

ويقال : الساهرة نفخة الصور تذهب بنومهم وتسهرهم .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ مُوسَى »

إذ ناداهُ ربُّهُ بالوادي المُقَدَّسِ
طُوًى » .

أى الأرض المطهرة المباركة . « طوى » اسم الوادى هناك .

« أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى »

قُلْ هل لك إلى أَنْ تَرَكَى » .

(١) سميت الأرض الخافرة لأنها مستقر الجوارى .

(٢) سميت الأرض بالساهرة لأن فيها نوم الحيوانات ودمهم (الفراس) ، وقال أبو كبير المثل :

يرتدن ساهرة كأن جبيها وعيها أهداف ليل مظلم

(٣) هذا رأى ابن عباس .

فقال له : اذهب إلى فرعون إنه طغى ، قل له : هل يقع لك أن تؤمن وتظهر من ذنوبك .
وفي التفسير : لو قُلْتُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَلَاكَ مُلْكٌ لَا يَزُولُ ، وشبابك لا يهرم ، وتعيش
أربعمائة سنة في السرور والنعمه .. ثم لك الجنة في الآخرة .

« وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتُخْشَى » .

أَفَرَأَيْتَ لَكَ بَلَايَاتٍ مِّمَّذَا أَقُولُ ، وأعرضك صحة الدين .. فهل لك ذلك ؟ فلم يَقْبَلْ .
ويقال : أظهر له كل هذا التلطّف ولكنه في حَقِّ سِرِّهِ وواجبِ مَكْرِهِ به أنه صَرَفَ
قلبه عن إرادة هذه الأشياء ، وإشار مراده على مراد ربه ، وألقى في قلبه الامتناع ، وترك قبول
النصح .. وأى قلب يسمع هذا الخطاب فلا ينقطع لذنبه هذا اللفظ ؟ وأى كَيْدٍ تعرف هذا
فلا تَنَشَقُّ لصبوبة هذا المكر ؟

قوله جل ذكره : « فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى » .

جاء في التفسير : هي إخراج يده بيضاء لها شمع كشعاع الشمس . قال فرعون : حتى
أشاور غلماناً^(١) ، فشاؤره ، قال له هامان : أبعد ما كنتُ ربّاً تكون مربوباً ؟ ! وبعد
ما كنت مَلِكاً تكون مملوكاً ؟

فكذّب فرعون عند ذلك ، وعصى ، وَجَمَعَ السَّحَرَةَ ، ونادى :

« قَالُوا أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى » .

ويقال : إِنَّ إبليس لما سمع هذا الخطاب فرّ وقال : لا أطيع هذا !

ويقال قال : أنا ادَّعَيْتُ الْخَلْقَ عَلَى آدَمَ فَكَيْتَ مَا كَيْتَ .. وهذا يقول :
أنا ربُّكم الأعلى .

قوله جل ذكره : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى » .

(١) يقصد القشيري من بيده إل شيئين : أولهما أن نساد الملوك قد يكون بسبب وزرائهم وساحيتهم .. ولعلنا
نذكر ما قلناه في الفصل من أن أشد الحجة التي ألتم بالقشيري كانت بسبب القشيري وزير السلطان طغرل .
وثانيهما أن الصحة السليمة قد تؤدي إلى هلاك الصاحب والمصاحب ، وفي هذا تحذير لأرباب الطريق (راجع
باب الصحة في الرسالة ص ١٤٥) .

أى فى إهلاكنا فرعون كِبْرَةً لَّنْ يَخْشَى .

قوله جل ذكره : « أَمْ أَشَدُّ خَفَقًا أَمْرَ السَّاهِ »

• بنها • رَفَعَ سَكَمَهَا فُسُومًا •

• وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُلْعَهَا •

• فُسُومًا • جعلها مستوية • « وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا » أظلم ليلها • « ضُلْعَهَا » ضوؤها ونهارها •

• دَحَامًا • بَطَلَهَا وَمَدَّهَا •

• « أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا » •

أخرج من الأرض العيون المتفجرة بالماء ، وأخرج النبات ..

• « وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا » •

أَثْبَتَهَا أوتاداً للأرض •

• « مَطَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » •

أى أخرجنا النبات ليكون لكم به استعمال ، وكذلك لأنعامكم •

• « فَلِذَا جَاءَتِ الطَّائِفَةُ الْكَبِيرَى » •

الهاية العظمى .. وهى القيامة •

• « يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى » •

وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من ظننى وكفَرَ وَآتَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا فَلَيْلٌ الْجَحِيمِ هَ الْمَأْوَى

وَالْمُسْتَقَرُّ وَالْمَثْوَى •

• « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى

النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى • فَلَيْلٌ الْجَنَّةِ

هَى الْمَأْوَى •

• « مَقَامُ رَبِّهِ » : وقوفه غداً فى محل الحساب • ويقال : إقبالُ الله عليه وأنه راده .. وهذا

عينُ الرقابة ، والآخِرُ محلُ الحاسبة •

« ونهى النفس عن الهوى » أى لم يتابع هواه .
 قوله جل ذكره : « يَأْتُونَكَ مِنَ السَّاعَةِ آيَاتٌ
 مُرْسَلَةٌ » .

أى متى تقوم ؟

« فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا » .

مِنْ أَيْنَ لَكَ عَلَيْهَا وَلَمْ تَمْلِكْ ذَلِكَ ^(١) .

« إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا » .

أى إنما يعلم ذلك ربُّكَ .

« إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا » .

أى يخوف ، فيقبل مخوفتك مَنْ يَخْشَاهَا ويؤمن .

« كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا

إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ الْقِيَامَةَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ؛ فلفتة ما يرون ثقل عندهم كثرةُ
 ما لبثوا تحت الأرض .

(١) روى الإمام البخارى في نهاية حديثه عن هذه السورة قال : حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا القفيل بن سليمان
 حدثنا أبو حازم حدثنا سويل بن سعد رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله (ص) قال بأسميه هكذا بالوسطى والى
 نلى الإيهام يثبت والساعة كهاتين . « (البيان ص ٣٠ ص ١٤٢) » .

سُورَةُ عَبَسَ^(١)

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » . اسم كريم بَسَطَ للمؤمنين بساطَ جوده ، اسم عزيز انبَدَّ على الأولين
والآخرين طريقُ وجودِهِ .. وأُنْى بذلك ولا حَدَّ لَهُ ؟ مَنْ القى يدركه بالزمانِ والزمانُ خَلَقَهُ ؟
ومن القى يحسبه في المكانِ والمكانُ فُتِنَهُ ؟ وَمَنْ القى يعرفه — إِلَّا وَبِهِ يعرفه ؟ وَمَنْ القى
يَذْكُرُهُ^(٢) — إِلَّا وَبِهِ يَذْكُرُهُ ؟

قوله جل ذكره : « عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ
الْأُحْمَى » .

تَوَلَّى في ابن أم مكتوم ، وكان ضريباً .. أتى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عنده العباس
ابن عبد المطلب وأمية بن خلف الْجَحْمِيُّ^(٣) — يرجو الرسول صلى الله عليه وسلم لإعانتها ،
فَكَرِهَ أَنْ يَقْطَعَ حَدِيثَهُ معها ، فأعرض عن ابن أم مكتوم ، وَعَبَسَ وَجْهَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ
هذه الآية .

وجاء في التفسير : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أمرِهِ ، وأمرَ بطلِيهِ ، وكان بعد ذلك
يَبْرَهُ وَيُكْرِهُهُ ، فاستغفنه على المدينة مرتين .

وجاء في التفسير : أنه صلى الله عليه وسلم لم يَعْلَسْ — بعد هذا — في وجهٍ قهيرٍ قط ،
ولم يُعْرِضْ عنه .

(١) هكذا في م وهي في ص (سورة الأحمى)

(٢) هكذا في ص . هي في نظرننا أسوب من (يدركه) القى في م لأن السياق بعدما سيكون : (إلا وبه يدركه)
والله سبحانه مثزه من الدوك والحق كاتعرف من مذبح القشيري . أما فذكر فهذا مقبول على أنه تعبير . في النون
المصري : (لا أعرفك إلا بك ولا أذكرك إلا بك) .

(٣) يقول ابن العربي : غير صحيح أن أمية هذا كان في هذا المجلس ، فقد كان بمكة وابن أم مكتوم
كان بالمدينة وكان موته كافرا ، ولم يقصد المدينة ، ولا اجتمع بالنبي .

ويقال: في الخطاب لُطْفٌ . . وهو أنه لم يواجهه بل قاله على الكناية^(١)، ثم بعده قال:

« وما يُدْرِيكَ لَهْ يَزْكِي^(٢) » .

أى يذكر بما يعلم منك أو .

« أَوْ يَدْرِيكَ فَتَنَّمَهُ الذِّكْرَى^(٣) » .

قوله جل ذكره: « أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى^(٤) » فأتى له

تَصَدَّى^(٥) • وما عليك أَلَّا يَزْكِي^(٦) » .

أَمَّا مَنْ أَسْتَفْنَى عَنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ اسْتَفْنَى عَنْ اللَّهِ .

ويقال: استفنى بالله فأتى له تصدى، أى تقبل عليه بوجهك .

« وما عليك . . . » فأتى لا تَوَاحَدُ^(٧) يَا لَا يَزْكِي^(٨) هو فلانما عليك البلاغ .

« وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسَى^(٩) » .

لَطَلَبَ الْبَيْتَ^(١٠)، ويعشى الله فأتى عنه تَعَلَّى^(١١)، وتشاغل . . وهذا كله مِنْ قَبْلِ الْعِتَابِ^(١٢) معه لأَجْلِ الْقِرَاءِ .

قوله جل ذكره: « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ^(١٣) » فَمَنْ شَاءَ

ذَكَرَهُ^(١٤) .

القرآن تذكرة؛ فَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْكُرَهُ ذَكَرَهُ^(١٥)، وَمَنْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا يَذْكُرَهُ^(١٦) لم يَذْكُرْهُ^(١٧)؛ أى بذلك جرى القضاء، فلا يكون إلا ما شاء الله .

ويقال: الكلام على جهة التهديد؛ ومعناه: فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَهُ فَلْيَذْكُرْهُ^(١٨)، وَمَنْ شَاءَ

أَلَّا يَذْكُرَهُ فَلَا يَذْكُرْهُ^(١٩) ا كَقَوْلِهِ « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ^(٢٠) » .

وقال سبحانه: « ذَكَرَهُ^(٢١) » ولم يقل « ذَكَرْهَا^(٢٢) » لأنه أراد به القرآن .

قوله جل ذكره: « فِي مِصْحَفٍ مُكْرَمَةٍ^(٢٣) » .

(١) أى تحدث عن موسى الوجه بفسير الغائب، ثم جاء العتاب بفسير الخطاب .

(٢) آية ٢٩ سورة الكهف .

أى صف إبراهيم وموسى وما قبل ذلك ، وفى اللوح المحفوظ .

« مَرْفُوعَةٌ مُطَهَّرَةٌ » .

مرفوعة فى القَدَرِ والرتبة ، مطهرة من التناقض والكذب .

« بِأَيْدَى سَفَرَةٍ » .

أى : لللائكة الكتّبة .

« كِرَامٍ بِرَّةٍ » .

كرامٍ عند الله بِرَّةٍ .

قوله جل ذكره : « قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ » .

لَيْنَ الْإِنْسَانِ مَا أَعْظَمَ كُفْرَهُ ۝

« مِنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ • مِنْ نُطْقَةٍ

خَلَقَهُ قَدْرُهُ » .

خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَقَدَّرَهُ أَطْوَالَ : مِنْ نُطْقَةٍ ، ثُمَّ عَلَّقَهُ ، ثُمَّ طَوَّرَهُ بِطَوْرٍ .

قوله جل ذكره : « ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ » .

يَسَّرَ عَلَيْهِ السَّبِيلَ فِي الظُّهْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَلْهَمَهُ كَيْفَ التَّصَرُّفِ .

وَيُقَالُ : يَسَّرَ عَلَيْهِ الْخُرُوجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَخْرُجُ أَوَّلًا رَأْسُهُ مِنْكَوَسًا .

« ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ » .

أى : جَلَّ لَهُ قَبْرُهُ لثَلَاثَةِ عَشْرَةِ السَّاعِ وَالطَّيُورُ وَلَثَلَا يَنْتَضِعُ .

« ثُمَّ إِنَّا شَاءَ أَنْ نَشْرَهُ » .

بِمَتْنِهِ مِنْ قَبْرِهِ .

« كَلَّا لَنَا بَنُفُسٍ مَا أَمَرْتُهُ »

أى : عَصَى وَخَالَفَتْ مَا أَمَرْتُ بِهِ .

ويقال : لم يقض الله ما أمره به ، ولو قضى عليه ما أمره به لكان عاصداً^(١) .

- قوله جل ذكره : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعْمِهِ •
أَنَا صَبَّيْنَا لِلْآدَمِ صَبًا • ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا • فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا •
وَعَيْنًا وَقَصْبًا • وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا •
وَحَدائقَ غُلْبًا • » .

في الإشارة : صَبَّيْنَا ماء الرحمة على القلوب القاسية فَلَانَتْ للتوبة ، وصَبَّيْنَا ماء التعريف على
القلوب فَبَيَّتْ فيها أزهار التوحيد وأنوار التصريد .
« وَقَصْبًا » أي القَتَّ^(٢) .
« وَحَدائقَ غُلْبًا » متكافئة غُلْبًا .

« وَطَائِفَةَ وَأَبَا » .

الطائفة : جميع القواكه ، و« أَبَا » : للرعى .

« مَطَاعًا لَكُمْ وَلِأَمْلِكُمْ ... » .

« فَلَمَّا جَاءَتِ الصَّاعَةَ » أي : القيامة ؛ فيومئذ يفر للره من أخيه ، وأمه وأبيه ، ثم يَبِينُ
ما سبب ذلك فقال :

« لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُنْفِيهِ » .

لا يضرَّع إلى ذاك ، ولا ذاك إلى هذه . كذلك قالوا : الاستقامة أَنْ تشهدَ الوقتَ

(١) أي : كلاً لم يقض الله هذا الكافر ما أمره به من الإيمان ، بل أمره بما لم يقض له ... وهذا الرأي للإمام
ابن غورك شيخ التشيعي .

(٢) سُمِّيَ القَتُّ قَصْبًا لأنه يقصب ، أي يقطع به ظهوره مرة بعد مرة (الحسن) ويرى ابن عباس أنه المرطب
لأنه يقصب من النخل ، ولأنه ذكر المصب قبله .

قيامة ، فما من ولي ولا عارف إلا وهو — اليوم — قلبه يفرُّ من أخيه وأنه وأبيه ،
وصاحبه وفيه .

فالمُعرفُ مع الخلق ولكنه يُفَارِقُهُمْ قلبه — قالوا :

فقد جلتك في القلوبِ مُخَذِّقِي

وَأَبْحَتْ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جِلْمِي^(١)

قوله جل ذكره : « وَجُوهٌ يُؤْمِنُ بِسُفْرَةٍ • ضَاحِكَةٌ
مُسْفِرَةٌ • »

وسبب استشارهم بخطف ؛ ففهم من استشاره لوصوله إلى جنته ، ومنهم لوصوله إلى
الطور المين من خطيته . - ومنهم ومنهم ، وبعضهم لأنه نظر إلى ربه فراه .

« وَجُوهٌ يُؤْمِنُ بِهَا غَيْرَةٌ • »

تَرَهَّقَهَا قَرَّةٌ • أولئك هم الكفرةُ

الْقَبِيْرَةُ • .

وهي غيرةُ التَّكَلُّفِ . « ترهقها قرة » . وهي ذلُّ الحجاب .

(١) أحد يمينين ينسب إلى رابية الطغوية ، « التلقى :

فالجسم من الجلبس مؤلِّقٌ وحيث تلقى في التلوذ أنيس
(نشأة التصوف الإسلامي من ١٩١ ط الماروف تأليف بسبون) .

سُورَةُ النَّكْوِيرِ

قوله جل ذكره . « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة أُنْثِلَتْ من قومٍ قلوباً ، وأَوْصِيَتْ من آخرين قلوباً ؛ من اللطيفين أُنْثِلَتْهَا ، ومن العاصين أَوْصِيَتْهَا ، ومن المرئيين أَيْهِجَتْهَا ، ومن العارفين أَرْحَبَتْهَا .

قوله جل ذكره . « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ » .

ذَهَبَ ضَوْؤُهَا .

« وَإِذَا النُّجُومُ أَنْكَدَرَتْ » .

تَنَاقَرَتْ وَسَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ .

قوله جل ذكره . « وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ » ^(١) .

أُزِيلَتْ عَنْهَا مَنَاقِبُهَا .

« وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ » .

وهي الثُّنُوقُ الْحَوَامِلُ الَّتِي آتَى سَحْلُهَا عَشْرَةَ أَشْهُرَ . أَهْلَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِشِدَّةِ أَهْوَالِهِ ، وَاشْتِفَالِ النَّاسِ بِأَعْضِهِمْ عَنْهَا .

« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ » .

أُخِيضَتْ ، وَجُمِعَتْ فِي الْقِيَامَةِ لِيُقْتَصَّ لِبَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ؛ فَيَقْتَصَّ الْجَهَنَّمُ مِنَ الْقَرْنَاءِ ^(٢) — وَهَذَا عَلَى جِهَةِ تَرْبِ الْمَثَلِ ؛ إِذْ لَا تَكْلِيفَ عَلَيْهَا .

(١) تَأَخَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِعَدِّ آيَةِ (الْعِشَارِ) فِي مَوْضِعِهَا فِي مَكَانِهَا الصَّحِيحِ .

(٢) هَذَا وَالْأَيْبَانِ عِيَّاسٌ كَمَا رَوَاهُ عَنْهُ حَكِيمَةُ ، وَالْجَهَنَّمُ : مَا لَيْسَ غَا قَرْنٌ ، وَفِي أَعْلَامِهِ « عَدَّ الصَّلَاحَ يُعْتَبَرُ » الْكَهْشُ الْإِجْمَعُ .

ولا يمد أن يكون بإصال منافع إلى ما وصل إليه الألم — اليوم — على اليومين ..
جوازاً لا وجوباً على ما قاله أهل البدع .

« وإذا البحار سُجِّرَتْ » .

أوقعت — مِنْ سَجَرَتْ التنور أسجُرُهُ سَجَرًا ، أى : أَحْيَيْتُهُ .

« وإذا النفوسُ زُوجَتْ » ^(١) .

بالأزواج .

« وإذا التوأمودَةُ سُنَّتْ » • بأى

ذَنْبٍ قُتِلَتْ • وإذا الشُّحُفُ

نُشِرَتْ » .

نُشِرَتْ ، أى : بُطِلَتْ .

« وإذا السماءُ كُثِطَتْ » .

أى : تَزَيَّجَتْ وطمُوِيَتْ .

« وإذا الجبمُ سَعَرَتْ » .

أُوْقِدَتْ .

« وإذا الجنةُ أُرْزِلَتْ » .

أى : قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

قوله جل ذكره : « عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ عَنْهَا »

هو جواب لهذه الأشياء ، وهذه الأشياء تحصل عند قيام القيامة .

وفى قيام قيامة هذه العلاقة (يقصد الصوفية) عند استيلاء هذه الأحوال عليهم ، وتبطل

هذه الصافي لقوتهم توجد هذه الأشياء .

(١) قرئت بأشكالها فى الجنة والقيامة ، قال تعالى : « اسعروا الذين ظلموا وأزواجهم » . وقال الله عليه

وسلم : « يقرن كل رجل مع كل قديم كانوا يعملون كعمله » .

فن اختلف أحوالهم : أنَّ لشموسهم في بعض الأحيان كسوفاً وذلك عندما يُردُّون^(١) .
ونجومٌ عليهم قد تنكدر لاستيلاء الهوى على المرئيين في بعض الأحوال ، فنجد ذلك
« علت نفس ما أحضرت » .

قوله جل ذكره : « فلا أقسمُ بالخنس * الجوارِرِ
الكنس » .

أى : أقسمُ ، وألغسُ والكنس هى النجوم إذا غربت^(٢) .
ويقال : البقر الوحش^(٣) .

قوله جل ذكره : « وأقبل إذا عَمَسَ * والصَّيْحِرِ إذا
تَنَفَّسَ » .

عَمَسَ : أى جاء وأقبل . « تنفَّسَ » : خرج من جوف الليل .

أقسم بهذه الأشياء ، وجواب القسم :

« إله تقولُ رسولُ كريمٍ » .

إن هذا القرآنَ قولُ رسولٍ كريمٍ ، يعنى به جبريل عليه السلام .

« ذى قُوَّةٍ عند ذى التَّوَكُّلِ مَكِينٍ » .

« مَكِينٍ » من المسكنة ، وقد بلغ من قوته أنه قطع قرية آل لوط وقببها .

« وما صاحبكم بمجنونٍ » .

وهذا أيضاً من جواب القسم .

« ولقد رآه بالأفق المبين » .

رأى محمد جبريل عليه السلام بالأفق المبين ليلة المراج .

(١) وعندما يُردُّون فى أسواق القنص بعد البط والمجر بعد الوصل ، والخوف بعد الرجاء والفرق بعد
الجمع .. ونحو ذلك .

(٢) قيل هى الكواكب الخمسة الداروى : زحل ، والمشتري ، وصادر ، والريغ ، والزهرة (فى رواية
من على ابن أبي طالب) .

(٣) فسرت هكذا فى رواية من عبد الله بن مسعود ، وأخرى من ابن عباس .

ويقال : رأى ربه وكان صلى الله عليه وسلم بالأفق المبين .

« وما هو على النيبِ بضنين » .

بمجتهم^(١)

قوله جل ذكره : « قَاتِنٌ تَذْهَبُونَ ؟ » .

إلى متى تتطوحن في أودية الظنون والحيلان ؟

وإلى أين تذهبون عن شهود مواضع الحقيقة ؟

وهلاً رجعتُم إلى مولاكم فيما سَرَكم أو أساءكم ؟

« إِنِّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِينَ * لَيْتَن

شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيمَ » .

ما هذا القرآن إِلَّا ذكرى لمن شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَعِيمَ . . . وقد مضى القولُ

في الاستقامة .

« وما تشاهدون إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

أَنْ يَشَاءُوا^(٢) .

(١) لا تكون بهذا المعنى إلا إذا قرئت (بظنين) بالظاء ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبى عمرو والكاظمي .
والآخرين بالفاء فيكون المعنى (يبتغون) أي لا يبتغل عليكم بما يعلم من أخبار السماء .

(٢) كنا ننتظر من التفسيرى الذى يماهى بأن كل شيء من الله وإلى الله حتى أكساب المبدأ أن يفيض في توضيح هذه الآية أكثر من ذلك ؛ لأنها ناصحة صريحة في نسبة المشيئة - كل المشيئة - لله ، وأن الإنسان إذا وصف بالمشيئة فهو مرتبطة بالمشيئة الإلهية .

سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة منيعة ليس يسوإلى ففهما كلُّ خاطر ؛ فلذا كان الغلطيرُ غيوةً خاطير
فهو من علم حقيقتها مُتَقَلِّير .

قوله جل ذكره : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ »

أى : انشقت .

« وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » .

تساقطت وتهاافت .

« وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » .

أى : فُجِّحَ بعضها على بعض .

« وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ »

أى : قُلِّبَ ترابُها ، وَبُيِّثَ الموتى الذين فيها ، وأُخْرِجَ ما فيها من كنوزٍ وموتى .
« عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ » .

جوابٌ لهذه الأمور ؛ أى إذا كانت هذه الأشياء : عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما قَدَّمَتْ من
خيرها وشرِّها .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ

الكَرِيمِ » .

أى : ما خدعك وما سؤل لك حتى عيئت^(١) بمصاحبه ؟

ويقال : سأله وكأنما في نفس السؤال لفته الجواب يقول : غراني كرمك بى ،
ولولا كرمك لما قمت ؛ لأنك رأيت فسدت ، وقدرت فأمهنت .

ويقال : إن المؤمن^(٢) وثيق بحسن إضاله فاعتر بطول إسهاله فلم يرتكب الزلة
لاستعلاؤه ، ولكن طول حمله عنه حمله على سوء خصاله ، وكألت^(٣) :

يقول مولاي : أما تصعب بما أرى من سوء أفضالك
قلت : يا مولاي رقا قد جرائى^(٤) كثرة أفضالك

قوله جل ذكره : « الذى خلقك فسواك فعدلك » فى أى
صورة ما شاء ربك .

أى : ركب أعضاءك على الوجوه الحكمة^(٥) فى أى صورة ما شاء ، من الحسن والقبح ،
والطول والقصر . ويصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة ، و « فى » بمعنى « على » ؛ فيكون
مناه : على أى صفة شاء ركبك ؛ من السعادة أو الشقوة ، والإيمان أو المصية .

قوله جل ذكره . « كلاً لئلا تكذبون بالدين »

أى : القيامة^(٦) .

« وإن عليكم لحافظين • كراما
كاتبين • يسئون ما تعلمون » .

هم الملائكة الذين يكتبون الأعمال . وقد خوفهم برؤية الملائكة وكتابتهم الأعمال لتفاصر

(١) هكذا فى ص وفى ق م (ملئت) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) يقصد التشيرى هنا (المؤمن الصامى) .. الميزة بين المؤمنين (بين المؤمن والكافر) .

(٣) ينبى ملاحظة ذلك إذا أردنا أن ندرس (التشيرى للشارح) : أنظر حله للدراسة فى كتابتنا من (الإمام

التشيرى) .

(٤) هكذا فى م وهى فى ص (أفسدت) وكلامها صحيح .

(٥) هكذا فى الشخصتين ، وقد كنا نريد أن نظن أنها ربما كانت (الحكمة) ، ولكن ارتباط السياق

بالمشيئة (.. ما شاء ركبك) جعلنا نحجم من هذا الظن .

(٦) بدليل قوله تعالى نيا بعد (يصلونها يوم الدين) .

حشمتهم من اطلاع الحق ، ولو سجدوا ذلك حقَّ العلم لَكَانَ تَوْقِيْعُهُم عن المخالفة لِرؤْيته —
سبعانه ، واستجيازهم من اطلاع — أَنْتُمْ من رُؤْيَةِ الملائكة .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » • وَإِنَّ النَّجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ » .

« الأبرار » : هم المؤمنون ؛ اليومَ في نعمة المصصة ، وغداً هم في الكرامة والنعمة
« النجار » : اليومَ في جهنم باستحقاق اللعنة والإصرار على الشُّرْكِ الموجِبِ للفرقة ، وغداً
في النارِ على وجه التخليد والتأيد .

ويقال : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » . في رَوْحِ الدُّكْرِ ، وفي الأُنْسِ في أَوَانِ خَلْوَتِهِمْ .
« وَإِنَّ النَّجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ » . في ضيق قلوبهم وتَحْطِيطِهِمْ على التقدير ، وفي غُلُمَاتِ تَدْيِيرِهِمْ ،
وضيق اختيلهم .

« يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ » • وما هم عنها بتائبين » .

« يصلونها » أي النار . « يوم الدين » . يوم القيامة .

« وما هم عنها » عن النار . « وما أدراك ما يومُ الدين ؟ » فلما على جهة التوبيخ .

« يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

الأمر لله يومئذٍ ، والله من قبله ومن بعده ، ولكن « يومئذٍ » تنقطع الدعاوى ، إذ
يتضح الأمرُ وتُصيرُ المكارفُ ضرورية .

سُورَةُ الْمُطَفِّينَ

قوله جل ذكره . « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ عزيزٌ رداؤه كبريؤه ، وسناؤه علاؤه ، وعلاؤه بهاءه ، وجلاله جماله ، وجلاله جلاله . الوجود له غيرٌ مُستَفْتَح ، والموجود منه غيرٌ مُسْتَفْتَح . الممرد منه لطفه ، المأمول منه لطفه . . . كيفاً قسمَ العبدِ فالعبدُ عبده ؛ إنْ أقصاه فالحكمُ حكمه ، وإنْ أدناه فالأمرُ أمره ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَيَلْلُ الْمُطَفِّينَ » الذين إذا

أكتالوا على الناس يستوفون *

وإذا كألوم أو وذرهم يحسرون .

« ويلل » : الويلُّ كلمةٌ تذكّر عند وقوع البلاء ، فيقال : ويلٌ لك ، وويلٌ عليك ! و « المطفّف » . الذي يُنْقِصُ الكيلَ والوزنَ ، وأراد بهذا الذين ياملون الناس فلذا أخذوا لأنفسهم استوفوا ، وإذا ذهبوا إلى من ياملهم قصوا ، ويتجلى ذلك في : الوزن والكيل ، وفي إظهار العيب ، وفي القضاء والأداء والافتضاء ؛ فمن لم يَرْضَ لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

(١) هذا هو نفس اسم بسملة كاجاء في م أساني من نفس حل التتمه الثاني :

[بسم الله : اسم جليلٌ جلالة لا بالأشكال ، وجلاله لا على استثناء أمثال ، وأما لا بأغراض وأعدل ، وقدرته لا باجتناب ولا إحياء ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال . فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يحوز عليه فتاة ولا زواله] .

وهذا هو تفسير بسملة سورة الانشقاق كاجاء في م وكأسنرى ، ومعنى هذا أن يفسر بسملة في الأمر . وما دنا تعرف أن القشيري لا يستوي إشارته من كل بسملة بطريقة عذوية ، ولكن على أساس المنزى العام للسورة . . فقد استرنا أن تكون بسملة والمطففين هي هذه على أساس أنقصة الله عليه تسعة مائة ليس بها (تطقيف) ، وأن ما أوجده الله من وجود (غير مستطع) .

فليس بمنصف . وأما العَدُّيقون فإلَهِم كما ينظرون للسلمين فإلَهِم ينظرون لكلِّ مَنْ لَهِم معهم
معاملة — والصديق عزيزٌ ، وكذلك أحوالهم في الصَّحبة والمشاركة . . فإلَهِم يرى عَيْبَ الناسِ
ولا يرى عَيْبَ نَفْسِهِ فهو من هذه الجهة — جلة المطفين — كما قيل :

وَبُصِّرَ فِي الْمِرْءِ مَعَى الْقَدَى

وَفِي عَيْنِكَ الْجَمْدُ لَا تُبْصِرُ

وَمَنْ اقْتَضَى حَقَّ نَفْسِهِ — دُونَ أَنْ يَقْضَى حَقَّ غَيْرِهِ مِثْلًا يَقْتَضِيَا لِنَفْسِهِ — فَهُوَ
مِنْ جِلَّةِ الْمُطْفِينَ .

وَالَّذِي مَنْ يَقْضَى حَقُّو النَّاسِ وَلَا يَقْضَى مِنْ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ حَقًّا .

قوله جل ذكره : « أَلَا يَنْظُرُونَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ »

ليومٍ عظيمٍ ؟ • يومَ يقومُ الناسُ
رَبِّهِ الْمَالِئِينَ » .

أى : أَلَا يَسْتَقِيقُونَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ مُحَاسِبُونَ غَدًا ، وَأَنَّهُمْ مُعَالِيُونَ بِحَقِّ النَّاسِ ؟ .

ويقال : مَنْ لَمْ يَذْكُرْ — فِي حَالِ مَعَامَلَةِ النَّاسِ — مَعَانِيَةَ الْقِسْلَةِ وَمَحَاسِنَهَا فَهُوَ
فِي خُسْرَانٍ فِي مَعَامَلَتِهِ .

ويقال : مَنْ كَانَ صَاحِبَ مِرَاقِبَةِ اللَّهِ رَبِّ الْمَالِئِينَ اسْتَشْعَرَ الْمِئِيَّةَ فِي طَلِيلِهِ ، كَمَا يَكُونُ حَالُ
النَّاسِ فِي الْحَشْرِ ؛ لِأَنَّ إِطْلَاعَ الْيَوْمِ كَأُطْلَاعِهِ غَدًا .

قوله جل ذكره . « كَلَّا إِنَّكَ كَتَبْتُ الْقُصَارَ لَنِي »

سَجِينَ • وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِينَ ؟ •
كَتَبْتُ مَرْقُومًا » .

« سَجِينَ ^(١) » قيل : هِيَ الْأَرْضُ السَّابِغَةُ ، وَهِيَ الْأَرْضُ السُّفْلَى ، يُوضَعُ كِتَابُ أَعْمَالِ
الْكَافِرِ هُنَاكَ إِذْ لَا لَهُمْ وَإِهَانَةٌ ، ثُمَّ تُحْمَلُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى مَا هُنَاكَ .

(١) في رواية عن أنس أنه قال : قال سئل الله عليه وسلم : سَجِينَ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِغَةُ » .

ويقال : « السَّعِين » جُبُّ في جهنم . وقيل : صخرة في الأرض السفلى ، وفي اللغة السَّعِين : قيل من السَّعِين .

« وما أدراك ما سجين » . استفهام على جهة التهويل

« كتابٌ مرقوم » . أي مكتوب ؛ كَتَبَ اللهُ فيه ما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون . وإنما المكتوبُ على بنى آدم في الإنجيل والشر ، والشقاوة والسعادة فهو على ما نلتقى به حكمه وإرادته ، وإنما أخبر على الوجه الذي علم أن يكون أو لا يكون ، وكما علم أنه يكون أو لا يكون أراد أن يكون أو لا يكون . ثم إنه سبحانه لم يُطْلِعْ أحداً على أسرار خلقه إلّا مَنْ شاء من المقربين بالقدَر الذي أَرَادَهُ ؛ فإنه يُجْرِي عليهم في دائم أوقاتهم ما سَبَقَ لهم به التنذير .

ثم قال : « وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ • الَّذِينَ

يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ • وَمَا يُكَذِّبُ

بِهِ إِلَّا كُلُّ مُبْتَدِلٍ أَفِيمٍ »

ويل للذين لا يصدقون يوم الدين ، وما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُجَاوِزٍ لِلْحَدِّ الذي وُضِعَ لَهُ ؛ إذا يُعَلَى عليه القرآن كَقَرَّبَ بِهِ .

« كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ • كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ

يَوْمئِذٍ لَّحَيُّوْنَ »

أي : غُطِّيَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون من اللامى . . . وكأَنَّهُمْ — اليومَ — ممنوعون عن معرفته فهم غداً ممنوعون عن رؤيته . ودليل الخطاب يوجب أن يكون المؤمنون يَرَوْنَهُ غداً كما يعرفونه اليوم .

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْآبَارِ لَفِي

عَلَيْنَ »

« علَيْنَ » أعلى الأمكنة ، تعمل إليه أرواح الأبرار تشرقاً لهم وإجلالاً .

ويقال : إنها سِدْرَةٌ للنتهى . وقال : فوق السماء السابعة . كتب مرقوم فيه أعمال مكتوبة يشهده القريون ^(١) من اللائكة .

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » .

اليومَ وغداً : اليومَ في رَوْحِ الزَّفَانِ ، وراحةِ الطاعة والإحسان ، ونعمةِ الرضا وأُنسِ القُرْبَةِ وَسَطِ الموصلة . وغداً — في الجنة وما أُعدوا به من فنون الزينة والقربة .

قوله تعالى : « عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ » .

أُتِمَّتِ النَّظَرُ ولم يَسَيِّنْ للنظر إلى لاختلافهم في أحوالهم ؛ فهم من ينظر إلى قُصُورِهِ . ومنهم من ينظر إلى حُورِهِ ، ومنهم ومنهم .. ومنهم الخواص فهم على دَوَامِ الْأَرْكَانِ إلى الله — سبحانه — يَنْظُرُونَ .

قوله جل ذكره : « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نُصْرَةَ اللَّهِ » .

مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ نَظَرِهِ إِلَى مَوْلَاهُ مَا يُلَوِّحُ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ النِّعَمِ ؛ فَأَحْوالُ الْحُبِّ شَهَادَةٌ عَلَيْهِ أَبَدًا . فَإِنَّ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ وَصَالِ فَخْرِيَّاهُ وَدَلَالِهِ ، وَسُرُورِهِ وَحُبُورِهِ ، وَنَشَاطِهِ وَانْبِساطِهِ . وَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ وَقْتُ غَيْبَةٍ وَفِرَاقٍ فَالشَّهَادَةُ عَلَيْهِ بِمَحَلِّهِ وَذُبُولِهِ ، وَحَيْنِهِ وَأَيْنِهِ ، وَصَمُوعِهِ وَهَجُوعِهِ .. وَفِي مَمْلَأَةِ قَلْبِهِ ^(٢) .

يَا مَنْ تَخَيَّرَ صُورِي لَمَّا بَدَأَ — لَجَّعَ مَا ظَنُّوا نَا — تَحْقِيقُ

(١) هكذا في ص ر ق م (يشهد) بدون ضمير غائب ، وحسب النسخة الأولى تكون مودة التفسير على الكتاب المرقوم ، وحسب النسخة الثانية يكون الكلام مستمراً خصوصاً ولم يبدأ كالمادة بعلامة تشير بدء الآية مثل : قوله تعالى أَوْفَوْهُ جَلِّذْكَرَهُ .. أي : يشهد القريون أن الأبرار الذين ، ويتقربون إلى الله تعالى بالشكرى مثل قليل : إن الله يُطَلِّعُ بعضَ المقرَّبينَ على أسرارِ خلقه بالتدريج الذي يريد سبحانه ، كذلك فإن السياق — حالَ فهم الثاني — يقتضي قطع هزمة (إن الأبرار ...) ولكنها مكسورة ما يدل على أن الكلام مستأنف — اللهم إلا إذا كانت يشهد بمعنى يقسم — فالشهادة ترد بمعنى التَّحْسَنُ — كما مر من قبل .. وهزمة إن تكسر بعد القسم .

(٢) لقد كثيراً جداً جفا الشعر الذي صاغه التشيعي ، فهو شاعر مُبِيلٌ ، ولكنه — كما هو واضح — دقيق دقيق .

وربما كان معنى النص الأول على هذا الترتيب : يامن تَخَيَّرَ صُورِي — لَمَّا بَدَأَ — تَحْقِيقُ لَجَّعَ مَا ظَنُّوا بنا ؛ أي أن ما ظهر على أسرى من أشياء حاولت كتمانها قد حُفِّقَ ظُنُونُ الْوَائِثِينَ وَالْمَازِينِ .. فلا فائدة .. فالسبب تنفضه ميونته ! ونحسب أن ما قبل النص ، وما يقصده للنص الثاني يؤيدان قلوبنا على هذا التفسير .

وقلت :

وَلَمَّا أَنَّى الرَّاشِينَ أَنَّى زُرُّهَا
هَاتِلُوا : نرى في وجهك اليوم نضرة كَسَتْ مُحْيَاكَ^(١) .. وهذا ظاهراً
وَبُرْدُكَ لَا ذَاكَ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ بِهِ طَيْبٌ نَشْرٌ لَمْ تُشْعُهُ الْجَاهِرُ
فَمَا كَانَ مِنِّي مِنْ يَابِزٍ أَقِيمَهُ وَهَيْبَتُ أَنْ يَخْنِي مُرِبُّ مَسَارُهَا
قوله جل ذكره : « يُسْتَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ » ختامه
مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .

« مخنوم » أى رحيق لا غش فيه .

ويقال : عتيق طيب .

ويقال : إنهم يشربون شراباً آخره مسك .

ويقال : بل هو مخنوم قبل حضورهم .

ويقال : « ختامه مسك » . ممنوع من كل أحد ، مُدَّخَرٌ لِكُلِّ أَحَدٍ بِأَمْرِهِ .

« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » . وتنافسهم فيه بالبخارة إلى الأعمال الصالحة ، والسباق
إلى القرب ، وتعلق القلب بالله ، والانسلاخ عن الأخلاق الدنيئة ، ويجوز لأن الحكم
في المكوت^(٢) ، واستقامة للناجاة .

قوله جل ذكره : « وَمَزَاجُهُ مِنْ تَنِيمٍ » عينا يشرب بها

اللقرون .

« تنيم » أى : عين تسم طيبهم من علو .

وقيل : ميزاب ينصب عليهم من فوقهم .

ويقال : تسمى تسنياً ؛ لأن مائه يجري في الهواء مُقَسِّمًا فينصب في أواني أهل الجنة ؛

(١) كذا بالأسل ولطفاً (بكّت في محياك) أى يستقيم لوزن .

(٢) هكذا في م وهو أصح عما في م (المكتوب) فهو مشبهة على التلخيص .

فَنَهُم مَّن يُسْقَىٰ مَزْجًا ، وَمِنْهُمْ مَّن يُسْقَىٰ صِرْفًا .. الأولياءُ يُسْقَوْنَ مَزْجًا ، وَالْخَوَاصُّ يُسْقَوْنَ صِرْفًا^(١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » .

كَانُوا يَضْحَكُونَ اسْتَهْزَءَ بِهِمْ .. فَالْيَوْمَ .. الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ !
« فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟ »
« هَلْ ... » اسْتَفْهَامٌ يَرَادُ مِنْهُ التَّعْذِيرُ .

وَيَقَالُ : إِذَا رَأَوْا أَهْلَ النَّارِ يَصْخَرُونَ لَأَتَّخِذَهُمْ بِهِمْ رِاقَةً ، وَلَا تَرَوْهُم قُلُوبُهُمْ ، بَلْ يَضْحَكُونَ وَيَسْتَهْزِئُونَ وَيُعَيِّرُونَ .

(١) فَهَم مِّنْ هَٰذَا أَنَّ الْخَوَاصَّ أَعْلَىٰ دَرَجَةً مِنَ الْأَوْلِيَاءِ .

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »^(١)

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ جليلٌ جلّاله لا بالأشكال ، وجعله لا على احتذاء أمثال ، وأفضاله لا بأغراض وأعلال ، وقدرته لا باجتلابٍ ولا احتيال ، وعلمه لا بضرورة ولا استدلال ، فهو الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يمحو عليه فناء ولا زوال .

قوله جل ذكره : « إِنْ اِشْقَاقٌ انْشَقَّتْ » .

« انْشَقَّتْ » : انفصلت .

« وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحَّتَتْ » .

أى قَابَلَتْ أَمَرَ رَبِّهَا بالسمع والطاعة . . . وحقّ لها أن تفعل ذلك .

« وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ » .

بُسِطَتْ باندكالك آكامها وجبالها حتى صارت ملساء ، وأثقت ما فيها من اللوثى والكنوز ونظمت عنها . . وقابلت أمر ربها بالسمع والطاعة .

وجواب هذه الأشياء في قوله : « فَلَاقِيهِ » أى يَلْقَى الإنسان ما يستحقه على أعماله .^(٢)

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ

رَبِّكَ كَدْحًا فُلاَقِيهِ » .

(١) نبيد إلى الذاكرة ما قلناه من قبل من حدوث افتراق بين النسخين بين تفسير بسملى « المطلقين » و « الانشقاق » .

(٢) يرى الكسالى - ويرواقتة أبو جعفر النعمان وغيره - أن جواب القسم هو : « فلما من أرق كتابه يبيته » أى : إذا انشقت السماء فمن أرق كتابه يبيته فتحكه كذا ..

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ » : يَا أَيُّهَا الْمُكَلَّفُ .. إِنَّكَ سَالِحٌ بِمَا لَكَ سَعْيًا سَلَقْتَ جَزَاءَهُ ؛ بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَبِالشَّرِّ شَرًّا .

« فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ » .

وَهُوَ لِلزُّمَيْنِ .

« فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حَسَابًا يُسِيرًا » .

أَيُّ حَسَابًا لَا شَقَّةَ فِيهِ . وَيُقَالُ : « حَسَابًا يُسِيرًا » أَيُّ يُسَمِّعُهُ كَلَامَهُ — سَبَّحَانَهُ — بِلا واسطة ، فَيُخَفِّفُ سَمَاعُ خَطَابِهِ مَا فِي الْحَسَابِ مِنْ عَنَاءٍ .

وَيُقَالُ : « حَسَابًا يُسِيرًا » : لَا يَذْكُرُهُ ذَنْبُهُ . وَيُقَالُ : يَقُولُ : أَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ وَأَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا ؟ يَمُدُّ عَلَيْهِ إِحْسَانَهُ .. وَلَا يَقُولُ : أَلَمْ تَفْعَلْ كَذَا ؟ لَا يَذْكُرُهُ عَصِيَانَتَهُ .

« وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرورًا » .

أَيُّ بِالنَّجَاةِ وَالْمَرَجَاتِ ، وَمَا وَجَدَ مِنَ النَّجَاةِ ، وَقَبُولِ الطَّاعَاتِ ، وَغُفْرَانِ الزَّلَّاتِ .

وَيُقَالُ : بَانَ يُشْفَعُهُ فِيهِمْ يَتَلَقَّى بِهِ قَلْبُهُ . وَيُقَالُ : بَالَا يَفْضَحُهُ .

وَيُقَالُ : بَانَ يَتَلَقَّى رَبَّهُ وَيُكَلِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَيَلْقَى حَظِيْقَتَهُ مِنَ الْحَوَارِ الْعَيْنِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ

ظَهْرِهِ » .

وَهُوَ الْكَافِرُ .

« فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا » ..

أَيُّ وَتِلَاً .

« وَيَصْعَلَى سَمِيرًا » .

جَهَنَّمَ .

« إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرورًا »

من البَطَر^(١) والملاح .

« إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَجُور » .

أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْنَا ، وَلَنْ يُبْعَثَ .

قوله جل ذكره : « فَلَا تُفْسِمُ بِالْغَفِقِ » .

بِالْمُخْرِةِ الَّتِي تَقْبُ غُرُوبَ الشَّمْسِ .

« وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » .

وَمَا يَجْمَعُ وَضْعٌ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » .

تَمَّ وَاسْتَوَى وَاجْتَمَعَ .

ويقال : الشَّقَقُ حِينَ غَرَبَتْ شَمْسُ وَصَالِمٍ ، وَأَذِيقُوا الْفَرَاقَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِمْ ، وَذَلِكَ زَمَانٌ قَبْضِي بَعْدَ بَسْطٍ ، وَأَوَانُ فَرْقٍ عَقِيبَ جَمْعٍ^(٢) . « وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ » : لَيْلَى غَيْبَتِهِمْ وَهُمْ يَوْمُفِ الْإِسْتِغْنَى ؛ أَوْ لَيْلَى وَصَالِمٍ وَهُمْ فِي رُوحِ التَّسْلَاقِ ؛ أَوْ لَيْلَى طَلَبِهِمْ وَهُمْ بِنَسَبِ الْقَلْبِ وَالْإِحْتِرَاقِ .

« وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ » : إِذَا ظَهَرَ سُلْطَانُ الرِّفَاقِ عَلَى الْقُلُوبِ فَلَا يَحْصَنُ وَلَا يُخْفَى .

قوله جل ذكره : « لَكَرْكَبْنٌ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » .

أَيُّ حَالًا بَعْدَ حَالٍ . وَقِيلَ : مِنْ أَطْبَاقِ السَّاءِ . وَيُقَالُ : شِدَّةٌ بَعْدَ شِدَّةٍ .

ويقال : تَارَتْ الْإِنْسَانُ طِفْلًا ثُمَّ شَابَا ثُمَّ كَهَلًا ثُمَّ شَيْخًا .

ويقال : طَالِبًا ثُمَّ وَاصِلًا ثُمَّ مُتَّصِلًا .

ويقال : حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، مِنْ الْفَقْرِ وَالْفَقَى ، وَالصَّحَّةِ وَالسَّهْمِ .

ويقال : حَالًا بَعْدَ حَالٍ فِي الْآخِرَةِ .

(١) هكذا في ص وهي في م (التظار) والسياق يقتضيه (البطر) فهو من أشد آفات الطريق خطراً - كما نعرف

من مذهب التشيعي .

(٢) في م (وأوان فراق بعد جمع) والإصطلاحان للصوفيان الملائمان هما (الفروق والجمع) .

قوله جل ذكره : « قَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ » .

أى فا لكُفَّارِ اُتَمَّتِكَ لَا يُعَدِّقُونَ .. وقد ظهرت البراهين ؟

« وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ

لَا يَسْجُدُونَ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا

بُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ » .

« يوعون » أى تنطوى عليه قلوبهم — من أَوْعَيْتُ النَّعَاقَ فِي الظَّرْفِ أى جعلته فيه .

« نَبِّئْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ

غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم ليسوا منهم ، ولم أجْرٌ غيرُ متطوع .

سُورَةُ الْبُرُوجِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ مَنْ لَا عَقْلَ يَكْتَفِيهِ ^(١) ، اسمٌ مَنْ لَا مِثْلَ يُسَبِّهُ ، اسمٌ مَنْ لَا فَعْمَ ^(٢) يرتقى إليه بالتصور ، اسمٌ مَنْ لَا عِلْمَ يَتَنَهَى إِلَيْهِ بالتقدير ^(٣) ، اسمٌ مَنْ لَمْ يَزَلْ بِعَصْرِ إِلَّا وَاحِدًا — وهو أيضًا مُخْتَلَفٌ فِيهِ ^(٤) ، اسمٌ مَنْ لَا يَجُزُّ أَحَدًا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِغَيْرِ مَا أُذِنَ فِيهِ ، اسمٌ مَنْ لَا قَطَرَ يَحِبُّهُ ، وَلَا مِرَّةً يَحْقِيقُهُ ، وَلَا أَحَدًا يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ يَرْضَاهُ .

قوله جل ذكره : « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ » .

أراد البروج الأثني عشر ^(٥) .

« وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ » .

يوم القيامة .

وجوابُ الْقَسَمِ قوله : « إِنْ بَطُلَ رَبُّكَ لِشَدِيدِ » .

قوله جل ذكره : « وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ » .

يقال : الشاهدُ اللهُ ، والمشهدُ الخَلْقُ .

(١) أي يدرك كنهه .

(٢) حكماً في النفسيتين ، ومع ذلك فإننا نرجع أنها ربما كانت في الأصل (من لا وم ...) فمن أقوال ذى النون : (كلما تصور في وهبك فافتح بخلاف ذلك) الرسالة ص ٤ .

(٣) نعرف في الاصطلاح أن (التقدير) قد (التقدير) للإنسان ، ولكن (التقدير) يستعمل هنا عامياً بالإنسان ، أي أن أحداً لا يستطيع أن (يقدر) الله حق قدره .

(٤) يشير بذلك إلى اختلاف الآراء حول رؤية النبي (ص) ربه ليلة المعراج رؤية بصرية (الرسالة ص ١٧٥) .

(٥) وهي التي تحير الفلاس في كل منها شهراً ، وهي : الحبل والنور والجوزاء والسرطان والأمل والسنبلة والميزان والقرب والشمس والجدي والدلو والحوت .

ويقال : الشاهدُ الخَلْقُ ، والشهودُ اللهُ ؛ يشهدونه اليومَ بقلوبهم ، وغداً بأبصارهم .

ويقال : الشاهدُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والشهودُ القيامةُ ، قال تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »^(١) ، وقال في القيامة : « ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مشهود »^(٢) .
وقيل : الشاهدُ يومُ الجمعة^(٣) ، والشهودُ يومُ عرفة .

ويقال : الشاهدُ المَلَكُ الذي يكتبُ العمل ، والشاهدُ الإنسانُ يشهدُ على نفسه ، وأعضاؤه تشهدُ عليه ؛ فهو شاهدٌ وهو مشهود .

ويقال : الشاهدُ يومُ القيامةُ ، والشهودُ الناسُ .

ويقال : المشهودُ هم الأمةُ لأنه صلى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم .

ويقال : الشاهدُ هذه الأمةُ ، والشهودُ سائر الأمم .

ويقال : الشاهدُ الحجرُ الأسودُ لأنَّ فيه كتابَ الهدى .

ويقال : الشاهدُ جميعُ الخلقِ ؛ يشهدون لله بالوحدانية ، والشهودُ الله .

ويقال : الشاهدُ الله ؛ شهد لنفسه بالوحدانية ، وللمشهودُ هو لأنه شهد لنفسه .

قوله جل ذكره : « قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ

الْوُقُودِ » .

أى لَمِنُوا . والأخدودُ : الحفرةُ في الأرض إذا كانت مستطيلةً ، وقسمهم في التفسير معلومة^(٤) وه الوقود « الحطب .

وم أقرانهم كتموا إيمانهم فلما علمَ مَلِكُهُمْ بذلك أضرم عليهم ناراً عظيمة ، وألقاهم فيها .

(١) آية ٤١ سورة النساء .

(٢) آية ١٠٣ سورة هود .

(٣) خرج ابن ماجة وغيره رواية عن أبي الدرداء قوله : قال رسول الله (ص) : « أكثرُوا من الصلاة على يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهد الملائكة » .

(٤) قيل من السجستان ، وقيل من بجران ، وقيل من القسطنطينية ، وقيل : هم من اليهود . وقيل من اليهود ، وقيل من النصارى .

وَأَخْرَجْنَا مِنْ دَحْلِهَا امْرَأَةً كَانَتْ مَعَهَا رَضِيعٌ ، وَهَمَّتْ أَنْ تَرْجِعَ ، فَقَالَ الْوَلَدُ : قِفِي وَاصْبِرِي ..
فَأَتَتْ عَلَى الْحَقِّ .

وَأَلْقَوْهَا فِي النَّارِ ، وَاقْتَحَمَهَا ، وَبَيْنَمَا كَانُوا أَصْحَابُ الْمَلِكِ قُصُودًا حَوْلَهُ يَشْهَدُونَ مَا يَحْدُثُ
ارْتَعَتِ النَّارُ مِنَ الْأَخْدُودِ وَأَحْرَقَتْهُمْ جَمِيعًا ، وَنَجَا مِنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَلِّمُوا .

قوله جل ذكره : « وَمَا قَعَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَذَا الَّذِي كُفِّرَتْ عَنْكُمْ السَّنَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

مَا غَضَبُوا مِنْهُمْ إِلَّا لِإِيمَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ
عَذَابُ الْحَرِيقِ » .

أَيُّ أَحْرَقُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا عَنْ كُفْرِهِمْ « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمِ » : نَوْعٌ
مِنَ الْعَذَابِ ، « وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » : نَوْعٌ آخَرُ (١) .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » .

« ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ » : النِّجَاءُ الْعَظِيمَةُ .

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » .

الْبَطْشُ الْاِخْذُ بِالشَّدَةِ .

« إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » .

يُبْدِيُ الْاِخْطَاقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ بَعْدَ الْبَيْتِ .

(١) قد يكون العذاب الأول بالزهرير في جهنم ، والثاني بنار الحريق ، فتألمهم يذوبون ببردها وسرما
واقه ألقم .

ويقال : يبدى بالذاب ثم يُبدى ، وبالثواب ثم يُعبد .

ويقال : يبدى على حُكْمِ المداوة والثقاوة ثم يعبد عليه ، ويبدى على الضف ويبيدهم إلى الضف .

ويقال : يبدى الأحوال السَّيِّئَة فإذا وقعت حجة بيده ثانية .

ويقال : يبدى بالخذلان أموراً قبيحة ثم يتوب عليه ، فإذا تَقَضَّى توبته فلأنه أعاد له من مقتضى الخذلان ما أجراه في أول حاله .

ويقال : يبدى لطائفَ تمرينه ثم يعبد لثبوت تلك الأنوار أبداً لأنحةً ، فلا يزال يبدى ويعبد إلى آخر العمر .

قوله جل ذكره : « وهو النفور الودود » .

« النفور » كثيرٌ للنفرة ، « الودود » مبالغة من الوداد ، ويكون بمعنى المودود ؛ فهو يغفر لهم كثيراً لأنه يؤدِّمهم ، ويغفر لهم كثيراً لأنهم يؤدُّونه .

قوله جل ذكره : « ذو العرش الجدد »

ذو الملك الرفيع ، والمجد الشريف .

« فقال لما يُريد » .

لأنه مالكٌ على الإطلاق ؛ فلا حَجَرَ عليه ولا حَظَرَ .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الجنود » .

الجموع من الكفار .

« فرعونَ ونُموذ »

وقد قدم ذكر شأنهما .

« بل الذين كفروا في تكذيب »

« الذين كفروا » يعني مُشْرِكِي مكة ؛ « في تكذيب » للبعث والنشر .

« والله من وراءهم محيط »

عالم بهم .

« بل هو قرآنٌ مجيدٌ » في لوح

محفوظ .

« في لوح محفوظ » مكتوب فيه . وجاء في التفسير : أن اللوح المحفوظ خالق من ذرية
بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء عرّضها بين السماء والأرض ، وأعله متعلق بالعرش ، وأسفله
في جبر مَلَكٍ كريم .

والقرآن كما هو محفوظ في اللوح كذلك محفوظ في قلوب المؤمنين ، قال تعالى : « بل هو
آيات ينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهو في اللوح مكتوب ، وفي القلوب محفوظ .

سُورَةُ الطَّارِقِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسمٌ عزَّزَ إذا أراد إعزازَ عبْدٍ وَفَّه لرفاقه، ثم زَيَّنَه بإحسانه، ثم استخلصه بامتنانه؛ فَصَّصَه من عِصْيَانِهِ، وقام بحسن التولَّى — في جميع أحواله — بشأنه، ثم قبَّضَه على إيمانِهِ، ثم بَوَّأَهُ في جَنَّتِهِ، وأكرمَهُ برضوانِهِ، ثم أَكَلَّ عليه نِعْمَتَهُ برويِّتِهِ وعِيَانِهِ.

قوله جل ذكره: «وَالسَّاءِ وَالطَّارِقِ»

أقسم بالسَّاءِ، وبالنجْمِ الذي يَطْرُقُ ليلاً.

«وما أدراك ما الطَّارِقُ؟»

استفهامٌ يراد منه تضمينُ شأنِ هذا النجمِ.

«النَّجْمُ الثَّاقِبُ»

المضيءُ العالي. وقيل: الذي ترى به الشياطين.

ويقال: هي (١) نجومُ المِصْرِفةِ التي تدلُّ على التوحيدِ يستضيُّ بنورها ويهتدى بها أولو البصائر.

«إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ»

ما مِنْ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ مِنَ اللَّائِكَةِ، يحفظُ عليه عمله ورزقه وأجله، ويحمله على دوامِ التَّقِيظِ وجبيلِ التَّحَفُّظِ.

قوله جل ذكره: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ

(١) مكلاً في م وهي في ص (هو نجم المِصْرِفة ... إلخ).

من ماء دافقي • يخرج من بين
الصُّلبِ والقرابِ »

يخرج من صلب الأب ، وتربية الأم .
وهو بذلك يحث على النظير والاستدلال حتى يعرف كمال قدرته وعلمه وإرادته —
سبحانه .

« إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ »
إنه على بَعثِهِ ، وخلقِهِ مرةً أخرى لقادرٌ ؛ لأنه قادر على الكمال — والتدرة على
الشيء تقتضى التدرة على مثله ، والإعادة فى معنى الابتداء .
« يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ »
يوم تُمتَحَنُ الضمائر .

« فَأَلْهَمَ فِى فُؤَادِهِ لِقَابٌ يُدْعَى »
أى ما لهذا الإنسان — يومئذٍ — من مُعين يدفع عنه حُكْمَ الله .
« وَالصَّاهِ قَاتِ الرَّجْعِ »
أى المطر .

« وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ »
« الصَّدْعِ » : الانشقاقُ بالنبات للزرع والشجر .
« إِنَّهُ قَوْلٌ فَصْلٌ »
أى : إن القرآن قولٌ جَزَمَ .

« وَمَا هُوَ بِالْمَزْلِ »
المزل ضد الجِدَّة ، فليس القرآنُ يباطل ولا لَيب .
قوله جل ذكره : « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا »

أى يحتالون حيلةً .

« وأَكِيدُ كَيْدًا »

م يحتالون حيلةً ، ونحن نُفَكِّمُ فِتْلًا وَنُبْرِئُ خَلْقًا ، ونجازيهم على كيدهم ، بما تعاملهم به من الاستدراج والإيهال .

« فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَشْمَلُهُمْ رُويًا »

أى أظلمهم ، وأضلهم قليلا ، وأزودهم رويدًا .

سُورَةُ الْأَعْلَى

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله»: اسمٌ عزيزٌ من قَصَدَه وَجَدَه ، وَمِنْ اسْتَسْقَه حَمَدَه . مَنْ طَلَبَه عَرَفَه ، وَمَنْ عَرَفَه لَاطَقَه ، فَإِذَا وَجَدَ لُطْفَه أَلْفَه ، وَإِذَا أَلْفَه أَغْنَى أَنْ يَخْلُقَه .

قوله جل ذكره: «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى»

أَي سَبِّحْ رَبَّكَ بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ ، وَاسْبِحْ بِبِرْكِهِ فِي بَحَارِ عِلَالِهِ ، وَاسْتَخْرِجْ مِنْ جَوَاهِرِ عُلُوِّهِ وَسَنَائِهِ مَا تَرَصَّعُ بِهِ عِقْدُ مَدْحِهِ وَتَنَائِهِ .

«الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى»

خَلَقَ كُلَّ ذِي رُوحٍ فَسَوَّى أَجْزَاءَهُ ، وَرَكَّبَ أَعْضَاءَهُ عَلَى مَا خَصَّهُ بِهِ مِنَ النِّظَمِ الْعَجِيبِ وَالتَّرَكِيبِ الْبَدِيعِ .

«وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»

أَي قَدَّرَ مَا خَلَقَهُ ، فَجَعَلَهُ عَلَى مَقْدَارٍ مَا أَرَادَهُ ، وَهَدَى كُلَّ حَيَوَانٍ إِلَى مَا فِيهِ رَشْدُهُ مِنَ الْمَنَافِعِ ، فَيَأْخُذُ مَا يُصْلِحُهُ وَيَتْرَكُ مَا يَضُرُّهُ — بِحُكْمِ الْإِلَهَامِ .

ويقال: هَدَى قُلُوبَ النَّافِلِينَ إِلَى طَلَبِ الدُّنْيَا فَمَسَرَّوْهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْعَابِدِينَ إِلَى طَلَبِ الْعَقْبَى فَأَتَرَوْهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الزَّاهِدِينَ إِلَى فَنَاءِ الدُّنْيَا فَرَفَضَوْهَا ، وَهَدَى قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِمَصْنُوعَاتِهِ فَفَرَفَوْا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلاَزَمُوهَا .

(وَهَدَى قُلُوبَ اللَّيْثِيِّينَ إِلَى عِزِّ وَصْفِهِ فَأَتَرَوْهُ ، وَاسْتَغْرَاوْا جُهْدَهُمْ فَطَلَبُوهُ)^(١) ، وَهَدَى

(١) ما بين القوسين موجود في من وغير موجود في م .

العارفين إلى قدس منه فراقبوه ثم شاهدوه ، وهدى للوحدين إلى علاه سلطانه في توحيد كبريائه فتركوا ما سواه وهجروه ، وخرجوا عن كل مألوف لم ومعهود^(١) حتى قصدوه . فلما ارتقوا عن حد البرهان ثم عن حد البيان ثم عما كالبيان علوا أنه عزيز ، وأنه وراء كل فصل ووصل ، فرجوا إلى موطن التجز فتوسدوه .

« والذى أخرَجَ المرعى »

أى النبات .

« جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى »

جعله شيئاً كالغشاء ، وهو الذى يقذفه السيل . و « أحوى » أسود .

« سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْسَى »^(٢)

ستجمع القرآن في قلبك — يا محمد — حفظاً حتى لا تنسى لأننا نحفظه عليك .

« إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ

وَمَا يَخْفَى » .

ما لا يدخل تحت التكليف ففضاه قبل التبليغ ولم يجب عليه أدائه .

وهو — سبحانه — يعلم السر والعلن .

قوله جل ذكره : « فَذَكِّرْ إِنْ نَفَسَ الذِّكْرَى »

والذِّكْرَى تنفع لا محالة^(٣) ، ولكن لِمَنْ وَقَفَّهَ اللَّهُ للاصطحابها ، أمّا مَنْ كَانَ لِلْعِلْمِ

من حاله الكثرة والإعراض فهو كما قيل :

(١) حكلا في م وحى في م (ميهود) وقد رجسنا (ميهود) لتلاوها مع (بأنوف) . ولكن إذا تذكرنا أن الصوفية يرون الاتصاف وراء المهرى نوعاً من الشرك الخفى — قال تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه — فيمكن في ضوء ذلك قبول (ميهود) أيضاً .

(٢) يرى الجليل أن المعنى « فلا تنسى العمل به » ، وهذا من الآراء الخسنة التى يتشظى منها رأى القشيري في « إلا ما شاء الله » .

(٣) وظلنا نفسر (إن) في الآية حل معنى (ما) : أى ذكر ما نغمت للذكرى ، ولا يكون لها حيثل معنى الشرط ، وتفسر حل معنى (إذ) مثل : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، وعمل معنى (قد) .

وما انتفاعُ أخى الدنيا بِمُقتلِهِ إذا استوتَّ عنده الأنوارُ والظلمُ

« سَيِّدُ كُرٍّ مَن يَخْشَى »

الذى يخشى الله ويخشى عقوبته .

« وَيَتَجَدَّبُهَا الْأَشْقَى • الَّذِي يَصَلِّي

النَّارَ الْكُبْرَى • ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا

وَلَا يَحْيَا » .

أى يَجْنُبُ الذِّكْرَ الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا مَوْتًا يَرْجِعُ ،

وَلَا يَحْيَا حَيَاةً تَعْدُّ لَهُ .

قوله جل ذكره : « قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى » .

مَنْ تَطَهَّرَ مِنَ الذَّنُوبِ وَالْعُيُوبِ ، وَمَشَاهِدَةِ الْخَلْقِ وَأَدَّى الزَّكَاةَ — وَجَدَ النِّجَاةَ ،

وَالطَّفَرَ بِالْبُعْثَةِ ، وَالنُّورَ بِالطَّلْبَةِ .

« وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى »

ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فِي صَلَاتِهِ . وَيُقَالُ : ذَكَرَهُ بِالْوَحْدَانِيَةِ وَصَلَّى لَهُ .

« بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا »

تَمِيلُونَ إِلَيْهَا ؛ فَتُقَدِّمُونَ حَظوظَكُمْ مِنْهَا عَلَى حَقِّقِ اللَّهِ تَعَالَى .

[« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى »

وَالْآخِرَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَيْرٌ وَأَبْقَى — مِنَ الدُّنْيَا — لَطَّلَا بِهَا ،]^(١)

قوله جل ذكره : « إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى »

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى »

إِنَّ هَذَا الْوَعْدَ لَنِي الصُّحُفِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَكَذَلِكَ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَغَيْرِهِمَا ؛ لِأَنَّ

التَّوْحِيدَ ، وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ . لَا تَخْتَلِفُ بِإِحْتِلَافِ الشَّرَائِعِ .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْمَيْنِ الْمَوْجُودِ فِيهِمْ وَغَيْرِ الْمَوْجُودِ فِيهِمْ .

سُورَةُ الْفَاشِيَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : كلمة من سمها وفي قلبه عرفاته نلألت أنوار قلبه ، وتفرقت أنواع كُربِه ، وتضاعفت في جهله طوارق حُبّه ، وتغيرت في جلاله شوارق لُبّه .

كلمة من عرفها — وفي قلبه إيمانه — أحبها من داخل الفؤاد ، وهجر — في طلبها — الرُفاد ، وترك — لأجلها — كل مِّمٍّ ومراد .

قوله جل ذكره : « هل أتاك حديثُ الفاشية ؟ » .

« الفاشية » المُجَلَّلَة ، يريد بها القيامة تَفْشَى الخَلْقَ ، تَفْشَى وجوه الكفَّار .

« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ

نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً » .

وجوه — إذا جاءت القيامة — خاشعة أى ذليلة . عاملة ناصبة : النَّصَبُ التَّعَبُ .

جاء في التفسير : أنهم يُجْرَوْنَ على وجوههم .

« تصلى نارا حامية » تلزم نارا شديدة الحرارة .

ويقال : « عاملة » في الدنيا بالمعاصي ، « ناصبة » في الآخرة بالذناب .

ويقال : « ناصبة » في الدنيا « عاملة » لكن من غير إخلاص كمثل الرهبان ^(١) ،

وفي معناه حمل أهل التفات .

(١) وروى الفسحاك من ابن عباس قوله : هم الذين أنصبروا أنفسهم في الدنيا على معصية الله نزعوا رجل ، وحل الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقتل الله — جل ثناؤه — منهم إلا ما كان خالصاً .

« نُسْقَى من عين آية » .

تتأهى حرها .

« ليس لم طمأنٍ إلا من ضريع » .

لا يُسَمِّنُ ولا يُفْسِنُ من جوع » .

نَبَتْ يَمُو بالحجاز له شَوْكٌ ، وهو سم لا تأكله الدواب ، فلذا أكلوا ذلك في النار
يُفْسِنُونَ ، فَيُسْقَوْنَ الزُّقُومَ .

وإن أنصاف الأبدان — اليوم — بصورة الطامع مع قَدَرِ الأرواح وجدان للكشفات
(وقدر) ^(١) الأسرار أنواراً للشاهدات ، (وقدر) القلب الإخلاص والصدق في الاعتقادات
لا يبدى خيراً ، ولا يتبع شيئاً — وإنما هي كما قال : « علامة ناصبة »

قوله جل ذكره : « وجوه يومئذ ناعمة » .

أى : مُتَّعَمَةٌ ، ذات نسمة وفضارة .

« لَسَمِيهَا رَاضِيَةً » .

حين وَجَدَتْ الثواب على سعيها ، والقبول لها .

« فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ » .

عالية في درجتها ومنزلتها وشرفها . هم بأبلائهم في درجاتهم ، ولكن بأرواحهم مع الله
في عزز مناجاتهم .

« لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَنِيَّةٌ » .

لأنهم يسمعون بالله ؛ فليس فيها كلمة لغو .

قومٌ يسمعون بالله ، وقومٌ يسمعون لله ، وقومٌ يسمعون من الله ، وفي الظاهر : « كنت
له سمعاً ويصراً فبى يسمع وبى يُبصر » ^(٢) .

(١) ما بين القوسين إضافة من جانيبا كي يكون السياق أكثر وضوحاً

(٢) وما يزال يلبى يتقرب إلى بالحوال حتى أصبح ، فلذا أصبحته كنت فيه ألى يصير بها ، وسمعه ألقى
يسمع به ، ويده ألى يبطش بها ، وأورده السراج في ليله من ٨٨ . وهو حديث نفس رواه البخاري من أبي هريرة
وأحمد بن عائشة ، والداراني في الكبير من أبي أمامة ، وابن السكيت من ميمون .

« فيها عينٌ جاريةٌ » .

أراد عيوناً ؛ لأن العين اسم جنس ، والعيون الجارية هنالك كثيرة ومختلفة .
ويقال : تلك العيون الجارية غداً لَينَ له — اليوم — عيونٌ جاريةٌ بالبكا. (١) ، وغداً لم
عيونٌ ناعرةٌ بحكم القاء .

« فيها سرٌّ مرفوعةٌ » وأكوابٌ

موضوعةٌ • وتمازقُ مصفوفةٌ • وزرائُ
مبثوثةٌ » .

التمازق المصفوفة في التفسير : العناقض للبسطة .

الزرائى للمبثوثة في التفسير : البسط المتفرقة .

وإنما خاطبهم على مقادير فهمهم (٢) .

قوله جل ذكره : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف

خُلِقَتْ ؟ » .

لما ذَكَرَ وصفَ تلك السُرُرِ المرفوعة المشيدة قالوا : كيف يصنعها المؤمن ؟ فقال :
أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ كيف إذا أرادوا التحملَ عليها أو ركبها تنزل ؟
فكذلك تلك السُرُرُ تتحملن حتى يركبها الوليُّ .

وإنما أزلت هذه الآيات على وجه التفيه ، والاستدلال بالمخالفات على كمال قدرته —

سبحانه .

فاقومُ كانوا أصحابَ البرادى لا يرون شيئاً إلا السماء والأرضَ والجبالَ والجبالَ ...
فأترّم بالنظر في هذه الأشياء .

(١) منذ عهد مبكر تاهرت طائفة البكتانيين في صنف الزماد ، وإن كان بعض الصوفية لا يتحسب إبهاء
إسماً لأن اللوح علامة شكوى ، وهم لا يسمون أن يشكروا ، وإسماً لأنها تم من صف الحال ، وهم يسمون أن يكونوا
راسخين كالجبال .

(٢) يصح هذا فكرة التفسير الاسمية من وصف الآخرة : الأسماء أسماء ، والأعيان بخلاف ذلك .

. وفي الإبل خصائص تدل على كمال قدرته وإتمامه جبل شأنه ؛ منها : ما في إمكانهم من الاتضاع بظهورها للحمل والركوب ، ثم بنسليها ، ثم بلحمها ولبنها ووبرها ... ثم من سهولة تسخيرها لهم ، حتى يستطيع الصبي أن يأخذ بزمامها ، فتجتر وراه . والإبل تصبر على مقاساة التعاش في الأسفار الطويلة ، وهي تقوى على أن تحمل فوق ظهورها الكثير من الحملات .. ثم حراستها إذا حقدت ، واسترواحها إلى صوت من يحملوها عند الإعياء والتعب ، ثم ما يملك المرء بما يناط بها من برها^(١) .

« فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ • لَسْتَ

عليهم بمسيطر^(٢) » .

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَلِّطٍ • فَذَكَرْ — يا محمد — بما أمرناك به ، فبذلك أمرناك^(٣) .

« إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ • فَيُعَذِّبُهُ

اللَّهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ » .

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ .

« إِنَّ إِلَيْنَا لِالْآجِمُ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا

حِسَابَهُمْ » .

إِنَّ إِلَيْنَا رَجُوعَهُمْ ، ثُمَّ نَجْزِيهِمْ عَلَى الظُّلُمِ وَالشَّرِّ .

(١) إشارة للتشيرى الخاصة بالإبل لصرفت المراد ، فمن المعلوم أن ضرور الحيوان الضلقة لا تخرج من أربعة : حَلَوِيَّة ، وَكَدْبِيَّة ، وَأَكْمَرَلَه ، وَحَمُولَة . وقد استلغ التشيرى أن يقتض أن الإبل جمدت كل هذه المنافع .

(٢) بمسيطر وبميطر ، أى بالسداد والسنن (الصلح) .

(٣) لم يقتض التشيرى فيما وقع فيه بعض المفسرين حين قالوا : « إِنَّ فِي آيَةِ نَسْأَ بَيَّاتِ الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ .. » فالإدب الأكبر في الآخرة لا يقتضى تعليل للكتمان بشئ ألوان التعليل في الدنيا ، ومنها القتل والأسر .

سُورَةُ الْفَجْرِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

بِسْمِ اللَّهِ كَلِمَةٌ مَا اسْتَوَلَتْ عَلَى قَلْبِ قَيُّمٍ فَافْقَهَتْهُ ، وَمَا تَمَكَّنَتْ مِنْ سِرِّ مُتَمِّمٍ فَشَقَّتْهُ ، وَمَا اسْتَوَلَتْ عَلَى رُوحٍ عَجَبٍ فَرَحَتْهُ ^(١) . كَلِمَةٌ تَهَارَةُ الْقُلُوبِ . . وَلَكِنْ لَا لِكُلِّ قَلْبٍ ، كَلِمَةٌ لَا سَبِيلَ لِمَا لِكُلِّ عَقْلٍ ، كَلِمَةٌ تَكْتَفِي مِنَ الْعَابِدِينَ بِقِرَائَتِهَا لَهَا ، وَلَكِنَهَا لَا تَرْضَى مِنَ الْحَبِيبِينَ إِلَّا بِبَذْلِ أَرْوَاحِهِمْ فِيهَا .

قوله جل ذكره : « وَالْفَجْرِ • وَلَيَالٍ عَشْرٍ » .

الْفَجْرُ اخْتِجَارُ الصُّبْحِ وَهُوَ اثْنَانِ : مُسْتَبِيلٌ وَقَصِيرٌ ^(٢) ؛ فِي التَّفْسِيرِ : إِنَّهُ فَجْرُ الْحَرَمِ لِأَنَّهُ ابْتِدَاءُ السَّنَةِ كُلِّهَا ، وَقِيلَ : فَجْرُ ذِي الْحِجَّةِ .

وَيَقَالُ : هُوَ الصُّغُورُ يَنْفَجِرُ مِنْهَا الْمَاءُ .

وَيَقَالُ : أُنْسِمَ بِهِ لِأَنَّهُ وَقْتُ عِبَادَةِ الْأَوْلِيَاءِ عِنْدَ افْتِتَاحِهِمُ النَّهَارَ .

« وَلَيَالٍ عَشْرٍ » قِيلَ : هِيَ عَشْرُ ذِي الْحِجَّةِ ، وَيَقَالُ : عَشْرُ الْحَرَمِ ؛ لِأَنَّ آخِرَهَا عَشُورَاهُ .

وَيَقَالُ : الْعَشْرُ الْأَخِيرَةُ مِنْ رَمَضَانَ .

وَيَقَالُ : هِيَ الْعَشْرُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَمُّ بِهِ مِيعَادُهُ بِقَوْلِهِ :

وَأَتَمَّنَاهَا بِعَشْرِ » .

(١) هَكَذَا فِي السَّنَخِينِ ، وَلَا تُسَمِّدُ أَتَاهِيَ الْأَسْلَ : (فَرَأَاهُ) ذَلِكَ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ عَامَةٌ ، الْعَامَّةُ وَالْكَافَّةُ ، أَمَّا عَجَبٌ - الَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ عَامَةٌ بِالْأَنْفَاسِ - فَهِيَ الْمَقْصُودَةُ مِنْهَا (الرِّسَالَةُ ص ١٥٨) وَعَلَى الْمِجَّةِ إِذَا اسْتَوَلَتْ عَلَى رُوحٍ عَجَبٌ أَزْجَعَهُ وَمَا (أَرَاهُ) لِأَنَّهُا تَطْلُبُ بِذَلِكَ الرُّوحَ ، وَاسْتَرْعَانُ الْمِجَّةِ .

(٢) فِي السَّنَخِينِ (مُسْتَبِيلٌ وَمُسْطَبِرٌ) وَلَمْ نَلْهُمُ الْمَقْصُودَ ، فَوَضَعْنَا (الْقَصِيرُ) مَحَلَّ مُسْتَبِيلٍ كَيْ يَكُونَتْ هُنَاكَ بَيْنَ فَجْرِ لَيْلٍ كَامِلٍ . وَفَجْرُ لَيْلٍ وَاحِدٌ - وَفَقَدْ سَبَقَتْهُ وَتَمَالَى أَعْلَمُ .

ويقال : هو « فجر » قلوب السارفين إذا ارتقوا عن حد العلم ، وأسفر صُبحُ مغلفهم ، فاستنصوا عن ظلمة طلب البرهان^(١) بما تجلّ في قلوبهم من البيان .

« والشَّعْخُ والوتر » .

جاء في التفسير : الشَّعْخُ يومُ النَّحْرِ ، والوتر يوم عَرَفَةَ^(٢) .

ويقال : آدم كان ورعاً فَشَفَّعَ بزوجه حواء .

وفي خير : إنها الصلوات منها وتر (كصلاة المغرب) ومنها شفع كصلاة الصُّبح .

ويقال : الشفع الزوج من التدد ، والوتر التردد من العدد .

ويقال : الشفع تضادُّ أوصاف الخلق : كالمسلم والجهل ، والقدرة والعجز ، والحياة والموت . والوتر اخراؤُ صفاتِ الله سبحانه عما يضادُّها ؛ علم بلا جهل ، وقدرة بلا عجز ، وحياة بلا موت .

ويقال : الشفعُ الإرادة والنية ، والوتر الهيةٌ ؛ لا تكني بالخلق ولا سبيل لها إلى الله — لِنَقْدُسِهِ عن الوصلِ والقُصَلِ . فبقيت الهيةٌ غريبةٌ .

ويقال : الشفع الزاهد والمابد ، لأن لكل منهما شكلاً وقربناً ، والوتر المريدُ فهو كاقيل :

فريدٌ من الخِلَافِ في كل بلغةٍ

إذا عَطَمَ المطلوبُ قَلْبَ السَّاعِدِ

« والليل إذا يسر » .

« بسرى » يمضى .

قوله جل ذكره . « هل في ذلك قسمٌ لِمَنِ جَبْرِ ؟ » .

« جبر » . لَبَّ . وجوابُ التَّسْمِ : « إن ربك لبالمرصاد » .

(١) أى من نطاق العقل .. والبقول - في نظر الصوفية - مصاب بآفات التجويز والتجيز والارتباط بالمهمات .

(٢) يوم عرفة وتر ، لأنه تاسع الأيام العشرة ، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها . . وقد روى حديث بهذا المعنى

من جابر بن عبد الله .

« أَنْ تَرَ كَيْفَ قَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ •

إِذْ هُمْ ذَاتِ الْعِلَادِ ... » •

ذكر قصص هؤلاء للتضمين .. إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ •

أى : شدة العذاب •

« إِنَّ رَبَّكَ بِالْمُرْصَادِ •

لا يفوته شيء •

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا أَبْلَاهُ رَبُّهُ

فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي •

وَأَمَّا إِذَا مَا أَبْلَاهُ فَقَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي •

« فيقول ربى أكرمنى » : أى : شكراً •

« قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » . أى : ضيق ، « فيقول ربى أهاننى » . أى : أذلنى . كلا .. ليس

الإِذْلَالُ بالقرآن الإِذْلَالُ بِالْإِذْلَانِ لِلصَّيَانِ ^(١) .

قوله جل ذكره : « كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَقِينَ •

أى : أنتم تستعقون الإِمان على هذه الخصال للنومة ؛ فلا تُكْفِرُونَ الْيَقِينَ ..

« وَلَا تَعَاشُونَ عَلَى طَمَاحٍ لِّلْكِبَى •

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّكًا •

لَكًا . أى شديداً •

« وَنُحِبُّونَ لِلْأَلْحَى حُبًّا جَنًّا •

جَنًّا أى كثيراً •

(١) كما تعرف من ملحق التفسير ، أسمى درجات التنب : الإِذْلَانُ لِلصَّيَانِ وأسمى درجات الرضا :

التوفيق العامة .. وكلاماً من الله •

قوله جل ذكره : « كَلَّا إِنْ دُرِّسْتَ الْأَرْضُ
دَرَسًا دَرَسًا » .

أى : قامت القيامة .

« وجاء ربك والملك صفا صفا » .

« وجاء ربك » أى للملائكة بأمره (١) .

ويقال : فصل ضلّا فيُسميه مجيئاً .

« وحيّ يومئذٍ بهم يومئذٍ يندكر »

الإنسان وأنى له الله كرى ؟ ! »

يقال : تهاد جهنم بسبعين ألف زمام (٢)

وفى ذلك اليوم يندكر الإنسان .. ولا ينقعه التذكر ، ولا يقبل منه العذر .

« يقول يا ليتني قدّمتُ لحياي »

أى : أطلّمتُ ربّي ونظرتُ لنفسي .

« فيومئذٍ لا يُعَذَّبُ عُنَاهُ أَحَدٌ »

أى : لا يُعَذَّبُ فى الدنيا أحدٌ مثلما يُعَذَّبُهُ الله فى ذلك اليوم .. إذا قرئت النبال بالكرس .

أما إذا قرئت بالفتح (٣) « لا يُعَذَّبُ » فالنقى : لا يُعَذَّبُ أحدٌ مثلما يُعَذَّبُ هذا الكافر (٤) .

قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ اللَّعِثَةُ » .

(١) أى : جاءهم ربك . أى : ظهرت آياته ، وأزيل لكلك ، وصارت المعارف ضرورية ، وظهرت القدرة الإلهية . والمقصود نفى التحول من مكان إلى مكان عن الله ، فقد جلبت المصداقية عن الارتباط بالتحوّل الحركى والتقيّد الزمانى والمكانى .

(٢) «... كل زمام يده سبعين ألف ملك ، لما تقيظ وزغير ، حتى تنصب عن يسلو العرش » (ابن مسعود) - وفى صحيح مسلم حديث يرويه ابن مسعود بهذا المعنى .

(٣) بالفتح قراءة الكسائي « لا يُعَذَّبُ » « ولا يؤثّق » .

(٤) قيل : هو إبليس لأنه أشدّ القلوّنات طغياناً ، وقيل وهو أمة بن خلف انتهكه فى كفره ومناشه .

الروحُ للطمثُ إلى النفس .

وقال : للطمثُ بالمعرفة : وقال : للطمثُ بذكر الله .

وقال : بالشارة بالجنة . وقال : النفس للطمث : الروح الساكنة^(١)

« أَرْجِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً »

راضية^(٢) عن الله ، مَرْضِيَّةٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

« فَادْخُلِي فِي عِبَادِي • وَأَدْخُلِي »

جَنَّتِي •

أَي : فِي عِبَادِي الصَّالِحِينَ .

(١) تأخرت هذه الميزة الأخيرة إلى نهاية السورة في القسمين فنقلناها إلى موضعها .

(٢) وردت (من) ولكننا وجدنا أن المعنى سينتج أن ينتج فيما بين اسم الفاعل واسم المفعول ، فوضعتنا (من) بدلا من (من) مسترشدين بقوله تعالى : « يَرْضَى اللَّهُ عَنْهُمْ رِزْقُهُمْ » . وإن كنا لا نستبعد أن (من) تؤدى معنى موصوفاً : هو أنه حتى رضاهم عن الله (من) الله ، فليس للمبد حول ولا طول حتى يرضى أو يستغنى .. إلا إذا كان ثمة فضل إلى (من) الله .

سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »^(١)

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمةٌ تُخبر عن جلالِ أَرْزَى ، وجلالِ سرمدى ، جلالِ ليس له زوال ، وجلالِ ليس له انتقال ، جلالِ لا بَأْغْيَارٍ^(٢) وَأَمْثَال ، جلالِ لا بصورةٍ ومثال ، وجلالِ هو استحقاقه لجبروته وجلالِ هو استيجابُه للمكوثه ، جلالِ مَنْ كاشَفَه به فأوصافُه. فناء في فناء ، وجلالِ مَنْ لَاقَه به فأحواله بقائه في بقاء .

قوله جل ذكره : « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ » .

أى : أقسم بهذا البلد ، وهو مكة .

« وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ » .

وإنما أُحِلَّتْ له ساعةٌ واحدةٌ^(٣) .

« وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » .

كلُّ والدٍ وكلُّ مولود . وقيل : آدم وأولاده

وجواب القسم : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » .

ويقال : أقسم بهذا البلد لأنك حِلٌّ به .. وبكَلْدُ الحميمِ حبيبٌ .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ »

(١) مرة أخرى حدث اضطراب .. فتفسير البسطة هنا كما جاء في م موضوع في ص في أول السورة القادمة : سورة الشمس .. والمكس في م .

(٢) هكذا في م وهي في ص (بأغيار) والصحيح ما أثبتنا .

(٣) عن ابن عباس قال : « أُحِلَّتْ له ساعةٌ من نهارٍ ثم أُحْبِطَتْ وحرمت إلى القيامة وذلك يوم فتح مكة . وثبت أن النبي (ص) قال : « إِنْ أَمَرْتُكُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَّا أَنْ تَقُومَ لِسَاعَةِ ، فَلَمْ يَحِلَّ لِأَحَدٍ قِيلٌ ، وَلَا تَحِلَّ لِأَحَدٍ يَمْلِكُ ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ » .

أى : فى مشقة ؛ فهو يتلقى شوائد الدنيا والآخرة .

وقال : خلقه فى بطن أمه (متصفاً رأسه) فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بطنِ أُمِّهِ تَنَكَّسَ رَأْسُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ ، ثم فى القياط وشدة الزحام . . . ثم إلى الصراط هو فى الملباط والمِلْبَاط^(١) .
قوله جل ذكره : « أَيْصَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ »

أى : قُوَّته وشجاعته عند قسسه يقول :

« يَقُولُ أَمَلَكْتُ مَا لَا تُبَدَأُ » .

« لَبَدَأُ » كثيراً ، فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم^(٢) .

« أَيْصَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » .

أليس يعلم أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ؟

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ • وَلَسْنَاكَ وَشْنَيْنِ ؟ »

أى : أَلَمْ نَخْلُقْ سَمِيعاً بَصِيراً مَكَلِّمًا .

« وَمَدِينَاهُ التَّجْدَيْنِ » .

المدناه طريق الخير والشر .

« فَلَا أَقْصَمَ الْعُقَبَةِ • وَمَا أُدْرَاكَ »

مَا الْعُقَبَةُ ؟ • فَكُ رَقَبَةٍ • أَوْ إِمْلَامٌ

فى يوم ذى منبئة • بَيْتًا ذَا مَقَرَّةٍ •

أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَقَرَّةٍ » .

أى : فهَلَّا أَقْصَمَ الْعُقَبَةِ . « وَمَا أُدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ؟ اسْتَغْنَاهُ عَلَى الضَّعِيفِ لثَنُهَا .

ويقال : هى عُقَبَةٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَخْاوِزُهَا مَنْ قَصَلَ مَا قَالَهُ : وَهُوَ فَكُ رَقَبَةٍ : أى : إِيْتَانُ

مَلُوكَ ، وَالتَّكُ الْإِزَالَةُ . وَأَطْعَمَ فى يَوْمِ ذى جَعْفَرٍ وَقَطَعَ وَشَدَّ بِتَيْبًا ذَا قَرَابَةِ ، أَوْ « مَسْكِينًا

ذَا مَقَرَّةٍ » : لَأَشَى لَهُ حَقِّ كَأَنَّهُ قَدْ اتَّصَقَ بِالْقَرَابِ مِنَ الْجَوْعِ .

(١) يقال : دم فى جباط ومياد أى فى شر وجسكية ، وقيل : فى دفر وتهاض (الربط) .

(٢) يقال : نزلت فى رجل من بني جُمُحٍ كَانَ يُقَالُ لَهُ : أَبَرُ الْإِفْدِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ (ص) .

(قَالَ الْكَلْبِيُّ) .

قوله جل ذكره : « ثم كان من الدين آمنوا ونواصروا بالصبر وتواصروا بالبركة » .

أى : من الدين يرحم بعضهم بعضاً .

« أولئك أصحاب الميمنة »

أى : أصحاب اليمين والبركة .

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب

الشامة • عليهم نارٌ مؤبدة » .

هم للشائيم على أنفسهم ، عليهم نارٌ مُطْلَقَةٌ ؛ ينفى أبواب النيران (عليهم منقطة) .

والنقبة التى يجب على الإنسان اتصاعها : نفسه وهواه ، وما لم يَجُزْ تلك النقبة لا يفلح
و « تلك رقية » هو إعتاقُ نفسه من رِقِّ الأغراض والأشخاص .

ويكون فكُّ الرقية بأن يهدى مَنْ يفسكه — من رق هواه ونفسه — إلى سلامته
من شُحِّ نفسه ، ويرجعه إليه ، ويخرجه من ذلك .

ويكون فكُّ الرقية بالتحرُّزِ من التدبير ، والخروج من ظلمات الاختيار إلى سمة الرضاء .

ويقال : يعلم من كان فى مقربة ويكون هو فى مسغبة .

« ثم كان من الدين آمنوا ... » أى تكون خاتمته على ذلك ^(١) .

(١) أى ينفى عن ذلك حتى الوفاء .

سُورَةُ الشَّمْسِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » إخبارٌ عن وجود الحقِّ بِمَتِّ الْقَدَمِ . « الرحمن الرحيم » : إخبارٌ عن جِئَانِهِ بِوصف التَّلاهِ وَالكَرَمِ .

كَاشَفَ الْأَرْوَاحَ بِقَوْلِهِ : « بسم الله » فَهَيَّيْهَا ، وَكَاشَفَ النُّفُوسَ بِقَوْلِهِ : « الرحمن الرحيم » فَهَيَّيْهَا ؛ فَالْأَرْوَاحُ دَهَشَتْ فِي كَشْفِ جَلَالِهِ ، وَالنُّفُوسُ عَطَشَتْ إِلَى لُكْبِ جَمَالِهِ^(١) .

قوله جل ذكره : « وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا » .

ضُحَا الشَّمْسِ صَدْرُ وَقْتِ طُلُوعِهَا .

« وَالنَّجْمِ إِذَا تَوَلَّى » .

أى : تَوَلَّىهَا ؛ وَذَلِكَ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ .

« وَالتَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » .

إِذَا جَلَّى الشَّمْسُ وَكُتِفَهَا .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَنشَأُ » .

أى : يَنشَأُ الشَّمْسُ (فَيُذْهِبُ بَضُوئَهَا) .

« وَالسَّجْدِ إِذَا يَسْجُدُ » .

أى وَبَنَاتِهَا . وَيُقَالُ : وَمَنْ بَنَاهَا^(٢) .

(١) تَذَكَّرَ بِمَا قُلْنَا آتَيْنَا مِنْ تَمَاسِكٍ وَضَعِ تَفْسِيرِي الْإِسْلَامَ لَهَا بَيْنَ الْبَلَدِ وَالشَّهْرِ فِي التَّحْنِيزِ م ، وَص .

(٢) هَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ لِمُتَاوَرِدِ الْفَعْلِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَجَّاهُ . وَأَهْلُ الْحِجَازِ يَقُولُونَ : سَبَّحَانَ (بَا) سَبَّحَتْ لَهُ .

أى سَبَّحَانَ مِنْ سَبَّحَتْ لَهُ .

« والأرض وما عليها » .

أى : وملحوظها . ويقال : ومن طعها (أى بسطها أو قسمها أو خلقها) .

« ونفس وما سواها » .

ومن سوى أجزائها وأعضائها .

« فألمها فجورها وتقواها » .

أى : بأن خذلها ووقَّها .

ويقال : فجورها : حركتها في طلب الرزق ، وتقواها : سكوتها بحكم التقدير .

وقيل : طريق الخير والشر .

قوله جل ذكره : « قد أفلح من زكَّاه » .

هذه اجواب القسم . أى : « قد أفلح من زكَّاه » .

ويقال : من زكَّاه الله عز وجل .

« وقد خاب من دَّاه » .

أى : دَّاهها الله . وقيل : دَّاهها (١) في جملة الصالحين وليس منهم .

وقيل : خاب من دَّاه نفسه بمصيبة الله . وقيل دَّاهها : جعلها خيبة خيرة .

وأصل الكلمة دَّاه (٢)

قوله جل ذكره : « كَذَّبَتْ ثمودُ بطَّنُواها » .

« بطَّنوها » : لطَّنتها ، وقيل : إن سالماً قد مات ، فكفَّرَ قومه ، فأحياه الله ،

فدعاه إلى الإيمان ، فكذبوه ، وسألوه علامةً وهي الناقة ، فأثام صالح بما سألوا .

« إذ أنيشت أشتقها » .

(١) أى دَّاهها صاحبها .

(٢) من التَّهْمِيس ، وهو إخفاء الشيء عن الشيء ، فأبدلت سبه ياءً كما يقال : تَصَيَّتُ أُنْثَى والْأَصْلُ قَصَصْتُ ، وثمة قولهم في تَقَفَّسٍ : تَقَفَّسَ .

« أَشْتَاهَا » عَاقِرُهَا .

« قَالَ لَمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ
وَسُقْيَاهَا » .

أى : احذروا ناقةَ الله ، واحذروا سقياها : أى : لا تترسّوا لها .

« فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوا ... » .

أى كَذَّبُوا صَالِحًا ، فَفَقَرُوا الناقةَ .

« ... فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
فَنَسَوَاهَا » .

أى : أهلَكهم بِجُرْمِهِمْ ، « فَسَوَاهَا » : أى أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الذَّنَابَ ^(١) .

ويقال : سَوَى يَسْوِيهِمْ رَبُّهُمْ فى الذَّنَابِ لِأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ رَضُوا بِعَقْرِ الناقةِ .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

أى : أن الله لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ مَا فَعَلَ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ .

ويقال : قد أَقْلَعَ ^(٢) مَنْ ذَاكَمَ عَلَى الْمِبَادَةِ ، وَخَابَ مَنْ قَصَرَ فِيهَا .

وفائدة السورة : أنه أَطْلَعَ مَنْ طَهَّرَ نَفْسَهُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالصُّيُوبِ ، ثُمَّ عَنِ الْأَطْلَاعِ فِي
الْأَعْوَاضِ وَالْأَغْرَاضِ ، ثُمَّ أَبْقَى نَفْسَهُ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْأَقْسَامِ ، وَعَنِ ارْتِكَابِ الْحَرَامِ .
وقد خَابَ مَنْ خَانَ نَفْسَهُ ، وَأَهْمَلَهَا عَنِ الْمُرَاعَاةِ ، وَدَنَسَهَا بِالْخِلَافَاتِ ؛ فَلَمْ يَرْضَ بِدَمِّ الْعَافِي
حَتَّى ضَمَّ إِلَى قَعْرِهَا مِنْهَا الدَّمَالَى لِلظَّالَةِ ... فَفَرَّقَتْ فِي بَحْرِ الشَّقَاءِ سَفِينَتُهُ .

(١) بأن سوى عليهم الأرض .

(٢) هكذا فى سر دجى نى م (أصلح) وقد رجعتنا ما أثبتنا ، فهكذا الآية ، ثم ما تلا هذه الميادة .

سُورَةُ اللَّيْلِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بسم الله كلمة تُخَيِّرُ عن إلمية الله ؛ وهي استحقاقه لموتِ المجد والتوحد ، وصفتِ البرِّ والتفرد ؛ فمن تَجَرَّدَ في طَلَبِهِ عن الكسلِ ، ولم يستولنْ مَرَكَبَ الحِجْزِ والنَّشْلِ ، وَوَضَعَ النظرَ موضعه وَصَلَ بِدليلِ العقلِ إلى عرفانه ، وَمَنْ بَدَّلَ رُوحَهُ وَفُتِّسَهُ وَوَدَّعَ في الطَّلَبِ راحته وَأَنَسَهُ ، ولم يَسْرُجْ في أوطانِ الوَقْعةِ فُتِرَ بِحُكْمِ الرِّصْلِ إلى شهودِ سلطانه ، والناسُ فيه بين مَوْفِقٍ وغُضُولٍ ، أَوْ مَوْيِّدٍ ومُردودٍ .

قوله جل ذكره : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى » .

يغشى الأفق ، وما بين السماء والأرض فيستره بِظُلُمَتِهِ .

والليلُ لأصحابِ التَّحَيُّرِ يستغرقُ جميعَ أَصْطِلَافِ أَفْكَارِهِمْ فلا يَهْتَدُونَ إلى الرُّشدِ .

« وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى »

أَنَارَ وظَهَرَ ، وَوَضَحَ وَأَسْفَرَ .

ونهارُ أَهْلِ المِرْقَانِ بضياءِ قلوبِهِمْ وأَسْرَارِهِمْ ، حتى لَا يَتَقَيَّ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ ، فَسَكَنُوا بِظُلُوعِ الشَّمْسِ (١) مِنْ تَكَلُّفِ إِيقَادِ السَّرَاجِ (٢)

« وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » .

أى : « مِنْ » خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ؛ وَهِيَ اللَّهُ سَيِّدَانِهِ :

« إِنَّ سَمِيَكُمْ لَشَقَى » .

هذا جوابُ الْقَسَمِ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّ عَمَلَكُمْ لَخَلْفٌ ؛ فَتَمَكُّ : مَنْ سَعِيَ في طلبِ دُنْيَاهُ ، وَمِنْكُمْ مَنْ سَعِيَ في شَهَوَاتِ نَفْسِهِ وَاتَّبَاعِ هَوَاهُ ، وَمِنْكُمْ مَنْ في طَلَبِ جَاهِهِ وَمُنَاهُ ، وَآخَرُ في طلبِ عِتَابِهِ .

(١) يقصده شمس التوحيد .

(٢) إذا طلعت شمس التوحيد لم تبقَ محاولات العقل ، لأن نورها يطفى كل كل الأثرار .

وآخر في تصحيح قواه ، وآخر في تصفية ذكراه ، وآخر في التيام بمشور رضاه ، وآخر في طلب مولاه .

ومعكم : من يجمع بين سعى النفس بالطاعة ، وسعى القلب بالإخلاص ، وسعى البدن بالقرب ، وسعى اللسان بذكر الله ، والقول الحسن للناس ، ودعاء الخلق إلى الله والتصيحة لهم . ومنهم من سبى في هلاك نفسه وما فيه هلاك دينه . . . ومنهم . . . ومنهم .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى » من ماله ، « وَاتَّقَى » مخافة ربّه ...

وقال : « أَعْطَى » الإصناف من نفسه ، « وَاتَّقَى » طلب الإصناف لنفسه^(١) . . .

وقال : « اتَّقَى » ساخط الله . « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » : بالجنة ، أو بالسكينة الآخرة ، وبالنفرة لأهل الكبائر ، وبالشناعة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبالخلق^(٢) من قبل الله . . . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى : أى نُسهِّلُ عليه الطاعات ، ونُكَرِّهُه إليه المخالفات ، ونُكَبِّهه إليه القرب ، ونُحِبُّه إليه الإيماني ، ونُزَيِّنُ في قلبه الإحسان .

وقال : الإمامة على طاعته والود إلى ما عمله من عبادته .

« وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى »

« بِالْحُسْنَى » فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » .

أما من منع الواجب ، واستغنى في اعتقاده ، وكذب بالحسنى : أى بما ذكرنا ، فسيسره لليسرى ؛ فيقع في المصيبة ولم يدبرها ، ونوقف^(٣) له أسباب المخالفة .

وقال « أَعْطَى » أعرض عن الآخرين ، « وَاتَّقَى » أن يحمل لها في نفسه مقدارا^(٤) .

(١) من النفرة أن تتخلّى بالإصناف وأن تتخلّى عن الإصناف . . . حكلا قال الشيخ .

(٢) (كشكفت) بالفتح العام : إن الله يرث الأرض ومن عليها ، وبالفتح الصوق : وقالين بهجيم - في حال قتله والحق - فهو منهم خيكت (انظر بسطة الأحقاف من هذا الجلد) .

(٣) حكلا في من دعى في م (وتوقف) وهي مقبولة أيضا (فالعريق) اليسرى هو التيسير لما كان في الآية . . . بل لعلها أقرب إلى السياق عما في من .

(٤) حتى يبتعد عن الأوامر والأمرائن ، ويبتعد قلبه لله وحده .

قوله جل ذكره : « وما يُضَيِّعُ عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى »

يعنى : إنا مات .. فما الذى يضيّع عنه ماله بعد موته ؟

قوله جل ذكره : « إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ »

لأوليائنا ، الذين أرشدناهم . ويقال : « إِنْ عَلَيْنَا لِلْهُدَىٰ » بنصيب الدلائل .

« وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ »

مُنْكَأً ، نعطيه من فناء .

« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ »

أى : تَلْظَى .

« لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ »

أى : لا يُعَذِّبُ بِهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، وهو :

« الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »

يعنى : كَفَرَ .

« وَصِيحِبْهَا الْعُتَىٰ » الذى يُؤْتِي

مَالَهُ يَتْرَكُهَا

يُعْطَى الزَّكَاةَ لِلْفُرْسَةِ .

ويقال يَتَلَهَّرُ مِنَ الذَّنُوبِ .

ونزلت الآية في (أبى بكر)^(١) رضى الله عنه . والآية عامة .

(١) ما بين القوسين غير موجود في م ، ووجوده فقط « رضى الله عنه » ، وفي م : يوجد فقط (والآية عامة) فأكلنا السياق .

وهروى : أن التنى (ص) مر ببلال وهو يعذب في الله ويقول :
أحد أحد ، فلما نقل ذلك إلى أبى بكر ، عرف أبى بكر ما يريد الله ، فقلب إلى أمية بن خلف ، واقتدى
ببلال وأخذه ، فلما قال المشركون : ما أخذه أبى بكر إلا ليهزأ كانت له عنده نزل قوله تعالى : « وما لأحد عنده
من نعمة تهمز . إلا ابتلاء وجه وجهه لأمل » .

« وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تجزئ »

حق تكون هذه مكافأة له . ولا يفعل هذا ليَتَّخِذَ عند أحدٍ يداً ، ولا يقلب
منه مكافأة :

« إلا أجناءَ وجنَّه ربُّ الأعلى »

أى : ليَقْرَبَ بها إلى الله .

« ولسوف يَرْضَى »

يَرْضَى اللهُ عنه ، ويرضى هو بما يعطيه .

سُورَةُ الضُّحَى

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » اسم لا يُشَبِّهُهُ كَقَوْلِهِ (١) فِي ذَاتِهِ وَصَفَاتِهِ ، وَلَا يَسْتَفْزُهُ (٢) لَهْوٌ فِي إِنْشَائِهِ مَصْنُوعَاتِهِ ، وَلَا يَمْتَرِبُهُ سَهْوٌ فِي عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَلَا يَمْتَرِضُهُ لَهْوٌ فِي قَوْلِهِ وَكَلِمَتِهِ .

فَهُوَ حَكِيمٌ لَا يَلْهُو ، وَعَلِيمٌ لَا يَسْهُو ، وَحَلِيمٌ يُنْثِيْتُ وَيَمْحُو ؛ فَالضَّنَقُ قَوْلُهُ ، وَالْحَقُّ حُكْمُهُ ، وَالضَّلَاقُ خَلْقُهُ وَاللَّامُكُ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : « وَالضُّحَى » وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَا

« وَالضُّحَى » : سَاعَةٌ مِنَ النَّهَارِ . أَوْ النَّهَارُ كُلُّهُ يُسَمَّى ضُحًى . وَيَقَالُ : أُنْصِمَ بِصَلَاةِ الضُّحَى .

وَيَقَالُ : الضُّحَى السَّاعَةُ الَّتِي كَلَّمَ فِيهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

« وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَا » أَيْ : لَيْلَةُ اللَّجَاجِ ، وَ« سَجَا » : أَيْ سَكَنَ ، وَيَقَالُ : هُوَ عَامٌ فِي جِنْسِ اللَّيْلِ .

وَيَقَالُ : « الضُّحَى » وَقْتُ الشُّهُودِ . « وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَا » الَّتِي قَالَ : إِنَّهُ لَيَكُنَّ عَلَى قَلْبِي (٣) . . . »

(١) أَمَلَهَا « كَلَفٌ » أَيْ مَسَائِلُ ، أَوْ قَوَى قَادِرٌ عَلَى تَصْرِيفِ الْعَمَلِ . وَيَقْرَأُ بِهَمْزٍ الْفَاءَ وَسُكُونَهَا ، فَإِنْ كُلَّ اسْمٍ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ أَوَّلُهُ مَقْصُومٌ فَإِنَّهُ يَجُوزُ فِي حَيْثُ الضَّمِّ وَالِاسْتِثْنَاءِ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عَادِهِ جِزْأً (آيَةُ ١ سُورَةُ الْفُرْقَانِ) .

(٢) اسْتَفْزَهُ الْفُتْيَةُ = اسْتَفْزَعَهُ ، وَاسْتَفْزَعَهُ فَلَانَ = أَثَارَهُ وَأَزْجَعَهُ .

(٣) اسْتَفْزَعَهُ الْفُتْيَةُ = اسْتَفْزَعَهُ ، وَاسْتَفْزَعَهُ فَلَانَ = أَثَارَهُ وَأَزْجَعَهُ .
(٤) مِنْ أَغْرَزِيَّةٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) : إِنَّهُ لَيَكُنَّ عَلَى قَلْبِي حَتَّى اسْتَفْزَعَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِائَةَ مَرَّةٍ « أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ . وَفِي رِوَايَةٍ لِسَلَمٍ : « تَوَبُّوا إِلَيَّ رَيْكُم ، غَوَاةً إِنْ لَا تَوْبَ إِلَّا رُبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ » .

ويقال : « الليل إننا سجا » حين ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا — على التأويل الذى يصح فى وصفه^(١) .

« مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ »

مَا قَطَعَ عَنْكَ الْوَحَىٰ وَمَا أَبْضَكَ^(٢) .

وكان ذلك حين تأخر جبريل — عليه السلام — عنه إلهماً^(٣) ، قال أهل مكة : إن عمداً قد قلاه ربه . ثم أنزل الله هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثني عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف ، فوعدّ الجواب ولم يقل : إن شاء الله^(٤) .

« وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ »

أى : ما يعطيك فى الآخرة خيرٌ لك مما يعطيك فى الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والخوض ، وما يُلْبِسُكَ من لباس التوحيد — غداً — خيرٌ مما أعطاك اليوم .

« وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ »

قيل : أفترضى بالمعطاء عن اللعطى ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَمْلِكْ يَتَبَّأ فَاوْىٰ » ؟

(١) تقدّم التعليق على هذا الخبر فى حاشى سبق .

(٢) هكذا فى م (يعضبك) .

(٣) فى البخارى عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله (ص) فلم يبق ليلىين أو ثلاثاً فبعثت امرأة (هى السوراء بنت حرب أخت أبي سفيان ، وهى حالة الخطب ، زوج أبي لب) فقالت : يا محمد ، إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قريبك منذ ليلىين أو ثلاث ، فأقول الله عز وجل « وَاللَّحْشَى » .

(٤) يقال : إن جبرئلاً دخل تحت السرير فى حجرته ومات ، فلما تغيب الوصى سأل خادمه غولة : يا غولة ما حدث فى بيتى ؟ ما لجبرئيل لا يأتيه ؟ فلما قامت إلى البيت فكنته وأخبرته بما وجدت .. فلما عاد الوصى سأله من سبب تأخره فقال جبرئيل : أما علمت أننا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ؟

قيل : إلى عمه أبي طالب .

ويقال : بل آواه إلى كنف ظله ، ورجاه بلطف رعايته .

ويقال : فأواك إلى يسطر القربة بحيث انردت بتمامك ، فلم يشاركك فيه أحدٌ
« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

أى : ضللت في شمل مكة ، فهدى إليك عنك أبا طالب في حال صباك .

ويقال : « ضالًّا » فينا متعيرًا .. فهديناك بنا إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن تفصيل الشرائع ؛ فهديناك إليها بأن عرفناك تفصيلها .

ويقال : فيا بين الأقوام ضلالٌ فهداناك .

وقيل : « ضالًّا » للاستغناء^(١) فهديناك لذلك .

ويقال « ضالًّا » في محبتنا ، فهديناك بنور القربة إلينا .

ويقال : « ضالًّا » عن محبتك لك فرقتك أنى أحببك .

ويقال : جاهدًا بمحل شرقك ، فرقتك قدرتك .

ويقال : مستترًا في أهل مكة لا يرفك أحدٌ فهديناك إليك حق عرفوك^(٢)

« وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى »

في التفسير : فأغناك بمال خديجة .

ويقال : أغناك عن الإرادة والطلب بأن أرضاك بالقتد^(٣)

ويقال : أغناك بالنبوة والكتل . ويقال : أغناك بأفه .

(١) الكلمة غير واضحة الرسم في النسخين ، وقد رجحنا هذه الكلمة لأنها أقرب إل ما في م ، ولأن من القصص السابقة ما يشير إلى أنه لم يقدم المشيئة فموتى في ذلك ولا تقولون لهي إلى فامل ذلك غذا إلا أن يشاء الله .
(٢) ربما تنفق هذه الإشارة مع ما جرت عليه العرب في وصف الشجرة المنفردة في الغلة لا شجر معها بأنها ضالة يفتنى بها إلى الطريق لأنها علامة مبهمة ، فهي معروفة للأنبا ، ولأنها علامة على الطريق هادية إليه .
(٣) هكذا في م ، وهي في ص (بالفتح) ، ولكننا نرجح ما جاء في م ، ولا نستبعد أنها في الأصل (القدر) .. فالرضا في حال القدر (القدر) أم في التمسك من الرضا في حال القدر .. وهل أعظم من التمسك بأفه ؟ !

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداء ؛ بلا سؤال منك .

قوله جل ذكره : « وَأَمَّا الْيَقِيمُ فَلَا تَهَمُّ »

فلا تَحْتَفِ ، وارفقْ به ، وقرِّبه

« وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ »

أى : إِمَّا أَنْ تُعْطِيَهُ . . أَوْ تَرْدَّهُ بِرِفْقٍ ، أَوْ وَعْدٍ .

ويقال : السَّائِلُ عَنَّا ، والسَّائِلُ للتَّصَيُّرِ فِينَا — لَا نَهْرَمُ ، فَإِنَّا نَهْدِيهِمْ ، ونكشف

مَوَاضِعَ سُؤَالِهِمْ عَلَيْهِمْ . . فَلَا طَعْنَهُمْ أَنْتَ فِي الْقَوْلِ .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ »

فاشْكُرْ ، وصرِّحْ بإحسانه إليك ، وإِنعامه عليك .

سُورَةُ الْفَتْحِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » اسمٌ عزيزٌ عزَّزَ مَنْ التَّجَأَ إِلَيْهِ ، وَجَلَ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَكَافَى فِي الْبَرِيَا وَالْعَقْبَى مَنْ تَوَسَّلَ بِهِ إِلَيْهِ ؛ فَمَنْ تَقَرَّبَ مِنْهُ قَرَبَهُ وَمَنْ شَكَأَ إِلَيْهِ حَقَّ لَهُ مَطْلَبُهُ ، وَمَنْ رَفَعَ قَصْعَهُ إِلَيْهِ قَفَى مَأْرَبَهُ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ نُنشِركَ صدرك ؟ »

أَلَمْ نُوسِّعْ قَلْبَكَ لِلْإِسْلَامِ ؟ أَلَمْ نُلَيْتِهِ لِلْإِيمَانِ ؟

ويقال : أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ بِنُورِ الرِّسَالَةِ ؟ أَلَمْ نُوسِّعْ صَدْرَكَ لِقَبُولِ مَا نُوْرِدُ عَلَيْكَ .

« وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ • اتَّقِ أَهْضَ

ظَهْرَكَ »

أَي : إِمَّاكَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ .

ويقال : عصمتك عن ارتكابِ الْوِزْرِ ؛ فَوَضَعْنَا عَنْهُ بَأْهَ لَمْ يَسْتَوْجِبْهُ قَطْرٌ .

ويقال : خَفَضْنَا عَنْكَ أَعْيَاءَ النُّبُوَّةِ وَجَلَلْنَاكَ عَمُولًا لَا مَتَّعِلًا^(١) .

ويقال : قَوَيْنَاكَ عَلَى التَّحِيلِ مِنَ الْخَلْقِ ، وَقَوَيْنَاكَ لِشَاهِدَاتِنَا ، وَحَفَظْنَا عَلَيْكَ مَا

اسْتَحْفَظْتَ^(٢) ، وَحَرَسْنَاكَ عَنْ مَلَاخِظَةِ الْخَلْقِ فَيَا شَرِّكَاهُ .

(١) وهذه أقصى درجات الحب ، وقد مر بنا كيف قارن القشيري بين مواقف موسى ، ومواقف المصلح

صلوات الله عليهما ، وكيف أوضح لنا أن موسى كان متصلا بيينا كان نبيا محمولا .

(٢) إشارة إلى القرآن ، الذي حفظ من التثريب والتعريف .. إلى الآية .

« الذي أفض ظهرك » : أى : أمله ، ولولا حُلْنَا عَنْكَ لَكثير .

« وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ »

يَذْكُرُنَا ؛ فَمَا لَا تَصِيحُ كُلُّ الشَّاهِدَةِ إِلَّا بِي ، فَإِنَّمَا لَا تَصِيحُ إِلَّا بِكَ . (١)

ويقال : رفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ بِقَوْلِ النَّاسِ : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ !

ويقال : أَهْبَتْنَا لَكَ شَرَفَ الرَّسَالَةِ .

« فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • إِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْرًا »

وفى الخبر : « لَنْ يَنْقُصَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ » (٢) ومعناه : أَنَّ الْعُسْرَ بِأَلْفِ وَالْإِلَامِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ

لِلْعَهْدِ — فَهُوَ وَاحِدٌ ، وَالْيُسْرُ مُتَكَرِّرٌ فِي الْمَوْضِعَيْنِ فَهُمَا شَيْئَانِ . وَالْعُسْرُ الْوَاحِدُ : مَا كَانَ فِي

الدُّنْيَا ، وَالْيُسْرَانِ : أَحَدُهُمَا فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخُصْبِ ، وَزَوَالِ الْبَلَاءِ ، وَالثَّانِي فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَزَاءِ ؛

وَلَمَّا قُضِيَ جَمِيعُ الْأَمْرِ وَاحِدٌ — وَهُوَ مَا نَابَهُمْ مِنْ شِدَادَةِ الدُّنْيَا ، وَيُسْرُهُمْ اثْنَانِ : الْيَوْمَ

بِالْكَشْفِ وَالْمَرْقِ (٣) ، وَغَدًا بِالْجَزَاءِ .

قوله جل ذكره : « فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ »

فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْكَ فَانصَبْ فِي الدُّعَاءِ .

ويقال : فَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الْعِبَادَةِ فَانصَبْ فِي الشَّفَاعَةِ .

ويقال : فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ عِبَادَةِ نَفْسِكَ فَانصَبْ بِقَلْبِكَ .

« وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ »

فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ .

ويقال : فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَارْغَبْ فِي الشَّفَاعَةِ .

(١) لَا تَضَعُ الشَّاهِدَةَ شَرْعًا إِلَّا إِذَا قُلْنَا : وَأَنْ عَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ .

(٢) الْبُخَارِيُّ ص ١٤٥ - ٣ .

(٣) الْكَشْفُ هُنَا لَيْسَ كَمَا تَقُولُ مِنْ تَبْلِيغِ الْمَصْلُوحِ الْمَوْقُوفِ ، بَلْ هُوَ كَشْفُ الْعَمَةِ وَمَعْرِفَةُ الْحَقِّ ، نَهَى لِللُّغَةِ عَمَّا فِي هَذَا الْبَيَانِ .

سُورَةُ التِّينِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

اسم « الله » يدلُّ على جلالٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ ، ويُخْبِرُ عن جلالٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ ، يَنْبَغِي عَلَيْهِ إِقْبَالُ مَنْ لَمْ يَزَلْ ، يَشِيرُ إِلَى إِفْضَالٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ ؛ فَالْمَارِفُ شَهِدُ (١) جَلَالِهِ فَطَاشَ ، وَالصَّقِيُّ شَهِدَ جَمَالَهُ فَاشَ ، وَالْوَلِيُّ شَهِدَ إِقْبَالَهِ فَارْتَأَشَ ، وَالرَّيْدُ يَشْهَدُ إِفْضَالَهُ فَلَا يَطْلُبُ مَعَ كِفَايَةِ الْمَاشِ .

قوله جل ذكره : « والتين والزيتون »

أَقْسَمَ بِالتِّينِ لِمَا بِهِ مِنْ عَظِيمِ الْبَلَاءِ عَلَى الْخَلْقِ حَيْثُ لَمْ يَحْمِلْ فِيهِ النَّوَى ، وَخَلَصَهُ مِنْ شَأْبِ التَّنْفِيسِ ، وَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارِ الْقُسَّةِ لَتُكْشَلَ بِهِ اللَّذَّةُ . وَجَمِلَ فِي « الزَّيْتُونِ » مِنَ الْمَنَافِعِ مِثْلَ الْأَسْتِصْبَاحِ وَالنَّائِذِ وَالْأَصْطِبَاحِ بِهِ .

« وَطُورِ سَيْنِينَ »

الْجَبَلُ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ . وَلَوْضَعُ قَدَمِ الْأَجَلْبِ حُرْمَةً .

« وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ »

يَعْنِي : مَكَّةَ ، وَلِهَذَا الْبَلَدُ شَرَفٌ كَبِيرٌ ، فَهِيَ بَلَدُ الْحَبِيبِ ، وَفِيهَا الْبَيْتُ ؛ وَلَيْتَ الْحَبِيبِ وَبَلَدِ الْحَبِيبِ قَطْرٌ وَمَنْزَلَةٌ . (٢)

(١) مِنْ هُنَا يَبْدَأُ فِي النُّسخَةِ بِإِثْنِ فِي النُّسخَةِ مِنْ يَتْلُوهُ . سَقُوطٌ حَتَّى بِدَايَةِ سُورَةِ الْعَادِيَاتِ . وَلِهَذَا نَسْتَدْرِكُ فِيهَا بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ عَلَى النُّسخَةِ مَوْضِعًا .

(٢) مَا ذَهَبَ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَقْسِيرِ : التِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سَيْنِينَ ، وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ قَوْلَ بَعْضِهِمْ : إِنَّ التِّينَ إِشَارَةٌ إِلَى جَبَلِ مَدِينَةٍ وَهِيَ مَكَّةُ ، وَبِالزَّيْتُونِ جَبَلُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فَهُوَ مَقَامُ الْأَنْبِيَاءِ جَسَدِهِمْ ، وَطُورِ سَيْنِينَ إِشَارَةٌ إِلَى مُوسَى كَلَّمَ اللَّهُ ، وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَكَّةَ بِهَا بَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَبِهَا دَارُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. فَكَانَ مَطْلَعُ السُّورَةِ تَشِيرُ إِلَى النُّبُوَاتِ الْمَهَارِزَةِ .

قوله جل ذكره : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم » .

في اعتدال قامته ، وحسن تركيب أعضائه . وهذا يدل على أن الحق — سبحانه —
ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأن كل صفة اشترك فيها الخلق والحق فالبالغة للحق . . كالعلم ،
فالأعلم الله ، والقدرة : فالأقدر الله ، فلو اشترك الخلق والمخلوق في التركيب والصورة لكان
الأحسن في الصورة الله ... فلما قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » علم أن الحق
— سبحانه — منزّه عن التقويم وعن الصورة .^(١)

قوله جل ذكره : « ثم رددناه أسفل سافلين »

أى : إلى أذل السوء وهو حال الخرف^(٢) والهزم .

ويقال : « أسفل سافلين » : إلى النار والمالوية في أقيع صورة ؛ فيكون أول الآية عامًا
وآخرها خاصًا بالكفار .. كما أن التأويل الأول — الذى هو حال الهزم — خاص في البعض ؛
إذ ليس كل الناس يمشون حال الهزم .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات »

فلهم أجر غير ممنون »

أى : غير مقصوص .

ويقال : « ثم رددناه أسفل سافلين » أى : إلى حال الشقاوة والكفر إلا المؤمنين .

قوله جل ذكره : « فابكذبك بعد بالدين »

أيها الإنسان .. مع كل هذا البرهان والبيان ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟

(١) في هذا رد جميل مقنع حل للشبهة ، وعمل كل ذي تصور وميسر للتأويلية .

(٢) الخرف = نساد العقل بسبب كبر السن .

سُورَةُ الْعَلَقِ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم»

«بسم الله» كلمة سماعها بوجوب أحد أمرين: «إِنَّمَا صَنَعُوا وَلِهَذَا مَتَّحُوا؛ صَحُوا لِنَبِّئِ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْعِلْمِ فَيُسَبِّحُ بِوَضُوحِ بَرَاهِنِهِ، أَوْ مَحْوًا لِمَنْ سَمِعَهَا بِشَاهِدِ الْمَرْقَةِ لِأَنَّهُ يَتَحَيَّرُ فِي جَلَالِ سُلْطَانِهِ -

قوله جل ذكره: «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»

هذه السورة من أول ما نَزَلَ عَلَى الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَرَضَ لَهُ جَبْرِيلُ فِي الْمَوَاءِ، وَنَزَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ». فالتَّاسُ كُلُّهُمْ مَرِيدُونَ - وهو صلى الله عليه وسلم كان مُرَادًا . فاستقبل الأمر بقوله: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ لَهُ: أَقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ لَهُ: أَقْرَأْ كَمَا أَقُولُ لَكَ؛ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. أَيْ خَلَقَهُمْ عَلَى مَا هُمْ بِهِ.

«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ»

التَّلَقَّى جَمْعُ عَلَقَةٍ؛ كَشَجَرَةٍ وَشَجَرَةٍ.. (وَالْمَلَقَةُ النَّمُ الْجَامِدُ فَإِذَا جَرَى فَهُوَ السَّفُوحُ).

«أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ»

«الْأَكْرَمُ»: أَيْ الْكَرِيمُ.

وَيُقَالُ: الْأَكْرَمُ مِنْ كُلِّ كَرِيمٍ.

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ» • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

عَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَعْلَمُوا: الْفُرُوزِيُّ، وَالْكُفِيُّ.

« كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ » (١)

أى : يتجاوز جده إذا رأى في نفسه أنه استغنى ؛ لأنه يعنى عن مواضع افتقاره .

ولم يقل : إني استغنى بل قال : « أن رأه استغنى » فإذا لم يكن مُتَجَبِّاً بنفسه ، وكان مشاهداً /
لحل افتقاره — لم يكن طاعياً (٢) .

قوله جل ذكره : « إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعُ » .

أى : الرجوع يوم القيامة .

قوله جل ذكره : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ »

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ ففي الآية هذا الإنذار .

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْمُدُتَّىٰ » أو أمر بالتقوى »

لكان خيراً له ؟

« أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ »

كذَّبَ بِالَّذِينَ ، وَتَوَلَّىٰ عَنِ الْهُدَايَةِ .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ » ؟

أى : ما الذى يستعفه من هذه صفته ؟

والتخوفُ برؤية الله تنبيه على مراقبة - وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ حَالَ الْمُرَاقِبَةِ لَمْ يَرْتَقِ مِنْهُ إِلَىٰ حَالِ

المشاهدة .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ »

ناصية كاذبة خاطئة »

(١) قيل قلت في أبي جهل حين نهى النبي «ص» عن الصلاة ، فأمر الله نبيه أن يصل في المسجد ويقرأ باسم الرب ..
والذين يرون ذلك يرون أن السورة ليست من أوائل ما نزل من القرآن . أو يجوزون أن تكون أوائل السورة كذلك
وأن يفتها في شأن أبي جهل - أى متأخرة .

روى البخارى عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصل عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبي ذلك
فقال : لو فعل لأخذه الملائكة . (البخارى ج ٣ ص ١٤٦) .

(٢) من أشد آفات الطريق خطراً ملاصقة النفس ، وثأليك يدهواها .

لَنَاخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ (وهي شَرُّ مُقَدِّمِ الرَّأْسِ) أَخُذَ إِذْلالٍ . ومعناه لِنُسَوِّدَنَّ وَجْهَهُ .

وقوله : « نَاصِيَةٌ كَاذِبَةٌ خَاطِلَةٌ » بدلٌ من قوله : « لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ » (١)

« فَلْيُذِغْ نَادِيَهُ » سَدَّغُ الزَّيَّانِيَةِ

فليذغ أهل ناديه وأهل مجلته ، وسندعو الزَّيَّانِيَةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جل ذكره : « كَلَّا لَا تَطْمِئِنَّا وَاقْتَرِبْ »

أى : اقترب من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بساط المبودية بنفسك .

ويقال : فاسجد بنفسك ، واقترب ببركك (٢) .

(١) نسبة للكذب والخيلة إلى الناصية يقصد بها صاحب الناصية كقولهم : نهاره صائم وليله قائم ، أى هو صائم في نهاره وقائم في ليله .

(٢) السجود عبادة القفاهر ، ولما رويها للتشبيير بالنفس ، فكأن ما يصل بالقفاهر يرتبط - عنده - بالنفس ، وأما الاقترب وهو عبادة الباطن المرتبطة بالسر .

سُورَةُ الْقَدْرِ

قوله جل ذكره « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة تُخَفِّضُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ لِتَأْمُلَ الشَّوَاهِدَ ، وَتُسَكِّرُ قُلُوبَ الْكَافِرِينَ إِذَا وَرَدُوا لِلشَّاهِدِ . . . فِهَؤُلَاءِ أَحْضَرَمَ قَبَضَهُمْ ، وَعَلَى اسْتِغْلَامِ نَصْرِهِمْ .
وهؤلاء بشرابِ محابَّةٍ أَسْكَرَهُمْ ، وَفِي شَهْوَةٍ جَلَالِهِ حَيَّرَهُمْ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » .

فِي لَيْلَةٍ قَدَّرَ فِيهَا الرَّحْمَةُ لِأَوْلِيَائِهِ ، فِي لَيْلَةٍ يَجِدُ فِيهَا الْعَابِدُونَ قَدْرَ فَوْضِهِمْ ، وَيَشْهَدُ فِيهَا الْعَارِفُونَ قَدْرَ مَمْبُودِهِمْ . . . وَشَتَانُ بَيْنَ وَجُودِ قَدْرٍ * وَشَهْوَةِ قَدْرٍ ! فَهَؤُلَاءِ وَحُودُ قَدْرٍ
وَلَكِنْ قَدَرُ أَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَؤُلَاءِ شُهُودُ قَدْرِ وَلَكِنْ قَدَرُ مَمْبُودِهِمْ

« وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟ »

استفهامٌ عَلَى جِهَةِ التَّضَخُّيمِ لِشَأْنِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

« لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرِ » .

أى : هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَتْ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . هِيَ لَيْلَةٌ قَصِيرَةٌ عَلَى الْأَحْبَابِ لِأَنَّهُمْ فِيهَا

فِي مَسَامِرَةٍ وَخُطَابٍ . . . كَمَا قِيلَ :

يَا لَيْلَةً مِنْ لَيَالِي النَّهْرِ قَابَلَتْ فِيهَا بَدْرَهَا يَبْدُرُ
وَلَمْ تَكُنْ عَنْ شَفَقٍ وَفَجْرِ حَتَّى تَوَلَّتْ وَهِيَ يَكْرُ الْمَعْرِ

قوله جل ذكره: « نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا

يُنْزِلُ رُوحَهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ • سلامٌ

هِيَ حَقٌّ مَطْلَعُ الْفَجْرِ » .

« الروح فيها » : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عَظِيمٌ

« يُنْزِلُ رُوحَهُمْ » : أَيْ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ .

« مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ » : أَيْ مَعَ كُلِّ مَأْمُورٍ مِنْهُمْ سَلَامٌ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ^(١) .

« هِيَ حَقٌّ مَطْلَعُ الْفَجْرِ » : أَيْ هِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ .

(١) قد يتأيه رأى التشيرى في اختيار هذا اللفظ الذى يتم به الكلام بما يرويه أنس - قال : قال رسول الله (ص) :
إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كتيبة (جيازة) من الملائكة ، يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد
يذكر الله تعالى .

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ عزيزٌ تنصّل إليه اللذنبون ففترّ لهم وجبرهم ^(١) : وتوسّل إليه المطيعون فوصلهم ونصرهم .

تقرّب إليه العالمون فبصرهم ، وتقرّب منه العارفون فقرّبهم ... لكنه — سبحانه — في جلاله حَيَرَهُم ^(٢) .

قوله جل ذكره : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالشَّرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » .

« منفكين » : مُنْفَكِّينَ عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة : وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي المزاووا مجتمعين على تصديقه ؛ لما وجدوه في كُبرٍ إلى أن بيّنه الله تعالى . فلما بيّنه حسدوه وكفروا .

« رسولٌ من الله جلواً مُخْتَفِئاً مُطَهَّرَةً » : قَبِيحاً كُتِبَ قِيَّةٌ .

(١) في النسخة م توجد بعد هذا الموضع . العبارة التالية « وتوسّل إلى المعفون فبصرهم » . ونستبعد وجودها في الأصل ؛ لأن ترتيب الطرفين لا يأتي بين اللذنين والمطيعين ، وإنما يأتي بعد « العالمين » ، كما « ثابت في النسخة على ملا النحر الذي أبتناه هنا . كما أن « جبرهم » قبل يتصل بالزلات والذنوب ... فبعد أن العبارة متصلة بالمطيعين ، ويتأيد ما اجترناه بالساق الذي تألّه في أسلوب البسلة عند الشيخ ، فضلاً عن خدمته للموسيقى والمغنى .. وهذا المتصان الأساليب في نسج البسلة عنه .

(٢) التحير في الجلال صفة ملح ، ولذا يقول يحيى بن ساعد : يا دليل المتحيرين زدني تحيراً .. لأنه فرق في بحر الوجود عند الشهود .

أى حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُبًا مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

« فيها كتب قيمة » ^(١) : متوية ليس فيها اعوجاج .

قوله جل ذكره : « وما تَقْرَأُ الْقُرْآنَ أَوْ تُرَوِّعُ الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ » .

يعنى : القرآن .

قوله جل ذكره : « وما أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقًّا وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » .

« مخلصين له الدين » أى موحدين لأبشركون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألا يكون شيئاً من حركاتك وسكناتك إلا لله .

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخللِ .

« حفاء » : مائلين إلى الحقِّ ، عاقلين عن الباطل ^(٢) .

« ويقوموا الصلاة .. » وذلك دينُ القِيَمَةِ : أى دينُ اللِّقَةِ القِيَمَةِ ، والأُمةُ القِيَمَةِ ، والشريعةُ القِيَمَةُ .

قوله جل ذكره : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَالشُّرَكَينَ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ » .

« خالدين فيها » : متعينين . « البرية » : الخلقية .

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أُولَئِكَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ » .

(١) يرى القرطبي : أن « كتباً » من جنس الحكام ؛ لأن كُتُبَ بمعنى حكم ، قال تعالى : « كُتِبَ الْقُرْآنُ لِلْعَالَمِينَ » سورة المجادلة .

(٢) كلمة « حفاء » من الأضداد ، فهي تحمل معنى (الميل) من الباطل و (الاستقامة) في طريق الحق .

أى : خير اخلق ، وهنا يدل على أنهم أفضل من الملائكة .

قوله جل ذكره : « جزاؤم عند ربهم جنات عدن

تجرى من تحبها الأنهار خالدون

فيها أبداً » .

« جزاؤم » : أى ثوابهم فى الآخرة على طاعتهم .

« تجرى من تحبها الأنهار » أى : من تحت أشجارها الأنهار .

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

فلم ينبق لهم مطالبة إلا أحققها لهم .

« ذلك لمن خشي ربه » .

أى : خلفه فى الدنيا .

والرضا سرور القلب بمر التضا .

ويقال : هو سكون القلب تحت جريان الحكم .

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

«بِسْمِ اللَّهِ» كلمةٌ من تَأَمَّلَهَا بِمَآئِبِهَا وَوَقَّفَ عَلَى مَا أُوْدِعَ فِيهَا رَسَمَتْ أَسْرَارَهُ فَبَرِيَاضِ
مِنَ الْأَنْسِ مَوْقِفَةً، وَأَبْنَعَتْ أَفْكَارَهُ بِلَوَائِحِ مِنَ الْيَقِينِ مُشْرِقَةً، فَضَى عَلَى جَلَالِ الْحَقِّ شَاهِدَةً،
وَعَى عَلَى مَا يَحِيطُ بِهِ اللَّهُ كَرُّ وَيَأْتِي عَلَيْهِ الْحَضَرُ زَائِدَةً .

قوله جل ذكره: «إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا»
وَأُخْرِجَتِ بِالْأَرْضِ أَهْوَالَهَا .

أى: أمواتها، وما فيها من الكنوز والدفائن .

«وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا؟»

يعنى الكافرُ الذي لا يؤمنُ بها أى بالبعث^(١) .

«يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَرَهَا» .

يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ الْأَرْضُ :

«بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» .

أى: إنما تفعل ذلك بأمر الله .

(١) روى الترمذى عن ابن عباس أنه قال : هو الأسود بن عبد الأسد « ويرى بعض المفسرين : أن الإنسان هنا هو كل إنسان من مؤمن وكافر لأن الجميع لا يعلمون أسرار الساعة في ابتداء أمرها إلى أن يتحققوا عمومها ، ولذا يسأل بعضهم بعضاً .
أمَّا القشيري فقد نظر إليها من ناحية الاعتراف وبطل من يسأل فيها كائناً ما جاهدك لها . أمَّا المؤمن فلا حاجة له في السؤال .

«يَوْمَئِذٍ يَسُدُّ السُّمُومُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوَّاهُ»^(١)

أَعَالِمُ» .

«أَشْتَاتًا» : مَضْرُوبِينَ . «لِّيُرَوَّاهُ أَعَالِمُ» لِيُحَاسِبُوا .

قوله جل ذكره : «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» .

فَهَقَائِي عَنْهُ .

(١) هذه قراءة العامة . وقرأ الحسن والزهرى وقناة والأمرج وابن ماسم وطلمة بفتحها : «لِيُرَوَّاهُ» .

سُورَةُ الْمَادِيَاتِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

«بِسْمِ اللَّهِ» كلمة غيورٌ لا يصلحُ لذكرها إلا لسانٌ مصون^(١) ، عن القنوت والنية ، ولا يصلح لمروقها إلا قلبٌ محروسٌ عن الغفلة والنية^(٢) ، ولا يصلح لحبها إلا رُوحٌ محفوظٌ عن السلافة والحجة .

قوله جل ذكره: «وَالْمَادِيَاتِ رَبُّهِنَّ» .

«الماديات» : الخليلُ التي تدنو^(٣) .

«ربُّهِنَّ» أى إذا صَبَحْنَ صَبَحًا ، والضيحُ : هو صوتُ أجوافها إذا عَدَوْنَ . ويقال : صَبَحَهَا هو شِدَّةُ نَفْسِهَا عِنْدَ الْمَدْوِ .

وقيل : «الماديات» ؛ الإبل^(٤) .

وقيل : أقسم الله بأفراسِ النِزَاةِ^(٥) .

«فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» .

تورى بموافرها النار إذا عَدَّتْ وَأَصَابَتْ سَنَابِكُهَا المحطورة بالليل .

(١) من هذا الموضع تبدأ النسخة من يد البيهقي والسقوط الفيزيائي أدركنا إلهما من قبل .

(٢) النية المتصلة بالسان هي الكلام في حق الثواب ، والنية المتصلة بالقلب هي ورود وأرد من أي نوع يُستعمل الاتجاه الكامل نحو الميوس ، كالتفكير في الثواب أو الخوف من العقاب ، أو الطمع في الأموال ، أو استعجال شيء .. ونحو ذلك مما يشوب كأس الحياة من فورية ..

(٣) المَدْوُ : هو تباحد الأرجل في سرعة المشي .

(٤) هكذا في م وهي في م (البل) وهي خطأ في النسخ وقيل المتصل مع الإبل هو (ضبح) فتكون (صباحا) هنا بجاء مهذلة عن عين (الفرطس) ٢٠٥ ص ١٥٦

(٥) في النهر : «من لم يعرف سرعة فرس القازي فليبه شعبة من الضلال» .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال : هي الأئمة .

« فَالْغِيَرَاتِ صُبْحًا » .

تُغَيَّرُ عَلَى الْمَدْوِّ صَبَاحًا .

« فَأَتَرْنَ بِهِ نَعْمًا » .

أى : هَيَّجْنَ بِهِ غَبَارًا .

« فَوَسَّطْنَ بِهِ جَنَمًا » .

أى : تَوَسَّطْنَ لِلْكَانِ ، أى : تَوَسَّطَ الْخَيْلِ فَوَارِسَهَا جَمَعَ الْمَدْوِّ .

« إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » .

هَذَا هُوَ جَوَابُ الْقَسَمِ .

« لَكَنُودٌ » : أى لَكَفُورٌ بِالنِّعَةِ (١) .

« وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ » .

أى : وَإِنَّهُ عَلَىٰ كُنُودِهِ لَشَهِيدٌ

« وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » .

أى : وَإِنَّهُ لِبَغْيِلٍ لِأَجْلِ حُبِّ اللَّالِ (٢) .

قوله جل ذكره : « أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافٍ فِي الْقُبُورِ » .

أى : يُبْعَثُ لِلْوَقْدِ .

« وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ » .

يُخْرَجُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

« إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ عَلِيمٌ » .

(١) روى عن ابن عباس : أن الكنود بلسان كنة وحضر موت : المصطفى ، ولسان ربيعة ومضر : الكفور ، بلسان كنانة : البغيل التي هي الملكة .

(٢) قال تعالى : « إِنَّ تَرَكْ خَيْرًا آيَةٌ ١٨٠ سورة البقرة .

أَفَلَا يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يُجَازِيهِمْ — ذَلِكَ الْيَوْمَ — عَلَى مَا أَسْقَوْا، ثُمَّ قَالَ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ :
« إِنْ رِزِمَ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ فَعَلِيرٌ » .

ويقال في معنى الكَنُود^(١) : هو الذي يرى ما إليه مِنَ الْبَلَاءِ ، ولا يرى ما هو به مِنَ النُّعْمَى .

ويقال : هو الذي رأسه على وسادة النعمة ، وَقَلْبُهُ في ميدان النقلة .

ويقال : الكَنُود : الذي ينسى النِّعَمَ ويَعُدُّ للمصائب .

وقوله : « وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ » ، يحتمل : وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ .

(١) لعل التشهير هنا مستفاد من قول ذي النون المصري : الكَنُودُ : هو الذي إذا مسّه الشر جزوع ، وإذا مسّه الخير منوع ، يخرج من البلاء ، ويمنع الشكر عن النعمى .

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله » كلمة إذا سمعها الماسون نَسُوا ذَلَّتْهُمْ فِي جَنْبِ رَحْمَتِهِ ، وَإِذَا سَمِعَهَا الْمَابِدُونَ نَسُوا صَوْلَتَهُمْ فِي جَنْبِ إِلَهِيَّتِهِ .

كَلِمَةُ مَنْ سَمِعَهَا مَا غَادَرَتْ لَهُ شَفَلًا إِلَّا كَهْفَتَهُ ، وَلَا أَسْرًا إِلَّا أَمْلَحَتَهُ ، وَلَا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرَتْهُ ، وَلَا أَرْبًا إِلَّا قَصَّتَهُ .

قوله جل ذكره : « الْقَارِعَةُ » ما الْقَارِعَةُ ؟

الْقَارِعَةُ : اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقِيَامَةِ ، وَهِيَ صَيِّفَةٌ « فَاعِلَةٌ » مِنَ التَّرْعِ ، وَهِيَ الضَّرْبُ بِشِدَّةٍ .
مُحِيَّتٌ قَارِعَةٌ لِأَنَّهُمَا تَهْرَعُهُمْ .

« وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ؟ »

تهويلًا لها .

« يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
لِلْمِثْوَةِ » .

أى : لِلْفَرَقِ وَعِنْدَ إِعَادَتِهِمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ » .

أى : كَالصُوفِ لِلصَّبُوحِ .

وَالْمَعْنَى فِيهِ : أَنَّ أَصْحَابَ الدَّعَاوَى ^(١) وَأَرْهَابَ الْقُوَّةِ فِي الدُّنْيَا يَكُونُونَ — فِي الْقِيَامَةِ إِذَا

(١) مَكْنَى فِي صَدَقَى فِي مِ (الدَّعَاوَى) وَهِيَ عِظَامٌ مِنَ النَّاسِخِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ صَحِيحَةً لَهَا بِدَ ؟ فَالْمَقْصُودُ «عَرَى النَّفْسِ» .

بُيِّنُوا — أضعف من كل ضعيف ؛ لأن أقوى هنالك تسقط ، والضعوى تبطل .

قوله جل ذكره : « فَأَمَّا مَنْ هَلَكَ مَوَازِينُهُ • فَهُوَ فِي

عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ • » .

مَنْ هَلَكَ مَوَازِينُهُ بِالْخَيْرَاتِ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ؛ أَيْ مَرْضِيَةٍ .

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكونُ بوزنِ الصَّغف . ويقال : يخلق بذلك كلُّ جزءٍ من أفعاله
جوهرًا ، وتوزنُ الجواهر ويكون ذلك وزنُ الأعمال .

« وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ • فَأَمَّهُ

هَلْوِيَّةٌ • » .

مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ مِنَ الطَّاعَاتِ — وَهُوَ الْكُفَّارُ — فَأَوَاهِ هَلْوِيَّةٌ .

« وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ؟ • فَارْجِعِي • » .

سؤالٌ على جهة التَّهْوِيلِ ^(١) . وَلَمْ يَرِدْ الظُّهْرُ بِأَنَّ الْأَحْوََالَ تَوَزَّنَ ، وَلَكِنْ يُجَاوِزُ كُلَّ

بِحَالَةٍ مِمَّا هُوَ كَسَبَ لَهُ ، أَوْ وَصَلَ إِلَى أَسْبَابِهَا بِكَسْبٍ مِنْهُ ^(٢) .

(١) هكذا في م وهي في ص (التحويل) وهي خطأ من النسخ .

(٢) بعد أن تحدث عن ميزان الأعمال تحدث عن ميزان الأجزاء .. ومن المعلوم أن الأعمال جهود كسبية ،
والأحوال موصلة فيضية .. ولكن قد يكون فيها شيء من الكسب فضلًا : إذا رضى الله بالقياس أنهم الحق عليه
بالبسط ، وإذا رضى بحدود الوقت ظهر بمقتضيات الوقت وإلا ... كان الوقت عليه مقتضى والإنسان لا يحاسب
إلا على ما كسب .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ عزَّزَ قُدْسَ فِي آيَاتِهِ عَنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَلَمْ يَصْطَحْ فِي آيَاتِهِ إِلَى زَمَانٍ أَوْ إِلَى مَكَانٍ ؛ لَا يَقْطَعُهُ حَدٌّ قَاتِيٌ يَجُوزُ فِي وَصْفِهِ لِلْمَكَانِ ؟ وَلَا يَقْطَعُهُ عَدٌّ قَاتِيٌ يَجُوزُ فِي وَصْفِهِ الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَانَ ؟ ^(١)

قوله جل ذكره : « أَلْهِنَاكُمْ التَّكْوِيْنَ • حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْقُبُورَ » .

أَي : شَفَعْنَاكُمْ تَفَاخُرَكُمْ فِيمَا يَنْتَسِبُ إِلَى آخِرِ أَعْمَالِكُمْ إِلَى أَنْ يَتِمَّ .
وَيَقَال : كَانُوا يَفْتَخِرُونَ بِأَيَّامِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ؛ فَكَانُوا يَشِيدُونَ بِذِكْرِ الْأَحْيَاءِ ، وَبِمَنْ مَضَى مِنْ أَسْلَافِهِمْ .

قَالَ لَهُمْ : شَفَعْنَاكُمْ تَفَاخُرَكُمْ فِيمَا يَنْتَسِبُ حَتَّىٰ عَدَدْتُمْ أَمْوَالَكُمْ مَعَ أَحْيَائِكُمْ . وَأَنْتُمْ تَكَاثُرْتُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ طَاعَةَ اللَّهِ .

« كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

عَلَى جِهَةِ التَّهْوِيلِ .

« كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » .

أَي : لَوْ عَلِمْتُمْ حَقَّ الْيَقِينِ لَارْتَعَبْتُمْ عَمَّا أَتَمَّ فِيهِ مِنَ التَّكْذِيبِ .

(١) وَاضِحٌ عَلَى إِرْتِبَاطِ أَتْمَاءِ التَّكْوِيْنِ فِي إِشَارَةِ الْهَيْسَلَةِ بِالْجَوْرِ أَمَامَ السُّورَةِ الَّتِي يُبْنَى عَلَى اتِّخَاذِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ مَقْيَاسًا لِتَفَاخُرِهِمْ وَالْإِدْمَادِ .

« لَقَدْ كُنَّا لِلْجَنَّةِ ۝ ثُمَّ لَقَدْ نَبَّأْنَا عَيْنَ

الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَقَدْ آتَيْنَا يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ۝» .

أراد جميع ما أعطاهم الله من النعمة ، وطالبهم بالشكر عليها .

ومن النعم التي يُسألُ عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخصُ في العبادات .

ويقال : الماء الحار في الشتاء ، والماء البارد في الصيف .

ويقال : منه الصحةُ في الجسد ، والفراغُ (١) .

ويقال : الرضا بالقبضاء . ويقال : التناعة في الميمنة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم .

(١) في البخاري وفي سنن ابن ماجه : وقتان معلون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ .
ومنى اللتين : أنهما نعمتان ولكن غالب الناس يصرفهما في غير محلها .

سُورَةُ الْعَصْرِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

كَلِمَةٌ مِنْ مَعْنَاهَا لَمْ يَدَّخِرْ عَلَيْهَا ^(١) مَالَهُ ؛ لِأَنَّهُ عَلِيمٌ أَنَّهُ — سَبْعَانَهُ — يُخَيِّنُ مَالَهُ ، وَمَنْ عَرَفَهَا لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا نَفْسَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بِدُونِهَا أَنفُسَهُ .

كَلِمَةٌ مِنْ صَحِيحَةٍ لَمْ يَمْنَعْ عَنْهَا رَوْحَهُ ؛ إِذْ وَجَدَ الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ لَهُ مَمْنُوحَةً . ^(٢)

قوله جل ذكره : « وَالْعَصْرِ » إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِيْ خُسْرٍ »

« العصر » : الظهر — أَقْسَمَ بِهِ

ويقال : أَرَادَ بِهِ صَلَاةَ الْعَصْرِ . وَيُقَالُ : هُوَ السَّيِّئُ .

« الْإِنْسَانُ » : أَرَادَ بِهِ جِنْسَ الْإِنْسَانِ . « وَأَخْلَسَ » : الْخُسْرَانُ .

وَالْمَعْنَى : إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِيَ عِقَابِيَّةً مِنْ ذُنُوبِهِ . ثُمَّ اسْتَفْنَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي الْعِبَادَةِ وَتَوَاصَوْا بِمَا هُوَ حَقٌّ ، وَتَوَاصَوْا بِمَا هُوَ حَسَنٌ وَجَبِيلٌ ،

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ .

وَفِي بَعْضِ التَّفْسِيرِ : قَوْلُهُ : « الَّذِينَ آمَنُوا » يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ، « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » : يَعْنِي عُمَرَ

(١) هَكَذَا فِي مِصْرٍ وَهِيَ فِي مِ (مَعْنَى) .

(٢) هَكَذَا فِي مِ وَهِيَ فِي مِ (مُفْتَرِجَةً) وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ زِيَادَةُ كَلِمَةٍ تَطْرُقُ لِمِ الْأَوَّلِ .

و « وتواصوا بالحق » يعنى عثمان ، و « وتواصوا بالصبر » يعنى علياً — رضى الله عنهم أجمعين .^(١)

وانظر ان الله يلقى بالحق الإنسان على قسمين : فى الأعمال ويتبين ذلك فى المال ، وفى الأحوال ويتبين ذلك فى الوقت والحال ؛ وهو القبطُ بد البسط ، والحجةُ بد القربة ، والرجوعُ إلى الرخصِ بد الإثارة الأشق والأولى .

« وتواصوا بالحق » : وهو الإيثارة مع الخلق ، والصدق مع الحق .

« وتواصوا بالصبر » : على الساقية . . . فلا صبرَ أنتم منه .

ويقال : بالصبر مع الله . . وهو أشدُّ أقسام الصبر^(٢)

(١) تلعب هذه الرواية إلى أبي بن كعب الذى قال : قرأت على رسول الله (ص) « والعصر » ثم قلت : ما تفسير ما يانى « الله ؟ فقال : « والعصر » قَسَمٌ من الله ، أقسم بكم بآخرة النّهار « إن الإنسان لى غسره : أبو جهل .. إلى آخر الرواية كما نقلها القشيري .
(٢) انظر الرسائل باب الصبر ص ٩٢ .

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

قوله جل ذكره: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»

«بِسْمِ اللَّهِ»: اسمٌ مَنْ لا غَرَضَ لَهُ في أَفْئَالِهِ، اسمٌ مَنْ لا عِوَضَ عَنْهُ في جَلَالِهِ وَجِبَالِهِ .
 اسمٌ مَنْ لا يَصِيرُ الْبَدَأُ عَنْهُ غَتَارًا ، اسمٌ مَنْ لا يَجِدُ الْفَقِيرُ^(١) مِنْ دُونِهِ قَرَارًا ، اسمٌ مَنْ
 لا يَجِدُ أَحَدٌ مِنْ حُكْمِهِ فِرَارًا .

قوله جل ذكره: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ» .

يقال: رجلٌ هُمَزَةٌ لُْمَزَةٌ: أى كثيرُ الْهُمَزِ وَاللُّمَزِ للناسِ وهو العيبُ والفتنة .

ويقال: الْهُمَزَةُ الَّتِي يَقُولُ في الْوَجْهِ ، وَاللُّمَزَةُ الَّتِي يَقُولُ مِنْ خَلْفِهِ .

ويقال: الْهُمَزُ الْإِشَارَةُ بِالرَّأْسِ وَالْجَفْنِ وَغَيْرِهِ ، وَاللُّمَزُ بِاللِّسَانِ .

ويقال: الْهُمَزَةُ الَّتِي يَقُولُ مَا في الْإِنْسَانِ ، وَاللُّمَزَةُ الَّتِي يَقُولُ مَا لَيْسَ فِيهِ .

قوله جل ذكره: «الَّتِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَهُ» .

«جَمَعَ» بِاللِّتَشْدِيدِ^(٢) عَلَى التَّكْثِيرِ ، وَبِالتَّخْفِيفِ .

«يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» .

أى: يَتَّقِيهِ في الدُّنْيَا . كَلَّا لَيْسَ كَذَلِكَ :

(١) الْفَقِيرُ هُنَا الْمَقْصُودُ بِهِ الصَّوْفِيُّ الْمُفْتَخِرُ إِلَى اللَّهِ ، انْظُرْ آخِرَ السُّورَةِ .

(٢) كَذَلِكَ في مَوْحِيٍّ مِنْ غَيْرِ مَوْجُودَةٍ ، مَا لَمْ يَشْرَحْ بِاحْتِمَالِ انْصِرَافِ الْكَلَامِ إِلَى دَمْدَمَةٍ فِيهِ أَيْضًا
 نَفَرًا عَلَى التَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ .

« كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَّةِ » وما أدراك

ما الحُطَّةُ ؟ نارُ الله الموقدة التي

تَطَّلَعُ عَلَى الْأَعْدَةِ .

لِيُطْرَحَنَ فِي جَهَنَّمَ . « وما أدراك ما الحُطَّةُ » ؟ على جهة التهويل لها .

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ أُنْهَا النَّوَادِ .

« إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ .

مُطَبَّقَةٌ .

« فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ » :

« عَمَدٌ » : جمع عماد . وقيل : إنها عُمَدٌ مِنْ نَارٍ مُدَدَّةٌ وَتَضْرَبُ عَلَيْهِمْ ؛ كقوله :

« وَأَحَاطَ بِهِمْ سَرَادِقُهُ » ^(١)

ويقال : النَّارُ بِغَيْرِ أَقْدَرٍ ، وَالْأَنْسُ بِغَيْرِهِ وَخَشَّةٌ ، وَالْمَرْئُ بِغَيْرِهِ ذُلٌّ .

ويقال : الْفَقِيرُ مَنْ اسْتَغْنَى بِعَالِهِ ، وَالْخَقِيرُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِعَالِيهِ ، وَالْفُلَيْسُ : مَنْ اسْتَغْنَى

بِطَاعَتِهِ ، وَالذَّلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالْجَلِيلُ : مَنْ اسْتَغْنَى بِاللَّهِ .

ويقال : يَبَيِّنُ أَنْ الْمَعْرِفَةَ إِذَا اتَّقَدَتْ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ أَحْرَقَتْ كُلَّ سُؤْلِ وَأَرْبٍ فِيهِ ، وَقَلْبُكَ

تَقُولُ جَهَنَّمُ — غُلًّا — لِلْمُؤْمِنِ : « جَزْءٌ ، يَأْمُومُن . . فَإِنْ تَوَرَّكَ قَدْ أَطْفَأَ لَهْبِي » ١

(١) آية ٢٩ سورة الكهف .

سُورَةُ الْفِيلِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ غَنِيٌّ مَنْ أَطْلَعَهُ أَغْنَاهُ ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَضَلَّهُ وَأَعْمَاهُ .

اسمٌ عَزِيزٌ مَنْ وَاقَفَهُ رَفَّاهُ إِلَى الرِّبَةِ الْعَالِيَا ، وَمَنْ خَالَفَهُ أَقْنَاهُ فِي الْحَنَةِ الْكُبْرَى .

قوله جل ذكره : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَعَلَّ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ

الْفِيلِ » ؟ .

أَلَمْ يَنْفَعِ إِلَيْكَ فَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ عِلْمٌ مَا قَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ؟ .

وفى قصة أصحاب الفيل دلائل على تخصيص الله البيتَ المتيقِّ بالْحِفْظِ وَالْكِلاَةِ .

وذلك : أَنَّ أِبْرَهَةَ — مَلِكَ الْهِنِ — كَانَ نَصْرَانِيًّا ، وَبَنَى بَيْعَةً لَمْ يَسْتَعْمِ ، وَأَرَادَ هَدْمَ

الْكُتَيْبَةِ لِيَصْرِفَ الْحَجَّ إِلَى بَيْعَتِهِمْ .

وقيل : نَزَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ بِيَلَادِ النَّجَاشِيِّ ، وَأَوْقَدُوا نَارًا لِحَاجَةِ لَمْ ، ثُمَّ تَنَاقَلُوا

عَنْهَا وَلَمْ يُطْفِئُوهَا ، فَهَبَّتِ الرِّيحُ وَحَمَلَتِ النَّارَ إِلَى الْكُنَيْسَةِ وَأَحْرَقَتْهَا ، فَقَصَّدَ أِبْرَهَةُ

الْكُتَيْبَةَ لِيَهْدِمَهَا بِحَيْثُ .

فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْ مَكَّةَ أَصَابَ مَائِقَى جَلْجَلٍ لِمَبْدِ الْطَلَبِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَكِبَ إِلَيْهِمْ ،

فَفَرَّقَهُ رَجُلَانِ ، قَالَ لَهُ :

ارْجِعْ . . فَإِنَّ إِلَيْكَ غَضَبَانِ .

قَالَ : وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَا أَرْجِعُ إِلَّا إِلَى .
 قِيلَ لأبرهة : هَذَا سَيِّدُ قُرَيْشٍ بِيَاكِ ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَسَأَلَهُ عَنْ حُلَجِهِ ؛
 فَأَجَابَ أْبْرَهَةَ : إِنَّهَا لَكَ غَنَاءٌ ، إِنَّا خَدَمْتُ إِلَى الْبَيْتِ (١) .
 فعاد عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحَقَّةِ بَابِ الْكَعْبَةِ وهو يقول :

لَا هُمْ إِنْ التَّبَدَّ يَمْسَعُ رَحْلَهُ فَلْيَنْعُ حِلَالَكِ
 لَا يَنْفِلِبْنَ عَلَيْهِمْ وَمَحَالَهُمْ عَذْوًا يَحَالِكِ
 إِنْ يَدْخُلُوا الْبِلَدَ الْحَرَامَ فَأَمْرٌ مَا يَشَالِكُ (٢)

فأرسل الله عليهم طيراً أخضر (٣) من جهة البحر طوال الأعناق ، في منقار كل طائر حَبْرٌ وفي عنقه حجران .

قِيلَ : الْحَبْرَةُ مِنْهَا فُوقُ الْمَلَسِ دُونَ الْحِمَى .
 وقِيلَ : فُوقُ الْحِمَى دُونَ الْفَسْتَقِ ، مَكْتُوبٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ اسْمُ صَاحِبِهَا .
 وقِيلَ : مُحْطَطَةٌ بِالسَّوَادِ . فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ ، وَمَاتُوا كُلُّهُمْ .
 وقِيلَ : كَانَ الْقَيْلُ ثَمَانِيَةً ؛ وقِيلَ : كَانَ فَيْلًا وَاحِدًا .
 وفي رواية : إِنَّهُ كَانَ قَبْلَ مَوْلَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً .
 وقِيلَ : بِثَلَاثَةِ وَعَشْرِينَ سَنَةً . وفي رواية « وَلِدْتُ عَامَ الْقَيْلِ (٤) » .
 قوله جل ذكره : « أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » ؟
 أَى : مَكْرَهُمْ فِي إِطْغَالِ .

(١) قِيلَ : إِنْ التَّجَاشَى قَالَ لَهُ : لَقَدْ أَصْغَبَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ ، وَلَكِنِّي زَهَدْتُ فَبِكَ حِينَ كَلِمَتِي .. أَتَكَلَّمُ فِي مَازِيٍّ بِمِثْلِهَا وَتَتَرَكُ بَيْتًا هُوَ دُونَكَ وَدِينُ آبَائِكَ تَدَّ جِثَّتُ هَلْهُم ؟ فَقَالَ لَهُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ : أَنَا رَبُّ الْإِسْلَامِ .. أَمَا الْبَيْتُ فَلَهُ رَبٌّ مِثْلُهُ .

(٢) الْحِلَالُ جَمْعُ حِيلٍ . وَالْمَحَالُ : الْقُوَّةُ . وَالْعَدُوُّ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ : الْإِصْهَاءُ .

(٣) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ : هِيَ طَيْرٌ خَضِرَةٌ لَهَا مَنَاقِبُ صُغُرٌ .

(٤) وفي رواية : « وَلِدْتُ يَوْمَ الْقَيْلِ » . وَقَالَ قَيْسُ بْنُ عُرْمَةَ : « وَلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ (ص) عَامَ الْقَيْلِ » .

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِم طَيْرًا أَبَابِيلَ » .

« أَبَابِيلَ » : مجتمعة ومتفرقة .

« ترميهم بحجارة من سجيل » .

قيل بالفارسية : سنگل أو سكل — أى طين طينج بالنار كالآجر^(١) .

« فَجَعَلَهُمْ كَصَفِيفٍ مَأْكُولٍ » .

« كَصَفِيفٍ » : كأطراف الزرع قبل أن يدرك . « مَأْكُولٍ » أى ثمره مأكول .

ويقال : إذا كان عبد المطلب — وهو كافر — أخلص في التجائه إلى الله في استدفاع الهلاك عن البيت — فإِنَّهُ لَمْ يُحَيِّبْ رَجَاءَهُ . . . وَتَمَجَّ دُعَاؤُهُ . . . فَالْمُؤْمِنُ الْخَلِصُ إِذَا دَعَا رَبَّهُ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا .

ويقال : إنما أُجِيبَ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ لِنَفْسِهِ ، وإنما لأَجْلِ الْبَيْتِ . . وما كان لله لا يضيع .

(١) أعرج الترياي من مجاهد قال : سجيل بالفارسية أو ما حجارة وآخرها طين . (نقله السيوطي في إفتانه ١٥ ص ١٣٨ في باب ما وقع في القرآن بغير لغة العرب .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم»: الباء في «بسم» تشير إلى براءة سرِّ الموحِّدين عن حسابان الحِذَّانِ ، وعن كلِّ شيءٍ مما لم يكن فِكان ، وتشير إلى الإِقطاع إلى الله في السَّراءِ والفرَّاءِ ، والشَّدَّةِ والرخاءِ .

والسين تشير إلى سكوتهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى مِنَّةِ الله عليهم بالتوفيق ^(١) لِمَا نَحَقُّوا به من معرفته ، وتخلَّقوا به مِن طاعته ^(٢) .

قوله جل ذكره: «إِلِيلَافٍ قُرَيْشٍ • إِلِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ» .

«الإِيلَافِ»: مصدر آلفَ ، إِذَا جَمَلْتَهُ يَأْلَفُ . . وهو أَيْلَافٌ ^(٣) .

والمعنى: جلهم كصنْفٍ مَّا كَوَلِ لِلِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ، أَيْ لِيَأْتُوا رِحْلَتَهُم فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .

وكانت لهم رحلتان للاختيار ^(٤): رحلةٌ إلى الشام في القَيْظِ ، ورحلةٌ إلى اليمن في الشِّتَاءِ .

(١) هكذا في ص، وهي في م (بالتحقيق) . .

(٢) يستطیع القاری أن یربط بین حقوِّة البسلة كما یتقوُّها التَّشْبِیْرُ هنا وین الجو العام لسورة .

(٣) عند هذه النقطة تنتهی النسخة (ص) وننشد: لَیْلًا یَقُ من الکتاب علی النسخة م .

(٤) الاختیار طلب البعیدة وجسمُها .

والمنى : أتم الله عليهم بإهلاك عدوهم ليؤثفهم رحلتهم .
 وقيل : فليبدوا رب هذا البيت لإبلاف قريش ، كأنه أعظم البينة عليهم . وأمرهم
 بالبادة :

« فليبدوا رب هذا البيت • الذى
 أطعمهم من جوع » .

فليبدوه لئلا أتم به عليهم .
 وقيل : فليبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع بعد ما أصابهم من التصح
 مبنا دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١) .
 « وآمهم من خوف » .

حين جل الحرم آمنا ، وأجازهم من عدوهم .
 ويقال : أتم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلب الناس الميرة إليهم من الشام ومن اليمن .
 ووجه البينة فى الإطعام والأمان هو أن يفرغوا إلى عبادة الله ؛ لأن من لم يكن مكثي
 الأمور لا يفرغ إلى الطاعة ، ولا تساعد القوة ولا القلب — إلا عند السلامة بكل وجه .
 وقد قال تعالى .

« ولنبونكم بشئ من الخوف والجوع ^(٢) » قدّم الخوف على جميع أنواع البلاء .

(١) دعا عليهم الرسول (ص) لما كذبوه وقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف » فافند
 التصح ، فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون ، فدعا فأعصبت الأرض ، وحملوا الطعام إلى سائر البلدان .
 (٢) آية ١٥٥ سورة البقرة .

سُورَةُ الدِّينِ (١)

قوله جل ذكره: «بسم الله الرحمن الرحيم» .

«بسم الله» كلمةٌ سَمَّاعُهَا غِذَاءُ أَرْوَاحِ الْحَيِّينَ ، ضَيْلُهُ أَسْرَارُ الْوَاجِدِينَ ، شِفَاؤُ قُلُوبِ الْمُتَّقِينَ ؛ بِلَاؤُ مُهْجِ الْمَاكِينِ ، دَوَاءُ كُلِّ قَبِيرٍ مُسْكِنٍ (٢) .

قوله جل ذكره: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ» .

نَزَلَتْ الْآيَةُ عَلَى جِهَةِ التَّوْبِيخِ ، وَالتَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِ تَطْلُمِ الْيَتِيمِ مِنَ الْكَفَّارِ .

قَالَ : أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ، وَبِالْحَسَابِ وَالْجَزَاءِ ؟

«فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ» .

يَدْفَعُهُ بِمَغْفَرَةٍ ، وَقَالَ : يَدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ (٣) .

«وَلَا يَحْصُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ» .

أَيُّ : لَا يَحْتِثُ عَلَى إِطْعَامِ الْمَسْكِينِ ، وَإِنَّمَا يَدْعُ الْيَتِيمَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَزَعَ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِهِ ، وَلَا نَزَعَ الرَّحْمَةَ إِلَّا مَنْ قَلْبٍ شَقِيٌّ .

وَهُوَ لَا يَحْتَثُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ، لِأَنَّهُ فِي شُعْبِ نَفْسِهِ وَأَمْرٍ بِخُلَّةٍ .

قوله جل ذكره: «قَوْلِ السَّالِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ • الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ»

(١) يقول السيوطي في إتيانته : تسمى سورة أَرَأَيْتَ ، وسورة الدِّينِ ، وسورة للاهوت (الإِفْقَان - ص ٥٥) .

(٢) مرة أخرى نلفت النظر إلى ما بين إشارات السلسلة والجو العام للسورة .

(٣) قال ابن جرير : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينهر في كل أسبوعٍ جَزُورًا فطَلَبَ منه يَتِيمًا ، فقَرَّمَهُ بِصَاحٍ .

السَّامِعِ مِنَ الصِّدْقِ الَّذِي لَا يُصَلِّي . وَلَمْ يَقُلْ : الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . . . وَلَوْ قَالَ ذَلِكَ لَكَانَ الْأَمْرُ عَظِيمًا .

« الَّذِينَ هُمْ يُرَادُونَ » : أَيْ يَصَلُّونَ وَيُفْعَلُونَ ذَلِكَ عَلَى رُؤْيَا النَّاسِ — لَا لِإِخْلَاصٍ لَهُمْ
« وَيَعْتَمُونَ الْمَاعُونَ » .

الماعون . مثل الماء ، والنار ، والكلاء ، والنفاس ، والتدبر وغير ذلك من آله البيت ،
ويدخل في هذا : البخل ، والشح بما ينفع الخلق عما هو ممكنٌ ومُستطاع .

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » اسمٌ يُجْلَى العبدُ بإجلاله ولا يحل هو إلا باستحقاقِ عُلُوِّهِ في آزالهِ .
اسمٌ عَزِيزٌ عَزَّ مَنْ شَاءَ بِأَفْضَالِهِ وإِقْبَالِهِ ؛ وَأَذَلَّ أَعْدَاءَهُ بِسُلْطَانِهِ وَأَغْلَاهُ ، والتَّخْلِيدُ في جُحِيمِهِ وَأَنْكَالِهِ .

قوله جل ذكره : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » .

« الْكَوْثَرُ » : أى الخير الكثير . ويقال : هو نَهْرٌ في الجنة .

ويقال : النبوةُ والكتابُ . وقيل : تحفيفُ الشريعة .

ويقال : كثرةُ أُمَّتِهِ .

ويقال : الأصحابُ والأشباع . ويقال : نورٌ في قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

« فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » .

أى صَلَّ صَلَاةَ الْعِيدِ « وَانْحَرْ » التَّسَكُّعُ^(١)

ويقال : جمع له في الأمر بين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال « وَانْحَرْ » أى استقبل القِبْلَةَ بتحريك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى تحرك^(٢)

(١) في البخارى وغيره : قال رسول الله (ص) وأول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلِّي ، ثم نرجع فنحرق ، مَنْ فَسَلَ ففقه أصاب تَمَكَّنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ نَائِمَا هُوَ لَمْ يَدْرِكْ قَدَمَهُ لِأَخِي ، ليس من التَّسَكُّعِ في شيء ، لأن ترتيب الآية : صلاة ثم انحر . وقال أنس : كان النبي (ص) ينحرف ثم يصل حتى تزلت .
(٢) عن علي رضي الله عنه : لما نزلت الآية سأل النبي جبريل : ما هذه التجارة التي أمرني الله بها ؟ قال : ليست بتجارة ولكن بك ما ترك إذا تحركت الصلاة أن ترفع يديك إذا كثرت .. فزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبير .

وقال : ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى بَاسِرِكَ فِي الصَّلَاةِ وَاجْعَلْهَا تَحْتَ شِمْرِكَ .
 « إِنَّ شَأْنَيْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » .
 أَيْ : لَا يُدْرِكُ كَرْمُ بَجْوَرٍ ، مُنْقَطِعٌ عَنْهُ كُلُّ خَيْرٍ . (١)

(١) قيل : هُوَ الْمَاصِ ، وقيل : هُوَ أَبُو جَهْلٍ ، وقيل : هُوَ عَقِبَةُ بْنِ أَبِي مُصَيْبٍ . وَالْأَبْتَرُ مِنَ الرِّجَالِ : مَنْ لَا وَكْرَ لَهُ ، أَوْ سَأَتْ أَعْيُنُهُ وَيَقْبِضُ بَنَاتَهُ .

سُورَةُ الْكَافِرُونَ^(١)

قوله جل ذكره « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمةٌ مَنْ آمَنَ بِهَا آمِنَ مِنْ زَوَالِ النُّعْمَى ، وَخَطِيئَةِ بِنَعَمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
وَسَعَادَةِ سَعَادَةِ لَا يَنْفِي ، وَوَجَدَ مُلْكًا لَا يَنْفِي ، وَبَقِيَ فِي الْعَرْشِ وَالْعُلَى .

قوله جل ذكره : « كُلُّ يَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ » • لَا أُعْبَدُ

مَا تَعْبُدُونَ •

من أصنامكم .

« وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبَدُ » •

« مَا » أُعْبَدُ أَى « مَنْ » أُعْبَد .

« وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا يُعْبَدُهُمْ » •

في زمانكم .

« وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبَدُ » •

كُرِّرَ الْإِنْفِظُ عَلَى جِهَةِ التَّأْكِيدِ •

« لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » •

أَى : لَكُمْ جِزَاؤُكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، وَلِيَ الْجِزَاءُ عَلَى دِينِي •

(١) من أساليبها : سورة العبادة ، وللفسحة .

والمبودية^(١) التمسأ بأمره على الوجه الذى به أمر ، وبالقدر الذى به أمر ، وفى الوقت الذى فيه أمر .

ويقال : مبدقُ المبودية فى تركِّ الاختيار ، ويظهر ذلك فى السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار .

ويقال : المبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صرَّكَ مولاك

(١) واصلح أن إشارة التشيرى تستند إلى «المبودية» بينا الآيات تتحدث عن «المادة» ولكن الصلة وثيقة بين كليهما وبين «المبودية» : أراجع فى ذلك إلى رسالة التشيرى ص ٩٩ .

سُورَةُ النَّصْرِ

قوله جل ذكره : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

« بسم الله » : اسمُ كَرِيمٍ يُبَيِّرُ وَيَسِّرُ ، وَيَهْلِكُ وَيَحْلُمُ ^(١) ، وَيُدْحِجُ وَلَا يَفْضَحُ ،
ويسفو عن جميع ما يجترم العبدُ ويصنع ؛ يَمُصُّ العبدُ على التوالى ، وَيَفْتَرُ الحَقُّ وَلَا يُبَالَى .
قوله جل ذكره : « إنا جاء نصرُ اللهِ والفتحُ » .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوِّ ، و « الفتح » فتح مكة .

« ورأيت الناسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا » .

يُسْلِمُونَ جِوَاغَاتٍ جَمَاعَاتٍ .

« فَسَمِعَ مُحَمَّدٌ رَّبُّكَ وَابْتَغَاهُ » .

أَكْثَرُ تَحْمَدٍ رَّبُّكَ ، وَصَلَّ لَهُ ، وَقَدَّسَهُ .

ويقال : صَلَّ شُكْرًا لِهَذِهِ النِّصَةِ .

« واستغفره » و« صَلَّ مغفرته » .

« إِنَّهُ كَانَ نَوَّابًا » .

لَمَنْ تَلَبَّ ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ .

ويقال : نصره الله — سبحانه — لِهَذَا بَأْنِ أَفْوَاجِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَبْدَعَهُ أَحْكَامَ الْبَشَرِيَّةِ ،
وصَفَّاهُ مِنَ السَّكَدُورَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ . وَأَمَّا « الفتح » : فهو أَنْ رَفَّاهُ إِلَى مَحَلِّ الدِّنْوِ ، وَاسْتَخْلَصَهُ
بِخِصَائِنِ الزُّلْفَةِ ، وَأَلْبَسَهُ لِبَاسَ الْجَمْعِ . وَاصْطَلَمَهُ عَنْهُ ، وَكَانَ لَهُ عَنْهُ ، وَلَنَفْسِهِ — سبحانه —
منه ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ مَا كَانَ مُسْتَوْرًا مِنْ قَبْلُ مِنْ أَسْرَارِ الْحَقِّ ، وَعَرَّفَهُ — مِنْ كَالِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ —
مَا كَانَ جَمِيعُ أَتْلَافِيٍّ مُتَطَلِّشًا إِلَيْهِ ^(٢) .

(١) في من (يحكم) ولكننا آثرنا أن تكون (يَحْلُمُ) مرجعين أن ذلك أقرب إل الأصل ؛ لأن الحِلْمَ
هنا أقرب إل السياق .

(٢) تعبر هذه اللفظة تعبيراً صادقاً عن مدى نظرة الصوفية إل المصطفى عل أنه «الصوفى الأول» .

سُورَةُ ابْنِ هَلَبَ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة جِبَارَةٌ للذنين ، تَجْبِرُ أَعْمَالَهُمْ ، وَتَحَقِّقُ آمَالَهُمْ ، وَهِيَ لِلْمَارِفِينَ تُصَغِّرُ فِي أَعْيُنِهِمْ أَحْوَالَهُمْ ، وَتُكْثِّلُ — عَنْ شَوَاهِدِهِمْ — امْتِنَاعَهُمْ^(١) وَاسْتِصْصَالَهُمْ ، وَتَحَقِّقُ لَهُمْ — بِمَدْفَنَاتِهِمْ عَنْهُمْ — وَصَالَهُمْ .

قوله جل ذكره : « تَبَّتْ يُنَا ابْنِ هَلَبٍ وَتَبَّ » .

أَي : خَصِرَتْ يَدَاهُ .

« مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » .

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَلَا كَسَبُهُ الْغَيْثُ — شَيْئًا .

وَقِيلَ : « مَا كَسَبَ » : وَلَئِذَا^(٢) .

قوله جل ذكره : « سَيَعْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ » وَأَمْرُهُ

سَحَابَةٌ^(٣) الْحَطْبِ » .

يَلْزِمُهَا إِذَا دَخَلَهَا ؛ فَلَا بَرِاحَ لَهَا مِنْهَا . وَأَمْرُهُ أَيْضًا سَتَعْلَى النَّارَ مَعَهُ .

« فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسْكٍ » .

(١) فِي مَن (امْتِنَاعِهِمْ) وَالصَّوَابُ أَنْ تَكُونَ (امْتِنَاعُهُمْ) أَيْ حُصُولُ الْوَلَدِ لَهُمْ .

(٢) حِينَ قَالَ أَبُو هَلَبٍ : « إِنْ كَانَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ أَبِي سَعْدٍ يُؤَيِّنُ أَفْقَى نَفْسِي بِمَا لِي وَوَلَدِي » نَزَلَ : « مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » .

(٣) وَعَلَى الرَّفْعِ قِرَاءَةُ نَاقِعٍ . وَقَرَأَ حَامِدٌ بِالنَّصْبِ عَلَى اللَّحْمِ كَأَنَّهَا اشْتَعَرَتْ بِهَذَا — كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلَمَّا نَبَا بِهَا تُخْفُوا » آيَةُ ٦١ سُورَةِ الْأَنْزِلَابِ .

« مَسَدٌ » شيءٌ مفتولٌ ، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ويقال : سُحِقَ لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قُدْرَتَكَ - يَأْعُدُ . وَيُؤَدِّدُ لِمَنْ لَمْ يَشْهَدْ مَا خَصَمْنَاكَ بِهِ مِنْ رَفْعِ عَطْلِكَ ، وَإِكْبَارِ شَأْنِكَ ... وَمَنْ نَاصَبَكَ كَيْفَ يَنْفَعُهُ مَالُهُ ؟ وَالَّذِي أَفْنَيْنَاهُ لِأَجْلِكَ وَقَدْ (أَسَاءَ) ^(١) أَعْمَالَهُ .. فَإِنَّ إِلَى الْهَوَانِ وَالْجِزْيِ مَا لَهُ ، وَإِنَّ عَلَى أَفْجَحِ حَالٍ حَالِ أَمْرَانِهِ وَحَالَهُ .

(١) ما بين القوسين من معتلنا نهر في الكسفة م مشبهة .

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« بِسْمِ اللَّهِ » كلمة عزيزة عز لسان ذكرها ، وأعز منه قلب عرفها ، وأعز من هذا روح أحبها ، وأعز من هذا مير شهدها .

ليس كل من قصدها وجدّها ، ولا كل من وجدّها بقي معها .

قوله جل ذكره : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

لما قال المشركون : أنسب لنا ربك . أنزل الله تعالى : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » ^(١) ففنى « هو » أى : الذى سألتهم عنه « هو » الله . ومعنى « أحد » أى : هو أحد .

ويقال : « هو » مبتدأ ، « والله » خبره و « أحد » خبر ثان كقولهم :

هذا حلوة حامض .

« اللَّهُ الصَّمَدُ » .

« الصمد » : السيد الذى يصمد إليه فى الحوائج ، ويقصد إليه فى المطالب . ويقال : الكامل فى استحقاق صفات المدح .

ويرجع تحقيق قول من قال : إنه الذى لا جوف له إلى أنه واحد لا (...) ^(٢) فى ذاته .

(١) روى الترمذى ذلك عن أبى العالية . وقيل : الآية جواب لسؤال المشركين : صف لنا ربك ..
امن ذهب هو أم من نفس أم من صفة ؟
(٢) مشبهة .

« لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ » .

ليس بوالد ولا مولود.

« ولم يكن له كفواً أحد » .

تقديره . لم يكن أحدٌ كفواً له .

«أُحِدَ» أصله «وَحَدٌ»، و«وَحَدٌ»، واحد بمعنى، وكونه واحداً: أنه لا قسم له ولا شبيه له ولا شرك له.

وقال: السورة بمضما تفسير لبعض؛ مَنْ هو الله؟ هو الله. مَنْ الله؟ الأحد، مَنْ الأحد؟ الصمد، مَنْ الصمد؟ الذي لم يلد ولم يولد، مَنْ الذي لم يلد ولم يولد؟ الذي لم يكن له كفواً أحد.

و يقال : كَشَفَ الأسرارَ بقوله : « هو » . وكَشَفَ الأرواحَ بقوله : « الله » وكَشَفَ التَّلَوِّبَ بقوله : « أحد » . وكَشَفَ قُوسَ الْمُؤْمِنِينَ بَيِّنَاتِ السُّورَةِ .

ويقال : كَاشَفَ الرَّاهِمِينَ بقوله : « هو » ، والمُوحِدِينَ بقوله : « الله » والْمَارِفِينَ بقوله : « أحد » والمَلْمَأَ بقوله : « الصمد » ، والمَقْلَأَ بقوله : « لم يلد ولم يولد ... إلى آخره .

وقال: لَبَّابُوا لَنَا الدِّمَ فِي اللَّهِ أَمْ نَبِينًا بَأْنْ يَزِدُّ عَلَيْهِمْ قَتْلَ: « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ: أَى دُبِّ عَنِ مَا قَالُوا، فَأَتَى أَوَّلَى بَذَكَ. وَحِينَا بَطُوا لَنَا الدِّمَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَلَّى الْحَقُّ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ، قَال: « ن. وَالتَّمَّ وَمَا يَطْرُونَ. مَا أَنْتَ بِنَمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ. وَقَالَ: «وَالنَّجْمَ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكَ وَمَا عَوَى» أَى أَنَا أَذْبُ عَنْكَ؟ فَأَنَا أَوَّلَى بِذَلِكَ مِنْكَ.

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الغلوص بقوله : « هو » فاستلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : « الله » ، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم .

قَالَ : « أَحَدٌ » ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْهُمْ فَقَالَ : « الصَّامِدُ » .

ويقال : الصمدُ الذي ليس عند الخلق منه إلا الاسم والصفة

ويقال : الصدّ الذي تَدَسُّسُ عن إحاطةِ عِلْمِ الخلقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهِمْ له ، وعن إشرافِ معارفِهِمْ عليه .

ويقال : تَدَسُّسٌ بِصِدْقِهِ عن وقوفِ المعارفِ عليه .

ويقال : تَنَزَّهٌ عن وقوفِ القولِ عليه .

سُورَةُ الْفَلَقِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .

« بِسْمِ اللَّهِ » : اسمٌ عزيزٌ إذا تجلَّى قَلْبُ ظَنٍّ لَاحِقُهُ بِحَالِهِ أَحْيَا ، وَإِنْ كَاشَفَهُ بِحَالِهِ أَبَادَهُ وَأَفْنَاهُ ؛ فَالْبَدُ فِي حَالَتِي : بَقَاءٌ وَفَنَاءٌ ، وَمَحْيٍ وَإِثْبَاتٌ ، وَجَبَرٌ وَقَدَرٌ .

قوله جل ذكره : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » .

أَيُّ أَمْتَنَ وَأَعْتَصَمَ بِرَبِّ الْفَلَقِ . وَالْفَلَقُ الصَّبْحُ .

وَيَقَالُ : هُوَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ^(١) . وَقِيلَ الْفَلَقُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ^(٢) .

« مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ » .

أَيُّ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهَا .

« وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ » .

قِيلَ : اللَّيْلُ إِذَا دَخَلَ . وَفِي خَيْرٍ . أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ يَدَ عَائِشَةَ وَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ فَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، تَعُوذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فَإِنَّهُ الْفَلَسُ إِذَا وَقَبَ ^(٣) » .

« وَمِنْ شَرِّ الْفَأْطَاتِ فِي الْعُقَدِ » .

وَمِنْ السَّوَابِحِ الْوَلَوَاتِ يَنْضَعْنَ فِي عُقَدِ الْغَيْطِ (عِنْدَ الرِّقْمَةِ) وَيَوْمَنْ إِدْخَالَ الضَّرَرِ يَنْفُكُ .

(١) أَيُّ هُوَ كُلُّ مَا انْفَلَقَ مِنْ حَيَوَانٍ وَصَحْبٍ وَنَوْبٍ وَحَسَبٍ وَلِيَّاتٍ وَغَيْرِهِ ..

(٢) تَأَخَّرَ وَضِعَ هَذِهِ الْقِيَارَةُ قَلِيلًا نَائِبَتُهُ فِي مَوْضِعِهِ .

(٣) رَوَاهُ الْقُرْمَنِيُّ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو : هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ .

« ومن شرِّ حاسدٍ إذا حسَدَ » .

والحَسَدُ شَرُّ الأخلاق .

وفي السورة تعلیمُ استدفاع الشرود من الله . ومن صَحَّ توكلُّه على الله فهو الذي صحَّ
نمقته بالله ، فلذا توكلَّ لم يُوقَّه الله للتوكلِّ إلا والمعلوم من حاله أنه يكتفي ما توكلَّ به
عليه ؛ وإنَّ البعدَ به حاجةً إلى دفعِ البلاء عنه — فلن أخذَ في التحرُّز من (١) تديره
، حَوْلَه وقُوَّتَه ، وفهمه وصيرته في كلِّ وقت استراح من تعب تردُّ القلب في التدبير ،
وعن قريب يرقى إلى حالة الرضا . كُنِيَ مرَّاده أم لا . وعند ذلك الملك الأعظم ، فهو
بظاهره لا يفتقر عن الاستعانة ، وقلبه لا يخلو من التسليم والرضا . (٢)

(١) بعد (من) كلمة متبسة في الرسم أقرب ما تكون إلى (جيلة) .

(٢) معنى هذا أن تمام التوكلِّ على الله أعظم مانع إليه من أن يكلم به بكونه نتيجة سحر أو سحر ونحوها .
فلن يصيب إليه إلا ما كتبه الله له .

سُورَةُ النَّاسِ

قوله جل ذكره : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

بِسْمِ اللَّهِ الَّتِي قَصَرَتْ عَنْهُ الْقَوْلُ فَوَقَّتْ ، وَعَجَزَتِ الْمَوْلُومُ فَخَبِرَتْ ، وَقَامَرَ
الْمُطَوِّفُ فَخَبِرَتْ ، وَاعْطَلَتْ الْقَهْومُ فَدَعَتْ .. وَهُوَ بِنَمَتِ عِلَالِهِ وَوَصَفِ سَنَائِهِ وَبِهَائِهِ وَوِ
كِبَرِيَّاتِهِ يُعَلِّمُ وَلَكِنَّ الْإِحَامَةَ فِي الْمَلِكِ بِهِ مُحَالٌ ، وَيُرَى وَلَكِنَّ الْإِدْرَاكَ فِي وَصْفِهِ مُسْتَحِيلٌ
وَيُعْرَفُ وَلَكِنَّ الْإِشْرَافَ فِي نَفْسِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ .^(١)

قوله جل ذكره : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

أَعْتَصِمَ بِرَبِّ النَّاسِ خَالِقِهِمْ وَسَيِّدِهِمْ .

« مَلِكِ النَّاسِ » .

أَي مَالِكِهِمْ جَمِيعِهِمْ .

« إِلَهِ النَّاسِ » .

الْقَادِرِ عَلَى إِجْبَادِهِمْ .

« مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفِيِّ » .

مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ بِمَا هُوَ كَالصَّوْتِ الْخَفِيِّ .

وَيَقَالُ : مِنْ شَرِّ ذِي الْوَسْوَاسِ .

وَيَقَالُ : مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسَةِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ .

(١) فقد جعلت الصمدية أن يستعترف فيها عالم بملكه أو واهمه بوجهه ، أو مآربه بمعرفته .. وكل ما هناك
هو شهود (العلم) الإلهي لا (الذات) الإلهية .

« والخنافس » الذين يغيب ويختص عن ذكر الله . وهو من أوصاف الشيطان .

« الذى يؤسوس فى صدور الناس »

من الجنة والناس .

قيل : « الناس » يقع لفظها على الجن والإنس جميعاً — كما قال تعالى :

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن »^(١) فسأهم نفراً ، وكما قال :

« يؤذون رجال من الجن »^(٢) فسأهم رجالاً . فعلى هذا استماد من الشيطان الذى

يوسوس فى صدور الناس ، والشيطان الذى له تسلط على الناس كالوسواس ؛ فلنفس من

يُقبل العبد هواجس ، وهواجس النفس ووساوس الشيطان يتقاربان ؛ إذ أن ما يدعو إلى

متابعة الشهوة أو الضلالة فى الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى التوصل للزمنية — فهو

نتيجة الوسواس والهواجس .

وبالمثل يميز^(٣) بين الإلهام وبين الخواطر الصحيحة وبين الوسواس^(٤) .

(ومما تجب معرفته)^(٥) أن الشيطان إذا دعا إلى محذور فإن خالفته بدع ذلك (ثم)

يدعوك إلى معصية أخرى ؛ إذ لا غرض له إلا الإقامة على دعائكم (. . .)^(٦) غير مختلفة .

(١) آية ٢٩ سورة الأحقاف .

(٢) آية ٦ سورة الجن .

(٣) فى القص كلمة منبهة اشترنا (يميز) طبقاً لرأى القشيري كما سيتضح من الماخذ التالية .

(٤) « الماخذ عتاب يورد على الضمائر ؛ وقد يكون يلتزم للشيطان وقد يكون من أحداث النفس أو من قبله الخلق ؛ فإذا كان من السلك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قبل الله — سبحانه — وإلقائه فى القلب فهو غلط حق . . . وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم . . . » رساله القشيري ص ٤٦ و ٤٧ .

(٥) هذه إضافة من جانبنا ليؤكد السياق ويتضح .

(٦) مستهبة .

خاتمة الكتاب

بونه نعالى انتهى تحقيق كتاب « لطائف الإشارات » للإمام التشيرى فى مؤلفه رجب من عام ١٣٩٠ هـ وقد استغرق هذا العمل نحو خمس سنوات كوامل ، قطعنا فيها رحلة أضنت الجسم والبصر والفكر ، ولكنها أمتعت القلب ، وأيقظت الروح ، وأنشت السمع .

ولست أحب — متأثراً بالصوفية — أن أحدث القارئ عن مقدار ما فقت من متاعب . . فهذا ضرب من دعوى النفس . . وإنما أترك ذلك للقارئ . وقيل كل شيء أضرع إلى الله — وحده — أن يحسب هذا العمل لى ذخراً عنده ، وأن يحجر — إن شاء — من دروانى بعض خطاى .

كما أدعو الله أن يرفع به كافة السليين فى مشارق الأرض ومقارها بمقدار ما له من قيمة غنية نادرة ، وبمقدار ما لصاحبه — رضى الله عنه — من قدر جليل فى تراثنا العظيم .

والواقع . . أن أعظم ما يفمى بالسعادة من دواعى هو هذا الاستقبال الذى حظى به الكتاب ، قد وصلتني رسائل عديدة من أقطار شرق ، ومن علماء أجلاء من نواحي نائية كلها تحث على السير ، وتشدى الزم ، وتلمهم الصبر على إتمام هذا العمل الشاق .

ولا أحب أن أختم كلمتى قبل أن أعتذر للقارئ عما قد يكون فى الكتاب من قصور أو نقص ، ترجع أسباب بضه لى ، وتقع بمتة على ، ويود بضه إلى الطبعة — فنحن شريكان فيه كما يرجع الكثير منها إلى التسامح . .

ولا عجب فى ذلك فالرحلة طويلة ، ودروبها متشعبة . ولكننا نمد — إذا شاء الله — وظهرت للكتاب طبعت أخرى — أن تصحانى قدر الوسع كل هذه الوجوه . وأكون

سميكا لو أشرك القراء أنفسهم معي في ذلك ؛ فبشوا إلى بملاحظهم ، فلم يمد الكتاب منذ الآن قاصراً على وحدي .

كما أعد — إن شاء الله — بتدارك ما جاء في الكتاب من عيوب الشعر التي حالت الظروف القاهرة دون تداركها .

قد كان رائدنا في هذه المرحلة من التحقيق أن يصل للثمن السوفى للناس ، ولكننا في الراحل التالية سننهض — بحول الله وقوته — بكثير من الأعمال التي تتصل بالشروح ، وبالمصطلحات ، وبالقضايا الأساسية التي نهض بها الكتاب .. فليس « لطائف الإشارات » بأقل من « الرسالة » التي حظيت باهتمام الأجيال للتأليف .

وأخيراً ، فإنى أتمنى أن أكون بإخراج هذا الكتاب قد وئيت بمض المئين الذي في عنق الإمام الجليل عبد الكريم القشيري — رضى الله عنه وأرضاه .
وقتنا الله جميعاً إلى الطير .

ذكرور إبراهيم بسيوني

أستاذ بكلية الآلسن — الأزهر — القاهرة

الفهرس

الصفحة	اسم السورة
٥	الشعراء
٢٣	النمل
٥٣	القصاص
٨٦	العنكبوت
١٠٧	الزوم
١٢٧	قهمان
١٣٨	السجدة
١٤٩	الأحزاب
١٧٥	سأ
١٩٠	فاطر
٢١١	يس
٢٢٧	الصفافات
٢٤٥	ص
٢٦٦	الزمر
٢٩٤	الزمن (خالف)
٣١٩	فصلت
٣٤١	الشورى
٣٦١	الزعراف
٣٧٩	الدخان
٣٨٨	النجاة

الصفحة	اسم السورة
٣٩٥	الأحقاب
٤٠٣	محمد (صلی اللہ علیہ وسلم)
٤١٧	الفتح
٤٣٧	الحجرات
٤٤٧	ق
٤٥٩	الذاریات
٤٧١	الطور
٤٨٠	النجم
٤٩٣	القمر
٥٠٢	الرحمن
٥١٦	الواقعة
٥٣٠	الحديد
٥٤٨	المجادلة
٥٥٦	الحشر
٥٦٩	الممتحنة
٥٧٥	الصف
٥٨١	الجمعة
٥٨٧	المنافقون
٥٩٢	التغابن
٥٩٨	الطلاق
٦٠٤	التحريم
٦١٠	النكاح
٦١٦	البقرة
٦٢٤	الحاقة
٦٢٨	المعارج
٦٣٤	نوح
٦٣٧	الحن
٦٤١	الزلزل
٦٤٧	المدثر
٦٥٤	القيامة

الصفحة	اسم السورة
٦٦٠	الإنسان
٦٧٠	المولات
٦٧٥	النبأ
٦٨١	التازعات
٦٨٧	عبث
٦٩٢	الذكوير
٦٩٦	الإفطار
٦٩٩	الطافين
٧٠٥	الاشفاق
٧٠٩	البروج
٧١٤	الطارق
٧١٧	الأعلى
٧٢٠	العاشية
٧٢٤	الجمر
٧٢٩	البلد
٧٣٢	الشمس
٧٣٥	الليل
٧٣٩	الضحى
٧٤٣	ألم نشرح
٧٤٥	الين
٧٤٧	العنق
٧٥٠	القدر
٧٥٢	لم يكن
٧٥٥	الزلزلة
٧٥٧	العاديات
٧٦٠	القارعة
٧٦٢	التكوير
٧٦٤	الهمز

الصفحة	اسم السورة
٧٦٦	الممزة
٧٦٨	القصيل
٧٧١	قريش
٧٧٣	الذليل
٧٧٥	الكولر
٧٧٧	الكافرون
٧٧٩	النصر
٧٨٠	أبا لهب
٧٨٢	الإخلاص
٧٨٥	الفلق
٧٨٧	الناس
٧٨٩	عائدة الكتاب

اتى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٣٦ / ٢٠٠٠

L.S.B.N 977 - 01 - 6623 - 5

يقول الإمام القشيري رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى:
«ملك يوم الدين»: مَلِكٌ قُلُوبِ الْعَابِدِينَ إِحْسَانَهُ فَطَمَعُوا فِي
عِطَانِهِ، وَمَلِكٌ قُلُوبِ الْمُؤَحِّدِينَ سُلْطَانَهُ فَفَتَنُوا بِبِقَائِهِ. عَرَفَ أَرْبَابَ
التَّوْحِيدِ أَنَّهُ مَالِكُهُمْ فَسَقَطَ عَنْهُمْ اخْتِيَارُهُمْ، عَلِمُوا أَنَّ الْعَبْدَ لَا
مَلِكَ لَهُ، وَمَنْ لَا مَلِكَ لَهُ لَا حُكْمَ لَهُ، وَمَنْ لَا حُكْمَ لَهُ لَا اخْتِيَارَ
لَهُ، فَلَا لَهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ إِعْرَاضٌ، وَلَا عَلَى حُكْمِهِ إِعْتِرَاضٌ، وَلَا
فِي اخْتِيَارِهِ مَعَارِضَةٌ، وَلَا تَخَالُفَةٌ تَعْرِضُ.

و «يوم الدين» يوم الجزاء والنشر، ويوم الحساب والحشر -
الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد، فمن بين مقبول يوم
الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم، ومن بين مردود بحكمه
سبحانه وتعالى لا بجرمهم.

واعلم عزيزى القارئ أن الإمام القشيري فى تفسيره للبسملة
يلجأ إلى تفسير كل بسملة تتكرر على نحو مَلِكٌ لِلنَّظَرِ، إذ هى
تختلف وتتوَع ولا تكاد تتشابه، ويزداد إعجابنا بالقشيري كلما
وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلها.
فالله، والرحمن، والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة
مثلاً، ولها دلالات فى سورة النساء، ولها دلالات خاصة فى سورة
الأنفال... وهكذا.